الأصحاح الثالث عشر

أَمَّا يَسُوعُ قَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ إِلَى الآب إِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى. فَحِينَ كَانَ الْعَشَاءُ وَقَدْ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ يَهُوذَا سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ أَنْ يُسَلِّمَهُ. يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ الآب قَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى يَدَيْهِ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَرَجَ وَإِلَى اللَّهِ يَمْضِي. قَامَ عَنِ الْعَشَاءِ وَخَلَعَ ثِيَابَهُ وَأَخَذَ مِنْشَفَةً وَاتَّزَرَ بِهَا. ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَلٍ وَابْتَدَأَ يَغْسِلُ أَرْجُلَ التّلاَمِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنْشَفَةِ الَّتِي كَانَ مُتَّزِراً بِهَا. فَجَاءَ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُس. فَقَالَ لَهُ ذَاكَ: «يَا سَيِّدُ أَنْتَ تَغْسِلُ رِجْلَيَّ!». أَجَابَ يَسُوعُ: «لَسْتَ تَعْلَمُ أَنْتَ الآنَ مَا أَنَا أَصْنَعُ وَلَكِنَّكَ سَتَفْهَمُ فِيمَا بَعْدُ». قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «لَنْ تَغْسِلَ رِجْلَيَّ أَبَداً!» أَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ لاَ أَغْسِلُكَ فَلَيْسَ لَكَ مَعِي نَصِيبٌ». قَالَ لَهُ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: «يَا سَيِّدُ لَيْسَ رِجْلَيَّ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً يَدَيَّ وَرَأْسِي». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الَّذِي قَدِ اغْتَسَلَ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلاَّ إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ بَلْ هُوَ طَاهِرٌ كُلُّهُ. وَأَنْتُمْ طَاهِرُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّكُمْ». لأَنَّهُ عَرَفَ مُسَلِّمَهُ لِذَلِكَ قَالَ: «لَسْتُمْ كُلُّكُمْ طَاهِرِينَ». فَلَمَّا كَانَ قَدْ غَسَلَ أَرْجُلَهُمْ وَأَخَذَ ثِيَابَهُ وَاتَّكَأَ أَيْضاً قَالَ لَهُمْ: «أَتَفْهَمُونَ مَا قَدْ صَنَعْتُ بِكُمْ؟. أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي مُعَلِّماً وَسَيِّداً وَحَسَناً تَقُولُونَ لأَنِّي أَنَا كَذَلِكَ. فَإِنْ كُنْتُ وَأَنَا السَّيِّدُ وَالْمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ أَرْجُلَكُمْ فَأَنْتُمْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَغْسِلَ بَعْضُكُمْ أَرْجُلَ بَعْضٍ. لأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالاً حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ وَلاَ رَسُولٌ أَعْظَمَ مِنْ مُرْسِلِهِ. إِنْ عَلِمْتُمْ هَذَا فَطُوبَاكُمْ إِنْ عَمِلْتُمُوهُ. لَسْتُ أَقُولُ عَنْ جَمِيعِكُمْ. أَنَا أَعْلَمُ الَّذِينَ اخْتَرْتُهُمْ. لَكِنْ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ: الَّذِي يَأْكُلُ مَعِي الْخُبْزَ رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَهُ. أَقُولُ لَكُمُ الآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّى مَتَى كَانَ تُؤْمِنُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: الَّذِي يَقْبَلُ مَنْ أُرْسِلُهُ يَقْبَلُنِي وَالَّذِي يَقْبَلُنِي يَقْبَلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي». لَمَّا قَالَ يَسُوعُ هَذَا اضْطَرَبَ بِالرُّوحِ وَشَهِدَ وَقَالَ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِداً مِنْكُمْ سَيُسَلِّمُنِي». فَكَانَ التّلاَمِيذُ يَنْظُرُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَهُمْ مُحْتَارُونَ فِي مَنْ قَالَ عَنْهُ. وَكَانَ مُتَّكِئاً فِي حِضْنِ يَسُوعَ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ. فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنْ يَسْأَلَ مَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ. فَاتَّكَأَ ذَاكَ عَلَى صَدْرِ يَسُوعَ وَقَالَ لَهُ: «يَا سَيِّدُ مَنْ هُوَ؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «هُوَ ذَاكَ الَّذِي أَغْمِسُ أَنَا اللُّقْمَةَ وَأُعْطِيهِ». فَغَمَسَ اللُّقْمَةَ وَأَعْطَاهَا لِيَهُوذَا سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ. فَبَعْدَ اللُّقْمَةِ دَخَلَهُ الشَّيْطَانُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «مَا أَنْتَ تَعْمَلُهُ فَاعْمَلْهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ». وَأَمَّا هَذَا فَلَمْ يَفْهَمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَّكِئِينَ لِمَاذَا كَلَّمَهُ بِهِ. لأَنَّ قَوْماً إِذْ كَانَ الصُّنْدُوقُ مَعَ يَهُوذَا ظَنُّوا أَنَّ يَسُوعَ قَالَ لَهُ: اشْتَرِ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِلْعِيدِ أَوْ أَنْ يُعْطِيَ شَيْئاً لِلْفُقَرَاءِ. فَذَاكَ لَمَّا أَخَذَ اللُّقْمَةَ خَرَجَ لِلْوَقْتِ. وَكَانَ لَيْلاً. فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ يَسُوعُ: «الآنَ تَمَجَّدَ ابْنُ الإِنْسَانِ وَتَمَجَّدَ اللَّهُ فِيهِ. إِنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ تَمَجَّدَ فِيهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُمَجِّدُهُ فِي ذَاتِهِ وَيُمَجِّدُهُ سَرِيعاً. يَا أَوْلاَدِي أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً قَلِيلاً بَعْدُ. سَتَطْلُبُونَنِي وَكَمَا قُلْتُ لِلْيَهُودِ: حَيْثُ أَذْهَبُ أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا أَقُولُ لَكُمْ أَنْتُمُ الآنَ. وَصِيَّةً جَدِيدَةً أَنَا أُعْطِيكُمْ: أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً. كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضاً بَعْضُكُمْ بَعْضاً. بِهَذَا يَعْرِفُ الْجَمِيعُ أَنَّكُمْ تَلاَمِيذِي: إِنْ كَانَ لَكُمْ حُبٌّ بَعْضاً لِبَعْضٍ». قَالَ لَهُ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: «يَا سَيِّدُ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ؟» أَجَابَهُ يَسُوعُ: «حَيْثُ أَذْهَبُ لاَ تَقْدِرُ الآنَ أَنْ تَتْبَعَنِي وَلَكِنَّكَ سَتَتْبَعُنِي أَخِيراً». قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «يَا سَيِّدُ لِمَاذَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَتْبَعَكَ الآنَ؟ إِنِّي أَضَعُ نَفْسِي عَنْكَ». أَجَابَهُ يَسُوعُ: «أَتَضَعُ نَفْسَكَ عَنِّي؟ اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: لاَ يَصِيحُ الدِّيكُ حَتَّى تُنْكِرَنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ»

الجزء الرابع: إنجيل المحبة

العشاء الأخير وأحاديث الوداع مع التلا ميذ الأخصاء

من الأصحاح الثالث عشر إلى الأصحاح السابع عشر

في هذه الأصحاحات، يرتفع القديس يوحنا في تسجيلاته إلى أعلى خصائص أسلوبه الروحي في التعبير عن المحبة، حيث لا يتخللها ما يجرح المحبة ويدميها إلا التنويه عن خيانة يهوذا، أحد المحبوبين الذي باع المحبة وذبحها.

ويمكن تقسيم ما جاء في هذه الأصحاحات إلى:

١- آخر أعمال المحبة وتاجها، وجرحها القاتل: (الأصحاح ١٣).

٢- الأحاديث الأخيرة، والمواعيد السخية: (الأصحاحات ١٤- ١٥ - ١٦).

٣- صلاة التكريس، والوجه متجه نحو السماء: (الأصحاح ١٧).

وأهم محتويات هذه الأجزاء هي:

عشاء المحبالقديس(١٣:١-٢٠)

+ «إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى»

+ قام عن العشاء، وخلع ثيابه، وابتدأ يغسل أرجل تلاميذه ...

+ فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض ...

+ ليس رسول أعظم من مرسله.

فرز الخائن: «فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا» (١٣:٢٦).

الوصية الجديدة: وصية المحبة (١٣:٣٤-٣٥)

التحذير لبطرس (١٣:٣٦-٣٨)

حديث الوداع: الذهاب والعودة . (الأصحاح ١٤).

+ «أنا أمضى لاعد لكم مكاناً ... (ثم) آتي أيضاً وآخذكم إلي».

+ «أنا هو الطريق، والحق، والحياة».

+ «ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بى».

+ «الذي رآني ، فقد رأى الآب».

+ «أنا في الآب، والآب في».

+ «إن كنتم تحبونني ، فاحفظوا وصاياي».

+ « أنا أطلب من الآب، فيعطيكم معزياً آخر، ليمكث معكم إلى الآبد».

+ «لا أترككم يتامى، إني آتي إليكم».

+ «إليه نأتي وعنده نصنع منزلاً».

+ «سلاماً أترك لكم، سلامي أعطيكم».

حديث الوداع الثاني: الوحدة العضوية مع المسيح : (الأصحاح ١٥).

+ «أنا الكرمة الحقيقية، وأبي الكرام».

+ «أنا الكرمة، وأنتم الأغصان».

+ «كما أحبني الآب، كذلك أحببتكم أنا. اثبتوا في محبتي».

+ «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضا، كما أحببتكم».

+ «أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به».

+ «إن كان العالم يبغضكم، فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم».

+ «ومتى جاء المعزى الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق الذي من عد الآب يبثق، فهو يشهد لى وتشهدون أنتم أيضاً».

حديث الوداع الثالث: الانطلاق والعودة: (الأصحاح ١٦).

+ «إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق، لا يأتيكم المعزي».

+ «ولكن إن ذهبت أرسله إليكم».

+ «ومتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق».

+ «سأراكم أيضاً (ثانية)، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم».

+ «كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم».

+ «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال بل أخبركم عن الآب علانية»

+ «الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني».

+ «تأتي ساعة تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركوني وحدي وأنا لست وحدي لأن الآب معي».

ختام أحاديث الوداع. (١٦:٣٣).

+ «كلمتكم بهذا ليكون لكم فى سلام

+ في العالم سيكون لكم ضيق

+ لكن ثقوا أنا قد غلبت العالم».

صلاة المسيح التي غيرت مجرى الدهور: (الأصحاح ١٧)

صلاة المسيح رفعت الإنسان إلى أعلى من رتبته الأولى: (١٧:٢١-٢٤)

صلاة المسيح سلمت الإنسان المفدى صك الحياة الأبدية: (١٧:٢).

صلاة المسيح فتحت معرفته وقدسته لاستيعاب طبيعة الله في ذاته: (١٧:٣ و١٧ و٢٦)

صلاة المسيح استعلنت وحدة أبوة وبنوة الله في ذاته: (١٧:٥ و١٠ و٢١).

صلاة المسيح أدخلت الإنسان الجديد في الوجود الإلهي الفائق، ليفقد أنانيته وتفتنه إلى الأبد: (١٧:٢١و٢٣)

صلاة المسيح أنعمت عليه بحب الآب، بوساطة الابن الوحيد، ليعيش فيه التبني: (١٧:٢٣-٢٦)

مكان البشاره: أورشليم للمره الاخيره

خدمة المحبة: غسل الأرجل

أ- الرب يقوم عن العشاء، ليغسل أرجل تلاميذه، لتكريسهم للخدمة، كنموذج لما ينبغي أن تكون عليه المحبة بين المرسلين، وما هوا لاتضاع، كسر الكمال للكرازة والرسالة (١٣:١-٢٠)

ب- الرب يكف مسبقاً عن خيانة يهوذا. ويعطي يوحنا علامة خاصة ليتعرف عليه (١٣:٢١-٣٣)

ت- الوصية الجديدة: المحبة (١٣:٣٤-٣٥).

ث- الرب يحذر بطرس من تجربة الانكار التي سيسقط فيها (١٣:٣٦-٣٨).

بذل المحبة (١٣: ١-٢٠)

في صميم سر العشاء، ومن جوهر لاهوت الإفخارستيا، يقدم إنجيل يوحنا سرده التاريخي الفريد لطقس «غسل الأرجل» كنموذج حي لكرازة المحبة، في جو روحي مشبع بالعواطف. والرواية تمتاز بالدقة الحركية والحيوية الناطقة، وتسودها شفافية المسيح الحساسة والرقيقة والخجولة في إشارته نحو التلميذ الخائن الذي اندس وسط الأطهار. كما يظهر القديس بطرس، بملامحه المتدفقة حيوية، سواء في اندفاعه أو في إحجامه .

ورواية غسل الأرجل تنقسم إلى قسمين: قسم يسرد عملية غسل الأرجل بملابساتها (٢-١١)، والقسم الآخر يسرد الدرس المتحصل منها (١٢-٢٠)

١:١٣ أَمَّا يَسُوعُ قَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ إِلَى الآبِ إِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى.

قبل الفصح: الحديث عن زمن العشاء الأخير الذي حدده إنجيل يوحنا قبل الفصح أي قبل ١٤ نيسان، وهو يختلف في ذلك عن الثلاثة الأناجيل الأخرى التي حددته بوقت الفصح نفسه، أي أن عشاء الفصح كان في ١٤ نيسان.

ولكن سواء إنجيل يوحنا أو الأناجيل الثلاثة الأخرى فكل منها كان يجتهد لإثبات أن الفصح اليهودي قد أكمل والى الأبد سواء بهذا العشاء الأخيرا لذي ذبح فيه المسيح نفسه بالنية، أو بذبح المسيح فعلاً على الصليب على أيدي اليهود، عوض خروف الفصح.

ومن جهة القديس يوحنا، فقد أكد أن الفصح الحقيقي، الذي كانت كل أعياد الفصح السابقة رمزا له، قد أُكمل والى الأبد بذبح «حمل الله» يسوع المسيح، على الصليب لرفع خطايا العالم؛ وذلك في نفس ميعاد ذبح خروف الفصح في ١٤ نيسان، ليصح المسيح فصح الدهور كلها: «الخروف القائم في السماء كأنه مذبوح». وهذه الصورة الفصحية الدائمة للمسيح في السماء، باعتباره خروف الفصح الأبدي، ملأت كل رؤيا القديس يوحنا حيث ظهر المسيح بصورته الفصحية هذه، كخروف الفصح، ما يقرب من خمس عشرة مرة!!

وحتى الكنيسة المعتبرة جسده، ظهرت في الرؤيا كامرأة «الخروف» التي جُبلت من ضلعه، بل «من لحمه وعظامه». بل من دم صليبه، ورآها القديس يوحنا متهيئة ومزينة بصلوات وتبررات القديسين، وأنها وشيكة الظهور معه: «لنفرح ونتهلل ونعطه المجد، لأن عرس الخروف (استعلان الملكوت الأخير) قد جاء، وامرأته هيأت نفسها، وأعطيت أن تلبس بتزا (كتان أبيض وهو لباس خدمة الكهنوت) نقيا بهيا، لأن البز هو تبررات القديسين.» (رؤ١٩: ٧-٨)

والعجيب جداً أن الكنيسة المجيدة المحبوبة والمعشوقة لدى عريسها «الخروف» الفصحي، الذي ذُبح من أجلها فامشتراها بدمه وولدها من روحه يوم ١٤ نيسان، هي نفسها التي رأها القديس يوحنا في رؤياه بصورة أورشليم الجديدة عينها، مدينة الملك العظيم، وطن القديسين، بأسوارها الكريمة وأبوابها اللؤلؤية: «تُسمين أسوارك خلاصاً وأبوابك تسبيحاً» (إش٦٠: ١٨)؛ «ثم جاء إلي واحد من السبعة الملائكة... وتكلم معي قائلاً: هلم فأريك العروس امرأة الخروف. وذهب بي بالروح إلى جبل عظيم عال، وأراني المدينة العظيمة، أورشليم المقدسة، نازلة من السماء من عند الله. (لها) مجد الله... ولم أر فيها هيكلاً، لأن الرب... والخروف هيكلها... والخروف سراجها... ولن يدخلها شيء دنس، ولا ما يصنع رجساً وكذباً، إلا المكتوبين في سفر حياة الخروف !!» (رؤ٢١: ٩-٢٧)

لقد تجلى المسيح في سفر الرؤيا، ليأخذ أقصى صورة للفداء والخلاص الذي أكمله على الصليب في ١٤ نيسان، أمام عيني التلميذ المحبوب، ليظهر في سفر الرؤيا بشكل خروف الفصح، كأعمق تعبير عن بذل المحبة الدائم والخالد والأبدي، وكصفة ثابتة أزلية للمسيح «الفادي».

«وهو عالم أن ساعته قد جاءت، لينتقل من هذا العالم إلى الآب»: القديس يوحنا يتكلم عن «علم» المسيح، ليس كأنه وليد الظروف والحوادث، بل هو العلم الفائق على الزمن وحوادثه، فهو العلم الكلي الذي يرى ويفحص كل الدهور، وما وراء الدهور، كل ما للانسان، وكل ما ما لله بآن واحد. لذلك تأتي الكلمة كحال دائم «هو عالم» بصورة العلم المطلق. وأمام الحوادث القادمة، يقف علم المسيح المسبق، لا كمحرك للحوادث، بل كمصور للآلام القادمة في نفسه ليعطيها مزيداً من الواقعية، وقد استخدم المسيح علمه بآلامه، المزمع أن تكون، ليستعلن لاهوته، ويكشف عن صدق حبه لأخصائه، الذي هو مزمع أن يتركهم في العالم ليمضي هو إلى الآب. ثم طرح آلامه المزمعة وراء ظهره، ليتفرغ لتعزية أحبائه ويمارس عمل محبته.

«ساعته قد جاءت»: قبل أن «تأتي ساعته» لم يكن لأحد عليه سلطان. وطالما رفع أعداؤه الأيدي بالحجارة، ولكن أن يكملوا مشيئتهم فهذا مستحيل، ولكن الآن «أتت الساعة» فانفك قيد سلطانهم الأثيم، وانطلقت حريتهم الشريرة ليصنعوا كل ما شاءوا: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة» (لو٢٢:٥٣)

وهكذا يبدو مجيء الساعة وكأنها حتمية، ولكن الحتمية الزمنية لا تخضع إلا لمشيئة الله: «لأن الرب يصنع أمراً مقضياً به على الأرض» (رو٩:٢٨). وقضاء الله وحتمياته ذو غايات وأهداف. فحتمية الله لا بد وأن تنشىء حتمية، فحتمية الساعة (الموت) كان وراءها بالضرورة حتمية القيامة: «لأنهم لم يكونوا، بعد، يعرفون الكتاب أنه ينبغي أن يقوم مم الأصوات.» (يو٢٠:٩)

والترجمة العربية «ينبغي» يلزم هنا أن تكون «حتماً». فالقيامة بالنسبة للمسيح المسجى في القبر ليست هي أمراً لائقاً وحسب، بل هي أمر حتمي بأقصى ما تكون الحتمية.

في إنجيل القديس لوقا نجد المسيح يسير نحو هذه «الساعة» متجهاً إليها بكل مشيئته: «وحين تمت الأيام لارتفاعه، ثبت وجهه لينطلق إلى أورشليم» (لو٩:٥١). فهو لم يكن عالماً بها وحسب، بل وكان يريدها، بل جاء من أجلها: «لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة» (يو١٢:٢٧). كان المسيح يتجاوز مرارتها بسهولة لأنه كان يتطلع إلى غايتها السعيدة: «لينتقل إلى الآب»، «الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي.» (عب١٢:٢)

لم يقلق المسيح من مجيء «الساعة»، فقد غطى حبه لأخصائه كل مرارة ما قبلها. وحبه للآب غطى ما بعدها، أما الساعة نفسها فكانت فرصته العظمى ليكشف حباً: «ليس لأحد حب أعظم من هذا» (يو١٥:١٣)، حيث سيرى العالم سلطانه الفريد، كيف سيضع نفسه من أجل من أحبهم إلى المنتهى، وكيف سيأخذها مستهيناً بالموت وظلام القبر وظلم القاتلين. وحينئذ ستصبح «الساعة» بكل آلامها سجل مجد في السماء وسجل شرف في الأرض، يتوق ملوك ورؤساء وأنبياء كثيرون لو يفوزوا بوضع إمضائهم على صفحاته، شهوداً أو شهداء، ليحسبوا من أبناء هذه «الساعة».

فالأن، لو نظرنا إلى هذه «الساعة» وما تحمله من معان ومفاعيل وعواطفت مزدحمة، لوجدنا أنها لحظة القمة في حياة المسيح، فهي ساعة العودة إلى الآب، إلى الحضن الأبدي، حيث المجد القائم من قبل إنشاء العالم، وهي

ساعة ختام مسيرة الحب بين الرفاق، الحب إلى المنتهى أو الذى بلا نهاية، وهي ساعة الضربة القاضية لدحر سلطان الموت والخطية لخلاص الإنسان، الساعة التي رأتها كل الأجيال السالفة بالرؤى والأحلام، فنظروها من بعيد وحيوها (عب١١:١٣). وقد سلح الآب ابنه بكل سلطانه الخاص. «قد دفع كل شيء إلى يديه» (يو١٣:٣)، حتى اسمه الخاص، ليجوز هذه الساعة ضد كل قوى الأعداء المتضافرة، ليخرج منها غالباً لحسابنا، ولكي يغلب دائماً: «وقد أعطي إكليلاً، وخرج غالباً ولكي يغلب» (رؤ٦:٢)~ فهي ساعة النصرة والمجد للإنسان، كل إنسان.

«إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى»: القديس يوحنا هو المتكلم، وهو خير من يتكلم عن حب الرب لخاصته الذين اختارهم من العالم. ولكن الحب هنا يُستعلن بروح يوحنا وروح المسيح على مستوى «المنتهى»، أى نهاية قدرة المسيح على العطاء، عطاء الذات، وقدرة الأحبة على الأخذ. فهو حب الشركة، شركة الروح مع الروح، وهي الشركة التي استعلنها بل استكملها على العشاء، فيوحنا يتكلم الآن بعد أن أدرك وقاس وذاق طعم الدم في كأس الخلاص، وقوة الجسد المُقام في الخبزة المكسورة في تلك الليلة الخالدة، التي فيها أذاب حبه، كل حبه، مع روحه في كأس!!

+ «لأن حبك أطيب من الخمر... نبتهج ونفرح بك، نذكر حبك أكثر من الخمر، بالحق يحبونك» (نش١:٢-٤)
لقد اختفى طعم الخمر وبقي حبه مع روحه، فكيف لا يقول يوحنا «أحبهم إلى المنتهى»؟

+ «اشربوا واسكروا أيها الأحباء.» (نش٥:١)

٢:١٣ فَحِينَ كَانَ الْعَشَاءُ وَقَدْ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ يَهُوذَا سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ أَنْ يُسَلِّمَهُ.

لا يستطيع الإنسان أن يحيط بهذا المنظر وما احتواه، كيف جمع أقدس حب مع أشنع خيانة وعلى مائدة واحدة، حتى في أقدس ليلة من ليالي الحياة على الأرض، والله قائم على مائدة حبه، ممثلاً بابنه وسط آخير مختاريه، يسقيهم حبه، يسقيهم من روحه، ويطعمهم من لحمه، كيف يندس هكذا الشيطان، بعد أن وجد له مسكناً في إنسان؟

أي قلب هذا الذي ليهوذا ابن سمعان الإسخريوطي؟ هل قد من حديد بارد، حتى يتقمصه هكذا الشيطان المارد؟ ألم يأخذ نصيبه الكامل من الحب المنسكب من قلب الله كبقية المختارين، كيف بدده، بل كيف مزقه وداسه برجليه، والتفت ليفتك بالقلب الذي أحبه؟ ولكن هذه هي الخطية، وهذا هو الإنسان حينما يغويه الشيطان! «لأن محبة المال أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان، وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة.» (اتي٦:١٠)

إنهما زيارتان مشئومتان استضاف فيهما يهوذا صديقه المُهلك، الاولى ألقى في قلبه المشورة، فقبلها، وهان عليه أن يسلم من أحبه؛ والثانية جاءه ساكناً كصاحب بيت لينفذ معه الخطة.

لهفي على قلب يوحنا الملتهب حباً ورقة، كيف استطاع وهو يتأمل يهوذا أن يحتمل جرأته وفجوره وهو يجلس بجوار الرب يصطنع التلمذة ويتصنع المودة ة بلسانه الألين من الزيت وهو نصال؟ أي دموع كتمها هذا الحبيب؟ وأية غصة أصابت حلقه فمنعته من الصراخ؟

ولكن إن كان مثل هذا قد جرى ليوحنا، فماذا كان يجري في قلب المخلص؟ وهو لا يرى فقط النصال الذي يخفيه يهوذا، بل كان يحسه في جنبه بل في قلبه! ولكن العجيب في الرب، وهو صانع العجائب كلها، أن قلبه لم يهتز بالبغضة إزاء يهوذا ولا قيد شعرة، ألا يشرق الرب شمسه على الابرار والأشترار؟ بل ظل يلاطفه ويغمس اللقمة ويعطيها له بيده كما يحنو الأب على صغيره بما لم يصنعه مع الآخرين، وحتى حينما جاء بقبلة التسليم بادره الرب

بنداء الصداقة: «يا صاحب لماذا جئت؟» (مت٢٦: ٥٠). وهذه هي قدرة الرب التي لا يبلغها عقل بشر، كيف يعزل، في حبه، الخاطىء عن خطيئته. فمعركته الاولى والأخيرة هي مع الخطيئة، وليس مع الخاطىء، ولكنه نعى يوم مولده، فتمنا لو لم يولد، لأنه علم كيف سيخنق نفسه رافضاً الحياة التي أخذ!!

٣:١٣-٤ يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ الآبَ قَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى يَدَيْهِ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَرَجَ وَإِلَى اللَّهِ يَمْضِي. قَامَ عَنِ الْعَشَاءِ وَخَلَعَ ثِيَابَهُ وَأَخَذَ مِنْشَفَةً وَاتَّزَرَ بِهَا.

«وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه»: القديس يوحنا هو المتكلم، وكأنه بلسان المسيح، يمهد لصورة العبد الخديم التي استعارها لنفسه منحنياً على أرجل تلاميذه. فيوحنا يحاول أن يرفع ذهن القارىء ليدرك من أي مركز علوي يتنازل المسيح وهو قابض بيديه عل أعنة كل ما في السمرات والأرض من سلطان، وهو يستخدم هاتين اليدين في غسل أرجل تلاميذه. ويشدد يوحنا، هنا، على كلمة «يديه» لأنها مركز الأعجوبة الإلهية، فهي وهي قابضة على مصائر العالمين استطاعت أن تتعامل مع وسخ الأقدام بآن واحد.

إبهتى أيتها السموات وافرحى يا أرض الإنسان! فالذى جاء من العلاء ليغسل قذر بنى آدم، ليس فقط إلى مواضع القلب الداخلية بل إلى وسخ السيرة والمسيرة.

ويجىء سفر العبرانيين ليكمل هذه العجيبة، فبعد أن نزل وتنازل هكذا، يقول سفر العبرانيين: «بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا، جلس فى يمين العظمة فى الأعالى، صائراً أعظم من الملائكة ....» (عب١:٣-٤)

«وأنه من عند الله خرج، والى الله يمضي»: ولكنه كما لم يخرج ببهاء مجده، إذ استلزم منه التجسد أن يخلي ذاته من عظمة لاهوته فتسربل باتضاع قامة الأرضيين، هكذا وفي طريق العودة استكثر على نفسه أن يعود ببهاء البشريين، بل ذهب وجروحه في يديه وجنبه مفتوح، حتى إذا تعذر علينا أن نتمثل بإخلاء الالوهية في نزوله، لا يتعذر علينا أن نتمثل باتضاع بشريته في صعوده. ومن ذا الذي يتأمل في إخلاء ألوهيته ولا يبهت؟ إنها معجزة الله!! ولكن أن نتأمل في إخلاء حتى بشريته فهذا أمر يذهل؛ إنها معجزة ابن الإنسان!!

ولكن إن كان قانون الخروج من عد الله يخص ابن الله وحده وهي معجزته، فالمضي إلى الله قد صار قانون الإنسان وهي معجزتنا. فبالأولى: «ظهر الله في الجسد» (١تى٣: ٤) وهو أمر يفوق طاقة تصورنا؛ ولكن بالثانية «نُظهر نحن معه» (راجع كو٣: ٤)، وهي بالإيمان في حدود رؤيتنا .

وهكذا، بحسب تدبير نعمة الله وحكمته الفائقة بالإخلاء، اقتحم ابن الله الطريق إلينا، خرج من عد الله وحيداً فريداً ومه تهليل السمائيين، ليعود إليه باتضاع العبيد محملا بأبناء كثيرين، مفتتحا الطريق وسط تهليل الأرضيين والسمائيين حتى إلى قلب الله!! وصادقة هي الكلمة التي قالها: «أنا هو الطريق» (يو١٤: ٦)، إن في مجيئه إلينا من عند الله ما يساير ذهابه بنا إليه!!

«والى الله يمضي»: هنا بيت القصيد، فبسبب هذا المضي إلى الله، وهو عالم أنه سيترك تلاميذه لخدمة هذا طولها وهذا عرضها: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم» (مت٢٨: ١٩)، رتب المسيح إعداد تلاميذه لهذه الخدمة بإجراء تقديسي يحمل الرمز والحقيقة معاً، وهو غسل أرجلهم بيديه لتقديسها وإعدادها لمسيرة التبشير عبر جيع الأمم، ثم دعمهم بقوله: «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل من أرسله، يقبلني ... » (يو١٣: ٢٠)

وكأني بالرسل المبشرين الأطهار، كلما أعياهم المشي وكلت أقدامهم عن السير، جلسوا يتحسسون لمسات أصابع

المسيح التي مرت على أقدامهم، فيجددون قوة، ثم يرفعون أعينهم إلى فوق فيجدونه ناظراً عليهم!
وليس عبثاً، أيها القارىء العزيز، أن نجد في الإنجيل هاتين الآيتين ملتصقتين معاً: «يسوع وهو عالم ... أنه إلى الله يمضي، قام عن العشاء وخلع ثيابه ...»»
وغسل الأرجل، الذي أجراه المسيح، قصره على تلاميذه من جهة الإرسالية لتبشير الأمم «أنتم الذين ثبتوا معي فى تجاربي» (لو٢٢:٢٨). لذلك لم يجر بعد ذلك في الكنيسة إلم من وجهة اتضاع المحبة، وتذكاراً سنوياً لخدمة غسل أرجل الرسل.
«قام عن العشاء»: إذن، لم يكن غسل الأرجل استعداداً للعشاء كإجراء يستلزمه سر الإفخارستيا، بل هو إجراء قائم بذاته، فهو مواز لقوة العشاء وملتحم به، لم يصنعه المسيح قبل العشاء ولا بعد العشاء. فبعد غسل الأرجل، جلسوا مرة أخرى وأكملوا العشاء. ومن شرح الرب لإجراء غسل الأرجل ومن ملابسات امتناع بطرس في البداية، نفهم أنه كما كان للعشاء، كشركة مع الرب، فرصة لتوزيع الأنصبة في ملكوت الله، هكذا فإن لقوة غسل الأرجل، كشركة مع الرب، فرصة لنوال ذات النصيب: «إن كنت لا أغسلك، فليس لك معي نصيب.» (يو١٣:٨)
إذن، فغسل الأرجل قد صار سراً ملتحماً بسر الإفخارستيا. فإن كان سر الإفخارستيا يقوم على سر بذل الجسد والدم على الصليب، أي هو شركة في موت الرب وقيامته، فسر غسل الأرجل يقوم على سر انحناء الأكبر للأصغر بشبه العبد لسيده، فهو سر «أخذ شكل العبد» (راجع في٢:٧)، أحد أسرار المسيح الجوهرية، الأول سرائري يُجرى بالطقس، حيث يصير التحولل من خبز وخمر إلى جسد ودم؛ والثاني سري يجرى بخلع الكرامة، وبالائتزار بالاتضاع، بشبه المسيح. الأول صورته عشاء، وجوهره شركة مع المسيح في موته وقيامته؛ والثاني صورته غسل أرجل، وجوهره شركة مع قامة بر المسيح في اتضاع الألوهية؛ حيث يأخذ كل من الإفخارستيا وغسل الأرجل كلاهما صورة «السر» وقوته، من منطلق لاهوت المسيح المتحد بناسوته، فكلا السرين إلهي وبشري بآن واحد.
لذلك، فاتضاع المسيح لا يُحسب عملاً بشريا مجرداً، بل هو عمل إلهي في جوهره، بشري في مظهره، خلاصى المفعول والهدف. لذلك نسمع المسيح يقول للمعمدان، الذي جفل وارتعب أن يضع يده على رأس المسيح لتكميل العماد: «اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر» (مت٣:١٥)» بر ماذا؟ بر الاتضاع!! أما المعمدان فيكمل بر الطاعة لصوت الله؛ وأما المسيح فليكمل بر الاتضاع الإلهي ومسحة المعمودية معاً، كعمل يهيىء لسر الصليب، وكما اقترنت المعمودية ببر الاتضاع توطئة لسر الصليب، هكذا اقترنت الافخارستيا أيضاً في سري العشاء وغسل الأرجل، لأنهما الصليب بعينه. فاتضاع المسيح الخلاصي كان هو كل حياة المسيح الذي تُوج بالصليب.
«وخلع ثيابه، وأخذ منشفة، واتزر بها»: الثياب هنا هي «ثياب العشاء»، وهي أفخر ما يلبس الداعي أو المدعو لحفل العشاء الفصحي؛ وهي غالباً ما تكون مخصصة على مستوى كرامة الداعي والمدعوين. ولا يغيب عن بالنا أن المسيح عالم بأنه العشاء الأخير، ومن رواية الصليب ندرك أنه كان لباساً خاصاً جداً تعارك عليه جنود الرومان، وأخيراً اقترعوا عليه.
ونقرأ في المثل الذي وصفه المسيح عن حفل عشاء العرس: «فلما دخل الملك لينظر المتكئين، رأى هناك إنساناً لم يكن لابساً لباس العرس. فقال له: يا صاحب، كيف دخلت إلى هنا، وليس عليك لباس العرس.» (مت٢٢:١١-١٢)
من هذا نستشف قيمة الثياب التي يرتديها الإنسان لحضور حفل عشاء. فخلع المسيح لثيابه، أي ليس فقط الثوب المطرز غالباً والمفتوح من أمام، بل وما تحته لأن الكلمة اليونانية لم تأت بالمفرد لتخصيص «الروب» الخارجي

فقط، بل جاءت بالجمع.

وهذا الإجراء، أي خلع الثياب، يُحتسب خارجاً عن اللياقة بالنسبة لكرامة أي إنسان وسط جماعة، لأنه سيظهر بالملابس الداخلية فقط، هذا الأمر لا يدركه علماء الكتاب الغربيون، فهذا الخلع هو من شأن الخدم والعبيد: أن يقف العبد بالقميص واللباس الداخلي يغسل أرجل أسياده! ولكن المسيح قصد ذلك قصداً ليتراءى أمامهم كعبد وبصورة لا تُنسى. كان يمكن للسيح أن يغسل أرجل تلاميذه، دون أن يخلع ثيابه، ولكه أصر على أن «يأخذ شكل العبد» (في٢:٧)، لأنها في عرف اللاهوت هي «درجة» دون درجة «شكل الإنسان».

ومعروف رسمياً لدى قوانين العصور الأولى، وفي صميم القانون الروماني، أن «العبد» فاقد لحقوقه الإنسانية، يُباع، ويُشترى، ويُرتهن، ويُعاقب، ويُقتل بيد صاحبه أو سيده، دون مؤاخذة.

والمسيح في تجسده، «أخذ شكل العبد» لا اتضاعاً فحسب، بل ونزولاً إلى الدرجة الحقيقية التي نزل إليها الإنسان بالخطية. فالإنسان لم يعد حراً أمام الله، أو حتى أمام الشيطان، وبالأكثر أمام الخطية. فقد استُعبد الإنسان فعلاً تحت سلطان الخطيئة القاتل وتحت سيادة الشيطان المستبد المهلك، وهذا هو واقع طبيعة الإنسان التي نزل إليها المسيح. فالمسيح لما تراءى أمام تلاميذه خلوا من ثياب كرامة الإنسان، فهو كان على حقيقة ما نزل إليه وليس مجرد تراء. ولم يكن مجرد «شكل العبد» بل وظيفته!! وهي هي الوظيفة التي سيرتفع فيها وبها إلى قمة المجد، إلى ما فوق شكل الانسان وطبيعته، حيث نستدعى نحن لكي نتغير عن «شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده» (في٣:٢١)» أي من عبودية الخطية إلى حرية مجد أولاد الله.

ولا ننسى أننا على مائدة الفصح، والفصح الأول في القديم هو فصح مصر، فصح الخروج من عبودية فرعون، حيث كان كل من وقف حوله ليتناول منه كان عبدا. وكان من شأن هذا الفصح الأول، أو من أعمق أسراره أنه أكلة التحرير، وطعام الفكاك والقوة، التي عبرت بهم أهوال الخروج وعبور البحر والبرية والتيه أربعين سنة، حتى أوصلتهم أرض الوعد والميعاد. ودمه، أي دم الخروف، بقدر ما كان كفارة للعبيد وأماناً لهم وسلاماً، كان رعبة على المستعبدين وهلاكاً للمستبدين.

«وأخذ منشفة، واتزر بها»:

والمسيح هنا، أمام الفصح، يعود بالبشرية في نفسه، ممثلاً للبشرية كلها، إلى وضعها الحقيقي كعبيد مستعبدين، وليعود بذهن التلاميذ إلى حال ابائهم المبيعين عبيدا تحت السخرة. فإلى تحت الصفر، هكذا نزل المسيح، حتى لا يغيب عبد واحد عن التحرير وحرية الخلاص.

«وأخذ منشفة، واتزر بها»: هذا طقس العبيد المتضعين، بحسب قول العلامة اليهودي المتنصر إدرزهيم، وتأتي كلمة «اتزر» باليونانية (   )، كما وردت في موضع آخر عن بطرس حينما كان عرياناً وعلم أنه الرب: «فقال ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه لبطرس. هو الرب. فلما سمع سمعان بطرس أنه الرب، اتزو بثوبه، لأنه كان عرياناً وألقى نفسه في البحر.» (يو٢١:٧)

وبذلك يظهر لنا أن كلمة «اتزر بالمنشفة» تفيه معنى ربط المنشفة حول الوسط، على أن يكون جزء كبير منها حراً للتنشيف به، وهذا هو السائد في طقس غسل الأرجل يوم خميس العهد في الكنيسة القبطية.

١٣:٥ ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَلٍ وَابْتَدَأَ يَغْسِلُ أَرْجُلَ التَّلاَمِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنْشَفَةِ الَّتِي كَانَ مُتَّزِراً بِهَا.

واضح أن الرب قام بعملية غسل الأرجل بكل جزئياتها، وكان القديس يوحنا دقيق الملاحظة للغاية في تسجيل

الحركات وكأنها حية ناطقة. فالرب هنا أمسك بالإبريق الذي به الماء، وصب الماء في «المغسل» الذي يجيء في الترجمة القبطية «لقان»، وابتدأ يغسل أرجل تلاميذه واحداً بعد واحد.

المنظر هنا يفوق قدرة أي إنسان أن يمسك بطرفيه، فهذا هو ابن الله الإله المنحدر من المجد الأسنى، من أعلى السموات، منحنياً على أرجل ملوثة تملأها الوسخ والتراب، منشغلاً في غسلها. ولكن، أليس هذا هو بمقتضى الطبيعة التي نزل إليها: أخذ شكل العبد؟ ثم أليس هذا هو عمل المسيح وصميم رسالته، أن يستعلن ما هو عمل المحبة الإلهية في أقصى حدودها؟

هنا يستعلن المسيح حدود محبة الله وموضوع انشغالها ومسرتها. ماذا؟ غسل رجل الإنسان! إلى هذا الحد بلغ المسيح في استجلاء «المنتهى»، ألم يقل أنه أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى «المنتهى»؟ نعم هذا «منتهى اتضاع المحبة» وهل بعد ذلك يمكن أن يكون شيء؟ صعب على الإنسان أن يغسل إنساناً، وعسير غاية العسران يغسل رجلي خادمه، ومستحيل أن يغسل رجلي عبد له. نعم، هذه هي طبيعة الإنسان، لا يستطيع أن ينزل دون ذاته، ولكن الله ليس كذلك!! اسمعه وهو يقول في سفر حزقيال النبي، مخاطباً أورشليم، أو بالحري الشعب الذي لوثته الخطية، والمزمع أن يلد منه الكنيسة: «فحممتك بالماء، وغسلت عنك دماءك، ومسحتك بالزيت.» (حز١٦:٩)

وهكذا جاء المسيح ليتمم وعد الله. لهذا، فعمل المسيح يُحسب عمل الألوهية وفي صميم الفداء لميلاد الكنيسة.

١٣:٦-٧ فَجَاءَ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ. فَقَالَ لَهُ ذَاكَ: «يَا سَيِّدُ أَنْتَ تَغْسِلُ رِجْلَيَّ!». أَجَابَ يَسُوعُ: «لَسْتَ تَعْلَمُ أَنْتَ الآنَ مَا أَنَا أَصْنَعُ وَلَكِنَّكَ سَتَفْهَمُ فِيمَا بَعْدُ».

لا نعلم إن كان الرب قد غسل أرجل تلاميذه حسب ترتيبهم في الجلوس على المائدة، وإن كان القديس يوحنا ذهبي الفم يرى أنه ابتدأ بيهوذا، الذي لم يمانع. أما القديس أغسطينوس فيرى أن الرب ابتدأ بالقديس بطرس الذي أبدى احتجاجه بانفعال واستنكار لأنه نظر إلى الاجراء وكأنه امتهان للسيد والمعلم أن يغسل رجلي تلميذ. ومن جهة أخرى لم ير في عمل المسيح سوى مجرد اغتسال، لذلك أحجم عن أن يمد رجليه.

ورد المسيح هنا هام للغاية، لأنه يكشف أبعاداً عميقة لمفهوم غسل الأرجل، ربما تكون تائهة حتى الآن: «لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع، ولكنك ستفهم فيما بعد»، وهو نفس ما حدث في تطهير الهيكل: «فلما قام من الأموات تذكر تلاميذه أنه قال هذا، فآمنوا بالكتاب، والكلام الذي قاله يسوع» (يو١:٢١). أي أن الأمر يتعدى مجرد غسل أرجل بالنسبة للتلاميذ، أو مجرد اتضاع من جهة الرب، ولكن يتعدى إلى شيء؟؟ ما هو؟؟

١٣:٨ قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «لَنْ تَغْسِلَ رِجْلَيَّ أَبَداً!» أَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ لاَ أَغْسِلُكَ فَلَيْسَ لَكَ مَعِي نَصِيبٌ».

إزدياد تصميم بطرس هنا على الرفض القاطع والأبدي قائم على جهل مطبق بأهداف المسيح العامة، وعدم فهم المعيار السري لغسل الأرجل بصورة خاصة، مما جعل المسيح يبوح قليلاً بالسر، موضحاً مدى الخطورة في التسرع برفض غسل رجليه، فهو يعني الحرمان من نصيبه مع الرب !!

وهنا يبدأ مفهوم غسل الأرجل يتجلى نوعاً ما. فهو، من جهة بطرس، ليس عمل غسل وحسب، بل هو عمل تأهيلي لنوال نصيب مع الرب؛ أما من جهة المسيح، فهو مهمة سماوية تتعلق بصميم خدمة الخلاص العام، كاختصاص

هو مكلف من الآب بأدائه.

ولكن يتعذر على بطرس الآن فهم كنه فاعليته، طالما المسيح واقف أمامه يخدم كعبد، وبطرس لم يأخذ بعد قوة من الأعالى لبدء إرساليته وفهم رسالته، ولكن بعد ما قام المسيح من الأموات واستعلن لاهوته ونفخ المسيح في وجههم الروح القدس قائلاً: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا» (يو ٢٠:٢١)، وكلفهم بخدمة البشارة، أدرك بطرس، وبطرس بالذات، مع التلاميذ أنهم نالوا بغسل أرجلهم تقديساً مُسبقاً بيد الرب الإله إعداداً وتجهيزاً لبشارة الإنجيل.

إسمع بولس الرسول وهو يعبر عن ذلك: «حاذين أرجلكم باستعداد إنجيل السلام» أي لابسين في أرجلكم قوة ونعمة استعداد البشارة بإنجيل السلام

هنا تظهر الصلة الجوهرية بين الإفخارستيا (العشاء السري) وبين غسل أرجل التلاميذ بيد المسيح. وهذا يبدو واضحاً وأكيداً من قول القديس بولس (اكو ١١:٢٦) الذي أدخلته الكنيسة في صميم ليتورجيتها في الإفخارستيا: «لأن كل مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس تبشرون بموتي وتعترفون بقيامتي وتذكروني إلى أن أجيء» (القداس الباسيلي).

فالتقديس الذي ناله التلاميذ بيد المسيح في غسل الأرجل، هو لحفظ أرجلهم في طريق السلام للبشارة. فالإنجيل صار نصيب الكنيسة كلها للبشارة الدائمة، تجدده وتقويه، وتدفعه قوة التناول من الجسد والدم المتواترة والمتجددة: «كل مرة».

والذي أخذه المسيح من يد الله والملائكة، سلمه بيده وبالروح القدس: «لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظونك. وأنهم على أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك.» (لو ٤:١٠-١١)

ومعروف في أدب الإنجيل الكرازي أن الله هو الذي يتولى هداية أقدام المبشرين بالإنجيل: «ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت، لكى يهدي اقدامنا في طريق السلام» (لو ١:٧٩). وهكذا تبدو آقدام المبشرين وكأنها ذات امتياز وكرامة وقداسة وبركة، وهي تحتاج فعلاً الى تقديس خاص: «وكيف يكرزون إن لم يرسلوا، كما هو مكتوب: ما أجمل أقدام المبشرين بالسلام المبشرين بالخيرات» (رو ١٠:١٥)

والآن واضح معنى قول الرب لبطرس: «إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب». فما هو النصيب؟

النصيب هنا يعني جزءاً من الشركة الخاصة، فهي لا تعني ميراث التبني العام لله الآب الذي هو بغسيل المعمودية ومسح الدم، ولكن نصيباً شخصياً مع المسيح، وهي تنطبق على قول الرب انطباقاً أكيداً: «لأن من هو أكبر، الذي يتكىء أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكىء؟ ولكني أنا بينكم كالذي يخدم (غسل الأرجل). أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي. وأنا أجعل لكم، كما جعل لي أبي، ملكوتاً، لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي، وتجلسوا على كراسي تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر» (لو ٢٢:٢٧-٣٠)

أي أن تقديس أرجل التلاميذ لاستعداد التبشير بإنجيل السلام، سيعطيهم حق نوال أنصبة في الدهر الآتي الخاصة جداً مع المسيح، وشركة في دينونة الكنيسة بصورتها القديمة والجديدة، والمعبر عنها بالأسباط الاثني عشر.

١٣: ٩-١١ قَالَ لَهُ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: «يَا سَيِّدُ لَيْسَ رِجْلَيَّ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً يَدَيَّ وَرَأْسِي». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الَّذِي قَدِ اغْتَسَلَ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلاَّ إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ[1] بَلْ هُوَ طَاهِرٌ كُلُّهُ. وَأَنْتُمْ طَاهِرُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّكُمْ». لأَنَّهُ عَرَفَ مُسَلِّمَهُ لِذَلِكَ قَالَ: «لَسْتُمْ كُلُّكُمْ طَاهِرِينَ».

هنا وضح أن غسل الأرجل لا يمت إلى المعمودية. وماذا يحتاجه الطاهر بعد أن يتقدس بالمعمودية ومسحة الروح القدس معها؟ إلا إل التقديس الخاص للخدمة الخاصة، أي البشارة.

هنا إلى الآن لم يلمح بطرس بعد ما هو القصد من غسل رجليه؟ إذ اعتبره امتيازاً بلا ثمن، ربما يزداد لو ازداد جسمه غسيلاً، يداه ورأسه.

هذه هي عقلية اليهود التطهيرية، ولكن، وبعد أن أدركنا معنى غسل الرجلين كإعداد وتقديس لخدمة البشارة الرسولية الباهظة الثمن، والتي أورثتهم فيما بعد السجون والمقاصل وقبور الشهداء، نستطيع الآن أن نفهم قول المسيح تماماً أنهم كانوا أطهاراً بحميم المعمودية والروح، ولم يكن يعوزهم إلا تقديس الأرجل فقط، لإزالة وسخ طرق العالم، بغسيل النعمة على يدي المسيح، لينالوا تقديساً خاصاً للسير في طريق الخلاص الأبدي.

ولكن كيف تُطهر المعمودية من أضمر بيع الرب؟ أو كيف تتقدس أقدام من سعى في طريق الباطل والخيانة لتسليم المسيح للموت؟ «هوذا الذي يسلمني قد اقترب» (مر١٤: ٤٢). لذلك قال: «لستم كلكم طاهرين»!

لقد اعتمد يهوذا كالتلاميذ ولم يتطهر، وغسل المسيح رجليه ولكنها لم تتقدس! لذلك حُرم يهوذا من خدمة التبشير، بل حُرم من نصيبه مع المسيح جملة وتفصيلاً، بل حُرم من الحياة نفسها. فالطقس لا يغير القلوب، ولكن يختم على ما فيها من كنوز.

ولكي يتأكد القارىء من اتجاه المسيح السري في غسل أرجل تلاميذه، من جهة إعدادهم للأرسالية لخدمة الإنجيل، أكد المسيح مرتين على موضوع إرساليتهم وهو يشرح لهم معنى غسل أرجلهم: «الحق الحق أقول لكم إنه ليس عبد أعظم من سيد ولا رسول أعظم من مرسلة» (يو١٣: ١٦)؛ «الحق الحق أقول لكم الذى يقبل من أرسله يقبلنى؛ والذى يقبلنى، يقبل الذى أرسلنى» (يو١٣: ٢٠)

١٣: ١٢-١٥ فَلَمَّا كَانَ قَدْ غَسَلَ أَرْجُلَهُمْ وَأَخَذَ ثِيَابَهُ وَاتَّكَأَ أَيْضاً قَالَ لَهُمْ: «أَتَفْهَمُونَ مَا قَدْ صَنَعْتُ بِكُمْ؟ أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي مُعَلِّماً وَسَيِّداً وَحَسَناً تَقُولُونَ لأَنِّي أَنَا كَذَلِكَ. فَإِنْ كُنْتُ وَأَنَا السَّيِّدُ وَالْمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ

---

[1] للأسف الشديد حاول كثير من أئمة الشراح أن يحذفوا هذه الجملة: «إلا إلى غسل رجليه»، حتى يتخلصوا من عقدة فهم «غسل الأرجل« بجملته، لأنهم يرون الموضوع كله إشارة إلى المعمودية وحسب. ولكن بعد أن يطلع القارىء على شرح مضمون هذا السر، يرى مقدار التشويه والخسارة التي تلحق بالإنجيل والكنيسة كلها من حذف هذه الجملة. كذلك قد انتحى شراح إنجيل يوحنا في فهم سر غسل الأرجل مناحي متعددة، كلها خارج المعنى الصحيح والوحيد. فهي لا تمت إلى المعمودية بصلة، ولكنها إجراء تقديسي إضافي بعد المعمودية، وبعد التطهير في المعمودية، وبعد الافخارستيا أيضا، وهذا واضح غاية الوضوح من قول المسيح أن الذي اغتسل (اعتمد) ليس له حاجة إلا إلى غسل رجليه، أي طقس التقديس للبشارة وقوتها. أي أن غسل الأرجل عمل أساسي زيادة على المعمودية. (التقليد الكاثوليكى يتجه إلى طقس غسل الأرجل يشير إلى سر الأعتراف قبل التقدم للتناول من الأسرار المقدسة فى ذبيحة الأفخارستيا – ميشيل)

أَرْجُلَكُمْ فَأَنْتُمْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَغْسِلَ بَعْضُكُمْ أَرْجُلَ بَعْضٍ. لأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالاً حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً.

اتجاه المسيح التعليمي فيما يخص غسل الأرجل دقيق للغاية، ويحتاج إلى حصر الفهم لإدراك المقاصد العميقة والبعيدة منه. فالأمر جد خطير بالنسبة للكنيسة بل الكنائس[1].

واضح من كل ما سبق أن فسرناه وشرحناه، أن غسل الأرجل هو إجراء خاص: «أنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم»، اختص به، ليس جميع التلاميذ، بل الاثنا عشر فقط (وكل سيد ومعلم)، حيث سقط منهم يهوذا ليحل محله آخر، ربما بولس الرسول. لأن عددهم قد تسجل في سجلات السماء وأسماؤهم كتبت فوق كراسيهم الاثني عشر، وأنه ليس هو اغتسال المعمودية العام لكل المؤمنين، بل هو اغتسال لأرجل التلاميذ الاثني عشر، كطقس تقديس وإعداد للارسالية.

على هذا الأساس نرى المسيح يعطي الموجبات الحتمية: «يجب عليكم» الخاصة بطقس غسل الأرجل، لكي يكون قوام الإرسالية وقوتها من منطلق الاتضاع والمحبة وخدمة الأكبر(السيد والمعلم) للأصغر. فالاثنا عشر نالوا التقديس الخاص بالإرسالية بغسل الأرجل بالتساوي، ولما أراد القديس بطرس، بمعنى التواضع، أن يحتج إنما من منطلق الشعور بالولاية أو التحدث باسم بقية التلاميذ بصفته الأول أو الأكبر، زجره المسيح محذراً إياه بشدة بالحرمان من نصيب التلاميذ، فانصاع كالبقية.

ثم بدأ المسيح يشرح هذا الطقس الخطير، طقس غسل الأرجل، أو طقس الإرسالية والبشارة والخدمة بمضمونه السري، بأنه يقوم أساساً على المحبة، التي هي الأساس الأول الذي عليه اجتمع شملهم في هذا العشاء: «إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى... حين كان العشاء» (يو١٣:١-٢). ومن عمق أعماق المحبة المذبوحة على العشاء، قام المسيح، وهو لم يستكمل العشاءه ليكرس التلاميذ للارسالية العظمى التي عينها لهم من قبل الدهور، في طقس تواضعي مهيب، إذ جلس كخادم بل كعبد في موطىء أقدام تلاميذه لغسل أرجلهم واحداً فواحداً، ولم يذكر الانجيل أنه قدسهم بحسب الترتيب، لأن هذا يتنافى قطعاً مع روح هذا الطقس بجملته؛ وهذا لكي يرفع طقس خدمة الكرازة إلى أقص حدود التواضع التي يمكن أن يتصورها إنسان، حتى لا يعود في محيط البشارة كلها كبير أو صغير، ولا عظيم أوحقير. وقد أعطى نفسه مثالاً، فهو السيد والمعلم، وقد انحنى على أرجلهم يغسلها وينشفها بأهانة خدمة العبيد، لكي يرتدع الكبير فيما بمد وينحني للصغير حتى إلى غسل الأرجل أو تقبيلها!... لأن العامل في خدمة الكبير هو العامل في خدمة الصغير، وهو الروح القدس والمسيح نفسه، لأنه قال «أنا هو الطريق» (يو١٤:٦)، فطريق البشارة هو الذي يحملنا ولسنا نحن الذين نحمل هم الطريق.

١٣:١٦-١٧ اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ وَلاَ رَسُولٌ أَعْظَمَ مِنْ مُرْسِلِهِ. إِنْ عَلِمْتُمْ هَذَا فَطُوبَاكُمْ إِنْ عَمِلْتُمُوهُ.

هنا يضع المسيح نفسه كمثال للسيد الذي اتضع لعبيده المرسلين، فأصبح من غير المعقول روحياً وإلهياً أن يتعظم العبد (المرسل) بأي حال من الأحوال على عبد (مرسل) أخر، لأن المسيح وهو السيد لم يتعظم على عبيده المزمع

---

[1] أكثر من أدرك على مدى تاريخ الكنيسة الطويل أهمية غسل الأرجل كإعداد للخدام والمرسلين هو القديس أثناسيوس الرسول، اذ رتب أن تقام ثلاث مرات في السنة أغابي خاصة بين الأسقف وكهنته، على أن يقوم الأسقف بنفسه بغسل أرجلهم

أن يرسلهم، بل عكس الأمر عكساً شديداً، إذ صار السيد، وهو الراسل، عبداً، والعبد، وهو المرسل، سيدا! هذا هو روح الإنجيل والبشارة، بل هذا هو روح الله.

ثم عاد المسيح ليطبق مرة أخرى مثل السيد والعبد على الراسل والمرسل، كمن يضع النقط على الحروف لينطق «سر غسل الأرجل» نطقاً مُبيناً أنه طقس الرسل والمرسلين. فقال إنه ليس رسول أعظم من مرسله. والمُرسل هنا هو المسيح دائماً وإلى الأبد، والرسول هو التلميذ، والكارز، والأسقف، والبطريرك. فلا يتعظم رسول لأنه على كل حال وعلى أي حال هو عبد ، والذي أرسله هو المسيح، وهو الذي يرسل كل رسول آخر. فلا يتعظمن رسول على رسول، والا يكون قد تعظم على المسيح الذي أرسله، وتعالى على الرسالة ذاتها.

ثم أرجأ «العلم والعمل» بهذا: «إن عملتم هذا، فطوباكم إن عملتموه»، إلى أن يحين زمان الإرسالية والملء من الروح القدس، حينما يستعلنون بالروح (يعلمون) ما جرى لهم في هذا السر، حيث يكون عليهم حينئذ أن «يعملوه»، أي يرسلوا بعضهم بعضاً بروح هذا الإتضاع عينه. وحينئذ تحل عليهم «الطوبى»، أي يصيرون مكاريين أي طوباويين.

والحقيقة أن «غسل الأرجل» في الكنيسة أُخذ بمفهوم التواضع وحسب، وحوصر في إجراء الطقس شكلياً، وقد اهتمت الكنيسة القبطة في كل عصورها إلى ما قبل عصرنا هذا، بهذا الطقس بالنسبة للكاهن، فكان يتحتم عليه بمقتضى طقس «تحفي (تعرية) القدمين أثناء الخدمة» أن يغسل، أي يرحض قدميه قبل الدخول إلى الهيكل لإجراء طقس سر الإفخارستيا بنوع من الإلزام، وكذلك قبل قراءة الإنجيل. وقد رأيت بعيني في بكور رهبانيتي (عام ١٩٤٨) المرحضة بجوار كل هيكل، والمخصصة لغسل قدمي الكاهن.

فيما عدا ذلك ثُبت طقس غسل الأرجل في يوم خميس العهد قبل القداس (قبل تقديم الحمل)، كما أيضاً في عيد الرسل قبل القداس، وهذا دليل على إدراك الكنيسة القبطية للعلاقة الصميمية بين غسل الأرجل وإرسالية المرسلين.

١٣: ١٨ لَسْتُ أَقُولُ عَنْ جَمِيعِكُمْ. أَنَا أَعْلَمُ الَّذِينَ اخْتَرْتُهُمْ. لَكِنْ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ: الَّذِي يَأْكُلُ مَعِي الْخُبْزَ رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَهُ.

أسرع الرب ورفع وعده ووصيته عن رأس يهوذا، ثم حدد إرساليته بالمختارين فقط الذين سبق وأعلن عن عددهم مستثنياً منهم من تقمصه الشيطان واستولى على شخصيته واسمه: «أليس إني أنا اخترتكم الاثني عشر، وواحد منكم شيطانا. قال عن يهوذا سمعان الإسخريوطي، لأن هذا كان مزمعاً أن يسلمه، وهو واحد من الاثني عشر.» (يو ٦: ٧٠-٧١)

أما عن السؤال: كيف اختار الرب يهوذا بين الاثني عشر وقد ظهر انه «شيطان»؟ فللرد على ذلك نقول: إن اختيار الرب هو اختيار الله لا يقوم قط على سبق العلم، وإلا ينعدم مفهوم الحرية والإرادة عند الإنسان، كما ينعدم مفهوم الجزاء والاجتهاد.

ولكن الاختيار لدى المسيح كان يقوم على اللياقة الفردية للعمل المطوب أداؤه، بهذا تتوطد أسس العدل الإلهي؛ ثم يترك لكل فرد أن يسلك بمقدار مقوماته الشخصية، من مواريث، واجتهاد في التعلم وإرادة، واختيار، وحرية، وبالأكثر جداً مقدار الإلتصاق بالرب وطاعة وصاياه، التي تأتي كإكليل على رأس كل المقومات؛ على أن كل نقص في المقومات الشخصية للفرد، يمكن أن يعترضه اللهه بآلاف الأضعاف إن هو كان أميناً ومحباً وخائفاً من اسمه القدوس: «لأن قوتي في الضعف تكمل.» (٢كو ١٢: ٩)

واضح، إذاً، أن يهوذا بدأ لائقاً كتلميذ، وربما كان أكبرهم سناً وأكثرهم خبرة بأموو الحياة وشئون المال ورجال الدين. فجرفه تيار المال وحب الفضة والتودد للرؤساء، حتى أوقعه في خطايا السرقة، ونقل الأخبار للرؤساء، وحب الرئاسة، وأخيراً سقط في يد الشيطان فابتلعه.

«ألذي يأكل معي الخبز رفع علي عقبه»: هذا جزء من المزمور ٤١ من النسخة العبرية، أما بقية الكلام فيكشف عن فكر الرب الذي سيستطرد فيه: «أيضاً رجل سلامتي، الذي وثقت به، أكل خبزي، رفع علي عقبه. أما أنت يا رب، فارحمني وأقمني (ارفعني) (مز٤١:٩-١٠). وعلى ضوء المزمور، يستطرد الرب ويقول:

١٣:١٩ أَقُولُ لَكُمُ الآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ (تسليم يهوذا والصليب) حَتَّى مَتَى كَانَ (القيامة) تُؤْمِنُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ.

الرب هنا يشير إلى قيامته التي ستكون، وحينئذ سيفهم تلاميذه، فعلاً، أن خيانة يهوذا العنيفة التي بلا رحمة ولا لياقة («رفع على عقبه» = رفسني)، تمت كما قالها الله على لسان دواد عن المسيح، فتبين لهم أن الرب هو حقاً المسيح «أنا هو».

ثم قول المسيح هذا: «أقول لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان، تؤمنون أني أنا هو»، نجده مطابقاً لقول الله عل لسان حزقيال النبي: «إذا جاء هذا تعلمون أني أنا السيد (يهوه) الرب.» (حز٢٤:٢٤)

وكذلك ما جاء في إشعياء النبي: «أنتم شهودي، يقول الرب، وعبدي الذي اخترته لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا أني أنا هو. قبلي لم يصور إله وبعدي لا يكون، أنا أنا الرب، وليس غيري مخلص» (إش٤٣:١٠-١١). هكذا نجد الحوادث بكل ملابساتها تتوقع بدقة وبكلماتها بحسب ما سبق الروح وتنبأ.

١٣:٢٠ «اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمُ: الَّذِي يَقْبَلُ مَنْ أُرْسِلُهُ يَقْبَلُنِي والَّذِي يَقْبَلُنِي يَقْبَلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي».

قد بدا هذا الكلام، عند غالبية شراح الكتاب، غريبا وغير متوافق مع تسلل الكلام، حتى قال معظمهم بأن هذه الآية دخيلة، وهذا بسبب انحراف تفكيرهم عن المعنى الحقيقي «لغسل الأرجل». ولكن بعد ما أوضحنا أن هذا الطقس هو روحي وسري، وهو خاص جداً بالإرسالية للتبشير بالإنجيل، يصبح المعنى والموقع لهذه الآية غاية في الإحكام. فهي تأتي في ختام التوجيهات الخاصة بالمرسلين أو الرسل، وهي هنا تخص المرسل إليهم، فكل جماعة أو مدينة أو شعب يقبل رسول البشارة، أي العامل بإنجيل الكلمة، فكأنه قبل المسيح نفسه. وبالتال فإن كل من قبل المسيح المبشر به على لسان الرسل، يكون قد قبل الله الآب نفسه. وان كان يبدو هذا الكلام خاصاً بالشعوب والأمم، ولكنه في الحقيقة تشجيع، أيما تشجيع، للتلاميذ الذين سيخرجون بالبشارة، لأنه يعطيهم حق التكلم باسم المسيح وقوته بكل جرأة، كما يعطيهم الشعور بالسلام وسط ضيقات الكرازة، وكأنما يعيشون تحت سمعه وبصره.

وكأنما لم يكن على التلاميذ حينما تتعب أرجلهم من المشي، وتتسلخ أقدامهم من وعورة طرق البشارة، إلا أن يفكروا في يدي الرب اللتين غسلتا أرجلهم، ويتحسسون أصابع المسيح التي مرت فوق أقدامهم، حتى يجددوا قوة لمزيد من السير ومزيد من الكرازة.

١٣:٢١ لَمَّا قَالَ يَسُوعُ هَذَا اضْطَرَبَ بِالرُّوحِ وَشَهِدَ وَقَالَ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِداً مِنْكُمْ سَيُسَلِّمُنِي».

المسيح هنا ناظر ما لا يُنظر، والروح ترى بالروح ما وراء الحجب والضمائر ما لا يمكن لقلم بشر أن يعبر عنه، يكفي أن يكون انفعال يوحنا قد بلغ هذا الإحساس، فاضطراب من يقبض على آعنة مقادير كل شيء «الآب دفع كل

شيء في يديه»، أمر يوضح عمق المأساة التي سيتحملها وحده . كان عزيزاً على نفسه جداً، أن واحداً ممن أحبهم إلى المنتهى، يجازيه هكذا عوض حلاوة الحب علقم العداوة.

اضطراب المسيح بالروح هو ما طفا على السطح من مصارعة النور مع الظلمة، كيف لا ترتعب لها السماء؟ فما بالك بالطبيعة البشرية التي تعاين معركة الة مع الشيطان ومركزها جسد ابن الإنسان؟

الباطل رفح قرنه على «الحق»، واستغل الجسد ليسدد فيه الطعنات، فكيف لا يهتز؟

لما انبرى الشيطان ظاهراً للمسيح على جبل التجربة صرعه المسيح، وطوح به خلفه؛ ولكن ماذا والشيطان الآن متخف في تلميذ، بل في ذئب، يلبس رداء المحبة وينتحل صفة السفير لدى أصحاب الهيكل؟

كلمات المحبة كانت تتساقط من فم الرب، والنفس تتلقى ضربات الغدر، كيف لا يتداعى لها الجسد؟

يد المسيح امتدت بلقمة البركة، ويد يهوذا تتحسس موضع الطعنة، كيف لا تجفل الروح؟

قوى الموت وأدواته تطبق على الحياة، محصورة في جسد تحاصرها من الداخل والخارج، ورائحة الدم تهب من بعيد، فتفتح شهية الشيطان ليضرب مخالبه، فتترنح النفس، كعصفور واجف في قبضة صقر.

تهلل الشيطان لما اضطرب المسيح بالروح، ولكن أخفي عنه أن المسيح إنما يسير بقدميه نحو الصليب: «ولى صبغة أصطبغها، وكيف أنحصر حتى تكمل؟» (لو١٢: ٥٠). كانت ضربات الشيطان بيد يهوذا أعظم مأساة واجهتها البشرية تمت نور الشمس، قابلتها ضربة المسيح عل الصليب لقوات الظلمة، كأعظم نعمة انسكبت على بني الإنسان.

٢٢:١٣ فَكَانَ التّلاَمِيذُ يَنْظُرُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَهُمْ مُحْتَارُونَ فِي مَنْ قَالَ عَنْهُ.

لم تكن هذه هي المرة الاولى التي يشير فيها المسيح إلى التلميذ الذي سيسلمه، ولكن هذه المرة كان إعلان المسيح يصاحبه صوت متهدج حزين مهيب، عبر عه القديس يوحنا بالكلمة اليونانية ( ) وهي تفيد اضطراب الحزن العميق، وقد أضاف إليها القديس يوحنا ( ) أي «بالروح» ليوضح حفظ الا تزان للجسد والعقل.

ولكن أتى تصريح المسيح كالصاعقة المباغتة على نفوس التلاميذ، فلم يستطع الإنجيليون الثلاثة أن يعوا صورة واقعية ملموسة لهذا المشهد الحزين، مثل القديس يوحنا. ربما لأنه كان يشعر بنفس شعور المسيح وكان ملتصقاً بحضنه، إذ يقول إن التلاميذ أخذتهم الحيرة وهم ينظرون بعضهم لبعض، فالأمر جد خطير، فهوذا ذئب داخل الحظيرة!... لقد عم الجميع الصمت والغم والهم، إلا واحد

٢٣:١٣-٢٤ كَانَ مُتَّكِئاً فِي حِضْنِ يَسُوعَ وَاحِدٌ مِنْ تلاَمِيذِهِ كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ. فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنْ يَسْأَلَ مَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ.

من حركة بطرس يتبين لنا ترتيب التلاميذ. فكان المتبع في جلوس الأسرة أن الابن الأكبر يجلس عن يمين رب البيت، ثم بالتدريج يجلس باقي الأسرة حتى تنتهي بالصغير ليجلس في حضن رب البيت على شماله، أقرب مكان إلى قلبه. وبطرس لأنه لم يكن بجوار المسيح، إذ جلس بحسب ترتيب الكبر في السن بعد يهوذا، اضطر أن يتحاشى الكلام المسموع في مخاطبته ليوحنا، فأومأ إليه، أي أعطاه إشارة بالعين وهز الرأس، مما يفيد أن يهوذا هو الذي كان على يمين الرب مباشرة بصفته الأكبر سناً، ويليه بطرس. وهذا يفيد سبب لماذا حدث شجار بين التلاميذ من منهم أكبر (لو٢٢: ٢٤) لكي يجلس عن يمين الرب، وغالباً كان الشجار بين بطرس ويهوذا. فبطرس يشعر بالقيادة والأولوية، ولكن يهوذا كان يعتمد على سنه وحيازته للصندوق، وبلفة العصر، أنه سكرتير الجماعة.

١٣: ٢٥-٢٦ فَاتَّكَأَ ذَاكَ عَلَى صَدْرِ يَسُوعَ وَقَالَ لَهُ: «يَا سَيِّدُ مَنْ هُوَ؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «هُوَ ذَاكَ الَّذِي أَغْمِسُ أَنَا اللُّقْمَةَ وَأُعْطِيهِ». فَغَمَسَ اللُّقْمَةَ وَأَعْطَاهَا لِيَهُوذَا سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ.

كان من السهل على القديس يوحنا أن يقترب من صدر المسيح ويُسر إليه بسؤاله. والمسيح أيضاً أعطاه إشارة كيف يعرف مسلمه، ثم أليس هذا عجباً أن يتحاشى المسيح حتى إلى هذه اللحظة أن يجرح إحساسات يهوذا؟ ثم ألا ترى معي يا قارئي العزيز أن رقة المسيح كانت فائقة الوصف؟

«فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا»: عجبي أيضاً أن يكون هذا هو الأسلوب الذي ارتآه ديان الأحياء والأموات في التعريف بالخاطىء، بل بالخائن، بل بالقاتل؛ فتغميس لقمة (أو قطعة لحم) في صحن به مزيج من عصير الفواكه الممزوجة بالنبيذ (أو الخل عند الفقراء) هو تقليد فصحي كان يُكرم به رب البيت دائماً الابن الأكبر!

فانظروا يا إخوة، كيف يحول المسيح صيغة الإتهام من منطوق كلمات جارحة إلى حركة احترام وتضييف ومودة!

أما عن مزيج الخل والفواكه والتغميس فيه تحية بالمكرمين فنقرأ عنه في سفر راعوث: «فقالت (راعوث لبوعز): ليتني أجد نعمة في عينيك يا سيدي، لأنك قد عزيتني، وطيبت قلب جاريتك، وأنا لست كواحدة من جواريك. فقال لها بوعز عند وقت الأكل تقدمي إلى ههنا وكلي من الخبز، واغمسي لقمتك في الخل.» (راعوث٢:١٣-١٤)

١٣: ٢٧-٢٩ فَبَعْدَ اللُّقْمَةِ دَخَلَهُ الشَّيْطَانُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «مَا أَنْتَ تَعْمَلُهُ فَاعْمَلْهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ». وَأَمَّا هَذَا فَلَمْ يَفْهَمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَّكِئِينَ لِمَاذَا كَلَّمَهُ بِه. لأَنَّ قَوْماً إِذْ كَانَ الصُّنْدُوقُ مَعَ يَهُوذَا ظَنُّوا أَنَّ يَسُوعَ قَالَ لَهُ: اشْتَرِ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِلْعِيدِ أَوْ أَنْ يُعْطِيَ شَيْئاً لِلْفُقَرَاءِ.

«فبعد اللقمة دخله الشيطان»: المعنى هنا عميق وكثيف، والأفكار فيه مزدحمة. ولكى ندرك ما تعنيه، علينا أن نعود إلى الآية التي استعارها المسيح من سفر المزامير بلغة المسيح الخاصة: «الذي يأكل معي الخبز رفع على عقبه». وفي النسخة السبعينية تأتي هكذا: «آكل خبزي رفع عليّ عقبه».

المسيح شكل الآية، لتحمل معنى خبز الإفخارستيا وأثناء أكل خبز الإفخارستيا. فهو كأنه يصف حالة يهوذا وهو يتناول مع الرب ومن يده أثناء سر الشركة. وهكذا يتضح لنا أن يهوذا تجرأ وتناول من الخبز السرى، ومن يد الرب يسوع نفسه، بدون استحقاق، بل وبنية الخيانة والغدر.

+ «إذاً أى من أكل هذا الخبز، أو شرب كأس الرب بدون استحقاق، يكون مجرماً في جسد الرب ودمه.» (اكو١١:٢٧). والنتيجة الحتمية يعرفها بولس الرسول: «فكم عقاباً أشر تظنون أنه يُحسب مستحقاً، من داس ابن الله، وحيت دم العهد الذي قدس به دنساً، وازدرى بروح النعمة. فإننا نعرف الذي قال: لى الإنتقام، أنا أجازي، يقول الرب. وأيضاً، الرب يدين شعبه. مخيف هو الوقوع فى يدي الله الحى» (عب١٠:٢٩-٣١)

وهكذا تمت في يهوذا النبوة المذكورة عنه بالذات: «بدل محبتي يخاصمونني، أما أنا فصلاة. وضعوا علي شراً بدل خير، وبغضاً بدل حبي. فأقم أنت عليه شريراً، وليقف شيطاناً عن يمينه.» (مز١٠٩:٤-٦)

وليس مستغرباً على العين المفتوحة التي للقديس يوحنا الذي طالما قرأ ما في قلب الرب وفهم ما في فكره، أن يرى الشيطان وهو يقتحم نفس يهوذا وعقله، ويتملك أسارير وجهه وحركاته!

«فقال له يسوع: ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة»: ظاهر الكلام لطيف وطيب، وفيه الثقة ممتدة، هكذا ظن التلاميذ، وحتى القديس يوحنا لم يعرف ما وراء هذا الكلام الطيب: «فلم يفهم أحد من المتكئين لماذا كلمه به».

ولكن يبدو أن يهوذا بدأ يشعر بالقلق، وأحس أن الوجوه بدأت كلها تصوب نظراتها نحوه، ولم يستطع التلاميذ أن يضبطوا مشاعر الاستنكار، أما يهوذا فلما ضاق به الأمر، وجه إيماءة نحو الرب رغبة في الخروج، فعاجله الرب بالموافقة السريعة مع جملة مؤدبة رقيقة لتغطية موقفه المفضوح، ولكنها كانت تحمل إليه رسالة من هو عارف بكل حركاته، وإنما بأسلوب من يستهين بكل مخططاته.

موافقة الرب على خروج يهوذا ليصنع ما يريد، هي موافقة على الصليب، وكأنما المسيح لا يريد أن تبدأ المأساة بدون موافقة، فهو وحده الذي له السلطان أن «يضعها»، أي تسليم نفسه للموت.

وبهذا أكد الرب أن الحوادث لا تفرض عليه، فهو فوق أنه «كان عالما بكل شيىء» كان يرتفع أيضاً فوق كل شيء، فوق مخططات الشرير، بإرادته، فيطأها بقدميه. فهو لم يكن يُساق في عربة الشيطان كفريسة مكبلة، ولكنه كان يسبقها برؤيته ويتبعها بإرادته: «من تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم يسوع: أنا هو. وكان يهوذا مسلمه أيضاً واقفاً معهم.» (يو١٨: ٤-٥)

«... إذ كان الصندوق مع يهوذا، ظنوا أن يسوع قال له اشتر ما نحتاج اليه للعيد»: هذه الآية في إنجيل يوحنا توضح، عرضاً، أن هذا العشاء السري الذي أسس فيه الرب سر الإفخارستيا ليس هو عشاء الفصح، بل يسبقه بأربع وعشرين ساعة، لأنه لو كان هذا عشاء الفصح، لاستحال القول بشراء حاجة العيد، علماً بأنه بالرغم من أن عشاء الخميس الذي أسس فيه المسيح سر الإفخارستيا لم يكن هو عشاء الفصح، إلا أن المسيح أعطاه كل صفات ومميزات الفصح. غير أن بعض الشراح المقتدرين لا يأخذون بهذا الاعتراض.

٣٠:١٣ فَذَاكَ لَمَّا أَخَذَ اللُّقْمَةَ خَرَجَ لِلْوَقْتِ. وَكَانَ لَيْلاً.

واحد في حضن يسوع، والآخر في الظلمة الخارجية؛ القديس يوحنا في حضن يسوع كالابن في حضن الآب: «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد... كما أننا نحن واحد» (يو١٧: ٢٢-٢٣)، ويهوذا في حضن الشيطان: «هذه ساعتكم وسلطان الظمة.» (لو٢٢: ٥٣)

«خرج للوقت وكان ليلاً»: كلام القديس يوحنا هنا يحمل الأسلوب السري والنبرات اللاهوتية، فبدخول الشيطان في يهوذا بدأت ساعة الظلمة. وبمغادرة يهوذا للمسيح، خرج من دائرة النور إلى «الظلمة الخارجية». لقد سبق المسيح أن حذر من مثل هذه المخاطرة: «ولكن إن كان أحد يمشي في الليل يعثر، لأن النور ليس فيه» (يو١١: ١٠)، وواضح غاية الوضوح أن يهوذا أحب الظلمة: «أحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو٣: ١٩)

لقد بدأ العد التنازل للساعة الأخيرة. بدأ شبح الموت يخيم على اللحظات الأخيرة للعشاء الأخير، لتبتدىء بعدها، ولأول مرة، التسبيحات للفصح بنغمات حزينة!...

أحاديث ما بعد العشاء

لقد اجتهد علماء الكتاب لتبويب أو عنونة حديث المسيح فيما بعد العشاء، وهو يقع من الأصحاح ٣١:١٣ إلى نهاية الأصحاح السابع عشر. ولكن أحاديث الرب لا يحدها باب ولا يحتويها عنوان، فهي أحاديث تفوق التحديدات الذهنية، لأنها روح وحياة؛ جاءت مسترسلة من أقداس قلب ابن الله المجروح، تنطلق لتنير خفايا المجهول في ذهن التلاميذ. ومجمل أقواله جاءت لتشرح حتمية الفراق وأفراحه، ومهمته العظمى في السماء وثماره، وعمله على

الأرض وأثاره، مع وصايا ثمينة ووعود صادقة، وعلى قمتها إرسال الروح القدس لعزاء الدهور كلها وتكميل عمل الابن، مع شرح سرس ريان دم الكرمة في عروق الإنسان، وكيفية تهذيب الأغصان، ونقله العبيد إلى أحباء، مع أخبار كثيرة ستسوقها الأيام يكون فيها مشقة واضطهاد وقتل وعناء، مع عتاب مر من جهة الذين أبغضوه بلا سبب، وراحة وسلام من جهة الذين سيشهدون له مع الروح.

ولما رآهم والحزن يعتصر قلوبهم من أجل الفراق، وعدهم برؤيا خاصة وفرح وشيك، ولكنه أنبأهم عن هروبهم المزمع أن يقترفوه، وفرقة مشينة تلم بهم، ثم بقاؤه وحداً ليدوس المعصرة وحده. ثم، وعلى مرأى ومسمع منهم، رفع ناظريه نحو الآب، وصلى صلاة طويلة، أطول صلاة، كان فيها كل سر اللاهوت، وبقيت لنا مطبوعة في قلب يوحنا.

١٣: ٣١-٣٢ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ يَسُوعُ: «الآنَ تَمَجَّدَ ابْنُ الإِنْسَانِ وَتَمَجَّدَ اللَّهُ فِيهِ. إِنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ تَمَجَّدَ فِيهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُمَجِّدُهُ فِي ذَاتِهِ وَيُمَجِّدُهُ سَرِيعاً.

«الآن تمجد... وتمجد... قد تمجد»: الآن. بخروج يهوذا بدأ تزامن الحسم في موت الرب، مع حسم الرب في تقديم ذبيحة نفسه، بتقديم الكأس قائلاً: «هذا دمي».

على أن رنين «المجد» المتكرر ثلاثاً في هذه الآية، يذكرنا في الحال ببداية التقديس في سر الإفخارستيا: مجداً وإكراماً، إكراماً ومجداً للثالوث الأقدس: الآب والابن والروح القدس. إنها تسبحة الذكصا الأبدية، الذكصا التي ملأت السماء، وفاضت على كل بني الفداء.

ولا يغيب عن بالنا أن المسيح قال هذه الآية والكأس في يديه لم يوزع بعد. وإن كان القديس يوحنا لم يذكر ذلك لأسباب وضعتها الكنيسة في أيامه من جهة عدم إذاعة أسرار الكنيسة، إلا أن المجال والكلام ينطق بقدسية ورهبة سر الإفخارستيا القائم بكل تأكيد. ونحن لا يمكننا أن نفهم سر تمجيد المسيح لنفسه: «الآن تمجد ابن الإنسان» إلا بسبب سقوط ظل الموت عليه، وفي يده الكأس المصور فيها الصليب، وقد رفعها عالياً في يده، عندما انتهى من ذبح نفسه بسكين إرادته. فالمسيح، بنطقه: «هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسفك من أجل كثيرين» (مر ١٤: ٢٤)، كان قد أكمل الصليب، وانتهى من تقديم ذبيحته للآب.

فإن كانت الأناجيل الثلاثة الأخرى اهتمت بتسجيل تقديم جسده ودمه للتلاميذ، فالقديس يوحنا اهتم بتسجيل تقديم الجسد والدم للآب. وعوض التمجيدات للأب والآبن والروح القدس على مواد السر، استعلن المسيح «هذا المجد» عينه لحظة حدوثه «الآن» الذي مجده الله به، إذ تقبل ذبيحة نفسه، الذي أيضاً تمجد الله فيه وبسببه. وهذا المجد الذي ناله ابن الإنسان على الأرض يوم الخميس، كان بلوغ منتهاه وشيكاً يوم الجمعة بعودة ابن الإنسان لذات الله: «سيمجده في ذاته سريعاً»، ليجلس والى الأبد عن يمين الآب حاملاً البشرية فيه.

وعلى القارىء أن يلاحظ أن المسيح يتكلم هنا، ليس كـ «ابن الله» بل كـ «ابن الإنسان» لأنه يتكلم والكأس في يده كخروف مذبوح، لذلك يتكلم عن «الآب» بصفته «الله» بالنسبة له كـ «ابن الإنسان».

وعليا أذ نتذكر قول المسيح سابقاً: «وأما يسوع فأجابهما قائلاً: قد أتت الساعة، ليتمجد ابن الإنسان» (يو ١٢: ٢٣)، وقول القديس يوحنا، معلقاً على موت الرب: «لأن الروح القدس لم يكن قد أعطى بعد، لأن يسوع لم يكن قد مُجد بعد.» (يو ٧: ٣٩)

أما كون الله قد تمجد في ابن الإنسان، وتمجد بسببه وأيضاً سيمجده سريعاً ، فهذا يعلنه المسيح بوضوح: «أنا مجدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته، والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي

كان لى عندك قبل كون العالم» (يو١٧:٤-٥). على أنه بعد عودة الابن إلى الآب، سيبقى الابن مصدر تمجيد دائم للآب: «لأني ماض إلى أبي، ومهما سألتم باسمي، فذلك أفعله، ليتمجد الآب بالابن» (يو١٤:١٢-١٣). أما عن كيف سيمجد الله ابن الانسان سريعاً، فهذا رآه القديس إسطفانوس رؤيا العين: «وأما هو فشخص إلى السماء وهو ممتلىء من الروح القدس، فرأى مجد الله ويسوع قائما عن يمين الله.» (أع٧:٥٥)

على أن مجد المسيح السابق واللاحق ومجد الآب، لا يُدركان، بحسب الأصول اللاهوتية، منفصلين، لا زمانياً ولا كيانياً، فهما مجد واحد لله. ولكن بسبب توقيع اللاهوت على الزمن أو ظهور الله بالجسد في صميم الزمان والمكان والعمل، أصبح على الإنسان أن يدرك هذا المجد موزعاً في مراحله.

فمن وجهة النظر اللاهوتية، يكون مجد المسيح واحداً سواء على الصليب، أو في القبر، أو في القيامة، أو في الصعود، أو في الجلوس عن يمين الآب؛ والنظرة لأي حالة مجد في هذه تتمثل المجد في كل حالاته: «لكي تجثو، باسم يسوع، كل ركبة ممن في السماء، ومن على الأرض، ومن تحت الأرض.» (في٢:١٠)

«يمجده في ذاته»: الاصطلاح هنا لاهوتي، وهو يفيد وحدة الاتحاد الذاتي، أي وحدة الكيان، باعتبار أن الآب والابن كيان واحد، ذات واحدة لأقنومين، لأنهما جوهر إلهي واحد، أو طبيعة واحدة إلهية للآب والابن.

كما يلاحظ أن «في ذاته» تأتي مطابقة ومتبادلة مع: «خرجت من عنه الآب»، فهو كيان واحد يخرج منه ويعود إليه، دون انقسام الكيان، لأنه كيان إلهي للآب والابن غير محدود ولا متجزىء.

١٣:٣٣ يَا أَوْلاَدِي أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً قَلِيلاً بَعْدُ. سَتَطْلُبُونَنِي وَكَمَا قُلْتُ لِلْيَهُودِ: حَيْثُ أَذْهَبُ أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا أَقُولُ لَكُمْ أَنْتُمُ الآنَ.

من واقع الإفخارستيا، وحيث انتهى المسيح، بالنية، من تقديم نفسه ذبيحة فداء عن العالم، ووزع جسده ودمه على التلاميذ، ومن واقع خروج يهوذا ليعد خطة التسليم بموافقة المسيح بعد إحساسه بقبول الذبيحة لدى الآب والرد عليه بحصوله على المجد، ابتدأ يحس أيضاً بانسحابه الإرادى من العالم، فابتدأ المسيح يوجه إلى تلاميذه حديث الوداع الأخير.

لاحظ أن موت المسيح على الصليب بالجسد لا يعني أن بشرية المسيح وحدها هي التي واجهت الموت على الصليب، بل ان المسيح واجه الصليب والموت ككل لا يتجزأ، بملاهوته وناسوته معاً. اذ لم يظفر بقوات الظلمة ويفضحهم ويشهرهم جهارا بجسده الميت، بل بلاهوته، الذي اقتحم مجالات الموت والجحيم، وصرع سلطان الموت وصاحب سلطان الموت، وبهذا صار موت المسيح هو قوة نصرة وخلاص ومجد، لأنه عمل إلهي وبشري معا، وبآن واحد صار موت المسيح عملاً بلا حدود، يشمل ويغطي كل من يؤمن ويدخل في مجال فعله الإلهي الكفاري العام.

لذلك، فنحن الذين نؤمن بالطبيعة الواحدة من الطبيعتين بعد الاتحاد، لا نوافق على أن المسيح جاز الموت بطبيعة واحدة بشرية، بل إن المسيح عندما جاز الموت قامت كل طبيعة بعملها الخاص بها. فالجسد تقبل طعنة الموت وفارقت النفس الحياة، أما اللاهوت فلم يفارق النفس ولم يفارق الجسد فلم يفسد، واضطلع اللاهوت مع النفس بمواجهة طبيعة الموت، فشجب الموت وأخرجه من دائرة الإنسان والله، فأصبح الموت لا يفصل الإنسان عن الله والمسيح؛ ثم واجه الشيطان الذى له سلطان الموت فجرده من سلطانه وسلم سلطان الحياة لروح الله، أي الروح القدس، الذي له الآن سلطان القيامة من الموت مع قوة قيامة المسيح واستحقاقها.

وبنظرة الانسحاب من العالم، تساوى لديه الأعداء والأحباء. فهؤلاء وهؤلاء لن يروه، ولو طلبوه لن يجدوه. لذلك،

كما قال لليهود (٧: ٣٤) على بعد من الميعاد، يقول لتلاميذه الآن عن قرب، والصليب قد لاح في الأفق.

والظرف الزماني «الآن» قد يفيد الزمان حسب الظاهر، ولكن بالعمق الروحي يفيد استعلان نهاية التدبير الإلهي لغياب المعلم عن التلاميذ وبقاء التلاميذ وحدهم. هذا الشعور كان طاغيا على المسيح، كما على التلاميذ ربما بنفس القياس، «لن أترككم يتامى»، غير أن المسيح يعلم أنه سيعود ليراهم.

«ستطلبونني»: إن كانوا سيطلبونه في الحزن، فلن يجدوه، ولن يستطيعوا أن يأتوا إليه، ولكن حينما يعود هو إليهم ويراهم، بعد القيامة، أي يفتقدهم، فلن يعودوا يطلبونه بعد لأنه سيكون معهم كل حين: «ها أنا معكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر» (مت٢٨: ٢٠)، ليس فقط بالحضرة الإلهية الشخصية المعزية والمفرحة من خلال تمهيدات الروح القدس وإعلاناته، بل وأيضاً في شركة الإفخارستيا حيث:

١- يتحد موت المسيح بإماتتنا، «قوة بقوة» قوة إلهية قوامها غلبة المسيح على العالم (الشهوات) وعلى قوات الظلمة التي ظفر بها على الصليب، أي بموته، بقوة إرادتنا لإخضاع الجسد وقمع شهواته.

٢- وتتحد قيامة المسيح بتجديد حياتنا، قوة بقوة أيضاً، قوة إلهية قوامها غلبة الموت، بقوة توبتنا لنوال جدة حياة يوماً بيوم.

المحبة

١٣: ٣٤-٣٥ وَصِيَّةً جَدِيدَةً أَنَا أُعْطِيكُمْ: أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً. كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضاً بَعْضُكُمْ بَعْضاً. بِهَذَا يَعْرِفُ الْجَمِيعُ أَنَّكُمْ تلاَمِيذِي: إِنْ كَانَ لَكُمْ حُبٌّ بَعْضاً لِبَعْضٍ».

يتبادر إلى الذهن عند غالبية الناس أن «المحبة وصية» أو هي وصية المسيح، ولكن، فى الحقيقة، تركيب الجملة بالغفة اليونانية يكشف المعنى كالآتي: «أنا أعطيكم وصية جديدة، لكى تحبوا بعضكم»، والتركيز في معنى الآية يأتي على الكلمة «جديدة» بالنسبة للوصية بخصوص المحبة، وذلك في مقابلها القديم الحرفي والجسدي بالنسبة للعهد القديم: «تحب قريبك كنفسك» (لا١٩: ١٨)؛ حيث ينبغي أن نبحث عن معنى «جدة» الوصية، أو الجديد في هذه الوصية على أساس الواقع الجديد الذي أنشأه المسيح من جهة الدوافع والمحيط الذق تعمل فيه المحبة في العهد الجديد.

فالأن، قد استعلن المسيح افاقا للمحبة جديدة فعلا لم تكن معروفة في العهد القديم، ولا يمكن الاحاطة بها أو بلوغ كمالها. وأولها وأعظمها «محبة الآب للابن»، ثم «محبة الله للعالم»، التي أنشات حركة جديدة تحركت لها السموات كلها والأرض، وهي «تجسد الابن»، هتف لها السمائيون والأرضيون مجداً في السماء وسلاماً على الأرض، ثم أنشأت محبة الله نحو العالم: «بذل الابن متجسداً»: «لأنه هكذا أحب الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو٣: ١٦)

وهكذا بلغ استعلان محبة الله للانسان قمتها العظمى في موت الابن على الصليب. وموت المسيح أكمله حباً في الإنسان الخاطىء: «الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل٢: ٢٠)، الذى أنشأ بدوره التزامات (غفرانا وتكفيرا وخلاصاً) من جهة الله نحو جميع الخطاة التائبين الذين يؤمنون بابنه. كذلك أدخل المسيح قوة جديدة في محيط الإنسان تعمل فيه، هي قوة الحب الإلهي الفاعلة بالروح القدس، الذي هو«أقنوم أو شخص المحبة».

إذن، الوصية القديمة المنطوقة والمكتوبة كأمر بالنسبة «لمحبة القريب» تغيرت تغيراً جذريا، إذ أصبحت قوة تعمل

داخل العالم وداخل الإنسان.
على أن قوة المحبة المنسكبة داخل قلب الانسان بالروح، هي نابعة من مصدرها الأساسي وهو حب الله الذى استعلنه المسيح ببذل ذاته وموته على الصليب. أى أى قوة المحبة التى أصبحت فى العهد الجديد تعمل في قلب الإنسان، هي قوة محبة باذلة، أو قوة بذل المحبة المنبعثة من موت المسيح.
أي أن المحبة لم تعد فرضا وواجباً يُفرض على الإنسان من خارج، بل قوة تعمل طواعية وبسرور لا مناص من الإعلان عنها، والتنفيس عن طاقتها بأعمال بذل الذات «على نموذج محبة المسيح». فالمسيح، بسبب حبه للآب وحبه لنا، لم يستطع إلا أن يموت عنا، أي يُصلب!!! «ليس لأحد حب أعظ من هذا، أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه.» (يو ١٥:١٣)
هذا صنعه المسيح، ولكنه صنعه من أجل كل العالم، أحباء وأعداء، خطاة ومنبوذين، ومن واقع حبه هذا وامتداداً له بعدئذ بالروح القدس أعطى التلاميذ وصيته الحديدة: «وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضا كما أحببتكم»، لا كأنها فرض بعد أو واجب أو تكليف. بل انتباهة، ليكتشفوا ما قد وهبه لهم بالفعل وسكن فيهم بالسر بالجسد والدم الذي أعطاهم ويسر غسل أرجلهم.
ونحن نعلم أن التلاميذ أقاموا هذه الوصية، وقاموا بها، وعاشوها، وعاشوا عليها، في بادىء الأمر وبعد الصعود مباشرة. وما اجتماعهم يوم الخمسين إلا صورة ناطقة بثمار الوصية الجديدة، فقد جعهم حب المسيح على الصلاة والصوم. وإقامة سر الشركة والعبادة الحارة، حتى حل عليهم الروح القدس بكل ارتياح، فاستعلن المسيح فيهم، وصاروا شهوداً مع الروح القدس للمسيح كالوصية، وظلت بعد ذلك المحبة الأخوية بينهم هي شهادة بحد ذاتها، وعليها قام الإنجيل وقامت الكنيسة. وظل القديس يوحنا يعظ بهذه الوصية وحدها في شيخوخته جتى مات، مما يؤكد تأثره الشديد بوصية المسيح فعلاً.
وبالانتباه لوصية المسيح بخصوص المحبة نجد أنه قدمها عى صورتين.
الصورة الأولى، خاصة بالتلاميذ، كغسل الأرجل: «كما أحببتكم أنا، تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً»؛ بالتطابق مع: «لأني أعطيتكم مثالاً، حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً... فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض».
وهذا في الحقيقة لبنيان الكنيسة، أولاً في صورتها الرسولية الأولى: «بهذا يعرف العالم أنكم تلاميذي»
أما وصية المحبة في صورتها العامة الخاصة بالمؤمنين عامة، فقد أطلقها بلا قيد ولا شرط لتكون حياة لكل إنسان ومنهج لكل مسيحي: «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك؛ وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات.» (مت٥:٤٣-٤٥)
كذلك غسل الأرجل، وضع أساساً لتكريس التلاميذ للبشارة ومسيرة الإنجيل في كل أنحاء العالم، كما احتفظ به الرسل كطقس اتضاع لتمارسه الكنيسة بالنسبة للشعب عامة، والتقطه الرهبان الأوائل وأدخلوه كعمل محبة وطقس اتضاع دائم يمارسونه مع كل زائر أو متردد، وبعد أسفارهم الطويلة، لبعضهم البعض.
ثم إن الوصية القديمة كانت المحبة فيها تختص بالقريب، أي بني جنس اليهود فقط، أي لحساب التاريخ والجنس اليهودي، ولكن المسيح أعطى حبه في وصيته الجديدة على أساس مهمته العظمى الخالدة ورسالته الأبدية في

العالم بكل أجناسه، لذلك لما سألوه: «من هو قريبي؟»، أعطى جواباً في قصة، حطم فيه هذا القيد الحديدي الذي وضعته الوصية القديمة في عنق الحبة، حينما جعلها لا تعمل إلا بين يهودي ويهودي وحسب، ولكن قالت القصة أن قريب اليهودي هو السامري!!! (لو١٠:٣٦-٣٧)، ومن هذا المنطلق سبق ونادى بحدود وصيته الجديدة: «أحبوا أعداءكم.» (مت٥:٤٤)

كما أنه بطقس غسل الأرجل، جعل المحبة المسيحية والرسولية تنزل إلى مستوى خدمة الأرجل.

والآن نأتي إلى الظروف التي أحاطت بإعطاء المسيح وصيته الأخيرة والجديدة لتلاميذه، فأولاً نحن على مائدة عشاء الرب الذي أسس فيه سر الإفخارستيا بتقديم جسده ودمه للأكل والشرب من خلال التزام ذبيحة الصليب التي جاء ليكملها في نفسه، وقبلها منه الآب. فهنا بذل الذات في أقصى صورة يمكن أن يقدم فيها الحب، حيث أصبح الحب الإلهي المذبوح من أجل كثيرين هو أساس العهد الجديد: «هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفك من أجل كثيرين» (مر١٤:٢٤)، «كما أحببتكم أنا (هكذا حتى الموت)، تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً.» (يو١٣:٣٤)

غرض ألوصية ألجديدة بالنسبة للمحبة: ولكي يتضح بأجلى بيان أن المحبة ليست هي كل الوصية الجديدة، ولا يمكن أن تستنذف كل أبعادها، عاد المسيح ووضع للوصية غاية فوق المحبة: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي»، وغاية هذه أيضاً هي استعلان المسيح نفسه للعالم من خلال حب التلاميذ بعضهم لبعض، ولأن محبة التلاميذ بعضهم لبعض لا يمكن أن تأخذ صورتها الإيمانية وقوتها الكرازية إلا بوجود المسيح، كقول القديس بولس الرسول: «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة...» (أف٣:١٧-١٨)

وهكذا يتضع لنا الترابط المتزامن بين قبول المسيح وفاعلية الحب في القلب، فإنه بعد أن تناول التلاميذ من الجسد والدم، وهما قوة العهد الجديه واللذان يمثلان الحضرة الإلهية عملياً: «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦:٥٧)، أعطى المسيح الوصية الجديدة. أي أنه بمجرد أن حل المسيح بالإيمان في القلب، وتأسست وتأصلت فيه المحبة؛ أصبح الإعلان عن المسيح تحصيل حاصل، من جراء أفعال المحبة الباذلة في الحياة المسيحية. إلى هذا الحد أخذ القديس يوحنا هذه الحقيقة، وجعلها معياراً للخلاص والحياة الأبدية: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة» (١يو٣:١٤)، وهكذا انتشر اصطلاح محبة الإخوة (فيلادلفيا) في الغرب ويقابله في الشرق وفي الكنيسة القبطية بالذات «الأغابي» بصورة أوسع وأعمق وأكثر روحانية، حيث يجتمع الشمعب العلماني كله فى الكنيسة، وتقام الموائد، ويحضرها الأسقف ويصلي ويبارك، ويفرح الشعب، ويأكل في حضرة الرب. فقد صارت الأغابي تعني «شركة المحبة»، وصار لها طقس ووجود كنسي. وبعد أن دعمتها الرهبنة كأعلى نموذج للأغابي الإنجيلية، فقد صارت شركة حياة تخصصت لعمل المحبة، والعبادة، والتأمل، والبذل والخدمة، وتقديم الأمثلة المسيحية من قديسين وقديسات، ملأوا صفحات السنكسار واحتلوا الصفوف الأولى في السماوات.

وهكذا، فالمحبة إذا سكنت في القلب بإيمان المسيح وأخذت طريقها عملياً نحو الآخرين، وخاصة بين التلاميذ على مستوى الصليب، فحتما يُستعلن المسيح. ومعروف أن من مفاعيل المحبة الإلهية قيام الوحدة الروحية على المستوى السري الإلهي، لأن طبيعة المحبة الإلهية فوق أنها تجمع، فهي توحد:

+ «ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم.» (يو١٧:٢٦)

+ «ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الرب فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني.» (يو١٧:٢١)

+ «أنا فيهم وأنت فيَ، ليكونوا مكملين إلى واحد، وليعلم العالم أنك أرسلتني، وأحببتهم كما أحببتني.» (يو١٧:٢٣)

هذه، في الحقيقة، هي أعماق الوصية الجديدة التي هي ناموس المسيح الجديد:

المحبة: وهي بعد ذاتها «إبيفانيا» إلهية بظهور واستعلان المسيح «ابن محبته».

الوحدة: موضوع المحبة الإلهية، وهي أيضاً بحد ذاتها «إبيفانيا» الآب والابن فينا.

وليكن في ذاكرتنا دائماً، أن استعلان المسيح فينا هو برهان محبة الله نحو العالم، واستعلان الآب والابن فينا هو برهان قيام الوحدة، فهو بحد ذاته كرازة للعالم.

أي أن الوصية الجديدة التي يشدد عليها المسيح في نهاية رسالته، تهدف نحو خلاص العالم واستعلان ملكوت الله والحياة الأبدية.

وهكذا، كما بدأنا إنجيل يوحنا بحركة محبة الله للعالم، هكذا تنتهي غاية رسالة المسيح في الإنجيل.

اعتذار: نحن هنا لا نقدم موضوعاً مستوفياً عن المحبة في العهد الجديد، ولكننا التزمنا بحدود المناسبة وفي إطار مفهوم وصية المسيح.

١٣:٣٦ قَالَ لَهُ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: «يَا سَيِّدُ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ؟» أَجَابَهُ يَسُوعُ: «حَيْثُ أَذْهَبُ لاَ تَقْدِرُ الآنَ أَنْ تَتْبَعَنِي وَلَكِنَّكَ سَتَتْبَعُنِي أَخِيراً».

إنطلاق القديس بطرس بهذا السؤال بعد وصية المسيح بالمحبة، يوضح أن مغادرة المسيح الوشيكة أمر شد انتباه التلاميذ، لأن بيان الموصي بالمحبة وتوضيح الغرض منه وهو كي يعلم العالم أنهم تلاميذ المسيح، يعني بكل صراحة أن المسيح سيذهب ويختفي وسيتركهم وحدهم. هذا الأمر حيرهم ، وأظهر جانب الضعف فيهم.

«يا سيد إلى أين تذهب.»: وأصلها باللاتيني: (   )، والتي بني عليها الفيلم السينمائي الديني المشهور «كوفاديس»، وقصته مأخوذة من سفر أبوكريفا «أعمال بطرس وبولس»، وهي القصة الجميلة لاستشهاد القديس بطرس في روما؛ إذ لما انتهز بطرس فرصة، وهو محكوم عليه بالإعدام صلباً، هرب من الجلادين قبل تنفيذ حكم الاستشهاد، وانسل خارجاً من روما، فقابله الرب، وظهر كأنه عابر به وذاهب إلى روما ، ففوجىء بطرس بالمسيح نفسه أمامه فسأله: يا سيد إلى أين أنت ذاهب؟ فبادره الرب بنظرة عتاب: لأصلب بدلاً منك. وهي تذكرة لاذعة لادعاء بطرس في قوله للمسيح في الليلة التي أسلم فيها ذاته: «إني أضع نفسي عنك.» (١٣:٣٧)

«حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني ولكنك ستتبعني أخيراً»: صرخ إرميا، وكأنى به ينادي بطرس من بعيد: «إن جريت مع المشاة فأتعبوك، فكيف تُباري الخيل، وإن كنت منبطحاً في أرض السلام، فكيف تعمل في كبرياء الأردن؟»» (إر١٢:٥)

فبطرس، ليلة الصليب، يسأل الرب: «يا سيد إلى أين تذهب؟»، لأنه كان يضمر في قلبه أن يقلد أليشع النبي في جريه وراء إيليا، وكأنه يريد أن يصعد معه؛ والرب أدرك ذلك بالروح، وكان الرد خالصاً: «لا تقدر الآن أن تتبعني». ولكن لم يحرمه الرب من نظرة تطلعية من وراء الأفق: إنك ستتبعني أخيراً، أو بالحري سيأتي الرب ليأخذه بيده، لأن قصة هروبه من الموت معروفة، فلولا حضور الرب إلى روما خصيصاً ليرده إلى صليبه المقلوب، لما عثر بطرس على الباب الذي منه يتبع الرب أخيراً!! وهنا يليق جداً أن نذكر القارىء بقول الرب لبطرس في نهاية رواية القديس يوحنا: «ولكن متى شخت، فإنك تمد يديك، وآخر يمنطقك، ويحملك حيث لا تشاء.» (يو٢١:١٨)

و«حيث لا تشاء» هي إشارة بليغة إلى هروبه من الصلب الذي صححه له الرب.

٣٧:١٣ قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «يَا سَيِّدُ لِمَاذَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَتْبَعَكَ الآنَ؟ إِنِّي أَضَعُ نَفْسِي عَنْكَ».

إنها لخطورة بالغة أن تأخذ الإنسان حرارة الثقة بالذات، ليتكلم ويقرر ويعدد بما يفوق قدره ومقداره. وأخطر من ذلك أن يقلد الإنسان أمثلة أعلى من قامته، فيبدو في أعين الناس أقل مما هو، أي أقل مما وهبه الله. لأن الفرق بين قامته الأصلية وبين ما ادعى لنفسه اختلاساً يُخصم من أصل رصيده. هذا هو قانون المسيح : «من له سيُعطى. ومن ليس له فالذي يظنه له يؤخذ منه.» (لو١٨:٨)

هذا الأمر خطير، وخطير للغاية، في الأصول التربوية المسيحية، أي في بناء النفس الروحي وفي الجهاد النسكي. فالله لا يطالبنا أن نعطي أكثر من قدرتنا، أو نبذل من رصيد وهمي سواء في الصحة أو الإيمان. والله أعطى وقسم المواهب، وعلى قدر ما أعطى يُطالب. فالذي يدعي بأنه يقدر أن يبذل أو يخدم، وهو لم يأخذ، يُلام ويضعف ويتقهقر.

فبطرس الذي رأى نفسه أكفأ من يستطيع من التلاميذ أن يلازم المسيح، أو حتى أن يموت عنه، هكذا نجده قد تخلف في منتصف الطريق. ولما عزم أكثر من عزمه أن يرافقه حتى ولو الى الموت، انتهى عزمه عند الجواري في الدور الأرضي، وجلس يستدفىء مع الخدم. والذي مد في عافيته، ليشهد في صف المسيح، دون أن يكون لها امتداد من قوة الإيمان، أنكر المسيح عند استجواب جارية!!! وبدل أن يقول مجرد قول: نعم أنا تلميذ المسيح، واذا لزم الأمر يقسم بالحق: «ابتدأ يلعن ويحلف أني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه» (مر٧١:١٤)، عفارم، وأخيراً جلس خارج الباب يعزي نفسه ببكاء مر. وصح قول الرب لبطرس، ولي ولك أيها القارىء العزيز: «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً.» (يو٥:١٥)

٣٨:١٣ أَجَابَهُ يَسُوعُ: «أَتَضَعُ نَفْسَكَ عَنِّي؟ اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: لاَ يَصِيحُ الدِّيكُ حَتَّى تُنْكِرَنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ»

لقد اهتم الإنجيليون الأربعة بتسجيل نبوة المسيح هذه عن «بطرس والديك»، إذ سجلوا تحقيقها تسجيلاً مؤثراً للغاية، وكان أدقهم وأقدرهم في التسجيل هو القدي مرقس، لأنه أخذ البيانات من فم بطرس نفسه.[1]

لم يكن بطرس يدري هول المعركة التي يسير المسيح نحوها، ولا إزاء من تسجلت؟ ولا لحساب من سيكون الحساب؟ بل وفوق هذا كله لم يدر بطرس من هو المسيح الذي يقول إنه مستعد أن يضح نفسه من أجله؟ فالمعركة فوق طاقة جميع البشر مجتمعين، إنها ضد من استعلى على الله نفسه، أي الشيطان الذي دوخ العالم كله والذي قال في قلبه: «أصعد إلى السموات، أرفع كرسيّ فوق كواكب الله... أصعد فوق مرتفعات السحاب، أصير مثل العلي. لكنك انحدرت إلى الهاوية، إلى أسافل الجب.» (إش١٤: ١٣-١٥)

لقد أشفق الرب على شجاعة بطرس المنهارة، ولكي يردعه حتى لا يرتكب حماقة، أعلن له أقصى ما يمكن أن يبلغه من حدود الدفاع عن الرب بدون الرب، ذلك قبل أن ينفجر نور النهار أو يصيح الديك، أو يظهر كوكب الصبح المنير، أو يستعلن نور العالم في القلوب، لأنه في ظلمة الرؤيا وعتمة القلب سينكر بطرس سيده ثلاث مرات، وعمداً مع الإصرار، ويلعن وحلفان وبشهود عيان .

ولكن، في النهاية، وبعد أن أمده المسيح بصلاته وروحه القدوس، استطاع القديس بطرس أن يحقق ما ظن وما

---

[1] حسب التقليد الكاثوليكى فأن القديس بطرس هو الكاتب الخفى لإنجيل القديس مرقس _ ميشيل

قال، ووضع نفسه من أجل المسيح، وحقق أمنية حبه، ومات مصلوباً شهادة أمام العالم كله.

وهذا هو الدرس الفريد الذي يطرحه أمامنا القديس يوحنا كباقي الإنجيليين: أن بطرس كان مثلك ومثلي، بحسب الجسد لا شيء، مكابر، شجاع بلا قوة، مقدام بلا روية، معتد بلا أصل، متسرع سريع الندم، مدعي الأولوية دون دعوة أوتزكية. لكن عندما لمسته النعمة، انقلبت موازينه غير المتزنة، وصار بعد أن حل عليه الروح القدس أول من نطق بلسان يوم أن تقسمت موهبة الألسن، وأول واعظ ارتجت له المنابر، وصاحب أول حصاد لحساب رب الحصاد، ثلاثة آلاف نفس يهودية نقية اعتمدوا في يوم واحد. وكانت هي أول كنيسة في العالم.

فبطرس هو أقوى عمود من ثلاثة أعمدة، حملت سقف وأسقفية كنيسة أورشليم، وأول من ملأ كنيسه بعملة سماوية مسكوكة باسم يسوع المسيح الغالي القيمة، دفح منه ثمن شفاء أعرج من بطن أمه، كان يُحمل على الكتف أربعين سنة (راجع أع٣:١ – ٢٢:٤). فكانت أول معجزة بعد معجزات المسيح أجراها من داخل الهيكل أمام كهنة وفريسيين والاف من شهود عيان في رواق سليمان؛ حيث اتخذها بطرس فرصة، وأخذ يوبخ بلا رحمة الذين بجهالة صلبوا رب المجد، ولما هددوه مع يوحنا صليا مع بقية الرفاق صلاة تزعزع لها المكان (راجع أع٤:٢٣-٣١). وهكذا جاهر بطرس بالإيمان، وشدد إخوته حسب الوصية، ثم منطقوه، وحيث لا يشاء صلبوه، وهكذا تبع المسيح أخيراً حسب الوعد!

تم فى ٢٠١٧/٨/١٢

الأصحاح الرابع عشر

حديث الوداع الأول

الحديث عن الآب والمضي إليه

«لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ. أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فَآمِنُوا بِي. فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ وَإِلاَّ فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ. أَنَا أَمْضِي لِأُعِدَّ لَكُمْ مَكَاناً. وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعْدَدْتُ لَكُمْ مَكَاناً آتِي أَيْضاً وَآخُذُكُمْ إِلَيَّ حَتَّى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً. وَتَعْلَمُونَ حَيْثُ أَنَا أَذْهَبُ وَتَعْلَمُونَ الطَّرِيقَ». قَالَ لَهُ تُومَا: «يَا سَيِّدُ لَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ فَكَيْفَ نَقْدِرُ أَنْ نَعْرِفَ الطَّرِيقَ؟». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآب إِلاَّ بِي. لَوْ كُنْتُمْ قَدْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً. وَمِنَ الآنَ تَعْرِفُونَهُ وَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ». قَالَ لَهُ فِيلُبُّسُ: «يَا سَيِّدُ أَرِنَا الآب وَكَفَانَا». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً هَذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ! اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآب فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ أَرِنَا الآب؟ أَلَسْتَ تُؤْمِنُ أَنِّي أَنَا فِي الآب وَالآب فِيَّ؟ الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي لَكِنَّ الآب الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ. صَدِّقُونِي أَنِّي فِي الآب وَالآب فِيَّ وَإِلاَّ فَصَدِّقُونِي لِسَبَبِ الأَعْمَالِ نَفْسِهَا. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَالأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا يَعْمَلُهَا هُوَ أَيْضاً وَيَعْمَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا لأَنِّي مَاضٍ إِلَى أَبِي. وَمَهْمَا سَأَلْتُمْ بِاسْمِي فَذَلِكَ أَفْعَلُهُ لِيَتَمَجَّدَ الآب بِالابن. إِنْ سَأَلْتُمْ شَيْئاً بِاسْمِي فَإِنِّي أَفْعَلُهُ. «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ. وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآب فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّياً آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ. رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ. لاَ أَتْرُكُكُمْ يَتَامَى. إِنِّي آتِي إِلَيْكُمْ. بَعْدَ قَلِيلٍ لاَ يَرَانِي الْعَالَمُ أَيْضاً وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَرَوْنَنِي. إِنِّي أَنَا حَيٌّ فَأَنْتُمْ سَتَحْيَوْنَ. فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا فِي أَبِي وَأَنْتُمْ فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ. اَلَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحِبُّنِي وَالَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي وَأَنَا أُحِبُّهُ وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي». قَالَ لَهُ يَهُوذَا لَيْسَ الإِسْخَرْيُوطِيَّ: «يَا سَيِّدُ مَاذَا حَدَثَ حَتَّى إِنَّكَ مُزْمِعٌ أَنْ تُظْهِرَ ذَاتَكَ لَنَا وَلَيْسَ لِلْعَالَمِ؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كلاَمِي وَيُحِبُّهُ أَبِي وَإِلَيْهِ نَأْتِي وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً. اَلَّذِي لاَ يُحِبُّنِي لاَ يَحْفَظُ كلاَمِي. وَالْكَلاَمُ الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي. بِهَذَا كَلَّمْتُكُمْ وَأَنَا عِنْدَكُمْ. وَأَمَّا الْمُعَزِّي الرُّوحُ الْقُدُسُ الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآب بِاسْمِي فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ. «سلاَماً أَتْرُكُ لَكُمْ. سلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ. سَمِعْتُمْ أَنِّي قُلْتُ لَكُمْ أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ آتِي إِلَيْكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الآب لأَنَّ أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي. وَقُلْتُ لَكُمُ الآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّى مَتَى كَانَ تُؤْمِنُونَ. لاَ أَتَكَلَّمُ أَيْضاً مَعَكُمْ كَثِيراً لأَنَّ رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِيَّ شَيْءٌ. وَلَكِنْ لِيَفْهَمَ الْعَالَمُ أَنِّي أُحِبُّ الآب وَكَمَا أَوْصَانِي الآب هَكَذَا أَفْعَلُ. قُومُوا نَنْطَلِقْ مِنْ هَهُنَا»

(أ) المسيح يعزي تلاميذه بالرجاء السماوى.

(ب) يعّرف نفسه بأنه هو الطريق والحق والحياة، وأنه واحد مع الآب.

(ج) يعدهم بتأكيد استجابة الصلاة التي تُقدم باسمه.

(د) يوصي بالمحبة والطاعة.

(هـ) الوعد بإرسال الروح القدس المعزى.

(و) يترك سلامه لهم.

تمهيد: جولة حول الاصحاح بأكمله.

القديس يوحنا، في الأصحاحات القادمة، يصف لنا المسيح من مستوى عملي وقيادى، كيف قاد تلاميذه بهدوء فائق الوصف في أعنف عاصفة هوجاء يمكن أن تواجه جماعة صغيرة للغاية، كقطيع وديع من خراف محاصرة من كل ناحية، ووسطها ذئب فاجر يعوي لتسمعه الذئاب في الخارج، لتتعرف على المكان وعلى أسراره. والراعي يطمئن خرافة أن لا تضطرب ولا تجزع، فقد اشترى حياتها بدمه، وهو ضامن سلامها، وها هو ذاهب في رحلة سماوية وسيعود بعدها إليهم محملاً بالأخبار السارة والمفرحة، ليسلمهم سر الطريق الصاعد إلى فوق، وسوف يتحدث مع الآب بخصومهم مع توصية خامة أن يستمع الآب نفسه أصواتهم. وقد أخذ يصف لهم صورة الآب، فأراهم نفسه مؤكدا لهم أنه هو هو الصورة المنظورة للآب غير المنظور، وأنه هو والآب واحد في كل شيء، وفاجأهم بكشف أعظم سر عند الآب، وهو الروح القدس الذي يوحدهما بالحب، واعداً بأنه سيطلب من الآب أن يرسله إليهم ليعزيهم عن فراقه لهم بالعيان، وليملأهم بالمعرفة وكل الحق، ليتذكروا كل ما قاله لهم وما عمله أمامهم، حتى يتكلموا بكلمته عينها ويشهدوا بها ولها مقروءة ومكتوبة. ثم ترك المسيح لهم سلامه الخاص، الذي ينسكب من السماء من فوق مناطق العقل والاضطراب، فيكون لهم مصدر أمان سماوي واطمئنان دائم في كل زعازع العالم ومكايد الشيطان. وسلامه هذا سيكون عوض سلام العالم الذي يعطيه باليمين ويسحبه بالشمال، يمنحه اليوم وينزعه غداً، وبالنهاية هو قبض الريح.

وفي نهاية الحديث، اكفهر وجه الرب لمنظر، لم يتبينه يوحنا ولا التلاميذ، إذ ظهر للمسيح رئيس العالم قادماً للحرب، ولكن عبثاً يحارب، فليس له في المسيح مأخذ. لم يؤخذ المسيح، ولم يرتد، بل كف عن الحديث، وأعلن عن انتهاء زمان الأحاديث إلا قليلاً. ثم أمرهم أن يغادروا المكان فوراً، لأن العدو كان يترتص بهم، ولم يشأ الرب أن يقبض عليهم داخل البيت.

يعتقد العالم اللغوي وشارح الإنجيل بيورنى أن في الآيات من (١-١٠) يوجد شعر أرامي منظوم على أساس كل أربعة توقيعات وحدة شعرية. لذلك فهي تحوي خطاً فكرياً موحداً.

١- «لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ. أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فَآمِنُوا بِي.

بعد أن حذر الرب بطرس، وهو مقدام التلاميذ، أنه سينكره هذه الليلة ثلاث مرات، صمت بطرس، وصمت أيضاً التلاميذ، مع جزع ورعبة؛ لأنه إن كان الرب ذاهباً ليموت، وإن كان هذا هو يهوذا، وهذا هو بطرس أيضاً، فمن نكون نحن؟

لتد ملأ الحزن قلوبهم ... وفجأة قطع الرب الصمت بكلمات، افتتح بها كوى السماء لتفيض سلاماً في قلوب التلاميذ. فكانت كلمات الرب هذه تُعتبر الدرة الثمينة في إنجيل المسيح.

«لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ.»:

«يضطرب»: كلمة «يضطرب» باليونانية (   ) وباللاتينية (   ). فإن كنا قد عرفنا سابقاً أن المسيح «اضطرب بالروح» (١٢:٢٧، ١٣:٢١)، فاضطراب المسيح لم يكن عن فقدان الصلة بالآب، التي هي قاعدة الثبوت العليا، ولا عن خوف لأنه لم يرهب للموت جانباً، إذ وطأ هامته بقدميه، ولا كان اضطرابه بسبب الخوف من المجهول لأنه كان «عالماً بكل شيء». ولكن اضطرابه، كما علمنا، كان ردة فعل الجسد لهول المعركة الروحية التي كان قابضاً على زمامها. فاضطراب المسيح شيء واضطراب التلاميذ شيء آخر، فالاضطراب لا يتملك على الإنسان إلا إذا تخلخل رباط الإيمان بالل . فاضطراب التلاميذ كان بسبب تزعزع رباط الإيمان بالله.

«قلوبكم»: الترجمة العربية متصرف فيها، فهي في الأصل اليوناني مفرد (   )، وهذا أسلوب أرامي وعبري. و«القلب» في المفهوم الشرقي هو مصدر الشعور. أما في اللغة القبطية، فالقلب هو مصدر جميع العواطف والفهم والذكاء والغباء أيضاً، فالرجل الذكي يسمى (   )، والرجل القوي الشجاع يسمى (   ) والرجل الرحيم (   ) والرجل الغبي (   ) بلا قلب أصلاً.

و«تضطرب» باليونانية تُستخدم كالعربية في اضطراب البحر أيضاً، والشبه بين اضطراب القلب واضطراب أمواج البحر مصطلح يستخدمه الوحي الإلهي في الكتاب كثيراً . فالخوف من الموت، وأخطر منه الخوف من المجهول، يطيح بفكر الإنسان فلا يعود يستقر له قرار. والمعروف في الاختبار الإيماني، أن سبب الخوف دائماً وبلا استثناء هو فقدان الصلة مع الله. فأمان الإنسان الوحيد هو في تطلعه نحو الله والإمساك به بالإيمان، فإذا ركز الإنسان فكره في الواقع المفزع أمامه يغرق في الحال، هذا كان حال القديس بطرس أيضاً، إذ لماذا بدأ يغرق والرب واقف أمامه؟، «ولكن لما رأى الريح شديدة، خاف؛ وإذ ابتدأ يغرق، صرخ قائلاً: يا رب نجني، ففي الحال مد يسوع يده، وأمسك به، وقال له: يا قليل الإيمان، لماذا شككت» (مت١٤: ٣٠-٣١). أي، لما ركز رؤيته في الريح، فقد رؤيته للمسيح، وهكذا فقد قاعدة ثبوته فوق الماء.

وهنا الرب أيضاً لا يتكلم مجرد كلمة «لا تضطرب قلوبكم»، بل يمد يده لينتشل التلاميذ. فحينما يأمر المسيح، فأمره ينفذ بقوة الكلمة الحية، ويحمل تنفيذه في طاعته، وهو، مع المعونة الإضافية التي يمنحها لهم بالكلمة، يذكرهم بالقاعدة الثابتة التي ينبغي أن يربطوا، أو يكونوا قد ربطوا فيها، ثقتهم وهي: الإيمان بالله.

« أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فَآمِنُوا بِي»: «الإيمان» باللغة الآرامة (لغة القديس يوحنا تعني «الثبوت»)، لأن قاعدة الثبوت الجوهرة أو «الثبوت الحق» هو الله، في الأدب العبري. فالذي يؤمن بالله يعني الذي يثبت في الله أو يشترك في ثبوته، كما في الصخر، فالله «صخر الدهور» (إش٢٦: ٤)، أي الثابت على مر الأيام وكر السنين.

خطر الثنائية في اللاهوت ينبغي أن نحترس منه دائماً، عندما نضع المسيح نفسه في مقابل الله أو الآب، فالمعنى هنا هو: إن كنتم تؤمنون بالله فأنتم تؤمنون بي أيضاً، وبالضرورة، حتى وإن كنتم لا تعرفون الآن!! وهنا يلزم أن نربط هذه الآية بالكلام الوارد بعدها، لأنه يعطيها الرؤية اللازمة والتوهج اللاهوتي المطلوب. فالمسيح بعد ذكره الله، يعود ويذكره باسم «أبي» (١٤: ٢)، ثم يذكره باسم «الآب» (١٤: ٦)، وبذلك يكون المعنى، بمد ضم الصفات، كالآتي: أنتم تؤمنون بالله، هذا جيد جداً، وأنا أترككم لأذهب إلى الله، الذي هو أبي، وهو الآب (أبوكم). فإن كتم تؤمنون بالله حقاً، وهذا صحيح وواجب، فإيمانكم بالله فيه الكفاية ليجعلكم تؤمنون بي.

إذن، فاربطوا ثقتكم ورجاءكم بما هو فوق، ولا تنظروا إلى مفازع الموت وتهديداته، لأن الموت وارد حتماً كل حين. لهذا أنا ذاهب إلى الآب لأعد لكم هناك مكاناً، حتى إذا دعاكم داعي الموت، وهو حتماً سيدعو، فأنا آتي سريعا وأخذكم.

وهو بهذا الكلام يجعل من موته مهمة عظمى في السماء تختص بهم هم، أما موته بالنسبة له فهو مجرد سفر إلى موطنه السعيد الذي يذهب إليه ليعود أيضاً لنكون معه دائماً. فلماذا الخوف ولماذا الاضطراب؟

وحتى سفره السعيد هذا، لا يكون كأنه بلا عمل بل هو، في الحقيقة وواقع الأمر، يعبد طريقاً إلى الله، ومنه إلينا، ليعود إلى الآب، ومعه دائماً أبناء كثيرون إلى المجد (عب٢: ١٠)، لأن كل ما يصنعه المسيح هو لأجلنا.

٢ - فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ وَإِلاَّ فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ. أَنَا أَمْضِي لِأُعِدَّ لَكُمْ مَكَاناً.

الصحيح ينبغي أن تُقرأ هذه الآية هكذا: «في بيت أبي مواضع كثيرة»، لأن البيت هو المقابل الروحي للهيكل الذى قال عنه المسيح: «بيتي بيت الصلاة يُدعى» (مت٢١:١٣)، «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة» (يو٢:١٦)، وأما المواضع الكثيرة أو المساكن الكثيرة في البيت، فهي المقابل للأروقة. والأروقة بها غرف كثيرة (١مل ٦:٥-٦)، وقد وصف القديس بولس الرسول ذلك: «فلنا في السموات بناء من الله، بيت غير مصنوع بيد أبدي.» (٢كو ٥:١)

و«المواضع» قال عنها القديس بولس أيضاً: « فإنا في هذه أيضاً نئن، مشتاقين إلى أن نلبس فوقها مسكننا، الذي من السماء.» (٢كو٥:٢)

«مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ»: الكلمة اليونانية منحوتة من ( ) وتعني «مسكن دائم» أو «بيت» (وليس «منزل»). وهي التي جاءت في الأية (٢٣): «وإليه نأتي وعنده نصنع بيتاً (منزلاً)»، أي إقامة دائمة!!

ولكن كلمة «منزل» باللغة العربية خاطئة ومفسدة للمعنى، لأن «المنزل» غير«البيت». فالمنزل يعني مكاناً ينزل فيه الإنسان عابراً وليس مقيماً، وممه النزل أي الخان أو الاوتيل حيث الإقامة الدائمة منعدمة؛ أما البيت فللأقامة الدائمة. وفي كتابات هامة للقديس إيرينيئوس («ضد الهرطقات»، الجزء الخامس، المقطع ٣٦:١٢) قطعة ينقلها لنا من أقوال الشيوخ، يقصد بهم بابياس وغيره، يُفهم منها أن الـ ( ) هي «المساكن» أو «المواضع» الدائمة للطوباويين التي تتمايز في المجد، ولكنها ليست مقيدة، بل ينتقل داخلها الطوبانيون من درجة إلى درجة أعلى.

ويقول في ( )، أيضاً، القديس كلمندس الإسكندري، أنها أماكن متراقية من مجد إلى مجد، وأن الله له ( ) الخاصة به.

وهنا يلزمنا أن نشير إلى المكان الرهباني الجغرافي المجاور لمنطقة القلال، بجوار هرموبوليس بارفا (دمنهور الآن)، والذي كان يسمى ( )؛ هذه الكلمة سُميت بالعربية «الُمنى» بالمدة المفتوحة دون ترجمة لجهل المترجم. وحقيقة الأمر أن الآباء الرهبان كانوا يرون في حياتهم وسكناهم صورة سماوية على الأرض، فأطلقوا على مساكنهم هذه اللفظة المستعارة من إنجيل يوحنا، أي ( ).

«وَإِلاَّ فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ. أَنَا أَمْضِي لِأُعِدَّ لَكُمْ مَكَاناً»: احتار علماء الكتاب في شرح هذه الآية ولكنهم استقروا على أنها استفهامية منفية هكذا: (إذا لم يكن هذا حقيقياً، أي أنه ليس في بيت أبي منازل كثيرة، فهل كنت قد قلت لكم إنى أمضى وأعد لكم مكاناً)

والمعنى يزداد وضوحاً إذا أخذنا أيضاً بمفهوم المسكن في سفر العبرانيين: «وأما المسيح، وهو قد جاء رئيس كهنة للخيرات العتيدة، فبالمسكن الأعظم والأكمل، غير المصنوع بيد، أي الذي ليس من هذه الخليقة. وليس بدم تيوس وعجول، بل بدم نفسه، دخل مرة واحدة إلى الأقداس، فوجد فداءً أبدياً» (عب٩:١١-١٢). «حيث دخل يسوع كسابق لأجلنا» (عب٦:٢٠). هذه الأية تنطبق انطباقاً عجيباً وعميقاً على آية إنجيل يوحنا، وتشرحها، وتشرح كيف وبماذا هيأ لنا المسكن السماوي، وكيف دشنه بدمه، حتى يصلح لسكنى الخطاة.

«أَنَا أَمْضِي لِأُعِدَّ لَكُمْ مَكَاناً»: الموضوع كله تعزية، الرب يهون على أحبائه ثقل الفراق، ويدخل إلى الحقيقة الروحية مباشرة، فالإقامة في الأرض خرافة، الإقامة الحقيقية والدائمة هي فوق، الأرض ليست «موضعاً» للروح بل هي أولاً وأخيراً مقبرة حزينة للجسد، والجسد مهما تجمل فالذبول مآله. إذن، فالرجاء كله يتحتم أن يُربط بالموطن الحقيقي وعند من؟ عند الآب. وللابن عند الآب مجال إلهي، كله مجد وبهاء وسلطان، كان قد تخلى عنه ليتفرغ إلى مهمته على الأرض بالجسد.

والآن قد آن الأوان للعودة إلى الأحضان الأبوية واستعادة المجد الذي له عند الآب واستلام كل سلطانه على قوات السموات، ليس كابن الله فقط، بل وابن الإنسان أيضاً، فالابن يعود إلى الآب حاملاً البشرية فيه، فعندما يوطد سلطانه بوضعه الجديد من جهة «بشريته»، أي عندما يوطد «للانسان» مكانة جديدة لدى الآب، ويوطن الإنسان بعد غربته الطويلة في موطنه الأول مع الله، من داخل البنوة العزيزة والفريدة التي له عند الآب، ويطمئن أن الحضن الأبوي يسع الإنسان الجديد المتبنى في ميراث بنوته الإلهية الوحيدة، حينئذ يعود ليأخذ الإنسان المفدي والمبرر والمتقدس والمولود جديداً من الماء الحي والروح المُحيي، المغسول بالدم الإلهي، المتهيىء بالنعمة، والمستضيء بالنور الإلهي لميراثه الجديد في النور الذي لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل المحفوظ في السموات.

وربما تكون هذه المهمة، أي توطين الإنسان عند الله مرة أخرى، هي أعظم وأخطر عمل للمسيح سيقوم به عند الآب بعد تكميل مهمة الصليب، فهي النتيجة النهائية وختام التدبير الإلهي المتحمل من عمليتي التجسد والفداء.

أما تعدد «المنازل» في البيت الأبوي فراجع إلى درجات الاستنارة والإنارة. فعالم الله فوق، هو عالم النور، ولا يوجد فيه أية خليقة غير منيرة. لذلك يقول عنه سفر الرؤيا إنه ليس فيه شمس ولا قمر، بل الله والخروف سراجه (رؤ٢١:٢٣). فالمسيح هو النورالحقيقي، وباتحادنا به بالسر الآن يعطينا استنارة فقط، تنشط الذهن الروحي لإدراك ما لا يُدرك ورؤية ما لا يُرى، وهذا عربون ما سيكون بالقيامة أي بالا ستعلان والتجلي، حينها يتغير جسدنا المعتم، جسد الخطية المظلم، ليكون على شبه جسد مجد المسيح المضيء (في٣:٢١). وهذا هو قول المسيح نفسه: «حينئذ يضيء الآبرار كالشمس في ملكوت أبيهم» (مت١٣:٤٣)، بأنوار تتعدد وتترقى درجاتها، تبعاً لتعدد وتميز درجات الاستنارة الذهنية فيما يخص الإلهيات الآن.

والكلام يكاد يكون واضحاً أنه، منذ الآن، أمامنا طريق الاستنارة بالكلمة وعمل البر مفتوحاً لتنقية القلب، لأن أنقياء القلب هم الذين يعاينون الله (مت٥:٨)، لنستزيد منه قدر ما نشتهي، وقدر ما نطلب ونسعى ونجتهد بالحب والحق، بانتظار القيامة والتجلي بنور المسيح، حينئذ نأخذ مواضعنا المناسبة لاستنارتنا في المنازل العليا المعدة في نور القديسين: «حينئذ يضيء الآبرار كالشمس في ملكوت أبيهم.» (مت١٣:٤٣)

٣- وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعْدَدْتُ لَكُمْ مَكَاناً آتِي أَيْضاً وَآخُذُكُمْ إِلَيَّ حَتَّى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً.

هنا يلطف المسيح من أثر صدمة الفراق، ويجعلها كأنها ضرورة حتمية، من أجل التلاميذ والعالم، فالمعنى يحمل العودة، والعودة ذات شأذ وشئون، من أجل ضمان الخلود، فكأني بالمسيح يقول لهم: أنتم الآن «غرباء» و «يتامى» ولا يمكن أن أترككم كذلك، فلابد أن أمضى لأعد لكم «موطناً» في «بنوة» الله، وآتي مرة أخرى، لا من أجل الخطية وغفرانها بعد، بل من أجل ميراث ومجد مُعد!! «هكذا المسيح أيضاً بعدما قُدم مرة لكي يحمل خطايا كثيرين، سيظهر ثانية بلا خطية، للخلاص للذين ينتظرونه» (عب٩:٢٨)، وبالأسلوب اللاهوتي: هي فرقة وقية الآن، لحساب اتحاد أبدي آت.

«آتي أيضاً»: مجيء المسيح الثاني أمر، وإن كان قد وقعه المسيح مسبقاً على مستوى الزمن، إلا أنه لا يستعلن زمنياً، فلا هو معروف متى سيكون أو كيف سيكون، لأن ظهوره سيكون مقصوراً على ذوي البصائر المفتوحة بالروح فقط: «قال له يسوع: إن كنت أشاء أنه يبقى حتى أجيء، فماذا لك؟! اتبعني انت» (يو٢١:٢٢)

+ «والآن، أيها الأولاد، اثبتوا فيه، حتى إذا أُظهر، يكون لنا ثقة ولا نخجل منه في مجيئه.» (١يو٢:٢٨)

+ «أيها الأحباء، الأن نحن أولاد الله، ولم يظهر بعد ماذا سنكون، ولكن نعلم أنه إذا أُظهر نكون مثله لأننا سنراه

كما هو.» (١يو٣:٢)

+ «وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر، الذي تهبه لي، في ذلك اليوم، الرب الديان العادل، وليس لي فقط، بل لجميع الذي يحبون ظهوره أيضاً.» (٢تي٤:٨)

+ «متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه في المجد.» (كو٣:٤)

+ «فإن سيرتنا نحن هي في السموات، التي منها ننتظر أيضاً مخلصاً هو الرب يسوع المسيح، الذي سيغير شكل جسد تواضعنا، ليكون على صورة جسد مجده، بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء»(في٣:٢٠-٢١)

و«مجيء المسيح» في لاهوت إنجيل القديس يوحنا غير محدد، فهو، كما لخصه في المقدمة، في صورته الدائمة والمستمرة على مدى الزمن والأزمان كلها: «كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان أتيا إلى العالم» (يو١:٩)، أي أن المسيح، كنور العالم، هو في حالة مجيء مستمر ومتعدد «آتياً». فهو أتى، ويأتي، وآت، وسيأتي. «أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، يقول الرب الكائن والذي كان، والذي يأتي، القادر على كل شيء» (رؤ١:٨)؛ «لأنه بعد قليل جداً سيأتي الآتي ولا يبطيء» (عب١٠:٣٧)؛ «لا أترككم يتأمى، إني آتي إليكم.» (يو١٤:١٨)

وواضح أن مجيء المسيح خبرة إيمانية، فهو حالة استعلان أو ظهور أو حلول الحضرة الإلهية في الحياة الحاضرة كاختبار فرحة الإيمان بحضور المسيح، أو حالة انطلاق الروح بعد الموت واستعلان المسيح المفاجيء للروح وحصولها على حالة غبطة فائقة، أو مع مجيء الروح القدس للتوبيخ والتبكيت والإنذار، وظهور المسيح بمظهر القاضي والديان لردع النفس وفتح طريق التوبة أمامها، أو في مجيئه اليومي والأسبوعي في الكنيسة لقيادة صلواتها ومسيرتها، وتقديس أسرارها، ومنح نفسه لأولادها، أو في مجيئه الأخير لإخضاع كل شيء ولتغيير هيئة العالم واستعلان سماء جديدة وأرض جديدة، كل هذا واقع في صميم مجيء المسيح كحقيقة أبدية فائقة على الزمان ولكنها مُستعلنة فيه.

«آخذكم إلي»: التعبير اليوناني أغنى من العربي، وأكثر عمقاً: (   ) أي « أستقبلكم إلى نفسي»، حيث كلمة (   ) باليونانية تفيد استمرار الاندفاع نحو الآخر، وكأنما التلاميذ، وهم مدفوعون بالشوق الشديد ومنجذبون بالروح نحو المسيح، من جراء الحب أو العشق الإلهي الذي احترقت به قلوبهم، إذ بالمسيح يستقبلهم ويضمهم إلى حضنه فيكمل عجز اندفاعهم نحوه، يجذبهم إلى نفسه حسب شدة قوة حبه الفائق على حبهم؛ وما نقص من استحقاقهم للقرب منه، يعوضه باستحقاق بره القادر أن يوحدهم بنفسه.

وهنا يلزمنا أيها القاريء العزيز أن ننوه بالفارق الكبير بين ما نستمتع به الآن من استعلانات حضرة المسيح التي ننعم بها في صلواتنا وحبنا وشدة فرحتنا التي تغمر مشاعرنا وكأننا بلغنا المنتهى، وبين ما أعده لنا المسيح في ملكوته؛ الأ مر الذي لو تأملناه لهانت علينا الآن كل آلام الزمان الحاضر مع أوجاع الجسد وهموم العالم...

«حتى حيث أكون أنا، تكونون أنتم أيضاً»: ما دفعه المسيح في تعذيبات الذبح وكل التغريمات التي فُرضت عليه ودفعها راضياً، سيذهب إلى الآب ليأخذ ثمنها بالكامل، كحقوق ثابتة تضاف بكاملها لحسابنا. فالمجد الذي يسترده، يُعطى له مضافاً إليه اتساعات تسع كل مدعويه الذين دعاهم ولبوا الدعوة لوليمة مجد سمائي، تهتز لها كل العروش والسيادات. إنها حفلة عرس الخروف والكنيسة، مزينة بكامل زينة المسيح عريسها. وتاج البنوة الإلهية. الذي للمسيح الفريد والوحيد في السلطان والعظمة والرئاسة، يتسع ليشمل رؤوس كل المدعوين، الذين رفعهم من درجات العبيد إلى درجة أصدقاء وأحباء العريس، بصك التبني المكتوب والمختوم بالدم؛ لأن العريس،

وهو ابن الله الوحيد، المونوجانيس، أخذ في تغربه على الأرض جنسية البشر، وبهذا أعطى البشرية حق التجنس بجنسية العريس، فنالوا استحقاق التواجد الدائم معه، وكأنهم صاروا أهلية له، أو «أهل بيت الله» (أف٢:١٩)، أو عروساً مع عريسها فى خدر سمائى واحد.

قول المسيح: « حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً»، تعبير لاهوتي يعبر عن كيان غير مفترق، بحسب عمل شدة قوته، وتفاضل غنى نعمته، التي أكمل بها عجز الإنسان في عيني الله، هذا العمل الذي انتهى إلى عمل وحدة غير مفترقة مع المسيح والله (يو١٧). أما بحسب العيان، فقد رأى القديس يوحنا هذه الكينونة غير المفترقة على صورة راع ورعية: «... هؤلاء هم الذين يتبعون الخروف حيثما ذهب... لأنهم بلا عيب قدام عرش الله (رؤ١٤:٤-٥)

وقد عاد المسيح وركز على هذا الوجود أو الكيان المتلازم بينه وبين أحبائه في صلاته الأخيرة للآب: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني، يكونون معي حيث أكون أنا يكونون معى لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم.» (يو١٧:٢٤)

لذلك كان مئتهى شهوة القديسين أن يفلتوا من سطوة الجسد ويكونوا مع المسيح: «فإني محصور من الاثنين، لى اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً، ولكن أن أبقى في الجسد ألزم من أجلكم.» (في١:٢٣-٢٤)

٤- وَتَعْلَمُونَ حَيْثُ أَنَا أَذْهَبُ وَتَعْلَمُونَ الطَّرِيقَ».

المسيح يفترض في تلاميذه، أو هو يدعوهم إلى هذا الافتراض، أنه بحسب كل ما سمعوه منه حتى الآن وكل ما صنعه أمامهم، فهم يعرفون أنه ذاهب إلى الصليب، ومن الصليب إلى أبيه، وبذهابه إلى الصليب بإرادته، وكأنه ذاهب إلى مهمة خاصة وعاجلة، ثم بارتفاعه، عن طريق الموت، إلى الآب كمن يقدم تقريراً عن اكتمال مهمته، يكون قد افتتح طريقاً جديداً من الأرض إلى السماء ومن الإنسان إلى الله، طريقاً صالحاً لعبور كل الذين نالوا العتق من حكم الموت.

تم جاء سؤال توما وسؤال فيلبس، فاستقبلهما المسيح كما استقبل حديث تلميذي عمواس، فما بعد، حيث أكمل عحز الفكر البشري وتخلفه عن متابعة استعلانات الروح من واقع الحوادث.

ألم يقدم لهم، منذ ساعة، جسده المكسور ودمه المسفوك؟ ألم يخرج أمامهم يهوذا بعد أن أخذ شهادة من الرب أنه المعين من قبل الشيطان لتسليم الرب للموت؟

٥- قَالَ لَهُ تُومَا: «يَا سَيِّدُ لَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ فَكَيْفَ نَقْدِرُ أَنْ نَعْرِفَ الطَّرِيقَ؟».

ما معنى الذهاب إلى الآب، وما معنى إعداد المكان، وكيفية العودة؟ ما أسرار هذه الرحلة التي لم يسمح بها أحد قط ولا خطرت على قلب بشر؟ هل ستأخذه مركبة نارية؟ هل ستقوده ملائكة؟ هل على سلم يعقوب؟ ثم إلى أين، هل إلى حضن إبراهيم؟ أم إلى حضن أعلى؟ وكيف يتبعونه فى طريق لا يعرفونه، فكيف يقول لهم: تعرفون الطريق؟ تسرع على كل حال!!

ثم إن الصعوبة التي قامت في ذهن التلاميذ كانت تدور حول كيف يُنشىء الموت أملاً ورجاءً لأن «القيامة» كانت مختفية عن أذهانهم. والموقف هنا شبيه بموقف مرثا، فهي تعرف أن أخاها سيقوم في اليوم الأخير، ولكن ما علاقة ذلك بالمسيح؟ مما جعل المسيح يعلن نفسه لها أنه هو «القيامة والحياة»، وبرهن لها ذلك بالفعل، إذ أقام أخاها من الموت.

توما هنا يسأل عن معنى الذهاب وكيفية الذهاب وإلى أين يكون الذهاب، فكيف بعد هذا يعرفون الطريق؟ لقد بدا

لهم الموضوع على مستوى جسدي، فتحيرت عقولهم كتلميذي عمواس، مما اضطر المسيح أن يقول له كما قال لمرثا: «أنا هو القيامة والحياة» ولكن بصورة أخرى: «أنا هو الطريق والحق والحياة». مرثا لم تفهم علاقة القيامة بالمسيح، وتوما لم يفهم علاقة «الطريق» بالمسيح. الموت وقف ليسد كل منافذ التفكير والأمل عند مرثا، وكذلك أيضاً عند توما. ولكن عند توما كانت العقبة هي في «حقيقة» الموت كطريق حياة، هذا كان أمراً صعباً «كحقيقة».
فالمسيح فسر كل هذه الخفيات واستعلنها «في نفسه» أنه هو الطريق، وهو الحقيقة التي تعلن الطريق وتقود إليه، وهو الحياة كنهاية وغاية. وبمعنى مختصر ولكن يفوق التصور الجسدي ولا يمكن أن يمسكه العقل، أن الذي يمسك بالمسيح يكون قد عبر الطريق دون أن يجوزه، وعبر الموت دون أن يعبر رُعبته، ويكون قد قام دون أن يموت، بل يكون قد بلغ موضعه في السماء واستقر دون أن يغادر الأرض، أو يكون قد غادرها، سيان. ألم يقل المسيح مرة أنه هو ابن الإنسان الذي على الأرض الذي هو في السماء؟ «وَلَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلاَّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ابْنُ الإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ.» (يو١٣:٣)، وكأنه هنا وهناك بآن واحد، ونزل وصعد دون أن يغادر لا هنا ولا هناك، وأنه وهو معنا لم يغادر حضن الآب، وألم يقل لهم في بكور أيام تلمذتهم أنهم من الأن... «يرون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو٥١:١)؟ فلمن كانت الملائكة تصعد بهذه السهولة؟ إلا للانسان، لتمهد له الصعود؟ ولمن كانت تنزل؟ إلا لنا، لكي تمسك بأيدينا لنصعد بسهولة، فكيف لا يصعد الإنسان؟ والسلم قد أقامه لنا من جسده الذي ثبت به الأرض بالسماء، وأطعمهم به علنا ليثبت فيهم إلى الأبد ويثبتون فيه، فلا يحتاجون إلى من يعرفهم الطريق بعد، إذ هو قائم في داخلهم، وسقاهم دمه ليسكن فيهم روحه الأزلي، ليصيروا من الروحيين إلى الأبد، إذا نفضوا غربتهم عن الأرض والأرضيين.
ألم يظهر الله في الجسد، فصار معنا، لكي بالجسد نصير في الروح ونظهر معه؟ ألم يلتصق ببشريتنا، فصار واحداً منا، لنلتصق بروحه، فنصير فيه واحداً مع أبيه؟ «وأما من التصق بالرب فهو روح واحد» (اكو١٧:٦)، ألم يتغرب عندنا قليلاً ليفك أسر غربتنا، ويأخذنا لنستوطن عنده إلى الأبد؟ ألم يأخذ من الآب كل شيء: «وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه...» (يو١٣:٣)، ليعطيه لنا، ليمكننا من العودة معه إلى الآب، لنرث كل شيء: «وأنه من عند الله خرج (إلينا)، والى الله يمضي (ونحن معه)»؟ (يو١٣:٣)

٦- قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي.

ثم ما هو الطريق؟ نحن قلنا، كما قالت الرسالة إلى العبرانيين، أن: «... لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأ قداس، بدم يسوع طريقاً كرسه لنا حديثاً، حيا، بالحجاب أي جسده» (عب١٠:١٩-٢٠). ولكن أيضاً ما هو الطريق؟
لو علمنا أن جوهر رسالة المسيح تقوم على فعلين أساسيين أكملهما المسيح:
الفعل الأول: هو استعلان الآب السماوي. فالمسيح، وهوالابن المتجسد، استطاع بصفته هذه، أي من خلاء بنوته المطيعة المحبة للآب، أن يعلن لنا الآب، والأفضل أن نقول يستعلن لنا الآب، لأن الإعلان يختص بالمعرفة عن شيء مُدرك، أما الاستعلان فهو معرفة الخفيات وما لا يُدرك. فالمسيح استطاع بتعليمه وبروحه الأزلى وطاعته المطلقة للآب، أن يستعلن لنا الآب غير المُدرك، ولا معروف. وذلك من خلال تكميل مشيئته والعمل بوصاياه: «أنا قد حفظت وصايا أبي» (يو١٥:١٠)، «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبر» (يو١٨:١)
هذا هو الفعل الأول والهام جداً الذى قام به المسيح، وهو استعلان الآب للعالم.

أما الفعل الثاني: فهو أنه، وهو حامل لجسد البشرية، سمتطاع كابن الصعود به إلى الآب من حيث جاء، وذلك من خلال قوة قيامته، وبواسطة روح الحياة الأبدية التى فيه «... أنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي.» (يو١٣:٣)

بهذين الفعلين: أي باستعلان الآب للعالم، وبرفع البشرية التي فيه إلى الآب السماوي، يكون المسيح هو الطريق الوحيد الموصل إلى الآب، باستعلان شخص الآب فى نفسه، وبالوصول إلى الآب وهو حامل لجسم بشريتنا، وبذلك يكون المسيح حقاً وبالفعل الطريق الوحيد إلى الآب، ولا يستطيع أحد أن يأتي إلى الآب إلا به.

أما فيما يخص الرد على سؤال توما فقد أصبح على توما أن يفهم من كلام المسيح أن المسيح ذاهب إلى الآب، رداً على قوله: «لسنا نعرف أين تذهب»؛ وأن المسيح، بموته عنا وقيامته بنا وصعودنا معه إل الآب، يكون هو الطريق الوحيد المؤدي بنا إلى الآب، ردا على قوله: «فكيف نعرف الطريق».

والمسيح بقوله المختصر والمركز والمشدد: «أنا هو الطريق»، حيث التشديد يأتي مركزاً في اللفظ «أنا هو»، وحيث «أنا» ككيان حي إلهي، أنا وليس أي كيان أو شيء آخر، حيث تأتي «أنا» لتجيب عل كل ما هو مطلوب للمعرفة، وكل ما هو«كيف»، وبأي «قوة»، وبأي «استحقاق»، وبأي «عمل». فتكون المسألة لا تعود تحتمل سؤالاً واستفساراً عن الذهاب وعن الط يق، يكفي الإنسان أن يمسك بالمسيح ليصل إلى الآب: «لأن به لنا كلينا قدوماً، في روح واحد، إلى الآب» (أف١٨:٢)، لأنه هو الطريق بكل مستلزماته، من معرفة كل الحقائق عنه، ومن الحصول على جوهر الحياة اللائقة به.

وبقول الرب هذا، يكون المسيح قد قطع خط الرجعة على أي ادعاء بأي وساطة أخرى، لأي علم أو معرفة أو روح، ليشترك من قريب أو بعيد في الوصول إلى الله. فهو طريق الخلاص الوحيد الموصل للأب، كما رأيناه سابقاً «نَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى» (٩:١٠) أنه هو الباب الوحيد أيضاً .

«أنا هو... الحق والحياة»: المسيح لا يعلم الحق عن الله، بل هو الحق الإلهي، هو الله الابن، وهو استعلان «الآب» في ذاته مباشرة وبلا أي وسيط آخر. فهو «الحق» وهو الوحيد الذي يشهد للحق: «لهذا قد وُلدت أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم، لأشهد للحق.» (يو١٨:٣٧)

أي أن الذي يدرك المسيح، يدرك الله الآب. فالمسيح هو استعلان الآب، يستعلن في ذاته من خلال «الكلمة والعمل».

كذلك «الحياة»، فالمسيح لا يمنح حياة غير حياته، وحياته هي ذاته: «فيه كانت الحياة» (يو١:٤)؛ «فمن يأكلني، فهو يحيا بي» (يو٦:٥٧). وحياته هي الحياة الأبدية، وهي حياة الآب، وهي رسالته: «أتيت لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل» (يو١٠:١٠)، وكلماته هي روح وحياة (يو ٦:٦٣)، والذي يسمع كلام المسيح يحيا ولو كان ميتاً(يو٥:٢٤)، «ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه.» (يو٢٠:٣١)

كثير من الشراح لم ينتبهوا إلى أن المسيح يركز على الفصل بين الطريق، والحق، والحياة، فهو كل واحد من هذه؛ فهو الطريق، وهو الحق، وهو الحياة، والحق طريق يؤدي إلى الآب، والحق هو استعلان الآب، والحياة هى فى ذاته وفى الآب.

لذلك لا يستقيم القول بأن الطريق يؤدي إلى الحق والحق يؤدي إلى الحياة، هذا خلط بين النظريات الفكرية والواقع الالهي القائم بالكيان الذاتي في المسيح . فالمسيح، بالكيان الذاتي، هو الطريق الموصل إلى الآب، وبالكيان الذاتي يستعلن الحق، وهو الآب فيه، وبالكيان الذاتي هو الحياة، فيه وفي الآب. فالمجال هنا لا يتسع لنظريات يصطنعها

الفكر البشري، لتولف بين الطريق والحق والحياة وكأنها مراضيع، هذا خروج عن المعنى اللاهوتي الصحيح، فهي «ذات» وليست موضوعاً.

كذلك يقول أحد العلماء الكبار، وهو توما الأكويني، في نظريته التي وضعها في القرون الوسطى بأن المسيح هو طريق بحسب بشريته، ولكنه هو الحق والحياة بلاهوته. هذا تمزيق للمسيح لا يقبله الفكر اللاهوتي الصحيح. فبشرية المسيح لا وجود لها بدون لاهوته، ولا عمل لها خارج عمل لاهوته. وجسد المسيح صار طريقاً حديثاً إلى الأقداس العليا بلاهوته لأنه ««جسد الكلمة»، و «الكلمة المتجسد» قام بقوة الحياة الإلهية التي فيه، وصعد كجسد مجد الابن الوحيد. ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا أنه وهو يقول: «أنا هو الطريق»، فهو يعبر عن كيانه الذاتي الإلهي الكلي وليس عن «جزء» منه أى جسده؟؟؟ وللأسفر قد جرى مجرى هذا العالم الكبير كثير من العلماء المحدثين، بلا وعى.

كذلك أيضاً يرى بعض علماء اللاهوت الغربيين أن «الطريق» هو الأساس ويأتي بعد ذلك «الحق» و «الحياة». بمعنى أن المسيح هو الطريق وأن الحق والحياة هما مجرد شرح للطريق، وهذا خلط لا ينبغي أن يكون، والخطأ واضح هنا، لأن المسيح اتخذ كل من الطريق والحق والحياة معياراً لاهوتياً قائماً بذاته، وكل منهم بمفرده جعله هويته، أي منسوباً لذاته وكأنه هو، بمعنى: أنا هو الطريق، أنا هو الحق، أنا هو الحياة، فالطريق والحق والحياة لم تعد صفات في ذاتها يمكن التمايز والتواصل بينها، بل صفات لذاته، وذاته يستحيل التمايز فيها ما هو أول وثان وثالث، هذه الصفات التي اتخذها هوية ذاتية له، طرحها أمام تلاميذه لتكون ملكاً لهم بالإيمان به، فيعرفون الطريق به، ويعرفون الحق فيه، ويعرفون الحياة معه؛ والمعرفة في الإلهيات خبرة وممارسة وشركة، وهكذا يطرح المسيح أمامهم معرفته، لتكون لهم منهجاً كاملاً للحياة الأبدية مح الله.

لذلك سنسمعه يوضح هذا، بكل بيان، بقوله: «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً. ومن الأن تعرفونه وقد رأيتموه... الذي رآنى فقد رأى الآب». كلام الرب هنا يؤكد للقارىء أن المسيح يركز على نفسه، أي على ذاته هو، «أنا هو»، فلا طريق خارجاً عنه، ولا حق بدونه، ولا حياة إلا فيه، ولا آب إلا بواسطته وفيه.

كذلك، لا ينبغي أن تغيب عنا البداية التي بدأ بها الحديث: «لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي». فالرب وجد التلاميذ في حالة انزعاج لأنهم شعروا أنهم على وشك أن يفقدوا المسيح، وأنهم بذلك سيصيرون يتامى، فاختلت موازين إيمانهم، وضاعت من أمامهم علامات الطريق. وأصبح على الرب أن يثبتهم في قاعدة إيمانهم بالله، ويقدم لهم نفسه، أي ذاته، كحقيقة دائمة حية، كغاية لكل شيء، فهو باق لهم، وان ذهب إلى الآب فسيأتى، وفي ذهابه ومجيئه يكون قد عبد الطريق لهم في ذاته، وأنه هو باقي لهم بذاته وبجسده ودمه، مصدر الحق لاستعلان كل حقأئق الله في ذاته، وهو أيضاً باق لهم ينبوع الحياة الأبدية التي تسري لهم من ذاته فلا يخافوا من الموت.

«ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي»: الأن قد استعلن لهم أن الله هو آب وابن معاً، فأصبح من البين والواضح أن القصد الأساسي للاستعلان الذي جاء في ملء الزمان، بواسطة تجسد الابن وظهوره، هو وصول الله للانسان، ثم وصول الإنسان إلى الآب. هذا أكمله الابن بتجسده أولاً، ثم بموته وقيامته وصعوده إلى السماء وجلوسه عن يمين الآب. فهي عملية أكملها الابن في ذاته حسب مشورة الآب، ليُصالح العالم لنفسه بواسطة المسيح، فأصبح الوصول إلى الآب في المسيح وبواسطته حقيقة إلهية وبشرية فى آن واحده يتحتم الإيمان بها وقبولها. كما أصبح الدخول إلى الآب هو من داخل الحياة الأبدية التي في المسيح والتي يتحتم الإيمان بها وقبولها. كما أصبح واضحاً

أنه من المستيل الوصول إلى الله بدون المسيح، لأن الله «آب وابن»، إذن: «كل من ينكر الابن ليس له الآب أيضاً» (١يو٢:٢٣)، حتماً وبالضرورة، لأن الآب لا يوجد ولا يُرى إلا بالابن وفيه.

وهكذا يقرر المسيح أن: «ليس أحد يأتي إل الآب إلا بي». وواضح أن الطريق الذي اتحذه الله بواسطة المسيح» ليبلغ به الإنسان إلى الحقيقة الإلهية والحياة الأبدية معه كان:

أولاً: نزل باللاهوت إلى الطبيعة البشرية في ذاته بسر إلهي لا يُنطق به.

ثانياً: استعلن هذا السر منظوراً ومحسوساً ومدركاً في ذاته بالقول والعمل، ليوصله إلى كل إنسان «كحق».

ثالثاً: ثم سكب حياته بموته، ليمنحها لكل من يتقبلها بالسر وبالروح القدس، ليحيا في الله الى الأبد.

هذه الثلاث الخطوات يقدمها السيح لتلاميذه وللعالم في ثلاث عمليات أو ثلاثة أعمال روحية:

أولاً: الإيمان بابن الله آتياً إلى العالم بالجسد.

ثانيا: قبول حقيقة استعلان سر الله الآب في المسيح.

ثالثا: قبول حياة المسيح المنسكبة بالموت والمستعلنة بالقيامة والممنوحة بالروح القدس في السر.

هذه الثلاثة أعمال الروحية هي المعبر عنها: «أنا هو الطريق والحق والحياة»، والمشروحة باختصار في قوله: «ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي».

٧- لَوْ كُنْتُمْ قَدْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً. وَمِنَ الآنَ تَعْرِفُونَهُ وَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ».

مراجعة وعتاب لا بد منهما. كم سنة وأنا معكم أعلن لكم نفسي «أنا هو» وآستعلن في ذلك أبي أيضاً؟ كم من الإعلانات قدمتها لكم عن من هو انا ومن هو أبي؟ ثم كم من الآيات والمعجزات الكاشفة، الواحدة تلو الأخرى والواحدة أوضح من الأخرى، لتدركوا رسالتي وتدركوا من آرسلني؟ والآن تسألونني عن أين أنا ذاهب؟ وتسألونني عن الطريق التي تذهبون أنتم فيها ورائي.

لقد لخص القديس يوحنا في مقدمة إنجيله رسالة الابن الكلمة المتجسد في آية واحدة: «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبر» (يو١:١٨)، لقد استعلن الابن ظاهراً في الجسد، ليعلن الآب غير المرئي، ليكون منظوراً فيه؛ وهذا ما أوضحه سفر العبرانيين بقوله: «الله... كلمنا... في ابنه... الذي به أيضاً عمل العالمين، الذي، وهوبهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته، بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا، جلس في يمين العظمة في الأعالي صائراً أعظم من الملائكة، بمقدار ما ورث اسماً أفضل منهم» (عب١:١-٤)، «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤:٩)، لأن الابن والآب واحد، فإن نظر الواحد (بالروح) نظر الآخر، وان عرف الواحد (بالروح) عرف الآخر. الابن والآب ذات واحدة، إن قال الابن: «أنا هو الكائن بذاتى، كان الآب هو المتكلم بفم الابن، لأن هذا هو اسم الآب، وكان الابن متكلماً باسم الآب. إن صنع الابن آية، فهي مشيئة الآب مُعلنة. وان أجرى الابن قوات، فهي قوة الآب مُعلنة. وإن رأيتموني مصلوباً، فهذه وصية الآب مُطاعة، وإن رأيتموني أسلم الروح، ففي يد الآب أستودعها، ومن يده آخذها. وموتي هو موتكم أموته لأجلكم لاحييكم بقيامتي. حياتي هي بالآب، وفي الآب قائمة، حياتي أعطيكم، فاعطيكم الآب الذي في، أنا أظهرت ثبوتي في الآب بتكميل وصيته حتى الموت، فإن ثبتم في وصيتي حتى الموت ثبتم في، وثبتم في أبي أيضاً. لقد عرفتكم نفسي بحياتي، وعرفتكم حياتي بموتي، وعرفتكم أبي الذي يعمل فيّ.

«ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه»: «من الآن» هنا، تعني «من هذه الساعة»، ساعة المحنة العظمى التي تُكمل

فيها كل مشيئة الآب وكل طاعة الابن، فتستعلن رسالة الحب الآبوي في قمة بذلها، ورسالة حب الابن في قمة طاعتها وسحقها. والرائي يرى الآب من خلال تكميل عمل حبه الفائق في ابنه من نحونا، سواء بالصليب أو بالقيامة: «لا أزال شاكرا لأجلكم، ذاكراً إياكم في صلواتي، كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد وروح الحكمة والإعلان في معرفته، مستنيرة عيون أذهانكم لتعلموا (لتروا) ما هو رجاء دعوته، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين، وما هي عظمة قدررته الفائقة نحوناء نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويات.» (أف١:١٦-٢٠)

وليلاحظ القارىء أن كلمة «تعرفونه» هنا: «من الآن تعرفونه» تأتي في زمن المضارع القابل للامتداد، كما يوحي اللفظ اليوناني (   ) أي من ساعة الآلام هذه التي تبلغ شدتها بالموت، وقوتها بالقيامة، واستعلان كل ذلك يوم الخمسين، ولكن الألام عند المسيح، وفي إتجيل القديس يوحنا، هي هي المجد بعينه، والمجد في قمة استعلانه، حيث تُرى المحبة متجلية بدمها، ومسرة الآب تحيطها من كل جانب: «أما الرب فسر بأن يسحقه بالحزن، إن جعل نفسه ذبيحة إثم» (إش٥٣:١٠)، «الآن تمجد ابن الإنسان، وتمجد الله فيه» (يو١٣:٣١).

إن أعظم استعلان للآب حققه المسيح، هو بتكميل مشيئته في قبوله للموت، إذ من هذا المنطلق تفجرت «الحياة الأبدية» من دمه المسفوك، والتي فيها أُستعلن الآب: «وهذه هي الحياة الأبدية، يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته، أنا مجدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته ... أنا أظهرت اسمك للناس ... وعرفتهم اسمك وسأعرفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتي به، وأكون أنا فيهم» (يو ١٧)

فالآب غير مُدرك ولا منظور، استطاع الابن أن يعلنه في نفسه ويعرف العالم به قولاً وعملاً، إنما فقط للذين آمنوا وقبلوا الابن. لأن الآب لا يُدرك ولا يُرى قط إلا في الابن (أي في البنوة التي له): «ليس أحد يعرف من هو الابن، إلا الآب ولا من هوا لآب إلا الابن، ومن أراد الابن أن يعلن له.» (لو١٠:٢٢)

وفي لحظات تجلي الابن، التي انفعل لها التلاميذ مراراً وتكراراً وصرخوا وشهدوا أنه هو ابن الله الحي، لفت المسيح نظرهم: «إن لحماً ودماً لم يعلن لك، لكن أبي الذي في السموات» (مت١٦:١٧)

أي أن بتجلي الابن، كان الآب يتجلى للتلاميذ من خلال الرؤية الإيمانية الروحية: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤:٩). على أن معرفة الآب لم تكتمل للتلاميذ إلآ بعد الصعود وحلول الروح القدس، الذي استعلن لهم سر الابن والآب، استعلاناً هو الرؤيا بعينها. لذلك نسمع القديس يوحنا يفتخر بمعرفة الآب التي سلمها للأبناء: «أكتب إليكم أيها الأحداث، لأنكم قد غلبتم الشرير، أكتب إليكم أيها الأولاد لأنكم قد عرفتم الآب» (١يو٢:١٣)، حيث تقع معرفة الآب عملياً عند القديس يوحنا على التوازي مع غلبة الشرير، رافعاً أمام أولاده بعد ذلك المضادة العظمى بين محبة العالم ومحبة الآب:«إن أحب أحد العالم» فليست فيه محبة الآب» (ايو٢:١٥)؟ بمعنى أن معرفة الآب، يكون صدق وجودها من واقع فعلها المنحصر في بغضة شهوة الأشياء الزائلة التي في هذا العالم. والقديس بولس الرسول يعطي نفسه نموذجاً: «... قد صُلب العالم لي، وأنا للعالم.» (غل٤:١٤)

ويا قارئي العزيز، إن الذي يذوق صليب المسيح من داخل بغضة واضطهاد العالم له، وبغضته هو للعالم واحتقاره لأباطيله، يدرك عملياً معنى معرفة الآب بل وتستعلن له، بل وتنسكب فيه محبته.

لذلك، فقول المسيح: «ومن الآن تعرفونه»، أي من ساعة الصليب، قول صادق يحمل سر نصرة المسيح في معركته مع العالم: «لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء»؛ «ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يو١٤:٣٠،

٣٣:١٦)، لأنه حيما اكتملت وصية الآب بالموت، وجب كذلك أستعلان شخصه.

كذلك يلزم، للغاية، أن ندرك كم كانت «معرفة الآب» رسالة هامة جداً عند المسيح، بل وكأعز ما جاء ليعلنه ويسلمه للتلاميذ، وبالتالي للعالم كله، وعلينا أن نتمعن في قوله عن ذلك:

«وَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ تَهَلَّلَ يَسُوعُ بِالرُّوحِ وَقَالَ: «أَحْمَدُكَ أَيُّهَا الآبُ رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لأَنَّكَ أَخْفَيْتَ هَذِهِ (معرفة الآب) عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ. نَعَمْ أَيُّهَا الآبُ لأَنْ هَكَذَا صَارَتِ الْمَسَرَّةُ أَمَامَكَ». وَالْتَفَتَ إِلَى تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ: «كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي. وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ مَنْ هُوَ الابن إِلاَّ الآبُ وَلاَ مَنْ هُوَ الآبُ إِلاَّ الابن وَمَنْ أَرَادَ الابن أَنْ يُعْلِنَ لَهُ». وَالْتَفَتَ إِلَى تَلاَمِيذِهِ عَلَى انْفِرَادٍ وَقَالَ: «طُوبَى لِلْعُيُونِ الَّتِي تَنْظُرُ مَا تَنْظُرُونَهُ (شخص الآب في صورة المسيح). لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ أَنْبِيَاءَ كَثِيرِينَ وَمُلُوكاً أَرَادُوا أَنْ يَنْظُرُوا مَا أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (الله) وَلَمْ يَنْظُرُوا وَأَنْ يَسْمَعُوا مَا أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (صوت الآب) وَلَمْ يَسْمَعُوا».» (لو١٠:٢١-٢٤)

ولم يدرك التلاميذ معنى هذه الطوبى وقيمتها العظمى، إلا بعد أن حل عليهم الروح القدس وعرفهم سر الآب في الابن: «وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح.» (١يو١:٣)

على أنه يتبقى أمامنا استجلاء إضافي لمعنى «ومن الآن تعرفونه، وقد رأيتموه»، فإن كنا قد رأينا أن الذي استطاع أن يؤمن حقاً بالمسيح ويحبه في ذاته، يكون قد رأى فعلاً الآب، لأن المسيح هو الصورة المنظورة للآب غير المنظور:« الله ظهر في الجسد» (١تي٣:١٦)؛ كذلك، والعكس أيضاً صحيح، فإن كل من بلغ الإيمان الحقيقي بالله وأحبه من كل قلبه بإخلاص العبادة والتقوى، فإنه حتماً سيكشف له الآب عن المسيح أنه هو صورته الخاصة ورسم جوهره.

لذلك، فالذين رفضوا المسيح يكونون قد برهنوا عملياً أن ليس لهم إيمان حقيقي كامل بالله، ولا محبة صادقة أو تقوى مخلصة، وإلا كيف يرفضون وينبذون صورة من أحبوه وآمنوا به؟

أما التلاميذ فيقول لهم الرب: «من الآن»، أي من خلال الصليب والقيامة، سيبلغون حتماً إلى الإيمان الصحيح بالمسيح أنه فعلاً ابن الله، وبالتالي سيستعلن لهم الآب في المسيح على أساس إيمانهم الصادق بالله، لهذا بدأ المسيح قوله بهذه الحقيقة: «أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي».

وفي موضع قادم سينعي المسيح إيمان اليهود الكاذب بالله، مؤكداً أنه بسبب عدم إيمانهم الحقيقي أو الصادق بالله أخطأوا معرفة المسيح، وعثروا فيه، وأبغضوه: «الذي يبغضني يبغض أبي أيضاً ... وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي ... إنهم أبغضوني بلا سبب.» (يو١٥:٢٣-٢٥).

كما أنه في موضع سابق أراد المسيح أن يؤكد لسامعيه، أنه جاء حاملاً كل ملامح من أرسله قولاً وعملاً، واسماً وروحاً، ومشيئة وحباً، لذلك فإنه يصبح من تحصيل الحاصل أن الذي يراه يكون قد رأى من أرسله بالفعل وبالصدق: «الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي، بل بالذي أرسلني. والذي يراني، يرى الذي أرسلني» (يو١٢:٤٤-٤٥). وهكذا يتضح أمامنا الآن بكل جلاء قوله عن الآب: «من الأن تعرفونه وقد رأيتموه».

٨- قَالَ لَهُ فِيلُبُّسُ: «يَا سَيِّدُ أَرِنَا الآبَ وَكَفَانَا».

سؤال حسي، يخرج بالذهن، أو ينم عن ذهن، خارج دائرة اللاهوت كلية، فيلبس يريد أن يرى بعينيه اللامحدود والمطلق، كطفل يحاول ان يقيس الاوقيانوس (المحيط) بمسطرة، او يجمع الرياح في كفه. لقد تهيأ له أن يرى المسيح بالعين وهو الابن، إذن فالآب قد يُرى على هذا القياس، غير مدرك أن تجسد الابن هو الذي وفر للعين أن

تراه جسدياً فقط، ورؤية العين لا توفر رؤيا اللاهوت قط. وهذا يعني أن فيلبس لم ير المسيح قط ، ولم يعرفه بعد.
فالله لم يره أحد قط (يو ١٨:١). وان كان الله قد ظهرفي الجسد فهو ظهور بسر الإيمان وليس بالعيان؛ أما الجسد فوعاء حل فيه كل مل ء اللاهوت جسدياً، «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا» (يو ١٦:١). الجسد يُرى ويُسمع ويُلمس بالحواس، واللاهوت فيه لا يُرى ولا يُحس إلا بالروح. فاته أخذ جسد إنسان ليتكلم مع الإنسان بالكلمة، والكلمة هي أيضاً منطوقة جسدياً، فالجسد للكلمة وعاء، ومن داخل وعاء الصوت المسموع والمحدود يسكن اللاهوت بكل ملئه الفعال، وهو الذي لا تسعه السموات والأرض.

فإذا أخذت كلمة المسيح جسدياً، فلن تسمع إلا مجرد صوت إنسان نعرف أباه وأمه (يو٦:٤٢))، وإخوته وأخواته أليسوا جميعاً عندنا (مت١٣:٥٥-٥٦)؟... ولكن إذا سكنت « الكلمة» قلب الإنسان بغنى اللاهوت الذي فيها، احتضن الإنسان الله وأدرك أبعاده التي لا تُدرك ولا تُحد: «لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا كلمتي (أي اللوغس)» (يو٨:٤٣). هنا سمع الكلمة، هو تقبل حقيقة المسيح، بمعنى انفتاح الوعي المسيحي لتقبل الله: «وتعرفون محبة الله الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله.» (أف٣:١٩).

الله لاهوت، لاهوت خالص، ليس له جسد ولا وعاء يظهر فيه أو يتكلم منه. ولكن من أجل هذا، تجسد الابن، فصار وعاؤه يتكلم فيه الله الآب ويعمل. جسد الابن يُظهر الابن للعين جسداً فقط؛ ولكن إذا تكلم الابن أو عمل، يظهر فيه الله الآب غير المنظور المتكلم والعامل في الابن وبه.

فيلبس أخفق تماماً فى أن يرى الآب المتكلم والعامل بالابن وفيه، هذه السنين كلها!! وبكل صراحة، فإن فيلبس لم ير اللاهوت في الابن، وإلا لكان رأى الآب حتماً؛ لهذا فإن سؤال فيلبس أحزن قلب المسيح، وجعله ينظر إلى تعب السنين هذه وكأنها بلا فائدة ...

٩- قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً هَذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ! الَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ أَرِنَا الآبَ؟

المسيح يندهش كيف أنه لم يُستعلن بعد كما ينبغي عند التلاميذ، حتى يتعرف عليه فيلبس؟ حيث يجيء التركيز على «أنا معكم» ولم يقل المسيح «أنت معي». فالملامة التي يطرحها المسيح يطرحها على أساس احتجاب لاهوته عن فيلبس والبقية دون سبب، فلا هو يوم واحد قضاه متكلماً أو عاملاً أعمالاً لم يعملها أحد غيره قط، ولا هو شهر ولا سنة، بل ثلاث سنوات ويزيد وعن قرب شديد، وهو يستعلن الآب الذي فيه بالكلمة والعمل! ولكن إخفاق فيلبس في إدراك لاهوت المسيح، وهو التعرف الصحيح على المسيح: «لم تعرفني»، لم يكن نتيجة تقصير في اجتهاد فيلبس. فالاستعلان لا يأتي كثمرة للاجتهاد بل بانفتاح الذهن الروحي، الأمر الذي يتوقف أساساً على مقدار عدم ارتباط الروح بالماديات وعلى الاستعداد لفقدان الصلة بالعالم.

فحينما يتحرر الإنسان من جذب العالم، ويتحرر من الجسد والخوف من الموت، يبدأ يستعلن ما وراء العالم وما وراء الموت، وهذا الأمر قد أثبتته الأيام، بل الاعوام القليلة القادمة، أن فيلبس كان مربوطاً فعلاً بالعالم ولا يزال، بل لا يزال أيضاً يخاف من الموت، فقد ترك معلمه وهرب مع البقية ساعة المحنة، خوفا من القبض عليه والمحاكمة والعقاب: «هوذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته، وتتركونني وحدي...» (يو١٦:٣٢). فكيف يستقيم مثل هذا السلوك مع ذهن يفترض أنه قد استعلت لاهوت المسيح، وتعرف على حقيقة المسيح، كابن الله وكحامل للآب في كيانه؟

لذلك صح أن تجيء مراجعة المسيح لفيلبس على أساس طول الزمان الذي توفر لفيلبس، لكي يقرر وينفذ فك ربطه من العالم والجسد والخوف، كاستجابة لوعظ المسيح وإرشاده وإعلانه واستعلانه، حتى يتسنى له الدخول في مجال الروح والإلهيات، فيدرك حقيقة المسيح، وتنفك من أمام ذهنه رموز استعلان الآب في المسيح، وهو ما كان شغل المسيح الشاغل.

يستحيل لأي إنسان أن يتعرف عى المسيح كإله، ومعرفة الإلهيات أخذ واشتراك، أو يستعلن له لاهوته ووحدته مع الآب، والاستعلان بصيرة من الله، والإنسان لا يزال منجذباً نحو محبة العالم، لأن: «محبة العالم عداوة لله» (يع٤:٤)، أي بعد ورفض .

«الذي رآني، فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أرنا الآب»: هنا حقيقة صارخة مفضوحة، وهي أن فيلبس لم ير المسيح بعد. هنا عتاب آخر لا يخلو من الملامة، وهو لفت نظر حزين إلى حقيقة مقطوع بها ما كان ينبغي أن تفوت على فيلبس وهي: أن الآب منظور في الابن بالنظرة الروحية العميقة. فحياة المسيح كلها استقلان للآب فيه، فإن كان فيلبس يطلب رؤية الآب، فعليه أن يعيد النظر في رؤية المسيح، لأن كل رسالة المسيح قولاً وعملاً، هي لاستعلان الآب الذي فيه.

١٠- أَلَسْتَ تُؤْمِنُ أَنِّي أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ؟

الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي لَكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ.

هنا دعنا نترك موضوع الرؤيا جانباً، ونعود إلى الإيمان من حيث كونه حقائق الله في الحياة مع الإنسان، والتي أعلنها المسيح مراراً وتكراراً، وهي أن المسيح، كابن، كيانه هو في كيان الآب، ويظل قائماً فيه، وغير مفصل منه، لأنهما كيان واحد، ذات واحدة: «أنا والآب واحد» (يو١٠:٣٠). أما الجسد الذي أخذه الابن لذاته ووحده بلاهوته، فقد دخل في هذا الكيان دخولاً أبدياً متميزاً، كإنسان في ابن الله، فشملته وحدة الابن بالآب بالضرورة. وهكذا صار المسيح فى آن واحد يٌعبر عنه بـ «ابن الإنسان، الذي هو على الأرض، الذي هو في السماء» (يو٣:١٣)، بل وإنه، وهو متجسد، بقي كما كان في حضن الآب، كأعظم تعبير عاطفي من الكيان المتحد، أو وحدة الكيان للمسيح في الآب والآب في المسيح: «الابن الوحيد، الذي هو في حضن الآب، هو خبر.» (يو١:١٨)

هنا يلزم العقل البشري أن يرتفع فوق القصور المادى للأمور، لأننا الآن نتكلم عن طبيعة الله التي ليست من طبيعة الماديات، ولكننا مرغمون، أو بالأصح، مُصرح لنا أن نتكلم كبشر عن ما هو للمسيح بسبب الجسد الذي أخذه منا وكيف وحده بذاته الإلهية.

أما في الماديات، فلا يوجد قط هذا التصور الذي نتصور به تساوي شيئين أو شخصين تساويا مطلقا أى تساوياً كلياً، لأن المطلقات أو الكليات هي صفة ما فوق الطبيعة، وبالتحديد هي صفة الله. فالله مُدرك كامل يُدرك، ولكن لا يُدرك كماله.

والحقيقة العظمى المطروحة للادراك بالنسبة للانسان، هي الابوة والبنوة في الله «الذي يراني يرى الذق أرسلني» (يو١٢:٤٥)؛ وصفة الابن صفة مطلقة وكلية في الله، لأنها من صميم جوهره وطبيعته، والآب كذلك صفة مطلقة وكيلة في ذات الله، لذلك، فبسهولة غاية السهولة، نقول إنهما واحد، لأن جوهرهما واحد وذاتهما واحدة، أى متحدان كلية الاتحاد عل وجه الإطلاق الإلهي، فهما واحد. هذا سهل الإدراك فيما نحن نتكلم عن الله، ولكن تصوره مادياً يكون عسيراً غاية العسر، بل تعترضه الاستحالة، لأنه لا يوجد في الخليقة كلها أو في المخلوقات عامة ما يناظر

هذا التساوى. لأن جوهر المخلوقات، عموماً وبلا استثناء قط، مركب، أما جوهر الله فبسيط لا ينقسم قط، وذات الله كاملة أزلية.

لذلك لا يلجأ المسيح في شرح وحدته مع الآب إلى التشبيه، ولا إلى أسلوب التعليم، ولا يستحث الفهم البشرق ليدرك هذه الحقيقة الإلهية، ولكنه يلجأ إلى الايمان، وهو التصديق على حقائق ليست أصلاً من اختصاص العقل وليست من اختصاص طبيعة الإنسان، ولكن مجرد التصديق عليها يرفع مخصصات الذهن فوق طبيعته ليدخل بالروح أو بالنعمة الموهوبة إليه والمضافة عليه إلى مجال الإلهيات ليتقبل معرفة حقائق الله. وتقبل حقائق الله والتصديق عليها، وهو المعبر عنه بالإيمان، يعطي الإنسان شركة فيها. لأن إدراك الله بالتصديق والإيمان لا يمكن فصله عن طبيعة الله، حتى يصبح معلومة قائمة بذاتها؛ هذا مستحيل.

فمعرفة الله بالايمان هي دخول إلى الله مُصرح به، والدخول في طبيعة الله هو أخذ وشركة وامتلاك، وهذه هي نعمة الله في عطاء ذاته المجاني. هذا العمق، أدركه الآباء العظماء اللاهوتيون الأوائل، فقالوا باختصار إن اللاهوتي هو من دخل إلى الله وخرج وخبّر.

والمسيح، بقوله لفيلبس: «ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب في؟»، وهو سؤال يستنكر النفي، يستحثه أن يخرج من دائرة الجهالة ليدخل إلى دائرة معرفة طبيعة الله، يدخلها بسهولة الإيمان، بتصديق كلمة الله. المسيح يأخذ يد فيلبس، أو بالأصح، يأخذ بيد عقله ليدخل إلى دائرة ما فوق العقل ليتقبل بالإيمان، ليس مجرد معرفة حقيقة الابن في الآب والآب في الابن، بل يتقبل معرفة أخذ واستيعاب ليتبرر بها ويحياها أو يحيا بها، إنها هي الحق، بل هي روح الحياة: «من اعترف أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه وهو في الله» (ايو ٤:١٥). هذا هو الدخول بالإيمان إلى طبيعة الله، والثبوت فيها!!

+ «من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله» (١يو٥:٥). هذا هو الخروج من طبيعة العالم والمادة، الذي يؤهل للدخول إلى طبيعة الله، حيث الغلبة هنا هي العبور المنتصر فوق العالم.

+ «من له الابن (بالإيمان)، فله الحياة (في الله). ومن ليس له ابن الله، فليست له الحياة» (١يو٥:١٢)، هذا الامتلاك للحياة الأبدية هو بالدخول بالإيمان إلى حقيقة طبيعة الله، وذلك بإدراك حقيقة ابن الله:

+ «الذي يؤمن بالابن (دخل بالإيمان في طبيعة الله)، له حياة أبدية. والذي لا يؤمن بالابن (لم يدخل إلى معرفة حقيقة الله)، لن يرى حياة، بل يمكث (في الطبيعة البشرية الساقطة) عليه غضب الله» (يو٣:٣٦). هذا هو الفارق الهائل بين البقاء في محيط العقل المادي، وبين تجاوزه بالإيمان، لإدراك ما هو ليس من طبيعة الماديات. وهو نفس الفرق بين الموت والحياة، بين البقاء في الخطية تحت الغضب الإلهي والدخول إلى نعمة الله، وهذا هو قيمة الإيمان وعمله .

«الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي، لكن الآب الحال في هو يعمل الأعمال»: هذا ما يعبر عنه سفر العبرانيين بقوله: «الله، بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديما بأنواع وطرق كثيرة، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه...» (عب١:١-٢)

فالله كلمنا في المسيح، لم يكن الكلام الذي تكلم به المسيح كلاماً بشرياً بل هو كلام الله، لذلك وصفه المسيح أن: «الكلام الذي اكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦:٦٣)، وأن من يسمعه يحيا ولو كان ميتاً (يو٥:٢٤ و ٢٨ و ٢٩)، لأن الكلام يحمل طبيعة الله الحية والمحيية. فكلام المسيح فعل نافذ المفعول، لا يرتد فارغاً (إش٥٥:١١)، ولعازر

يشهد على ذلك.

ويلاحظ أن المسيح يقدم برهان وحدة كيانه في الآب والآب فيه على مستويين، الأول: الكلام، والثاني: الأعمال، وواضح أن الرب يهدف بهما إلى تحديد شخص الآب الحال فيه على مستوى الفكر والقوة، وهو تغطية كاملة لوجود الآب كأقنوم إلهي فعال. فكان كلام المسيح بمثابة استعلان لصفات الآب جميعاً، كما كانت أعمال المسيح استعلاناً لسلطان الآب ومشيئته من نحو الإنسان. فكان الآب يهدف بكلامه، بفم المسيح، إلى مخاطبة ذهن الإنسان، لإنارة بصيرته بقوة الروح القدس في كلمته ولفتح آفاق رؤيته الروحية، ليدخل الإنسان أكثر في أعماق معرفة الآب ليعده للحياة معه بواسطة المسيح. كما كان الآب يهدف من وراء أعماله الإعجازية التي كانت كآيات تشير إلى شخصه العامل والفعال، إلى توصيل «الفعل» الإلهي الناطق إلى الطبيعة، لكي يبدأ يأخذ عمله في طبيعة الإنسان العاجزة، ليرفعها إلى مستوى خليقة أخرى جديدة ومنيرة.

فمعجزة تحويل الماء إلى خمر تحوي سر التحول من طبيعة ميتة إلى طبيعة حية؛ ومعجزة شفاء المقعد المشلول بعد ٣٨ سنة تحوي سر تصحيح ما فسد في الطبيعة العتيقة، ورفعها إلى مستوى الصحة؛ ومعجزة تفتيح الأعمى المولود هكذا من بطن أمه تحوي سر عمل النور الإلهي في الطبيعة العتيقة المظلمة لتأخذ النور والاستنارة؛ ومعجزة إقامة الميت بعد أن أنتن تحوي سر القيامة الجديدة للانسان للحياة الأبدية.

وهكذا كانت أعمال المسيح هي استعلاناً لمشيئة الآب بخصوص القوة الإلهية، التي قصد أن يبثها في طبيعة الإنسان، ليؤهله للحياة الأفضل، أي الروحية.

وبكلام أكثر وضوحاً، كان الآب العامل والمتكلم في المسيح قد بدأ خطته العظمى في تجديد طبيعة الإنسان وصياغة ذهن جديد فيه، منذ أن بدأ المسيح يكرز للانسان بملكوت الله. وكان المسيح يقدم نفسه للناس دائماً كالمثل الأعلى للانسان الجديد، الذي يسمع الآب ويطيع، ولكن كانت طاعة المسيح بصورة ممتازة، إذ كانت طاعة المثيل للمثيل!!

ولا ينبغي أن يفوتنا أبداً أن الآب أرسل ابنه متجسدا ليتكلم فيه معنا، ولنسمع بآذاننا صوت الآب غير المسموع الذي انحجب عنا كل الأزمنة السابقة، أزمنة تغرب الإنسان على الأرض.

فالمسيح عاد بالإنسان إلى جنة عدن الجديدة، فردوس الله الروحي، حيث اجتمعنا فيه مع الآب مرة أخرى، في شخص ابنه، وسمعنا صوت تعزيته وانسكبت علينا محبته ونعمته، عوض اللعنة القديمة.

لذلك، ينبهنا المسيح دائماً أبداً: «الكلام الذي أكلمكم به، لست أتكلم به من نفسي، لكن الآب الحال في هو يعمل الأعمال» .

١١ - صَدِّقُونِي أَنِّي فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ وَإِلاَّ فَصَدِّقُونِي لِسَبَبِ الأَعْمَالِ نَفْسِهَا.

يلتجىء المسيح إلى شهادة نفسه لنفسه، حينها يتحدث إلى أخصائه، معتمداً على ما سبق وقاله: «وان كنت أشهد لنفسي، فشهادتي حق» (يو٨:١٤)، وهذا يعتبر بالنسبة لنا تنازلاً ما بعده تنازل. فإلحاح الرب على توصيل رسالة الآب التي تنفجر في أحشائه جعلته وكأنه يتوسل لدينا أن نقبل ما هو لحياتنا وما هو لسلامنا. إن أقصى ما يشتهيه المسيح،» وكأنه طعامه الفاخر، هو أن يعمل مشيئة الآب الذي أرسله. ومشيئة الآب تتركز في إسعاد البشرية وعودتها إلى الحياة مح الله، أما سعادة المسيح الخاصة جداً فتتركز فى توصيلنا إلى الآب، لنشترك فى نفس الحب الذى به يحب الآب الابن: «وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني، وعرفتهم اسمك، وسأعرفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم.» (يو١٧:٢٥-٢٦)

المسيح هنا انتقل من مخاطبة فيلبس إلى مخاطبة التلاميذ، فهي رسالة للجميع. وعوض أن يقول: «الحق الحق أقول لكم»، أراد هنا أن يسند هذا الحق بشهادته الخاصة، وكأنه يرهن نفسه ويجازف بكل ثقله الإلهي والبشري معاً ليرفع ما يقوله إلى مستوى الصدق المختوم بختم الله، لكي يقبلوا هذه الحقيقة الجوهرية بكل يقين، والتي يتوقف عليها كل الإيمان، بل كل الخلاص، وينتهي عندها كل غاية استعلان المسيح للآب: «أني في الآب والآب في». هذا الوجود المتبادل يجعل بالفعل كل ما للآب للابن وكل ما للابن للآب، ويستعلن، بقوة، الذات الواحدة للآب والابن؛ وهذا هو السر الأعظم للثالوث، باعتبار الروح القدس هو ثالث الأقانيم، وهو ينبثق من الآب في الابن، وهو الذي يوثق هذه الوحدة وينقلها إلى أذهاننا كحقيقة محيية!

أما إذا أخفق أي إنسان في تصديق المسيح، كشاهد صادق فيما لنفسه، فإن المسيح يعود ويتنازل عن حتمية شهادته، مشيراً إلى أعماله الفائقة للطبيعة التي عملها كآيات تشير وتحكي عن سلطان الآب الذي يعمل به المسيح وكأنه سلطانه: «... وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها».

فالأعمال تتكلم من ذاتها وتؤمن أن ما يقوله المسيح عن نفسه صدق؛ لأن ما يعمله، يشهد أن سلطانه هو من سلطان الله وعلى مستواه. أما كون الآب هو العامل بالمسيح أو أن المسيح هو العامل بالآب، فسيان، يكفي أن المسيح في الآب والآب في المسيح، فهذه حقيقة العمل ذاته.

١٢- اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَالأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا يَعْمَلُهَا هُوَ أَيْضاً وَيَعْمَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا لأَنِّي مَاضٍ إِلَى أَبِي.

في الآيات السابقة (٨-١١) كان التركيز على العلاقة الداخلية بين الآب والابن، والآن ينتقل المسيح لتوضيح هذه العلاقة بالنسبة للتلاميذ.

وفي الآيات الأخيرة، كان التركيز على الأقوال والأعمال التي يعملها المسيح بأنها معمولة بالآب، أو أن الآب الحال في المسيح هو الذي يعمل الأعمال.

ومن هذا المنطلق، يبدأ المسيح يسلم تلاميذه هذه الحقيقة الإلهية. والحقائق الإلهية أو اللاهوتية لم يستعلنها المسيح من أجل أن يدركها العالم في ذاتها كحقائق الله وحسب، بل ولكي يحياها المؤمنون ويعملوا بها. فهنا نحن بصدد الأعمال التي يعملها المسيح، والتي هي في حقيقتها يعملها الآب الحال في المسيح، هذه الأعمال عينها أعطي للذين يؤمنون بالمسيح (وبالآب حتماً) أن يعملوها.

والنقطة الهامة في الموضوع والتي لا ينبغي أن تفوت على عقولنا، هي أن المؤمنين يعملون أعمال المسيح نفسها، ولكنهم بحسب مجرى الكلام لن يكونوا هم العاملين لهذه الأعمال، بل المسيح، بل الآب في الحقيقة وعين الأمر! أما تلك الأعمال التي كان يعملها المسيح، فقد كانت قاصرة على فترة محددة وعلى غاية محددة، محورها استعلان الآب والتمهيد لرسالة الخلاص بالصليب. أما بعد صعود المسيح إل الآب، ونواله كل سلطان مما في السماء وما على الأرض واستعادة مجده الأسنى، فالمسيح سوف يعمل حتماً فيهم وبهم هم أعمالاً أعظم، تتناسب مع طول الأجيال وضيق الأيام وشدة اضطهاد العالم، وتتناسب كذلك مع استعلان الخلاص وتكميله، ومجد المسيح العامل فيهم والحال فيهم، ومع أعوازنا الكثيرة وطلباتنا مهما غالينا فيها: «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم ... لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله، والقادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفكر بحسب القوة التي تعمل فينا.» (أف٣:١٧-٢٠)

ونعود وننبه ذهن القارىء، أن ذهاب المسيح إلى الآب هو محور الحديث كله، ولسان حال الواقع، حسب موضوع الحديث والحاح الساعة، فالمسيح يعدد لتلاميذه مميزات موته وصعوده وذهابه إلى الآب، من حيث أنها ستعود عليهم بفيض من القوة الغامرة ليعملوا ما كان يعمله هو أمامهم، تلك الأمور التي أبهرتهم، بل وكيف أنهم سيعملون أعظم منها بسبب صعوده وذهابه إلى الآب. وهو في ذلك يجاهد ليرفع عنهم مسحة الحزن والكآبة والخوف من جهة، ومن جهة أخرى هو يسبق الزمن والحوادث ويكشف لهم ما سيكون، حتى إذا كان، يزدادون إيماناً وثقة وقوة، ويشعرون بحقوقهم الممنوحة لهم رسمياً حسب الوعد، ليطالبوا بها ويتمسكوا بسلطانها، لتكميل خدمة الخلاص وتمجيد المسيح والآب.

والآن، أيها القارىء العزيز، أرجو أن ألفت نظرك إلى أن هذا الوعد غير مقصور على التلاميذ، فأرجو الرجوع إلى نص الآية إذ تقرأ: «الحق الحق ... من يؤمن بي (أي كل من يؤمن بي)» ... فأنت مستهدف لهذه العطية الفائقة. فإن كنت تشعر بالخجل والصغر دون ألطاف الله وعظم سخائه، فلا مانع، ولكن لا تشك في صدق وعده. ثم إني أشرح لك لماذا تستكثر على نفسك أن تعمل أعمالاً أعظم مما عمل المسيح، فالسبب ينطوي على نقطتين:

الأولى: ظنك أنك أنت الذي ستعمل، وهنا أحيلك لما سبق وأوضحنا: «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا.» (في٢:١٣)

والثانية: أن عمل المسيح فينا يبدو، بحسب خدع البصر، غير متكافى، مع ضعفنا وهوان طبيعتنا وأخطائنا التي يحسبها علينا الضمير بإلحاح.

ولكن أنبه ضميرك، أن الرب سبق وقاس هذه المفارقة الخطيرة بين ما هو لائق لناء وما هو لائق له، بقوله في الآية السابقة أن عطاياه ستكون: «أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر»، لأنها ستكون «بحسب القوة التي تعمل فينا». فالأمر يخص المسيح أولاً وأخراً، فأمسك به، يمسك بك ...

١٣ – وَمَهْمَا سَأَلْتُمْ بِاسْمِي فَذَلِكَ أَفْعَلُهُ لِيَتَمَجَّدَ الآبُ بِالابن.

هنا مزيد من التوضيح بحسب الشرح الذي قدمناه، أن المسيح هو العامل فينا. ولكنه يتمادى في رفع حدود الطلب إلى أقص تصورنا ويزيد: «مهما». وهنا يسأل سائل: هل هذا معقول أن كل ما يطرأ على فكري أو قلبي، أطلبه، فآخذه؟

هنا أيضاً الرد منبث ضمنا في «القوة التي تعمل فينا» التي تباشر التنفيذ من قبل الله. وهي لن تكون غير قوة الروح المشير والمدبر. لأن كلمة «مهما سألتم» تفيد حالة صلاة وتوسل ولجاجة، والصلاة الصحيحة الفعالة هي تحت هيمنة الروح القدس بصورة قانونية: «لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي، ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها» (رو٨:٢٦). هكذا يتبين أن «مهما سألتم» تقع ضمن اختصاصات الروح القدس، الذي يقدم السؤالات بفمنا، بكل حكمة وفطنة بما يليق أن يُقدم لله الآب، ليكون السؤال حسب مشيئة الله!!

ويلاحظ أن السؤال يقدم إلى الآب باسم المسيح، والمسيح يقوم بالتنفيذ: «أنا أفعله»، والاستجابة هنا تكون أكيدة بقدر استيفاء تقديم السؤال، بحسب القوانين المعمول بها في دائرة الله، وهي كالآتي:

١- يلزم أن يكون الروح القدس هو صاحب الاستشارة والموكل إليه التدبير على طول المدى، سواء في حالة ما قبل السؤال، أو حالة السؤال، أو حالة ما بعد السؤال، بمعنى أن يكون الإنسان عائشاً في ملء تدبير الروح القدس.

٢- أن يكون الروح القدس مشتركاً إشتراكاً محسوساً في تقديم السؤال، ولدى الضمير شهادة برضى الروح القدس وموافقته على كل كلمة من كلمات السؤال. وهنا إذا توفر ذلك حقاً، فإن الإنسان يحس في الحال أثناء الصلاة أن الصلاة استجيبت.

٣- أن يكون السؤال مقدما للآب، كما من فم ابنه يسوع، لأن الذي يوازن سؤالنا ويزيد هو بر المسيح الشخصي.

٤- أن يكون السؤال مُقدماً باسم المسيح، لأنه يستحيل أستحالة كلية أن تبلغ كلماتنا مسامع الآب إلآ بواسطة المسيح: «لأن به لنا كلينا قدوما في روح واحد إلى الآب» (أف٢:١٨)، لأنه هو الطريق الوحيد والباب الوحيد الموصل إل الآب؛ «لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يو١٥:٥)، لأن المسيح هو الحامل لصك غفران خطايا كل إنسان وهو يتراءى أمام الله الآب «ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا» (عب٩:٢٤)، حاملاً أسماءنا المكتوبة على كفه، كل واحد باسمه، محسوباً: «برا وقداسة وفداءً» (اكو١:٣٠)، لكل من يتقدم به إلى الله (عب٧:٢٥). وهكذا إذ نرفق اسم المسيح بسؤالنا الذي نقدمه للآب، نكوذ كمن يرفق كل وثائق الصلاحيات التي تجعل السؤال مستجاباً.

«ليتمجد الآب بالابن»: واضح من تسلل المعاني أن الاستجابة تكون من عند الآب، والتنفيذ بواسطة المسيح. وهنا يكمن سر تمجيد الآب، لأن المسيح إنما ينفذ بكل سخاء الآب وحبه، بحسب صلاحياته لدى الآب، والتي حازها لنا بالصليب، حتى إنه أصبح قادراً أن «يملأنا إلى كل ملىء الله» (أف٣:١٩)، أي أن يملأنا بالعطايا والنعم والمواهب المدخرة لنا في قلب الآب بلا حدود، والتي كانت محجوزة عنا بسبب عدم لياقتنا روحيا؛ ثم لما صار المسيح وسيطاً مؤتمناً، فك حجوزاتها، واستعلن كل سخاء الآب من نحونا: «لأن الآب نفسه يحبكم» (يو١٦:٢٧) وهكذا صار المسيح، بتنفيذه لكل استجابة ننالها من الآب من جهة سؤالاتنا، هو سبب تمجيد للآب دائماً، وسبب استعلان حبه وسخاء عطائه الذي لا يُحد. ونحن لا يمكن أن ننسى ما كرره المسيح كثيراً جداء أن الابن لا يعمل من نفسه شيئاً، أي أن أعمال المسيح التي يعملها لنا لتغطية كل أعوازنا وسؤالاتنا هي بالآب معمولة ولمجده. وبالنهاية، تكون طلباتنا وسؤالاتنا التي نطلبها هى لمجد الله! فكيف لا نطلب وكيف لا نلح في السؤال والطلبة، إن كان ذلك لحساب مجد الله؟

«إن سألتم شيئا باسمي فإني أفعله». تكرار حرفي للآية السابقة، فهل من جديد فيها؟ واضح في الآية ١٣ السابقة، أن عمل المسيح في الاستجابة لسؤالنا، وضعه المسيح كعمل يدخل ضمن رسالته الخاصة بالنسبة للآب: «ليتمجد الآب بالابن»، فهو يقرب من أن يكون واجباً على المسيح بالنسبة للآب، أو بتعبر أصح، عملآ وظيفياً من اختصاص الابن المتجسد نحو الآب، فهو يدخل ضمن رسالة الخلاص. وهذاء بحد ذاته أمر يسعدنا إسعاداً، إذ يجعل سؤالاتنا وطلباتنا لدى الآب عملاً يهم الآب جداً، وبالتالي يهم المسيح ويسره.

أما في الآية ١٤، فهو عمل يدخل في العلاقة المتوطدة بيننا وبينه. فهو بمثابة وعد خاص يضع فيه المسيح كل إمكانياته رهن سؤالنا، وأنه وإن كان ليس له هدف مباشر، إلا أنه يتضمن استعلان قدرته الفائقة بالضرورة، لذلك فهو لمجد المسيح بلا نزاع. كذلك «باسمى» تشير إلى اسم المسيح الخاص، حيث الاسم في لاهوت العهد القديم يعبر عن الشخص بكل قوته وكرامته. هذا بالإضافة لما كان يقوله المسيح (   )، الذي هو في الحقيقة اسم الهوية لله، الذي كان يعمل المسيح تحته وبقوته وفي وجوده وحلوله.

وهكذا يكون الدعاء بالاسم، أو الصلاة أو السؤال باسم المسيح، حالة تواجد شخصى للمسيح، وهو استدعاء ودخول في الحضرة الإلهية لابن الله المتجسد بكل يقين. لذلك فصراخ الكاهن: «باسم الآب والابن والروح القدس» في بداية صلاة الافخارستيا، وعلى الخبز والخمر، هو استدعاء الثالوث للحلول، كما هو أيضاً نقلة للموجودين في الهيكل للدخول في الحضرة الإلهية التي للثالوث الأقدس، فهي عملية تقديس وتجلي فى آن واحد.

وهكذا، فكأن المسيح باعطائهم حق النداء والسؤال «باسمه» يكون كمن أبقى على حضوره السري معهم في كل حين، كلما احتاجوه كمصدر قوة وعمل وعزاء. كل هذا وفره المسيح لتلاميذه ولكل المؤمنين به، تعويضاً عن غيابه في المنظور الجسدي.

١٥- «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ.

١٦- وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّياً آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَد.

ترتيب الآيات يبرز هنا نوراً باهراً يخطف الأبصارع ويلهب القلوب: ففي الآية (١٢) وضع المسيح الإيمان كأساس، ثم بنى فوقه في الآية (١٥) برج المحبة، بارتفاع الوصايا؛ وعلى القمة، كتاج، يستقر الروح القدس ككشاف يضيء إلى أقص حدود النواحي البعيدة، إلى الأبد!

أما الإيمان، فالمسيح جعل طبيعته تُختبر بالأعمال والأسئلة الفائقة عن الحب حينما تُستجاب! (اقرأ الأعداد١٢-١٤). أما المحبة، فجعل المسيح طبيعتها تُختبر بالفضيلة المحفوظة والمصونة (١٥). أما بيت الروح القدس ففي القمة، أو في القلب، فيشع منه عزاء ونعيم وسرور عوض عزاء على وشك أن يفقدوه ظاهراً!

في الآية (١٥)، صوت الودع وبيان الموصي. فالمعلم حدد الساعة، وحديثه السابق صار كله في حكم الوصايا: وصايا الحب والتراضع والوداعة، وأمانة الراعي، وقول الحق، والصفح عن الجهالات وعدم الدينونة، حتى ولو كانت الخطية قائمة على يد شهو عيان، ومكافأة الإساءة بالصلاة، واللعنة بالبركة، والعداوة بالمحبة، وأُلفة الخدام حتى إلى غسل الأرجل لئلا تُلاة الخدمة، وعدم الجري وراء الكرامة، وأخيراً أمانة الشهادة. فإذا كان المسيح قد صادف هوى النفس وصار لها كعريس، كانت هذه الوصايا كلها وأكثر؛ وإلا عثر على النفس حتى احتمال الإساءة! ... هي وصايا الروح، عوض وصايا العدو والجسد، فالروح إلى نمو، والجسد إلى زوال.

أما في الأية الثانية (١٦)، فيفيح منها عطر أزكى من الناردين الخالص، ولكن يتخللها رنة حزن، فهي تحمل بروتوكول وداع الأقانيم على مستوى التسليم والتسلم: فمعزى ذاهب ومعزى آت. الذاهب ذاهب ليجلس في المقدس الأعلى، ليغيب بالنظر عن أرض الإنسان؛ والآتي آت ليقيم بغير رؤيا في معية الإنسان إلى أبد الأبدين. والآب سُر بأن يستقبل (الذاهب) حاملاً روح الإنسان؛ ومبتهج بأن يرسل الآتي وهو ملء روح الله!!

أما نسبة الآية الثانية (١٦) إلى الآية الاولى (١٥)، فهي علاقة حب بحب؛ فإن أحببناه أحبنا، وإن حفظنا وصاياه أرسل لنا من يذكرنا بها ويشرحها لنا، ويحفظها في قلوبنا، ويعزينا عن كل غرامة يفرضها العالم علينا بسبب الأمانة. لأن وصايا يسوع يبغضها العالم ولا يطيق من ينطقها، ويفرض عليها غرامات فادحة، فيتلقف الروح القدس هذه الغرامات عنا ويحولها براً وسلاماً ...

وأخيراً نود أن نلفت نظر القارىء إلى أن الرب هنا يقصر وصيته الختامية على حفظ وصاياه الخاصة، التي تأخذ سلطانها الإلهي من فمه، ولا ذكر لوصايا سيناء وموسى والألواح التي كانت سراجاً منيرا، في سماء ليل شعب، ضاق بها وضاقت به، إلى أن انفجر نور النهار، واستعلن شمس البر ليضيء على العالم كله.

١٧- رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ.

«روح الحق»: وأيضاً حق بحق، وحق عوضاً عن حق، كما معز عوضاً عن معز، فالمسيح كان لهم «الحق»: «أنا هو... الحق» (يو٦:١٤). فإن كان الفم البشري الإلهي للابن المتجسد الذي ينطق بالحق سيختفي عن ناظريهم وأسماعهم، فهوذا الآب يرسل لهم «روح الحق» الذي ينطق في أفواههم وقلوبهم، ليسمعهم العالم كله!... كان الحق الذي يقوله المسيح ويعمله هو الإعلان عن الآب الكائن في الابن والحال في تجسده؛ والحق الذي يقوله ويعمله الروح فيهم وبهم يكون هو الإعلان عن الابن، واستعلان اللاهوت في تجسده، وبالتال استعلان الآب الذي في الابن والذي لا يُعرف ولا يُرى بدونه ...

والقديس يوحنا يتدرج في كشف الحق الذي بالمسيح وفيه، والذي بالروح القدس وفينا، هكذ: فبالسبة للحق الذي هو المسيح يقول: «ونعلم أن ابن الله قد جاء، وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية. [«أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤:٦).]» (ايو٥:٢٠)

وبالنسبة للحق الذي بالروح وفينا يقول: «بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فيناء أنه قد أعطانا من روحه، ونحن قد نظرنا ونشهد أن الآب قد أرسل الابن مخلصاً للعالم. من اعترف أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه، وهو في الله.» (ايو٤:١٣-١٥)، «وبهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا» (١يو٣:٢٤).

وشرح كلام القديس يوحنا هو كالآتي بالنسبة للحق بالمسيح ثم بالروح القدس:

+ بالنسبة للمسيح: أنه فتح بصيرة التلاميذ ليعرفوا الحق من كلامه وحسب الكتب، وذلك قبل مجيء الروح القدس هكذا: «هذا هو الكلام الذي كلمتكم به وأنا بعد معكم ...حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب ...» (لو٢٤:٤٤-٤٥)

وهذه هي «البصرة» التي يتكلم عنها القديس يوحنا، وهي لمعرفة الحق، الذي ركزه القديس يوحنا بهذه الجملة المختصرة، والتي هي كل الحق: «هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية» تماماً كما عرف المسيح نفسه لهم: «أنا هو الطريق والحق والحياة».

+ بالنسبة للروح القدس: أولاً، كانت عطية الروح القدس الاولى والعظمى أنه حل هو فيهم، وذلك باستحقاق عمل المسيح الفدائي والخلاصي، وبحلول الروح القدس فيهم تهيأ هيكلهم لقبول ألوهية المسيح، لأن الروح القدس أُرسل ليعمل لحساب المسيح، يعلنه ويعطيه، وهذا يوضحه القديس بولس غاية الوضوح: «لكي يعطيكم، بحسب غنى مجده' ان تتأيدوا بالقوة، بروحه، في الإنسان الباطن؛ ليحل المسيح بالإيمان فى قلوبكم ...، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله (حيث ملء اللاهوت: الآب والابن والروح القدس).» (أف٣:١٦-١٩)

وبحلول الروح القدس والمسيح في وعي التلاميذ، الذي انتهى إلى ملء كيانهم الروحي، فإنه ينطلق ليشهد فوراً لهذا الثبوت والملء، وبالتالي، فإن هذا الثبوت وهذا الملء يصبحان شاهداً على أن الروح القدس قد أُعطي لهم، ويشهد لعملية الخلاص العظمى، أن الآب أرسل ابنه مخلصاً للعالم، ويعترف أن يسوع هو ابن الله!! هذا هو الحق الذي بالروح القدس والذي صار في التلاميذ وكل المؤمنين.

«لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ»: نحن هنا أمام مواجهة حادة بين روح الله، وهوروح الحق؛ وروح العالم، وهوروح الضلال والتزييف. لقد دخل المسيح هذه المواجهة عينها باعتباره الحق، في مقابل

رئيس هذا العالم باعتباره المضل والكذاب، فكان الصليب، الذي به دخل الخلاص إلى العالم، واكتسب الإنسان حياة ما بعد الموت.. والآن، يبدأ الروح القدس عمله على أساس الصليب، وعلى نفس المواجهة وشدتها. فكما لم يقبل العالم الحق الذي في المسيح، بل أبغضه أشد البغض، ورفضه أشد الرفض، ولم يشأ أن يعرفه أبداُ هكذا: «وأما الآن، فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي ... إنهم أبغضوني بلا سبب» (يو٥:٢٤-٢٥)، «ولكن ينبغي أولاً أن يتألم كثيراً، ويُرفض من هذا الجيل» (لو١٧:٢٥)، «لستم تعرفونني أنا ولا أبي، لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو٨:١٩)؛ كذلك على هذا المستوى، واجه العالم الروح القدس باعتباره روح الحق الذي يشهد لكل الحق. واجهه بعدم القبول، أي بالرفض والبغضة، أولاً ضد التلاميذ الذين يعمل فيهم الروح القدس: «إن كان العالم يبغضكم، فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم. لو كنتم من العالم، لكان العالم يحب خاصته، ولكن لأنكم لستم من العالم بل أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم» (يو١٥:١٨-١٩)، «إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم ... لكنهم إنما يفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي، لأنهم لايعرفون الذي أرسلني» (يو١٥:٢٠-٢١). ومن بعد التلاميذ، الكنيسة كلها وإلى نهاية الدهور.

وهكذا يتضح من كلام المسيح، أن عدم قبول العالم للروح القدس هو بسبب أنه يشهد للمسيح، والمسيح غير مقبول، لأن المسيح يشهد للحق، أي للآب، باستعلان الآب الحال فيه بالكلمة والعمل: «إنما يفعلون بكم هذا كله، من أجل اسمي.» (يو١٥:٢١)

«الاسم»: اسم ابن الله الذي رفضه، يعني رفض الآب، وبالتال عدم قبول إرسالية الآب للابن لخلاص العالم. أي بصريح العبارة، فإن العالم يرفض الخلاص من أصوله، لأن العالم يعمل قت سلطان روح الضلالة ولحسابه. وهكذا، فإن الخلاص يبقى وقفاً على كل من يرفض العالم، بل ويبغض العالم، وذلك بأن يرفض أن يعرف أو يتعرف على روح الضلالة الذي في العالم! لذلك كانت الآية: «إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب.» (ايو٢:١٥)

«لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ.»: العالم لا يعرف الروح القس ولا يعرفه. الرؤيا هنا بالاثنين: رؤيا العين المجردة، ورؤيا العقل الروحي. فـ «العالم» هنا، يُعبر به عن الأشخاص الطبيعيين الذين يعيشون بحسب ظواهر الوجود المادي، لا يرون الروح على أي حال، لأن الروح جوهر إلهى فلا هم بالعين يرونه، لأن ليس له مظهر، ولا بالعقل يدركون كنهه أو ماهيته، لانه حق، والحق درجة في المدركات أعلى وأعمق من المظهر بلا قياس. فكل مظاهر العالم من مصنوعات ومخلوقات تحوى في أعماقها بالضرورة لمسة الخالق الذي صنعها؟ فهي تحوي حقاً، ولكنها ليست الحق، لأن المظاهر كلها زائلة والجوهر الخالق أزلى وأبدى: «لأن غضب الله مُعلن من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم، الذين يحجزون الحق بالإثم. إذ معرفة الله ظاهرة فيهم، لأن الله أظهرها لهم. لأن أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مُدركة بالمصنوعات، قدرته السرمدية ولاهوته، حتى إنهم بلا عذر.» (١:١٨-٢٠).

يلاحظ هنا أن محور هذه الآية، هو كلمة الوحي: «لأن الله أظهرها لهم»، فهي عطية فائقة على عقل الإنسان الطبيعي المخلوق، وفوق مقدرته الطبيعية المحدودة بإدراك الظواهر فقط. هذا الإمتياز أُعطي للانسان هبة، أن لا يكون غريباً عن الله، ولكن هذا الإمتياز ليس من روح العالم أصلا، بل من الله.

ويلزما هنا أن نوضح أن «الإنسان الطبيعي» مخلوف ليرتقي إلى «إنسان روحي». ففي صميم خلقة الله للانسان، كما نتصوره في آدم، يوجد مركز للادراك الإلهي، وإلا لما عرف آدم الله، وأحبه، واستمع إليه، وخشى منه حينما تعدى على وصيته. لذلك، نستطيع بكل يقين أن نقول، إن عقل الإنسان له مركز فوق كل مراكزه الشعورية

الطبيعية، لإدراك ما هو فوق الطبيعيات، أي إدراك الله وكل «أمور الله غير المنظورة». هذا المركز الفائق والممتاز، ينشط و يترقى بالممارسة، أي بالإشتغال في أمور الله: «وأما الطعام القوي فللبالغين، الذين بسبب التمرن قد صارت لهم الحواس المدربة عل التمييز بين الخير والشر» (عب٥:١٤). وهذا يؤدي إلى يقين الشعور بالله، ثم الإيمان به، ثم التأهل لأخذ الروح القدس، أي روح الله.

فالإيمان بالله لا يأتي من فراغ، وإلا ما أصبح له ثواب وعقاب. ولكن، بإهمال الانشغال بالله والتوقف عن تشغيل هذا المركز الخاص الفائق والممتاز، تضعف وتُفقد حساسيته، فتصبح معرفة الله غير واضحة، ثم صعبة، ثم مستحيلة، ثم مجهولة كلية؛ وكأن الله صارغير موجود، وذلك بسبب نشاط مراكز العقل الحية الأخرى وانشغالها الزائد بالظواهر، والانغماس في الأخذ منها لإشباع نهم العقل، والتعدى حتى على المركز الفائق الخاص بالله وتغطية احتياجه بالأمور الحسية وظواهر الأمور. هنا ينحصر الإنسان في صفته الدنيا، وهي كونه إنساناً طبيعياً، أي إنسان العالم، وليس إنسان الله بعد. هذا ما يعبر عنه بولس الرسول بقوله: «هكذا أيضاً أمور الله، لا يعرفها أحد إلا روح الله. ونحن لم نأخذ روح العالم، بل الروح الذي من الله، لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله. التي نتكلم بها أيضاً لا بأقوال تعلمها حكمة إنسانية، بل بما يعلمه الروح القدس، قارنين الروحيات بالروحيات. ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله، لأنها (أي أمور الروح) عنده جهالة. ولا يقدر أن يعرفها (يعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله)، لأنه إنما يحكم (أي يدرك) فيها روحياً. وأما الروحي، فيحكم في كل شيء، وهو لا يحكم فيه من أحد. لأنه من عرف فكر الرب فيعلمه؟ وأما نحن فلنا فكر المسيح» (اكو٢:١١-١٦ ترجمة عن الأصل اليوناني).

واني أنتهز هذه الفرصة يا قارئي العزيز لأرسم أمامك صورة واقعية للعالم والأشياء التي في العالم القابلة كلها للزوال : «والعالم يمضي وشهوته» (ايو٢:١٧)، في مقابل أمور الله الباقية والثابتة إلى الأبد: «مولودين ثانية، لا من زرع يفنى، بل مما لا يفنى، بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد. لأن كل جسدا كعشب، وكل مجد إنسان كزهر العشب. العشب يبس وزهره سقط. وأما كلمة الرب فتثبت إل الأبد.» (ا بط١:٢٣-٢٥)

فالعالم يقوم على الظواهر والمحسوسات، وهذه كلها تتغير وتتبدل وتزول. وظواهر العالم التي يصادفها الإنسان في حياته، تأخذ وجودها في وجدانه، لأنها تتحرك ببطء نحو الزوال، فلا يشعر بزوالها إلا بصعوبة. ولكن لو أمكن تصورها وهي تتحرك بسرعة أكثر، كأن يتصور اختزال فترة تعليمه في المدارس من عشرين سنة إلى عشرين دقيقة، لظهرت وكأنها خيال عابر. ولكن هي كذلك في الحقيقة، فكل ظواهر الحياة خيالات تتحرك على شاشة العقل ببطء، فترسخ فيه، وكأنها وقائع وحقائق، وهى في حقيقتها ليست إلا صوراً تظهر لتزول. ولكن وراء هذه الصور توجد الحقيقة، وخلف هذه المظاهر والأقنعة يوجد الجوهر القائم والثابت، وهي اليد الإلهية التي تديرها وتتحكم في ظهورها وتلاشيها، والتي تحدد أزمنة بقائها وزوالها، وتبرز للنفس البشرية أهميتها أو تفاهتها، لتزداد النفس معرفة، وتنمو في الفهم والحكمة، وتترقى في أحاسيسها ومدركاتها في درجات تصاعدية تقترب بها النفس إلى جوهر الحقيقة أو الحق القائم خلف هذه المناظر والظواهر والصور المتحركة التي تسوقها الطبيعة وتتفنن فيها من جانبها، بإيعاز من الخالق، لترغب النفس فيها. وهكذا يبقى الله، في النهاية، بالنسبة للنفس الواعية، هو الغاية العظمى من حركة العالم، باعتباره الحقيقة أو الحق الذي يُشبع قلب الإنسان، أو على الوجه الأصح لن يشبع منه أبداً. فعالم الله والروحيات، هو أصدق ما تحتاجه النفس، فالنفس البشرية مخلوقة على صورة الله، والصورة لا ترتاح إلا على أصلها، كما يرتاح المثيل إلى المثيل.

ولكن أن يبقى الإنسان مشدوداً إلى هذه الصور الزائلة والمناظر والخيالات وحسب، ويكتفي منها بالتغيير والتبديل، ويتعزى من زوال بعضها بظهور غيرها، فهذه مهزلة. شأنه في ذلك شأن شاب طائش لا يشبع من النظر إلى الأفلام السينمائية، يخرج من عرض ليدخل عرضا آخر، يصرف ماله وزمانه مستمتعا بخيالات، تظهر له كأنها حية وهي قد تكون لممثلين صارت أجسادهم تراباً وقصتهم خرافة.

فالعالم، يا صديقي، عالم أقنعة وخيالات يحيطه الخداع من كل جانب. وعليك أن تدرك أن كل ما هو قابل للازدواج فهو خداع، فالفرح الذي يمكن أن ينقلب حزناً هو خداع: الفرح والحزن كليهما! ... كذلك الصحة والمرض، السلام والكآبة، النور والظلمة، الحياة والموت، الغنى والفقر، العلم والجهل، والاطمئنان والخوف. فكل ما يمكن أن ينقلب إلى ضده هو صورة متحركة، وهو خداع؛ أما «الحق» فهو قائم في كل هذه المتضادات، قائم ثابت، لا يتغير، ولا يتبدل، والذي عنده «روح الحق» يأخذ من الصورة وما هو ضدها، يأخذ من الفرح قدر ما يأخذ من الحزن ليرتفع فوق الفرح والحزن جميعاً. يأخذ من الغنى قدر ما يأخذ من الفقر، ليرتفع فوق هذا وذاك؛ ولا يطاله الغنى بغروره، ولا يطأه الفقر بنكده!

أما الذي ينحاز إلى العالم، فلن يقر له قرار؛ يعيش بين المتضادات، إلى فوق، ثم إلى أسفل وبالعكس، إلى أن يحطه اليأس، وتأكل أيامه المتغيرات. لذلك يقول الرب: «سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العلم أعطيكم أنا» (يو١٤:٢٧). كما يقول: «ولكني سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم» (يو١٦:٢٢)؛ «كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً، ولكن من شرب من الماء الذي أعطيه أنا، فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أعطيه، يصير فيه ينبوع ماء، ينبع إلى حياة أبدية!!» (يو٤:١٣-١٤)؛ «اعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقي للحياة الأبدية، الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا، الله الآب قد ختمه... أنا هو خبز الحياة. من يقبل إلي فلا يجوع، ومن يؤمن بى فلا يعطش أبداً... من يأكل جسدي ويشرب دمي، فله حياة أبدية.» (يو٦:٢٧و٣٥و٥٤)

هذه هي طبيعة العالم وعطاياه، وهذه هي طبيعة الله وهباته. وهكذا، فالحق الذي يعطيه المسيح: «أنا هو الحق»، لا يزول، ولا يؤول إلى الضد أبداً، فالحق واحد دائماً، لا ينثنى ولا يتجزأ، ولا يتغير، وهو هو من طبيعة الله، وهذا هو جوهر عطاياه.

«رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ.»: كلمة «أن يقبله» تأتي باليونانية بمعنى يستقبله، والآن نستطيع أن ندرك عمق المعنى اليوناني لكلمة يستقبله، إذ أن إنسان العالم، أي الإنسان الطبيعي الفاقد لمراكز الوعي الروحي، ليس لديه جهاز الاستقبال الذي يدرك به الحق المطلق، لأن كل إدراكه العقلي حي قائم ومقصور على إدراك المظاهر والصور فقط؛ أما كل ما يخص طبيعة الله، أي الحق كجوهر، فهو مفقود عنده أو غير موجود ولا يمكن إدراكه، وبالأخص ما يتعلق باستعلان هذه الطبيعة في الآب والابن والروح القدس. على أنه يستحيل استقبال الروح القدس إلا في القبول لحقيقة المسيح متجسدُ: «هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم؟» (أع ١٩:٢)

وتقول الآية أن العالم لا يستطيع أن يستقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه. جيد، لأن العالم قائم على رؤية المظاهر والصور، والعرفة لدى العالم قائمة على التحليل الذهني لهذه المظاهر والصور، والروح القدس ليس له منظر ولا مظهر ولا صورة لأنه أقنوم إلهي غير مخلوق وغير متجسد، فهو ليس من هذا العالم بالمرة، ولكنه قائم فيه كمدبر،

ومُحيي وضابط للخليقة، حال في كل مكان، ومالىء الكل، وأصل الصلاح، ومُعطي الحياة لكل ذي جسد. يبكت العالم على خطاياه من داخل ضمير الأتقياء، وبالأكثر تجاه الذين يرفضون الإيمان بابن الله. لذلك فإن وظيفة الروح القدس الاولى في العالم أن يشهد لبر المسيح داخل قلوب المؤمنين، وينطق بأفواههم، ويدين كل الذين انحازوا وراء العالم ورئيسه. لذلك يبقى الروح القدس غير مقبول للذين أحبوا العالم الحاضر وحجتهم أنه غير منظور لديهم، وأن كل ما هو غير منظور أو محسوس غير معروف، فهم ينكرونه، كما ينكرون الابن والآب بالضرورة، لأن كل من لا يقبل الروح القدس، لا يدرك الآب والابن. هذه هى طبيعة العالم، وطبيعة الله تبقى غريبة عن طبيعة العالم، إلى أن يقبل الروح القدس، المنوط به استعلان كل أعماق الله للانسان:

+ «ما لم تر عين، ولم تسمع به أذن، ولم تخطر على بال إنسان، ما أعده الله للذين يحبونه. فأعلنه الله لنا نحن بروحه. لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله، لأن من من الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه. هكذا أيضاً أمور الله، لا يعرفها أحد إلا روح الله. ونحن لم نأخذ روح العالم، بل الروح الذي من الله، لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله. «(اكو٢:٩-١١)

«وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ.»: ماكث معهم الآن بمكوثهم مع المسيح، ولكن لما يُرفع المسيح سيجيء الروح القدس ليقيم فيهم[1]!

التلاميذ هنا عينة من باكورة الإنسان الذي أفرزه الله، ليقف معه ضد العالم. فسلوك الطبيعة الجديدة للانسان في التلاميذ والمؤمنين، هو عكس سلوك طبيعة العالم تجاه الروح القدس. العالم لا يراه ولا يعرفه، وأما التلاميذ والمؤمنون فيعرفونه. العالم لا يقبله، وأما التلاميذ والمؤمنون فيقبلونه: «اقبلوا الروح القدس» (يو٢٠:٢٢)، وبذلك يمكث معهم، والحرف اليوناني المستخدم هنا ليوضح المعية هو ( )، وهو يفيد الشركة والوجود مع (By the side of)، كما جاء في قول المسيح: «بهذا كلمتكم وأنا عندكم ( )» (يو١٤:٢٥)

«ويكون فيكم»: والحرف اليوناني هنا ( ) ويفيد السكنى الفردية الشخصية (الحلول). كما شرحها المسيح بقوله: «الآب الحال في هو يعمل الأعمال.» (يو١٤:١٠)

وهنا، ومن استخدام الحروف اليونانية، يتبين لنا أن المسيح يمهد في أذهان التلاميذ كيفية تعامل الروح القدس معهم كشخص يحل محله: فكما كان المسيح عندهم «بهذا كلمتكم وأنا عندكم» (يو١٤:٢٥)، هكذا سيدخل الروح القدس في شركة دائمة أبدية معهم ككنيسة. ثم كما كان الآب حال في المسيح، وكان هو الذي يعمل الأعمال التي كان يعملها المسيح باتفاق مدهش، هكذا سيحل الروح القدس فيهم حلولاً فردياً وشخصياً، ليعمل فيهم وبهم كل الأعمال التى كان يعملها المسيح.

ولكن هذا الحلول الذي ستناله طبيعة التلاميذ بالروح القدس، لن يكون كحلول الآب في المسيح، لأن حلول الآب في المسيح هو حلول الآب في الابن على أسامى الذات الواحدة في الجوهر الواحد والطبيعة الواحدة؛ أما حلول الروح القدس في الطبيعة البشرية، فهو حلول تقديس حيث تستهدف كل من الطبيعة والشخصية البشرية لعملية تغيير وتجديد، بشبه الخلق الجديد، لاكتساب الصفات المسيحية على نمط الصفات التي اكتسبها لنا المسيح بتجسده وتألمه وصلبه وقيامته وصعوده إلى السماء: «تعلموا مني» (مت١١:٢٩)، «اثبتوا في وأنا فيكم» (يو١٥:٤)، «أنتم في وأنا فيكم» (يو١٤:٢٠)، «أنا فيهم، وأنت في، ليكونوا مكملين إلى واحد.» (يو١٧:٢٣)

---

[1] في الأصل اليونانى «ماكث» في الزمن المضارع والفعل الثانى «يكون» في المستقبل

١٨- لاَ أَتْرُكُكُمْ يَتَامَى. إِنِّي آتِي إِلَيْكُمْ.

لا يزال المسيح يعزي تلاميذه عن الفراق الذي سيواجهونه بعد موته وقيامته وذهابه إلى الآب. لقد أدرك المسيح مقدار تعلق تلاميذه به كأب وتعلقه بهم كأولاد: «يا أولادي، أنا معكم زماناً قليلاً بعد» (يو١٣:٣٣)، وكلمة «أولاد» هنا تأخذ صورتها المحببة جداً على مستوى الأولاد الصغار، «إذ كان قد أحب خاصته ... أحبهم إل المنتهى. » (يو١٣:١). فإن كان المسيح قد شرح لهم ضرورة ذهابه إلى الآب، وأوضح لهم أن هذا الفراق سيكون لصالحهم، إذ سيرسل لهم الروح القدس المعزي، روح الحق، ليمكث معهم ويكون فيهم؛ إلا أنه كان يدرك أن ذلك لا يغنيهم عن عودته إليهم ورؤيته لهم.

«إني آتي إليكم»: حيث فعل «آتي» هو في زمن المضارع المستمر بلا حدود ولا نهاية، وهو الذي ورد في الأصحاح الأول بهذا النحو: «كان النور الحقيقي... آتياً إلى العالم» (يو١:٩)، أي يظل يأتي و يأتي ليغطي كل الزمان إلى ما لا نهاية. فوعد المسيح لتلاميذه: «إني آتي إليكم»، هو وعد «المجيء الدائم» الذي تحقق أولاً بعد القيامة، بظهوره مرات معدودة. ولكن بعد حلول الروح القدس يوم الخمسين، ظل مجيئه عل مستوى الإقامة الدائمة الروحية في الكنيسة: «ها أنا مكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر.» (مت٢٨:٢٠)

فوجود المسيح في الكنيسة، هو وجود عضوي عامل ودائم، لأن المسيح بالنسبة للكنيسة كالرأس بالنسبة للجسد: «وإياه جعل رأساً فوف كل شيء للكنيسة، التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل.» (أف١:٢٢-٢٣)

ومعروف أن حلول الروح القدس، سواء كان ذلك في الكنيسة أو في الأفراد المؤمنين، إنما يتم لحساب المسيح، بمعنى أن وجود الروح القدس يكشف في الحال عن وجود المسيح. وحتى العزاء الذي يضطلع به الروح القدس في قلوب المؤمنين يقوم على أساس استعلان الروح القدس لشخص المسيح، وتجليه، في كل مواقفه المحببة، داخل قلوب المؤمنين. وقد أمدنا بولس الرسول بصورة للصليب، واقعية ومؤثرة، استعلنها الروح القدس في قلب بولس لشخص المسيح بالنسبة لبولس نفسه، فتأوه معلناً عن صدقها: «الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي.» (غل٢:٢٠).

وهكذا يأخذ الروح القدس من أعمال المسيح العامة، ويصورها للمؤمن كعمل شخصي يخصه هو بالدرجة الاولى، لذلك نجد الرب يذكر إرساله للروح القدس أولاً، ثم يذكر مجيئه الشخصي لكل واحد!! لأن مجيئه إنما يُستعلن ويصور بواسطة الروح القدس الساكن في القلب.

ويلزم أن ننوه هنا أن الروح القدس هو روح الآب وروح الابن، فهو يحمل الوحدة الإلهية الكائنة بين الآب والابن، بقدر ما يحمل طابع الآب وطابع الابن، أي الحب الأبوي والحب البنوي معاً. فيا لغنى المجد الذي يرضع منه قلب الإنسان، حينها يحل فيه الروح القدس ويقيم . بل وإن الروح القدس يحمل ربط الالفة والانسجام للوحدة القائمة بين ابن الله وابن الإنسان، ويحمل القوة التي جعلت وصيرت الكلمة جسداً (لو١:٣٥)، والتي أقامت المسيح من القبر في اليوم الثالث (رو٨:١١). والروح القدس، روح الحق، بسكناه في قلب الإنسان، يغذي فكر الإنسان على الحق بالكلمة، كما يغذي روحه بهذا الحق، إنما بالفعل والقوة، ليدرك الإنسان ويرتقي إلى نصيبه في التبني، وشركة ميراثه مع المسيح في الله. إنه يأخذ من الرأس، ويعرف بالسر الأعضاء في الجسد، ويظل يملأ، حتى إلى كل ملء الله.

«لا أترككم يتامى»: هذه إشارة بليغة إلى موته، حيث الموت الذي بدأ يخطو إليه بقدميه، والذي به يتيتم التلاميذ إلى زمن؛ وهذه هي الجملة التي أوحت بالرد عليها مباشرة: «إني آتي إليكم»، ليرد تيتمهم إلى بنوة جديدة لابوة

جديدة. التي هي بدورها إشارة بليغة إلى قيامته. فإن كان بموت المسيح يصبح التلاميذ يتامى، فبقيامته ومجيئه إليهم يدخلون تواً في عهد التبني وحنو الآب الدائم.

١٩- بَعْدَ قَلِيلٍ لاَ يَرَانِي الْعَالَمُ أَيْضاً وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَرَوْنَنِي. إِنِّي أَنَا حَيٌّ فَأَنْتُمْ سَتَحْيَوْنَ

في الحقيقة، إن العالم لم يره أبداً متجلياً على حقيقته «أنا هو»، وإنما كان يراه كمواطن جليلي لا أكثر، وبهذه الرؤية يكون العالم قد قارب أن يفقد هذا المواطن الجليلي، إذ لم يعد له أكثر من اثنتي عشرة ساعة يقضيها بين المحاكمات. أما تلاميذه، فقد «رأوا مجده» بالاستعلان، أي بالرؤيا الروحية، وآمنوا به. فإن كان سيختفي عنهم بالأنظار ساعات قليلة، فلكي يظهر لهم ثانية متجلياً برؤيا المجد، ولا يعود يختفي عن عيون إيمانهم قط: «هذا أقامه الله في اليوم الثالث، وأعطى أن يصير ظاهراً، ليس لجميع الشعب، بل لشهود سبق الله فانتخبهم، لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات.» (أع١٠:٤٠-٤١)

«إني أنا حي»: المسيح يعبر هنا على الموت، وكأنه لم يكن، ليلفت نظر تلاميذه إلى قوة القيامة الكائنة فيه، فهو يرى نفسه هنا حياً وكأن القيامة كائنة في كيانه لا تفارقه. وبهذه الحياة الأبدية التي فيه، يضمن لتلاميذه معه شركة أكيدة فيها. ألم يقل: «وكل من كان حياً وآمن بي، فلن يموت إلى الأبد» (يو١١:٢٦)

هذا القول يلتقطه بولس الرسول ويشهد له، من واقع حياته هو أيضاً الكائنة في حياة يسوع وبها: «الله الذى هو غني في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها، ونحن أموات بالخطايا، أحيانا مع المسيح» (أف٢:٤-٥)؛ «مع المسيح صلبت، فأحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا في، فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبني، وأسلم نفسه لأجلي.» (غل٢:٢٠)

تركيز بولس الرسول هنا على قوة الإيمان الفعالة بالروح، لبلوغ شركة فعلية هع المسيح الحي، لنوال حياة دائمة بحياة المسيح وفيها. لأنه بحسب إيمان القديس بولس، فكل من آمن بالمسيح، يصبح له شركة في المسيح: في موته، وفي قيامته، وفي حياته، وجلوسه معه في السماويات؛ من أجل هذا تجسد ابن الله، ليعطينا هذه الحياة.

وعن كيفية حياته وامتدادها في تلاميذه بالروح يوضح المسيح هكذا:

٢٠- فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا فِي أَبِي وَأَنْتُمْ فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ.

«في ذلك اليوم تعلمون»: هنا واضح انه يوم الاستعلان، وهو بلا شك يوم الخمسين، عندها حل الروح القدس، روح المعرفة والفهم، روح الاستعلان والكشف، وأول من سيستعلنه ويشهد له الروح القدس هو المسيح، أنه ابن الله، الحقيقة التي من اجلها كتب القديس يوحنا إنجيله كله: «لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه» (يو٢٠:٣١-٣٢)؛ الأمر الذي اكمله الروح القدس منذ يوم الخمسين فصاعداً باستعلان علاقتنا بالمسيح، إذ يشهد بولس الرسول على شهادة الروح القدس في أعماقه: «لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله... اخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا ابا الآب. الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله. فان كنا اولاداً ًفإننا ورثة أيضاً، ورثة الله، وراثون مع المسيح...» (رو٨:١٤-١٧)

وعلى مدى سفر الاعمال كله والرسائل، يشهد الروح القدس أن المسيح هو ابن الله. فأول عمل عمله بولس الرسول بعد ان اعتمد، هو الكرازة بابن الله: «وتناول طعاماً فتقتوى... وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح ان هذا هو ابن الله» (أع٩:١٩-٢٠)، وهكذا تم قول الرب أن: «في ذلك اليوم تعلمون أني انا في ابي».

«أني أنا في أبي»: هذا اصطلاح لاهوتي، أي يختص بطبيعة الله، ويفيد الوحدة القائمة بين الآب والابن، هذه الوحدة تؤمنها وحدة الطبيعة اي الجوهر. وجوهر الله هو ألوهيته؛ فالآب والابن جوهرهما واحد، ولا يوجد ثنائية في جوهر الله، لانه بسيط غير منقسم ولا مركب. والآب والابن صفات جوهرية أي صفات لطبيعة الإله الواحد. والآب والابن ذات واحدة، كاملة كمالاً مطلقاً؛ ويستحيل ان تكون الذات الكاملة آباً فقط ´وابناً فقط، فكل ذات هي آب وابن معاً. وإذا أخذنا الذات البشرية، اي الإنسان، نجده كذلك، فكل ذات (أي أنا وأنت) هي ابن ثم هي أيضاً أب، أي أن الذات فيها البنوة وفيها الأبوة، كامنة، تظهرها عوامل زمنية ونضجية. ولكن ذات الله كاملة أزلياً وأبدياً، فيها الأبوة والبنوة معاً، لا متقدم فيهما ولا متأخر، ولا مستحدث فيهما ولا متغير.

لهذا، فإن الآب والابن هما بالطبيعة متحدان ليكونا الذات الإلهية الواحدة، الله. ومن السهل بعد ذلك أن نقول أن الآب في الابن كائن، وأن الابن في الآب كائن، وأن لهما المشيئة الإلهية الواحدة التي للذات الواحدة، ومن السهل البين أن تمارس الابوة في الله رسالتها بالانعطاف والحب نحو البنوة وتعلنها، خاصة بعد التجسد، وأن تمارس البنوة رسالتها بالطاعة والحب، بعد التجسد، نحو الابوة.

فلما شاء الله أن يخلص الإنسان بنفسه بأن يرفعه إليه، ويهبه الحياة الأبدية، بذل البنوة التي فيه، أي ابنه، ليتجسد. وهكذا ظهر الله في الجسد، وهوالابن، وأطاع الآب، حتى أكمل رسالة الخلاص. وقد استطاع المسيح أن يبرهن عملياً، بحياته وموته وقيامته، أنه هو والآب واحد، قولاً وعملاً وسلوكاً. ولما حل الروح القدس على التلاميذ، أكمل الروح القدس الشهادة للمسيح أنه ابن الله، وأنه واحد مع الآب، الأمر الذي صار محور الكرازة وأساس الخلاص.

«وأنتم في وأنا فيكم»: المتكلم هنا هو المسيح ابن الله المتجسد، ولولا تجسده ما استطاع أن يقول هذا القول، ولكنه لما أخذ الطبيعة البشرية واتحد بها، استطاع أن يقول: «أنا فيكم» أي في طبيعتكم. و«أنتم فيّ» أي طبيعتكم صارت فيّ. وهذا، بحد ذاته، هو الذي فتح أمامنا المجال لنتجرأ ونطالب، بحق هذا التجسد، أن يكون لنا شركة معه أو في حياته على وجه الأصح، وأيضاً أن يكون له وجود وشركة في حياتنا، بل هو الذى دعانا إلى تلك الشركة ومنحنا حقوقها بالتجسد. هذه الشركة مع المسيح كابن الله، الذى دعانا إليها، ومنحنا كل حقوقها، هي أيضاً حالة اتحاد. ولكن هناك فرق شاسع بين كلمة المسيح: «أنا فى أبى» وبين «أنتم فىّ وأنا فيكم». ففى الأولى، يقوم الاتحاد على أساس وحدة الطبيعة أى الجوهر الإلهي، وهو يُنشىء ذاتاً واحدة، أما الوجود المتبادل في الحالة الثانية، فهو لا يرفع الفوارق ولا يوحد الذات بل يعطي حقوقاً مجاناً ويعبر عنه بمفهوم الشركة في حياة المسيح: «فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيّ» (غل٢:٢٠)؛ «من يأكل جسدي ويشرب دمي، يثبت فيّ وأنا فيه» (يو٦:٥٦)؛ «فمن يأكلني، فهو يحيا بي.» (يو٦:٥٧)

هذا الاتحاد الذي يدعو إليه المسيح في موضع آخر: «أنا فيهم وأنت فّي، ليكونوا مكملين إلى واحد» (١٧:٢٣)، هو أيضآ حالة شركة، ويعبر عنها القديس يوحنا هكذا: «وأما شركتنا نحن، هي مع الآب، ومع ابنه يسوع المسيح» (ايو١:٣). وهذه الشركة لا يمكن أن نبلغ مداها الحقيتي سواء بالإدراك أو بالفعل، إلا في الحياة الأخرى، حيث يكون فيها الله الكل في الكل، ولكنها تبدأ تتحقق منذ الآن جزئياً، وقليلاً قليلاً، عل مستوى الاستعلان بواسطة الروح القدس، وعلى مستوى الفعل بتقديس الروح أيضاً، وذلك بالتغيير والتجديد المتواصل، بخلع الإنسان العتيق ولبس الجديد الذي يتجدد حسب صورة خالقه، وعلى أساس الإتفاق الكامل في العمل والمشيئة مع الروح القدس، لتكميل

الحياة المسيحية.

وإليك أيها القارىء العزيز محاولة مختصرة غاية الاختصار للتعبير عن اختبار الشركة مع المسيح بالروح، حيث نتتبع النفس وهي تنطلق من عقالها، لتطلع على الطبيعة الإلهية، وتتآلف معها، من خلال نافذة الروح القدس. حيث تفاجأ النفس، من خلال وعيها الجديد المتفتح، برؤية الحقيقة لأول مرة، فتبدو الحقيقة كانكشاف فجائي في الرؤيا الشخصية، حيث تدرك النفس حقيقة المسيح المنيرة، بالإحساس الواعي لحضوره الإلهي.

هذا الإحساس ينطبع في النفس، ليخط فيها خطوطاً أبدية لا تفارق النفس مدى الحياة، وحيث صورة المسيح لا تفارق النفس الواعية بوجوده، وكأنه يلازم الروح: « أنتم فيّ وأنا فيكم». إنه نوع من الاتحاد الروحي العميق، تكتسب منه الروح تكاملاً جديداً، في كل اختبار، يقربها أكثر من المسيح، ويزيد وعيها نوراً وإدراكاً بألوهيته البسيطة المتناهية في البساطة. حيث يتذوق الإنسان حياة أخرى تماماً، بمواصفات جديدة على الفكر تماماً، أقوى ما فيها هو الفرح والسلام اللذان يسكنان في القلب: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينذع أحد فرحكم منكم.» (يو١٦:٢٢)

ثم يبدأ الوعي المسيحي فيتحرك بنور حضرة المسيح، فينكشف أمامه سر الخلق، وسر التجديد، وسر القيامة والخلود، لا كأن هذه معارف جديدة، بل باعتبارها خصائص النفس ذاتها. أما الزمن، فيغيب بماضيه وحاضره ومستقبله عن وعي الإنسان، فلا يعود يشعر بمرور الساعات والأيام، أو تتابع الليل والنهار، إذ تستغرق النفس في رؤيتها وهي تتتبع المسيح في حياته وكلماته، وهومتجلي في أفق النفس بملء بهائه، فتختفي من أمام العين كل الصور والمناظر، وهي في موضعها، فلا تعود العين الروحية تصطدم إلا بالحقائق وهي تتكشف أمامها. ولا يعود للبصر الروحي حواجز مادية تمنعه عن التغلغل في الوجود الروحي اللامحدود واللامُحاصر. لا يعود البصر بالعين هو واسطة الرؤيا، بل تنفتح حواس الروح لتتعامل مع الحقائق الإلهية بوعي جديد. وهكذا تدخل الروح في بيتها الآبوي: «في بيت أبي منازل كثيرة... أنا أمضي لأعد لكم مكانًا، وان مضيت وأعدت لكم مكاناً، أتي أيضاً وأخذكم إلي، حتى حيث أكون أنا، تكونون أنتم أيضاً.» (يو ١٤:٢-٣)

٢١- الَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحِبُّنِي والَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي وَأَنَا أُحِبُّهُ وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي.

آية اختبارية يطرحها المسيح أمام عشاق الحب الإلهي، ليستكمل فيهم ظهوره الإلهي. حينما قال المسيح في موضع آخر: «ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر» (مت٢٨:٢٠)، لم يقلها عفوياً، وكأنه يسند قلبهم بالكلمة، ولكنه كان فعلاً وحقاً على وعد مع المحبين والعاشقين وحافظي عهده ووصاياه، وليس بمجرد التواجد غير المعلن، ولكن بالظهور الحقيقي المستعلن للروح المنفتحة الحواس والقادرة على اجتلاء الرؤية.

وهل للرب وصايا فوق بساطة المحبة، التي لا تعرف أن تفرق بين صديق وعدو، أو تميز بين جميل وذميم، أو تفضل مادحاً على قادح. أو هل له وصية أقوى من اتضاع الإخلاء الصادق من كل أدعاء الكرامة، وطلب المجد الدنيوي، والتسابق على الظهور، وشهوة المديح والسيادة. لقد أوصى الرب وأكد على أهمية الصلاة بدون ملل، حتى تستعلن قوتها، ولمح على حتمية الطلبة ليل نهار، حتى ينسكب الروح القدس الحامل لكل أسرار الحياة. لقد شرح الرب، وأوضح الشرح بالتمثيل، كيف تقوم قوة الكرازة على أيدي الكارزين حينما يغسلون أرجل بعضهم البعض، ليؤمن العالم أنهم تلاميذ الرب حقاً، ثم جعلها وصية عملية لكل الخادمين، لا حفلة تمثيل على مسرح الكنيسة.

لقد أوصى الرب الذين ثبتوا وجههم نحو أورشليم العليا، أن لا يلتفتوا إلى الوراء ليودعوا الأهل والأقرباء، محذرا

إياهم أن أعداء الإنسان يكونون هم أهل بيته، إن هو طلب وجه الرب. وأنه بقدر ما يترك الإنسان من مباهج الدنيا وعواطف اللحم والدم، بقدر ما يأخذ مائة ضعف، كيلاً مهزوراً ئلبداً، من مباهج الحياة الأبدية.
لقد أوصى الرب كثيراً بالأذن التي تسمع، والعين التي تبصر، والقلب الجيد الذي تنبت فيه الكلمة لتعطى ثمارها، وطوب حبة الحنطة التي فضلت أن تموت، من أن تبقى وحدها، ووعدها بثمر كثير. ووصايا الرب تمسك بعضها بعض، والواحدة تجر الأخرى، لأن قوة خفية تنبع منها، لا تسكت ولا تهدأ، حى تأتي على الكل.
«يحبه أبي»: «الذي عنده وصاياي» هي الأساس الذي عليه تقوم كل علاقة كلية وجزئية مع الله منذ القديم. فاحترام كلمة الله، هو التكريم الحقيقي والمباشر لشخص الله: «أكرم الذين يكرمونني، والذين يحقترونني يصغرون» (١صم٢:٣٠).
وأين ومتى وكيف نكرم الله؟ إلا في كلمته واسمه. فكلمات الله واسعه تحمل شخصه، وينوبون عن وجوده، ويعملون عمله، والمسيح، تبارك اسمه، هو كلمة الله مُشخصة ومنظورة، وهو الحامل لاسمه، فالتعامل الموقر مع المسيح هو تعامل مباشر مع الآب، وكيف نتعامل مع المسيح إلا في وصاياه؛ فالذي عنده وصايا يسوع، عنده الرب نفسه. والذي جلس تحت كلماته يتأدب بها ويتهذب، هو الذي اختار النصيب الصالح الذي لن يُنزع منه (لو١٠:٤٢). «ومن يثبت في تعليم المسيح فهذا له الآب والابن جيعاً (٢يو١:٩)، «والذي يحب كثيراً يُغفر له الكثير» (لو٧:٤٧)، أي يصير من المقربين إلى الآب.
وفي القديم، تعلمنا أن الله، الحكمة، يمكن أن يتبادل معنا الحب مباشرة: «أنا أحب الذين يحبونني، والذين يبكرون إلي يجدونني» (أم٨:١٧)، وما التبكير إلى الله، أو إلى حكمته، إلا الصلاة والهذيذ بكلمته الحية في بكور الهار وبكور الحياة معاً.
والآن، وقد تجسد الكلمة، وسمعنا من فمه وصية جديدة، صار حب الوصية هو حب الابن والآب معاً. ورد الفعل عند الله لا يزال قائما، فالذي يحب الابن يحبه الآب؛ وحينما يحبنا الآب، فهذا معناه أنه تمث المصالحة وأثمر الصليب والغفران، ودخلنا فعلاً في ميراث البنين.
«وأنا أحبه»: محبة الرب لنا قائمة على الصليب، أما بعد الصليب فهي مخضبة بالدماء، حيث لا يمكن أن يكون حب أعظم من هذا. ولكن «الذي» عنده وصايا يسوع، وقد حفظها في قلب واع «وعمل بها وعلم» (مت٥:١٩)، فهذا يكون قد دخل في عهد نشيد الأنشاد، وتأهل أن يطلع على سر الحب الإلهي، ويكون قد انتقل من ميراث البنين إلى ميراث العروس، هذا يقول عنه القديس بولس الرسول إن: «من التصق بالرب، فهوروح واحد.» (اكو٦:١٧).
«وأُظهر له ذاتي»: الكلمة اليونانية (   ) تفيد معنى «يعرض بوضوح وبشكل بارز»، وهي نفس الكلمة التي جاءت في ظهور المسيح أمام الله: «لأن المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد، أشباه الحقيقية، بل إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا» (عب٩:٢٤)، لذلك، فهي تفيد أكثر بكثير من معنى الاستعلان المظور لشيء كان خفياً وأُظهر والتي تأتي هكذا: (   )، ولا هي ظهور شيء كان غير معروف سابقاً: (   ).
ومعروف أن ظهور المسيح العلني المجسم والواضح لا يمكن أن تحيط به العين في حالتها الطبيعية، لأن المسيح الأن هو في حالة مجده الإلهي، الذي يفوق قدرة إحساس العين، إذ يتحتم أن يكون الروح متداخلاً وفعالاً في الحواس الروحية، حتى يتمكن الإنسان المؤمن، وليس المؤمن فقط، بل من بلغت روحه درجة نقاوة القلب والصفاء،

بممارسة المحبة والهذيذ في كلمة الحياة، لكي يدرك المسيح في ظهوره الإلهي الفائق لمظاهر المادة والعالم.
ويلزم أن ننتبه جداً لتصريح الرب في هذا الأمر الفائق، إذ يقول إنه هو الذي سيُظهر ذاته، بمعنى أنه سيمارس عملاً فائقا أو إعجازياً. وهذا يجعل ظهوره عملاً خاصاً به، يعطيه كيفما يشاء، ومتى شاء، ولكنه جعله في متناول كل إنسان: «الذي عنده وصاياي، ويحفظها، فهو الذي يحبني»، أي يؤدي شروط المحبة.
أما ظهور الرب، فيقين كالفجر، رآه بولس وهو ناظر إليه من السماء، في ضوء منتصف النهار، بوجه يلمع أكثر من الشمس، لأن الشمس وكل الأنوار هي ظلال وأقنعة للنور الحقيقي؛ فالأقنعة تختفي، والظلال تنمحي، حينما تنفتح عين الروح ليتجلى أمامها النور الحقيقي، و يظهر عالم الروح على حقيقته، والرب سراجه.
لولا النور (المسيح) ما كان الظل (الخليقة)، ولكن الظل لا وجوة له من ذاته، بل الوجود هو للنور وحده: «بنورك نرى نوراً» (مز٣٦:٩)، إذ لا يعود البصر بالعين بل تنفتح حواس الروح المضيئة لرؤية النور الحقيقي، فلا تعود الرؤيا تصطدم بالظلال (جوامد المادة)، بل تخترقها بلا عائق، وكأنها شفافة، دون أن تفارق موضعها، أو تضيع معالمها وأشكالها. وليست جوامد المخلوقات وحدها هي التي تخترقها أشعة الخلود فتذوب صورها المتباينة، بل وكل ما يصدر عن المادة والإنسان من الانفعالات الثنائية الهوجاء ذات الصعود والهبوط والدفع المتواصل، من نور وظلمة، وفرح واكتئاب، ورجاء وشقاء، وراحة وعناء، وميلاد وموت، هذه كلها تخترقها أشعة الخلود الصادرة من مصدر الخلق، من النور الحقيقي من وجه يسوع فتهدأ وتكف جيعاً، ولا يبقى إلا الوجود الحقيقي الموحد، في مجال الإله المتجلي بنور لا يُدنى منه، في هدوء الأبدية اللامتناهية، وتتجلى أشعة النور تنساب من مصدرها الخالق، لتملأ كل الوجود، تنفذ وتحترق كل ما يصادفها، وبها يستنيرر الذهن الذي يطير على أجنحتها، ليغشى بها الوجود، ويستجلي بها الموجودات، وكأنه ملتحم بالوجود الكلي، لا ينتهي عند حد أو أفق، فتتسع دائرة العقل الروحي، وتتقدس حركاته، ولا يعود يرتاح أو يبتهج إلا في إرادة خالقه، وذلك حينما يخضع لها برفق ودون عناء، ويصغي إلى الصوت الآتي إليه من الأبدية: «شاول شاول لماذا تضطهدني...» (أع٩:٤)
القديس بولس الرسول خبرنا خبر اليقين عما رأى وسمع وعاين، حينما حُمل بالروح، وطار على أجنحة النور، واخترق كل ظلال الأرض والسموات، حتى السماء الثالثة، التي تصفو فيها الرؤيا، ليتجلى عالم الروح دون أقنعة أو ظلال أو خيالات، حيث لا تعدو الحركات المادية تؤثر على الرؤيا أو تزيف المنظور، وحيث تتحرر الروح، وينفتح الوعي المسيحي، ليرى ما لم تره عين، ويسمع ما لم تسمعه أذن، ويعي ويدرك ما لم يخطر على قلب بشر، هذا أعلنه له الله خاصة وكشف له بالروح كل مكنونات قلبه أو كما قال بولس نفسه:«حتى أعماق الله!»(اكو٢:٩-١٠)
ولكن، واحسرتاه! كنا نظن أنه قادر، بل أقدر من يستطيع أن يصف ويُسهب في الوصف عن هذا الذي رأى، ولكنه كف عن النطق! غير انه، بحذق الكاتب الماهر، حول المناظر إلى كلمات، وأخضع الرؤيا إلى تعاليم وعبارات. وظهور الرب له، بالبيان الروحي حوله إلى استعلان إنجيلي، وسلمنا الرؤيا كبشارة: «وأعرفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بشرت به، أنه ليس بحسب إنسان، لأني لم آقبله من عند إنسان، ولا علمته، بل بإعلان يسوع المسيح» (غل١:١١-١٢)
وهكذا، أيها الإخوة، كان الإنجيل الذي بشر به بولس الرسول آحد مناظر الرب وإعلاناته: «إنه لا يوافقني أن أفتخر، فإني آتي إلى مناظر الرب وعلاناته، أعرف إنساناً (هو بولس نفسه) في المسيح قبل أربع عشرة سنة، أفي الجسد، لست أعلم، أم خارج الجسد، لست أعلم، الله يعلم، اختطف هذا إلى السماء الثالثة... اختطف إلى

الفردوس، وسمع كلمات لا يُنطق بها، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها.» (كو٢ ١٢:١-٤)

فقول الرب: «الذي يحبني أحبه، وأُظهر له ذاتيى»، هذا حققه لبولس الرسل إنجيلاً وبشارة، وعلماً ودراية، وحكمة روحية لم يدانيه فيها أحد. فقد وقع مناظر الرب على الكتابة، فكانت مبادىء وتعاليم، جعلت حياة ربنا يسوع المسيح وكأنها صورة إلهية متألقة بالمجد والجلال. وحول صورة ذات الرب إلى إدراك، ومعرفة للاهوت المسيح، صار العقل يلبسها كإكليل مجد، لا يدانيه إكليل، في كل معارف بني الإنسان.

والقديس يوحنا الإنجيلي رأى «ذات» الرب في رؤياه عل هيئة ابن الإنسان، بمد أن عرفه: «وسمعت ورائي صوتاً عظيماً، كصوت بوق قائلاً: أنا هو الألف والياء ، الأول والأخر... فالتفت لأنظر الصوت الذي تكلم معي، ولما التفت، رأيت سبع منائر من ذهب، وفي وسط السبع المنائر شبة ابن إنسان، متسربلاً بثوب إلى الرجلين، ومتمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب، وأما رأسه وشعره فأبيضان كالصوف الأبيض كالثلج، وعيناه كلهيب نار، ورجلاه شبه النحاس النقي، كأنهما محميتان في أتون، وصوته كصوت مياه كثيرة، ومعه في يده اليمنى سبعة كواكب، وسيف ماض ذو حدين يخرج من فمه، ووجهه كالشمس وهي تُضيء في قوتها.» (رؤ١ :١٠-١٦)

هنا لا نريد أن ندخل في شرح سفر الرؤيا. ولكننا بصدد «ظهور» علني للرب يسوع، حسب وعده الذي وعد أمام تلاميذه. ها هو يعلن ذاته، مستحسناً أن يظهر كابن الإنسان، وسط الكنائس على مدى عصورها السبعة حتى ختام الدهور، وهو قائم بينها بلباس الخدمة الأبيض المسترسل إلى القدمين، وطوق الذهب حول الصدر كرئيس كهنة الخيرات العتيدة، وشعره أبيض كالثلج بصورة «قديم الأيام»، وهو الله، عند دانيال النبي، وعيناه كلهيب نار تمحص ضمائر القائمين على الخدمة، ورجلاه كنحاس محمى في أتون، تصلح أن يدوس بها معصرة الآلام وحده على هامة أعدائه، وصوته كهدير مياه كثيرة، لأنه صوت الروح المتدفق بالحياة، تتكدس فيها كل كلماته التي خرجت من شفتيه، لأن حرفاً واحداً منها لا يسقط. وفي يده اليمنى سبعة كواكب، الحاملة لمصائر المختارين من كل الناس والشعوب، وعليها أسماؤهم، ومن فمه يخرج سيف ماض ذو حدين، وهو سيف القضاء بكلمته، وحد الدينونة، بحسب إنجيله، العتيدة أن تأتي على كل المسكونة، ووجهه المشرق كالشمس وهي تنير في ملء قوتها. فهو هو نور العالم، ومعه لا يوجد شمش ولا قمر.

هكذا يُظهر المسيح ذاته، كما يتراءى له، وحسب حاجة الناظرين. فهو يظهر كمعلم غريب ومسافر لتلميذي عمواس، والرب العالي الممجد في أعلى السموات لشاول، ورئيس الكهنة على كنائس الدهور ليوحنا الرائي، وابن الإنسان الجالس عن يمين العظمة في السماوات لإستفانوس الشهيد، ومسيح الصليب في روما لبطرس الهارب من حكم الموت!.

٢٢- قَالَ لَهُ يَهُوذَا لَيْسَ الإسْخَرْيُوطِيَّ:
«يَا سَيِّدُ مَاذَا حَدَثَ حَتَّى إِنَّكَ مُزْمِعٌ أَنْ تُظْهِرَ ذَاتَكَ لَنَا وَلَيْسَ لِلْعَالَمِ؟».

«يهوذا» اسم مزعج. لقد تيقظ له القديس يوحنا بسرعة وأضاف ما ينفي عنه عار سميه؛ ربما كان هذا في بدء المناداة بإنجيل يوحنا على مستوى الوعظ من على منبر كنيسة أفسس. فحينما نطق بهذا الاسم رأى الوجوه قد اكفهرت، فاستطرد في الحال، وأصلح الحال: «ليس الإسخريوطي»!

كان آخر منظر ليسوع خط خطوطه العميقة والمفرحة في قلب التلاميذ ويكرهم هو يوم أحد الخوص، يوم دخول أورشليم الأخير، حين أعلن يسوع نفسه ملكاً بفم تلاميذه والأطفال، والمفهوم سرا لديهم أنه، ولا شك، هو المسيا

الآتي، والباقي إلى الأبد. ألم ينادي علانية باقتراب ملكوت الله؟ إذاً، فلماذا هذا التغيير المفاجىء في الخطة؟ لماذا يحبس ظهوره على خاصته دون العالم؟ ولكن الفارق بين ما قاله الرب، وما فهم يهوذا ليس الإسخريوطي هو: على أي مستوى يملك يسوع المسيا؟ وعلى أي مستوى يظهر ويعلن ذاته؟ فالرب يتكلم عن السموات، ويهوذا يفكر في الأرض. الرب يعلن عن ألوهيته، ويهوذا ينظر إلى الجسد.

٢٣- أَجَابَ يَسُوعُ: «إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كلاَمِي وَيُحِبُّهُ أَبِي وَإِلَيْهِ نَأْتِي وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً.

«إليه نأتي»: مفتاح هذه الآية وما قبلها يأتي في كلمة «نأتي» بالجمع، الآب وأنا، حيث كأنما يرد المسيح على يهوذا، ليس الإسخريوطي، قائلاً: إن أردت أن تعرف ماذا حدث، وماذا سيحدث، وأين أظهر، وكيف ولمن أظهر، فاعلم أني سأكون مع الآب؛ وهذه إشارة مباشرة إلى لاهوته ووحدانيته مع الآب، والكلام هنا يأتي موازياً لما قاله لفيلبس: «االذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩)، وحيثما سيكون الآب سأكون أنا!! فإن أردت أن تراني، وأن أردتني أُظهر لك ذاتي، فاعمل ما يحبه الآب، والآب يحب من أحبني، وليس أحد يستطيع أن يحبني إن لم يحفظ كلامي!... حيث «كلام» المسيح يعني هنا الإنجيل، بل الكتاب المقدس ككلمة موحدة الهدف، وليست الوصايا المقسمة والمتعددة الأهداف، وحيث الحفظ هو حفظ القلب، لا العقل وحده، وحفظ القلب لا يكون ولا يدوم، إلا بالممارسة عن حب وشغف!

«وعنده نصنع منزلاً»: «عمنده» باليونانية (   ) وهي تفيد إقامة المعية، وليس إقامة الحلول. ونحن نذكر أن علاقة الروح القدس بالتلاميذ والمؤمنين كانت: «ماكث معكم»، «يكون فيكم» (يو١٤: ١٧). أي التواجد أولاً على مستوى تواجد المسيح، قبل الصليب، معهم كمعلم وقائد وملهم ومخلص، ثم تواجد المسيح فيهم بعد القيامة والصعود والجلوس عن يمين الله «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف٣: ١٧)، وهذا لا يتم إلا بالروح القدس.

فهنا، في هذه الآية، يعود المسيح ويخبرهم، أنه في جو المحبة، ومن خلال التمسك بالوصايا، وباللهج في «الكلمة» التي أعطاها ككل، ليس فقط يأتي الروح القدس والمسيح ويكونان معهم للقيادة والتعليم والشهادة والدفاع عن الإيمان؛ بل ويأتي الآب أيضاً مع المسيح ليصنع منزلاً في قلوبهم، كأب يسكب عليهم من روح أبوته، فيستمتعون بالبنوة لله، وينادونه بالروح الصارخ فيهم بالحب: «أبا أبا الآب»: «لننال التبني، ثم بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً: يا أبا الآب.» (غل٤: ٥-٦).

المنازل السماوية المعدة لنا فوق، والمنازل التي يصنعها المسيح والآب معنا الآن: وهكذا يستعلن لنا المسيح «المنازل السماوية» فوق، التي أعدها المسيح ليأخذنا إليها، لنكون معه ومع الآب: ربما كل حين ومنذ الآن، ويقيناً عندما نخلع الإنسان الترابي ونستوطن عند الرب في النهاية. والقديس بولس عاين المنازل السماوية العليا، واطلع على أمجادها، ولم يكن واثقاً هل كان ذلك بالجسد أم خارج الجسد، ولكنه كان واثقاً أنه رأى وعاين، وشاهد وشهد، لعظمة تلك المنازل العليا. وأيضاً هو القديس بولس نفسه، الذي يؤكد لنا مراراً أن الرب كان ينزل عنده من حين إلى حين، ليتكلم معه في وسط الضيقات مرشداً ومشجعاً: «فقال الرب لبولس برؤيا في الليل: لا تخف، بل تكلم، ولا تسكت. لأني أنا معك، ولا يقع بك أحد ليؤذيك، لأن لي شعباً كثيراً في هذه المدينة.» (أع١٨: ٩-١٠)

والرب نفسه وصف تواجده مع بولس، كمن يوجد في إناء مختار يستريح فيه: «فقال له (لحنانيا) الرب: اذهب، لأن هذا إناء مختار ليحمل اسمي أمام أمم وملوك وبني إسرائيل.» (أع٩: ١٥).

وهكذا، أُعطينا هذه السكنى بالروح مع الآب والابن، فوق، في المنازل العليا. وتنازل الآب والابن ليسكنا عندنا هنا،

تحت، في منازل كخيمة مؤقتة يعدانها في قلوبنا، ليحملا معنا حر النهار، ويشتركا معنا في ضيق الحياة. وهذا تنازل ما بعده تنازل من جهتهما، وتكريم ما بعده تكريم من نحونا، إذ بذلك نفهم أننا لسنا يتامى، بل صرنا فعلاً «أهل بيت الله»» (أف٢:١٩)؛ وأذ قد صدق الوعد الذي ومد: «وها أنا معكم كل الأيام، إلو انقضاء الدهر.» (مت٢٨:٢٠)

ثم علينا أن ندرك ونتحقق، أن هذه السكنى لها ما يشهد عليها في أعماقنا، فهي حقيقة ناطقة ومحسوسة، هذا يؤكده القديس يوحنا: «ومن يحفظ وصاياه، يثبت فيه (في المسيح)، وهو(المسيح) فيه، وبهذا نعرف أنه يثبت فينا، من الروح الذي أعطانا» (ايو٤:١٣). وأيضاً: «بهذا نعرف أنا نثبت فيه وهو فينا، أنه قد أعطانا من روحه.» (ايو٤:١٣)

«فإنكم أنتم هيكل اله الحى، كما قال الله، إني سأسكن فيهم، وأسير بينهم، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لى شعباً.» (٢كو٦:١٦)

وهذه الآية مجموعة من عدة نبوات كالآتي:

خر ٢٩:٤٥ [وَأَسْكُنُ فِي وَسْطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً.]

لا ٢٦:١١-١٢ [وَأَجْعَلُ مَسْكَنِي فِي وَسَطِكُمْ وَلاَ تَرْذُلُكُمْ نَفْسِي، وَأَسِيرُ بَيْنَكُمْ وَأَكُونُ لَكُمْ إِلَهاً وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي شَعْباً.]

أر ٣١:٣٣ [بَلْ هَذَا هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَقْطَعُهُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ بَعْدَ تِلْكَ الأَيَّامِ يَقُولُ الرَّبُّ: أَجْعَلُ شَرِيعَتِي فِي دَاخِلِهِمْ وَأَكْتُبُهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْباً.]

أر ٣٢:٣٨ [وَيَكُونُونَ لِي شَعْباً وَأَنَا أَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً.]

حز ١١:٢٠ [لِيَسْلُكُوا فِي فَرَائِضِي وَيَحْفَظُوا أَحْكَامِي وَيَعْمَلُوا بِهَا، وَيَكُونُوا لِي شَعْباً فَأَنَا أَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً.]

حز ٣٦:٢٨ [وَتَسْكُنُونَ الأَرْضَ الَّتِي أَعْطَيْتُ آبَاءَكُمْ إِيَّاهَا، وَتَكُونُونَ لِي شَعْباً وَأَنَا أَكُونُ لَكُمْ إِلَهاً.]

حز ٣٧:٢٦-٢٧ [وَأَقْطَعُ مَعَهُمْ عَهْدَ سَلاَمٍ، فَيَكُونُ مَعَهُمْ عَهْداً مُؤَبَّداً، وَأُقِرُّهُمْ وَأُكَثِّرُهُمْ وَأَجْعَلُ مَقْدِسِي فِي وَسَطِهِمْ إِلَى الأَبَدِ. وَيَكُونُ مَسْكَنِي فَوْقَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً وَيَكُونُونَ لِي شَعْباً.]

وينبغي أن نلاحظ أن ما صنعه الله قديما من تواجده في وسط الشعب في خيمة الاجتماع وحلوله في الهيكل المصنوع بالآيادي، الذي كان صورة أو شبه السماويات وظلها، هذا حققه الله بالفعل بذاته بسكناه في الكنيسة كجسده السري: [أيها الإكليروس وكل الشعب، بطلبة وشكر، بهدوء وسكوت، ارفعوا أعينكم إلى ناحية المشرق، لتنظروا المذبح وجسد ودم عمانوئيل إلهنا موضوعين عليه. الملائكة ورؤساء الملائكة قيام، السارافيم ذوو الستة الأجنحة، والشاروبيم الممتلئون أعيناً، يسترون وجوههم من بهاء عظمة مجده، غير المنظور ولا المنطوق به، يسبحون بصوت واحد، صارخين قائلين: قدوس، قدوس، قدوس، رب الصاباؤوت، السماء والأرض مملوءتان من مجدك الأقدس.][1]

وبحلوله في قلب المؤمن، كهيكله الخاص تماماً، يكون كمن أعاد كتابة نواميسه وكلمته من على الألواح الحجرية إلى ألواح القلب اللحمية والى أذهانهم الروحية: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء ... أما أنا فأقول...» (راجع مت ٥)

واليك، أيها القارىء العزيز، أسوق كلمة توضيح، أن هذه الوعود تمت بكل صدق ودقة، وقد عاشها القديسون واختبروها، وشهدوا لها في الكنيسة الحية الخالدة. فعليك يقع اللوم، إذا لم تكن قد اختبرت شهادة الروح القدس في

[1] القداس الألهى بعد صلاة الصلح

قلبك، واستقعت بالوعي الروحي المسيحي الذي فيك إلى صوت الروح، وهو يهتف في أعماقك: يا أبا الآب، وتلذذت بتعطفات أبوة الآب الحانية، وعاشرت المسيح الوديع المتواضع بالحت المتبادل، وامسكت بيده، ومسك بيدك ليعبر بك مضايق العالم وأهواله، وذقت تعزيات الروح القدس، وانسكبت من عينيك دموع الفرح، وطفر قلبك فيك من قوة الروح المشتعلة بنار المسيح. فهذه حقائق أشد يقيناً من كل ما وعيناه في هذا العالم، والحب يعرف هذا.

٢٤- الَّذِي لاَ يُحِبُّنِي لاَ يَحْفَظُ كلاَمِي. وَالْكلاَمُ الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي.

المسيح، هنا، ينفي إمكانية مجيئه وسكناه في القلوب، عن الذين أحبوا الظلمة، فأبغضوا النور لزاماً، والذين أحبوا العالم الحافر فانجرفوا في تياره وعدموا حي الله تماماً، والذين حفظوا علوم الدنيا وغرقوا في فلسفات هذا العالم وأغانيه ولهوه ومسراته، فجهلوا وتنكروا لله وكلماته.

والمسيح، هنا، يشهد على نفسه، أن كل ما قاله وسمعوه منه هو من الآب وله؛ لذلك فالذين لم يقبلوه ولم يحفظوه، هؤلاء صيروا أنفسهم غرباء عن الآب وأعداء: «محبة العالم عداوة لله» (يع٤:٤). والمسيح، هنا، يرد من بعيد على كلام يهوذا، ليس الإسخريوطي، لماذا سيظهر لهم وليس للعالم. هنا المسيح يبرز السبب بدقة ووضوح، وهو انعدام المحبة وتجاهل الوصية. فمحبة العالم تفصل الإنسان عن الله، ومحبة الله تفصل الإنسان عن العالم. والذي يمارس أعمال الظلمة، يبغض النور وأعمال النور رغماً عنه، بل ويحقد على أبناء النور.

«وَالْكلاَمُ (الأصح «الكلمة» اللوغس بالمفرد) الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي»: كرر المسيح، في أوضاع كثيرة، أن الآب هو المصدر الذي يتكلم منه المسيح، ويستمد فكره، بقصد استعلان الآب في ذاته، واستعلان وحدته الذاتية مع الآب، ورفع الكلام الذي يتكلم به إلى مستوى الرسالة الإلهية، اللوغس الخارج من عند الآب، الكلمة، التي إذا قبلها الإنسان بالأذن الروحية، واحتفظ بها في قلبه، ومارس محتواها الروحي، فإنه يدرك سر الآب والابن، سر الحب الإلهي، ويحياه ويلتحم به.

٢٥- بِهذَا كَلَّمْتُكُمْ وَأَنَا عِنْدَكُمْ.

٢٦- وَأَمَّا الْمُعَزِّي (الباراكليت) الرُّوحُ الْقُدُسُ الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي
فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ.

المسيح هنا يُجمّل جميع ما قاله في هذا المساء. وقد شر المسيح، مرارا، أن التلاميذ لم يكونوا على مستوى الفهم الصحيح لهذا الكلام، الأمر الذي لم يمنع المسيح من الاستمرار في الحديث، مستنداً على أن الروح القدس حينما يحل عليهم، سيذكرهم بكل ما قاله ويشرحه لهم. وهذا ما تم بالفعل، إذ نحن هنا فى إنجيل يوحنا بصدد تسجيلات هي من إلهام الروح القدس بلا نزاع، والتي بلغت من العمق والدقة في المعاني، والترتيب في سردها، درجة أرهقت أذهان جميع العلماء بسبب الحكمة المذهلة التي كُتبت بها هذه الأحاديث. ويكفي أن يطلع القارىء على الأصحاح السابع عشر، ثم يسأل كيف سجل القديس يوحنا صلاة المسيح هذه بكل العمق والدقة اللذين فيها، والوقت كان مساء (وغالباً كان المكان جبل الزيتون)، والظلام يلف المكان كله، والعقول متحيرة مما يحدث أمامهم، والمخاطر التي كانوا يتوقعونها كل لحظة؟ نعم، كيف كتب القديس يوحنا، أو كيف وعى كلمات هذه الصلاة التي جاءت كلماتها، بل وحروفها، موزونة بكل دقة بميزان اللاهوت بما يفوق كل حكمة الإنسان وإدراكاته. نعم، كيف تم ذلك؟ وكيف احتفظ بها الفديس يوحنا أكثر من ستين سنة حتى دونها؟ أليس هذا هو الروح القدس الذي كان حاضراً في

ذهن القديس يوحنا، حسب وعد المسيح، ليرفع فكره كلمة كلمة إلى فكر المسيح نفسه: «أما نحن فلنا فكر المسيح» (كو٢:١٦). فكما كان المسيح يتكلم بفم الآب، هكذا كان القديس يوحنا يكتب بفكر المسيح، والروح القدس يوحي إليه بالإنجيل كلمة كلمة، كما يقول القديس بطرس: «مسوقين من الروح القدس.» (٢بط ١:٢١)

«البارقليط الروح القدس»: ويلاحظ هنا أن الاسم الكامل لشخص الروح سبق أن وضعه الإنجيل: «الباراكليت» وهو اسم علم مذكر، بعد أن كان «روح الآب» و «روح الابن» و «الروح القدس» كلها تأتي في حالة الحياد الجنسي أي لا مذكر ولا مؤنث. أما البارا كليت فهو، وإن كان يعبر عن صفة، إلا أنه يجيء كاسم شخص مذكر عاقل، تماماً على مستوى ألـ آب وألـ ابن.

«يرسله الآب باسمى»: هنا يتذكر القارىء أن المسيح جاء باسم الآب: «أنا قد أتيت باسم أبي» (يو٥:٤٣) = أنا هو؛ وها هو الروح القدس يأتي باسم المسيح، فكما كانت مهمة المسيح هي الإعلاء والتعريف بالآب وتمجيده، هكذا الروح القدس، فمهمته هي الإعلان عن المسيح، والتعريف بالابن وتمجيده: «ذاك يمجدنى، لأنه يأخذ مما لى ويخبركم» (يو١٦:١٤)، «....روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي» (يو١٥:٢٦). وكما كان المسيح لا يتكلم من نفسه بل من الآب، هكذا الروح القدس «لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به» (يو١٦:١٣). وكما أن المسيح اقتصرت رسالته التعليمية على التلاميذ، كذلك الروح القدسى، فإن رسالته تقتصر على الكنيسة.

المسيح فتح وعي الرسل ليتقبلوا سر الآب؛ والروح القدس أعطى الكنيسة الوعي المسيحي لتتقبل سر التجسد: أن «يسوع رب» (١كو١٢:٣)، وأن «الله ظهر في الجسد.» (١تى٣:١٦)

ويلزم أن ندرك المعنى الإنجيلي لكلمة «الاس» الذي طالما شرحناه، والذي يفيد الشخص الإلهي وطبيعته وقوته وعمله وقوله ومشيئته. لذلك جاء قول المسيح: «يرسله الآب "باسمي"»، أي يرسله حاملاً مهمة الكشف والإعلان والتسليم لشخص المسيح، من حيث أقنومه الإلهي، وطبيعته، وقوته ء وعمله ء وقوله، ومشيئته.

وهذا المعنى يوضحه، على المستوى العملي، قول القديس بولس: «أن تتأيدوا بالقوة بروحه، في الإنسان الباطن، ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة» (أف٣:١٦-١٨)

«يرسله الآب»: «يرسله» هنا فعل يأتي في صيغة المستقبل الدائم؛ فالروح القدس هو في حالة إرسال دائم من الآب، للاعلان وللتكميل والشهادة فيما يخص الابن المتجسد، وإرساليته، أي الخلاص؛ كما أن «يرسله الآب» تجيء في زمن المستقبل الدائم بمعنى امتداد إرسالية الابن، فكأن المسيح لا يزال يكمل إرسالية الآب له، من واقع إرسالية الروح القدس للكنيسة كلها!

«يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم»: عمل الروح القدس كان يؤدي هاتين الوظيفتين: يعلم ويذكر. أي يعلم بحسب قدرته الفائقة في الاستعلان لكل الأمور التي تخص المسيح في شخصه، والتي تختص بالخلاص، وأسرار الحياة مع الله؛ وأيضاً يذكر التلاميذ بأقوال المسيح وكلماته، كما خرجت من فم المسيح، بمزيد من الاستنارة وقوة البصيرة، وحدة الذكاء والذاكرة. وهذه كلها واضحة في إنجيل يوحنا ورسائله، و بقية الأناجيل والرسائل .

وقوله: «يعلمكم كل شيء»، يوضح قول المسيح لتلاميذه: «إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو١٦:١٢-١٣)

٢٧- «سَلاَماً أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ.

«وأقطع معهم عهد سلام، فيكون معهم عهداً مؤبداً» (حز٣٧:٢٦)

«ويُدعى اسمه عجيباً، مشيراً، إلهاً، قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام.»(إش٩:٦)

«سلام»: أصل الكلمة العبرية هو «شالوم ، وهي في العهد القديم ذات معان واستخدامات كثيرة، وأكثرها يختص بالحياة في الدنيا. ويقابلها باليونانية: «إيريني». وفي الاستخدامات المدنية ينحصر معناها في المعنى المقابل للعداوة؛ أما في الاستخدامات في أسفار العهد الجديد، فتنطلق انطلاقة رأسية بارعة لتشرح العلاقة الصحيحة مع الله، التي هي أصل ومنبع كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر، وما يتحكم في سلوكه وصفاته وأهدافه وكل حياته، ليس الحاضرة فقط بل والمستقبلة أيضاً!!

ولا تكفي مئات الصفحات لنجمع فيها أصل وتفرعات هذه الكلمة الخصبة جداً، فهي نظير «المحبة». فالله محبة، والمسيح هو إله «السلام» (٢كو١٣:١١، فى٤:٩)، وهو الذي صالحنا مع الله، بعد عداوة، فأسس فينا «السلام» «بدم صليبه» (كو١:٢٠). أخذاً وعطاءً، فنحن الآن «لنا سلام مع الله» (رو٥:١)، «والمسيح هو سلامنا» (أف٢:١٤)، والسلام الذي يعطيه الله يسكن عقولنا، وهو «يفوق العقل» (في٤:٧)، أي يرفعه فوق ذاته، ويدخله في الهدوء والسكينة الإلهية، وكذلك يسكن قلوبنا «ويملك عليها» (كو٣:١٥)، فيوقف اضطرابها وجزعها ويدخلها في مجال الفرح الإلهي الذي يسود على الضيق والألم ويملك فوقه: «فرحين في الرجاء، صابرين في الضيق» (رو١٢:١٢)، «وسلام الله الذي يفوق كل عقل، يحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع.» (في٤:٧)

وهكذا، فإن مجال سلام الله في الإنسان هو في القلب والعقل كليهما، القلب منبع والعقل مصب.

«سلاماً أترك لكم. سلامي اعطيكم»: السلام الذي يتركه المسيح، والسلام الذي يعطيه، هنا، هو في موضعه اللائق تماماً، لأن الرب يتكلم ويركز على الفراق. وفي الآية (٢٥) قال: «بهذا كلمتكم وأنا عندكم»، فهو الآن على أهبة الذهاب، وكأنه يقرؤهم السلام قبل ذهابه.

ولكن السلام عند المسيح يعني شيئاً مختلفاً عن السلام عند العالم: «ليس كما يعطي العالم أعطيكم». والمسيح هنا يذكر السلام في وضعين: الوضع الأول عهد، إنه يقطع عهداً مؤبداً يتركه لهم، بوضعه العام بدون تعريف: «سلاماً أترك لكم». والوضع الثاني، سلامه الخاص: «سلامي أعطيكم». أما السلام الأول بغير تعريف، فهو ليس التحية التي اعتاد أن يقولها لهم: «شالوم»، ولكنه في مفهومه الوداعي الأخير: «أتركه»، بمعنى «التركة» كميراث، بعد عشرة ستدخل تسجيلها النهائي لبداية عهد جديد. أما سلامه الخاص في وضعه الثاني، فهو «عطية» أو هبة، من نوع عطية الحياة الأبدية، وصفة دائمة لها: «وأنا أعطيها حياة أبدية، ولن تهلك إلى الأبد.» (يو١٠:٢٨).

فالمسيح هنا يهب تلاميذه هبة السلام الإلهي الذي يفوق العقل (في٤:٧)، ويملك على القلب (كو٣:١٥)، ويهدي الأقدام إلى طريق السلام (لو١:٧٩)، وثمر بره يُزرع في السلام (يع٣:١٨)، ويحل على أبناء السلام (لو١٠:٦)، وأخيراً، سرف يتجلى بحلول الروح القدس ليدوم معهم ولهم إلى الأبد.

ويلاحظ أن المسيح كرر عطيته للفرح مع السلام، وأيضاً فرحه الخاص: «وأتكلم بهذا في العالم، ليكون لهم فرحي كاملاً فيهم» (يو١٧:١٣). لأن الفرح والسلام صنوان عزيزان لا يفترقان. والسلام، إذا اقترن مع الفرح، فهو في

مفهوم الإنجيل سبق تذوق لطبيعة الحياة الأبدية، مشتهى أمل الإنسان في الوجود: «لأنكم بفرح تخرجون، وبسلام تضضرون. الجبال والأكام تشيد أمامكم ترنماً، وكل شجر الحقل تصفق بالأيادي، عوضاً عن الشوك ينبت سروٌ، وعوضاً عن القريس يطلع آس، ويكون للرب اسماً علامة أبدية لا تنقطع» (إش٥٥:١٢-١٣)، «لأن ليس ملكوت الله أكلاً وشرباً، بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس» (رو١٤:١٧)، «وأما ثمر الروح فهو محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان.» (غل٥:٢٢)

ويلاحظ أن كل من الفرح والسلام الذي يهبه المسيح، سواء للتلاميذ أو للذين يؤمنون به، هو عطية روحية سماوية فائقة، يعطيها المسيح للذين يحبونه، الأن في هذا الزمان الحاضر ليحول به طبيعة الموت داخلنا (بسبب الخطية) إل حياة (بسبب بره الشخصي). الأمر الذي لخصه في قوله: « بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥:٢٤)

كما يلاحظ بشدة قوله: «ولا ينزع أحد فرحكم منكم» (يو١٦:٢٢)، بمعنى أنه يوازن كل أتعاب وضيقات الزمان الحاضر ويغلبها، على مستوى: ليس كما يعطيكم العالم، أعطيكم أنا سلامي!!

والير في هذا السلام القوي الدائم والفرح الكامل المقيم، هو انهما سلام المسيح الشخصي وفرح المسيح الشخصى. الذي يمارس بهما الإعلان عن حضوره وعمله في القلب: «كلمتكم بهذا، لكي يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم» (يو١٥:١١)، بمعنى أن فرحي يتحول فيكم إلى فرحكم، فيصبح فرحا ثابتاً في المسيح وبه!! وهذه هي النتيجة الحتمية لقوله: «اثبتوا في محبتي» (يو١٥:٩)، «اثبتوا في وأنا فيكم» (يو١٥:٤). وهذا هو ميدان الجهاد المطروح أمام المسيحي.

«ليس كما يعطي العالم اعطيم أنا، لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب»: نعم، فعطية المسيح إلهية، روحية، ثابتة باقية إلى الأبد؛ أما عطية العالم فهي تبدو ناضرة، مخضرة، زاهية، وجميلة إلى زمن، كالزرع اليانع والزهرة الجميلة، ولكن سرعان ما يذبل الزرع ويجف الزهر فيسقط. فسلام العالم مع الناس ومع الجسد إل يوم أو إلى ساعة، وحزنه وغمه وقلقه إلى أيام وسنين. ما يعطى باليمين يأخذه بالشمال، وما يوهب في الشباب يُنزع في الشيخوخة. وأن يدوم في العالم سلام فهذا ضرب من المحال، فأعظم سلام يعطيه العالم للانسان هو سلام الموت؛ أما سلام المسيح ففوق أنه يبقى ويدوم، فهو يسود فوق اضطرابات انحياة، ويرفع القلب والفكر فوق زعازع الدنيا: «ثقوا، أنا قد غلبت العالم.» (يو١٦:٣٣)

«لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب»: موقف التلاميذ بفراق المسيح سيكون غاية في الحرج، غنمات مستضعفة وسط ذئاب شرهة للقتل وسفك الدماء، ولكن هوذا المسيح يستودعهم وديعة السلام، ضامناً لهم وللكنيسة كلها بهم، ومن بعدهم، هذا السلام كعطية فائقة. وقد أثبتت كل الأزمنة السالفة، بكل محنها البالغة حد الهول، صدق الرب.

و«السلام» في الأصل العبري يأتي من أصل «سالم»، أي غير منقوص أومفقود شيء مهما اعتدي عليه. وبهذا تغنى إشعياء النبي: «يجعل الخلاص أسوارا ومترسة. افتحوا الأبواب لتدخل الأمة البارة الحافظة الأمانة. ذو الرأي الممكن تحفظه سالماً سالماً، لأنه عليك متوكل» (إش٢٦:١-٣)

المسيح لما أعطى سلامه الخاص، حق له أن ينبههم عن الاضطراب، لأن سلامه يعتبر قوة غالبة ومنتصرة فوة كل أسباب الاضطراب. ثم ينبغي أن نفهم أن المسيح هنا يعطي «أمراً»: «لا تضطرب قلوبكم، ولا ترهب»، هذا أمر واضح وصريح، فهو وصية، ووصية المسيح تحمل وعداً إلهياً وكأنها دعاء، ودعاء الله له قوة التنفيذ في داخله. فكل أمر للسميح يحمل في طاعته قوة التنفيذ. وقد شرحنا الاضطراب سابقاً (انظر شرح الأية١٤:١)، أنه يكون

بسبب الخوف من المجهول، كنتيجة لانقطاع الربط التي تربط القلب بقاعدته الثابتة الأمينة، وهو الل. كذلك الرهبة، وهي الجزع، وتكشف عن فقدان الإيمان، أيضاً كنتيجة للارتباط بالجسد والعالم، والرهبة والخوف هما على قمة الخطايا التي تحرم الإنسان من الحياة الأبدية (رؤ ٢١:٨).

وقد صارت عطية السلام، كقوة، توهب من فم الرسل والتلاميذ ضمن أهم مؤهلاتهم: «وأي بيت دخلتموه، فقولوا أولاً سلام لهذا البيت. فإن كان هناك ابن السلام، يحل سلامكم عليه، وإلا فيرجع إليكم» (لو ١٠:٥-٦). وقول الرب إن السلام يرجع إليهم في حالة عدم استحقاق آخذه، يفيد إفادة قاطعة أن السلام قوة روحية فعالة من الله، تخرج مع النطق لتسكن القلب والفكر، وتملأ النفس. فإذا لم تجد لها مكاناً في الأخرين، تعود مرة أخرى إلى ناطقها، لتسكن فيه وتزيده سلاماً، لأن كلمة الله لا تعود فارغة: «هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي، لا ترجع إلي فارغة، بل تعمل ما سررت به، وتنجح فيما أرسلتها له.» (إش٥٥:١١)

والرسل والتلاميذ وكل خدام الله الأمناء الأقوياء بالروح، أُعطي لهم أن يمنحوا سلام الله الذي يتبعهم أينما صاروا وأينما حلوا، كقوة روحية مرافقة .

وقد أخذت الكنيسة هذا الدعاء الوداعي للمسيح «سلامي أعطيكم»، ووضعته في فم الكاهن ليعطيه للشعب، أهل بيت الله، عند بدء كل صلاة: السلام للجميع، وختاماً لكل صلاة : «اذهبوا بسلام، سلام الرب مع جميعكم». وفي كلا الدعائين يكون رد الشعب: «ومع روحك أيضاً». وهذا الدعاء يستمد قوته من عطاء المسيح، فسلام المسيح هو قوة الصلح الذي أقامه المسيح بين الإنسان والله بدم صليبه (كو ١:٢٠)، وكأنما يفتتح الكاهن الصلاة باستحقاق دم المسيح، ليملك سلام المسيح على عقول المؤمنين، ليشتركوا في العبادة بأذهان صاحية، ويختمها بعطاء السلام، كوديعة في قلوبهم، يعيشرن بها في مواجهة أتعاب الحياة.

٢٨- سَمِعْتُمْ أَنِّي قُلْتُ لَكُمْ أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ آتِي إِلَيْكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الآبِ لأَنَّ أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي.

كانت هذه الأية موضع اجتهاد ونقاش ومساجلة وحوار؛ بل ومقاومة، وقد اتخذها الهراطقة أساساً لإيمانهم الخاطىء وعقائدهم المنحرفة، إذ اعتبروها تفيد أن الابن أقل من الآب من جهة طبيعته، أي أنه ليس مساوياً للآب من جهة اللاهوت.

إن محور الجدل والمحاولات الكثيرة التي أرهقت اللاهوت المسيحي في هذه الآية هي قول المسيح: «لأن أبي أعظم مني». وفي هذه المعلومة، إذا انحرف الفكر عن البساطة الإعجازية التي فيها، يسقط في هوة تقسيم اللاهوت إلى أعظم وأقل، وبالتال وضع الابن في وضع متدني عن الآب، ورفع الآب إلى درجة المسئول عن الابن.

وسنعرض للقارىء الشرح ونقدمه على جزئين:

الجزء الأول: «لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون».

الجزء الثاني: «لأن أبي أعظم مني».

وسوف نقدم الجزء الثانى على الجزء الأول لأن هذا يستلزمه الشرح، بسبب تقديم المسيح كلمة «لأن» في الجزء الثاني من الأية، وهذا يجعل الجزء الأول «كنتم تفرحون» تابعاً للجزء الثاني من الأية: «لأن أبي أعظم مني».

فترتيب الشرح يكون هكذا:«لأن أبي أعظم مني، لو علمتم ذلك، لكنتم تفرحون لأني أنا ذاهب ثم أتي إليكم». ولكن قوة الآية تكمن في جزئها الثاني الذي قدمناه هنا.

وبادىء الأمر نقول، إن شرح الآية يستلزم دائماً التمسك بموضعها في الكلام. فلا يصح إطلاقاً أن نخلع الآية من مجرى الحديث ومن موضعها في الكلام، لكي نشرحها بمفردها، ونقسيها على الأصول اللاهوتية، بطرق اجتهادية تأملية.

فإذا أخذنا الآية التي نحن بصددها، ومحورها هو: «لأن أبي أعظم مني»، نجد أن الظروف التي أوحت إلى قولها هي كالأ تي:

أولاً: المسيح يتكلم في هذا الأصحاح وما قبله وما بعده عن الفراق الذي سيتم بينه وبين التلاميذ، بذهابه إلى الآب، وهو يجتهد ليوضح لهم أهميته.

ثانياً: روح التعزية التي حاول المسيح أن يحيط بها تلاميذه، حتى يخفف عنهم الحزن والضيق الذي ألم بهم.

ثالثا: محاولة التهوين من شأن الموت الذي سيجوزه، باعتباره فترة قصيرة، يقوم بعدها ويتراءى لهم ويكون معهم وهم معه.

رابعاً: إن الموت الذي سيجوزه هو الوسيلة الهامة جداً التي بها سينطلق إلى الآب، مفتتحاً طريق الخلود، حاملاً معه المختارين.

خامساَ: ان في ذهابه إلى الآب هو مرتبط ارتباطاً أساسياً بإرسال الروح القدس، الذي سيقوم بتعزيتهم وتعليمهم وتذكيرهم بكل ما قاله لهم وعمله لهم، وأنه سيكون معهم وفيهم عوضاً عنه، بل ويكشف لحم حضوره الدائم.

سادساً: تأكيده لهم أن ذهابه إلى الآب، ولو أنه سيفقدهم رؤيته، إلا أنه «خير لهم أن ينطلق» (راجع يو١٦: ٧)[1] من ان يبقى معهم. فهنا، ذهاب المسيح إلى الآب هو حالة قيمها المسيح، أها أعظم وأكثر خيراً بالنسبة لهم هم.

واضح، إذن، أن قول المسيح: «لأن أبي أعظم مني» هو مقولة خاصة بالظروف المحيطة بها وهي ذهاب المسيح إلى الآب، الذي هو حالة أفضل للتلاميذ وأكثر خيراً بالنسبة لهم. وهذا يجب أن يجعلهم يفرحون. لأن النتائج المتحصلة من ذهابه إلى الآب قد أجملها لهم بقوله أنه إذا انطلق، سيطلب من الآب أن يرسل لهم باسمه معزياً أخر، هو الروح القدس. والروح القدس سيتولى شرح وتذكير التلاميذ بكل ما قاله المسيح، بالإضافة إلى أنه سيستعلن لحم كلق الحق، ويعرفهم بكل شيء، ويكشف لهم حقيقة المسيح وكل ما يختص به، لأنه سيكون واسطة حلول المسيح فيهم، بالإضافة إلى أنه سيمجد المسيح فيهم وبهم، أي يجعلهم شهودا وآلات لتمجيد المسيح.

هذا كله سيكون ثمرة ذهابه إلى الآب، فكيف لا يفرحون، إن كانوا قد أحبوا المسيح حقاً؟

الجزء الثاني: «لأن أبي أعظم مني».

حينما يقول الابن إن أبي أعظم مني، فهو يتعرض لقانون الأبوة والبنوة، في وضعه الإلهي الأمثل، الذي منه خرجت كل أبوة وبنوة في العالم، فالآب أعظ من الابن ليس لأنه أعظم جنساً، فاللاهوت في هذا واحد لا ينقسم ولا يتعالى أو يتعاظم في نفسه على نفسه، فالجوهر، أي الطبيعة، في الله واحد وبسيط غير متجزىء.

ولكن لما يقال أن جنس بني آدم هو بنوة وابوة، أو بالاختصار أن جنس الإنسان كجنس هو وحدة أو «واحد» يقوم على الذات الإنسانية التي فيها الابوة البنوة، فالإنسان ذكراً كان أو أنثى هو إنسان، أي جنس واحد، وأصلاً خلق الله الجنس الإنساني ليكون واحداً وأتت المرأة كجزء منه وضلعاً من ضلوعه، لذلك يقال أن الرجل والمرأة حينما يتزاوجان يصيران مرة أخرى جسداً واحداً.

---

[1] لَكِنِّي أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ.

فلو ارتفعنا إلى جنس الألوهة، وهو واحد حتماً، فهو حتما يقوم على الذات الواحدة التي تمثله أو تكونه، وهذا الجنس يقوم بالتال على الأبوة الواحدة الوحيدة والبنوة الواحدة الوحيدة فى الذات الكاملة الواحدة. وكون الآب أعظم من الابن في ذات الله الواحدة لا يفرق ولا يثني في الذات، ولكن هذا هو قانون الا الأبوة والبنوة في الله، الذي انبثقت منه كل ابوة وبنوة في العالم بقانونها الأدبي، أن الآب يكون دائماً أعظم من الابن أدبيا، وليس طبيعة، ولا جنساً، ولا موهبة، ولا قوة، لأن الأعظم في الأبوة الإنسانية لا يفيد أي صفة كانت سوى صفة الابوة، أو اسم الآب في الذاتية البشرية وحسب.

فكون الآب أعظم من الابن، فهذا هو قانون قيام الذات الذي يضمن وحدتها وكمالها، فالله الآب يعطي الله الابن ليس لأنه أغنى ولا أقوى، ولكن منطق الذات المتكاملة يحتم بالحب عطاءً وأخذاً لتصير الذات مكتفية بذاتها وفي ذاتها. والحب يمثل العطاء الأعظم والأقوى في الذات الإلهية: «فالآب يحب الابن» لأن هذا هو قانون الأبوة الحتمي، والابن يحب الآب، إنما كرد فعل مساو تماماً، فهذا أيضاً قانون وفعل البنوة الحتمي، وهذا الحب المتبادل، يعطي للذات اكتفاءها. لذلك حينما يقول المسيح باعتباره الابن. «أبي أعظم مني» فهو يشير إلى علاقة، فالحب في الله هو طبيعة العلاقة القائمة في الذات المتكاملة. لذلك، فالذات الإلهية هي «الاكتفاءه» المطلق الوحيد (الكائن بذاته).

لذلك يقول المسيح في الأصحاح الخامس: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يو٥:٢٦)، فهو لم يعطه حياة بل «أعطاه أن تكون له حياة في ذاته». هذا أيضاً هو قانون الأبوة والبنوة العام. وفي الإنسان يكون نفس الوضع، لو أخذناه ليس على مستوى الفرد الواحد كأب إنما لو أخذناه على مستوى الذات الإنسانية الواحدة كجنس، فإن الآبوة في الذات الإنسانية أعطت بكيانها أن يكون للبنوة حياة في ذاتها، وهذه الحقيقة لا تظهر على مستوى الفرد الواحد في الجنس البشري إلا على مستوق النسل، حيث يعطي الآب حياة لابنه بالنسل، فتظهر الحياة، وهي تنتقل من الآب إلى الابن، وهذا حتمه حكم الموت، لأنه بدون أن ينسل الإنسان تتوقف حياته على الأرض وتتلاشى الذات الإنسانية من العالم المادي. فلكي تظل الذات الإنسانية كائنة، وقائمة على الأرض، تحتم عليها أن تسلم شعلة الروح التي فيها، بالنسل، إلى خلف لها، لتبقى وتدوم على الأرض.

أما الله فهو الكائن بذاته، والحي بجوهره الذي لا يعرف الموت ولا التغيير، وهو قائم دائم بذاته ليس فيه ظل دوران (الحركة ويتبعها الزمن)، فهو فوقة الزمان والأكوان، وكل كيان يستمد منه كيانه، وهو هو، لا يتغير، ولا يتبدل، وسنوه لا تفنى!!

لذلك، فالذات الإلهية منزهة عن النسل لذاتها. لأن الابوة فيها دائمة بحياتها الازلية فيها، والبنوة دائمة بحياتها الأزلية فيها أيضا. فلا الآبوة تحتاج إلى من يقيمها، فهي قائمة دائمة، ولا البنوة تحتاج إلى من يكملها، فهي كاملة مع الآب في ذات واحدة.

والأبوة في الله غير منحصرة في ذاتها، بل تعطي عطاءَ أزلياً وأبدياً، فكل ما لها للابن. والابن غير منحصر في هذا الميراث الأبوي، بل يعمل به لحساب الآب، فكل غنى ميراثه في الآب يرده للآب، عملاً، سواء كان الحب أو المجد أو الكرامة، حتى أن الابن، كما عرفناه في المسيح، سُمى بل تعين لنا رباً، لمجد الآب!! «ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب.» (في٢:١١)

والمجد الذي أعطاه الآب للابن: «المجد الذي كان لى عندك قبل كون العالم (يو١٧:٥)، رده الابن للآب أعمالاً: «أنا مجدتك على الأرض» (يو١٧:٤)؛ والحب الذي أعطاه الآب للابن: «الحب الذي أحببتني به» (يو١٧:٢٦)، رده المسيح للآب بصورة منظورة لنا، في ذبيحة محبته على الصليب، صلحاً للعالم كله مع الآب: «أي إن الله كان في المسيح مُصالحا العالم لنفسه» (٢كو٥:١٩)، وتطهيراً لكل خطاة الأرض: «الله، بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديماً، بأنواع وطرق كثيرة؛ كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه، الذي جعله وارثاً لكل شيء، الذي، به أيضاً عمل العالمين؛ الذي، وهو بهاء مجده، ورسم جوهره، وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته، بعد ما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا، جلس في يمين العظمة في الأعالى.» (عب١:١-٣)

وبالاختصار، وبشمول يفوق العقل، فإن كل ميراث الابن في الآب، أو بمعنى آخر كل غنى الروح والمعرفة والمجد كميراث للابن، منحه الابن للذين آمنوا بالآب وبه. فورث الإنسان مع الابن في الله، الأمر المذهل للعقل، فقد صرنا بالمسيح وفيه «ورثة الله، وارثون مع المسيح» (رو٨:١٧). وأهم ما في هذا الميراث هو «البنوة»» الدائمة، فهذا هو الملكوت الممنوح للانسان، ميراث خيرات الله الروحية كبنين. وهكذا، بقدر ما ورث الابن الآب، رده للآب مشمولا بدخول الإنسان هذا الميراث عينه، ليستوعب هذا الغنى الأبدي اللانهائي.

ولكن ميراث الابن للآب لا يشمل عطايا خارج الكيان الجوهري في الذات الإلهية، لأن كل ما للآب هو للابن، وكل ما هو للابن هو للآب: «وكل ما هو لى، فهو لك. وما هو لك، فهو لى« (يو١٧:١٠). لهذا يقول المسيح: «أنا والآب واحد» (يو١٠:٣٠). ولكن يتضمن العطاء والأخذ في الله بين الآب والابن تواجد الآب في الابن والابن في الآب. فكل واحد يعطي ذاته للآخر، بصورة فائقة، بحسب الطبيعة الفائقة لله. ولكن حتى هذا التواجد المطلق بين الآب والابن، استثمره الابن في الإنسان، لحساب غنى اللاهوت. فكما تواجد «الابن» في الجسد البشري فتجسد وصار «ابناً للانسان»، وهو حامل البنوة الإلهية وكل غناها وميراثها؛ هكذا أعطى الإنسان، بصورة ما، كل من يؤمن ويقبل الابن المتجسد، أي المسيح، أن يتواجد الابن فيه، على قدر ما يطيق الإنان ويحتمل: «اثبتوا فيّ، وأنا فيكم» (يو١٥:٤). وعاد يخاطب الآب بهذا القول العجيب: «ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط (التلاميذ)، بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم، ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فّي وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا.» (يو١٧:٢٠-٢١)

والمسيح، لكي يمهد هذا التواجد العالى القدر ويجعله مناسباً وممكنا يقول: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداء كما أننا نحن واحد.»(يو١٧:٢٣)

ثم يعود المسيح ليطبق التوازي في الوجود، مع حفظ الفارق بين ما للاهوت وما للانسان، هكذا: «أنا فيهم، وأنت فيّ، ليكونوا مكملين إلى واحد.» (يو١٧:٢٣)

وهنا، وفي كل مرة يشدد المسيح أن هذا الوجود الجديد للانسان في عمق الصلة الأبوية والبنوية في الله هو آية، دائماً تكون لحساب الآب ليراها العالم: «ليعلم العالم أنك أرسلتني» وأحببتهم كما أحببتنى.» (يو١٧:٢٣)

وهكذا تبدو رسالة الابن المتجسد في العالم كلها لحساب الآب.

وهكذا أيها القارىء العزيزه ينكشف سر الإيمان المسيحي الأعظم ، الذي كان مخفيا مدى كل الدهور السالفة، الذي أعلنه الله بإرساله الابن إلى العالم متجسداً، ليستعلن لنا «سر الآب والابن» الذي به صار تجديد الخليقة البشرية ورفعها إلى مستوى البنوة لله، ومنحها كل مميزاتها، لحياة أبدية مجيدة، لسعادة الإنسان وفرحه، عوض كآبة

عبودية الدهور السالفة والحزن والتنهد والبكاء تحت سخرة الشيطان والجسد، الذي كتب به الإنسان تاريخه السالف

نستخلص من هذا، أن الآب أعظم من الابن لأن هذا هو قانون الأبوة والبنوة؛ كذلك فالآب يعطي والابن يأخذ، وهذا أيضاً قانون الأبوة والبنوة، وهذا يرتد على الذات ليعطيها الاكتفاء والكمال والوحدانية الخصبة.

وبالنهاية، نكون قد بلغنا العمق والغنى في قول المسيح: «أبي أعظم مني»، والذي ينتهي إلى الاكتفاء والتكامل في الذات الإلهية، على أساس هذه الصفة التي تميز الابوة تمييزاً أدبياً مطلقاً، وهذا التمييز يجعل الذات الإلهية محبة ومحبوبة، عاملة غير ساكنة، متكلمة غير صامتة، بل متكلمة سامعة، مريدة فاعلة، ناظرة ومنظورة، راسلة ومرسلة، عالمة ومتعلمة، مجيدة وممجدة.

وباختصار، هي ذات كاملة كمالاً مطلقاً، مكتفية في كيانها اكتفاءً مطلقاً. فالذات الإلهية، كأب وابن، واحدة، ووحدتها غير واقعة تحت العجز والعوز. فوحدانية الله خصبة، ومن خصوصيتها يغتني العالم. هذا، وعلى أساس ذلك، نسمع من فم المسيح أسرار هذا التكامل بين الآب والابن:

+ «لأن الآب يحب الابن، ويريه جيع ما هو يعمله.» (يو٥:٢٠)

+ «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني، وأتمم عمله.» (يو٤:٣٤)

+ «لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً، إلا ما ينظر الآب...» (يو٥:١٩)

+ «أنا لا اقدر أن أفعل من نفسي شيئاً، كما أسمع أدين، وديونتي عادلة.» (يو٥:٣٠)

+ «لأني لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الآب الذي أرسلني.» (يو٧:١٦)

+ «تعليمي ليس لى، بل للذي أرسلي.» (يو٧:١٦)

+ «أنا هو، ولست أفعل شيئاً من نفسي، بل أتكلم بهذا كما علمني أبي.» (يو٨:٢٨)

+ «الذي أرسلني هو معي، ولم يتركي الآب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه.» (يو٨:٢٩)

+ «أنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله» (يو٨:٤٠)

+ «لأني لم آت من نفسي، بل ذاك آرسلني.» (يو٨:٤٢)

+ «لكي أكرم أبي، وأنتم تهينوني.» (يو٨:٤٩)

+ «لأني لم أتكلم من نفسي، لكن الآب الذي أرسلني، هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم.» (يو١٢:٤٩)

+ «الكلام الذي أكلمكم به، لست أتكلم به من نفسي، لكن الآب الحال في هو يعمل الأعمال.» (يو١٤:١٠)

هذه هي الابوة في الله، وهذه هي البنوة في الله، ليس بينهما أي تنافر أو شقاق أو تعال. يستحيل لأي إنسان يتمعن فى هذه الآيات أن يعثر على أي انقسام أو ثنائية، فالوحدة المطنقة بين الآب والابن والتكامل المطلق في الذات، يضمنها الحب المطلق من الآب نحو الابن، والطاعة المطلقة من الابن للآب. فالآب يشاء، والابن يكمل المشيئة بنفس القوة، والآب يتكلم والابن يعلم بنفس الكلام وبنفس الحكمة، والآب يعمل والابن يعمل بنفس القوة والاقتدار.

فإذا قال الابن أن «الآب أعظم مني»، فلأنه «آب» فقط والابن يكرم الآب لأنه «ابن»: «لكني أكرم أبي، وأنتم تهينونني» (يو٨:٤٩). ولكن إذا خرجنا خارج هذه الدائرة الخاصة جداً والنورانية الفائقة بين الآب والابن، أي ندخل إلى ما يخصنا نحن من هذه الابوة والبنوة الإلهية، نسمع من المسيح التساوي المطلق فى الكرامة والمجد.

«لكي يكرم الجميع الابن، كما يكرمون الآب. من لا يكرم الابن، لا يكرم الآب الذي ارسله (يو٥:٢٣)= كرامة واحدة

للآب والابن = إله واحد.

«أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بى» (يو١٤:١) = الإيمان بالآب يُحتم الإيماذ بالابن، لأنهما ذات واحدة.

« أبي يعمل حتى الآن، وأنا أعمل» (يو٥:١٧) = العمل واحد بين الآب والابن

«أنا والآب واحد.» (١٠:٣٠) = واحد فى الجوهر والذات = إله واحد.

«وكل ما هو لى فهو لك، وما هو لك فهو لى.» (يو١٧:١٠) = كل صفات ومميزات الآب هي في الابن وكل صفات وميراث الابن هي في الآب = وحدة الصفات والمميزات .

«الذي رآني، فتد رأى الآب» (يو١٤:٩) = الله الآب غير منظور. الله الابن هو منظور الآب. = الآب والابن منظور واحد.

« أنت أيها الآب في، وأنا فيك.» (يو١٧:٢١) = الكيان الواحد.

«وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي ارسلته = معرفة الآب والابن فيها الحياة الأبدية.

هذه الآيات، تشير، بتأكيد، أن عمل الآب غير الظاهر يعمله الابن في الظاهر، كذلك المشيئة وكل شيء، فالآب والابن لهما عمل واحد ومشيئة واحدة.

وفي الختام نقول إن المسيح إذا قال: «أبي أعظم مني»، فذلك لأنه هكذا ينبغي أن يرى الابن أباه، فالآب يتحتم أن يكون عظيماً في عين الابن، لتكون الذات الإلهية كآب وابن عظيمة في تكاملها ووحدتها. أما من جهة العمل، فالتساوي في المشيئة والقدرة والحكمة هو مطلق بين الآب والابن، وأما من جهة الكرامة والمجد والعبادة والسجود فهو واحد بلا تفريق.

الجزء الأول: «لو كنتم تحبونني، لكنتم تفرحون»: يلاحظ القارىء أن هناك صلة قوية وأساسية بين قوله: «لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون» وبين قوله: «لأني قلت أمضي إلى الآب لأن أبي أعظم مني».

«لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون»: هذه المعادلة قائمة بذاتها، كحقيقة أساسية في الإيمان المسيحي، لأن كل من أحب المسيح، آحبه المسيح! وحب المسيح معه الفرح الدائم، الفرح الذي لا يُنطق به ومجيد: «الذي، وإن لم تروه، تحبونه. ذلك، وإن كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون به، فتبتهجون بفرح لا يُنطق به ومجيد.» (ابط١:٨)

هذا ليس تعليماً بل اختباراً، وهو اختبار صادق مفتوح لكل من يريد. ولكن المسيح يكمل هذا الاختبار، بأن ينسبه بسبب آخر هام، وهو: «لأني قلت أمضي إلى الآب» أى أن هذا بحد ذاته ينبغي أن يكون سبباً أيضاً لكي تفرحوا، إن كنتم تحبوننى!

فلماذا يكول ذهاب المسيح إلى الآب سبباً لكى نفرح، إن كنا صادقين فى محبة المسيح.

هنا يمكن أن نفهم أن فرحنا يكون، إما للمسيح الذق نحبه لأنه سيكتسب مكاسب أخرى لحسابه، أو يكون فرحنا لأنفسنا بسبب المسيح الذق نحبه لأنه سيكتسب مكاسب أخرق لحسابنا.

أولاً: مكاسب المسيح حينما يمضي إلى الآب لأن الآب أعظم منه:

واضح أن مضي المسيح إلى الآب، معناه أنه يختم رسالته الجسدية على الأرض ليبدأ رسالته عند الآب، أي ينتقل من الرسالة الأقل إلى الرسالة الأعظم، وهذا يشمل عدة مكاسب لا تعد ولا تحصى، نذكر منها القليل الذي يسعفنا به درايتنا بسر الإنجيل.

+ بادىء ذي بدء، سيقدم إلى الآب ذبيحته الحية، ليقف أمام الآب بجسده، كخروف قائم على عرش الله كأنه مذبوح (رؤ٥:٦). وهذه إضافة عجيبة ورهيبة لمركز الابن عند الآب، إذ سيأخذ الابن وصفاً جديدا دائماً لدى الآب بالنسبة لنا.

+ «بعد هذا نظرت، وإذا باب مفتوح في السماء، والصوت الاول الذي سمعته كبوق يتكلم معي قائلاً: اصعد إلى هنا فأريك ما لا بد أن يصير بعد هذا. وللوقت صرت في الروح، وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس ... يخر الأربعة والعشرون شيخاً (قسيساً) قدام الجالس على العرش، ويسجدون للحي إلى أبد الأبدين، ويطرحون أكاليلهم أمام العرش، قائلين: أنت مستحق، أيها الرب، أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة، لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهي بإرادتك كائنة وخُلقت.

ورأيت على يمين الجالس على العرش سفراً مكتوباً من داخل ومن وراء، مختوماً بسبعة ختوم (سفر الدينونة). ورأيت ملاكاً قويا ينادي بصوت عظيم: من هو مستحق أن يفتح السفر ويفك ختومه؟ ... فقال لي واحد من الشيوخ: لا تبك، هوذا قد غلب الأسد الذي من سبط يهوذا أصل داود، ليفتح السفر ويفك ختومه السبعة. ورأيت فإذا وسط العرش ... خروف قائم كأنه مذبوح ... فأتى وأخذ السفر.... ولما أخذ السفر، خرت الأربعة الحيوانات والأربعة والعشرون شيخاً أمام الخروف، ولهم كل واحد قيثارات وجامات من ذهب مملوءة بخوراً، هي صلوات القديسين، وهم يترنمون ترنيمة جديدة قائلين: مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختومه، لأنك ذُبحت واشتريتنا لله بدمك، من كل قبيلة ولسان وشعب وامة، وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة، فسنملك على الأرض، ونظرت وسمعت صوت ملائكة كثيرين حول العرش ... وكان عددهم ربوات ربوات وألوف ألوف قائلين بصوت عظيم: مستحق هو الخروف المذبوح، أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة.

وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وما على البحر، كل ما فيها، سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف: البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين ... فقال لى: هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة، وقد غسلوا ثيابهم وبيضوا ثيابهم في دم الخروف، من أجل ذلك هم أمام عرش الله، ويخدمونه نهاراً وليلاً في هيكله، والجالس على العرش يحل فوقهم. لن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر، لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم، ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية، ويمسح الله كل دمعة من عيونهم» (رؤ ٤و٥و٧)

فكيف لا يفرح، ليس التلاميذ فقط، بل كل من آمنوا بذبيحة المسيح الحية! وهو جالس وسط عرش الله أبيه.

+ ونفرح له لأنه سيدخل ملكوته: أما كان يبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده» (لو ٢٤:٢٦)

هذا الملكوت الذي أعطاه إياه أبوه العظيم في أبوته: «شاكرين الآب الذي أهلنا لشركة ميراث القديسين في النور، الذي أنقذنا من سلطان الظلمة، ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته» (كو١:١٢-١٣)، فكيف لا يفرحون، إن كانوا فعلاً قد أحبوا المسيح، لأنه ذاهب إلى أبيه؟

+ «لتعلموا ما هو رجاء دعوته، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين، وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويات، فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يُسمى، ليس في هذا الدهر فقط، بل في المستقبل أيضاً؛ وأخضع كل شي تحت قدميه، وإياه جعل رأساً فوة كل شيء، للكنيسة التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل.»

(أف١:١٨-٢٣)

فكيف لا يفرحون بالمسيح وللمسيح، لأنه ذاهب إلى أبيه، إذ كانوا يحبونه حقاً؟

+ «فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً: دُفع إلى كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.» (مت٢٨:١٨-١٩)

فكيف لا يفرحون لأنه ذاهب إل الآب إن كانوا يحبونه حقاً؟

+ «إذ صعد إلى العلاء سبى سبياً (خلص المسبيين تحت الخطية وأخذهم كأسرى الرجاء)، وأعطى الناس عطايا. وأما أنه صعد، فما هو إلا إنه نزل أيضاً أولاً إلى أقسام الأرض السفلى. الذي نزل هو الذي صعد أيضاً فوق جميع السموات لكى يملأ الكل» (أف٤:٨-١٠)

فكيف لا يفرحون للمسيح لأنه ذاهب إلى أبيه، إن كانوا يحبونه حقاً؟

ثانياً: مكاسبنا التي تدعونا أن نفرح، لأن المسيح ذاهب إلى أبيه إن كنا نحبه.

أسباب لا حصر لها تدعونا أن نفرح ونتهلل لذهاب المسيح إلى أبيه.

+ «بدم نفسه، دخل مرة واحدة إلى الأقداس، فوجد فداءً أبدياً» (عب٩:١٢)

+ «لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد، أشباه الحقيقية، بل إلى السماء عينها، ليظهر الأن أمام وجه الله لأجلنا. (عب٩:٢٤)

+ «وأما هذا، فمن أجل أنه يبقى إل الأبد، له كهنوت لا يزول، فمن ثم يقد رأن يخلص أيضاً إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله، إذ هو حي في كل حين، ليشفع فيهم.» (عب٥:٢٤-٢٥)

+ «وإن أخطأ أحد، فلنا شفيع عند الآب، يسوع المسيح البار.» (١يو٢:١)

+ «أنا أمضى لاعد لكم مكاناً، وإن مضيت، وأعددت لكم مكاناً، آتي أيضاً وآخذكم إلىّ، حتى حيث أكون أنا، تكونون أنتم أيضاً» (يو١٤:٢-٣)

+ «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي، فالأعمال التي أنا أعملها، يعملها هو أيضاً، ويعمل أعظم منها، لأني ماضى إل أبي. ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله، ليتمجد الآب بالابن» (يو١٤:١٢-١٣)

+ «وأنا أطلب من الآب، فيعطيكم معزياً آخر، ليمكث معكم إلى الأبد ... وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم، ويكون فيكم، لا أترككم يتامى، إني آتي إليكم» (يو١٤:١٦-١٨)

+ «واما المعزي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم.» (يو١٤:٢٦)

+ «الحق أقول لكم، إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده، تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً، تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر.» (مت١٩:٢٨)

+ «وأنا أجعل لكم، كما جعل لى أبي، ملكوتاً لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي ...» (لو١٢:٢٩)

+ «لأنه إن كنا، ونحن أعداء، قد صولحنا مع الله بموت ابنه، فالأولى كثيراً، ونحن مصالحون، نخلص بحياته. وليس ذلك فقط، بل نفتخر أيضآ بالله بربنا يسوع المسيح، الذي نلنا به الآن المصالحة.» (رو٥:١٠-١١)

+ «الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله. فإن كنا أولاداً، فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله، ووارثون مع المسيح.» (رو٨:١٦-١٧)

وهكذا، في هذه الآية المزدحمة بالمعاني اللاهوتية (يو ١٤:٢٨)، التي أُعثر فيها ذوو البصائر الكليلة، وطوحت بهم في عدم الإيمان بوحدة الابوة والبنوة، وبمساواة الابن للآب في المجد والكرامة، رأينا كيف أسس بها هذا الإنجيل مبدأ تعظيم الابوة، ليس على حساب تعالي الآب عن الابن في أي القدرات أو الاختلاف بينهما في أي الصفات، بل على أساس تكريم الابن للآب المردود من الآب للابن بنفس المقدار والقوة. فإن كان الآب أعظم من الابن، فالابن هو الوارث والمالك لهذه العظمة وحده، وهي مردودة له، لأنه الواحد الوحيد الذي له أن يقول لله «أبي» بنوع الملكية والتخصص. فالله هو أبوه خاصة، والابن وحده هو الذي يملك الله كآب.

فإن قال الابن: «أبي أعظم مني»، فعظمة أبيه هي له، وهي له خاصة، وهو يملكها، بل وقد أتى هو لكي يستعلنها في نفسه، وذهب إلى الآب ليغدق منها علينا.

وبالنهاية، يلزم أن نفهم وننظر إلى تسامي عظمة الأبوة الإلهية على لسان المسيح «الابن» في هذه الآية، أنها في نطاق الوحدة والتساوي المطلق بين الآب والابن في جوهر اللاهوت الواحد، بكل خصائصه وشمائله.

أما بالنسبة للآية، ككل، فإن الذى يحب المسيح حقاً ويؤمن أنه ذهب إلى الآب فعلاً، فهو الذى ينال وعد مجيئه، ووعد إرساله الروح القدس من عند الآب.

٢٩ – وَقُلْتُ لَكُمُ الآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّى مَتَى كَانَ تُؤْمِنُونَ.

«الآن»: «الآن» هنا هي ساعة المحنة التي ابتدأت بالفعل. «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يو١٢:٣١). لقد أحاط المسيح ذهن التلاميذ بكل الجوانب الظلمة لهذه التجربة القادمة، فكان «صادقاً وأميناً» (رؤ٣:١٤)، ولكنه أعطاهم كل الدلائل الواثقة، التي يمكن أن يعتمدوا عليها ليعبروا هذه المحنة، دون أن يتزعزعوا. «لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي» (يو١٤:١). ولكن المسيح اعتمد كثيراً على ما بعد المحنة، حينما يكتشف التلاميذ، ونحن معهم، صدق وأمانة المسيح في كل ما قال، قبل أن يحدث، بخصوص المحنة العظمى التي سيجوزها: الموت!! بكل أهواله، ليجدوا في القيامة تحقيق الوعد، ليصير إيمانهم بالمسيح وثيقاً، وإلى الأبد، وعلى مستوى الإيمان بالله: «أقول لكم الآن، قبل أن يكون، حتى متى كان، تؤمنون أني أنا هو» (يو١٣:١٩)

«قلت لكم»: ما قاله المسيح في كل ما يختص بالآلام المزمعة والمحنة التي سيواجهها التلاميذ لفترة قصيرة للغاية، هي بحساب الزمن لم تزد عن ثلاثة أيام، ولكنها بحساب استعلان أعمال الله فهي مخاض الدهور السالفة كلها، منذ واجه الإنسان خروجه من لدن الله.

لقد تحمل التلاميذ أصعب فترة انتقال واجهتها البشرية، ولا يمكن وصف صعوبتها وحقيقتها، إلا بما وصفه المسيح: «أنتم ستحزنون، ولكن حزنكم يتحول إلى فرح. المرأة وهى تلد تحزن، لأن ساعتها قد جاءت. ولكن متى ولدت الطفل، لا تعود تذكر الشدة لسبب الفرح ، لأن قد وُلد إنسان في العالم. فأنتم كذلك، عندكم الأن حزن. ولكني سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم.» (يو١٦:٢٠–٢٢).

ولكن اسمع الوجه الأخر لهذا الحزن وهذه المحنة، إنها «التجديد»: «أنتم الذين تبعتموني في التجديد» (مت١٩:٢٨). حيث هذه الكلمة اليونانية من أصل (   )، حيث يصير معنى الكلمة: يولد ثانية، أو يولد من جديد، أو تفيد معنى «العودة من السبي». وعلى العموم تفيد في العهد الجديد: «القيامة»، أو التجديد بالمعمودية.

هذا الوصف، بكل عمقه، ينطبق على كل إنسان مسيحي، حينما يعاني نفس المحنة بكل أبعادها، لينتقل من الظلمة

إلى النور، فيجوز المخاض بعينه، ليّستعلن له المسيح المُقام، ليشرق عليه نور القيامة، فيقوم، ليعيش جدة الحياة كإنسان جديد، خليقة جديدة تحيا في فرح المسيح الدائم وسلامه ونصرته فوق العال . حيث لا يعود ينظر الماضي بحزنه وضيقه وكآبته، إلا كفترة تحضير قصيرة للغاية، مهما تكون قد أكلت من طول العمر وعرضه، يكفي أن يصير ما بقي من العمر في دائرة الوعد الإلهي بقيادة الروح القدس (يو ١٤: ٢٦)

٣٠- لاَ أَتَكَلَّمُ أَيْضاً مَعَكُمْ كَثِيراً لأَنَّ رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِيَّ شَيْءٌ.

«كَثِيراً»: لا يمكن أن يستقيم المعنى هنا بدون كلمة «كَثِيراً» لأن المسيح استمر بالفعل يتكلم ويعلم، وكن لقدر محدود. أما لماذا قال المسيح: «لا أتكلم أيضاً معكم...». فهو بسبب إحساسه الفائق باقتراب الشيطان، «رئيس هذا العالم»، ممثلاً في الأشخاص الذين استخدمهم في مهمته المفضوحة، وبالتال انتهاء زمن الكرازة والتحضير لعملية الخلاص العظمى. أو بمعى أوضح، أن المسيح أكمل رسالة استعلان الآب بالكلمة، سواء بالتعليم، أو الآيات، وقد حان تكميل رسالة الخلاص بذبيحة نفسه المحددة منذ الدهور. فالشيطان لا يتجاسر أن «يأتي»، دون إذن صادر من الآب ومن الابن أيضاً: «فبعد اللقمة دخله الشيطان، فقال له يسوع: ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة» (يو ١٣: ٢٧)

والمسيح قدير في الإحساس بخطوات العدو: «قوموا لنذهب، هوذا الذي يسلمني قد اقترب» (مر ١٤: ٤٢)، ويهوذا ليس في الحسبان، فهو مجرد آلة، ولكن إحساس الرب مُركز تجاه رئيس العالم نفسه.

«رئيس هذا العالم»: هذا الاصطلاح لم يرد في أسفار العهد الجديد إلا في هذه الآية، وفي الآية الأخرى (١٢: ٣١، ١٦: ١١)، وذلك في إنجيل القديس يوحنا. ولكن الاصطلاح المقابل الذي ورد في إنجيل القديس لوقا يُفهم من الحديث الذي جرى له مع المسيح على جبل التجربة: «ثم أصعده إبليس إلى جبل عال، وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان، وقال له إبليس: لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن، لأنه إلي قد دُفع، وأنا أعطيه لمن أريد.» (لو ٤: ٥-٦)

أما القديس بولس الرسول فقد أعطاه لقب «إله الزمان»: «ولكن إن كان إنجيلنا مكتوماً، فإنما هو مكتوم في الهالكين، الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين، لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح، الذي هو صورة الله» (٢كو ٤: ٣-٤). حيث كلمة الدهر= (   )، تفيد هذا الزمان أو هذا العالم. كما سماه بولس الرسول: «رئيس سلطان الهواء، الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية.» (أف ٢: ٢)

كما سمى أعوان إبليس: «ولاة العالم من «رؤساء وسلاطين« شريرة، وأجناد الشر الروحية«:

+ «فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم، على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات.» (أف ٦: ١٢)

ولكن إزاء كل الأسماء الضخمة التي خُلعت على الشيطان، وكل جنوده، وبالرغم من سلطانه الذي يدعيه على ممالك العالم ومجدها، فقد أثبت المسيح تفاهة منتهاه، فمظهره مرعب حقاً: «عندما يأتي العدو كنهر»، ولكن نهايته تافهة جداً، «فنفخه الرب تدفعه» (إش ٥٩: ١٩ – قارن مع ٢تس ٢: ٨). ولقد صال يهوذا الإسخريوطي وجال، كأخطر آلة استخدمها الشيطان فعلاً (تلميذ من التلاميذ الاثني عشر)، ولكنه انتهى إلى خنق نفسه.

كذلك، فإن لنا أن نتأمل تلك الثورة الكبرى التي قادها الشيطان ضد المسيح، أثناء خدمته على الأرض، والتي انتهت بأعظم انتصار شكلي ضد المسيح، بأن استطاع استصدارحكم صلب ضده من أعظم محكمتين للعدل في العالم:

محكمة السنهدريم، ومحكمة روما؛ وكيف انتهت إلى فضيحة المحكمتين مع فضيحة الشيطان وأعوانه: «إذ جرد الرياسات والسلاطين، أشهرهم جهاراً، ظافراً بهم فيه (في الصليب).» (كو٢:١٥)
ولينتبه القارىء، ويتشجع، فإنه إزاء قوة الشيطان على القتل: «ذاك كان قتالاً للناس من البدء (يو٨:٤٤)، تقف قوة «الحياة الأبدية» في المسيح
وإزاء الكذب، قوة الشيطان الاولى للتزييف والقتل، تقف قوة «الحق» التى تُحيى في المسيح.
فالقتل جسدي، والجسد زائل بطبيعته؛ أما الحياة الأبدية فهي الخلود بالروح مع الله. الكذب هو حيلة الشيطان للغش، التي يحيك بها المكائد و يزور بها الحقائق إلى حين، أما الحق «الآليثيا» فهو القائم الدائم، الذي له الغلبة النهائية بالحياة الأبدية.
فشكرا لله، الذي أعطانا في المسيح يسوع الحق والحياة، لنغلب بهما العالم ورئيسه.
«وليس له فّي شيء»: بمعنى أن ليس في شيء يقع تحت سلطانه. كل إنسان، للشيطان فيه شيء، لهذا يطالب بدعوى الموت ثمناً للخطية، ولكن المسيح يقدم نفسه للموت بحرية إرادته، ثمناً لخطايا غيره. المسيح لم يكن من هذا العالم: «لأنهم ليسوا من العالم، كما أني أنا لست من العالم» (يو١٧:١٤)، «أنتم من هذا العالم، أما أنا فلست من هذا العالم» (يو٨:٢٣)، قال هذا لليهود.
فالمسيح ليس من هذا العالم، لذلك فرئيس هذا العالم ليس له فيه شيء بالضرورة. هذا يعني، بصورة غير مباشرة، أنه بلا خطية واحدة! «من منكم يبكتني على خطية.» (يو٨:٤٦)
هذا، من جهة لاهوت الخلاص، غاية في الأهمية، لأنه يكون بالتالى قد مات من أجل غيره، وهذه هي الكفارة العظمى:
+ «عل قدر ذلك، قد صار يسوع ضامناً لعهد أفضل. وأولئك (كهنة العهد القديم) قد صاروا كهنة كثيرين، من أجل منعهم بالموت عن البقاء. وأما هذا، فمن أجل أنه يبقى إلى الأبد، له كهنوت لا يزول. فمن ثم يقدر أن يخلص أيضاً إلى التمام، الذين يتقدمون به إلى الله، إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم، لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا، قدوس، بلا شرولا دنس، قد انفصل عن الخطاة، وصار أعلى من السموات. الذي ليس له اضطرار كل يوم؛ مثل رؤساء الكهنة، أن يقدم ذبائح، أولاً عن خطايا نفسه، ثم عن خطايا الشعب، لأنه فعل هذا مرة واحدة إذ قدم نفسه!» (عب٧:٢٢-٢٧)

٣١- وَلَكِنْ لِيَفْهَمَ الْعَالَمُ أَنِّي أُحِبُّ الآبَ وَكَمَا أَوْصَانِي الآبُ هَكَذَا أَفْعَلُ. قُومُوا نَنْطَلِقْ مِنْ هَهُنَا»

الكلام هنا يحتاج إلى توضيح، لأن الآيتين مرتبطتان معاً، والمعنى هو: ولو أني لست من هذا العالم، وليس لي خطية واحدة مدين بها لرئيس هذا العالم، إلا أني سمحت للشيطان أن يأتي إليّ، وسمحت لنفسي أن أموت، كمديون عن خطايا كل العالم، ولكن ليس هذا تطوعاً مني، ولكن ليفهم العالم أني أحب الآب، والآب أوصاني أن أموت، وأفدي العالم بحياتي، لذلك أنا أفعل هذا مدفوعاً بحب أبي وطاعتي لوصيته.
ثم أن المسيح يعلم أن هذه التضحية العظمى، بأن يقف أمام رئيس العالم، مديونا بالخطية، مسفوكاً دمه، وهو ديان العدل لكل المسكونة أحياءً وأمواتاً؛ نعم كان يعلم أن ثمن كل هذا هو مغفرة خطايا كل العالم، وانتزع سلطان الإدانة من الشيطان إلى الآبد، لذلك قال: «ثقوا، أنا قد غلبت العالم.» (يو١٦:٣٣)
«قوموا ننطلق من ههنا»: هيا نواجه الصليب، أليس عمله أن يعلن حب الآب وينفذ وصيته؟

لقد تلكأوا في الجلوس، بل وناموا في جثسيماني، مثلما نعمل نحن الآن؛ ولكن إن آجلاً أو عاجلاً سنتبعه: «ولكنك ستتبعني أخيراً.» (يو١٣:٣٦)

إنه القائد، يهتف بجنوده أن لا يهابوا، وأن يتقدموا، هوذا رئيس هذا العالم آت، لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب، قوموا ننطلق للمقابلة! «والسيد الرب يعينني، لذلك لا أخجل. لذلك جعلت وجهي كالصوان، وعرفت أني لا أخزى. قريب هو الذي يبررني. من يخاصمني؟ لنتواقف! من هو صاحب دعوى معي، ليتقدم إليّ: هوذا السيد الرب يعينني، من هو الذي يحكم عليّ...» (إش٥٠:٧-٩)، «السيد الرب فتح لى أذناً، وأنا لم أعاند، إلى الوراء لم أرتد!!!» (إش٥٠:٥)

تم فى ٢٠١٧/٣/٢٦

الأصحاح الخامس عشر

«أَنَا الْكَرْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَأَبِي الْكَرَّامُ. كُلُّ غُصْنٍ فِيَّ لاَ يَأْتِي بِثَمَرٍ يَنْزِعُهُ وَكُلُّ مَا يَأْتِي بِثَمَرٍ يُنَقِّيهِ لِيَأْتِيَ بِثَمَرٍ أَكْثَرَ. أَنْتُمُ الآنَ أَنْقِيَاءُ لِسَبَبِ الْكلاَمِ الَّذِي كَلَّمْتُكُمْ بِهِ. اُثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ. كَمَا أَنَّ الْغُصْنَ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ بِثَمَرٍ مِنْ ذَاتِهِ إِنْ لَمْ يَثْبُتْ فِي الْكَرْمَةِ كَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيْضاً إِنْ لَمْ تَثْبُتُوا فِيَّ. أَنَا الْكَرْمَةُ وَأَنْتُمُ الأَغْصَانُ. الَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ هَذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ لأَنَّكُمْ بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئاً. إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يَثْبُتُ فِيَّ يُطْرَحُ خَارِجاً كَالْغُصْنِ فَيَجِفُّ وَيَجْمَعُونَهُ وَيَطْرَحُونَهُ فِي النَّارِ فَيَحْتَرِقُ. إِنْ ثَبَتُّمْ فِيَّ وَثَبَتَ كلاَمِي فِيكُمْ تَطْلُبُونَ مَا تُرِيدُونَ فَيَكُونُ لَكُمْ. بِهَذَا يَتَمَجَّدُ أَبِي أَنْ تَأْتُوا بِثَمَرٍ كَثِيرٍ فَتَكُونُونَ تلاَمِيذِي. كَمَا أَحَبَّنِي الآبُ كَذَلِكَ أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا. اُثْبُتُوا فِي مَحَبَّتِي. إِنْ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ فِي مَحَبَّتِي كَمَا أَنِّي أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي وَأَثْبُتُ فِي مَحَبَّتِهِ. كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا لِكَيْ يَثْبُتَ فَرَحِي فِيكُمْ وَيُكْمَلَ فَرَحُكُمْ. «هَذِهِ هِيَ وَصِيَّتِي أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ. لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ. أَنْتُمْ أَحِبَّائِي إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أُوصِيكُمْ بِهِ. لاَ أَعُودُ أُسَمِّيكُمْ عَبِيداً لأَنَّ الْعَبْدَ لاَ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ سَيِّدُهُ لَكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ لأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي. لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ لِكَيْ يُعْطِيَكُمُ الآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِاسْمِي. بِهَذَا أُوصِيكُمْ حَتَّى تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً. «إِنْ كَانَ الْعَالَمُ يُبْغِضُكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ أَبْغَضَنِي قَبْلَكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ لَكَانَ الْعَالَمُ يُحِبُّ خَاصَّتَهُ. وَلَكِنْ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ مِنَ الْعَالَمِ لِذَلِكَ يُبْغِضُكُمُ الْعَالَمُ. اُذْكُرُوا الْكلاَمَ الَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ: لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ. إِنْ كَانُوا قَدِ اضْطَهَدُونِي فَسَيَضْطَهِدُونَكُمْ وَإِنْ كَانُوا قَدْ حَفِظُوا كلاَمِي فَسَيَحْفَظُونَ كلاَمَكُمْ. لَكِنَّهُمْ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ بِكُمْ هَذَا كُلَّهُ مِنْ أَجْلِ اسْمِي لأَنَّهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ الَّذِي أَرْسَلَنِي. لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ جِئْتُ وَكَلَّمْتُهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيَّةٌ وَأَمَّا الآنَ فَلَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي خَطِيَّتِهِمْ. الَّذِي يُبْغِضُنِي يُبْغِضُ أَبِي أَيْضاً. لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ عَمِلْتُ بَيْنَهُمْ أَعْمَالاً لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ غَيْرِي لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيَّةٌ وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ رَأَوْا وَأَبْغَضُونِي أَنَا وَأَبِي. لَكِنْ لِكَيْ تَتِمَّ الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ فِي نَامُوسِهِمْ: إِنَّهُمْ أَبْغَضُونِي بِلاَ سَبَبٍ. «وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزِّي الَّذِي سَأُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الآبِ رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ فَهُوَ يَشْهَدُ لِي. وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً لأَنَّكُمْ مَعِي مِنَ الاِبْتِدَاءِ»

حديث الوداع الثانى: الوحدة العضوية مع المسيح

عودة على ذي بدء: لقد بدأ حديث المسيح مع تلاميذه على العشاء، بعد غسل أرجلهم، يشرح معنى هذا الإجراء كإعداد للارسالية العظمى، حيث كان التركيز على اتضاعهم بعضهم لبعض كمرسليين أو كرسل وتلاميذ. فكما غسل هو أرجلهم، وهو الذي أرسلهم، ينبغي أن يصنعوا كذلك بعضهم لبعض، ضماناً لنجاحهم وألفتهم وسلامهم لحساب الرسالة. ثم بدأ المسيح حديث الوادع الأول، وكان عن فراقه لهم، وذهابه إلى الآب، وكان أكثر الأحاديث عاطفية، وكان كله للتشجيع والاطمئنان أنه سيعود إليهم.

والمسيح يبدأ هنا حديثاً فردياً دون أي تحاور مع أحد ، حيث يعتبر هذا الحديث المفرد (مونولوج) أطول حديث في إنجيل يوحنا، وهو يستغرق الأصحاح الخامس عشر كله وحتى الآية ١٥ من الأصحاح السادس عشر. ويأتي الفكر فيه مترابطاً، أولاً عن اتحاده بتلاميذه والمؤمنين، ثم ثمن هذا الاتحاد من اضطهاد العالم. فالمسيح يؤكد، بصورة قاطعة وعملية، أنه متحد بتلاميذه اتحاد الأصل في الكرمة بالأغصان. وهذه الحقيقة ممتدة إلى جيع المؤمنين به. فالحديث عن فراق مؤقت، يوازيه حضور ثابت في سر الشركة الأبدية. وكما عانى المسيح من اليهود، عداوة

وبغضة واضطهاد، فلا بد أن يشترك معه في هذا النصيب كل من اتحد به.

الكرمة: المسيح يصور شكل الكنيسة، وعلاقته الدائمة بالمؤمنين بعد انطلاقه.

الكنيسة: سر دوامها، وسر قوتها هو من الداخل، وهو «المحبة»، كأغصان مثمرة، وكأعضاء املة معاً وفي المسيح وفي الآب.

العالم: يضطهد الكنيسة بدون سبب، على مستوى المسيح، ولأجل اسمه! لأن رسالة المسيح يمارسها تلاميذه.

الباراكليت: روح الحق، يشهد للمسيح في التلاميذ، والتلاميذ يشهدون في العالم.

١ - أَنَا الْكَرْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَأَبِي الْكَرَّامُ.

وكأنما يعلن المسيح هنا أنه أكمل حضوره التاريخي في العالم، بل وما هو فوق التاريخ أيضاً، فقد زُرعت الكرمة، إسرائيل الجديدة، جذرها في السماء وأغصانها على أرض الإنسان، وأكمل كيانها المنظور وغير المنظور، فقد أخرجت أغصانها الغضة، وجرى فيها عصيرها ودبت الحياة الإلهية في أعماقها، وهي على وشك أن تعطي ثمارها!! ونحن هنا لا زلنا نعيش جو العشاء الأخير، إفخارستيا الذبيحة، و«عصير الكرمة» وكأسها الخلاصي هو عنصرها الأول السرائري، ثم نحن لا زلنا في حديث الوداع، ومشاعر الفراق الأليم. المسيح يتكلم عن الذهاب إلى الآب والمجيء، كل هذا ضمنه استعلان نفسه «بالكرمة» تصويراً يحمل الحقائق في شكل الرموز، هي ليست رموزاً ولكن حقائق في سر، لا يخفى عن الذهن المفتوح، لأن الكرمة وكأسها الممزوج على العشاء الأخير تضمن، بالفعل، الذهاب إل الآب وكذلك المجيء.

+ «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز، وشربتم هذه الكأس، تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء.» (١كو١١:٢٦)

فإن كان المسيح، في الأصحاح الرابع عشر، قد تكلم شارحاً الذهاب والمجيء، ففي الأصحاح الخامس عشر وضح كيف نعيش هذا الذهاب وهذا المجيء، وكيف نشهد له!

وحينما يقول المسيح: «أنا هو» فهو يتكلم عن حقائق سماوية ثابتة (الأليثيا) تدخل لأول مرة إيماننا وحياتنا. فالكرمة عندما أخذت هذه السمة الإلهية: «أنا هو»، أصبحت حقيقة ممتدة عبر الدهور وفي السماء: «وأقول لكم، إني من الأن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا، إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي» (مت٢٦:٢٩). ولكن هذا لا يُفهم على أن المسيح يشرب من كأس الخلاص في السماء ، بل المعنى أنه، وهو في السماء الأن، وهو في ملكوت أبيه، لا يزال يشاركنا كأس الخلاص في إفخارستية الأحد، التي يمارس حضورها، ويتولى بنفسه تقديم سر الدم والجسد فيها لكل مختاريه: «لأني أقول لكم: إني لا أشرب من نتاج الكرمة، حتى يأتي ملكوت الله» (لو٢٢:١٨). فانقطاع المسيح من مشاركة تلاميذه في وليمة الإفخارستيا لم يتعوق كثيراً، فلم يكن أكثر من أيام حينما عاد إليهم بعد القيامة وشاركهم إفخارستيته من جديد. وهذا هو إيمان الكنيسة الارثوذكسية، أن المسيح يقوم بإجراء سر العماد وسر الإفخارستيا بنفسه، أما الكاهن فهو خادم السر وحسب.

«أنا هو الكرمة»: المسيح يتكلم على مستوى الذات الإلهية: «أنا الكائن بذاتي». المجال هنا لا يحتمل المقارنة أو التشبيه. فما يجيء بعد ذلك من صفات، لا يحتمل القول بأنه مثل من الأمثال . ف «الكرمة» هنا هي في موضع ذات المسيح وصفته الإلهية، «أنا هو» إنما في الواقى البشري، الكنيسة!! هذا هو المقابل السرائري للقول: «والكلمة صار جسداً». فالامتداد بالمعنى هو: والكلمة صار جسداً ليصبح كنيسة! فالكنيسة هي غاية التجسد: «وإياه جعل رأساً فوق كل شيء، للكنيسة» (أف١:٢٢)، «وهو رأس الجسد، الكنيسة.» (كو١:١٨)

فملء المسيح الإلهي انفتح علينا لما تجسد، أي لما اتحد بجسدنا:

+ «د فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤن فيه.» (كو٢:٩-١٠)

وبالمقابل، لما اتحدنا بالمسيح، إيماناً وثبوتاً ومحبة، صرنا أعضاء لجسده:

+ «هكذا، نحن الكثيرين، جسد واحد، في المسيح، وأعضاء بعضاً لبعض كل واحد للآخر» (رو١٢:٥)

+ «وأما أنتم فجسد المسيح، وأعضاؤه أفراداً.» (١كو١٢:٢٧)

+ «لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه.» (أف٥:٣٠)

«الكرمة الحقيقية»: أول ما تكلم إنجيل القديس يوحنا عن «الحقيقي» كان بالنسبة للنور الحقيقي باعتباره نور الله الفائق للطبيعة فى كيانه وعمله.

ثم تكلم عن «الحق» باعتبار ان المسيح هو الذي أعلنه وأدخله إل العالم، في شخصه، إذ هو حامل لملء اللاهوت.

وبعد ذلك تكلم المسيح عن «الخبز الحقيقي» باعتبار أنه عطية الله، وهو هو المسيح ذاته متجسداً، حيث صار جسد المسيح ذبيحة مقدمة لله للفداء، صُرح للانسان أن يأكل منها سراً بالإيمان، ليعيش إلى الأبد.

والآن، يقدم لنا المسيح نفسه كرمة حقيقية، على أساس أن الآب هو الكرام، فهي كرمة ذات مصدر إلهي سماوي. هنا الجسد والحياة في المسيح، وشخصه الكلي ككلمة، ينفتح على الإنسان ليقبل الاتحاد به بسر إلهي، ليصير الإنسان عضواً حياً في المسيح على مستوى الغصن في الكرمة. ويقف الآب حارساً لهذا الإلتحام والثبوت، لأنه ثبوت إلهي وليس مادياً، ينفتح على الآب حينما ينفتح على الابن.

المقارنة هنا بين هذه الكرمة الحقيقية والكرمة التي هي ليست حقيقية، تقوم على أساس صفة «الحق»: الأليثيا، وهي صفة الطبيعة الإلهية التي لها البقاء الأزلى، أي الخلود، وعدم التغير أو الفساد؛ حيث الكرمة التي في المقابل، لا بد وأنها وقعت تحت التحول والفساد. إرميا النبي يصف هذا التحول المؤسف لشعب إسرائيل، والمكنى عنه بالكرمة: «وأنا قد غرستك كرمة سورق، زرع حق كلها، فكيف تحولت لي سروغ جفنة غريبة، فإنك وإن اغتسلت بنطرون وأكثرت لنفسك الأشنان، فقد نقش إثمك أمامي يقول السيد الرب» (إر٢:٢١-٢٢). والترجمة عن الأصل السبعيني تكون هكذا: «رأنا قد غرستك كرمة ذات ثمار طيبة، صنفها المزروع جيد بالحق كلياً، فكيف تحولت إلى كرمة غريبة مُرة؟ فإنك حتى وإن اغتسلت بالنطرون، وأكثرت لنفسك الصابون، فقد نُقش إثمك أمامي، يقول السيد الرب».

والمعنى واضح: فشعب إسرائيل هو الكرمة التي غرسها من أصول جيدة جداً وكلياً، سواء في الإثمار أو في نوعها المؤسس على الحق، وهو الإيمان بالله والتقوى بفضائل العبادة. ولكن تحول الشعب مع السنين عن الله، واقترف أعمالاً رديئة، وصار كالعنب المر. وإذا تحولت الكرمة إلى مثل هذه المرارة، فلن تفيدها تطهيرات الناموس ولا إلى ألف مرة، أو تنفعها المخصبات ولا إلى أقصى حد من الكثرة!! هنا كان ولابد أن تُقطع الكرمة الردية لتُزرع كرمة الأليثيا! نعم، كان ولابد لكي يحيا آدم مح الله مرة أخرى بعد أن تعدى وفسد، أن يزرع له الله شجرة حياة ليأكل منها ويحيا؛ عوض الشجرة التي أكل منها عن تعد، فمات.

كانت شجرة الحياة التي في وسط الجنة هي بعينها المنوط بها استعلان الله الآب في الميعاد المعين، حينما يبلغ آدم قامة الإنسان الكامل في الإدراك، فكان الأكل منها آنذاك يفتح عينيه لإدراك معرفة سر الله والحق والخلود،

فيخلد. ولكنه أكل قبل الميعاد، وعن تعد، فانفتحت عيناه على المعرفة للخير والشر معاً، دون أن يكون له قوة على التمييز ولا قوة على الإنحياز إلى الخير.

فلما أكل عن تعد، نال المعرفة. ومع المعرفة، لصق به الانحياز إلى الشر.

فمجداً لله! الذي أقام لنا الكرمة الحقيقية التي تُثمر «الحق» والحق كلياً، «أنا هو... الحق» (يو ١٤: ٦)، فالذي يأكل منه تنفتح عيناه على «الحق» وعلى «الحياة»، فيعرف الحق والله، ويحيا: «فمن يأكلي فهو يحيا بي.» (يو ٦: ٥٧) وليلاحظ القارىء، أن المسيح في الكلام قدم «أنا هوى» على كلمة «الكرمة». «أنا هو الكرمة الحقيقية»، لكي يقطع خط الرجعة على كل فكر يحاول أذ يفلت من هذه الحقيقة، ليحولها إلى مجرد التأمل، أو التحليق في المثل العليا: «فأنا هو الكرمة» يعني أنه قد أدخل بالفعل والحق والواقع «الكرمة الحقيقية» بكل خصائصها الإلهية، إلى عالم الإنسان الجديد، ليأكل منها بالحق أكلاً حقيقياً، لينشىء في الإنسان ليس فقط معرفة «الحق»، بل والحياة في الحق: «فمن يأكلني فهو يحيا بي»، وليس فقط معرفة الحياة الأبدية مع الله وفي الله بل والثبوت في هذه الحياة: «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه.» (يو ٦: ٥٦)

فلينظر القارىء ويتحقق، بل ويتثبت، فهنا في الأصحاح الخامس عشر من إنجيل القديس يوحنا يؤسس المسيح جنة جديدة للانسان، وفي وسطها الكرمة الحقيقية، شجرة الحياة الأبدية، حيث هنا لا يحذر الله من أن لا يأكل منها الإنسان وإلا يموت، بل إن الله يحرضنا، بلسان ابنه، أنه إن لم نأكل منها موتاً نموت!!! «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم.» (يو ٦: ٥٦)

الكرمة هنا سماوية، حية ومُحيية، وبثرية فى آن واحد، قائمة فى العالم وهي ليست من العالم، بسبب الأغصان، لذلك فقد دخلت تحت عناية الآب مباشرة. الإنسان أصبح على امتداد يد الله، بكل حنو الآب، وصرامة الكرام.

ولكن منذ القديم، والوحي الإلهي يتنقل بين الكرمة وشخص ابن الإسان، وكأنما هما معاً، أو واحد.

+ «يا إله الجنود ارجعن، اطلع من السماء، وانظر وتعهد هذه الكرمة، والغرس الذي غرسته يمينك، والابن الذي اخترته[1] لنفسك ... لتكن يدك على رجل يمينك، وعلى ابن آدم الذي اخترته لنفسك. فلا نرتد عنك. أحينا فندعوا باسمك. يا رب إله الجنود، أرجعنا، أنر بوجهك فنخلص.» (مز ٨٠: ١٤-١٩)

المسيح في هذا الأصحاح يحدد هوية الكرمة الحقيقية، حيث لا يذكر قط إسرائيل؛ ولكنه يعلن، بقوة، ما جاء في المزمور عن «رجل يمين الله» ، «والابن»، «وابن الإنسان» بقوله « أنا هو».

وفي الكرمة الحقيقية، التي هي جسد المسيح السري وأعضاؤه نحن، تتوزع الأعمال بين الآب والابن هكذا: فالابن يحمل في جسده المؤمنين الذي ثبتوا فيه، كأنهم أعضاء له من لحمه وعظامه، يعطيهم من جسده طعاماً ومن دمه شراباً، وهكذا من خلال المفهوم السرائرى، إذ بمد أن حملهم في جسده أعضاء، حمل خطاياهم عنهم غافراً ومسامحاً لكل ذنوبهم، مقدماً إياهم إلى أبيه الكرام.

أما الآب وهو الذي، في القديم، غرسها على الآرض: «كرمة من مصر نقلت، طردت أمماً وغرستها» (مز ٨٠: ٨)؛ فهو في الجديد أيضاً، الغارس في الماء. ويولس الرسول يصف عمل الله الآب في الكنيسة بكل قوة ووضوح هكذا: «كي يعطيكم الله ربنا يسوع المسيح، أبو المجد، روح الحكمة والإعلان في معرفته (معرفة الله الآب)، مستنيرة عيون أذهانكم، لتعلموا ما هو رجاء دعوته (دعوة الله الآب» وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين (ميراث الله

---

[1] «اخترنه» جاءت فى الترجمة السبعينه «قويته« أو «شددته«.

الآب)، وما هي عظمة قدرته الفائقة (قدرة الله الآب) نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته (قوة الله الآب)، الذي عمله (الله الآب) في المسيح إذ أقامه من الأصوات، وأجلسه عن يمينه في السماويات (رجل يمينه)، فوق كل رياسة، وسلطان، وقوة، وسيادة، وكل اسم يُسمى، ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً. وأخضع كل شيء تحت قدميه (قدمي يسوع المسيح)، واياه جعل رأساً فوق كل شيء، للكنيسة (الكرمة) التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل.» (أف١:١٧-٢٣)

واضح هنا عمل الله الآب بالنسبة للكنيسة، أي الكرمة. فهو الذي «جعل» المسيح رأساً لها. وهو الأصل والسبب الذي يقف وراء كل ما عمله المسيح من أجلنا. و«من أجلنا» تجيء واضحة كل الوضوح في رسالة أفسس هكذا: «وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين (أعضاء الجسد، أغصان الكرمة)، حسب عمل شدة قوته، الذي عمله في المسيح ... » (أف١:١٩-٢٠)

إذن، فالله الآب هو الذي أقام الرأس، وثبت الأعضاء حسب عمل شدة قوته في المسيح: «لا يقدر أحد أن يقبل إليّ، إن لم يجتذبه الآب» (يو٦:٤٤). لذلك، يجيب المسيح نفسه على هذه الحقيقة بقوله: «كل ما يعطيني الآب فإلي يقبل، ومن يقبل إلي، لا أخرجه خارجاً» (يو٦:٣٧)، «الذين أعطيتني حفظتهم، ولم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك، ليتم الكتاب.» (يو١٧:١٢)

وقصد المسيح، كابن، هو ألن تثمر الأعضاء، وذلك لكي يقدم أثمارهم للآب، كما قدم هو نفسه للآب: «بهذا يتمجد أبي أن تأتوا بثمر كثير، فتكونون حقاً تلاميذي.» (يو١٥:٨)

فإذا نظرنا إلى الكرمة (الكنيسة) ككل، فإنا نسمع من القديس بولس أن الله هو الذي يُنميها، بمعنى أنه هو يعتني بها ويسيطر عل كيانها: «إذآ، ليس الغارس شيئاً، ولا الساقي، بل الله الذي ينمي ... فإننا نحن عاملان مع الله، وأنتم فلاحة الله، بناء الله» (١كو٣:٧-٩). ولكن يلزم أن ندرك ان الأب لا يعمل بدون الابن، أي المسيح: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته.» (يو١٧:٤)

٢- كُلُّ غُصْنٍ فِيَّ لاَ يَأْتِي بِثَمَرٍ يَنْزِعُهُ وَكُلُّ مَا يَأْتِي بِثَمَرٍ يُنَقِّيهِ لِيَأْتِيَ بِثَمَرٍ أَكْثَرَ.

هنا عمل الكرام في الكرمة هو، بالدرجة الاولى ، مع الأغصان وليس مع المسيح؛ لأن بقية الصفات التركيبية للكرمة خلاف الأغصان، سواء الجذر وما يتبعه من ري ومخصبات، لا وجود لها في تشبيه المسيح لنفسه وللمؤمنين بالكرمة. وأي محاولة اجتهادية لاقتحام مجال التفكير فيها يخرج تشبيه المسيح عن الغرض والهدف والواقع. فالكرمة، فوق كل شيء، ليست نباتاً، والأغصان ليست خشباً وورقاً، والثمر ليس عنباً، وإلا نصبح وكأننا نشرب دم أنفسنا؛ فالكرمة هي جسد المسيح، وجسد المسيح السري هو الكنيسة ، والأغصان هم المؤمنون «من لحمه وعظامه» ، والثمار هي الإيمان والمحبة والشهادة.

فقول المسيح أنه الكرمة الحقيقية هو على مستوى قوله: «أنا هو الطريق». فالمسيح، بتجسده ثم موته ثم قيامته، أوصل الإنسان بالله. والمسيح، ككرمة، أعطى فرصة للانسان، من خلال التحامنا بجسده الذي فيه ملء اللاهوت، أن يجعلنا في مواجهة الآب وفي متناول يده للتنقية والمزيد من الاثمار.

عملان يقوم بهما «الآب» في صميم حياة الكرمة، فهو ككرام يطلب الثمر، وعلى أساس الثمر يتعامل مع الأغصان. فالغصن الغير مثمر ينزعه، لأنه يعطل نمو الكرمة، وينزل بمستوى الإثمار (أي مجد الله)، والغصن المثمر يعتني به، وينقيه، ليأتي بمزيد من الثمر(أي مزيد من المجد).

* أما النزع أو القطع، فبقدر ما هو كارثة للغصن، إلا أنه نافع وجيد ولائق للكرمة؛ علماً بأن الغصن الغير مثمر لا ينفع فيه التنقية أو التقليم. والأمثلة على هذا الغمن المنزوع من الأصل كثيرة: فأمامنا يهوذا، كيف لما قطعه الله، قطع هو نفسه، ووقع ومات وجف، ولكن ربما كان القطع الأكثر خطورة في حياة الكرمة، أي في حياة الكنيسة، قديمها وجديدها، هو قطع إسرائيل ذاتها، ولو أن الوصف يعطيه بولس الرسول على الزيتونة: «فستقول: قُطعت الآغصان (إسرائيل) لأُطعم أنا، حسناً، من أجل عدم الايمان قُطعت، وأنت بالايمان ثُبت ...» (رو١١: ١٩-٢٠)

+ وأما التنقية: فهي غريبة على مفهوم الأغصان والشجر، لأنها تفيد التطهير الروحي، والتطهير يتعامل مع النجاسة والشهوة بكل أصنافها! واضح من ذلك أن المسيح، باستخدامه لفظة التطهير، أراد أن يعطي للكرمة هنا مفهومها الروحي الصافي. أما بالنسبة للغصن» في مفهومه كغصن شجرة: فإذا انشغل بكثرة الأوراق مثلاً فإزالة الزائد منه هو تطهير، الذي يوازي التباهي بالأعمال والجمال والشكل عند المؤمن المسيحي؛ الذي يستحق، إزاء هذا، نوعاً من إختزال شيء من جماله أو قوته: «ولئلا أرتفع بفرط الإعلانات أُعطيت شوكة في الجسد، ملاك الشيطان، ليلطمني، لئلا أرتفع.» (٢كو١٢: ٧)

«ليأتي بثمر أكثر»: الله، منذ القديم، يعطي الاعتبار في اقتنائه لشعبه على مستوى الثمر الأكثر، وقد أوضح ذلك مراراً ، وعلى مستوى الكرمة والعنب!! « لأنشدن عن حبيبي نشيد مُحبي الكرمه. كان لحبيبي كرم على أكمة خصبة، فنقبه، ونقى حجارته، وغرسه كرم سورق (كلمة عبرية = طيب الثمر)، وبنى برجاً في وسطه، ونقر فيه أيضاً معصرة، فانتظر أن يصنع عنباً، فصنع عنباً رديئاً، والآن يا سكان أورشليم ورجال يهوذا (هم المقصودون)، احكموا بيني وبين كرمي. ماذا يُصنع أيضاً لكرمي وأنا لم أصنعه له؟ لماذا إذ انتظرت أن يصنع عنباً صنع عنباً رديئا؟ فالأن، أعرفكم ماذا أصنع بكرمي، أنزع سياجه، فيصير للرعي، أهدم جدرانه، فيصير للدوس (تخريب أورشليم والهيكل)، وأجعله خراباً لا يُقضب ولا يُنقب، فيطلع شوك وحسك، وأوصي الغيم أن لا يُمطر عليه مطراً.»

فلينتبه القارىء إلى أسلوب المسيح في إنجيل القديس يوحنا، الغصن الحي في الكرمة لا يُترك وشأنه، فكل غصن مُطالب بالثمر، فإما ثمر، فحياة؛ وإما لا ثمر فلا حياة! ليست هناك أنصاف حلول. حتى الثمر القليل مُطالب بأن يصير كثيراً!

هذا الثمر في الكرمة الإلهية الحقيقية ليس كالثمر في كرمة إسرائيل، أي مجرد الإنتظام في أعمال الناموس. فالثمر في العهد الجديد ثمر روحي، وفي إنجيل القديس يوحنا بالذات هو «المحبة»، الثمرة الممجدة التي لها رائحة المسيح الذكية، بحسب بولس الرسول (٢كو٢: ١٥). وأما بحسب القديس يوحنا الرسول: «كل من يُحب فقد وُلد من الله، ويعرف الله؛ ومن لا يُحب، لم يعرف الله، لأن الله محبة» (١يو٤: ٧-٨)، «من يثبت في المحبة، يثبت في الله، واللع فيه» (ايو٤: ١٦). وبالنهاية تكون المحبة هي علامة «الحياة»، وغيابها علامة الموت. «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأننا نحب الإخوة» (١يو٣: ١٤). «من لا يحب أخاه، يبقى في الموت؛ كل من يبغض أخاه، فهو قاتل نفس.» (ا يو٣: ١٤-١٥)

القديس أغسطينوس يوضح ذلك بقوله: [الغصن يصلح فقط لواحد من اثنين ، إما في الكرمة مثمراً، أو للحريق.]

«اذهبوا وامشوا بين صفوف كرمهم وحطموها... انزعوا أغصانها، لأنهم ليسوا للرب» (إر٥:١٠ حسب الترجمة السبعينية).

٣- أَنْتُمُ الآنَ أَنْقِيَاءُ لِسَبَبِ الْكَلاَمِ (الصحيح "الكلمة") الَّذِي كَلَّمْتُكُمْ بِهِ.

ما سبق المسيح وقاله عن الكرمة والكرام والأغصان بصفة عامة، الكنيسة، يعود ويوضحه بصفة خاصة للتلاميذ. فأولاً، أراد أن يوضح لهم أنه هو شخصياً قد أكمل عمله من نحوهم الأن. فالتعليم الذي أعطاهم، على مستوى الكلمة الحية، الفاحصة، والبانية، والمؤنبة، والمعزية، والمستعلنة للحق الإلهي، قد أجزله لهم بكل حكمة، حتى إنهم أصبحوا فعلاً أطهاراً بسبب هذا التعليم . ولا ننسى أنه سمبق أن أعلن لهم ذلك: «الذي قد اغتسل، ليس له حاجة إلا إلى غسل رجليه، بل هو طاهر كله، وأنتم طاهرون، ولكن ليس كلكم. لأنه عرف مُسلمه» (يو١٣:١٠-١١). وسنرى فى الآيات القادمة ماذا كاذ ينقص التلاميذ بالفعل. فهم بالرغم من أنهم أنقياء بسبب التعليم، إلا أنه كان ينقصهم الثبات فيه، وهذا ما ركز عليه المسيح كثيراً . وهذا ما ظهر في تفرقهم ساعة المحنة وتركهم المسيح وحده!! مما يكشف عن إرادة غير متتلمذة جيداً للحق آنئذ. فالثبوت في المسيح لا يظهر إلا في ساعة الضيق، في أوقات الخسارة والاضطهاد، في المرض الشديد والألم، في التهديد با لتعذيب أو النقمة. هنا قوة الكلمة في تثبيت الغصن أو العضو، والإرادة الثابتة في إرادة المسيح لا تتزعزع، بل ترتقي إلى سلام داخلي، وهدوء، وصبر بديع!

والملاحظ هنا أن الآب ينقي، والابن ينقي، فهو عمل مشترك؛ الآب ينقي بالتجارب النافعة، والابن ينقي بالكلمة المطهرة.

«أطهار»: كلمة «أطهار» ولو أنها تختص بالروحيات، ولكن العهد القديم استخدمها أيضاً في مواضع مشابهة للكرمة. وهنا يجدر بنا الإشارة إلى المنبع الذي أشار إليه المسيح في العهد القديم، بصورة سرية غاية في الروعة: «ومتى دخلتم الأرض، وغرستم كل شجرة للطعام، تحسبون ثمرها غرلتها (أي نجاستها) ثلاث سنين، تكون لكم غلفاء (غير طاهرة) لا يؤكل منها، وفي السنة الرابعة يكون كل ثمرها قدسا لتمجيد الرب، وفي السة الخامسة تأكلون ثمرها لتزيد لكم غلتها، أنا الرب إلهكم.» (لا١٩:٢٣-٢٥)

ويكاد هذا التشبيه بألفاظه هو الذي قيل في الكرمة: «غرستم»، «ثمرها»، «لتمجيد الرب»، «بهذا يتمجد أن أن تأتوا بثمر كثير» (يو١٥:٨)، «لتزيد لكم غلتها» = «يأتي بثمر كثير».

وإذا لاحظنا أن المسيح يتكلم هنا في نهاية خدمته على الأرض التي استغرقت بحسب إنجيل يوحنا «ثلاث سنوات» ونصف تقريباً، إذن فمثل الكرمة قيل في السنة الرابعة، حيث أصبحت أغصان الكرمة طاهرة وثمرها قدساً لتمجيد الرب. وهنا ينطلق أمامنا المجال لمعان أعمق لكلمة «أنتم أطهار». فالأمر لا يختص بالخطايا، شأنهم شأن الشجرة في أرض الميعاد، وقد جازت سنين الإختبار الثلاث. فالآن، ليس ما يمنع أن تصبح إثمارهم قدساً للرب، بمعنى النضج الكامل الذي يليق بالأب «إذ طهر بالإيمان قلوبهم.» (أع١٥:٩)

ولكن في ختام هذه الآية، نود أن نحتفظ بقول الرب: «أنتم أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به». فكلمة المسيح لها هذه القوة، لها أن تطهر وتقدس، وتحيي، وتلد من جديد!! فهل يمكن أن نسهر لها كل يوم متعلمين ومتتلمذين؟ إن الإنجيل هو سر القداسة!

٤ - اُثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ. كَمَا أَنَّ الْغُصْنَ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ بِثَمَرٍ مِنْ ذَاتِهِ إِنْ لَمْ يَثْبُتْ فِي الْكَرْمَةِ كَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيْضاً إِنْ لَمْ تَثْبُتُوا فِيَّ.

«أثبتوا»: هذه الكلمة جاءت في أسفار العهد الجديد ١١٢ مرة، منها ٦٦ مرة في إنجيل ورسائل القديس يوحنا وحده: ٤٠ مرة في إنجيله و٢٣ مرة في رسالته الاولى و٣ مرات في رسالته الثانية.

وإنجيل القديس يوحنا يستخدم هذا الفعل للتعبير عن الحلول، أو التلازم الغير قابل للتغيير، بنوع من التحصين بين المؤمنين ممثلين في التلاميذ. ويقصد بذلك الحلول الغير متغير، أن يرفع الواقع المسيحي في العبادة والإيمان على ما يدعيه فلاسفة اليونان من خبرات التأمل وبلوغ العقل حالات الإتصال بالنور، التي تكون في أعظم حالاتها وقتية، وإلى لحظات خاطفة. كذلك يفرق بين العبادة المسيحية وبين تلك اليهودية القائمة على حالات حلول الروح وقتياً على الآنبياء، وهذا كان أفخر خبرات إسرائيل.

لذلك يقرر الإنجيل، أولاً وبوضوح، أن الله يثبت في المسيح: «الآب الحال فيّ» هو يعمل الأعمال» (يو١٤: ١٠).

هنا كلمة «الحال فيّ» تُترجم: « الآب الحال في بثبوت دائم». هذا هو نموذج الحلول الثابت المحصن. ثم يستخدم الإنجيل هذا الثبوت نفسه بنفس الكلمة في حالة ثبوت المؤمنين في المسيح كما المسيح فيهم: «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه» (يو٦: ٥٦). هنا تطبيق عملي لثبوت الله في المسيح، حيث إذ يتناول المؤمن جسد المسيح ودمه يحل المسيح ويثبت في المؤمنين على مستوى عمل جسده ودمه؛ وعمل الجسد والدم هو: الفداء والتقديس وإعطاء الحياة التي فيهما لتبقى وتدوم في المؤمنين.

وفي الرسالة الاولى للقديس يوحنا يضح التوازي بين ثبوت المسيح في الأب وثبوت المؤمنين في المسيح على المستوى العملي هكذا: «من قال إنه ثابت فيه (في المسيح)، ينبغي أنه كما سلك ذاك (المسيح)، هكذا يسلك هو أيضاً» (ايو٢: ٦)، بمعنى أن المسيح أثبت ثبوته في الآب بطاعته حتى الموت، هكذا يكون ثبوتنا نحن في المسيح.

ثم ينتقل القديس يوحنا من الثبوت الشخصي في المسيح إلى الثبوت في «المسحة»، أي نعمة الروح القدس التي نالها المؤمن وقت العماد بدهن الزيت ووضع اليد، ليس من جهة الشكل بل بالفعل، وهو الإستنارة الروحية والإفراز: «وأما أنتم، فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم، ولا حاجة بكم إلى أن يعلمكم أحد، بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء، وهي حق وليست كذباً؛ كما علمتكم، تثبتون فيه» (١يو٢: ٢٧).

أما عن قوله: «فهي ثابتة فيكم»، فهذا وعد الله، الحق، من جهة عطاياه، فهي بلا ندامة (رو١١: ٢٩)، أي أنه يتحتم علينا أن نؤمن، ونثق، ونشكر، معاً، أن مسحة القدوس التي نلناها منه مرة هي ثابتة فينا إلى الأبد، هذا من جهته هو. أما ما تعلمه هذه المسحة لنا، فهو أن نثبت فيه كما هي ثابتة فينا، وهذا حق، ولا يحتاج إلا إلى ثقة الإيمان واليقين بصدق عمل الله.

ثم ينتقل القديس يوحنا من الثبوت في المسحة، إلى الثبوت في عمل المسحة، وهو المحبة: «من يثبت في المحبة، يثبت في اله، والله فيه» (١يو٤: ١٦). وهذا هو قمة الثبوت المتبادل على المستوى العملي والواقعي. فالحب الحقيقي من كل القلب والفكر والقدرة موصل إلهي جيد بين الله والإنسان والإنسان والله، حيث يتجلى ثبوت الله بثبوت «الكلمة» (يو٥: ٣٨، ١٥: ٧)، وثبوت الحق (٢يو٢)، وثبوت الحياة (١يو٣: ١٥)، وهذه كلها هي علائق الخلاص المشتهى.

لقد أعطى المسيح لنفسه هذا التقبيم أنه هو الكرمة الحقيقية، بقصد واحد، هو أن يحدد موضع التلاميذ أو

المؤمنين منه. وهنا يحدد المسيح مدى قوة الوحدة السرية والإلهية التي تربطه بالتلاميذ، والتي تربط التلاميذ به بالتالي. ولكن يعود ويوضح، أن هذا الأتحاد العضوي الوثيق الذي يربط التلاميذ والمؤمنين به، يتوقف على الثبوت، وهنا الشرط القاطع المانع : فإما ثبوثت فإثمار، وإلا فلا إثمار البتة.

«لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته»: الثمر الروحي من إيمان ومحبة وشهادة هو من عمل المسيح، كمنبع، والروح القدس كموصل؛ وهو ليس اجتهاداً من صنع الذات البشرية، وإلا تصير ثماراً مزيفة، لها الشكل والاسم وليى لها الفعل والقوة: «لهم صورة التقوى، ولكنهم منكرون قوتها، فأعرض عن هؤلاء.» (٢تى٣:٥)

وللأسف الشديد، فإن الكثرة في العاملين باسم المسيح فاقدون لهذا الثبوت الداخلي والعضوي، الذي عن طريقه يأخذون بالروح القدس ثمر بر المسيح ويقدمونه كما هو، بل هم يجتهدون من ذواتهم، ويعرضون ثمر فكرهم وتصوراتهم، وهذا كله ينطق بأنه من صنع ذواتهم، إذ يكون فاقداً لقوة تقوى الإيمان والثبوت في المسيح:

«واكتب إلى ملاك الكنيسة التي في ساردس ... أنا عارف أعمالك أن لك اسماً أنك حي وأنت ميت.. كن ساهراً وشدد ما بقي، الذي هو عتيد أن يموت، لأني لم أجد أعمالك كاملة أمام الله.» (رؤ٣:١-٢)

« ... إن لم يثبت فى الكرمة، كذلك أنتم أيضاً إن لم تثبتوا فىّ»: المسيح يوعي التلاميذ أن لا يعتمدوا على بر أنفسهم، متكلين على المواظبة على أعمال الناموس وكأنها تجعلهم مثمرين لله. فهذا عهد جديد، لا يقوم على الجهد الإنساني من أي نوع، بل على الاتحاد بالمسيح والثبوت في هذا الاتحاد، حيث يصير المسيح نفسه فينا هو العامل، والمريد أن نشاء وأن نعمل. وبذلك يكون العمل هو عمل الله، لمجد الله. فكل عمل ليس مصدره الله فهو لا يمجد الله، بل يمجد ذواتنا. «إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بإيمان يسوع المسيح، آمنا نحن أيضاً بيسوع المسيح، لنتبرر بإيمان يسوع، لا بأعمال الناموس، لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما» (غل٢:١٦). والمسيح سبق وأعطى نفسه مثالاً للعمل الذي يكون مصدره الله: «لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل» (يو٥:١٩)، «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا. وأن تعملوا من أجل المسرة» (في٢:١٣). وهذا صحيح في حالة واحدة، وهي عندما يسلم الإنسان نفسه لتدبير نعمة الله.

وليلاحظ القارىء، أن كل أمر يعطيه المسيح هو وصية، وكل وصية تحمل قوة الوعد الإلهي، لذلك فهي تحمل قوة تنفيذها في الطاعة لها. فلا يرتبك الإنسان قط في أوامر المسيح، فهي بمثابة دعاء يصدره، ومعه بركة وقوة التنفيذ. فهنا المسيح يأمر: «أثبتوا فيّ» وهو المسئول عن قوة الإستمرار والفعل، أي فعل الثبوت، لكل من يطيع من القلب. وحتى الجزء الثاني الذي لا يبدو أن يكون أمراً في شكله، فهو في واقعه أمر: «وأنا فيكم»، حيث يكون المعنى : «وليكن أيضاً ثبوتي فيكم ...» فهو أمر بمعنى «اقبلوا ثبوتي فيكم». وهكذا، فهو أمر يحتاج إلى طاعة، بانفتاح القلب لدخول المسيح للعمل: «بسبب هذا أحني ركبتي لدى أبي ربنا يسوع المسيح الذي منه تُسمى كل ابوة في السموات وعل الأرض، لكي يعطيكم بحسب غنى مجده أن تتأيدزا بالقوة، بروحه في الإنسان الباطن، ليعمل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف١٤:١٧)

والأن، أيها القارىء العزيز، هل تؤمن بصدق المسيح؟ ثم هل تؤمن بأمانة المسيح في تتميم ما وعدد به؟ ثم هل لك قلب بسيط في الإيمان، لتثق بأن ما وعد الله به، هو يتممه بكل دقة، بحسب غناه في العطاء؟ إذن، فثق أنك ثابت في المسيح، والمسيح ثابت فيك، وعليك أن تعمل بحسب مشورته، معتمداً على صدق مواعيده.

ولكن اعلم أيها القارىء العزيزه أن الإنسان المسيحي ليس مختاراً أن يثبت في المسيح أو لا يثبت، لأن في الأية

(٦) القادمة تحذير مريع لدينونة، نحن لسنا قادرين أن نحمل عقوبتها على الإطلاق؛ فهو يقول: «إن كان أحد لا يثبت في يطرح خارجاً، كالغصن، فيجف ويجمعونه، ويطرحونه في النار فيحترق.» (يو١٥:٦)

ولكن في مقابل هذا التحذير بهذا المصير، يوجد تشجيع ما بعده تشجيع، حينما يثق الإنسان بصدق وعد المسيح، ويطرح نفه أمامه متوسلاً أن يكون غصناً مثمراً، أو عضواً لائقاً بجسد المسيح، فإنه يُسمع له فوراً، ويعطيه الرب قوة إضافية ترفعه فوق ضعفه، فوق موته، فوق كل الظروف المعاكسة، لينال من الرب تحقيق وعده. وهذا يقدمه المسيح في الأية (٧) القادمة: «إن ثبتم في، وثبت كلامي فيكم، تطلبون ما تريدون، فيكون لكم». ونحن لا نطلب إلا دوام الثبوت، بقوة من عنده.

ولكن عودة على ذي بدء: «أنتم أطهار من أجل الكلام (الصحيح هو الكلمة) الذي كلمتكم به». إذن، فكلمة المسيح (اللوغس) هي الصلة العظمى والأقوى للثبوت في الرب، ولحلوله في القلب. وشهادة الضمير والنمو والإثمار هي علامة.

٥- أَنَا الْكَرْمَةُ وَأَنْتُمُ الأَغْصَانُ. الَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ هَذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ لأَنَّكُمْ بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئاً.

الرب يشير إشارة مباشرة إلى العلاقة العضوية، حيث يوضح أنه الآن مصدر الحياة الحقيقية بالنسبة لهم، فالكرمة الحقيقية لا بد وأن تعطي أغصاناً حقيقية. الإشارة هنا إلى بلوغ منتهى قصد الله من الإنسان، إذ أصبح يستمد الحياة الحقيقية بصفة ثابتة من المنبع الإلهي.

هذا شرح توقيعي على الآية الثالثة في المقدمة: «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» (يو١:٣)، حيث يدين الإنسان بكل وجوده وكيانه وحياته ونور بصيرته لله. وهنا يقدم المسيح تفسير ذلك على المستوى العملي كيف يكون!! كيف يعتمد الإنسان بإرادته على الله، ليستمد كيانه وحياته، ويحقق تدبير الله منذ «البدء» فيما يخص العلاقة الوثيقة بينه وبين الخالق. والمسيح يكشف السر عن طريقة تطهير الإنسان مما لوثه العالم فيه؛ فالكلمة حينما تخاطب القلب والضمير، فهي بعينها الكلمة التي خلقت، فإن كانت لها القدرة أن تخلق، فإن لها القدرة أن تصحح وتعيد إلى الأصل وتغذي بالحق. بل ولا تزال هي هي الكلمة التي تزرع كل يوم أعضاء جدداً في الكرمة الممتدة، ليس نحو البحر كالسابق، بل نحو السماء؛ وهي تغسل وتطهر كنيسة برمتها عبر الدهور، والكل يسير وينمو حسب قصد خالقها: «... صادقين في المحبة، ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس، المسيح.» (أف٤:١٥). كل ذلك على أساس مفصل الحياة الذي يربط الخشب في الكرمة بالحياة، ليستمد عصير الحق والنور والحب.

«الذي يثبت في وأنا فيه، هذا يأتي بثمر كثير»: الخشب في الفرع لا يقيم بحسب طبيعته إلا بالنار، ولكن الفرع الثابت في الكرمة يُقيم بالثمر، قيمة الغصن تكمن في الثمر، وبالثمر يُقيم كل غصن لدى الكرام، وبالصبر وطول الأناة ودوران الشتاء بتجاربه ومجيء الصيف بخيراته، يزداد الفرع ثبوتاً ويزداد إثماراً، طالما كان مفصل الحياة، الكلمة، سليماً عاملاً ... الفروع المثمرة هي غنى الحياة المسيحية، وكرامة متزايدة للكرمة، ومجد للكرام! لذلك فالغصن صاحب الثمر الكثير، هو موضع مسرة للكرمة لمزيد من العطاء والغذاء، وهو مجد للكرام يأخذ منه ويوزع بالأحضان.

والمهم أيها القارىء العزيز، لا أن نفهم ماذا يعنيه الثمر الكثير وما هي أنواعه، فهي بالصدق متعددة جداً، وتكاد لا

تكون ثمار كل مؤمن في السيح مثل ما للآخر، ولكن المهم جداً أن نفهم هذا الكلام على أنه وعد، وعد يضمنه المسيح، لأنه هو الذي سيعطي الثمر. فالمطلوب أن نصدق الوعد، ونتقدم بثقة الإيمان، لندخل في عهد الثبوت بلا تردد، غير حاسبين تكاليفه، والرب متكفل بها، وغير ناظرين إلى ضعفنا، فالضعيف إذا ثبت في الكرمة لا يعود يحُسب ضعيفا، فالثمر هو من سخاء الكرمة وليس من صنع الغصن، علماً بأن الثبوت متبادل. فحلول المسيح في الضعيف، أي قوة يعطى؟

«لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً»: هذا يعني أن كل ما نفعله بدون المسيح ليس شيئاً؛ هو محسوب ضمن خشب الغصن، وليس له قيمة في حساب الكرمة. أعمالاً كثيرة جداً نعملها من ذواتنا ولإرضاء نزواتنا، وكلها ليست مدرجة في حساب الكرمة، بل هي العدم، عين العدم. مع أننا لو أخضعنا ذواتنا للمسيح، لعمل بنا المسيح أعمالاً يتمجد بها الآب، ولحسبت في حساب الحياة الأبدية. هكذا قال الإنجيل بالروح: كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو ١:٣)، فالذي عمله «الكلمة» المسيح «كان»، وصار هو الحياة، والذي لم يعمله المسيح ظل هو العدم. لذلك، كل من ينفصل عن المسيح، يصير هو العدم بالضرورة، حيث لا ثمر البتة، لا قليل ولا كثير !! وكل من اتحد وثبت في المسيح صار «كل شيء».

«أن تفعلوا شيئاً»: هذا «الفعل» يقصد به المسيح العمل الروحي، الذي يدخل ضمن تدبير الآب السماوي. فالتلاميذ هم الذين أسس بهم ملكوته، أي الكنيسة على الأرض، التي وضع عليها أن تكمل عمل المسيح في العالم عبر الأجيال والدهور، وكان لكل تلميذ عمل ورسالة، وهكذا كانوا بكور ثمر الكرمة التي ملأت العالم. والأن، لا تزال الكرمة تعمل، وتثمر، وتجدد أغصانها. ولا يزال يقاس كل غصن بقياس الثمر الذي يعطيه لحساب الملكوت، ويقاس الثمر بقياس مقدار الثبوت في المسيح والتأصل فيه. وحساب الكرمة يحسب بحساب الثمر، والأغصان تقيم بتأصلها في المسيح. فالكرمة، أي الكنيسة، هي كرمة ثمر، وليست مجرد أغصان ولا مجرد أوراق. فحبة الحنطة وقعت وماتت، لتعطي ثمراً كثيراً. فالمسيح، إن كان كرمة، فهو يطلب ثمراً؛ وإن كان حبة حنطة، فهو يطلب ثمراً. وهكذا، فهو بحياتنا يطلب ثمراً كأغصان؛ وبموتنا، يطلب ثمراً كحنطة في سنابل، ثلاثين وستين ومائة.

٦- إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يَثْبُتُ فِيَّ يُطْرَحُ خَارِجاً كَالْغُصْنِ فَيَجِفُّ وَيَجْمَعُونَهُ وَيَطْرَحُونَهُ فِي النَّارِ فَيَحْتَرِقُ.

عدم الثبوت في الكرمة يعني الانفصال حتمياً، لأن الغصن كيف يعيش؟ وعلى ماذا يعيش؟ فالكرمة تسنده حتى لا يسقط، وتغذيه حتى لا يموت. المسيحي إذا ابتعد عن المسيح، وبالأخص الذي يدعي أنه غصن وله ثمر، فإنه يتعرى من سر البقاء في الروح وسر القيام في النعمة، فتجفت الكلمة من فمه، ويذبل.

«يُطرح خارجاً»: اللفظ اليوناني يوضح، مثل العربي، أن الطرح في الخارج ليس فقط يعني الانفصال من الكرمة، بل والخروج من دائرة الكرمة، حيث الكرمة هنا تعني بستان الكرمة بأكمله، وهذه إشارة بليغة إلى الكنيسة. فالمسيحي الذي ارتأى أن يعيش بإمكانياته ومعرفته ومواهبه وحذقه الذاتي، غير المستمدة من سر الكرمة ككل، فإنه لا يُحسب من الكرمة في شيء. فجسد المسيح السري يحمل أغصاناً ثابتة ثبوتاً، تشهد عليه ثمارها التي تغلها لحساب الكرام في حينها الحسن.

«ويجمعونه ويطرحونه»: في الأصل اليوناني يأتي الفعلان بالجمع «يجمعونهم ويطرحونهم»، بمعنى: كل الذين تعاهدوا مع روح الضلال ليستقلوا بذواتهم، ويستغنوا عن مصدر حياتهم وخلاصهم الأبدي (مت٢١:٤١) وهذه إشارة

خطيرة لانحراف المؤمنين آخر الزمان والذي سيكون بالجملة، ولهذا المنظر نبوة سبقت بفم حزقيال النبي لتصف هذا العمل على الواقع: «لذلك قل لبيت إسرائيل، هكذا قال السيد الرب... كل إنسان من بيت إسرائيل أو من الغرباء المتغربين في إسرائيل، إذا ارتد عني، وأصعد أصنامه (أخطر الأصنام هي الذات) إلى قلبه، ووضع معثرة إثمه تلقاء وجهه (انشغل بذاته)، ثم جاء إلى النبي ليسأله عنى، فإنى أنا الرب أجيبه بنفسي، وأجعل وجهي ضد ذلك الإنسان، وأجعله آية ومثلاً، واستأصله من وسط شبي. فتعلمون أني أنا الرب.» (حز١٤:٦-٨)

الإشارة هنا واضحة نحو المؤمنين الذين تأصلوا في المسيح: معمودية، وإيماناً، وإعلاناً، واسماً؛ ولكنهم إما لم يأتوا ثماراً بالمرة، أو كانوا قد اتوا بثمار ثم انحصروا في ذواتهم، وكفوا عن الإثمار الحقيقي، واكتفوا بجمال الأوراق، وهي المواهب الطبيعية. هنا انفصال الأغصان أو المؤمنين سري، لأن لا أحد يلمح انفصالهم ظاهرياً، ولكن الكرام وحده هو الذي يعرف الثمار وصنفها، ويعرف من أين انحصرت العصارة عن أن يتغذي الفرع بالغذاء الملكي الذي يتحول إلى ثمار. وكيف استغل الفرع عصارة الكرمة، ليحولها إلى أوراق دون ثمر.

«يطرحونهم فى النار، فيحترقون[1]»: لا تزال نبوه حزقيال منبعاً خصباً لهذا المنظر:

+ «يا ابن آدم ماذا يكون؟ هل عود الكرم (خشب) فوق كل عود (خشب) أو فوق القضيب الذي من شجر الوعر (الغابة)؟ هل يؤخذ منه عود (خشب) لاصطناع عمل ما؟ أو يأخذون منه وتداً ليعلق عليه إناء ما؟ (طبعاً خشب العنب لا يصلح أبداً). وهوذا يُطر للنار. تأكل النار طرفيه، ويُحرق وسطه، فهل يصلح لعمل؟ هوذا حين كان صحيحاً، لم يكن يصلح لعمل ما. فكم بالحري لا يصلح بعد لعمل إذ أكلته النار فاحترق؟ لذلك، هكذا قال السيد الرب، مثل عود الكرم بين عيدان الوعر (الغابة) التي بذلتها أكلاً للنار، كذلك أبذل سكان أورشليم.» (حز١٥:٢-٦)

وهكذا، أيها القارىء العزيزه يكرر الرب الإله نفس القول، لا لسكان أورشليم، بل لأهل بيته، لأعضاء جسده، الذين دفح دمه الثمين ثمناً لإثمارهم لحساب الآب صاحب الكرم، مثل شجرة التين التي حملت ورقاً دون ثمر، فلعنها المسيح (مت٢١:١٨، مر١١:١٢-١٤)، تشبيهاً للذين حولوا نعمة الله والروح إلى مظاهر جسدية ومجد دنيوي. فالثمر الصادق والثبوت الصادق هو طلب الرب قديماً وجديداً، والإلتصاق بالرب من عدمه هو أيضاً طلب الرب قديماً وجديداً. أما العقاب بالنار، فهو صادق منتهى الصدق، حتى لو قسناه على آخر ما وصل إليه علم الذرة والطاقة. فآخر صورة للمادة قبل أن تخلي مكانها في عالم الوجود الظاهري هي النار!!! ولا ينبغي أن نأخذ النار في عقاب الله بالصورة المادية، ولكنها تعبير عن غضب الله كما عرفها الله مرة في سفر التثنية بمنتهى الوضوح هكذا: «إنه قد اشتعلت نار بغضبي، فتتقد إلى الهاوية السفلى، وتأكل الأرض وغلتها، وتحرق أسس الجبال.» (تث٣٢:٢٢)

وآخر صورة يقدمها المسيح لنا، وهي كفيلة بأن توقظ كل ضمير مهما غاب عنه التعقل كل أيام حياته، قول الرب في إنجيل القديس متى: «وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية» (مت٨:١٢)، أو باختصار، كما قالها ألقديس أغسطينوس: [إما في الكرمة أو في النار]

٧- إِنْ ثَبَتُّمْ فِيَّ وَثَبَتَ كلاَمِي فِيكُمْ تَطْلُبُونَ مَا تُرِيدُونَ فَيَكُونُ لَكُمْ.

هذا وعد مقدس ثابت كثبوت السماء من فوق والأرض من تحت؛ كحقيقة لا تحتاج إلا إلى تصديق وعد الله تصديقاً بسيطاً، كتصديق الطفل لوعد أبيه. هذا نطق الله بالحق، يلزم أن نختبره، بل يلزم أذ نحققه ونعيشه، أولاً بالثبوت القلبي وليس الثبوت بالفكر. والثبوت القلبي ينتشر في كل أعضاء الجسم والنفس والروح، فيخضع الكل بقتضى

[1] حسب النص اليوناني

صدق الوعد، لأن الله «قال فكان» (مز٣٣: ٩). نعم ويتحتم أن يكون!

وليلاحظ القارىء هنا، أنه لا يقول كما في الآية (٤): «وأنا فيكم»، بل: «ويثبت كلامي فيكم». هنا ثبوت «كلام المسيح» يعني ما قلناه من قبل، أي تصديق وعد المسيح في هذه الكلمات، بكل ما أوتينا من إرادة وفكر وقلب. أي أن ثبوت كلام المسيح فينا، يصير جزءاً من كياننا الذي نعيش به؛ حيث تصير الأذن ماهرة في سماع صوت المسيح من خلال الكلمات، أي تفرز «اللوغس» من جملة الكلام. «لماذا لا تفهمون كلامي لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولى (وصحتها كلمتي)» (٨: ٤٣)

القلب الصالح، صاحب الكنز الصالح، يعرف نبرة صوت المسيح، ويستخلصها من كل أصناف الأحاديث. فالمسيح يخاطبنا من وسط كل أحداث اليوم، ومن خلال كل ما نسمع، من جيد ورديء!!!

«تطلبون ما تريدون فيكون لكم»: واضح هنا أن الطلب سيكون حتماً من واقع كلام المسيح، سيكون صدى لإرادته. لأن كلام المسيح يصبح مادة نصنع منها كل ما نريده ونشتهيه، وخارجاً عن كلام المسيح لا نريد ولا نشتهي، وإلا نكون غير ثابتين في كلام المسيح حسب الوعد. هذا بالإضافة إلى أن الذي يثبت في المسيح والمسيح فيه، لا يعود يطلب شيئاً في المستقبل، لأنه لا يخشى المستقبل، بل هو محصور في حاضر الملكوت، ولا يتمنى ولا يشتهي إلا أن يبقى في ملكوته: «اطلبوا ملكوت الله وهذه كلها تزاد لكم» (لو١٢: ٣١). والذي ذاق هذا الكلام، يفهم كيف يطلب، وماذا يطلب، وكيف يستجاب إلى ما يطلب، بل ويفهم لماذا وعد المسيح وعداً ثابتاً وحيداً أنه لا بد يستجيب، لأن طلباتنا حينئذ تهمه، بل تكون موضع مسرته، لأنها تكمل عمله!!!

«ما تريدون»: وتعني الحرية المطلقة في الإرادة، وهي ليست مجازفة من المسيح، لأنه يعلم أن الذين ثبت فيهم كلامه وثبتوا فيه، تصبح إرادتهم الحرة حسب حرية البنين لا العبيد، والابن يطلب ما يسر الأب، لأن مشيئة الابن هى نفسها مشيئة الآب، وهي مشيئة صالحة.

يشرح القديس يوحنا مستوى هذه الحرية وسببها: «أيها الأحباء، إن لم تلمنا قلوبنا، فلنا ثقة من نحو الله، ومهما سألنا ننال منه، لأننا نحفظ وصاياه، ونعمل الأعمال المرضية أمامه» (ايو٣: ٢١-٢٢)

«فيكون لكم»: باللغة اليونانية تعني «يُصنع لكم» أو «يُعمل لكم». وكأن الطلبة ذات فمل تنفيذي. والسر هنا كائن في تماثل الإرادة والمسرة عند الطالب وعند المنفذ. بل يتمادى بولس الرسول، بصفته الغصن الممتاز الذي ضرب القياس المعلى في الأكثار والثبوت، فيقول: «والقادر أن يفعل فوق كل شيء، أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر»، وهو «سر القوة التي تعمل فينا»، وهى سر «القوة التي تعمل فينا»، وهي قوة مسرة ومحبة الله الأب التي يستودعها أولاده الذين أحبهم، لأنهم أحبوا ابنه يسوع المسيح.

فإذا نظرنا إلى الأغصان ككل، أي الكنيسة، فإنه بحسب قوة الله التي فيها من الداخل تكون قوتها من الخارج، وقوة الله العاملة في الكنيسة من الداخل، هي نتيجة ثبوت دائم في كلام المسيح، والتمسك به إلى المنتهى.

٨- بِهَذَا يَتَمَجَّدُ أَبِي أَنْ تَأْتُوا بِثَمَرٍ كَثِيرٍ فَتَكُونُونَ تلاَمِيذِي.

هذه الآية تحوي من الدسم السماوي ما يُشبع الروح. والمعنى عميق.

«بهذا»، بأي شيء؟ هذا الحرف البسيط يجر كل ما سبق. أي أنه بثبوتكم في، ثم بثبوتكم في كلامي، وبالتالي ثبوتي فيكم، الذي ينشىء بالضرورة استجابة صلواتكم وطلباتكم، كونها تتفق وإرادة الأب السماوي، هذا كله هو ما

يجره وراءه هذا الحرف «بهذا»، ثم يلحمه فيما هو آت من الكلام: «أن تاتوا بثمر كثير» كنتيجة مباشرة لاستجابة الصلاة. ثم يضع المسيح الخاتمة التي تكشف سر الكلام بأكمله: «فتكونون تلاميذي»، بمعنى أن الثمر الكثير الذي سيتحصل من طلباتكم ، هو هو نفس الثمر الذي ماتت حبة الحنطة لتأتي به: «ولكن إن ماتت، تأتي بثمركثير.» (يو١٢:٢٤)

وهنا يكشف في الحال أن عمل التلاميذ أو المؤمنين على ممر الدهور هو تكميل لعمل المسيح، وبالتالى: «تكونون تلاميذي»؛ «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم.» (مت٢٨:١٩)

هنا يتضح المعنى المتسع للتلمذة للمسيح. فالمسيحية تلمذة، الإيمان تسليم، والثمر هو برهان صدق التلميذ الذي حل النير والرسالة. الكرمة كلها فروع مثمرة، الكنيسة كلها تسبح بفم واحد، وتعطي الكرامة والسجود والمجد الدائم لمن أحبها وفداها بدم ابنه الحبيب.

«**يتمجد أبي**»: نعم، إن كان ثبوتنا في المسيح وثبوت المسيح بالتالي فينا ينشىء ثماراً على مستوى التلمذة للمسيح، أي لخدمة الملكوت واستعلانه، وربح النفوس لحسابه، الذي هو منتهى الثمر وأفخره، فهذا حتماً وبالضرورة يمجد الآب السماوي ويفرح قلب المسيح: «نائلين غاية إيمانكم خلاص النفوس» (ابط١:٩)، «لكي يروا أعمالكم الحسنة، ويمجدوا أباكم الذي في السموات.» (١٦:٥)

والأن، نلخص الكلام، ليظهر منه قانون العلاقة التي تربطنا بالمسيح والآب السماوي. فعلاقتنا الوثيقة بالمسيح والإنجيل وتمسكنا الشديد بمواعيده تجعلنا نثمر. وإثمارنا على مستوى المسيح، هو أساس علاقتنا بالآب السماوي، وهذا هو غاية إيماننا وحياتنا.

ولكي تبقى «كلمة السر» في كل هذه الآيات، وهي الثبوت، فليتنا نلقي عليها نظرة أخيرة: ان نثبت في المسيح، هو أن يصير المسيح حقيقة حياتنا التي نعش فيهاه بل نعيش من أجلها، بل نعيشها. أن يثبت كلام المسيح فينا، هو أن يصير كلام المسيح، كل كلام المسيح، حقيقة نأخذها كما هي، نصدقها كما هي، نعيشها كما هي، آية آية، كلمة كلمة، وعداً بوعد.

٩- كَمَا أَحَبَّنِي الآبُ كَذَلِكَ أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا. اُثْبُتُوا فِي مَحَبَّتِي.

هنا شر التحام الغصن في الكرمة. هنا الكشف عن مادة العصير التي تغذي الغصن وتنميه، هنا داعي الثبوت وقيمته. فالثبوت ممتد من الآب، وراجع إلى الآب من الابن، هنا النموذج الإلهي الأعظم الذي ينبثق منه المثيل، الغصن: «أنا الكرمة وأبي الكرام». سر الغصن الملتحم في الكرمة ممتد، ومنبثق من سر الكرمة الملتحمة بالآب. الآب يحب الابن، والحب سر الوحدة أو الوحدانية القائمة بالآب والابن. حب المسيح لنا هو سر الالتحام، سر الوحدة، التي جاء الابن ليؤسسها مع بني الانسان لحساب الله: «أنا فيهم، وأنت في، ليكونوا مكملين إلى واحد» (يو١٧:٢٣). هكذا صار الغصن في متناول الكرام العظيم المخوف غير المنظور، هكذا صرنا تحت تهذيب وتنقية الآب، وبذلك قربنا هو إليه، ورفعنا إلى مستوى البنين، بل الأحباء: «لكني قد سميتكم أحباء، لأني اعلمتكم بكل ما سمعته (العصارة) من أبي.» (يو١٥:١٥)

لا ينبغي هنا أن نخطى، فنفهم كلمة «أعلمتكم» أنها تهذيب فكر أو زيادة معرفة، بل هي توصيل أسرار الآب التي يعيشها الابن. معرفة الآب ليست ثقافة فكرية ولا فهماً لاهوتياً، بل هي أخذ، هي قبول، هي امتلاك، «اقبلوا الروح القدس» (يو٢٠:٢٢)، فهي معرفة على مستوى التعرف على الله أبينا وأبي ربنا يسوع المسيح. والذي يتعرف على

أبيه الجديد (الابن الضال حينما عاد) يتعرف عليه بالأحضان وليس على مستوى الفكر اللاهوتي على بعد!! وحب الآب للابن أعطاه المسيح لنا: « ... ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، واكون أنا فيهم» (يو١٧: ٢٦). محبة المسيح والآب هنا هي محبة فائقة على المعرفة الطبيعية التي للانسان، لا يستطيع العقل أن يبلغ مداها أو يحيط بها، هو يعيش فيها فقط ويتنعم، ولكن لا يفلسفها بالفكر أو بتعظم: «وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أف٣: ١٩). معرفة المحبة بالوعي المسيحي العالي تملأ الإنسان بلا كيل، تملأه بملء أسرار الابوة الحانية المترفقة، فلا نصير بعد غرباء عن الله: «لأن به لنا كلينا (اليهود المتنصرين والأمم)، قدوما، في روح واحد، إل الآب. فلستم، إذاً بعد غرباء ونزلاء، بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله.» (أف٢: ١٨-١٩)

«كما أحبني الآب، كذلك أحببتكم أنا»: المسيح يوضح نوع ومستوى المحبة التي أحبنا بها، فهي محبة آب لابن. المسيح تبنانا بالحب لحساب أبيه، ليضمنا معه في بنوته الرفيعة القدر والمجد: «انظروا أية محبة أعطانا الآب، حتى نُدعى أولاد الله» (ايو٣: ١). الآن، ولو أننا أولاد الله بالحق، ولكن لا نستطيع أن نرى أنفسنا على مستوى هذه البنوة العالية، بسبب نقص الرؤية، وبسبب أعمال العبيد التي لا زلنا مرتبكين فيها: «أيها الأحباء، الآن نحن أولاد الله، ولم يظهر بعد ماذا سنكون، ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله، لأننا سنراه كما هو.» (ايو٣: ٢)

ولكن حينما ينتهي دهر هذا العالم، سواء بالانتقال أو بالنهاية الأخيرة، ويُستعلن المسيح، حينئذ سنراه كما هو، كما عرفناه تماما، الابن الوحيد في حضن الأب. ولكن العجب أننا سنستعلن أنفسنا في نوره، فنرى أنفسنا فيه في نفس بنوته: «نكون مثله»، ملتحفين بها كامتياز بالنعمة، التي تقيمنا أمام الآب بلا لوم في نفس هذه المحبة.

«أثبتوا في محبتي»: لقد حق له أن يشجعنا ويلح في دعوته، فالثمن الذي ندفعه ثمناً لثبوتنا لا يمكن أن يتوازى مع الغاية والنهاية التي تكلمنا عنها. أن نثبت في محبة المسيح، فهذا يعني أن نصير أحباء، نصير أبناء، نتحد معه، نرث من مخصصاته كابن الله، نصير محبوبين لدى الآب، نتراءى أمام اللهه في ظل محبته، بل في نورها، كأبناء ولا نعود ندعى عبيداً، وينتهي منا زمن الحزن والكأبة والتنهد، وتبطل عداوة العالم الذي يغرينا بأباطيله، ليحرمنا من حقنا وحياتنا الأبدية.

أن نثبت في محبة المسيح، فهذا لا يزيد عن كوننا نصدق دعوته هذه ونقبلها في داخل أنفسنا، ونتبادل معها حباً بحب، وهي هي نفسها التي تزيدنا ثبوتاً فيه. فوصية المسيح تحمل قوتها سرا في داخلها، والذي ينفذها يكتشف أن الوصية تحمل سر تنفيذها، وتكشف معناها للجاهل أكثر مما تكشفه للعالم، وللطفل الذي يتهجى الكلمات أعظم من الفيلسوف صاحب الاسم والدرجات. فوصية المسيح تؤخذ ولا تُدرس، وتُقبل ولا تُفحص، فإذا أُخذت وقُبلت كما هي، فهي تكشف أعماقها لصاحبها وتشرح أسرارها لمنفذها.

والذي يشرح الوصية ويفسر معناها، دون أن يختبرها أو ينفذها، فهو كمن يصور الماء على الحائط للعطشان، ويقول إن هذا هو الماء؛ هذا يقوله القديس مار إسحق.

إذاً حق للمسيح أن يُلح علينا أن نثبت في محبته؛ فهذا هو الباب، وهذا هو الطريق.

١٠- إِنْ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ فِي مَحَبَّتِي كَمَا أَنِّي أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي وَأَثْبُتُ فِي مَحَبَّتِهِ.

«إِنْ حَفِظْتُمْ»: الكلمة اليونانية تحمل معنى أكثر من الحفظ. فهي تعني الملاحظة الشديدة الدقيقة، وتعني السهر الدائم على الشيء، والحراسة الدائمة، والاعتناء والانتباه نحو الشيء.

وهل يمكن أن يتم هذا الاهتمام بالوصية بهذا القدر، إذا لم تدخل حيز التفيذ الفعلي؟ الأمر هنا يتعدى محيط الفهم، والاستذكار، والهذيذ، والتأمل؛ ليدخل دائرة الفعل الجاد المتشبث بالوعد.

المسيح يعطي نموذجاً للفهم الصحيح لكلمة «حفظ» بما أجراه هو بنفسه من جهة «وصايا أبي». فما هي «وصايا» الأب التي أعطاها له الآب والتي حفظها الابن؟

عندنا صورة طبق الأصل من هذه الوصايا جميعها، محفوظة في محفوظات دار النبوة، في خزانة العهد القديم. نقدم للقارىء صورة منها للحفظ والوعي.

أولا: تسلم إشعياء النبي صورة من هذه الوصايا حوالى سنة ٧٠٠ ق. م. ليعلنها مسبقاً، وهي التي كان قد تسلمها الابن من الآب منذ الأزل وقد جاء في هذه الوصايا:

١- أن يأخذ الابن منظر الإنسانية التي فسدت وصورة الإنسان على مستوق بني آدم، بلا صورة حسنة ولا جمال إطلاقاً: «اكان منظره كذا مفسداً أكثر من الرجل، وصورته أكثر من بني آدم» (إش٥٢: ١٤). ليس في الشكل طبعاً ولكن في التنازلات بالكرامة. «لا صورة له ولا جمال، فننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه.» (إش٥٣: ٢)

٢- أن يحتمل الابن احتقار الناس وخذلانهم له، واتهاماتهم الموجعة، ويختبر الأحزان المرة، وأن لا يهتم الناس برؤيته، ولا يعتد به أحد من الناس: «محتقر ومخذول من الناس، رجل أوجاع، ومختبر الحزن وكمستر عنه وجوهنا، مُحتقر فلم نعتد به.» (إش٥٣: ٣)

٣- يضربه الناس، ويُذل ويُجرح ويُسحق ويُؤدب (بالسياط) ويسيل دمه. دون أن يكون مستحقاً لشيء من هذا: «لكن أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها، ونحن حسبناه مُصاباً، مضروباً من الله ومذلولاً، وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا، تأديب سلامنا عليه، وبحبره شُفينا.» (إش٥٣: ٤-٥)

٤- يتحمل الابن إثم جميع بني البشر، ويُظلم، ويتذلل لظالميه، ولا يحتج أو يفتح فمه، إلى أن يوارى في القبر: «الرب وضع عليه إثم جميعنا. ظُلم، أما هو فتذلل، ولم يفتح فاه ... من الضغطة ومن الدينونة (المحكمة) أخذ، وفي جيله من كان يظن أنه قُطع من أرض الأحياء: [«يسوع الناصري الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب، كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت، وصلبوه، ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل. ولكن مع هذا كله اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك» (لو٢٤: ١٩-٢١)] ... وجُعل مع الأشرار قبره.» (إش٥٣: ٦-٩)

وختم إشعياء النبي على صدق هذه الصورة التى تسلمها بالروح بالوحي، الى هى نص الوصايا التى أعطاها الآب للابن، وقبل الابن تنفيذها، حفظها حفظاً، وعاش لتنفيذها، ومات لتكميلها: «قد أُكمل.» (يو١٩: ٣٠)

ثانيا: وقد كشف الله عن عيني عقل بولس الرسول، ليرى شخصية المسيح على حقيقته قبل التجسد وبعده، أى بعدما أطاع وصايا الآب، ونفذها بالحرف الواحد هكذا: «فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضاً (أي «إن حفظتم وصاياي ... كما حفظت أنا وصايا أبي»)، الذي إذ كان في صورة اللع لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس، وإذ وُجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب.» (في٢: ٥-٨)

هنا بولس الرسول يطلب أن يكون لنا فكر المسيح من جهة حفظ وصايا الآب عملياً. وبولس الرسول نفسه حفظ وصايا المسيح بجدارة، لا عن ظهر قلب بل على ظهره، ٤٠ جلدة إلا واحدة خمس مرات وتحت حد السيف: «في

الأتعاب أكثر، في الضربات أوفر، في السجون أكثر، في الميتات مراراً كثيرة، من اليهود خمس مرات قبلت أربعين جلدة إلا واحدة، ثلاث مرات ضُربت بالعصي. مرة رُجمت. ثلاث مرات انكسرت بي السفينة، ليلاً ونهاراً قضيت في العمق (أي عمق البحر)، بأسفار مراراً كثيرة، بأخطار سيول، بأخطار لصوص، بأخطار من جنسي، بأخطار من الأمم، بأخطار في المدينة، بأخطار في البرية، بأخطار في البحر، بأخطار من إخوة كذبة.» (٢كو ١١:٢٣-٢٦)

ولكن ليس كل تلميذ ولا كل رسول كان مثل بولس، لأنه هو نفسه يقول مقارناً نفسه بجميع الرسل هكذا: أهم خدام المسيح؟ أقول كمختل العقل، فأنا أفضل، في الأتعاب أكثر.» (٢كو ١١:٢٣)

وبذلك يقدم لنا الإنجيل، في بولس الرسول، نموذجا أعلى للغصن الذي ثبت في المسيح، وحفظ وصاياه، تحت أسوأ ظروف قابلها رسول أو أي مؤمن أخر، حيث يظهر حفظه وتمسكه بوصايا المسيح متعادلاً مع «الثمر الكثير» الذي مجد به الآب. وبولس الرسول، في النهاية، يوضح هذه المعادلة بقوله: «وقت إنحلالى قد حضر، قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان، وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر الذي يهبه لي، في ذلك اليوم، الرب الديان العادل. وليس لي فقط، بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً.» (٢تي ٤:٦-٨)

هكذا، وعلى هذا القياس، يدعونا المسيح أن نكون مثله، وأن لا نستثقل وصاياه، لأنه كما قلنا نقول أيضاً، إن وصية المسيح تحمل قوة تنفيذها في طاعتها، كما أن وصيته تؤخذ ولا تُفحص، وهي هي نفسها تحمل لحسابنا الثمر المتكاثر الذي يمجد الآب.

«إن حفظتم وصاياي، تثبتون في محبتي»: علاقة حفظ الوصية بالثبوت في محبة المسيح، هي أن الثانية نتيجة حتمية للأولى، أي أننا إن كنا نريد أن نثبت في محبة الله ثبوتاً مستمراً ودائماً لا ينقطع، فلتكن الوصية بين عينينا، نحفظها كمقلة العين. ولا يمكن شرح ذلك شرحاً نظرياً، وإلا نكذب، فسر المحبة كائن وكامن في طاعة الوصية، كيف يكون ذلك؟ هدا يعرفه من ينقذ الوصية. الأمر يختص بخبرة عملية وليس فكرة نظرية، لأننا بصدد «سر المحبة» التي تفوق العقل والمعقول. اسمع هذا التقرير من فم المسيح: «الآب نفسه يحبكم، لأنكم قد أحببتموني» (يو ١٦:٢٧). فمن ذا الذى يستطيع أن يصف محبة الآب، أو يشرح ما هيتها؟ هى سر مطلق داخل سر محبة الابن، ومحبة الابن فى متناول يدنا، لأن الوصية هى المفتاح الذهبى لهذا الكنز السمائى.

١١ - كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا لِكَيْ يَثْبُتَ فَرَحِي فِيكُمْ وَيُكْمَلَ فَرَحُكُمْ.

«كلمتكم بهذا»: يكررها الرب م فى حديث الفراق هنا سبع مرات فى يو١٥:١١؛ ١٦:١ و٤ و٦ و٢٥ و٣٣؛ ١٤:٢٥. وهي طبق الأصل من المقولة نفسها في العهد القديم التي توكزت في سفر حزقيال: «أنا الرب تكلمت» (حز ٥:١٣ و١٥ و١٧؛ ٦:١٠؛ ١٧:٢١ و٢٤ وغيرها). وهكذا يتوازى أسلوب المسيح هنا مع رنة النبوة، لعله يوقظ عقول الذين يفتشون الكتب لكى يجدوا فيها الحياة الأبدية .

اثبتوا فيّ، ثم اثبتوا في كلامي، ثم اثبتوا في محبتي، ثم اثبتوا في فرحي. هذا تدرج عملي، يمر عليه كل من يمسك بالمسيح. والغصن يثبت في الكرمة، فيثبت سريان العصارة فيه، فيثبت فيه الثمر، وبالنهاية يثبت الفرح. والمعنى السري وراء هذا عميق للغاية.

الثبوت في المسيح يكون بالإيمان. وهو يؤدي إلى الثبوت في كلام المسيح، الذي يكون بالتصديق الكامل. وهذا يؤدي إل الثبوت في المحبة، وهذا يكون بانفتاح الوعي على شخص المسيح وقبوله كعريس حقيقي: «أما صديق العريس، الذي يقف ويسمعه، فيفرح فرحا من أجل صوت العرس. إذ فرحي هذا قد كمل» (يو٣:٢٩). وهذا يؤدي

إلى الثبوت في الفرح، الذي يكون هو بلوغ ثمرة الحب عملياً، وهو البذل. والقديس يوحنا يشرح هذا الملل عملياً في رسالته الأولى هكذا: «بهذا نعرف أننا قد عرفناه، إن حفظنا وصاياه. من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه، فهو كاذب، وليس الحق فيه، وأما من حفظ كلمته، فحقاً في هذا قد تكملت محبة الله. بهذا نعرف أننا فيه. من قال إنه ثابت فيه، ينبغي أنه كما سلك ذاك، هكذا يسلك هو أيضا.» (١يو٢:٣-٦)

«كلمتكم بهذا»: المسيح يكشف القصد والغاية من سر الكرمة، التي من خلال أوصافها شرح المسيح حتمية الثبوت فيه، وفي كلامه، وفي حبه، وفي فرحه. هذا على مستوى عملى جداً.

«يثبت فرحي فيكم»، «ويكمل فرحكم»: فرح المسيح غير فرح التلاميذ والمؤمنين عامة. فرح المسيح كلي وكامل: بينما فرح التلاميذ وكل مؤمن يحتاج إلى تكميل. فالأول ينسكب في القلب: «فيكم» والثاني يأخذ ليمتلء «يكمل».

فرح المسيح. في ذبيحته التي قدمها للآب عنا فقُبلت، لأنها كاملة ومقدسة.

فرحنا: هو في خدمة ذبيحة المسيح: هو أيضاً ذبيحة سواء بالبذل أوبالصلاة أو بالتسبيح، ولكن ذبائحنا كلها ناقصة، لذلك فرحنا غير كامل، ويحتاج دائماً إلى ذبيحة المسيح ليجبر نقصها، ويداوي عجزنا، ويحجز عنا عوامل إفساد العالم والذات، لتصير ذيحتنا كاملة فيه ومقبولة أمام الآب السماوي، ليكمل فرحنا. فرحنا يظل ناقصاً، إلى أن يحتضنه المسيح، ويغذيه بدم ذبيحة محبته. فأعظم فرح، وأصدق فرح، وأكمل فرح، هو فرح الخلاص.

والآن، منظر الكرمة بأغصانها المثمرة، ويد الكرام تقلم وتنقى، وتقطع، ويطرحه المسيح داخل وعينا المسيحي، لكي ينفتح على معنى الثبوت وخطورته، وحتمية الثمر والتنقية، ورعبة القطع والإلقاء في النار. والقصد النهائي هو تصوير الكنيسة، وهي جسده ونحن أعضاؤه من لحمه وعظامه، وعمل الأعضاء في خدمة الكرمة: «... لأجل تكميل القديسين، لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح، إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح ... صادقين في المحبة ننموا في كل شيء، إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح، الذي منه كل الجسد مركباً معاً، ومقترناً بمؤازرة كل مفصل، حسب عمل، على قياس كل جزء، يحصل نمو الجسد لبنيانه في المحبة.» (أف٤:١٢-١٦)

ونلاحظ العلاقة بين «تطلبون ما تريدون فيكون لكم»، وبين «أيثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم»، هذا اختبار يعرفه جيداً كل من دخل فيه، أن استجابة الصلاة هي إذن بالدخول في مجال الحب الإلهي، ومن ثم تذوق الفرح الذي لا يُنطق به ومجيد. وذلك لسببين: الأول، التخلص من ربقة وكثافة وضغطة العالم الحاضر؛ والثاني تذوق السمائيات التي فيها تنعم النفس بالنور والبهجة التي للسمائيين. لأن الفرح والبهجة هما طقس السمائيين:

+ «ومفديو الرب يرجعون، ويأتون إلى صهيون، بترنم وفرح أبدي على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم، ويهرب الحزن والتنهد.» (إش٣٥:١٠)

+ «الشعب السالك في الظلمة، أبصر نوراً عظيماً. الجالسون في أرض ظلال الموت، أشرق عليهم نور. أكثرت الأمة، عظمت لها الفرح، يفرحون أمامك كالفرح في الحصاد، كالذين يبتهجون عندما يقتسمون غنيمة.» (إش٩:٢-٣)

+ «لأنكم بفرح تخرجون، وبسلام تحضرون. الجبال والآكام تشيد أمامكم ترنماً، وكل شجر الحقل تصفق بالأيادي.» (إش٥٥:١٢)

+ «بل افرحوا وابتهجوا، إلى الأبد، في ما أنا خالق، لأني ها أنذا خالق أورشليم بهجة وشعبها فرحا، فأبتهج بأورشليم وأفرح بشعبي، ولا يُسمع بعد فيها صوت بكاء ولا صوت صراخ.«(إش٦٥:١٨-١٩)

+ «ترنمي يا ابنة صهيون، اهتفى يا إسرائيل، افرحي وابتهجي بكل قلبك يا ابنة أورشليم... الرب إلهك في وسطك جبار. يخلص. يبتهج بك فرحا، يسكت في محبته. يبتهج بك بترنم.» (صف٣:١٤-١٧)

والفرح عنصر خلاصي، لا يمكن أن يوجد إيمان حقيقي بدونه، ولا رجاء يُعرف بدون فرح، ولا روح قدس بدون فيض منه:

+ «وليملأكم إله الرجاء كل سرور(فرح) وسلام، في الإيمان، لتزدادوا في الرجاء، بقوة الروح القدس. (رو١٥:١٣)

هذا الاختبار عاشه أباء الجيل الآول بملء زخمه الروحي السمائي:

+ «وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت (الإفخارستيا)، كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب.» (أع٢:٤٦)

وينبغي أن نلاحظ المعنى الخفي في قوله: «يثبت فرحي فيكم، ويكمل فرحكم»، لأن المسيح يطلب دائماً أن كل ما فيه من حق وحياة، هكذا ينتقل إلى المؤمنين به. وهذا هو السر الأساسي في إلحاح الرب على الثبوت فيه، حتى يتم انتقال كل ما له إلينا. كذلك إلحاجه الى الثبوت في كلامه، حتى ينتقل كل حق وروح وحياة في كلامه إلى أعماقنا، وكذلك الثبوت في محبته، حتى تنتقل محبة الآب له إلينا.

١٢- «هَذِهِ هِيَ وَصِيَّتِي أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ.

يلاحظ أن قيمة المحبة عند المسيح لها القدر المعلى، ليس كأنها وصية محددة، بقدر ما هي روح كل الوصايا. فهي تشمل كل الوصايا، ثم تتركز وكأنها وصية واحدة، لأنها فريدة في معناها ومبناها. وأساس قيمة المحبة عند المسيح، أن رسالته قائمة عليها وبها. فأصل الرسالة هكذا: «هكذا أحب الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد...» (يو٣:١٦). فـ «محبة الآب للعالم» حملها المسيح معه إلى العالم، لتتضمن روح كل تعاليمه ووصاياه، التي كان القصد الأساسي منها أن يشرح و يكشف و يستعلن للعالم «محبة الله الآب» له، ثم لكي تأتي ذبيحة المسيح على الصليب لتعبر عن أعظم وأقوى تعبير عن «محبة الآب للعالم» التي أعلنها المسيح على الصليب واستعلنها في قيامته؛ لأن القيامة من الأموات أظهرت بوضوح أن المسيح مات بإرادته، متحملاً كل ما يحمله الموت من عناء وألم وظلم ومرارة وهوان، إمعاناً في الإعلان العملي الفعال عن محبة الأب، لإن موت المسيح على الصليب أنشأ فداء وخلاصا وبرا وفرحاً وسلاماً للعالم. وهكذا تكشفت محبة الآب عن ثمار غاية في الهناء للعالم المظلوم المتألم، تحت عبودية الخطية والشيطان.

من هنا جاءت وصية المسيح بالمحبة، لأن محبة الأب التي أتى بها المسيح لا تسكن ولا تعمل إلا في قلوب لها هذه الصفة عينها. فالمحبة الإلهية لا تعمل إلا في مجال المحبة. وبمعنى أكثر خطورة، يكون الصليب، وهو الذبيحة المتضمنة محبة الآب، لا يعمل إلا في القلوب التي أحبت.

من هنا جاء أيضاً إلحاح القديس يوحنا على المحبة، باعتبارها الرحم الجديد الذي يولد منه الإنسان لله: «كل من يحب، فقد وُلِد من الله» (ايو٤:٧). لماذا؟ لأن الذي انفتح قلبه على المحبة، يقبل عمل ذبيحة الصليب الفدايى، الذي هو أساس ميلاد الخليقة الجديدة.

فالصليب، هو هو حب الآب عملياً لفدائنا من الموت، ولولادتنا للحياة الأبدية، ولتبنينا لنفسه:

+ «بهذا أُظهرت محبة الله فينا، أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم، لكي نحيا به.»(١يو٤:٩)

«هذه هي وصيتي أن تحبوا...»: تظهر المحبة هنا أنها «وصية» المسيح، ويلزم أن نتذكر أن المسيح يتكلم من موقف الفراق، فهو حديث الوداع، أي حديث من يستودع «وصايا» لتلاميذه.

وصيغة الجملة هنا باليونانية شرطية، في المضارع الدائم، وترجمتها الحرفية: «حتى تكونوا محبين»، وهذا التصريف في الجملة يفيد الديمومة في المستقبل، فهذه وصية المسيح للكنيسة كلها على مدى الدهور.

والمحبة التي يستودعها المسيح لتلاميذه، كوصيته الأخيرة، تظهرها كأنها وصية مفردة، ولكن هذا يأتي بنوع من التركيز الشديد على المحبة، فالمحبة تسود على كل الوصايا، وقد عبر المسيح عن ذلك بقوله: «إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي» (يو١٤:١٥)، «الذي عنده وصاياي وحفظها، فهو الذي يحبني» (يو١٤:٢١)، وذلك في مقابل وصية المحبة كمفرد: «هذه هي وصيتي أن تحبوا...»؛ «وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً» (يو١٣:٣٤). والتبادل بين الجمع (وصايا)، والمفرد (وصية)، فيما يخص وصية المحبة، نراه بالمقابل نفس التبادل بين الثبوت في «الكلمة» كمفرد[1] «إن كان أحد يحفظ كلامي (كلمتى) فلن يرى الموت إلى الأبد» (يو٨:٥١)، «إن أحبي أحد يحفظ كلامي (كلمتى)»؛ والثبوت في «الكلام» كجمع[2]: «الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلام الذي تسمعونه ليس لى، بل للأب الذي أرسلي» (يو١٤:٢٤)، كذلك «الكلام» كجمع: «إن ثبتم فّي وثبت كلامي فيكم...» (يو١٥:٧)

والقديس يوحنا لمح في كلام المسيح هذا الانتقال بين المفرد والجمع بالنسبة لوصية المحبة، فاقتبسها، ورددها في آيتين متلاحقتين هكذا: «وهذه هي وصيته، أن نؤمن باسم ابنه يسوع المسيح، ونحب بعضا بعضاً، كما أعطانا وصية» (ايو٣:٢٣)، «ومن يحفظ وصاياه، يثبت فيه، وهو فيه.» (ايو٣:٢٤)

فالمحبة وصية قائمة بذاتها، بالدرجة الاولى، ولكنها تجمع في ذاتها كل الوصايا: «المحبة التي هي رباط الكمال» (كو٤:١٤)، «لأن من أحب غيره، فقد أكمل الناموس.» (رو١٣:٨)

أما وصف المسيح لخطورة المحبة وامتدادها، فتشمل كل الكتاب: «فقال له يسوع: تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، هذه هي الوصية الاولى والعظمى؛ والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصتين، يتعلق الناموس كله (أسفار موسى الخمسة) والأنبياء!» (مت٢٢:٣٧-٤٠)

وينبغي أن لا يفوتنا تركيز المسيح على المحبة المتجهة نحو الآخرين، سواء لبعضنا البعض، أو حتى للأعداء، لأن عثرة إسرائيل الكبرى كانت احتكارها لمحبة الله وحبسها حبساً مطلقاً مؤبداً عن الأمم (الأنجاس في نظرهم). والمسيح جاء ليفك أسر محبة الله، التي احتكرتها إسرائيل لنفسها، وجعلها ترف على وجه الأرض كلها بلا مانع، تُحيي وتنعش النفوس. ولأول مرة يُسمع في الأرض كلها، أن إنساناً يمكن أن يحب عدوه! ليس دين من جميع الأديان على الأرض كلها، منذ أن خُلقت الآرض وخُلق الإنسان، قال بصيغة الأمر: «أحبوا أعدائكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغيضكم، صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم» (مت٥:١٤). لأن وصية المسيح هذه مستمدة من صليبه: «ونحن أعداء (مع الله)، قد صولحنا مع الله، بموت ابنه.» (رو٥:١٠)

إن وصية المسيح بمحبة الأعداء، ألقاها أمامنا كأمر أكثر منها وصية!! أما قوة تفيذها، فهو المتكفل بها، إن نحن عزمنا من كل القلب على تنفيذها، لأن المسيح لا يأمراً مراً من فراغ، بل هو يبني دستور وصاياه على أساس ما

---

[1] للأسف فالأمثلة هنا جاءت في ترجمتها باللغة العربية غير دقيقة، فهي في اليونانية بالمفرد «كلمة« وليس بالجمع «كلام«.

[2] الترجمة هنا صحيحة وهي الجمع.

عمل هو، وعلى أساس ما هو مستعد أن يعمل أيضاً، حتى يجعل لمحبة الآب عرشاً له في قلب العالم.

١٣- لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ.

الكلام هنا عميق للغاية. فليس معناه، كما يبدو لأول وهلة، مجرد تقييم عظمة المحبة بإمكانية أن يموت «أحد»، أي يضع نفسه لأجل أحبائه. ولكن المسيح هنا يشير إلى أن موته الذي ماته عن أحبائه، ينبغي أن يؤخذ على أنه غاية! فالمحبة مطالبة بأن يكون لها هدف وغاية، وهى إمكانية أن يضع الإنسان نفسه من أجل الآخرين.

فحرف الإشارة هنا: «هذا»، لا يعود على الحب، كأن يقال: «حب أعظم من هذا الحب»، ولكن «هذا» تعود عل «أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه». وبهذا يكون المعنى، أن الحب العظم هو الذي يكون هدفه أن يضع الإنسان نفسه لأجل أحبائه. وهذا ما فهمه القديس يوحنا وشرحه في رسالته الاولى: «بهذا قد عرفا المحبة، أذ ذاك وضع نفسه لأجلنا، فنحن ينبغي أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة.» (ايو٣:١٦)

«لأجل أحبائه»: المسيح لم يضع نفسه من أجل أحبائه (القديسين)، بل من أجل الخطاة، والذين هم في عداوة مع الله (هؤلاء هم أحباؤه): «ونحن أعداء (مع الله، قد صولحنا مع الله بموت ابنه» (رو٥:١٠). فالمعنى المقصود من «الأحباء»، هو أولئك الذين دعوا ليدركوا هذه المحبة. ولكي نفهم ذلك بسهولة، نضع القديس بولس مثلاً لذلك، حينما قال: «الذي أحبني، وأسلم نفسه لأجلي» (غل٢:٢٠)، مع أن المسيح مات من أجل شاول عدو الكنيسة ومضطهد المسيحيين والشاهد عل قتل إستفانوس! ولكن لما أدرك شاول حقيقة موت المسيح، تيقن أن المسيح مات من أجله، لأنه كان يحبه حتى وهو في وحل خطاياه وجرائمه!! فإذا أردنا أن نشرح المعنى أكثر، يكون هكذا: المسيح وضع ذاته من أجل أحبائه الخطاة والأثمة والمجرمين، وكل من تلوثت أيديهم وقلوبهم بالخطايا. هؤلاء هم أحباء يسوع.

أما إذا أردنا التطبيق، فيكون ذلك بحسب قول القديس يوحنا: «ينبغي أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة»؛ الخطاة والمنبوذين والذين ليس لهم من يحبهم أو يعطف عليهم!! بهذا، وبهذا وحده، يكون الغصن حقاً وبالحقيقة هو ابن الكرمة، والراضع من عصارتها!!

والأمر ليس بمستغرب، فأولئك المبشرون الاوربيون والأمريكان الذين بروح الحب بقلوبهم من نحو إخوتهم في البشرية من الأجناس الأخرى، جعلهم يتركون بيوتهم وعائلاتهم وحياتهم الهنية، ليذهبوا في مجاهل أفريقيا في القرن الثامن عشر ليبشروا أهلها الذين كانوا من آكلي لحوم البشر، وقد كان بالفعل من أُكل منهم بعد أن شوي لحمه بالنار!! ولم يجزع الفوج وراء الفوج، ولا ارتدوا إلى الوراء، حتى نجحوا وربحوا البلاد السوداء وجعلوا أهلها من أبناء النور.

هذا هو«الحب المسيحي» في مضمونه ومعناه وأهدافه: إنه حب ذبائحي، نار ألقيت على الأرض! ما لبثت أن أشعلت كل شعوب الأرض: «فكونوا متمثلين بالله، كأولاد أحباء، واسلكوا في المحبة، كما أحبنا المسيح أيضاً، وأسلم نفسه لأجلنا، قرباناً وذبيحة لله، رائحة طيبة» (أف٥:١-٢)

١٤- أَنْتُمْ أَحِبَّائِي إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أُوصِيكُمْ بِهِ.

«أحبائي»: المسيح هنا يسلم تلاميذه المخلصين لقب إبراهيم أب الآباء: «وتم الكتاب القائل: فآمن إبراهيم بالله، فحُسب له برا، ودعى خليل الله (يع٢:٢٣)، «إبراهيم حبيبى»، «وأما أنت يا إسرائيل عبدى، يا يعقوب الذى اخترته،

نسل إبراهيم خليلي (حبيبي)» (إش٤١:٨). وبالفعل قد كان، وصار أن الرسل أصبحوا هم آباء الكنيسة الأولى وأعمدتها!

المسيح هنا ينبه ذهن تلاميذه إلى وضعهم الممتاز بالنسبة له. لقد سبق وقال لهم: «أنا هو الكرمة وأنتم الأغصان»، والآن يفسرها «أنتم أحبائي». ولكن لكي يرفع هذه الدرجة إلى المستوى القانوني لكي تكون درجة لكل من يشاء، وضع لها الشرط الذى يعطيها هذه الكفاءة: «إن فعلتم ما أوصيكم به». وهنا يقصد ما سبق وأن أعطاه كوصية خاصة: «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضا كما أحببتكم» (يو١٥:١٢)؛ بمعنى أن التلاميذ طالما كانوا على الحب الإلهي قائمين، فهم أحباء المسيح. ولقد ظل التلاميذ أمناء على هذه الوصية بصورة واضحة للغاية، بعد صعود المسيح: «هؤلاء كلهم كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة والطلبة مع النساء، ومريم أم يسوع، ومع إخوته» (أع١:١٤). وما تخلوا قط عن وصية المسيح، وحبه، والأمانة له، حتى استودعوا أجسادهم قبور الاستشهاد.

١٥- لاَ أَعُودُ أُسَمِّيكُمْ عَبِيداً لأَنَّ الْعَبْدَ لاَ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ سَيِّدُهُ لَكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ لأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي.

نحن لا زلنا في الكرمة الحقيقية والأغصان التي اكتسبت صفة «الحقيقية» بالانتساب إلى الأصل، لم تعد بعد أغصان كرمة برية، بل كرمة غرسها الآب بيده، والأغصان نمت عليها، وصارت شريكة فى أصالتها السماوية، ووريثة لكل أثمارها الفاخرة، وأهمها الصليب.

الكرمة الاول التي نقلها من مصر، أتلفتها أيدي الكرامين الأردياء الأجراء، ولكي يرثوها اختطافاً، ذبحوا ابن الكرام الحقيقي، ظناً منهم أنها تؤول إليهم، لكن الكرام انتزعها من أيديهم. وعوض الصورة والرمز غرس الكرمة الحقيقية، التي جذورها في السماء، وأغصانها مست الأرض، وملأت كل ربوعها، لم تعد الأغصان تذكر عهد العبودية، بل صارت تنتمى إلى أصلها السماوي، لقد نالوا حق البنوة، فصاروا من جنس المحبوب الوحيد، أحباء كالأصل، ليس بنوع الإنعام الصوري أو الرمزي، ولكن من واقع الدم الإلهي الذي امتزج بالدم، واللحم باللحم، فالأغصان صارت من لحمه وعظامه، ليسوا عبيداً بعد، بل محبوبين في المحبوب: «الآب نفسه يحبكم، لأنكم أحببتموني.» (يو١٦:٢٧)

« أحباء، لأني أعلمتكم»: مصدر الحب المنسكب عليهم هو «استعلان الآب لهم». ليس كأنه معرفة فكر أو اكتساب معلومات، بل هو قبول حقيقة، فالاستعلان الذي أكمله المسيح الابن لتلاميذه بالنسبة للآب هو استعلان الكنه والكيان، استعلان «أنا هو الكائن بذاتي»، «الله لم يره أحد قط» (يو١:١٨) ولكن الابن رآه ويعرفه، لأنه هو الابن الوحيد الكائن في حضنه الآبوى، هو الكائن في الآب، والآب كائن فيه، لقد استعلن المسيح الآب لتلاميذه، بأن كشف لهم حقيقة ذاته، والابن والآب واحد في الكيان والذات، فلما رأوا الابن، رأوا الآب؛ فلما استعلن لهم حبه، استعلن لهم حب الآب، وكل علم وعمل علمه لهم وقاله أمامهم، كان هو الآب الذي عرفوه وسمعوه ورآوه، ولما أسلمهم ذاته سلمهم الآب الذي فيه.

كان موسى خادماً في بيت الله، أميناً حقاً، ولكنه كان خادماً هو وكل إسرائيل من بعده؛ إلى أن جاء الابن الوريث، فصار البيت في يد صاحبه. موسى كخادم، بنى بيت الله من جلود معزى وخشب، وقدم فيها الذبيحة غنماً وبقراً، أما الابن فأا الأبن فأقام بيت الله من جسده: «انقضوا هذا الهيكل، وفي ثلاة أيام أقيمه... أما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يو٢:١٩-٢١)، ثم رفع الحجاب الثقيل عن أعيننا، فرأينا، واذا بنا نحن جسده، أهل بيته: «خذوا كلوا هذا

هو جسدي!» (٢٦:٢٦)

لقد انتهى عهد العبيد، بانتهاء الناموس والخيمة والذبيحة من تيوس وعجول؛ والكهنة الاجراء. وجاء عهد الآب والابن المذبوح، وشرب الإنسان واغتسل، وبيض ثيابه في دم الحمل، بدعوة من الأب.

وهكذا رُفع اسم الإنسان وقدره من رتبة العبيد، خادمي دم تيوس وعجول، إلى أبناء وأحباء متناولى دم ابن الله، حينما شربوا فيه روحه الأزلى، الذي جدد خلقتهم الاولى، فصاروا على شكل خالقهم في القداسة والحق.

هذا هو علم الآب واستعلانه، الذي قاله المسيح لهم في حديث الفراق المعزى: «لأني أعلمتكم كل ما سمعته من أبى»، «والسامعون يحيون» (يو٥:٢٥)، «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧:٣)

وليلاحظ القارئ أن المسيح قال لهم هذا الكلام (يو١٥:١٥)، بعد أن أقام فصحه الأزلى بإفخارستية العشاء الأخير، وسلمهم كأس دمه فشربوه، وقسم لهم جسده وأكلوه.

١٦- لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ لِكَيْ يُعْطِيَكُمُ الآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِاسْمِي.

الله هو صاحب المبادرة في كل ما يمت إلى الإنسان من الخيرات السماوية.

وحينما قال المسيح لتلاميذه: «أنتم أحبائي ...، لا أعود أسميكم عبيداً»، فهو هنا يوضح أنه هو ابن الله صاحب مبادرة تقريبهم إلى نفسه والآب، وبالتالي صاحب مسئولية دعوتهم العظمى هذه. إنه الأن يوثق دعوتهم واختيارهم، ليرفع عنهم صعوبة مسئولية المهمة الخطيرة وثقلها، خاصة حينما يتلفتون فلا يجدونه أمامهم، إلى حين!، وفي الأصول الدنيوية يختار التلميذ معلمه الذي يتلقى على يديه المعرفة، والتلميذ هو الذي يرفع معلمه إلى مواضع التكريم والتجلة. ولكن المسيح يقلب موازين العالم، لأنه هو الإله المعلم الذي يختار من يعلمهم، ومن يرفعهم من الرتبة الدنيا إلى ذات مرتبة معلمهم في الكرامة والمجد: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد.» (يو١٧:٢٢)

«والاختبار» هنا متعلق صميمياً بكلمة «لتذهبوا». هنا دعوته لهم كأحباه هي ذات هدف ورسالة وليست مسألة محبة شخصية أو عواطف تبيت في الصدور، بل لاختيار الرسولية والخدمة وتمثيل الكنيسة في العالم، لأن حبه لهم هو لتكميل حب أبيه للعالم! أما كلمة «يدوم ثمركم»، فهذا تشهد عليه الكنيسة حتى اليوم، ونشاهده في كل أنحاء العالم، فثمر الرسولية لا يزال حياً جديداً مجدداً.

وينبغي أن نلاحظ أن المسيح حمل بالفعل ثقل الرسولية مع الرسل، وحقق بالفعل مسئوليته في اختيارهم «ليذهبوا». فقد عضدهم بقوة فائقة، حتى حطموا أعتى إمبراطورية للوثنية، والتي كانت قد ملكت العالم فكرا وثقافة وسلطانا وجبروتا وضلالا!

لذلك، أية توة وأية شجاعة وأي اقتحام يملكه الذين لم يختاروا لأنفسهم أن «يذهبوا»، بل كان اختيارهم من عنده، «كما هرون أيضاً» (عب٥:٤)!!

ويلاحظ مدى تحمل المسيح لمسئولية الإرسالية في قوله: «أقمتكم لتذهبوا، وتأتوا بثمر، ويدوم ثمركم». فهو المتكفل بعد اختيارهم بكيف وأين يذهبون، ثم كيف وكم يأتون بالثمر، ثم إلى متى يدوم ثمرهم!!

وليس ذلك فقط، بل هو المتكفل بكيف يعطيهم الآب كل ما يطلبون (باسمه)، سواء فيما يخصهم شخصياً أو يخص مخاطر ذهابهم، أو جمع ثمارهم، أو تثبيت ثمارهم. وهكذا تلتحم الصلاة المستجابة، بالطاعة، مع الثمر المتكاثر!!

«لتذهبوا»: هنا إشارة واضحة أنهم هم الذين سيبدأون بالذهاب، أى يتركون الالتصاق ببعضهم ويمعلمهم، لينطلق كل في طريقه. وهي إشارة توقيت لبدء رحلة الكنيسة عبر العالم.

«ثم خرج نحو الساعة الثالثة (ساعة حلول الروح القدس)، ورأى آخرين قياماً في السوق بطالين، فقال لهم: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم، فاعطيكم كما يحق لكم، فمضوا» (مت٢٠:٣-٤)؛ «وقال لهم: اذهبوا إلى العالم أجمع، وأكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (مر١٦:١٥). لقد أطاع الرسل الأمر، وانفصلوا عن معلمهم بالجسد، ليتحدوا معاً وبه بالروح إلى الأبد، ليسلموا العالم مسيح الملكوت، لا مسيح التاريخ، ومسلسل رسوليتهم، كما هو، من وضع يد معلمهم ونفخة فمه!!

«يعطيكم الآب كل ما طلبتم باسمي»: الأن يطمئن المسيح أنه سلمهم العلاقة المباشرة بالآب!! لقد استعلن لهم الآب في نفسه، واستعلن لهم كل ما عند الآب، بكل ما قاله وعمله. فالآن، عليهم أن يتجهوا مباشرة للآب، ليطلبوا كل ما يشاءوا، حيث «اسم» المسيح هو ضمان الاستجابة الأكيد، إذ يتدخل في الحال، ودمه على يديه، لتصبح كل صلاة وكل طلبة، ملتحمة بصوت دمه: «أتيتم ... إلى وسيط العهد الجديد، يسوع، وإلى دم رش، يتكلم أفضل من هابيل.» (عب١٢:٢٤)

وهنا يلزم أن ننبه، أن الصلاة في أصولها تقدم للآب باسم يسوع المسيح، في الروح القدس. وأي إغفال للآب، يخل بأصول الصلاة والعبادة. فالمسيح أكمل رسالته، بأن سلمنا ليد الآب، أما هو فيبقي وسيطاً ضامناً للعهد. وعلينا أن ننتبه جداً لقوله: «في ذلك اليوم تطلبون باسمي، ولست أقول لكم إني أنا أسال الآب من أجلكم، لأن الآب نفسه يحبكم، لأنكم قد أحببتموني، وآمنتم أني من عند الله خرجت.» (يو١٦:٢٦-٢٧)

القسم الثانى

التلاميذ، ثم الكنيسة، في مواجهة العالم: (يو١٥:١٨-٢٧)

* اختلاف الطبائع، هو الذي سيحتم المواجهة.
* ويغذي الاختلاف: الجهل بطبيعة الآب والابن.
* ولكن العالم ليس له عذر في هذه العداوة، لأن حقيقة المسيح مُعلنة عملياً وبشهود.
* وعلى التلاميذ أن يكملوا الصراع الذي بدأه العالم مع المسيح. ولكن الروح القدس، سيقدم المعونة والشهادة في وقتها.

المحبة المسيحية، تولد في العالم المعاكس بغضة:

١٧- بِهَذَا أُوصِيكُمْ حَتَّى تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً.

١٨- إِنْ كَانَ الْعَالَمُ يُبْغِضُكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ أَبْغَضَنِي قَبْلَكُمْ.

وأول مواجهة كشفت عن صدق إنذار المسيح بعد بدء الكرازة هي هكذا: «ودعوا الرسل، وجلدوهم، وأوصوهم أن لا يتكلموا باسم يسوع، ثم أطلقوهم. وأما هم، فذهبوا فرحين من أمام المجمع، لأنهم حُسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل اسمه.» (أع٥:٤٠-٤١)

الصراع هنا بين الإيمان الثابت في محبة المسيح، وبين عدم الايمان الثابت في محبة العالم، هو صراع بين محبة النور ومحبة الظلمة؛ بين معرفة الله الآب وابنه يسوع المسيح وبين الجهل بالأب والابن معاً؛ بين أبناء الله وأبناء هذا الدهر. القديس يوحنا يتكلم هنا عن هذا، كمختبر، في رسالته الاولى: «انظروا أية محبة أعطانا الآب، حتى ندعى أولاد الله. من أجل هذا لا يعرفنا العالم، لأنه لا يعرفه» (١يو٣:١)

واضطهاد العالم وبغضته لتلاميذ الرب ومؤمنيه الأتقياء المخلصين، يبدو دائماً ومنذ أول يوم، غريبا جداً في أعين متقيه!: «أيها الأحباء، لا تستغربوا البتلوى المحرقة (المشتعلة أو النارية) التي بينكم حادثة، لأجل إمتحانكم، كأنه أصابكم أمر غريب، بل كما اشتركتم في آلام المسيح، افرحوا، لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مبتهجين. إن عُيرتم باسم المسيح، فطوبى لكم، لأن روح المجد والله يحل عليكم. أما من جهتهم، فيجدف عليه، وأما من جهتكم فيمتجد. فلا يتألم أحدكم كقاتل أو سارق أو فاعل شر أو متداخل في أمورغير، ولكن إن كان كمسيحي (يتألم)، فلا يخجل، بل يمجد الله من هذا القبيل ... فإذا الذين يتألمون بحسب مشيئة الله، فليستودعوا أنفسهم كما لخالق أمين في عمل الخير.» (ابط٤:١٢-١٩)

وهكذا ظهر بوضوح أن المحبة وصية أولى وعظمى، ركز عليها المسيح قبل الفراق هنا، ولآخر مرة، لأنها الدرع الوحيد لمواجهة صدام العالم. فمحبة التلاميذ للمسيح، وثبوتهم فيه، ثم محبتهم نحو بعضهم البعض، وقفت تصد عنهم عنف بغضة العالم للمسيح ولهم. وواضح للغاية، أن بغضة العالم واضطهاده كانا موجهين ضد فضائل المسيحيين وليس لأخطائهم وعيوبهم وتعدياتهم. وهذا الموقف يذكرنا بشي من التطابق بين موقف الفريسيين والأعمى الذي فتح عينيه المسيح، المتهم بأنه فتح عينيه في سبت. فـ «العالم»» هنا هو في موقف الفريسيين تماماً في الأصحاح التاسع، والأعمى الذي فتح المسيح عينيه هم التلاميذ الذين دخلوا النور، والمسيح هو هو المتهم الأول الذي كسر القوانين المزعومة.

ومن تسلسل الآيات السالفة، يتضح كيف، وبحكمة إلهية بالغة الدقة والرتابة، أسس المسيح في التلاميذ أساس المحبة الثابت، ثم كشف بعد ذلك عن عنف المقاومة المضادة المزمعة أن تواجههم، حتى يحتملوها بجدارة. وكأنما يعد الكنيسة لتاريخها الطويل في جهادها ضد العالم.

«إن كان العالم يبغضكم، فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم»: «فاعلموا» تأتي هنا بصيغة الأمر. الرب يرفع ذهن التلاميذ على مستوى «اذكروا» التي جاءت موازية لها في الآية (٣٠) بعد ذلك. وهذه وتلك، ولكي ينفتح وعي التلاميذ لالتقاط صورة صحيحة لما أكمله العالم مع المسيح، تنطبعان على ذاكرتهم وذاكرة الكنيسة على الدوام، لتكوا للتلاميذ والكنيسة من بعدهم عوناً شديدا لاحتمال المصادمات المتكررة، والتي لن تنقطع.

فإن كان العالم قد أبغض المسيح واضطهده بشدة وبمرارة، فيلزم فهم السبب الكامن وراء هذه العداوة التي لا تعرف

التعقل. فالمسيح كان في العالم (على مستوى اليهود)، مصدر قلق ونكد ورعب وارتباك وخوف شديد. فقداسته فضحت فجورهم، ووداعته استفزت وحشيتهم، وتكريمه وتمجيده للآب هيج عداوتهم له وللآب، والحق الذي فيه جمعهم عل الكذب وتلفيق التهم : «إن كنت قد تكلمت ردياً، فاشهد على الردي، وإن حسناً، فلماذا تضربنى» (يو١٨:٢٣)

فالمسيح قد صار للتلاميذ النموذج الكامل، الذي يسند قلوبهم في وقت هياج العالم وسخطه، والذي يستمدون منه قوة على الاحتمال والصبر، بل والفرح في الضيق: «ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمله يسوع، الذي من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب مستهينا بالخزي، فجلس في يمين عرش الله. فتفكروا في الذي احتمل من الخطاة مقاومة لنفسه، مثل هذه، لئلا تكلوا وتخوروا في نفوسكم.» (عب١٢:٢-٣)

ويخاطب القديس أغطسينوس من تسول له نفسه أن يخور ويلقي السلاح هكذا: [إن أنت استعفيت من أن تحمل مع المسيح بغضة العالم، فأنت تعفي نفسك من أن تكون في الجسد].

أليس الغصن في الكرمة؟ والعضو يحمل ما يقع على الرأس في الجسد. فإذا كان العضو سيتمجد حتماً مع الرأس، فكيف لا يحمل معها هم المقاومة نصيبا بنصيب؟ إن احتمال ثقل التجاريه في العالم، مهما كان شكلها ومصدرها، لهو ختم لملكوت السموات، وعلامة صحة لالتحامه في الجسد وقربه من الرأس! فإن كان اتحادنا بالمسيح وحبه هو الذي يوقعنا تحت غضب العالم، فمرحباً!

١٩- لَوْ كُنْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ لَكَانَ الْعَالَمُ يُحِبُّ خَاصَّتَهُ.
وَلَكِنْ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ مِنَ الْعَالَمِ لِذَلِكَ يُبْغِضُكُمُ الْعَالَمُ.

العالم يغرم من يخرج من تحت نيره، بل ويناصبه العداء. إنها مهانة عظمى لرئيس هذا العالم أن يخرج من تحت يده إنسان يقف قبالته ليشهد ضده.

لقد تجمعت الشياطين، كما تجمع على المسيح بيلاطس وهيرودس وقيافا ويهوذا، على الفتى الغض أنطونيوس قديس براري ممر وهو ابن العشرين سنة وواجهوه بمهزأة: [يا صبي العمر والعقل، كيف تجاسرت ودخلت بلادنا (البواري القفرة التي ليس بها ماء)]، ولكن الفتى صبر وثابر، ورد عليهم: [أنا أصغر من جميعكم، فلماذا اجتمعتم علي كلكم]، وبالنهاية ملك أنطونيوس ناصية البواري لحساب النسك والعبادة والتسبيح المتواصل الذي لم ينقطع، ليس في مصر وحدها، بل وفي كل العالم.

كلام المسيح يحمل حقيقة معزية للغاية، فكل بغضة نواجهها في العالم دون أن نكون نحن سبباً فيها، هي تُحسب حتماً دليلاً على اختيارا لرب لنا: «أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم». واختيار الرب قائم أساساً على أننا لسنا من هذا العالم، والعالم لا يليق أن يكون لنا وطناً ومقراً، لذلك فكل حقد وبغضة يناصبنا بها العالم، يذكرنا بالرجاء الذي لنا عند الرب: «إن كنا نتألم معه، لكي نتمجد أيضاً معه.» (رو٨:١٧)

«لو كنتم من العالم، لكان العالم يحب خاصته»: ما أشد أُلفة الخطاة لبعضهم البعض، يجذبون بعضهم البعض لارتكاب الإثم والمعصية بسخاء وبذخ. إنها تظهر لهم وكأنها محبة وعلى مستوى التضحية والبذل، حتى ليكاد الآبرار يغيرون من هذه الألفة وهذا السخاء وهذا البذل المجنون. ولكن كل ذلك يتم بدفع من الشيطان، حتى يغوص الواحد منهم في الوحل دون أن يدري، وهو مسرور غاية السرور. وإن للعدو قدرة على إخفاء العاقبة والنهاية المرة التي تنتظر هؤلاء المتسابقين في وضع الأغلال في أعناقهم، حتى لا يكون قيام.

محبة العالم لأخصائه هي محبة للاستعباد، لنزف الشباب والمال والجمال والكرامة والعمر!

«يحب خاصته»: «خاصته» هنا، وإن كانت تفيد الأشخاص المنجذبين إليه، كما يراءى لأول وهلة، ولكن هي تفيد في الحقيقة الذين أصبحوا عبيداً له. فالعالم يحب الذين له، الذين يعملون لحسابه. والفاعل العاقل المضمر هنا، هو الشيطان رئيس هذا العالم: «أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا، ذاك كان قتالاً للناس من البدء.» (يو٨:٤٤)

ويلاحظ القارىء أن المسيح يكرر كلمة «العالم» خمس مرات في الآيتين» ١٨ و١٩، وذلك عن شعور منه بخطورة هذا العدو، وتوعية لنا أن نأخذ الحيطة، ونضع خطورته في الاعتبار.

٢٠- اُذْكُرُوا الْكَلاَمَ الَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ: لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ. إِنْ كَانُوا قَدِ اضْطَهَدُونِي فَسَيَضْطَهِدُونَكُمْ وَإِنْ كَانُوا قَدْ حَفِظُوا كَلاَمِي فَسَيَحْفَظُونَ كَلاَمَكُمْ.

واضح أن هذا النص وارد في إنجيل يوحنا ١٣:١٦. فبالرغم من أن التلاميذ، في نظر المسيح، ليسوا عبيدا بل أحباء، ولكن في نظر أنفسهم ينبغي أن يدركوا أنهم عبيد الله.

فالسيد والمعلم الذي غسل أرجلهم ليعدهم للارسالية العظمى، الآن يكشف لهم مجد الإرسالية على مستوى مجد إكليل الشوك والصليب. لأنه حقاً لا يليق أن الرأس، المقدس، يلبس إكليلاً من شوك، والأعضاء يجلسون على أرائك هن حرير، أو أن يلقب رب الكنيسة ببعلزبول، وأهل البيت ينعمون بالألقاب: «إن كانوا قد لقبوا رب البيت ببعلزبول، فكم بالحرى أهل بيته» (مت١٠:٢٥). وإن هبت ريح العالم العاتية على الكرمة، فلابد أن تترنح الأغصان.

والرب هنا لا يريد أن يواجه التلاميذ بمصيرهم المحتم، من جهة الاضطهاد، مباشرة، حتى لا يجزعوا، ولكنه في حنو وتوعية ورفق، وضع نفسه في المقدمة كعينة، وتركهم يقيسون على أنفسهم: «إن كانوا قد اضطهدونني، فسيضطهدونكم». ثم بتوعية أكثر وأعمق، أراد أن ينبه ذهنهم أن يتذكروا كيف كان اليهود يترصدونه: «ليصطادوه بكلمة» (مت٢٢:١٥) من كلامه، يؤلونها كما يشاءون، حتى ينصبوا له الفخاخ. فلا ينتظر التلاميذ من المقاومين لهم إلا نفس الاسلوب، والذين للعالم لن يحترموا كلامهم، فالرب يضعه على مستوى كلامه: «إن كانوا قد حفظوا كلامي، فسيحفظون كلامكم»، بل سوف يؤلون ويحورون ويعوجون، لعلهم يفوزون بحجة للمنازعة والتشهير أو الحكم، لإفساد تعليمهم في أذهان الناس.

٢١- لَكِنَّهُمْ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ بِكُمْ هَذَا كُلَّهُ مِنْ أَجْلِ اسْمِي لأَنَّهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ الَّذِي أَرْسَلَنِي.

«لكن» باليونانية (   ) ، تفيد الانتقال بالمعنى و بالحديث إلى تكملة متصلة به، ولكن جديدة. فالمسيح يكشف أن سر الاضطهاد سيكون هو بسبب الارتباط بالمسيح، والغصن المتحد بالكرمة نصيبه من نصيب الكرمة، والمناداة باسم المسيح له تكلفة باهظة: «ودعوا الرسل، وجلدوهم، وأوصوهم أن لا يتكلموا باسم يسوع، ثم أطلقوهم. وأما هم، فذهبوا فرحين من أمام المجمع، لأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل اسمه» (أع٥:٤٠-٤١). وبطرس الرسول أيضاً يركز عل الاسم:«إن عُيرتم باسم المسيح، فطوبى لكم، لأن روح المجد والله يحل عليكم.» (ابط٤:١٤)

لماذا اسم المسيح في العالم مكروه، والعالم يناصبه العداء؟ ثم لماذا هذا الاسم هكذا محبوب جداً لدى المؤمنين الصادقين؟

إن اسم المسيح هو هذا: «ابن الله الحي»، وهذا الاسم يحمل استعلان حقيقة الله الآب التي جاء الابن لاستعلانها.

وفي استعلان الله كآب، واستعلان المسيح كابن متجسد، ينجمع كل مفهوم الخلاص والفداء والمصالحة. فالله أرسل ابنه إلى العالم، ليصالح به العالم لنفسه، والابن تمم مشيئة الآب، بأن صالح العالم بذبيحة نفسه، وهكذا بالصليب، انفتح باب العودة لكل خطاة العالم من سلطان الشيطان والظلمة إلى الله، لأجل هذا لا يطيق العالم، الذي يعمل لحساب الظلمة، سماع اسم ابن الله. فأبناء الظلمة يبغضون أبناء النوره هذه حقيقة كل الدهور. أما الذين آمنوا باسم ابن الله، وقبلوه، فيكونون قد انتقلوا من الظلمة إلى النور، ودخلوا في عهد بنوة صادقة لله، وصاروا أبناء وأحباء بعد أن كانوا عبيداً وأعداء. لذلك صار اسم ابن الله هو قوتهم وفخرهم وحصنهم، إزاء بغضة العالم لهم وللاسم!

«لأنهم لا يعرفون الذي أرسلني»: إن معرفة سر الآب والابن الذي يتضمن إرسالية الابن إلى العالم، هو من أعمق مخصصات الله، التي جعلها سرا مكتوماً منذ الدهور السالفة، ولم يعرف به أحد، إلى أن استعلن للتلاميذ والرسل: «أنه بإعلان عرفني بالسر... سر المسيح، الذي في أجيال أخر لم يُعرف به بنو البشر، كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح، أن الأمم شركاء في الميراث، والجسد، ونوال موعده في المسيح بالإنجيل.» (أف٣:٣-٦)

لذلك فإن سر الآب والابن استودع لدى الرسل، واستلمته الكنيسة من يد الرسل، وبالروح القدس. وفي معرفة هذا السر، وبه، أُعطيت الحياة الآبدية للمؤمنين: «هذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧:٣)

وهكذا أصبحت معرفة الله «الآب» مقصورة على الذين قبلوا «الابن»، وآمنوا بالصليب والفداء، ونالوا الحياة الأبدية. والذي لا يعرف إرسالية ابن الله، يستحيل عليه معرفة الآب، وبالتال فهو يجدف على الآب والابن دون أن يدري، إنه يسيء إلى نفسه!! «يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.» (لو٢٣:٣٤)

ولكن ليس عذر للعالم، لأن المسيح استعلن سر الآب والابن، وسر الخلاص بالقول والعمل

يو ١٥:٢٢-٢٥

إن الرب، وقد وصح السبب والحقيقة التي سيقوم عليها حقد العالم وبغضته لتلاميذه، أوضح أيضاً أن هذا العداء السافر ليس له عذر، ولكن سيكون مفروضاً فرضاً عليهم. ولهذا بدأ يشرح كيف أكمل شهادته ضد العالم، سواء بالقول أو العمل، جاعلاً معرفة الآب ظاهرة. وقد جاءت شهادة المسيح لنفسه وللآب في وضع متواز موزون:

+ «لو لم أكن قد جئت وكلمتهم، لم تكن لهم خطية، وأما الآن، فليس لهم عذر في خطيتهم، الذي يبغضني، يبغض أبي أيضاً».

+ «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري، لم تكن لهم خطية، وأما الآن فقد رأوا، وأبغضونى أنا وأبي».

٢٢- لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ جِئْتُ وَكَلَّمْتُهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيَّةٌ وَأَمَّا الآنَ فَلَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي خَطِيَّتِهِمْ.

«قد جئت»: هذه الكلمة تحمل معنى كبيراً وممتداً، فهي تشير إشارة واثقة إلى أن مجيئه يحوي تحقيق الوعود النبوية السابقة لمجيئه، وانتظار كل شعب إسرائيل بفارغ الصبر، شعباً ورؤساء، وهوذا قد جاء!! اليهود ليس لهم أي عذر في عدم التعرف على المسيح، بل لم يكن هناك أي داع لبغضته بهذا المقدار، ومحاربته أينما ذهب، وهو

يشرح ويوضح بالقول والعمل المعجزي؛ بل وإن القول أيضاً كان على مستوى الاعجاز، مع إشارات قوية أشار بها إلى حقيقة نفسه، أنه المسيا الذي ينتظرونه من واقع أكبر وأقوى وأصدق نبوة كانت تشير إشارة مباشرة إلى مجيئه على لسان موسى: «يقيم لك الرت إلهك نبياً من وسطك، من إخوتك، مثلي، له تسمعون...، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطالبه.» (تث١٨:١٥-١٠)

والحقيقة أن اليهود بلا عذر، فقد كانت لهم القدرة والفهم لمعرفة المسيح والتعرف عليه تماماً، باعتباره المسيا الآتي، بل وإن منهم من نجح بسهولة في معرفته والإيمان به، لذلك فهذه المقاومة العنيدة، والبغضة العنيفة، والقسوة في المصادرة، توضح أنهم اسلموا ذواتهم للشيطان، وأنهم كانوا مغرضين، ومنحازين لشهواتهم الجامحة المجنونة.

«لما كانت لهم خطية»: هذا التعبير سبق أن قاله المسيح لهم بوضوح، عندما قاوموا المسيح، وأرادوا قتله، لأنه شفى أعمى، مولوداً من بطن أمه أعمى وأعطاه موهبة البصر في يوم سبت، فقال لهم: «لو كنتم عمياناً، لما كانت لكم خطية» (يو٩:٤١). لأن أمامهم إنساناً أعمى منذ ولادته وهبه النور والرؤيا، فما رأوا الآية، ولا نظروا إلى المعجزة، بل انحازوا إلى عمى قلوبهم وتعصبهم الأعمى للحرف الذي يعبدونه عوض الروح.

وحرف «لهم» في قوله: «لهم خطية» الذي هو في الأصل اليوناني الفعل ( ) بمعنى : «يمتلك، يقتني» خطية، هو اصطلاح وارد في العهد القديم، يفيد أن الإنسان بجهله وشره يكتسب لنفسه خطية، أو يحمل أو يقبل أو يستلم خطية: «لكن من كان طاهراً، وليس في سفر، وترك عمل الفصح، تُقطع تلك النفس من شعبها، لأنها لم تقرب قربان الرب في وقته، ذلك الإنساذ يحمل ( ) خطيته.» (عد٩:١٣)

وبذلك تظهر خطورة قول الرب على اليهود: «لما كانت لهم خطية»، أي لما حملوا على أنفسهم خطية. وهذا الاصطلاح عبر اليهود عنه أحسن تعبير عندما قالوا لبيلاطس: «دمه علينا، وعلى أولادنا» (مت٢٧:٢٥). فالاصطلاح: «لما كانت لهم خطية» يشير إلى ثبوت خطيتهم عليهم، لأن العمل الذي عملوه في مقاومته وصلبه، كان بدون وجه حق!! «وأما الآن فليس لهم عذر في خطيتهم»، لأن توضيح المسيح لرسالته وإرساليته وكلامه عن الآب وعئ نفسه، كان فيه الكفاية. بمعنى أنه ليس عن جهالة قاوموه، أو عن قلة معرفة، وعن إلتباس في الفهم، بل بإصرار وعناد وحقد جنوني، ما كان له داع على الإطلاق!!

٢٣- الَّذِي يُبْغِضُنِي يُبْغِضُ أَبِي أَيْضاً.

هذه الأية تدخل في المفهوم اللاهوتي التجريدي، فالذي ليس له الابن، فبالضرورة ليس له الآب (ايو٢:٢٣)! كما أن الذي يؤمن بالابن، فله الآب أيضاً. والذي يحب الابن، يحبه الآب بالضرورة. هنا يتضح ببساطة أن الابن والآب واحد، هما ذات واحدة فيها ملء البنوة كشخص، وملء الابوة كشخص، وهما ذات واحدة كاملة، وكل ما يصيب الابن يصيب الآب حتماً. والابن تجسد ليعلن في نفسه الآب، ويستعلن بكلامه وأعماله كلام الآب وأعمال الآب. لذلك، فالمسيح هو صورة الآب المتجسدة، هو إنسان من حيث تجسده أو هيئته الإنسانية، ولكن هو الإله من حيث حقيقة ذاته وجوهره، لذلك، فمن أبغض المسيح، أبغض الآب حتماً.

٢٤- لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ عَمِلْتُ بَيْنَهُمْ أَعْمَالاً لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ غَيْرِي لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيَّةٌ وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ رَأَوْا وَأَبْغَضُونِي أَنَا وَأَبِي.

هنا توكيد القول بالعمل يتسجل تاريخيا: «الآن فقد رأوْا وأبغضوني»، والعمل الذي عمله المسيح، يفوق في إثباته القول. لأن العمل كان عظيماً، كان مملوءاً حباً وعطفاً وحناناً وقوة، كان ينطق نطقا بوجو الله نفسه عاملاً: «الآب الحال في، هو يعمل الأعمال» (يو ١٤: ١٠). والتي يمكن ترجمتها ترجمة صحيحة عن الأصل اليوناني هكذا: «الآب الحال في يعمل أعماله». والمعنى، أن الآب، بالمسيح، يعمل مشيئته، ويعلن عن ذاته، ويقترب من الإنسان، بواسطة يسوع المسيح، اقتراباً عجيبا، وجها لوجه، وفماً لاذن، ويداً لعين (الأعمى).

نحن الآن، وعلى بعد، نستطيع بقوة الإيمان والامتداد باليقين الروحي أن نحس تماما بالآب، ونكاد نراه في شخص يسوع المسيح. فما بالك بالذين عاينوا، ورآوا، وشاهدوا، ولمسوا هذه الحقيقة، التي عبر عنها تلميذ مخلص وصادق، بقوله: «الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة، فإن الحياة أظهرت، وقد رأينا، ونشهد، ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب، وأظهرت لنا، الذي رأيناه وسمعناه، نخبركم به، لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا، وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح، ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً» (ايو ١: ١-٤). هذا يوحنا الحبيب تلميذ يهودي، مفتوح العينين والقلب؛ هذا رأى وشاهد ولمس وعاين وآمن؛ وينقل لنا خبرته حية نابضة بالروح، ونحن، بالإيمان، أيضاً لمسنا معه، وشاهدنا معه، وعاينا معه، لأننا نؤمن، والإيمان رؤيا!

وهكذا، فإن شهادة المسيح للآب ولنفسه بالكلمة والتعليم، هي استنفار للوعي الروحي فينا، لإيقاظه، ليقوم ويعي. أما شهادة المسيح بالأعمال، فهي مقارعة للفكر، أن يتيقظ، ويدرك، ويتيقن مما يرى، ويستخلص الحق بالعيان!!

«... أعمالاً لم يعملها أحد غيري»: صحيح أن أنبياء كثيرين عملوا معجزات خارقة، فموسى معروف بعجائبه العشرة التي ضرب بها المصريين، وشق البحر الأحمر، وعبره ماشياً هو وشعبه، وطلب فنزل المن، وضرب الصخرة فجرى ماء، وصنع حية نحاسية، كل من نظر إليها شفي من لدغة الحيات، ويشوع بن نون فلق الاردن ليعبر الشعب وسطه، وبصلاته أوقف حركة الأرض أمام الشمس. وشمشون، أروى عطشه من نبع ماء خرج من المكان الذي رمى فيه لحي حمار ميت. وإيليا صعد إلى السماء في مركبة نارية، وأليشع أقام ميتاً. ودانيال تمشى في الجب وسط أسود شرهة جائعة، والثلاثة الفتية القديسون تمشوا في وسط اتون النار المرتفعة تسعة وأربعين ذراعاً.

ولكن، لا هؤلاء، ولا غيرهم قط، قيل عنهم هكذا : «ولما صار المساء، إذ غربت الشمس، قدموا إليه جميع السقماء والمجانين، وكانت المدينة كلها مجتمعة على الباب، فشفى كثيرين كانوا مرضى بأمراض مختلفة، وأخرج شياطين كثيرة، ولم يدع الشياطين يتكلمون، لأنهم عرفوه.» (مر ١: ٣٢-٣٤)

كذلك: «وحيثما دخل إلى قرى أو مدن أو ضياع، وضعوا المرض في الأسواق، وطلبوا إليه أن يلمسوا ولو هدب ثوبه، وكل من لمسه شُفي»» (مر ٦: ٥٦). وقال عنه القديس متى: «فأخرج الأرواح بكلمة، وجميع المرضى شفاهم، لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: هو أخذ أسقامنا، وحمل أمراضنا.» (مت٨: ١٦-١٧)

فأعمال المسيح الإعجازية لم تكن مجرد معجزة صنعها في حياته، بل كانت حياته معجزة، وكلها معجزات. فإذا جئنا إلى الأعمال الفردية، كتفتيح الأعمى المولود من بطن أمه وكيف صنع له مقلة عين من الطين، فنحن هنا أمام خالق، لا صانع معجزات! والذي أقام لعازر بعد أربعة أيام في القبر، وقد أنتن أيضا، هنا نحن أمام الديان الذي يقيم

الموتى ويحيى من يشاء، كل هذا كان يعمله المسيح لا ليُظهر قوته، بل ليستعلن رسالته، لكي تنطق أعماله بحقيقة الله فيه.

٢٥- لَكِنْ لِكَيْ تَتِمَّ الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ فِي نَامُوسِهِمْ: إِنَّهُمْ أَبْغَضُونِي بِلاَ سَبَبٍ.

هنا المسيح يرتفع بالعمل الرديء، الذي عملوه فيه، فيراه في ضوء كلمة الله، أنه بالرغم من كل ما قصدوه من الشر، فقد تم به، دون أن يدروا ودون أن يشاء وا، قصد الله الأزلي الذي استودعه الله بالنبوة في ناموسهم.

«في ناموسهم»: خطر أن يفصل المسيح بين ناموسه الإلهي و «ناموسهم» فقد أرداء أرضاً، وعزله عن رضى الله إلى الأبد! فلم يعد بعد هذه اللحظة يدعى ناموس عهد الله، بل «ناموسهم»، ناموس الكرامين الآردياء الذين تعاهدوا على قتل ابن صاحب الكرم، فتربصوا به، فى يوم فصحهم، وعوض خروف الفصح، ذبحوا حمل الله الوديع!

«الكلمة المكتوبة في ناموسهم»: هذه هي الكلمة المكتوبة في ناموسهم: «لا يشمت بي الذين هم أعدائي باطلاً، ولا يتغامزون بالعين الذين يبغضونني بلا سبب» (مز٣٥:١٩)، ثم تكررت في مزمور آخر: «أكثر من شعر رأسي، الذين يبغضونني بلا سبب.» (مز٦٩:٤)

«بلا سبب»: بلا سبب لا تفي بالمعنى الذي جاء في اليونانية واللاتينية، فهي تفيد الهدية المجانية، أو بدون مقابل! وفعلاً، فالعمل الذي عملوه في المسيح، لو حاول الإنسان أن ينتحل لهم أي عذر أو أي داع، فلا يجد؛ لأن كل التهم التي أقاموها ضده، كانت غير جادة، وقد تعبوا في تلفيقها. وليست تهمة واحدة من التهم التي قدموها، كانوا يؤمنون بأنها صحيحة! كذلك، فكل مرة أقدموا فيها على رجمه ادعاء منهم أنه كسر الناموس وتعدى على وحدانية الله، لم يستطيعوا أن يبلغوا فيها حدا قاطعاً، لأنه رد عليهم وأفحمهم، فسقطت الحجارة من أيديهم، وتفرقوا شذر مذر.

والواقع أن قدامة المسيح واستقامته الحادة، جعلت عداوتهم له وبغضتهم إياه تافهة بلا أي معنى، بل وتافهة أقصى ما تكون التفاهة، فأوقفهم مواقف الدينونة، كلما رفعوا عقيرتهم عليه!! وتكشفت عداوتهم أنها عداوة صافية مائة بالمائة، لا يسندها أي مبرر! وهذه تُحسب، في مفهوم الدينونة، أنها تعبير مكشوف عن «سر الإثم» الذي يعمل في أبناء المعصية، والذي سيكشفه يوماً الله الديان: «لأن سر الإثم الآن يعمل فقط إلى أن يُرفع من الوسط الذي يحجز الأن، وحينئذ سيستعلن الأثيم، الذي الرب يبيده بنفخة فمه، ويُبطله بظهور مجيئه.» (٢تس٢:٧-٨)

وإزاء هذا العنف المجنون للأئمة الذين قاوموا المسيح، وهم متهيئون لمقاومة تلاميذه والكنيسة المولودة حديثاً، ارتأى الآب والمسيح أنه لا بد من أن يسند التلاميذ والكنيسة بالروح القدس، المدافع القوي، والمحامي القدير، والشفيع، والشاهد.

وإزاء مقاومة رسالة المسيح وانكار اليهود لعمله واسمه وفكره، كان من الطبيعي أن يرسل المسيح الروح القدس، القوة الإلهية الجبارة، التي تشهد وتدعو سرا القلوب الأمينة التي تقبل الكلمة، وتحتاج إلى إقناع وشهادة وتشجيع، فيؤديها الروح القدس. وبهذا يحيد القوة الأثيمة العاملة في اليهود وغير اليهود والتي تتربص بالمؤمنين وتطارد الكارزين. وقد أبلى الروح القدس في ذلك المجال بلاء فائق القوة والوصف. وكان الروح القدس لسان شهادة في التلاميذ لحساب المسيح والآب.

٢٦- وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزِّي الَّذِي سَأُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الآبِ
رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ فَهُوَ يَشْهَدُ لِي.

«المعزي»: ليست هذه الكلمة ترجمة دقيقة للأصل اليوناني، ولكها ترجمة جزافية للكلمة الأصلية التي هي «الباراكليت». وكان يجب تترك كما هي، لأن « الباراكليت» هنا اسم وليس صفة. وتترجم باللاتينية **advocatos**

«أرسله "أنا" إليكم من الأب»: هنا الضمير عليه تركيز زائد، لإبراز صفة الألوهية، فالمسيح هنا هو الابن الذي بذهابه إلى الآب سيرسل الأقنوم الثالث الروحي، وهو«روح الحق» الإلهي. وقد أوضح المسيح بعد ذلك في الأصحاح السادس عشر الآية السابقة، أن إرساله متعلق بانطلاق المسيح بعد تكميل خدمته على الأرض بالصليب: «لكني أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي.» (يو١٦:٧)

وهنا، نحن بصدد أحرج ساعات المسيح، وهو يتكلم عن الفراق، مما جعله يسبق ويشجعهم بخصوص ما سيقابلهم من ضيقات وبغضة العالم، موضحاً ما عاناه المسيح نفسه في العالم، أصبح الحديث عن سلطانه اللاهوتي بإرساله الروح القدس ذا قيمة عظمى لتشجيعهم، فهو يؤسس فيهم الثقة الكاملة في شخصه وسلطانه الإلهي، كما يؤمنهم إزاء عنف الاضطهاد القادم، وذلك بإرساله الروح القدس.

«من الآب»، «من عند الآب»: تفيد الموضع، أي من جانب الآب، ولا تفيد الخروج من المنبع، لأن الحرف المنوط به توقيح الخروج من داخل المنبع هو في اليونانية (   ) وقد جاءت واضحة في مر٥:٣٠ «القوة التي خرجت منه».

«روح الحق»: الأليثيا هنا هي اسعلان الحقيقة الإلهية (في المسيح)، وهي لا تُعلم قط، ولكن تؤخذ بالروح وتصديق الحق: و«الروح القدس والحق»» يوجدان ويعملان معاً: «ولكن تأتي ساعة، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له» (يو٤:٢٣). وكل منهما يشرح الآخر ويزكيه. ويلاحظ أنهما معاً علامة أكيدة ودامغة على الحياة فوق الطبيعية، والدخول في مجال الاسكاتولوجيا، أي أمور الآخرة، التي يقول المسيح عنها أنها «الآن» : «تأتي ساعة وهي الآن» (يو٤:٢٣ و ٥:٢٥)، لأن «الآن» في المسيح، هو والمستقبل شيء واحد، وهو بعينه استعلان الحضور الإلهي فوق الزمن؛ لأن استعلان الحق بالروح القدس للانسان معناه تعامل الله مباشرة مع الإنسان، حيث يتقدس الإنسان، أي يصير بجملته يحيا لله وليس للعالم .

وقد تكرر سابقاً هذا الوصف للروح القدس في يو١٤:١٧، وسيتكرر أيضاً في ١٦:١٣. وقد ذكره القديس يوحنا في رسالته الاولى فى ٤:٦. ويلاحظ أن إرسال روح الحق هو مناسبة من واقع الحال، لكي يقف ضد روح الباطل والتزييف في العالم: «كل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد، فليس من الله، وهذا هو روح ضد المسيح.» (ايو٤:٣)

ومعروف أن الله هو «الحق». فهنا واضح أن «روح الحق» هو روح الله. فالروح القدس هو الأقنوم الذاتي في الله الواحد مع الآب والابن. والمسيح قال: «أنا هو الحق»، فهو «روح المسيح» أيضاً. لذلك واضح أنه سيرسله، ليشهد للحق الذي في المسيح تجاه العالم المقاوم. كما أنه الوحيد الذي له السلطان الصادق لشرح كلمة الله، والتذكير بها، والتعريف بما ستؤول إليه: «ويخبركم بأمور آتية» (يو١٦:١٣). ولكن سواء الشهادة للحق أو شرح الحق الذي في

المسيح والكلمة أو التذكير بها والتنبؤ بما ستؤول إليه، فهذه ليست مجرد صفات للروح القدس، ولكها من صميم طبيعته. وهذا يُلاحظ من تركيب كلمة الروح على كلمة الحق كمضاف إليه، فالحق يصير ملك الروح وله.

«من الآب ينبثق»: وهي تفيد معنيين: معنى الخروج من داخل، والخروج هذا نفسه هو إرسال. وها نجد أن الفعل الملازم للروح القدس بالنسبة للمسيح يأتي أولاً في «المستقبل»: «سأرسله»، لأن إرساله متوقف على عمل سوف يكمله المسيح بعد الصليب، وهوالانطلاق إل الآب.

ثم يأتي الفعل الآخر وهو خاص بالروح القدس والآب: «ينبثق»، ويأتي في المصارع بصفة الاعتياد، أي من عند الآب يخرج، فهو فعل لا زمني فوق مفهوم الحركة، وهو نفس المعنى الذي يُستخدم بخصوص المسيح أنه من عد الآب يخرج. من هذا نفهم، أن إرسال الروح القدس بواسطة الابن من عند الآب بعد أن يكون قد تمجد، هو في الحقيقة التكميل النهائي لعمل الخلقة الأولى الي اضطع بها الكلمة سابقاً بالروح القدس. وفي نفس الوقت نفهم من قول المسيح أنه سيرسل الروح القدس من عند الآب، أن ذلك يستعلن الصلة الذاتية والجوهرية بين الآب والابن والروح القدس وموضع الروح القدس وعمله في الثالوث «من الآب بالابن».

«من الآب»: يلاحظ هنا أنه لم يقل: «من أبي»، لأن العمل الذي سيقوم به الابن والروح القدس هو لحساب الإنسان، الذي أصبح الله بالنسبة له هو «الآب» بواسطة الابن والروح القدس. لذلك فإرسالية الروح القدس هنا هي خاصة بالإنسان.

«يشهد لي»: لشرح شهادة الروح القدس، الرجاء الرجوع إلى المدخل صفحات ١١٧ و١١٨ و٢٥٣. ولكن ينبغي أن نوضح هنا أن الروح القدس سيضطلع بمفرده بالشهادة للمسيح خارج عمل التلاميذ، أي أنه سيشهد بواسطة التلاميذ، وسيشهد هو من تلقاء ذاته، وذلك في قلوب المؤمين مباشرة بعمل الإلهام والنعمة، في كل ما يخص حياة المسيح وأقواله وأعماله. كذلك بتوجيه المؤمنين للقيام بأعمال، هي بحد ذاتها تصير شهادة للمسيح، وهذا هو العمل الأعظم للروح القدس والذي بقي في الكنيسة، وهو باق إلى الأبد: «لأنه ماكث معكم ويكون فيكم.» (يو ١٤:١٧)

واضح هنا أن الروح القدس هو روح مناداة واعلان! ينطق بالكلمة في الأفواه وفي القلوب، في فم الكارز، وقلب السامع معاً وفي نفس الوقت؛ وبدون عمل الروح القدس في الشهادة للمسيح، لا الكارز يستطيع أن يستجلي الكلمة بالروح ويستعلن قوة وحق المسيح فيها، ولا السامع يستطيع أن يحسها ويقبلها ويعمل بها!

لذلك يلزم، بل يتحتم أن نعلم، أن الروح القدس هو الشاهد الشرعي الوحيد، الذي به ومن خلاله يشهد التلاميذ، وتشهد الكنيسة، وتتحرك القلوب للايمان والعمل بالإيمان!

علماً بأن الشهادة بالروح القدس للمسيح ليست فضيلة، أو واجباً أو عملاً يتعزى به التلاميذ أو الكنيسة على مدى العصور، بل إن الروح القدس تعين لمقارعة العالم وتحطيم كبريائه واخماد حركة الكذب والتزييف فيه فيما يخص حقيقة الله وعبادته. لذلك فالعمل بالروح القدس هو تجند لحمل الحق ضد الباطل في العالم ، هو عمل جدي وخطير يختص بالله نفسه، وسنقرأ عنه بعد ذلك هكذا: «يبكت العالم» (١٦:٨)؛ بل ومن شهادة الروح القدس غير المحدودة تأتي شهادته للتلاميذ أنفسهم أنهم حق وحسب الحق: «ديمتريوس مشهود له من الجميع ومن الحق نفسه، ونحن أيضاً نشهد، وأنتم تعلمون أن شهادتنا هي صادقة.» (٣يو ١:١٢)

ولكن يلزم أن ننتبه إلى قيمة قول المسيح: «الذي من عند الأب ينبثق»، حيث «ينبثق» تأتي في المضاع بالصيغة

الدائمة. لذلك فشهادة الروح القدس لحق المسيح مستمدة أصلاً من الآب: «والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي» (يو٥:٣٧)، فالآب يشهد للابن بالروح القدس لأن : «ليس أحد يعرف الابن إلا الآب.» (مت١١:٢٧)

وأخيراً، وهذا هو في الحقيقة عمل الروح القدس الأول والأساسي، اضطلاع الروح القدس بإلهام التلاميذ لكتابة الأناجيل وكل الرسائل، أي أسفار العهد الجديد. تعتبر شهادة الروح القدس للمسيح بالدرجة الأولى. ونستطيع أن نقول إن الروح القدس هو الذي اضطلع بوضع أسس الإيمان للكنيسة منذ اليوم الأول وحتى اليوم.

٢٧- وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً لأَنَّكُمْ مَعِي مِنَ الاِبْتِدَاءِ

لاحظ أن صيغة: «وتشهدون أنتم أيضاً»، تأتي في أعقاب بغضة العالم للمسيح، ومقاومته لتعاليمه ولإرساليته، وبالأخص فيما سيكون بعد ذلك من جهة قيامته من الأموات. لذلك، فشهادة التلاميذ تأتي من واقع ضرورة الشهادة ضد واقع العالم المعاند، وتزييف الحقيقة بالأديان الوثنية الكاذبة التي تتكلم عن الله. فالشهادة في هذا المجال ضرورة لحساب الحق، أكثر منها واجباً مفروضاً على التلاميذ أو المؤمنين يؤدونه بحسب مسرتهم. لذلك، فالتفريط فيها تفريط في الحق ذاته، وليس مجرد إهمال واجب، علماً بأن كل مطالبة بالشهادة يقف وراءها المسيح نفسه: «في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي، بل الجميع تركوني، لا يُحسب عليهم، ولكن الرب وقف معي وقواني لكي تتم بي الكرازة ويسمع جميع الأمم، فأُنقذت من فم الأسد.» (٢تي٤:١٦-١٧)

«لأنكم معي من الابتداء»: لا زلنا في أعقاب صورة الكرمة الحقيقية والأغصان الثابتة في الكرمة منذ الابتداء، ونحن الآن بصدد الثمر الذي يأتي صورة طبق الأصمل من الكرمة، يحمل صفاتها وينطق بحقيقتها.

والمسيح يتكلم هنا عن رحلة الكرازة منذ يومها الأول، إنها تاريخ حياة لحياة، هذا نلاحظه بوضوح في تدوين إنجيلي القديس متى والقديس لوقا، إذ تتبعا كل شيء من الابتداء بتدقيق. إنها دعوة المسيح وإلحاح الروح القدس لتسجيل حوادث وأعمال كلها للخلاص، ولكن القديس مرقس ارتأى أن يبدأ الرحلة وتاريخها بحسب الأنبياء بعمل الروح القدس في المعمدان، ثم بالمسيح. أما القديس يوحنا فانطلق من البدء الآزلي، لأنه يبدو أن القديس يوحنا انكشف له سر البدء الأزلي فوق البدء الزمني، فاكتفى به معتمداً على تسجيلات السابقين له في التسجيل التاريخي.

ويلاحظ أن القديس يوحنا جمع بين التسجيلين فيما يخص الأقوال والأعمال، وفيما استعلن له خاصة بالروح القدس من واقع خبرات روحية سرية وخاصة جداً.

وعلى العموم، نلاحظ في نهاية هذا الأصحاح، سواء فيما يخمص شهادة الروح القدس أوشهادة التلاميذ، صورة جميلة ومختصرة لنهايات الثلاثة الأناجيل الأخرى التي تتلخص في: «دُفع إلي كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر». (مت٢٨:١٨-٢٠). وما حدث بالفعل يسجله سفر الأعمال مطابقاً تماما لما جاء به القديس يوحنا هنا في الأصحاح الخامس عشر: «ونحن شهود له بهذه الأمور، والروح القدس أيضاً، الذي أعطاه الله للذين يطيعونه.» (أع٥:٣٢)

كذلك أيضاً، وبصورة واضحة زاهية، فيما يخص متابعة رحلة خدمة المسيح، وصف سفر الأعمال كيف اعتنى التلاميذ جداً بالشهادة لها: «فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج، منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنا، يصير واحد منهم (بدل يهوذا الإسخريوطي الذي سلم المسيح) شاهداً معنا بقيامته.» (١:٢١-٢٢)

تم فى ٢٠١٧/٤/٢

الأصحاح السادس عشر

حديث الوداع الثالث

قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا لِكَيْ لاَ تَعْثُرُوا. سَيُخْرِجُونَكُمْ مِنَ الْمَجَامِعِ بَلْ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ يُقَدِّمُ خِدْمَةً لِلَّهِ. وَسَيَفْعَلُونَ هَذَا بِكُمْ لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الآبَ وَلاَ عَرَفُونِي. لَكِنِّي قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا حَتَّى إِذَا جَاءَتِ السَّاعَةُ تَذْكُرُونَ أَنِّي أَنَا قُلْتُهُ لَكُمْ. وَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ مِنَ الْبِدَايَةِ لأَنِّي كُنْتُ مَعَكُمْ. وَأَمَّا الآنَ فَأَنَا مَاضٍ إِلَى الَّذِي أَرْسَلَنِي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَسْأَلُنِي أَيْنَ تَمْضِي. لَكِنْ لأَنِّي قُلْتُ لَكُمْ هَذَا قَدْ مَلأَ الْحُزْنُ قُلُوبَكُمْ. لَكِنِّي أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ. وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُبَكِّتُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيَّةٍ وَعَلَى بِرٍّ وَعَلَى دَيْنُونَةٍ. أَمَّا عَلَى خَطِيَّةٍ فَلأَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِي. وَأَمَّا عَلَى بِرٍّ فَلأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَلاَ تَرَوْنَنِي أَيْضاً. وَأَمَّا عَلَى دَيْنُونَةٍ فَلأَنَّ رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمِ قَدْ دِينَ. «إِنَّ لِي أُمُوراً كَثِيرَةً أَيْضاً لأَقُولَ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ رُوحُ الْحَقِّ فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ. ذَاكَ يُمَجِّدُنِي لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ. كُلُّ مَا لِلآبِ هُوَ لِي. لِهَذَا قُلْتُ إِنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ. بَعْدَ قَلِيلٍ لاَ تُبْصِرُونَنِي ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي لأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الآبِ». فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَا هُوَ هَذَا الَّذِي يَقُولُهُ لَنَا: بَعْدَ قَلِيلٍ لاَ تُبْصِرُونَنِي ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي وَلأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الآبِ؟». فَتَسَاءَلُوا: «مَا هُوَ هَذَا الْقَلِيلُ الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ؟ لَسْنَا نَعْلَمُ بِمَاذَا يَتَكَلَّمُ». فَعَلِمَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْأَلُوهُ فَقَالَ لَهُمْ: «أَعَنْ هَذَا تَتَسَاءَلُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ لأَنِّي قُلْتُ: بَعْدَ قَلِيلٍ لاَ تُبْصِرُونَنِي ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ. أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ وَلَكِنَّ حُزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ. اَلْمَرْأَةُ وَهِيَ تَلِدُ تَحْزَنُ لأَنَّ سَاعَتَهَا قَدْ جَاءَتْ وَلَكِنْ مَتَى وَلَدَتِ الطِّفْلَ لاَ تَعُودُ تَذْكُرُ الشِّدَّةَ لِسَبَبِ الْفَرَحِ لأَنَّهُ قَدْ وُلِدَ إِنْسَانٌ فِي الْعَالَمِ. فَأَنْتُمْ كَذَلِكَ عِنْدَكُمُ الآنَ حُزْنٌ. وَلَكِنِّي سَأَرَاكُمْ أَيْضاً فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ وَلاَ يَنْزِعُ أَحَدٌ فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ. وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لاَ تَسْأَلُونَنِي شَيْئاً. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ مِنَ الآبِ بِاسْمِي يُعْطِيكُمْ. إِلَى الآنَ لَمْ تَطْلُبُوا شَيْئاً بِاسْمِي. اُطْلُبُوا تَأْخُذُوا لِيَكُونَ فَرَحُكُمْ كَامِلاً. «قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا بِأَمْثَالٍ وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ حِينَ لاَ أُكَلِّمُكُمْ أَيْضاً بِأَمْثَالٍ بَلْ أُخْبِرُكُمْ عَنِ الآبِ عَلاَنِيَةً. فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَطْلُبُونَ بِاسْمِي. وَلَسْتُ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي أَنَا أَسْأَلُ الآبَ مِنْ أَجْلِكُمْ. لأَنَّ الآبَ نَفْسَهُ يُحِبُّكُمْ لأَنَّكُمْ قَدْ أَحْبَبْتُمُونِي وَآمَنْتُمْ أَنِّي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَرَجْتُ. خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ الآبِ وَقَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ وَأَيْضاً أَتْرُكُ الْعَالَمَ وَأَذْهَبُ إِلَى الآبِ». قَالَ لَهُ تَلاَمِيذُهُ: «هُوَذَا الآنَ تَتَكَلَّمُ عَلاَنِيَةً وَلَسْتَ تَقُولُ مَثَلاً وَاحِداً!. اَلآنَ نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَسْتَ تَحْتَاجُ أَنْ يَسْأَلَكَ أَحَدٌ. لِهَذَا نُؤْمِنُ أَنَّكَ مِنَ اللَّهِ خَرَجْتَ». أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَلآنَ تُؤْمِنُونَ؟. هُوَذَا تَأْتِي سَاعَةٌ وَقَدْ أَتَتِ الآنَ تَتَفَرَّقُونَ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى خَاصَّتِهِ وَتَتْرُكُونَنِي وَحْدِي. وَأَنَا لَسْتُ وَحْدِي لأَنَّ الآبَ مَعِي. قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا لِيَكُونَ لَكُمْ فِيَّ سَلاَمٌ. فِي الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ وَلَكِنْ ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ»

الآيات الخمس عشرة الأولى من هذا الأصحاح تعتبر من جهة المعنى تكملة للحديث السابق (الأصحاح الخامس عشر)، وهي عن المعاناة التي سيواجهها التلاميذ بعد انطلاق المسيح، من اضطهاد مجامع اليهود لهم، ثم من أباطرة روما ومحاكماه كميراث يسلمونه للكنيسة من بعدهم، وسيكون هذا الاضطهاد على شكل غيرة دينية كاذبة. وبسبب عنف هذه المواجهة الدموية «يقتلونكم»، فسيكون الروح القدس هو المرشد للحق، والمحامى والشفيع لهم أمام محاكم العالم، والمعزي الذي سيخبرهم مقدماً بما سيأتي عليهم، ليكونوا على استعداد، كما أنه سيتعلن مجد المسيح في قلوبهم حتى يهون عليهم الألم والعذاب، ويتحول إلى شركة حقيقية في مجد المسيح.

وبعد ذلك وحتى نهاية الأصحاح، يكشف لهم أخيرا عن انتهاء زمن وجوده أمامهم بالجسد المنظور: «بعد قليل لا تبصرونني»، ولكن يكشف لهم أيضاً عن حتمية عودته سريعا ليتراءى لهم هم خاصة، دون العالم، حيث يتحدث معهم عن الآب علانية دون أمثال، وهي نفس النصوص التي أوردها القديس يوحنا في إنجيله. ثم يخبرهم بانفتاح طريق الآب لهم، فيسألونه مباشرة باسم المسيح، لأن الآب يحبهم وسيستمع لكل طلباللهم. ثم يلخص لهم إرساليته من أولها إلى آخرها في آية واحدة: «خرجت من عند الآب، وقد أتيت إلى العالم، وأيضا أترك العالم، وأذهب إلى الآب.» (يو١٦: ٢٨)

ولكن في نهاية الحديث، يكشف لهم عن سر ضعفهم الشنيع، كيف سيهربون هذه الليلة، ويتفرقون، ويتركونه «ليدوس المعصرة وحده» (إش٦٣: ٣)! ولكن سلام المسيح الذي فيهم سيرتد إليهم سريعاً، وينتهي حديث الإنجيل كله بهذه الآية: «ثقوا أنا قد غلبت العالم».

١ – قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا لِكَيْ لاَ تَعْثُرُوا.

«كلمتكم بهذا»: لقد أجمل المسيح كل ما قاله، ليس فقط عن اضطهاد العالم الذي ينتظرهم بعد انطلاقه، بل وعن كل ما قاله بخصوص اتحادهم به مثل اتحاد الأغصان في الكرمة وثبوتهم في وصاياه ومحبته، وعن قانون المحبة العظمى وهو بذل النفس عن رضتى على مستوى محبة المسيح لهم التي كلفته الصليب، كذلك عن استعداد الآب لسماع كل طلباللهم، واستجابته لهم من أجل اسم ابنه الذي أحبوه وأمنوا به؛ كل ذلك حتى يبقوا أمناء للرسالة التي وُضعت عليهم تجاه العالم» لتكميل مشيئة الآب وعمل الابن، وذلك بمساعدة الروح القدس، وحتى يتحملوا ثقل مقاومة العالم.

«لكي لا تعثروا»: العثرة كانت محدقة بالتلاميذ، فقد سبق أن سقط بعض منهم وانطرحوا خارجاً: «فعلم يسوع في نفسه أن تلاميذه يتذمرون عل هذا (أكل الجسد وشرب الدم)، فقال لهم: أهذا يعثركم؟ (يو٦: ٦١). ولقد تعقب المسيح «العثرة» في أصولها، وعرفها قائلاً: «إن كان أحد يمشي في النهار لا يعثر، لأنه ينظر نور هذا العالم، ولكن إن كان أحد يمشي في الليل يعثر، لأن النور ليس فيه» (يو١١: ٩–١٠). وطبعاً هو سبق وقال: «أنا هو نور العالم، من يتبعني فلا يمشي في الظمة» (يو٨: ١٢)، فواضح أن معنى العثرة في هذه الآية هو إلقاء نير المسيح والتنكر له. وقد حدث ذلك أثناء حديث المسيح من الجسد والدم: «من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، ولم يعودوا يمشون معه» (يو٦: ٦٦)، لأن النور انحجز عنهم، فغشيتهم الظلمة.

القديس يوحنا يبرز سطوع النور باستعلان مجد المسيح والإيمان به: «أكتب إليكم ما هو حق في وفيكم، أن الظلمة قد مضت، والنو الحقيقي الآن يُضيء» (ايو٢: ٨). ونور القديس يوحنا هو المسيح.

إن العثرة التي كانت تهدد الرسل، اليهود أصلاً، هي من اليهود إخوتهم في الدم واللحم والميراث والتراث، لأن الغيرة الكاذبة على الدين اليهودي، ومجد شعب إسرائيل في صورته المادية، جعلت مقاومة اليهود للمسيح (النور) فوق ما يتصور العقل من: البغضة، والعنف، والتنكيل: «لأني أشهد لهم أن لهم غيرة لله، ولكن ليس حسب المعرفة» (رو١٠: ٢). لهذا السبب قدم المسيح لتلاميذه كل وصاياه وتشجيعالله السابقة، ليكونوا مسبقاً على علم بما سيحدث، مع وعد بمؤازرتهم بالروح القدس ليصمدوا أمام قوة السلطان الرسمي للمحاكم اليهودية ومحاكم روما بعدها. صحيح أن شهادتهم للمسيح وللاسم (اسم ابن الله) في العالم ستواجه بمقاومة واضطهاد ومرارة؛ ولكن يوجد ما هو أشد مرارة وخسارة، بل وكارثة، تنتظر المرتدين الذين يغلبهم العالم لنفسه. لذلك فإن أعظم سند قدمه لهم

المسيح في حديثه كان في آخر آية: «ثقوا، أنا قد غلبت العالم». ولمن غلب المسيح العالم، إلا للذين أمنوا وتبعوه ليرثوا الأمجاد العليا. و يرد القديس يوحنا على غلبة المسيح للعالم بقوله: «وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، إيمانئا» (ايو٥:٤). إن جور العالم وظلمه ودينونته لهم، لا يمكن أن تعادل خسارة المجد الذي ينتظرهم أو شناعة الدينونة التي مستواجههم: «من ينكرني قدام الناس، أنكره أنا أيضاً قدام أبي الذي في السموات.» (مت١٠:٣٣)

٢- سَيُخْرِجُونَكُمْ مِنَ الْمَجَامِعِ بَلْ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ يُقَدِّمُ خِدْمَةً لِلَّهِ.

«سَيُخْرِجُونَكُمْ مِنَ الْمَجَامِعِ»: هذه كانت خطة اليهود التي نفذوها في أيام المسيح: «لأن اليهود كانوا قد تعاهدوا، أنه إن اعترف أحد بأنه المسيح، يُخرج من المجمع» (يو٩:٢٢). وكلمة «تعاهدوا» تعني أنهم أخذوا قراراً بإجماع السنهدريم فصار قانونا رسمياً. كذلك، فإنه بسبب هذا القرار ظل كبار الشخصيات التي آمنت بالمسيح تحتفظ بإيمانها سراً، خوفا من تطبيق هذا القرار عليهم: «ولكن مع ذلك آمن به كثيرون من الرؤساء أيضاً، غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به لئلا يصيروا خارج المجمع، لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله.» (يو١٢:٤٢-٤٣)

ولكن بحسب ثُقاة العلماء من المسيحيين المتضلعين في نظام اليهود التشريعي ومن ربيين، يظهر أن اصطلاح «خارج المجمع» إجراء بُدىء في تنفيذه في أيام المسيح فقط، فكان يحسب مثل هذا الشخص غير مسموح له بحضور الصلوات أو الاحتفالات الرسمية، وهذا الإجراء أقل قليلاً من إجراء الحرمان الكلي من شركة رعوية إسرائيل، أي الانفصال الكلي عن شعب الله.

«خارج المجمع» هو حكم يحرم الشخص أيضاً من حق حماية التصاريح الدينية التي يتمتع بها اليهودي العادي. ويقول العالم بولتمان في نفس الموضع أن هذا الاجراء ظل معمولاً به منذ أيام بولس الرسول حتى الشهيد يوستين أي حتى سنة ١٦٥ م.

وكان رد القديس بولس الرسول على إخراجه من المجمع أنه اعتبر أن الكنيسة هي إسرائيل الجديد «الحقيقي» ووضع قانونه الجديد المضاد: «لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئاً، ولا الغرلة، بل الخليقة الجديدة، فكل الذين يسلكون بحسب هذا القانون عليهم سلام ورحمة وعلى إسرائيل الله.» (غل٦:١٥-١٦)

ولما حدث حرم كامل للمسيحيين الذين من أصل يهودي، بدأت الكنيسة تصير في المقابل للمجمع، حيث تجرى فيها العبادة بالروح كاملة.

«بل تأتى ساعة، فيها يظن أن كل من يقتلقم يقدم خدمة لله»: «بل تأتي ساعة« تعبير عن تدرج أعمال النقمة والتنكيل با لمسيحيين، من حرمان العبادة في المجامع اليهودية، إلى الحرمان الكامل من الانتساب إلى العبادة اليهودية، ثم تزداد إلى درجة سفك الدماء، على اعتبار أن سفك دماء المسيحي هو خدمة لله، أي بنوع «الذبيحة» التي تقدم للاله المزيف، سواء لدى اليهود الذين ضلوا تماما عن معرفة الله الصحيحة: «لم يعرفوا الآب ولا عرفوني» (يو١٦:٣)» أو عند الوثنيين الذين بلا إله جملة.

«كل من يقتلقم»: «كل» هنا توضح انتشار الروح العدائية إلى ما هو خارج اليهود أيضاً. فاليهود هم الذين بدأوا بهذا السلوك الشيطاني وسلموه للوسنيين. وقد وصف المسيح مجمعهم في سفر الرؤيا بأنه صار مجمع الشيطان بالفعل: «وتجديف القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً، بل هم مجمع الشيطان» (رؤ٢:٩)، «ها أنذا أجعل الذين من

مجمع الشيطان من القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون، ها أنذا أصيرهم يأتون ويسجدون أمام رجليك، ويعرفن أني أنا أحببتك.» (رؤ٣:٩)

وقد زاد عليه الوثنيون ادعاءات كاذبة، بأن المسيحيين يقترفون جرائم، وهي من صنع خيالهم طبعاً، وذلك لكي يوقعوهم تحت عقوبات القوانين بدون وجه حق.

«يقدم خدمة لله»: واضح من النص اليونانى أن كلمة «دخدمة» هي الخدمة الطقسية العبادية، وكلمة «يقدم» هي الكلمة المخصصة لتقديم الذبائح في الطقس اليهودي في عبادة الله. وهذا واضح غاية الوضوح في تقديم المسيح نفسه عدنما ذبحوه في عيد فصحهم، باعتباره ثائراً عل عبادتهم، كذبيحة استرضاء لإلههم، حتى تنجو الأمة من أيدي الرومان: «إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمة كلها.» (يو١١:٥٠)

وقد صار بمد ذلك تقليداً عرفياً صارت عليه المجامع في اعتبار أن المسيحيين ثائرون على يهوه، لذلك يحل دمهم استرضاء لوجه هذا «اليهوه». وهذا ما صنعوه باستفانوس أول شهداء الكنيسة (أع٧:٥٧-٥٨): «وأخرجره خارج المدينة ورجموه». وكان شاول الفريسي الضليع في الناموس، شاهداً عل صحة قتله حسب الناموس. وكان لا يصعب عليهم أن يقيموا شهوداً كذبة، كالذين أقاموهم ضد المسيح، ليتمموا ذبيحتهم مثل الشهود الذين أقاموهم ضد القديس إستفانوس: «وأقاموا شهودا كذبة يقولون أن هذا الرجل لا يفتر عن أن يتكلم كلاماً تجديفاً ضد هذا الموضع المقدس والناموس.» (أع٦:١٣)

فقتل المسيحيين، حسبما سبق وقال المسيح، صار عند اليهود المتعصبين الغيورين، عن جهل وجهالة، نوعا من التقوى ترضي الله! وهذه الحقيقة المخزية مسجلة في كتاب المدراش اليهودي، حيث أخذوا حادثة العهد القديم أيام موسى وما صنعه فينحاس الكاهن (عد٢٥:٦-١٥)، عندما قتل الرجل الإسرائيلي الذي اقتنى زانية من المديانيين علنا، فقتله مع الزانية، فاعتبر ذلك تكفيراً عن ما صنعه الآخرون: «فكلم الرب موسى قائلاً: فينحاس بن أليعاز بن هررن الكاهن قد رد سخطي عن بني إسرائيل، بكونه غار غيرتي في وسطهم، حتى لم أفن بني إسرائيل بغيرتي» (عد٢٥:١٠-١١). ويقول المدراش تعقيباً على هذا: [هل هذا قيل على أساس أنه قدم قرباناً؟ لا، ولكن ليعلمهم أن كل واحد يسفك دم إنسان شرير فكأنه قدم تقدمة (ذبيحة)] _ المدراش على سفر العدد ٢٥:١٣.

وبولس الرسول يشهد على هذا التعليم وهذا السلوك الجاهل بقوله: «فأنا ارتأيت في نفسي أنه ينبغي أن أصنع أموراً كثيرة مضادة لاسم يسوع الناصري، وفعلت ذلك أيضاً في أورشليم؛ فحبست في سجون كثيرين من القديسين، أخذاً السلطان من قبل رؤساء الكهنة. ولما كانوا يقتلون ألقيت قرعة بذلك. وفي كل المجامع كنت أعاقبهم مراراً كثيرة، وأضطرهم إلى التجديف، وإذ أفرط حنقي عليهم، كنت أطردهم أو المدن التي في الخارج.» (أع٢٦:٩-١١)

وبولس الرسول أيضاً يوضح لنا صلة هذه الجرائم التي كان يرتكبها بالغيرة على الناموس هكذا: «فإنكم سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية، إني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي في جنسي، إذ كنت أوفر غيرة في تقليدات آبائي.» (غل١:١٣-١٤)

٣- وَسَيَفْعَلُونَ هَذَا بِكُمْ لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الآبَ وَلاَ عَرَفُونِي.

واضح أن كل خطأ جاهل نصنعه بإرادتنا، يكون نتيجة حتمية لجهلنا بالله: «أنا الذي كنت قبلاً مجدفاً ومضطهداً ومفترياً. ولكنني رُحمت، لأني فعلت بجهل في عدم إيمان.» (١تى١:١٣)

وهكذا، إذ سبق الرب فأوضح ذلك لتلاميذه وللمؤمنين إلى منتهى الدهور، جعلهم لا يرتاعرن من عنف الاضطهاد،

ولا يحنقون على قاتليهم:«يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لو٢٣:٣٤). في هذه الآية يكشف الرب الأساس الذى يقوم عليه اضطهاد العالم للمسيحيين خاصة، وهو عدم انكشاف حقيقة الآب وحقيقة رسالة الابن التي هي موضوع شهادتهم بالدرجة الاولى، والتي هي نفسها مصدر خلاص وغنى بل وفرح وسلام الإنسان المسيحي. فإن كان قد قيل عن المسيح أنه تعلم الطاعة مما تألم به: «مع كونه ابنا، تعلم الطاعة مما تألم به، وإذ كمل صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي» (عب٥:٨-٩)؛ فقد صارت اضطهادات العالم بكل صنوفها فرصة للشركة فيما تألم به المسيح على نفس المنوال: «إن كانوا قد اضطهدوني، فسيضطهدونكم.» (يو١٥:٢٠).

٤- لَكِنِّي قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا حَتَّى إِذَا جَاءَتِ السَّاعَةُ تَذْكُرُونَ أَنِّي أَنَا قُلْتُهُ لَكُمْ. وَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ مِنَ الْبِدَايَةِ لأَنِّي كُنْتُ مَعَكُمْ.

«لكن»: وكأنما يسترجع الرب الحديث من أوله، متأسفاً للغاية أنه ربما يكون قد أحزنهم بهذا السبق في الإعلان عما سيعانونه، ولكن الضرورة حكمت بذلك، حتى إذا جاءت ساعة الاضطهاد يكونون على بينة تماما مما يحدث لهم: أولاً أن ذلك هو من أجل اسمه؛ ثانياً لأن هؤلاء المضطهدين لا يعرفون الآب ولا الابن، فهم عن جهل يصنعون كل ما يصنعونه بهم. وهكذا إذ يتذكر المؤمنون كلام الرب، يدركون أن ما يحدث لهم وأمامهم هو معروف تماماً ومكشوف أمام الله، وحينئذ يتشجعون أن عين الله عليهم.

والمسيح، إذ يضطر أن يخبرهم بهذا كله الآن، لأنه ماضى إلى الآب ولن يروه، وحينما كان معهم لم يكن من المناسبه أن يتكلم معهم لأن حديث الساعة هو للساعة، فإنهم لما كانوا في حضنه كان يحفظهم من الذئاب؛ ولكن يتحتم الآن، وبعد أن تعلموا كيف يجاهدون الجهاد الحسن أن يتركهم لخوض المعركة لنوال النصرة: «أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده» (لو٢٤:٢٦). والمسيح ضامن لهم هذه النصرة الأن، بسبب عطية الروح القدس الذي سيعطيهم القوة والمعرفة والشهادة، والحق كل الحق.

٥- وَأَمَّا الآنَ فَأَنَا مَاضٍ إِلَى الَّذِي أَرْسَلَنِي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَسْأَلُنِي أَيْنَ تَمْضِي.

هنا محور الحديث كله وسببه، فقد انتهت رسالة المسيح بالنسبة لهم، أما بالنسبة لنفسه، فأمامه الرحلة الخالدة من الصليب إلى السماء من حيث أتى؛ رحلة تبدأ حينما تبلغ الآلام ذروتها، «لأنه لاق (يليق) بذاك الذي من أجله الكل، وبه الكل، وهو آت بأبناء كثيرين إلى المجد، أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلا» (عب٢:١٠)

ولكن المسيح يعتب على التلاميذ المغمورين والمهمومين في حزنهم، سواء من جهة الفراق الحتمي الذي أدركوا حقيقته أو بسبب ما حدثهم عنه المسيح من جهة المصير الذي ينتظرهم في العالم من بغضة وعداوة ومطاردة وقتل! هذا وذاك ابتلع تفكيرهم كلية فلم ينتبهوا أن يسألوا المسيح إلى أين سيمضي: «وليس أحد منكم يسألني أين تمضى»!! التلاميذ في حزنهم لم يدركوا: «أين تمضي» الذي كان ينبغي أن يكون سؤالهم الملح، الأمر الذي يعنيهم بالدرجة الأولى أكثر ألف مرة من التفكير في مصيرهم بعد ذهاب المسيح. ثم يعود المسيح يعاتبهم:

٦- لَكِنْ لأَنِّي قُلْتُ لَكُمْ هَذَا قَدْ مَلأَ الْحُزْنُ قُلُوبَكُمْ.

على من الحزن؟ التلاميذ كانوا يتشبثون بوجود المسيح معهم بالجسد المنظور. كانوا مبهورين بأيام ابن الإنسان على الأرض. كانت فرحة دخوله وخروجه معهم قد جعلت من الأرض ملكوتاً منظوراً ملموساً ومُعاشاً. التلاميذ كانوا على حق؛ كيف يفرطون بمصدر فرحتهم العظمى؟ لقد رأوا فيه الحياة الأبدية التي عند الآب وقد أُظهرت، لقد

عاشوها مضاعفاً، لمسوها، وشاهدوها عن قرب: «كلام الحياة الأبدية عندك» (يو٦:٦٨)، إلى من نذهب بعد أن تذهب؟

«لِيُقَبِّلْنِي بِقُبْلاَتِ فَمِهِ لأَنَّ حُبَّكَ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْرِ.

لِرَائِحَةِ أَدْهَانِكَ الطَّيِّبَةِ. اسْمُكَ دُهْنٌ مُهْرَاقٌ

لِذَلِكَ أَحَبَّتْكَ الْعَذَارَى.

اُجْذُبْنِي وَرَاءَكَ فَنَجْرِيَ.

تَحْتَ ظِلِّهِ اشْتَهَيْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَثَمَرَتُهُ حُلْوَةٌ لِحَلْقِي.

شِمَالُهُ تَحْتَ رَأْسِي وَيَمِينُهُ تُعَانِقُنِي.

فِي اللَّيْلِ عَلَى فِرَاشِي طَلَبْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ.

إِنِّي أَقُومُ وَأَطُوفُ فِي الْمَدِينَةِ فِي الأَسْوَاقِ وَفِي الشَّوَارِعِ

أَطْلُبُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ.

مُعْلَمٌ بَيْنَ رَبْوَةٍ. رَأْسُهُ ذَهَبٌ إِبْرِيزٌ.

طَلْعَتُهُ كَلُبْنَانَ. فَتًى كَالأَرْزِ.

حَلْقُهُ حَلاَوَةٌ وَكُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ.

هَذَا حَبِيبِي وَهَذَا خَلِيلِي ....

أَنَا لِحَبِيبِي وَحَبِيبِي لِي. الرَّاعِي بَيْنَ السَّوْسَنِ

اِجْعَلْنِي كَخَاتِمٍ عَلَى قَلْبِكَ كَخَاتِمٍ عَلَى سَاعِدِكَ.

لأَنَّ الْمَحَبَّةَ قَوِيَّةٌ كَالْمَوْتِ. الْغَيْرَةُ قَاسِيَةٌ كَالْهَاوِيَةِ.

لَهِيبُهَا لَهِيبُ نَارِ لَظَى الرَّبِّ.

مِيَاهٌ كَثِيرَةٌ لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْفِئَ الْمَحَبَّةَ وَالسُّيُولُ لاَ تَغْمُرُهَا.

إِنْ أَعْطَى الإِنْسَانُ كُلَّ ثَرْوَةِ بَيْتِهِ بَدَلَ الْمَحَبَّةِ تُحْتَقَرُ احْتِقَاراً. (سفر النشيد)

«قال له سمعان بطرس: يا سيد إلى أين نذهب» (يو١٣:٣٦)

«يا سيد لنأ نعلم أين تذهب.» (يو١٤:٥)

مع أنهم لو عرفوا حقيقة الآب وحقيقة ذهابه إل الآب، لكان لهم الفرح عوض الحزن. ولكن لأنهم لم يعرفوا بعد ماذا بعد ذهابه، ماروا متشبثين بوجوده، وفضلوا عدم ذهابه.

لقد انحصر التلاميذ في مسرة العشرة الحلوة التي أسسها المسيح معهم، لأنه كان قد أحبهم جداً: «إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى...» (يو١٣:١)

ولكن كل مضمون أفراح التلاميذ كان، في الحقيقة، بسبب استعلاناته الخفية الشخصيه وعلاقته بالآب، فإن كانت هذه قد تسبتت في تعلقهم به وحبهم له، فذهابه إلى الآب سيحقق لهم هذا الاستعلان نفسه أضعاف أضعاف.

٧- لَكِنِّي أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ.

لقد أخفى الحزن حقيقة إرسالية المسيح عن التلاميذ التي لن تأخذ استقلانها النهائي إلآ بعد تكميل الآلام والانطلاق إلى الآب. لذلك يتجاوز المسيح حالة حزنهم، ويكشف لهم حقيقة انتهاء رسالته معهم، وضرورة انطلاقه ليأتي الروح القدس ليحل محله، لتكميل استعلان المسيح للتلاميذ والكنيسة، وقيادة التلاميذ لتكميل عمل المسيح

على الأرض.

لاحظ أن قول المسيح: «إنه خير لكم»، هو تنبيه لذهن التلاميذ أن تكميل مشيئة الآب ينبغي أن يكون محل رضى مشيئة التلاميذ أيضاً، فمسرة الآب يلزم أذ توافق مسرتنا . فالخير كل الخير هو دائماً في اتباع رأي الله.

«أقول لكم الحق»: الرب هنا لا يقصد التأكيد وحسب، بل وينبه الأذهان، أنه يستعلن حقيقة أساسية ينبغي أن تصير قاعدة للايمان. فذهاب المسيح إلى الآب عن طريق الصليب هو لحسابنا، لذلك فحزن التلاميذ ورغبتهم في عدم انطلاق المسيح، معناه خسارة جسيمة لهم، لأن رسالته معهم بلغت نهايتها، وتكميلها إنما سيكون بالروح القدس.

ومن واقع ما حدث بالفعل، عرفنا أن الروح القدس فوق أنه استعلن لنا حقيقة المسيح، فهو حقق وجود المسيح الدائم معا وإلى منتهى الدهر، وكأن المسيح لم يغادر الأرض: «ها أنا معكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر» (مت٢٨: ٢٠). وهكذا صار انطلاق المسيح سببا في بقاء حضوره وسط الكنيسة على الدوام بالروح القدس.

بقاء المسيح مع تلاميذه، يحصر عمل المسيح في اتضاعه في الإعداد لصليبه، في استعلان الأمور الآتية فقط دون تحقيقها، كالخلاص والفداء وحب الآب والتبني والمجد العتيد. ولكن انطلاق المسيح عبر تحقيق الصليب، وهو قمة أعمال طاعته واتضاعه، حيث قاعدة انطلاقه إلى الآب محملا بمصالحة العالم وعلى يديه ذبيحة الخلاص؛ يكون قد حقق بالفعل كل ما كان يخبرهم عنه ويستعلنه لهم.

انطلاق المسيح يحقق دخوله في المجد الذي له، حينئذ لا يعود يخبر تلاميذه بالخبر أو يستعلن لهم بالمعرفة، بل يحقق لهم العطاء نفسه، عطاء الخلاص والفداء والحب الأبوي والتبني والمجد، وهذا العطاء يتم لهم بالروح القدس الذق يأخذ مما للمسيح الممجد ويخبرهم ويعطيهم. فانطلاق المسيح أنتج عملين: الأول أنه حقق للبشرية كل ما سبق واستعلنه بالإنجيل، والثاني إرسال الروح القدس الذي يسلمهم غنائم الابن الممجد: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» (يو١٧: ٢٢). وباختصار نقول إن المسيح حقق كل ما قاله، وحقق ذاته كابن الله، وحقق سلطانه بانطلاقه، أي بقيامته وصعوده إلى الآب: «وتعين ابن الله بقوة، من جهة روح القداسة، بالقيامة من الأموات.» (رو١: ٤)

إذن، فحديث الوداع هذا في جملته لم يحمل فقط توعية لتلاميذه أو تعزية نفسانية ترفع عنهم أحزانهم وثقل الخبر عن نفوسهم، ولكن هذا الحديث بالذات، المبني أصلاً على الكرمة والأغصان، هو لإعلان حقيقة الوضع الكياني الروحي الدائم للمسيح بالنسبة للتلاميذ والتلاميذ بالنسبة للمسيح، وبالتالي تصوير كنيسة المستقبل بالصورة السماوية الواقعية، وخاصة فيما هو للروح القدس، العامل الأساسي الجديد في علاقة المسيح بالتلاميذ والكنيسة.

وان كان المسيح بانطلاقه وإرساله الروح القدس قد نقل رؤية التلاميذ له من محدودية الجسد والعواطف كظاهرة تاريخية، إلى دائرة الرؤية الإلهية الكاملة والمطلقة كحقيقة اسكاتولوجية، أي أخروية، يعيشونها بالفعل، فقد أسس بهذا منهجاً حياً للكنيسة كلها عبر الدهور والأبد. فالمسيح، بالنسبة لنا الأن هو أوضح وأشمل واكثر استعلاناً مما كان للتلاميذ بالجسد، وهذا هو قيمة «الانطلاق» الذي ركز عليه المسيح، لكي يكون للتلاميذ مصدر الفرح، وليس الحزن.

ولكن يتحتم أن نضيف أن المسيح لم يتغير في نفسه من وجوه كظاهرة تاريخية إلى حقيقة إسكاتولوجية، فالله هو الله على الأرض وفي السماء. ولكن الذي تغير وتغير جداً، هو رؤية التلاميذ للمسيح التي أثرت على كيانهم

ونقلتهم من واقع أرضي إلى واقع سماوي، من حالة السؤال الدائم كيف ولماذا وإلى أين أنت ذاهب، إلى حالة الإجابة عن وعي كامل ومفتوح، إلى بشارة مفرحة، إلى نقل كل خبراتهم الحية إلى الأخرين.

ومنظر التلاميذ الحزانى والمسيح أمامهم يحكي لهم عن انطلاقه وهو في غاية السرور: «الذي من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب، مستهينا بالخزي، فجلس في يمين عرش الله» (عب). هذا الموقف هو المثيل المطابق للأب الذي سمح بأن يسحق ابنه بالحزن وهو مسرورر، بسبب المجد الذي سيجوزه والصلح الذي سيقيمه! «أما الرب فسر بأن يسحقه بالحزن، إن جعل نفسه ذبيحة إثم، يرى نسلاً تطول أيامه (كنيسة الدهور) ومسرة الرب بيده تنجح» (إش٥٣:١٠). على هذا الأساس المتين، شبه المسيح حزن التلاميذ بامرأة ماخض قربت على الولادة، فحزنها سيولد سروراً، لذلك لا يلتفت أحد إليها وهي تصرخ متوجعة!! فحزن التلاميذ كان بسبب تعلقات جسدية وقتية زائلة هي من صنع التاريخ، وسيبتلعها الماضي، أما انطلاق المسيح فهو البقاء الأزلي، وهو المستقبل الحي، الذي سيبقى هو كما هو، فرح لا يُنطق به ومجيد.

والخطر هنا محدق بنا نحن، إذا اشتهينا التعرف على المسيح أو حاولنا تحقيق وجوده لنا بالعيان، هو أو عطاياه من مواهب تخدم الوجود الأرضي أو ألزمني، فكأنما نجلب على نفوسنا أحزاناً بلا رجاء كأحزان التلاميذ لما واجهوا انفصال الآزلي عن الوقتي؛ لأن كل ما هو زائل يرافقه الحزن والندم، حينما يسلبه منا الزمن.

وكما التلاميذ، نحن أيضاً، لا يليق أن نقبض على الأزلي بأيدينا لنبقيه لمتعة عيوننا وآذاننا. يتحتم أن نحزن كما حزنوا، حينما نمزق عن أنفسنا كل ما تعلقت به أنفسنا من جهة النظر والسمع بل وحتى العواطف الجسدية. نحن الأن نقبض على المسيح بالإيمان، لا باليد ولا بالعيان. تأكيد الإيمان لا يوازيه تأكيد على الأرض، إنه النعيم المقيم. بالإيمان نحصل عليه (على المسيح) داخل قلوبنا كحقيقة لا تفارقنا: «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف٣:١٧). بالإيمان نمتلىء بروحه القدوس: «امتلئوا بالروح» (أف٥:١٨). وذا حل المسيح في القلب وامتلأ بالروح القدس، يتحرر الانسان من الجسد، من الفكر، من الناس، من الزمن ومن العالم. لا بد أن نمارس أحزان الترك والفراق، إن كنا نود أن نزوق الفرح الدائم الذي لا يُنزع منا. الروح القدس يسر بأحزاننا الأرضية، بل يشجعنا على اقتحامها، لأنه سيؤسس في موضعها أفراحه الدائمة.

٨- ١١ وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُبَكِّتُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيَّةٍ وَعَلَى بِرٍّ وَعَلَى دَيْنُونَةٍ.

أَمَّا عَلَى خَطِيَّةٍ فَلأَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِي.

وَأَمَّا عَلَى بِرٍّ فَلأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَلاَ تَرَوْنَنِي أَيْضاً.

وَأَمَّا عَلَى دَيْنُونَةٍ فَلأَنَّ رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمِ قَدْ دِينَ.

«يبكت»: الترجمة العربية لهذه الكلمة اليونانيةلا تفي بالمعنى الذي يقصده الإنجيل. لذلك لزم شرح المواضع التي جاءت فيها هذه الكلمة في العهد الجديد والقديم لتوضيح المعنى المقصود.

في العهد الجديد: تأتي دائماً مع المفعول به كشخص، وتعني تماماً التوضيح للشخص بشأن خطيئته ودعوته إلى التوبة. وغالباً ما يكون ذلك سراً وفي الخفاء بين اثنين كما جاءت في (مت١٨:١٥): «وان أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما، إن سمع منك فقد ربحت أخاك»... كذلك جاء ذلك في (أف٥:١١): «ولا تشتركوا في أعمال الظلمة غير المثمرة بل بالحري وبخوها»، طبعاً يقصد توبتهم وليس التشهير بهم، ولكن قد يكون ذلك في

وسط الجماعة ولكن بفم المدبر لها، كما جاء في (اتي٥:٢٠): «الذين يخطئون وبخهم أمام الجميع لكي يكون عند الباقين خوف». كذلك كما في (تي١:٩): «ملازماً للكلمة الصادقة التي بحسب التعليم، لكي يكون قادراً أن يعظ بالتعليم الصحيح، ويوبخ المناقضين»، هذا في أمر تعيين الأسقف. ومن الأمور الهامة أن يأتي هذا المعنى كعمل للرب الممجد بالنسبة لأعضاء جسده على الأرض:«إني كل من أحبه، أوبخه وأؤدبه، فكن غيوراً وتب.» (رؤ٣:١٩)

ويأتي هذا الفعل (   ) بمعنى يستذنب بالنسبة للمسيح كديان حينما يأتي في مجده: «ليصنع دينونة على الجميع ويعاقب جميع فجارهم على جميع أعمال فجورهم التي فجروا بها، وعلى جميع الكلمات الصعبة التي تكلم بها عليه خطاة فجار.» (يهوذا ١٥)

فصحة ترجمة (   ) هنا ليس «يعاقب»، ولكن «يسبت عليه الجريمة» أي «يستذنبه ويقنعه بجريمته أولاً قبل أن يدينه»، (بالإنجليزية convict)، لأن كلمة «يدين» جاءت أولاً واضحة وعامة في أول الآية.

وقد استخدم المسيح نفسه هذه الكلمة بهذا المعنى على نفسه، بمعنى أنه يستحيل على أحد أن يستذنبه، أي يثبت عليه خطية واحدة: «من منكم يبكتني على خطية» (يو٨:٤٦). وهنا كلمة «يبكتني» لا تفى بالمعنى، لأنها في دائرة الحديث عن المحاكمة، فقد حكم المسيح على اليهود هنا أولاً بأنهم: «أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا» (يو٨:٤٤)، ثم بعد ذلك تحداهم: «من منكم يبكتني عل خطية». والكلمة بصيغة المبني للمجهول تأتي بمعنى قبول التوبيخ الشديد إزاء مواجهة الشخص واستذنابه وشدة وقع ذلك عليه: «أما هيرودس رئيس الربع، فإنه قد توبخ منه (من المعمدان) لسبب هيرود ...» (لو٣:١٩). وأيضا بصيغة المبني للمجهول: «ولكن إن كنتم تحابون تفعلون خطية، موبخين من الناس كمتعدين.» (يع٢:٩)

وهكذا نرى أن الفعل (   ) «يبكت العالم» لا يعني فقط «يبكت» أو«يوبخ»، أو «يعير» أو «يستذنب» بمعنى إثبات خطية فقط، ولا حتى يفيد معنى كشف الخطة واعلان الخاطىء، ولا فضح الخطة وعرضها، ولكن يفيد توضيح الخطية على أساس إيجابي لغاية هي أن يقف صاحبها موقفاً صحيحاً، أو بمعنى أوضح ليتقل صاحبها من الخطية للتوبة. فهو يهدف مباشرة إلى «تلمذة تعليمية»، أو «تعليم تهذيبي وتأديبي». وهذا المعنى يأتي متكاملاً تقريباً في الآية (٢تي٣:١٦): «كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ، للتقويم والتأديب الذي في البر». وهكذا اضطر بولس الرسول لكي يعطي كلمة «التوبيخ» كل مضمونها وضعها بين التعليم والتقويم والتأديب.

فهذه الكلمة خصبة جداً وغنية بالمضمون التعليمي الهادف للتصحيح، وتعتبر إحدى الكلمات الهامة جداً في العهد القديم التي تبرز حرباً إيجابية على الخطية والتعدي والجهالة.

وفي هذا المعنى تأتي هذه الكلمة في الآية التي نحن بصددها، لتفيد أن الروح القدس له دور كبير وخطير في العالم قبل أن تأتي الدينونة الأخيرة. و«العالم» هنا المقصود به ليس الأفراد أو الهيئات، ولكن الروح العامة لمضمون كلمة «العالم».

وفي سياق هذه الآية، فإن الروح القدس له دور أساسي في إدخال معايير جديدة على معايير العالم القديم، سواء كان عالم اليهود المحدود الضيق، أو عالم اليونان التائه وراء الفكر الفلسفي المتخبط في ظلمات الجهالة الوثنية التي بلا حدود.

وأول معيار يدخله الروح القدس على العالم ، هو المعيار الجديد لمفهوم «الخطية».

«يبكت العالم على خطية»: وكلمة «الخطية» تأتي هنا بدون تعرف بـ الـ: «على خطية»؛ هذا يفيد أن العالم

حتى مجيء الروح القدس إليه، لم يكن لديه معيار صحيح عن «الخطية» المعرفة بـ الـ « كخطية معلومة يُحاكم عليها ويُحاكم بمقتضاها. ولكن هنا، فإن الروح القدس، كمدع عام، يُدخل لأول مرة في تاريخ العالم المعيار أو الميزان الأساسي للخطية التي سيُحاكم ويُدان عليها العالم أمام ديان الأرض كلها وهي: «عدم الإيمان بابن الله»، كما جاء من فم الرب الديان د«... لأنهم لا يؤمنون بي.» (يو١٦:٩)

والروح القدس، إذ يقف تجاه العالم كمدع عام لأول مرة في تاريخه الطويل، يفرض القانون الذي سيُحاكم العالم بمقتضاه. إنما يتكل، في نشر بنود هذا القانون، على التلاميذ الذين أرسلهم «يسوع»، الرب الإله، مزكين منه كمعلمين، لتلمذة الخليقة كلها، مؤازرين بالروح القدس والشهادة، ومدعمين بالآية والكلمة!! وقد كان، فقد خرج صوتهم إلى كل أقطار الأرض، على حد تعبير النبوة (مز١٩:٤).

فإن كان، في البد، قد جاء النور إلى العالم «ولم يعرفه العالم» (يو١:١٠)، فالآن دخل الروح القدس إلى العالم ليجعل من النور مصابيح تضيء الملايين من قلوب البشر: «فليضيء نوركم هكذا قدام الناس» (مت٥:١٦).

والروح القدس يلهب ويشعل هذا اللهيب الذي لا ينطفىء، حتى يأتي الرب الديان: «جئت لالقي ناراً على الأرض (العالم كله)، فماذا أريد لو اضطرمت.» (لو١٢:٤٩)

الروح القدس الآن له دور فعال في كل أنحاء العالم بالنسبة لخطية واحدة، وهي التي تتفرع منها كل الخطايا، وبمحاصرتها وكشفها تنحصر كل خطية العالم، وهي: «عدم الإيمان بابن الله».

«يبكت العالم على بر»: لا يمكن أن يكون عدلاً ولا حقاً، أن يدخل في الميزان القضائي للعالم المعيار الذي تقاس به خطايا وانحرافات العالم التي على أمامها ستتم المحاكمة والدينونة، دون أن يوازنها أسباب البراءة التي سيُثاب عليها ويتبرأ.

والآن، وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً بواسطة الإنجيل عدم نفع بر الناموس وقصوره الفاضح عن أن يُبريء إنساناً في ساحة قضاء الله، بل على النقيض رأينا إنساناً فريسياً متضلعاً في الناموس، مهذباً ومتدرباً بالفكر والضمير على ما هو البر بالناموس، غيوراً فيما هو لله بالنسبة لقضاء بر الناموس، وهو شاول، وجدناه يحكم بقتل إنسان بريء ويشهد عليه وهو مرتاح الضمير، وهو إستفانوس الذي يظهر بعد ذلك أنه شعيد المسيح، أي شهيد البر الأبدي! وبذلك يكون الناموس قد حكم على نفسه بعدم نفعه، وبطلانه لتبرئة الإنسان.

أما العالم الوثني فلم يكن له بر، ولم يعرفه، لأن عبادة الأوثان كانت تُمجد بالزنا والفجور.

لأجل هذا دخل الروح القدس إلى العالم ليستذنب العالم على بره الكاذب، أو على عدم وجود «بر» له على وجه الإطلاق، ثم وليقوده إلى «البر» الحقيقي الذي أسسه المسيح بموته دافعاً ثمن خطايا العالم كله بسفك دمه، الذي بروحه الأزلي برأ كل خطاة الأرض، وهيأهم للوقوف أمام محكمة الدينونة الأخيرة بلا لوم.

ولكي يظهر «بر ابن الله» وتظهر قوته الأزلية على تبرئة كل من آمن به أمام الله الآب، وذلك لما قام من الأموات وصعد أمام أعين تلاميذه كشهود، ذاهباً إلى الآب ليبقى إلى الأبدد شفيعاً في المذنبين مبرئاً كل من آمن بدمه؛ وضع المسيح قانون عمل الروح في العالم على هذا الأساس: أنه «يبكت على بر»، «لأني ذاهب إلى الآب»، «وبالإجماع عظم هو سر التقوى الله ظهر في الجد، تبرر في الروح، تراءى لملائكة، كُرز به بين الامم، أومن به في العالم، رُفع في المجد.» (١تى٣:١٦)

وارتفاع المسيح في المجد وعدم رؤيته بعد، هو بعد ذاته برهان غلبته على العالم، كما هو برهان على أن ليس

لرئيس العالم تي مأخذ على المسيح، وهذا دلالة عل بره الكامل والكلي.

أما أساس البر الذي بالمسيح فهو ليس بالعيان: «ولا ترونني أيضاً»، بل بالإيمان وحده «إيمان ابن الله»، الإيمان الذي له القوة والفاعلية، بما هو في غير مقدور العيان بالمرة. فقوة عمل الإيمان تنقل الجبال. لذلك، فالبر الذي بإيمان ابن الله هو قوة العالم الجديد التي تفوق كل قوة عرفها العالم حتى الأن أو سيعرفها، والذي يوم أن تستعلن للعالم حقيقة الإيمان ببر ابن الله، فسوف يدخل (العالم) في أمجد أحقابه التاريخية، أو بالحري سوف يرتفع فوق التاريخ.

«ويبكت العالم على دينونة، لأن رئيس هذا العالم قد دين»: إن أعظم محكمتين في العالم عراهما المسيح وفضحهما أمام التاريخ هما:

* محكمة اليهود: المنعقدة على لواء السنهدريم، برئاسة أعظم حكماء اليهود ودارسي قانون التوراة وحرفية قضاء الناموس.

* محكمة روما: ومن ذا الذي لا يعرف القانون الروماني الذق أخذت به كل دساتير العالم، وصار النواة الاولى لكل تشريع معروف لدى العالم كله. فالقانون الفرنسي وليده والقانون الإنجليزي ابنه الأصغر.

لقد انضم صوت قضاة محكمة السنهدريم إلى صوت قضاة محكمة الرومان، وأدانوا ابن الله أنه خاطىء، ومذنب، ومجدف، ومضلل، وحكموا عليه بإجماع الأراء أنه مستوجب الموت صلباً.

ولكن قام المسيح من الموت ناقضاً حكم الموت، كاشفاً بطلان أحكام اليهود، موضحا خروجها عن الحق وموجباً إيقافها إلى الأبد. كما كشف بطلان أحكام الرومان وخروجها عن الحق، ونحاها من أن تصلح للحكم على مصير العالم وضمائر الناس.

وهكذا دخل الروح القدس إلى العالم، ليستذنب العالم أولاً على ما فعل، وعلى دينونته الكاذبة القائمة بتحريض من رئيس عالم الكذب والضلال، الذى أدانه المسيح بالصليب وعلى الصليب، إذ فضح كذبه وأنه قتالا للناس منذ البدء؛ إذ ضبطه متلبسأ بالحكم بالقتل على إنسان أنه خاطىء ومذنب بحسب أحكامه الكاذبة والمزورة، وهو في حقيقته ابن الله الذي بلا خطية ولا لوم، والذي لم يوجد في فمه غش!!

وهكذا رفع الروح القدس يد رئيس هذا العالم عن أن تتدخل بعد اليوم، ولا أن يكون له صوت ما في الدينونة التي سيتولاها ابن الله: «فطُرِح التنين العظيم، الحية القديمة، المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله، طُرِح إلى الأرض، وطُرحت معه ملائكته. وسمعت صوتاً عظيماً قائلاً في السماء: الآن صار خلاص إلهنا وقدرته وملكه وسلطان مسيحه، لأنه قد طُرِح المشتكي على إخوتنا، الذي كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهاراً وليلاً، وهم غلبوه بدم الخروف وبكلمة شهادتهم ولم يحبوا حياتهم حتى الموت.» (رؤ ١٢:٩-١١)

لقد غلب المسيح العالم: «ثقوا أنا قد غلبت العالم»، وصار هو ديان الأحياء والأموات.

الوعد بإستئناف الكلام فيما بعد

آيتان في هامتان جداً جاءتا في عروض بقية هذا الأصحاح، تفيد وعد المسيح باستئناف الحديث فيما بعد، أي بعد تكميل مشيئة الآب.

الآية الاولى آية ١٢: «إِنَّ لِي أُمُوراً كَثِيرَةً أَيْضاً لأَقُولَ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ.

الآية الثانية آية٢٥: «قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا بِأَمْثَالٍ وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ حِينَ لاَ أُكَلِّمُكُمْ أَيْضاً بِأَمْثَالٍ بَلْ أُخْبِرُكُمْ عَنِ الآبِ علاَنِيَةً.

من هاتين الآيتين نفهم أن المسيح استأنف حديثه هذا الذي لا يستطيعون الآن أن يحتملوه، وهو طبعاً الخاص بموته ومعناه، والذي تلقاه بولس الرسول بدقة وعمق فائقين، بإعلان خاص به. والحديث الآخر عن الآب، وهو العلاقة بين الآب والابن، والتي تلقاها القديس يوحنا وسجلها لنا في إنجيله بصورة فريدة.

١٢- «إِنَّ لِي أُمُوراً كَثِيرَةً أَيْضاً لأَقُولَ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ.

لقد سبق المسيح وأعلن لتلاميذه أنه قد عرفهم بكل ما عند الآب: «لكني قد سميتكم أحباء، لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يو١٥:١٥)، موضحا بذلك اكتمال تعاليمه الخاصة باستعلان مشيئة الآب من جهة الإيمان بالآب والابن، والميلاد الجديد للانسان، والصلاة بالروح والحق، والدينونة التي أعطيت له، وأنه بالإيمان بالآب والابن يعطى الانعتاق من الدينونة والانتقال من الموت إلى الحياة؛ وأن مجرد سماع صوت الابن كفيل للمريض أن يُشفى، والخاطىء ليتجدد، والميت ليقوم؛ وأنه بصفته الابن الكائن في حضن الآب، فهو الوحيد الذي يخبر بكل ما عند الآب ويعمل كل أعمال الآب ويحيي من يشاء، وأنه هو الذي كتب عنه موسى، فهو رجاء ونهاية الناموس؛ وأنه بكلمة يُشبع الألوف من خبز الأرض ومن خبز السماء الذي هو جسده، الذي يعطيه للعالم، باذلاً إياه لخلاص كل من يؤمن به، وأن جسده ودمه هما طعام الحق، ومن يأكلهما يحيا إلى الأبد ويثبت فيه، وأنه هو الماء الحي الذي كل من يؤمن ويشرب من تعاليمه لا يعطش إلى العالم بل ينبع فيه الروح إلى حياة أبدية، وأنه هو نور العالم ونور الحياة للناس، وكل من يتبع تعاليمه يعيش في نور الله ولا تطغى عليه ظلمة العالم وهمومه، وقد فتح عيني أعمى منذ ولادته ليرى بالفعل نور الحياة والعالم؛ وأن الإيمان بابن الله يعتق الانسان من عبودية الخطية وبه ينال حرية أولاد الله، فلا يعود تحت سلطان الخطية القاتل؛ وأن التبني لله بالمسيح هو فوق التبني لإبراهيم، لأن المسيح كائن قبل إبراهيم، وأن إبراهيم نفسه كان يشتهي أن يراه؛ وأنه هو الراعي الصالح، و يعرف أولاده، وأولاده يعرفونه، وأنه سيضع حياته من أجلهم ليرفع عنهم تهديد الشيطان، وأن الشيطان لن يستطيع أن يخطف منه ابنا له؛ وأنه هو القيامة والحياة، وقد أقام لعازر من الموت، ليؤمنوا أنه هو الذي يقيم الموتى ويحييهم.

وعلى العشاء الأخير كشف لهم سر موته القادم، الذي به سينال المؤمنون غلبة الموت في سر جسده وسر دمه، وسيقبلون سر القيامة لتسكن فيهم.

ولكن كل ذلك والتلاميذ لا يفهمون ما يقول، ولكنهم قبلوا الكلام وحفظوه، لأن تفسيره قبل حدوثه صعب عليهم لا يحتملونه وعسير عليهم غاية العسر، الأمر الذي نفهمه نحن الآن، وبعد أن تم، يكون بمنتهى اليسر.

لذلك ختم على أحاديث تعاليمه، التي هي كلها بشارة الإنجيل؛ وأبقى منها أسرار موته وقوته، وأسرار قيامته وقوتها، وشركة المؤمنين فيها. وقد خص بولس الرسول بشرحها واستعلان كل أسرارها في رسائله، والتي جاءت تتمة لتعاليم المسيح في الأناجيل وشرحاً لكل أسرارها: «... أنه بإعلان عرفني بالسر، كما سبقت فكتبت بالايجاز، الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدرون أن تفهموا درايتي بسر المسيح، الذي في أجيال أخر لم يُعرف به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح. ... الذي صرت أنا خادما له، حسب موهبة نعمة الله المعطاة لى، حسب فعل قوته، لى أنا أصغر جميع القديسين أُعطيت هذه النعمة، أن أبشر بين الأمم بغنى المسيح الذي لا يُستقصى، وأنير الجميع فيما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور فى الله، خالق الجميع بيسوع المسيح، لكي يُعرف الآن عند

الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة.» (أف٣:٣-١٠)

«واعرفكم، أيها الإخوة، الإنجيل (البشارة المفرحة) الذي بشرت به، أنه ليس بحسب إنسان، لأني لم أقبله من عند إنسان ولا عُلمته، بل بإعلان يسوع المسيح. ... لكن لما سر الله الذي أفرزني من بطن أمي، ودعاني بنعمته، أن يُعلن ابنه فّي لابشر به بين الأمم، للوقت لم أستثير لحماً ودماً، ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلي بل انطلقت ... ثم بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم لأتعرف ببطرس، فمكثت عنده خمسة عشر يوماً، ولكنني لم أر غيره من الرسل، إلا يعقوب أخا الرب.» (غل١:١١-١٩)

وكلام بولس الرسول الذي تلقاه بإعلان خاص من الرب يسوع، الذي ظهر له، والذي فسر فيه سر الإيمان، وسر الخلاص، وسر الشركة، وسر التبني، وسر الميراث الأبدي للمؤمنين، كل ذلك في موت المسيح وقيامته، ظل أيضاً كلاماً صعباً، كما وصفه المسيح تماما حتى في أيام الرسل أنفسهم. وهذه هي شهادة بطرس الرسول: «كما كتب إليكم أخونا الحبيب بولس أيضاً بحسب الحكمة المعطاة له، كما في الرسائل كلها أيضا متكلما فيها عن هذه الأمور التي فيها أشياء عسرة الفهم، يحرفها غير العلماء وغير الثابتين كباقي الكتب (الأناجيل) أيضاً لهلاك أنفسهم.» (٢بط٣:١٥-١٦)

ولكن هذه الأسرار كلها تولى الروح القدس بواسطة رجال الكنيسة الملهمين على مر العصور شرحها وتوضيحها، فصارت كلماتها حلوة مضيئة تنير العينين، وتلهب القلب، وتفتح طريق الخلاص بلا عائق أمام كل من يجلس إليها متتلمذاً ساهراً كل يوم.

ونلاحظ في كلام المسيح في هذه الآية قوله عن صعوبة احتمال ما يريد أذ يقوله بأنه «لآن»، وذلك لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، وهو العامل الأول في استعلان ما صعب من الأقوال.

الروح القدس وعمله مع التلاميذ ليعدهم للمستقبل

يو ١٦:١٣-١٥

لقد أوضح المسيح علاقة الروح القدس بالعالم، كون العالم لا يستطيع أن يراه أو يعرفه، طالما كان العالم في حوزة ضلالة الشيطان (١٤:١٧). ولكن المسيح حصر عمل الروح القدس في العالم في حدود عمل التلاميذ بالشهادة في مواجهة العالم، للتعريف بما هي خطية العالم، وما هو البر المرفوض، وما هي الدينونة الحتمية التي سيقع تحتها والتي لا يزال يجهلها.

وهنا يدأ المسيح ليوضح عمل الروح القدس بالنسبة للتلاميذ لكي يعدهم للمستقبل. لقد سبق المسيح في الأصحاح الرابع عشر وحدد أعمال الروح القدس كالأ تي:

+ «معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد» (١٤:١٦) بعى تكميل عزاء المسيح لكنيسته على مدى الدهور.

+ روح الحق الذي يعرفه التلاميذ: «لأنه ماكث معكم، ويكون فيكم» (١٤:١٧). وهذا حال الكنيسة أيضاً.

+ «يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم» (١٤:٢٦). وهذا أيضاً يستمر مع الكنيسة إلى الدهور.

وفى الأصحاح الخامس عشر، وبالاضافة الى ما سبق، حدد أعمالاً أخرى:

+ أن الروح القدس يشهد للمسيح في التلاميذ، والتلاميذ يشهدون بواسطته أيضاً (١٥:٢٦-٢٧)

ثم في الأصحاح السادس عشر، يضيف المسيح على الأعمال السابقة أعمالاً أخرى:

+ «يرشدكم إلى جميع الحق.» (١٦:١٣)

+ «يخبركم بأمور آتية» (١٦: ١٣)، مثلما حدث مع القديس يوحنا عندما كان في الروح في جزيرة بطمس وأملاه سفر الرؤيا بأصحاحاته الاثنين والعشرين.

+ «يأخذ مما لى ويخبركم» (١٦: ١٤)، وبذلك «يمجدني»، «وكل ما للآب هو لى»، بمعنى أن الروح القدس يستعلن للتلاميذ كل ما للآب وما للابن، وهذا ما حدث مع القديس يوحنا في إنجيله.

والواقع أن هذه العطايا المكثفة، والموعود بها للتلاميذ، حدثت بالفعل، وكان من نتيجتها العملية كتابة الأناجيل الأربعة والرسائل كلها وسفر الرؤيا مع سفر الأعمال، وبشارة المسكونة!!

وهذا الوعد المكثف بالعطايا، أجل المسيح استعلانه حتى أخر لحظة من خدمته على الأرض. ولكن من مضمون هذه العطايا والمواهب الغنية، بدا المستقبل بالنسبة للتلاميذ، والكنيسة من بعدهم، مشرقاً حقاً من جهة الروح والحياة مع الله. وفي أحاديث المسيح عن الفراق، جاء هذا الحديث أقواهم وأكثرهم عزاء بالنسبة لعزائمهم الخائرة من هول الموقف الغامض المجهول أمامهم.

ثم، أيها القارىء العزيز، أليس هذا الموقف عينه لا زلنا نحن نعانيه من جهة المستقبل الغامض بالنسبة للكنيسة في العالم؟ فما أشد ما نرى اليوم أمامنا في كل أنحاء العالم، وخاصة في الغرب، والذي بدأ يتغرب عن فاديه!! ولكن عزاء الروح القدس، بنوع العزاء الذي تلقاه التلاميذ يوم الخمسين، والذي لا يزال حياً عاملاً في الكنيسة في قلوب المؤمنين الأمناءه والذي يقوي ويثبت ويعزي بالرجاء غير المنظور، يجعلنا نثق ونتيقن من نصرة الكنيسة بفاديها على قوى الظلمة التي أحاطت بعقل الإنسان واستعبدته لحساب هذا الدهر.

فقتام الظلمة المحيطة بالعالم المتقدم في العلم والمعرفة الأرضية، ليس أشد من قتام حكم أباطرة الرومان وانحلال العالم الوثني في أيام الكنيسة الأولى والتي بدأت بالاثني عشر!! والروح القدس هو هو، نفس النار التي ألقيت على الأرض ولن تنحصر.

يكفينا أن نواجه المستقبل، أقوياء بالإيمان، مستندين على الروح القدس وليس بسبق المعرفة، وكلمات المسيح تضيء لنا العالم مهما تعتم في ذاته؛ والروح يفرح قلوبنا، مهما تكثفت فوقنا أحزانه.

١٣- وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ رُوحُ الْحَقِّ فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ.

فليلتفت القارىء: فهذه الآية هي «وعد مقدس» يختص بالفرد كما الجماعة، هي حق من حقوق كل من آمن ووثق وصدق كلام الله. لاحظ هذا الإتفاق: «روح الحق» يرشدكم إلى «جميع الحق»، كما نلاحظ أن الحق هنا مُعرق بـ «أل»؛ فهو يتجه مباشرة إلى المسيح!

فروح المسيح يرشدكم إلى كل الحق الذي في المسيح. والمعنى البسيط المباشر والعملي، أن الذي حاز رفقة الروح، فإنه ينال استعلان المسيح في ذاته: «والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي» (يو١٤: ٢١). فالحق الذي في المسيح يعني المسيح تماما كما هو. مستعلناً بشخصه وحبه وفرحه وقوة كلامة. والقديس يوحنا يرى أن ما تحققه هنا جزئيا، يكمله هناك كلياً: «لأننا سنراه كما هو» (ايو٣: ٢). والقديس بطرس يمتعنا بفرح المسيح من خلال قوة الإيمان: «الذي، وإن لم تروه تحبونه؛ ذلك، وإن كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا يُنطق به، ومجيد.» (ابط١: ٨)

«والحق» الذي يقصده المسيح هنا ليس هو الحق العقلى المجرد، عند اليونانيين، بل الحق الفعال بالروح في القلب

والفكر، العامل في النفس لمعرفة المسيح واستعلان كل ما قال وعمل .
كذلك الحق في قول المسيح هنا ليس كالحق في العهد القديم كما جاء في المزامير مراراً وتكراراً، فالحق في العهد القديم هو الناموس والسلوك بحسب أوامر الناموس حرفيا. أما الحق، عند المسيح فهو معرفة الآب والابن، هو الله ذاته، هو استعلان الابن وارساليته من عند الآب. فان كان الحق عند اليونانيين يحرر الفكر من الجهل، والحق عند اليهود يحرر الجنس كشعب غير مستعبد للأمم، فالحق عند المسيح يحرر من الخطية والشيطان والعالم.
«يرشدكم إلى جميع الحق«: لاحظ أن المسيح أكمل استعلان الحق للتلاميذ بكل تعاليمه وأقواله وأمثاله واياته، والآن نحن بصدد التأمين على تعليم المسيح هذه السنين الطوال. والتأمين هو على عاتق الروح القدس، فهو سيرشدهم إلى جميع الحق الذي قاله المسيح، كلمة كلمة، لذلك أكمل المسيح القول كالآتي:
«لأنه لا يتكلم من نفسه» بل كل ما يسمع يتكلم به»: أي أن الروح القدس لا يضيف تعاليم جديدة، بل يرشد إلى كل تعاليم المسيح. والمسيح سيتولى الكلام والروح القدس ينقله إلى القلب كما هو، فالابن كما كان يسمع من الآب ويتكلم، كذلك الروح القدس كما يسمع من المسيح ينطق في القلب، فكما أن الابن كان عمله استعلان «الآب» بالكلمة، كذلك الروح القدس سيتولى استعلان المسيح «الابن» في ذات الكلمة، لذلك يقول المسيح بعد ذلك: «كل للآب هو لى». والعجيب أن بالروح القدس يصير كل ما للمسيح مستعلنا أيضاً لنا. هنا تمام وكمال استعلان الله!
ولكن من الوجهة العملية الاختبارية، فإن الروح القدس لا ينقل كلام المسيح كما هو بالحرف، بل يكشف النور الذي فيه، ليس من زاوية واحدة بل من ألف زاوية إن شئت. فالآية الواحدة يشرحها الروح القدس مرات ومرات، وكل مرة بنور جديد. هذا معنى «يرشدكم إلى جميع الحق» بألوانه الزاهية، والتي ينير بها القلب كل مرة جديداً، ولكن الحق لا ينتهي أبداً ولا يُحد. ولكن حذار من مزج التأمل الشخصي بادعاء أنه استعلان الروح القدس، ولا حتى الإلهام الخاص الذاتي الذي ينبع من مزاج الإنسان وفكره. فإلهام الروح القدس لا يحيد عن حق المسيح، واستعلان الروح القدس يشهد به الحق الذي يختزنه الإنجيل ككل.
«ويخبركم بأمور آتية»: «ويخبركم» هذه الكلمة تستخدم دائماً في معنى البشارة والاعلان والاستعلان أيضاً. لذلك، فالآية هنا محصورة في دائرة البشارة، أي عمل الروح القدس بالبشارة، بالأمور الخاصة بالمسيح، سواء في الأعمال التي ستتم قريباً أي القيامة والصعود، أو التي ستتم في المستقبل البعيد أي المجيء الثاني، والذي تلقى القديس يوحنا رؤيته حينما كان سجيناً في جزيرة بطمس: «فإن شهادة يسوع هي روح النبوة.» (رؤ١٩: ١٠)
ولكن، ليحذر الإنسان من أن يظن أن للروح القدس عملاً في العهد الجديد مثل الذي كان في القديم، أي التنبؤ بمستقبل الخلاص؛ فالخلاص قد أكمل، ولم يعد له تكميل على الأرض. لذلك لم يعد للروح القدس عمل فيما يختص بتمليك أراضى أو دفاع في الحروب أونصرة على أعداء الجسد، فالإنسان المسيحي أصبحت سيرته في السماويات. مع ملاحظة أن كلام المسيح كله يختص دائماً بمستقبل الإنسان الروحي؛ فكل كلمة تحمل ضوءا يلقيه الروح القدس في قلب الإنسان ليتعرف به على ماذا ينبغي أن يعمل في مستقبله. فعلى المستوى العملي للانسان المسيحي، فإن الروح القدس يلقنه أولاً بأول من خلال كلمة الإنجيل عن كل ما هو قادم بالنسبة له، وما ينبغي أن يفعله في كل ساعة قادمة، فحياتنا بالروح القدس هي ممتدة إلى قدام، وتسبق الزمن: «أنسى ما هو وراء، وأمتد إلى ما هو قدام.» (في٣: ١٣)
ولكن حتى عمل الروح القدس في أن يخبرنا بأمورنا القادمة بالنسبة لما يجب أن نعمله روحياً، سواء أعمال توبة،

من صوم وصلاة، أو من أعمال خدمة ومحبة وبذل، فهي في دائرة المسيح والإنجيل، ولا تخرج قط عما هو للمسيح، لأن اختصاص الروح القدس هو أن يأخذ مما للمسيح ويخبرنا؛ ومن ذاته لا يخبر بشيء: «أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضاً.» (١يو٢:٦)

١٤- ذَاكَ يُمَجِّدُنِي لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ.

المجد هنا هو استعلان حقيقة المسيح الإلهية كابن الله الوحيد، وهذا يدخل في صميم القول: «يرشدكم إلى جميع الحق». وهنا تمجيد الروح القدس لشخص المسيح، لا يُفهم على أنه يزيد على حقيقة المسيح شيئاً، بل إن استعلان حقيقة المسيح تماماً هي التمجيد الكامل له. ويلاحظ هنا أن عمل الروح القدس في تمجيد الابن هو المقابل والمكمل لتمجيد الابن للآب. بهذا نفهم أن الذات الإلهية آب وابن وروح قدس مجيدة حقاً، فهي تقبل المجد وتعطيه لذاتها. هذا هو الإكتفاء الذاتي لله المذهل للعقل، فالله لا يحتاج إلى تمجيد أحد، لا ملائكة ولا بشر، فهو ممجد في ذاته بذاته، وكامل مكمل في المجد!

فحينما نقول «المجد لله» أي الذكصا الكبرى، فنحن ننطق بما هو حاصل، لا نضيف شيئاً على الله بل نُسبح بمجده! لذلك فاستعلان الله في قلب الإنسان، هو اشتراك فعلي في تمجيده. واستعلان الروح القدس لله، كآب وابن، لا يكون من محيط إدراكات الإنسان المادية، بل هو ولوج حقيقي إلى دائرة ما فوق الطبيعة، إلى ما لله. فكلمة «يغبركم» (   ) = «يعلن إعلاناً فائقاً» (declare)، أي يكشف كشفاً إنجيلياً مفرحاً، فكل إعلان يعلنه الروح للانسان، هو دخول حقيقي في حق المسيح، في فكره الإلهي، في حبه «الفائق المعرفة» (أف٣:١٩)، في علاقته السرية بالآب.

١٥- كُلُّ مَا لِلآبِ هُوَ لِي. لِهَذَا قُلْتُ إِنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ.

المسيح ينبه أذهاننا، أن مجده هو مجد الآب، وأن كل ما يخبرنا به الروح القدس عن المسيح فهو عن الآب أيضاً. أي أن الروح القدس يمدنا باستمرار بمعرفة الآب والابن، أي الله في خصائص ذاته الجوهرية، لأن استعلان علاقة الآب بالابن هو موضوع خلاصنا، فحب الآب للابن، صار من نصيبنا أن نشترك فيه بقدر استعلاننا له. وعلاقة الابن بالآب من جهة طاعة المشيئة حتى الصليب، هي حياتنا التي نستمدها من قوة موته، من قوة دمه.

فطاعتنا للمسيح ووصاياه، وفي قمتها أن نبذل حياتنا من أجل الأخرين، هي مستمدة أصلاً من قوة طاعة المسيح للآب. لذلك، فإن قول الرب إن: «كل ما للآب هو لي»، هو أصل وقوة قوله: «يأخذ مما لي ويخبركم»، فهو السماح للروح القدس أن يأخذ كل ما للمسيح ويخبرنا، يعني أن يستعلن لنا كل ما للآب، وهذا في الحقيقة تكميل سري ورائع لقوله لتلاميذه: «لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يو١٥:١٥). وهذا الاستعلان الإخباري الإنجيلي للمسيح الابن وللآب هو بعينه الذي يدخلنا في السر الرهيب الأعظم: «أنا فيهم وأنت في ليكونوا مكملين إلى واحد» (يو١٧:٢٣). بمعنى أن الروح القدس سيتولى إدخالنا في سر الآب والابن، بالاستعلان المتواصل. هذا السر عينه هو المدخل الوحيد إلى كمال الوحدة التي نحن مدعوون إليها معاً في الله: «مكملين إلى واحد»، والتي عبر عنها بولس الرسول «إلى أن ننتهي جيعنا إلى وحدانية الإيمان، ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح.» (أف٤:١٣)

نعم، فالسبيل الوحيد للوحدة التي تبتغيها الكنائس، كما قلنا مراراً، هو أن يتحد كل منها أولاً بالمسيح بالتقوى، بالعبادة بالروح والحق، بالاستعلاذ، لاستعلان حق المسيح الذي هو وحده يوحد ويؤلف، والوحدة لا تكون ولن تكون

إلا في «حق المسيح»، وليس في الكلام عن المسيح.

قد أزفت الساعة، الحزن الحتمي يُنشيء الفرح حتماً.

(يو١٦:١٦-٢٤)

للانسان المسيحي الحقيقي؛ الحزن دائماً يتبع الماضي، وهو دائماً جسدي؛ وأما الفرح المتحمل بالنصرة فهو مستقبلي دائماً وممتد في المستقبل، وهو دائماً روحي. ولكن أن ينجح الإنسان في حصر الحزن وتجاوزه بالرجاء الكائن في الإيمان، فهو بهذا يدخل في الفرح ويستبق رؤيته. والإنسان الذي يختبر الحزن ويغلبه ويعيش الفرح حتى في الحزن، يكون قد قهر الزمن والجسد.

والإنسان المسيحي مدعو أن يختبر الحزن ويعيش الفرح: «وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، إيماننا» (ايو٥:٤)

الزمن القليل:

٧:٣٣ أنا معكم زماناً يسيراً بعد»

١٢:٣٥ «النور معكم زمانا قليلاً بعد»

١٣:٣٣ «أنا معكم زمانا قليلا بعد»

١٤:١٩ «بعد قليل لا يرانى العالم أيضاً، أما أنتم فترونني»

١٦:١٦ «بعد قليل لا تبصرونني»

١٦- «بَعْدَ قَلِيلٍ لاَ تُبْصِرُونَنِي ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي لأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الآبِ».

لقد ظل الزمن يتضاءل ويتناقص حتى انتهى الزمن:

٧:٣٣ أنا معكم زماناً يسيراً بعد»

١٣:٣٣ «أنا معكم زمانا قليلا بعد»

١٦:١٦ «بعد قليل لا تبصرونني»

هذا التدرج البديع في سياق الحديث المنسق عن انتهاء الزمن وانسحابه من فترة وجود المسيح على الأرض ومع تلاميذه، يوضح مدى يقظة المسيح وحساسيته لأمرين:

الأمر الاول: لمحدودية رسالته المحسوبة بالساعة: «لم تأتى ساعتي بعد» (يو٢:٣)، قالها في أول ظهوره العلني في عرس قانا الجليل. و«قد أتت الساعة» (يو١٧:١)، ليلة العشاء الأخير!!

الامر الثاني: رقة مشاعره من نحو تلاميذه، وتأثره لتأثرهم الشديد من صدمة الفراق!! لقد ظل الزمن يتقلص وينسحب من حول بهجة اللقيا والعشرة المتواصلة بين التلاميذ والمسيح، حتى انتهى: «بعد قليل لا تبصرونني».

«بعد قليل لا تبصروني» ....«بعد قليل ترونني»

القديس يوحنا يقدم لنا في هذه الآية، ومن خلال هاتين الكلمتين، منهجاً فكريا غاية في الأهمية اللاهوتية على الواقع المسيحي الحي. فقد استخدم الكلمة الاول للرؤية وهي (   ) لتعبر عن رؤية شبه صحيحة، رؤية فكرية لا رؤية حق، رؤية تصور وليس رؤية واقع، مع أنها مستخدمة في رؤية المسيح بالجسد في الجسد المادي!! ثم استخدم الكلمة الثانية للرؤية وهي (   ) لتعبر عن رؤية صحيحة، رؤية الحق كما هو، بلا أي خيال فكري، أو أي تصور عقلي بشري!! مع أنها مستخدمة لرؤية المسيح القائم من الموت بالجسد الروحاني الممجدد!

هذه المحاولة المعكوسة من القديس يوحنا، يحاول بها البرهنة على أن رؤية التلاميذ للمسيح، قبل أن يتمجد، لم تكن رؤية تامة أو صحيحة، من حيث أنهم رأوه كإنسان وكانوا يحاولون بالجهد أن يتصوروه عقليا بأنه أكثر من إنسان فلم يفلحوا كثيرا. من هنا» صمم القديس يوحنا على أن رؤية التلاميذ للمسيح قبل أن يُستعلن في مجده كانت رؤية ناقصة تعتمد على العقل، لأن المسيح لم يكن مشتعلناً استعلاناً كاملاً، أما رؤية التلاميذ للمسيح بعد القيامة، وبعد أن استعلن في مجده، فهي هنا الرؤية الصحيحة، رآوه على حقيقته الممجدة، رآوه إلهاً: «ربي والهي» (توما) (يو٢٠:٢٨)، رآوه غالباً الموت في ملء ملكوته وحياته الأبدية، رآوه بالعين الروحية المباشرة التي تستعلن الحق حقاً دون تزييف الفكر.

ومعروف لدى الصوفيين، أو في اللاهوت التصوفي، أن التاورية هي «رؤية العقل»، وهي تختلف من إنسان لإنسان في رؤية الشيء الواحد، لأنها تعتمد على خواص كل عقل بحد ذاته؛ فى الاتساعم والتصور والإدراك والفهم. وفى اللاهوت التصوفى، تعتبر التاورية قمة الاستعلان.

ولكن هنا، عند القديس يوحنا، يستصغر هذه الرؤية وهذه الكلمة «التاورية»، ويجعلها قاصرة عن أن ترى الحق، فاستخدم رؤية «العين» الطبيعية كعضو إبصار للأمور الطبيعية، باعتبار أنها ترى الأشياء عل حقيقتها، استخدمها ليعبر عن مقدار الحق الذي رأه التلاميذ بأعينهم الروحية للمسيح المُقام والممجد، باعتبار أنه هو المسيح الحقيقي، على حقيقته، وليس كما كان، مختفياً في الجسد ومستتراً به عن الرؤية الصحيحة للإنسان.

وكأنما السيح يريد أن يقول لتلاميذه: أنتم الآن لا ترونني على حقيقتي بالرؤية الصحيحة، ولكن بعد قليل حينما «أكمل» استعلاني وأظهر في مجدي، حينئذ ترونني حقاً؛ سواء كان بعد قيامته أو أثناء صعوده أو حتى في استعلان ذاته، كما رآه شاول وهو في طريقه إلى دمشق، و بالأكثر من يوم الخمسين فصاعداً، حيث يتدخل الروح القدس ليعطي صورة للمسيح هي الحق كل الحق!!

وأخيراً، وكما يقول القديس يوحنا، فإنه حينما يُظر المسيح، ونُظهر نحن معه في المجد كقول بولس الرسول: «متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه في المجد» (كو٣:٤)، «إذا أُظهر، فسنكون مثله، لأننا سنراه كما هو» (ايو٣:٢)، وهنا أيضاً يستخدم القديس يوحنا للتعبير عن رؤية الحق بالحق، كلمة «نراه» (   ).

١٧ - ١٩: فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ تلاَمِيذِهِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَا هُوَ هَذَا الَّذِي يَقُولُهُ لَنَا: بَعْدَ قَلِيلٍ لاَ تُبْصِرُونَنِي ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي وَلأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الآبِ؟». فَتَسَاءَلُوا: «مَا هُوَ هَذَا الْقَلِيلُ الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ؟ لَسْنَا نَعْلَمُ بِمَاذَا يَتَكَلَّمُ». فَعَلِمَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْأَلُوهُ فَقَالَ لَهُمْ: «أَعَنْ هَذَا تَتَسَاءَلُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ لأَنِّي قُلْتُ: بَعْدَ قَلِيلٍ لاَ تُبْصِرُونَنِي ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي.

القديس يوحنا يتكلم هنا، ويصور لنا منظر التلاميذ، كشاهد عيان دقيق الملاحظة، يسجل حركات التلاميذ مع تعبيراتهم تسجيلاً غاية في الواقعية، فيوضح حالة الإرتباك التي ألمت بهم مع عدم الفهم للكلمات؛ وبالأكثر حزنهم العميق الذي آسكت أفواههم. فلم يسالوه عما يجيش في صدورهم وهم ذاهلون، بل اكتفوا بالتعجب وهم يطرحون أمثلتهم بعضهم لبعض. والذي استرعى انتباههم وكرروه مراراً: «ما هذا القليل الذي يقول عنه؟ لسنا نعلم بماذا يتكلم»، لأن المسيح لم يقل: «بعد قليل من الزمن»، ولكن اكتفى بقوله: «بعد قليل».

ولكن ارتباكهم وحيرتهم وتساؤلهم لم يغب عن المسيح، فبادرهم بقوله:

٢٠- ٢١: اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ. أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ وَلَكِنَّ حُزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ. اَلْمَرْأَةُ وَهِيَ تَلِدُ تَحْزَنُ لأَنَّ سَاعَتَهَا قَدْ جَاءَتْ وَلَكِنْ مَتَى وَلَدَتِ الطِّفْلَ لاَ تَعُودُ تَذْكُرُ الشِّدَّةَ لِسَبَبِ الْفَرَحِ لأَنَّهُ قَدْ وُلِدَ إِنْسَانٌ فِي الْعَالَمِ

حينما يقول المسيح: «الحق الحق أقول لكم»، فهو يعطي حقاً جديداً على معلوماتنا، ويستعلن لنا سرا يدخل في صميم إيماننا. فالكلام كان موجهأ للتلاميذ، ولكنه موجه للكنيسة كلها وكل أولاد الله أينما كانوا، فإيمان الإنسان المسيحي يفصله عن شكل هذا العالم ومعاييره الوهمية خاصة ما يُحزن وما يُفرح، فكل ما يحزن العالم هو خسارة في الجسد أو في المادة، الجسد بحياته وصحته وعاطفته وقرابته ونسبه له أو للأخرين أياً كانوا، أباء وأمهات وزوجات وأخوة وأخوات وأولاداً. والمادة هي كل ما يُباع ويُشترى ويُقتنى. أما ما يفرحه، فهو الربح في كل ما مضى مما يخص الجسد والجسديات أو المادة والماديات.

ولكن ما يُحزن المسيحى، هو ما يفقده بالروح، وما لا يحققه من مشيئة الله ووصاياه، وأما ما يفرحه، فهو رضى الله، وتكميل مسرة مشيئته، وتحصيل هباته التي كيل وبلا ندامة.

هذا التباين الجذرى بين ما يُحزن وما يُفرح، بين العالم والإنسان المسيحي، جعل المعايير بينهما يتعاكس وضعها تماماً، فما يُحزن هذا يُفرح الآخر، وما يُفرح الأول يُحزن الثاني .

وعلى هذا القياس المتعاكس، أعطى المسيح مثلاً مادياً، فيه يتضح أن الحزان الجسدي يؤول إلى فرح نفساني، حيث يُقيم الحزن أنه خداع أو نوع من التزييف. فالمرأة تشتهي الطفل، ولكن حينا يحل وقت ولادته، تعاني شدة الألام في ولادته فيعتريها الحزن، ولكنه حزن يحمل في طياته الأمل والرجاء والفرح، وسريعاً ما يتحول بالفعل إلى فرح؛ هكذا الإنسان المسيحي، فهو يرجف من البذل رجفاناً، يرهب الصوم الشديد إذا حتم به الروح، ويجزع من إدارة الخد الآخر للمعتدي اللاطم على الوجه أو على الظهر، ويؤكل قلبه أكلاً حينما تُسلب أمواله أو يهان اسمه، أو تُهدد كرامته من أجل الاسم الحسن، ولكن حينما ينتهي العالم من فعلته الشنعاء التي يفعلها، وهو راض ومسرور ومتشفى، وحينما ينتهي كل شيء وتعود النفس تحسب حساب المكسب والخسارة أو حساب البيدر كما يقولون، أي الزرع والحصاد، حيث يُزرع بالدموع ويُحصد بالأبتهاج ، حينئذ نتهلل فرحاً، فالمكسب الروحي لا يقاس عظمة بتفاهة الخسارة:

+ «ودعوا الرسل، وجلدوهم، وأوصوهم أن لا يتكلموا باسم يسوع، ثم أطلقوهم. وأما هم فذهبوا فرحين من أمام المجمع لأنهم حُسبوا مستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه» (اع٥:٤٠-٤١)

+ «لأنكم رثيتم لقيودي أيضاً، وقبلتم سلت أموالكم بفرح، عالمين في أنفسكم أن لكم مالاً أفضل في السموات وباقياً، فلا تطرحوا ثقتكم التي لها مجازاة عظيمة.» (عب١٠:٣٤-٣٥)

والمرأة التي تحزن بإرادتها على رجاء الفرح القادم، هي الكنيسة التي كان يسعى كارزها حاذياً رجليه بإنجيل البشارة، يجوب مجاهل البلاد والصحاري والقفار، محتملاً أقصى ما يكون من التعب والمقاومة والمعاثر التي بلا عدد، في سبيل أن يكتسب ابناً جديداً للمسيح، يلده في العالم لحساب الله، وبعد أن يضمه إلى حضن ألله، ينطلق مُنشداً، ناشداً ولداً آخر، غير ذاكر التعب، من أجل الثمر المتكاثر.

كذلك الإنسان المسيحي، حينما يعزم أن يترك كل شيء، ليتبع المخلص، حيث تبدو هذه الخطوة كأنها قفزة في الفراغ، وتأخذه الرهبة إلى حين، لأنه يحس، وهو يختبر اختبار الانتقال من حضن العالم إلى حضن المسيح، من

الإلتحام بالزمن إلى الإلتحام بالخلود، يحس بالجزع والخسارة والترك كمن يعبر من الموت إلى الحياة، أو من رحم العالم المظم إلى نور الحياة الأبدية، ولكن سرعان ما تستقبله الحقيقة، مجسمة في شخص المسيح، ويغشاه النور والسلام والفرح المقيم.

ثلاثة عوامل تقذف الإنسان من رحم العالم المظم إلى نور الحياة مع الله:

العامل الأول: الإيمان الواثق بصدق مواعيد الله وقوته في كلماته.

العامل الثاني: الروح القدس الذي يتبع الإيمان اتباعاً.

العامل الثالث: قوة جذب الآب السرية غير الملحوظة.

هزه هي العوامل الثلاثة، وقوة الآب أعظمها.

٢٢- فَأَنْتُمْ كَذَلِكَ عِنْدَكُمُ الآنَ حُزْنٌ. وَلَكِنِّي سَأَرَاكُمْ أَيْضاً فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ وَلاَ يَنْزِعُ أَحَدٌ فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ.

الحزن الأكبر قادم على التلاميذ؛ فحزن الفراق غطاه الحزن على منظر المسيح وهم يقيدون يديه ويقودونه كشاة تُساق إلى الذبح، وهو صامت، وكأنه مقهور، ثم منظر المحاكمة من بعيد وهم يلطمونه على الخد، والعسكر يضربونه على الرأس، ثم يمددونه على الصليب ويدقون الحديد في يديه ورجليه، وهو حزين منكس الرأس يُسلم الروح! أي حزن مثل حزن كهذا، وأي نحيب نحبت به النسوة وهن يلطمن على خدودهن: «والنساء اللواتي كن يلطمن أيضاً وينحن عليه» (لو٢٣:٢٧)، على فتى الناصرة الغض، وهو منحنى واقع تحت ثقل الصليب!! حزن التلاميذ ونحيب النسوة ستظل تردد أصداءه السموات، بانتظار ظهوره، حين ينعكس هذا الحزن وهذا النحيب واللطم على صالبيه ومسلميه: «هوذا يأتي مح السحاب، وستنظره كل عين، والذين طعنوه، وينوح عليه جيع قبائل الأرض، نعم آمين.» (رؤ١:٧)

وفي الحقيقة، قد سبق الأنبياء ووصفوا هذا الحزن وهذا الفرح، بنفس المثل الذي قاله المسيح عن المرأة عندما تلدى، فلم يفت على إشعياء النبي أن يعرج بالنبوة على التلاميذ الخائفين بعد موت المسيح، والمتجمعين في العلية، والباب مغلق عليهم من الخوف، وهم مختبئون، ولكن كان كل ذلك إلى لحظة!! «بعد قليل ترونني»:

«زِدْتَ الأُمَّةَ يَا رَبُّ زِدْتَ الأُمَّةَ (بنين جدد). تَمَجَّدْتَ (بالقيامة). وَسَّعْتَ كُلَّ أَطْرَافِ الأَرْضِ (لاستقبال إيمانك). يَا رَبُّ فِي الضِّيقِ طَلَبُوكَ. سَكَبُوا مُخَافَتَةً (دعاء) عِنْدَ تَأْدِيبِكَ إِيَّاهُمْ. كَمَا أَنَّ الْحُبْلَى الَّتِي تُقَارِبُ الْوِلاَدَةَ تَتَلَوَّى وَتَصْرُخُ فِي مَخَاضِهَا هَكَذَا كُنَّا قُدَّامَكَ يَا رَبُّ. حَبِلْنَا تَلَوَّيْنَا ...... تَحْيَا أَمْوَاتُكَ. تَقُومُ الْجُثَثُ. اسْتَيْقِظُوا. تَرَنَّمُوا يَا سُكَّانَ التُّرَابِ. ...... هَلُمَّ يَا شَعْبِي، ادْخُلْ مَخَادِعَكَ وَأَغْلِقْ أَبْوَابَكَ خَلْفَكَ. اخْتَبِئْ نَحْوَ لُحَيْظَةٍ حَتَّى يَعْبُرَ الْغَضَبُ. لأَنَّهُ هُوَذَا الرَّبُّ يَخْرُجُ مِنْ مَكَانِهِ ....» (إش ٢٦:١٥-٢١)

ثم يعود إشعياء، يضيف مقياس زمان الحزن القليل بالنسبة لعظم الفرح المستديم، كما يقول بولس الرسول: «فإني أحسبب أن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن فينا» (رو٨:١٨). فحزن التلاميذ لم يدم أكثر من ثلا ثة أيام، بعدها وُلدت أمة بكاملها، وأولادها ملأوا كل أقطار الأرض! والعجيب أن يصف إشعياء التلاميذ بأنهم يمثلون أورشليم القديمة وهي تتمخض، والرب نفسه يولدها، فينفتح رحم أورشليم المغلق لتلد وتفرح، أي يفرح التلاميذ ويفرح معهم كل من أحبوها، أي من أحب الآباء، فإنهم جميعاً يصيرون أولادها، أي أولاد الكنيسة، أورشليم الجديدة، أمنا الحرة: «قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَهَا الطَّلْقُ وَلَدَتْ. قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهَا الْمَخَاضُ وَلَدَتْ ذَكَراً. مَنْ سَمِعَ مِثْلَ هَذَا؟ مَنْ رَأَى مِثْلَ هَذِهِ؟ هَلْ تَمْخَضُ بِلاَدٌ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ أَوْ تُولَدُ أُمَّةٌ دَفْعَةً وَاحِدَةً؟ فَقَدْ مَخَضَتْ صِهْيَوْنُ بَلْ وَلَدَتْ بَنِيهَا. هَلْ أَنَا

أُمْخَضْ وَلاَ أُوَلِّدُ يَقُولُ الرَّبُّ أَوْ أَنَا الْمُوَلِّدُ هَلْ أُغْلِقُ الرَّحِمَ قَالَ إِلَهُكِ؟ افْرَحُوا مَعَ أُورُشَلِيمَ وَابْتَهِجُوا مَعَهَا يَا جَمِيعَ مُحِبِّيهَا. افْرَحُوا مَعَهَا فَرَحاً يَا جَمِيعَ النَّائِحِينَ عَلَيْهَا. لِتَرْضَعُوا وَتَشْبَعُوا مِنْ ثَدْيِ تَعْزِيَاتِهَا. لِتَعْصِرُوا وَتَتَلَذَّذُوا مِنْ دِرَّةِ (ضرع) مَجْدِهَا. لأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: «هَئَنَذَا أُدِيرُ عَلَيْهَا سَلاَماً كَنَهْرٍ وَمَجْدَ الأُمَمِ كَسَيْلٍ جَارِفٍ فَتَرْضَعُونَ وَعَلَى الأَيْدِي تُحْمَلُونَ وَعَلَى الرُّكْبَتَيْنِ تُدَلَّلُونَ. كَإِنْسَانٍ تُعَزِّيهِ أُمُّهُ هَكَذَا أُعَزِّيكُمْ أَنَا وَفِي أُورُشَلِيمَ تُعَزَّوْنَ. فَتَرُونَ وَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ وَتَزْهُو عِظَامُكُمْ كَالْعُشْبِ وَتُعْرَفُ يَدُ الرَّبِّ عِنْدَ عَبِيدِهِ وَيَحْنَقُ عَلَى أَعْدَائِهِ (إش ٦٦:٧-١٤)

ويضيف هوشع النبي: «من يد الهاوية أفديهم، من الموت أخلصهم، أين أوباؤك يا موت؟ أين شوكتك يا هاوية؟ تختفي الندامة عن عيني.» (هو١٣:١٤)

ويكاد رنين نبوة إشعياء يُسمع سمعاً في كلام هذا الفصل من إنجيل القديس يوحنا، بل أحياناً نفس الألفاظ، فكلمة السر التي احتار فيها التلاميذ، يذكرها إشعياء بنفس حروفها: «أدخل مخادعك وأغلق أبوابك خلفك اختبىء نحو لحيظة (إش٢٦:٢٠) وهي نفس الكلمة التي قالها الرب: «**بعد قليل** ترونني»، والتي وقعها القديس يوحنا بعد ذلك على ما تم بالفعل: «ولما كانت عشية ذلك اليوم، وهو أول الأسبوع، وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود، جاء يسوع» (يو٢٠:١٩). كذلك قول إشعياء: «فترون وتفرح قلوبكم» جاءت على لسان المسيح: «سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم».

وواضح من روح النبوات في أسفار العهد القديم، فيما يختص بآلام الحبل وفرحة الولادة، أنها جاءت تعبيراً عن الموت والقيامة. فأقوى تعبير عن الألم الاختياري، هو ألم الولادة، والتعبير عن الفرح الحتمي الذي يعقب الألم هو الولادة. لذلك، لم يكن المثل الذي قدمه السيح عن المرأة التي جاء ميعاد ولادتها، إلا تعبيرا عن اقتراب ساعة الموت. وقول المسيح عن «القليل» أو «الزمن القليل» هو تعبير عن قصر فترة الموت، كذلك عن صغر حجم ألم الموت بالنسبة للقيامة كحياة أبدية وفرح أبدي. والتلاميذ جازوا، بالحقيقة، بالمشاركة مع المسيح هذه المحنة، محنة ألم الموت، مضافاً إليها ألم الفراق، وفزع الخوف من اليهود، ولكنها كانت «إلى قليل»، كما خرجوا من المحنة هذه، بعد قليل، بخروج المسيح من القبر التي وصفها إشعياء: «لأن هوذا الرب يخرج من مكانه.» (إش٢٦:٢١)

ويكاد مثل المخاض والألم ينطبق على المسيح نفسه، فهو بعبوره آلام الموت ومروره من خلال القبر إلى السماء، ولد لنا في العالم إنساناً جديداً.

أما فرح التلاميذ: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم»، فهو لسببين:

الأول: النصرة الباهرة التي قهر بها المسيح الموت والهاوية، والتي عبر عنها هوشع النبي أروع تعبير: «أين أوباؤك يا موت أين شوكتك يا هاوية»!

والسبب الثاني هو الرب المُقام، فقيامة الرب صارت بالفعل قيامتهم من موت محقق ويأس مقيم، وقام العالم معهم، وقمنا نحن أيضاً وفرحنا، حيث فرحنا في قلوبنا لا يستطيع العالم، ولا الموت، أن ينزعه منا. وهكذا تحول العالم أيضاً من فرحه، كغالب، ضد المسيح بحكم الصلب والموت، إلى مغلوب ومقهور بقيامة المسيح: «ثقوا، أنا قد غلبت العالم» (يو١٦:٣٢). والترجمة الأدق: تشجعوا، أنا قد غلبت العالم.

وقول المسيح هنا يأتي في صيغة المتكلم: «سأراكم» وجاءت في مقابل «بعد قليل لا تبصرونني»، ثم «بعد قليل ترونني». هنا المسيح يفيض على التلاميذ من مجدهً الأثنى بعد قيامته . فرؤية الله لنا ، فيها اعتبار غاية الاعتبار أكثر ألف مرة من أن نسعى نحن لنراه فلا نستطيع، ويكفي التلاميذ مجداً أن المسيح يتطلع عليهم من مجده. فمع

رؤية المسيح لهم تنسكب عليهم فرحته، مع انسكاب نور عينيه! ولأنه فرح الله فلن يستطيع أحد أن ينزعه منهم: «لأن فرح الرب هو قوتكم» (نح٨:١٠). وهنا مقارنة مبدعة بين: «الحزن القليل» الذي عبروه، والفرح القيم الذي سيبلغونه.

كذلك فمثل المخاض والولادة، عند بولس الرسول، استخدمه ليعبر عن ميلاد الإنسان الجديد، حيث يظل هو، أي بولس الرسول، يعاني آلام المخاض كأم (الكنيسة)، إلى أن يولد الإنسان على صورة المسيح. أي أن المسيح نفسه يتصور في هذا الانسان الجديد، وكأن الانسان يولد جديداً بصورة المسيح عينها: «يا أولادي، الذين أتمخض بكم أيضاً، إلى أن يتصور المسيح فيكم» (غل٤:١٩). في هذا المثل نرى بولس وهو يعبر عن الرسولية ككل، وعن الكنيسة أيضاً بالدرجة الاولى، أنه وهو رجل يتمخض كوالدة، ويلد إنساناً جديداً له صورة المسيح. هذا التعبير جيد بالنسبة للكنيسة، وقد صورها سفر الرؤيا بهذه الصورة عينها في الأصحاح الثانى عشر.

٢٣ - وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لاَ تَسْأَلُونَنِي شَيْئاً. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ:
إِنَّ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ مِنَ الآبِ بِاسْمِي يُعْطِيكُمْ.

«فى ذلك اليوم»: يوم ينفتح عهد جديد من العلاقات فوق الطبيعة، حينما يستعلن التلاميذ ملء مجد المسيح المُقام، وقد سبق أن أوضح المسيح ماذا يكون في ذلك اليوم هكذا: «في ذلك اليوم، تعلمون أني أنا في أبي، وأنتم في، وأنا فيكم.» (يو١٤:٢٠)

هذا اليوم هو اليوم الذي انفتحت فيه أعين التلاميذ على حلول الروح القدس يوم الخمسين، واستمر هذا اليوم إلى هذا اليوم! فعرفوا الحق كل الحق. عرفوا أن المسيح في الآب، ونحن مدعوون بالوعد الإلهي والروح القدس لنكون: «أنتم في، وأنا فيكم». وحينما تبلغ المعرفة بالروح إلى هذا الملء يمتنع السؤال، حينئذ تبلغ «الطلبة» حد الإجابة الفورية، فملء المعرفة يؤهل لصحة الطلبة، ويؤكد ملء الفرح.

لقد سأل التلاميذ أسئلة كثيرة، حتى مل المسيح من أسئلتهم، التي تدل على أنهم كانوا دائماً غير فاهمين، أو بالمعنى المسيحي أنهم لم يكونوا على مستوى الحياة الأبدية أو الإنسان الجديد، أو بحسب تعبير بولس الرسول إيجابياً: «وأما نحن، فلنا فكر المسيح» (اكو٢:١٦)! فلم يكونوا في ذلك الوقت على مستوى فكر المسيح ورسالته. لذلك يسبق المسيح الآن، ويريح أفكارهم وضمائرهم الحائرة عن ما هو بعد هذا: «القليل الذي يقول عنه»، لأنهم بعد قليل فعلاً سيبلغون حالة الاستعلان الكامل عن المسيح وعن أقواله ورسالته، حتى إنهم في ذلك اليوم لن يحتاجوا قط أن يسألوه شيئاً من هذا، لأنهم سيكونون عارفين بكل شيء؛ كما يذكر بولس الرسول في إحدى رسائله: «أشكر إلهي فى كل حين من جهتكم، على نعمة الله المعطاة لكم في يسوع المسيح، أنكم في كل شيء استغنيتم فيه، في كل كلمة وكل علم، كما ثبت فيكم شهادة المسيح، حتى إنكم لستم ناقصين في موهبة ما.» (اكو١:٤-٧)

«الحق الحق أقول لكم، إن كل ما طلبتم من الآب باسمي، يعطيكم»: المسيح هنا يحول فكر التلاميذ من حالة السؤال، إلى حالة الطلب. ففي الحالة الاولى يأتي السؤال بسبب عدم الفهم للمعرفة؛ أما في الحالة الثانية، فهنا الطلب معنى أن الإنسان يطلب شيئاً بالصلاة، ويلتمس أخذه، وهو يساوي تماماً الانتقال من حالة الجهل والظلمة إلى حالة ألدالة كمن يسعى في النور، حالة الفرح الدائم الذي فيه يكف كل سؤال من فكر الانسان.

إن السر فى قول المسيح: «في ذلك اليوم لا تسألونني شيئاً»، يكمن في الآية السابقة: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم». هذا ليس تعليماً فكرياً، بل توقيعاً وتسجيلاً اختبارياً، علينا أن نؤمن به ونتذوقه، لأن من يبلغ حالة الفرح هذه، يبلغ حتماً أو تلقائيا، حالة الاكتفاء الكلي بالله، ينسى كل سؤال، ينسى نفسه لأنه يكون مُبتلعاً في فرح حضور الرب، لأن كلمة «سأراكم» تعني أننا نكون واقعين تحت عينيه في مجال وجوده وعمله. وحالة الفرح التي نبلغها في وقوعنا تحت رؤية المسيح، ليس لها أي سبب. إنها بحد ذاتها اختبار الحياة الأبدية جزئياً. فأن نحيا أمام الله الآب والمسيح، فهذا معنا أن نفرح فرحا هو فرح الحق، فرحاً جوهرياً، لأن طبيعة الحياة مع الله لها فرح الله والمسيح الذي لا يُنطق به، ولا يُدرك سببه، لا نستطيع أن نستزيده، ومعه لا نطلب إلا مجد الله. هذا الفرح الكلي في طبيعته، طلبه المسيح للتلاميذ في الأصحاح السابع عشر بقوله: «ليكون لهم فرحي كاملاً فيهم.» (يو ١٧:١٣)

وفي المقابل، فإن فرح العالم له أسبابه الكثيرة وشروطه، ولكن لا يمكن أن يفرح أحد بحسب العالم بدون سبب. لا يوجد في العالم فرح حقيقي، لذلك فكل فرح فيه يتناقص من ذاته، ويتلاشى، وقد يترك مكانه عوزاً وحزناً.

ولكون فرح المسيح فرحاً حقيقياً ودائماً، فلا يستطيع أحد انتزاعه منا، لأنه ليس من سبب يمكن أن يبطله. فرح «ذلك اليوم» هو فرح أبدي: «ومفديو الرب يرجعون، ويأتون إلى صهيون بالترنم، وعلى رؤوسهم فرح أبدي، ابتهاج وفرح يدركانهم، يهرب الحزن والتنهد. أنا أنا هو فرحكم.» (إش ٥١:١١-١٢)

«من الآب»: كانت الأسئلة توجه سابقاً للمسيح بسبب غياب الروح القدس، وانعدام الصلة المباشرة مع الآب؛ أما بعد ذهاب المسيح إلى الآب، الأمر الذي كرره المسيح مراراً ليرسخ في ذهن التلاميذ أن هذا «خير لهم» فإنه بذهاب المسيح إلى الآب حاملاً على يديه دم ذبيحته الكفارية، استعاد المسيح للانسان صلته الأولى بالله، كاملة غير منقوصة. وصار دخولنا إلى الله الآب بلا مانع: «فإذ قد تبررنا بالإيمان، لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح، الذي به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى (الآب) هذه النعمة، التي نحن فيها مقيمون، ونفتخر على رجاء مجد الله» (رو ٥:١-٢)

لذلك، رفع المسيح صلتنا لتكون مع الله الآب مباشرة، إنما باسم يسوع المسيح، الذي به نلنا المصالحة والتبني، ولذلك وجه المسيح تلاميذه نحو الآب لتكون طلبتهم إليه، واعداً أن كل ما يطلبونه باسمه يعطيهم. على أن عطية الآب الأولى والعظمى، هي الروح القدس نفسه (راجع لو ١١:١٣)، الذي بواسطته يعطي الآب عطاياه.

«باسمى»: اسم المسيح ليس مجرد ذكر «المسيح» ككلمة نضعها في الصلاة الربانية «بالمسيح يسوع ربنا». هنا اسم «المسيح» يعني وجوده وعمله، سواء في سماعة الصلاة لدى الآب أو في الاستجابة لها. أن نطلب من الآب باسم المسيح، يعني أن نطلب في حضرته كخروف مذبوح يتراءى أمام أبيه، ودمه عليه يسمع ويتكلم ويشفع ويطهر، والصلاة التي نصليها يزكيها، لتدخل إلى الله بلا لوم، ويحمل الروح القدس الاستجابة لنا مع العطية. لذلك، فهي صلاة تُسمع لدى الآب بالضرورة وتُستجاب، لأن حضرة الابن تقويها وتُلبسها المسرة. فليس باستحقاق برنا يسمع الآب لصلاتنا، بل باستحقاق دم المسيح وبره، الذي أعاره لنا لنعمل تحت لوائه.

الآن نستطع أن نفهم أن الله الذي تسمي «إله إبراهيم واسحق ويعقوب» (خر ٣:١٦)، هذه الصفة التي كانت فخر عبادة إسرئيل؛ قد أخذ صفته الأعلى من نحونا: «إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد» (أف ١:١٧)، «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح.» (أف ١:٣)

لقد انتقلت صلتنا بالله من نسبة إلى الأباء القديسين بني البشر إلى صلتنا بالله في نسبه لابنه الوحيد. الصفة الاولى كانت بتوسط بر الإنسان، أما الصفة الجديدة فهي جوهرية، هي صميم استعلان الله الآب لنا في حقيقته الجوهرية بتجسد ابنه وتأنسه، وبتوسط بره ودم صليبه. في القديم كان شعب إسرائيل قد اعتفى من الاقتراب إلى الله أو سماع صوته، فاستجاب الله للشعب ووعد بأن يقيم لهم النبي الذي يتكلم بصوت الله، ويكون كلام الله في فمه، ويتكلم بكل ما يوصيه الله. وطبعاً ليس موسى، لأن موسى هو الذي نقل هذا الكلام للعشب، بل كان هو المسيح: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك، من إخوتك، مثلي، له تسمعون. حسب كل ما طلبث من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلاً: لا أعود أسمع صوت الرب إلهي، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لئلا أموت. قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا، أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطالبه.» (تث١٨:١٥-١٩)

هذا هو يسوع المسيح كلمة الله وصوته والحامل لاسمه، الذي قدمنا إلى الله أبيه لنستمع إليه ونطلب منه.

أما طلبة الإيمان التي نتقدم بها إلى الآب، فهي تعمل عملها، وتنجح نجاحاً، حيث قوة الايمان لا تكون مستمدة من قوتنا ولا متوقفة على طهارة أيدينا وبرنا، بل تنبع من شدة ثقتنا بصدق مواعيد الله وأمانته، ومن يقيننا، الذي لا يتزعزع، أن كل ما قاله الله ليتم وليتحقق لنا وفينا، وأن كل أمر قاله المسيح هو وصية الله، وكل وصية تحمل قوة تنفيذها فيها ولا تحتاج لقوة أخرى لتنفيذها، سوى الإيمان الصادق بها. كلام المسيح كالمسيح، والمسيح قال: «من يأكلني، فهو يحيا بي» (يو٦:٥٧)، كذلك كل كلمة قالها المسيح فهي للأخذ والأكل: «وُجدت كلامك فأكلته، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي، لأني دُعيت باسمك، يارب إله الجنود» (إر١٥:١٦). وأن نأكل كلام المسيح، يعني أن نحيا به ساعة بساعة، لأنه روح وحياة.

ومرة أخرى نقول: إن ثقتنا بصدق مواعيد الله وأمانته هي من ثقتنا بالله المطلقة. وثقتنا باالله وبمواعيده وكلامه لا يتوقف على برنا وطهارة قلوبنا، فقلوبنا لا تخلو من ملامة، ولكن القديس يوحنا يزيد ثقتنا بالله وكلامه ومواعيده مضاعفاً حينما يقول: «لأنه إن لامتنا قلوبنا، فالله أعظم من قلوبنا ويعلم كل شيء. أيها الأخباء إن لم تلمنا قلوبنا، فلنا ثقة من نحو الله، ومهما سألنا ننال منه« (ايو٣:٢٠-٢٢)، فثقتنا المطلقة بالله تغطي عجزنا وتزيد: «وهذه هي الثقة التي لنا عنده، أنه إن طلبنا شيئاً حسب مشيئته، يسمع لنا» (ايو٥:١٤). واسم المسيح كفيل أن يغطي كل عيب فينا، فهو ضمين لصدق وعده: «اسألوا تُعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم.» (مت٧:٧)

٢٤- إِلَى الآنَ لَمْ تَطْلُبُوا شَيْئاً بِاسْمِي. اُطْلُبُوا تَأْخُذُوا لِيَكُونَ فَرَحُكُمْ كَامِلاً.

«الآن» لا يزال في «الوقت القليل» الذي لم يُستعلن فيه بعد اسم المسيح بالكامل، والتلاميذ ليسوا بعد على مستوى الطلبة، فهم لا يزالون حيارى، وصدمة الفراق أسكتت أفواههم وعقولهم. فالطلبة الروحية، التي هي نفسها الصلاة، لم ينفتح بابها، لا في قلوبهم ولا عند الآب، فالمسيح لم يُكمل بعد، ولم يُعرف أنه المخلص والفادي.

أما الأمر الآتي بعد ذلك: «اطلبوا»، فهو تصريح مُسبق ومُطلق، يستخدمونه بعد انطلاقه، أي بعد كمال استعلانه، لذلك جاء فعل الأمر في الصيغة الدائمة أو المستمرة، لا كأنه أمر بالصلاة والطلبة لمرة واحدة (كما جاءت في مر٦:٢٢)، ولكن كتصريح مرور دائم مختوم باسم المسيح، يقدمونه للآب، فتدخل به الصلاة والطلبة إلى الآب، حيسما وكلما طُلبت. لأنه بموت المسيح على الصليب سيكون قد رفع الحجاب الفاصل بين الإنسان والله، وافتتح قدس الأقداس الأعلى في وجه الإنسان، وذلك بدخول الابن متجسدا حاملاً بجسده ذبيحة نفسه، ليدشن بها عهد

الصلح والسلام والحب مع الآب السماوي:

+ «وليس بدم تيوس وعجول، بل بدم نفسه، دخل مرة واحدة إلى الأ قداس فوجه فداءً أبدياً.» (عب٩:١٢)

+ «فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأ قداس (لنتراءى أمام وجه الآب)، بدم يسوع، طريقاً كرسه لنا حديثاً، حياً بالحجاب أي جسده، وكاهن عظيم على بيت الله؛ لنتقدم بقلب صادق، فى يقين الإيمان، مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير، ومغتسلة أجسادنا بماء نقي، لنتمسلث بإقرار الرجاء راسخاً، لأن الذي وعد هو أمين» (عب١٠:١٩-٢٣)

«ليكون فرحكم كاملاً»: فرح «الآن» القليل هو قليل، لأنه زمني، ويطفئه الحزن المفسد، فهو ليس فرحاً؛ أما الفرح الذي سيسكبه المسيح عليهم حينما يُشرق بوجهه من السماء ويطلع عليهم: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم»، فهو فرحه الخاص، مثل سلامه الخاص الذي تركه لهم وديعة ثمينة وميراثاً وتراثاً لعهد السلام، من رئيس السلام. هكذا «الفرح» الإلهي الذي يرافق السلام والحب الإلهي، العطايا الجديدة من السماء الجديدة، التي افتتحها المسيح لعبور الإنسان.

يختبر المتصوفون «الفرح» على أنه حالة اختطاف العقل ليعيشوا فيه لحظات ثم يرتدون سريعاً للواقع الأليم. لكن ليس هذا فرح المسيح؛ فرح المسيح انفتاح داخلي على «الكلمة» الحية الفعالة، لتستقي النفس منها الفرح كغذاء يُشبعها ويرويها، تدخل إليه، كلما دخلت فيها. فرح المسيح الذي في وصايا هو سرداب سري يوصل إلى الآب، حينما تمتد فيه الروح من خلال الوصية تجد نفسها وجهاً لوجه مقابل الحقيقة المهيبة لشخص الآب، فتحسه وإن كانت لا تراه: «أنت أيها الآب في وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحد فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يو١٧:٢١). «أنا فيهم وأنت في ليكونوا مكملين إلى واحد» (يو١٧:٢٣). هذا هو«الفرح الكامل» الذي وهبه لنا المسيح بأن «نكمل» علاقتها بالآب، أن يصير لما دخول إلى الآب بإيمان المسيح، أن نتذوق بهجة الحياة الأبدية مُسبقاً.

وليلاحظ القارىء المدقق، الفرق بين «يكمل فرحكم» كما جاءت في (يو١٥:١١)، وبين ما جاء هنا بمعنى الفرح الكامل الثابت والدائم «ليكون فرحكم كاملاُ» (على الدوام) التي جاءت أيضاً في يو١٧:١٣ حيث جاءت ترجمتها الحرفية بالإنجليزية: have been fulifilled. وقد استخدم القديس يوحنا نفسه هذا الوضع لمعنى الفرح الكامل والثابت في رسالته، كحالة ناتجة حتماً من «الشركة في الآب والابن»: «لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا. وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح. ونكتب إليكم هذا ليكون فرحكم كاملاً» (ايو١:٣-٤)

المسيح يختتم تعليمه، ويعد بالاستنارة وبمزيد من الخبر:

+ «تأتي ساعة... أخبركم عن الآب علانية» .

+ «الآب نفسه يحبكم».

+ «أنا لست وحدي».

+ «في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا، أنا قد غلبت العالم».

٢٥- «قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا بِأَمْثَالٍ وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ حِينَ لاَ أُكَلِّمُكُمْ أَيْضاً بِأَمْثَالٍ بَلْ أُخْبِرُكُمْ عَنِ الآبِ علاَنِيَةً.

الأمثال والعلانية: «الأمثال» بالعبرية هي «الماشال». وهي قريبة من المسائل الحسابية، لأن الأمثال تحتاج إلى ما تحتاج إليه المسائل الحسابية من فهم واستفسار. والمقابل لها عند الآباء هو الأبوفثجماتا

وحينما قال المسيح: «كلمتكم بهذا»، لا يقصد فقط الكلام الوارد في الآيات السابقة، ولا حتى فيما يخص مثل الكرمة

والمرأة عندما تلد، بل الإنجيل كله. لأن «كلمتكم بأمثال» يأتي في مقابلها «أخبركم علانية». فهنا المقصود ليس الكلام في حد ذاته، بل مستوى الكلام ومستوى فهمه، الأول كان بدون عطية الروح القدس، فالفهم كان صعباً على مستوى الفكر، والثاني يجيء على مستوى عمل الروح القدس في الاستعلان، حيث يصير الكلام واضحاً على مستوى الوعي الروحي.

وقد ثبت ذلك بالفعل بالنسبة للتلاميذ أمامنا، ففي ١٣:٣٦ نسمع القديس بطرس يسأل: «يا سيد إلى أين تذهب؟»، وفي ١٤:٥ يسأل القديس توما: «يا سيد لسنا نعلم أين تذهب»، وفي ١٣:٢٨ «وأما هذا، فلم يفهم أحد من المتكئين لماذا كلمه به»، وفي ١٣:٧ «ولم يفهموا أنه كان يقول لهم عن الآب»، وفي ١٣:٧ «لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع، ولكنك ستفهم فيما بعد»، وفي٨:٢٨ «متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أني أنا هو».

بل وهذه المواقف التي تدل على عدم الفهم لكلام المسيح كثيرة وواضحة جداً في الأناجيل الأخرى أيضاً (أنظر على سبيل المثال مر٧:١٨؛ مر٨:٢١؛ ٩:٣٢؛ لو ٩:٤٥؛ ١٨:٣٤). ولكن الكلام في الإنجيل عامة هو صعب بالحقيقة، إذا انبرى له عقل الإنسان ليفهمه، لأن العقل وحده ليس من طبيعة كلمة الله. الكلام نفسه ليس صعباً، ولكنه صعب إذا دخل إليه الإنسان من مستوى دون مستواه. فمستوى «الكلمة» إلهي سماوي أخروي، ليس من هذا الدهر ولا لهذا الدهر. الإنجيل هو كتاب الحياة الأبدية، هو وثيقة ندخل بها السماء، هو دليل طريق نسترشد به في السير نحو الله، هو حل للغز الحياة المتناقضة على الأرض في هذا العالم، هو الدواء المخصص للذين عضتهم الحية وسرى سمها في الجسد؛ فهو ترياق عدم الموت. فأين مستوى العقل البشري من هذه الأمور؟

ولكن التلاميذ حينما قبلوا الروح القدس «في ذلك اليوم» خلوا في العلانية، انفتح وعيهم الروحي المسيحي بالروح القدس، لأن عمل الروح القدس هو: «يرشدكم إلى جميع الحق». هذا هو الانفتاح على الحياة الأبدية، وبالتالى عل كلام المسيح: «يذكركم بكل ما قلته لكم». هذه هي العلانية أن يدركوا في الإنجيل أسرار ملكوت السموات وبالأكثر «سر الآب والابن»، الذي هو قمة الاستعلان. فرسالة المسيح يمكن أن نلخصها في كلمة «استعلان الآب» الذي كمل في فوله: «الآب نفسه يحبكم».

و«البار يسيا» أي «العلانية» لا تأتي بكلام جديد ولا تشرح الكلام، فالكلام في الإنجيل باق كما هو بحروفه، ولكن وعي الإنسان هو الذي ينفتح ليقبل كلام المسيح مجدداً وهو منطوق بالروح، وكأنه مصوب لقلبه، وكل كلمة كأنها يد إلهية تكشف الغطاء عن معنى جديد فيها، ومعنى وراء معنى، شيء شيء لا ينتهي والكلمة هي هي.

وقول المسيح: «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال، بل أخبركم عن الآب علانية»، هذه الساعة هي ساعة كل واحد حينما يخضع قلبه. لا ذهنه، لسلطان الإنجيل، وذلك حينما يلتزم بالكلمة ويجلس ساهراً يفتش بالروح عن نفسه في الإنجيل، ويبحث عن وجوده وكيانه في وصاياه: «طوبى للانسان الذى يسمع لى ساهراً كل يوم» (أم٨:٣٤). وقد أدرك ذلك بولس الرسول فكتب مشدداً: «واظبوا على الصلاة، ساهرين فيها بالشكر» (كو٤:٢)، وحذر من أجلها القدوس الساهر على كلمته، ليجريها، بقوله: «فاذكر كيف أخذت وسمعت، واحفظ وتب، فإني إن لم تسهر، أقدم عليك كلص.» (رؤ٣:٣)

ويلزم أن نفهم أن العلانية موجودة في كلام المسيح، ولكنها تحتاج إلى الأذن المفتوحة والعين المفتوحة. لقد طلب اليهود أن يكلمهم المسيح علانية ويكفت عن الألغاز والأحجيات والأمثال، فكان رده أنه كلمهم بالعلانية ولكنهم لا يفهمون، لأن ليست لهم آذان ولا قلوب تتقبل العلانية!! «فأحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تعلق أنفسنا؟ إن

كنت أنت المسيح فقل لنا جهرا (علانية). أجابهم يسوع: إني قلت لكم (جهراً) ولستم تؤمنون» (يو١٠:٢٤-٢٥). الإيمان بصدق المسيح وأمانة مواعيده وكلامه، هو الذي يرفع الحجاب عن كلمات المسيح، فتظهر العلانية ويتجلى الآب!!

هل المسيح لم يكلم اليهود عن رسالته، وعن سر علاقته بالآب، وعن من أين أتى، وإلى أين يذهب؟ هل لم يصنع أمامهم وفيهم أعمالاً تشهد أنه هو هو يهوه الذي كان يدللهم في القديم؟ أي نبي صنع جملة مما صنع المسيح أمامهم وفيهم؟ أي نبي استعلن صلته بالله هكذا: «أنا والآب واحد»؛ ولكن صدق إشعياء النبي حينما قال عنهم: «لهم عيون تبصر ولا يبصرون، ولهم آذان تسمع ولا يسمعون، قد غلظ قلب هذا الشعب !!!

ولكن أليس هذا الكلام عينه مصوباً إلينا، ألسنا نقول قولتهم: «نريد العلانية»؟ ونتمنى ياليت المسيح يعلن نفسه لنا؟ ياليته يظهر فجأة فنؤمن به. أليس هذا هو القلب الغليظ والعين الكليلة والأذن التي انسدت وانصدت عن أن تسمع الصوت المحيي: «من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥:٢٤). هل سمعنا؟ هل حيينا؟ هل نشعر أنه لا دينونة الآن علينا؟ هل انتقلنا من الموت إل الحياة؟ والا فنحن لم نسمع الصوت بعد!

لقد بلغ التلاميذ حالة الاستعلان هذه، وبلغوها كاملة، فبلغوا قمة المعرفة بالحق وبالله، والأناجيل تشهد بذلك وبالأخص القديس يوحنا الذي كتب إنجيله بعد أكثر من ٦٠ سنة من سماعه هذا الكلام!! لقد كتبه بالاستعلان، والاستعلان يطل على القارىء في كل أية، بل في كل كلمة!! هذا إن كان القارىء على مستوى ألاستعلان؛ وإلا فإنجيل يوحنا أكثرهم الغازاً وأحجيات!!

٢٦- فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَطْلُبُونَ بِاسْمِي. وَلَسْتُ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي أَنَا أَسْأَلُ الآبَ مِنْ أَجْلِكُمْ.

«هذا هو اليوم الذي صنعه الرب نبتهج ونفرح فيه» (مز١١٨:٢٤)، يوم حلول الروح القدس على الكنيسة الأولى، الذي لم تغب شمسه ولن تغيب إلى الأبد، هذا هو يوم النار الإلهية التي أُلقيت على الأرض لتضرم الحب والمعرفة والنور في قلب الإنسان، يوم يؤئيل النبي الذي رأى الروح وهو ينسكب على كل بشر وعلى العبيد والإماء. ومنذ ذلك اليوم بدأ الرسل يطلبون باسم «فتاك يسوع»، فيسمع الآب ويستجيب: «ولما صلوا تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه، وامتلأ الجميع من الروح القدس، وكانوا يتكلمون بكلام الله بمجاهرة (علانية)» (أع٤:٣١)

أن يطلب التلاميذ باسم الرب ويستجيب الله، هذا الكلام يأتي مكرراً لما سبق في الآيات ١٦:٢٣؛ ١٥:٧و١٦؛ ١٤:١٣-١٤. ولكن الجديد هنا هو قول المسيح: «ولست أقول لكم إني أسأل الآب من أجلكم، لأن الآب نفسه يحبكم».

لكي لا نبتعد عن المعنى الصحيح لهذه الآية، يلزم أن نضع الشرط الأسامي لسماع واستجابة الطلبة لدى الآب وهو: «باسمي». فنحن نطلب باسم المسيح، وقد قلنا سابقاً: أن نطلب باسم المسيح، فهذا يعني أن نتقدم إلى الآب في وجوده، في حضرته، في دمه، في آلامه. ففي كل كلمة نرفعها للآب، لا ترتخي أعيننا عنه، وهو قائم أمام الآب كخروف مذبوح ودمه عليه!

إذن، المعنى هنا أنه قد تمت الصالحة، وانفتح الطريق المباشر إلى قلب الله وأذنه، ونحن لا نحتاج بعد أن نصرخ إلى المسيح أن يتكلم عنا كما كان يفعل شعب إسرائيل. لقد زالت الرعبة من قلوبنا من نحو الله كنار آكلة، لقد أكمل المسيح لنا كل صلاحية الدخول إليه والوقوف أمامه بلا لوم، وذلك في دم ذبيحته: «ويصالح الاثنين (يهوداً وأمماً)

في جسد واحد مع الله، بالصليب، قاتلاً العداوة به. فجاء وبشركم بسلام، أنتم البعيدين والقريبين، لأنه به لنا كلينا قدوماً في روح واحد إلى الآب، فلستم إذاً بعد غرباء ونزلاء بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله.» (أف٢:١٦-١٩)
كان عمل المسيح الأعظم أن «يستعلن لنا الآب» في شخصه، ويعرفنا بكل ما عنده. «لأني أعلمكم بكل ما سمعت من أبي» (يو١٥:١٥)، وهذه المعرفة بالآب صيرتنا أحباء، بعد أن كنا بجهلنا عبيداً: «لا أعود أسميكم عبيدا، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكي قد سميتكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعت من أبي» (يو١٥:١٥)، ومعرفة الآب ليست علماً وفهماً، بل رفع حواجز وفوارق.

كانت هناك ضرورة حتمية أن يتوسط المسيح، فيتكلم بلساننا أمام الآب عنا، وذلك عندما كان حجاب الخطية حاجزاً بين قلوبنا وقلب الله. لذلك كان فيلبس على حق، عندما تأوه وقال للمسيح: «أرنا الآب وكفانا» (يو١٤:٨). لأن الآب كان، بغير المسيح، محجوزا عنا، وكنا نحن محجوزين عنه، هكذا صرخ إشعياء متوجعاً: «حقاً أنت إله محتجب يا إلة إسرائيل المخلص» (إش٤٥:١٥)، وداود يستصرخ الله: «لماذا تحجب وجهك وتنسى مذلتنا وضيقتنا.» (مز٤٤:٢٤)

ولكن الأمر لم يعد كذلك، بعد أن ارتفع المسيح بجسده ذاهباً إلى الآب، «بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى الأقداس، فوجد فداءً أبدياً» (عب٩:١٢). لقد رُفع الحاجز المتوسط، وأعطانا رتبة البنين، وآهلنا للدخول بإيمان عن ثقة.

بهذا المعنى يقول المسيح: «لست أقول لكم إني أنا أسأل الآب من أجلكم، لأن الآب نفسه يحبكم». ليس كأن دور المسيح في التوسط والشفاعة قد انتهى، بل هو هو الذي يقدمنا إلى الآب، وكأنه يقول لنا: تكلموا، اطلبوا، لا تخافوا، الآب يسمع لكم، الآب يحبكم، لأني أكملت كل ما يرضيه.

فإن كان قد أصبح لنا رئيس كهنة يرثي لضعفاتنا (عب٤:١٥)، قد أصبح بواسطته الله لنا أباً، يعاملنا كبنين وأحباء: «انظروا أية محبة أعطانا الآب، حتى نُدعى أولاد الله.» (ايو٣:١)

٢٧- لأَنَّ الآبَ نَفْسَهُ يُحِبُّكُمْ لأَنَّكُمْ قَدْ أَحْبَبْتُمُونِي وَآمَنْتُمْ أَنِّي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَرَجْتُ.

المسيح يوضح هنا أكثر، لماذا أصبح من غير الضروري أن يسأل المسيح الآب من أجلنا، فالسبب هو أننا نحب ابنه، وقد أوضح المسيح هذه المحبة المتبادلة وما تنشئه: «الذي يحبنى يحبه أبى، وأنا أحبه، وأُظهر له ذاتي» (يو١٤:٢١). فعلاقتنا بالآب توطدت بسبب حبنا للمسيح ابنه.

يلزمنا أن نفهم أن حبنا للمسيح هو استجابة لمحبته: «لأنه هو أحبنا أولاً» (ايو٤:١٩)، كذلك محبة الآب، فهي سباقة على محبتنا: «في هذا هي المحبة، ليس أننا نحن أحببنا الله، بل أنه هو أحبنا، وأرسل ابنه كفارة لخطايانا» (ايو٤:١٠). محبة الله، سواء الآب أو الابن، هي أحد أسرار الله التي كانت مخفية عن الإنسان بسبب طبيعته التي اشتبكت مح التعدي والعداوة، فأصبحت متغربة عن سر الله. لذلك جاءت مبادرة المحبة من طرف الله، واستجابتنا لها، فأدخلتنا في سرها العجيب. فلما قبلنا المسيح، اكتشفنا فيه محبته المجانية والسخية: «أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل٢:٢٠)، فأحببناه كالتزام، لأن موته من أجلنا أسر قلوبنا: «لأن محبة المسيح تحصرنا» (٢كو٥:١٤). ومن هنا دخلنا في سر محبة الآب، واكتشفنا ما كان مخبأ عنده لنا. لذلك يكرر القديس يوحنا هذا بانفعال: «نحن نحبه، لأنه هو أحبنا أولاً» (ايو٤:١٩). ولكن يبقى مفتاح سر محبة الآب لنا موجوداً في حبنا للمسيح، الذي كشف لنا سر محبة الآب، وفتح الطريق أمامنا لنتقبلها من يديه: «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح، الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح، كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم» لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في

المحبة» (أف ١:٣-٤)

«وآمنتم اني من عند الله خرجت»: هذه الحقيقة اللاهوتية يتوقف عليها خلاص العالم. فرسالة المسيح في العالم هي أن يؤمن العالم أن الله «(أرسل ابنه كفارة لخطايانا» (ايو ٤:١٠). هذا هو الرجاء الحي الذي عليه ينعقد لواء الكرازة في كل كنائس العالم . لذلك لم يكف المسيح عن التركيز عليها في صلاته الأخيرة لدى الآب: «كما أرسلتني إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم» (يو١٧: ١٨)، «.... ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يو١٧: ٢٣)، «ليكونوا مكملين إلى واحد، ليعلم العالم أنك أرسلتني» (يو١٧: ٢٥)، «أما أنا فعرفتك، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني.» (١٧: ٢٥)

«من عند الله خرجت»: «من عند» ، اصطلاح لاهوتي يعني «من جوار». هنا توكيد ضمني على وجود الابن مع الآب أو في الآب، فالابن ترك موضعه متغرباً في جسد إنسان، هذا الاصطلاح كان لا يمكن أن يُقال إذا لم يكن التجسد. فقبول التجسد جعل الابن يُرى على الأرض وكأنه ترك موضعه، وهو في الحقيقة، ومن الوجهة اللاهوتية الخالصة، لم يترك، فالابن قائم دائم في حضن الآب، ولكنه إذ وُجد في الجسد، ظهر وكأنه خرج من عند الله، (أو «من عند الآب» على وجه أصح، حسب كثرة من المخطوطات). لذلك يُقال أنه، وان كان على الأرض يُرى، فهو في السماء قائم: «وليس أحد صعد إلى السماء، إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو٣: ١٣)

لذلك، أصبح الخروج من عند الآب، في معناه اللاهوتي، هو هو التجسد، الذي أكمله على أساس العودة إلى الآب محملاً بالبشرية المفدية التي حملها عليه!

لذلك، فالإيمان بأن المسيح خرج من عند الله، يعني الإيمان برسالة المسيح للعالم، ويعني الإيماذ بالتجسد، الذي هو رجاء كل العالم.

٢٨- خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ الآبِ وَقَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ وَأَيْضاً أَتْرُكُ الْعَالَمَ وَأَذْهَبُ إِلَى الآبِ».

قول على قول!! هذا هو كل الإنجيل، مختصر الإيمان والعقيدة، مجمل الإرسالية، تاريخ الخلاص: الإرسال، الميلاد، الآلام، الصعود! والرب هنا يتكلم بلغة عقائدية، الرب يؤسس بهذا المنطوق عقيدة الجماعة، تلاميذ وكنيسة. الكنيسة إذن ليست من صنع معلم عظيم أو ائتلاف جماعة مسحورة بعظمة فيلسوفها، بل وليست حركة بشرية من حركات التاريخ الإنساني الطويل، بل عمل من أعمال استعلان الله للانسان على الأرض. دخلت العالم من فوق، من فوق التاريخ، لم تأخذ وجودها من تطور الفكر البشري، ولا هي درجة من درجات ارتقاء الثقافة أو الفلسفة الإنسانية؛ بل هي اقتحام فكر الله للزمن الإنساني الخامل المتعطل، ودخول الله المفاجيء والمباغت لطبيعة الإنسان التي فقدت تارخها الإلهي ونسيت الصورة التي انحدرت منها وانحطت إلى مستوى الحيوانية التي جُعلت في البدء سيدة عليها.

«خرجت من عند الآب»: هو تعبير لاهوتي يفيد وحدة الجوهر والذات، ذلك بداعي التجسد. وبدون التجسد لا خروج ولا دخول في اللاهوت. فالله غني عن الحركة والزمن، فهو محور كل الوجود، بل هو الوجود الكلي المطلق. هذا الوجود الكلي المطلق غير المحدود صار محدوداً في شكل الجسد، وظل غير محدود في الجسد وخارج الجسد. خرج من عند الآب لأنه «رأيناه بعيوننا» (ايو ١:١) بدون الآب، مع أنه، بالحق والجوهر والإيمان، لم يغادر الآب

لحظة واحدة ولا طرفة عين. فالآب والابن واحد مطلق، لا ينقسم ولا ينفصل إلى إلهين. ههما ذات واحدة في شخصين متحدين: الآب في الابن والابن في الآب، بل هما الواحد الكامل في أبوته وبنوته. الابن تجسد، فرُئي وحده في الجسد، مع أنه قائم دائم في أبيه.

«أتيت إلى العالم»: «عمانوئيل الله معنا». هذا في لغة اللاهوت إخلاء، وفي لغة الإنسان تنازل وتواضع، تنازل عن هيئة لاهوته الممجدة غير المنظورة، ليأخذ هيئة إنسان، عبد، في العالم، له منظر إنسان متضع، لا يشتهي أن ينظر إليه أحد. وكإنسان، أخذ طبيعة الإنسان لنفسه بكل متعلقاتها وأتعابها وهمومها، ما عدا الخطيئة الدخيلة على طبيعة الإنسان، فلم يأخذ جذراً منها ولا فرعاً؛ وُلد بدونها من عذراء طاهرة وبالروح القدس، وعاش قاهراً كل حركاتها، سيداً على الجسد والعالم: «ثقوا، أنا قد غلبت العالم» (يو١٦:٣٣). والذي يغلب العالم فهو حتماً وبالضرورة غالب الجسد!

ومجيء المسيح إلى العالم كان هو رسالته، أخذها من الآب لما جاء ميعاد خلاص العالم واكتملت فيه دواعي محبة الله. وأخذ المسيح على عاتقه تكميل رسالة حب الآب من نحو العالم، وكان مضمونها أن يصالح هذا العالم الشارد للآب. وشرود العالم كان بتحريض الشيطان، فبات العالم مقهوراً لكل شهوات الدنيا، وضلالة الفكر، وخداع العقل، وزيف الحق، فكانت رسالة الابن أن يستعلن الحق لفكر الإنسان باستعلان الله، ويفدي الجسد بحمل خطاياه في جسده، ويقهر الخطية التي قهرته، ويغلب الموت الذي تغلب عليه، فقام من الموت وجروحه في جنبه ويديه، وأعطى الإنسان غلبته هذه على الخطية والموت، لا بقوة مثل قوته، بل بنعمة قوته، وباستحقاق دمه يغفر الخطايا ولا تعود تُحسب، ويهب نعمته لتقديس الجسد والنفس والروح معاً.

«وأيضاً أترك العالم»: ترك العالم، في المظور البشري، ولكه بقي فيه بسر حضرته الدائمة كوعد وعهد: «بعد قليل لا يراني العالم، أيضاً، وأما أنتم فترونني» (يو١٤:١٩)، برؤيا الإيمان والروح، لا بالخيال ولا بتدريب العقل بالتاوريا الصوفية، بل برؤية حقيقية من واقع استعلان لذاته: «والذي يحبني، يحبه أبي، وأنا أحبه، وأُظهر له ذاتي» (يو١٤:٢١)، «وظهر للأحد عشر» (مر١٦:١٤)، «دالذين أراهم أيضاً نفسه حياً ببراهين كثيرة، بعد ما تألم، وهو يظهر لهم أربعين يوماً، ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله» (أع١:٣)، «وظهر أياماً كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل إلى أورشليم، الذين هم شهوده عند الشعب» (أع١٣:٣١)، «هذا أقامه الله في اليوم الثالث، وأعطى أن يصير ظاهراً، ليس لجميع الشعب، بل لشهود سبق الله فانتخبهم، لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الاموات» (أع١٠:٤٠-٤١). نعم، وهولا يزال يظهر منذ قيامته وحتى اليوم، حسب وعده المقدس: «الذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحه، وأظهر له ذاتي» (يو١٤:٢١)، فهو القائل لبولس الرسول: «لكن قم، وقف على رجليك، لأني لهذا ظهرت لك، لأنتخبك خادماً وشاهداً بما رأيت، ومما سأظهر لك به.» (أع٢٦:١٦)

«وأذهب إلى الآب»: الذهاب المبارك، الذي تم هـ مجيء الروح القدس المعزي، ليبقى مع التلاميذ والكنيسة أبد الدهر، ويكرن فيهم: «ماكث معكم، ويكون فيكم» (يو١٤:١٧)، ويستعلن المسيح ويمجده ويذكر بكل كلمة قالها المسيح، لتكْتب كما هي في الإنجيل، وليشهد للمسيح في التلاميذ، وبالتلاميذ والكنيسة.

لقد ذهب إلى الآب ودمه عليه، ليبقى شفيع الخطاة أبد الدهر، وليصير دمه لدى الآب متكلماً عن الخطاة المعترفين بخطاياهم، المتسكين بدم العهد، فتُغفر خطاياهم أولاً بأول، ويغتسلون ويبيضون ثيابهم باستعداد العرس: «حيث دخل يسوع كسابق لأجلنا» (عب٦:٢٠)، لندخل معه إلى ما داخل الحجاب، لنتراءى أمام وجه الآب بلا لوم. وجلس

عن يمين الآب ببشريتنا، فجلسنا فيه ومعه، في مواضع الكرامة والمجد، وعوملنا معاملة البنين، وأخذنا نصيباً وميراثاً مع القديسين محفوظا لنا في السموات.

شجاعة مفتعلة واندفاع فى إيمان صحيح، يفوق الأبمان الحاضر

٢٩- قَالَ لَهُ تلاَمِيذُهُ: «هُوَذَا الآنَ تَتَكَلَّمُ علاَنِيَةً وَلَسْتَ تَقُولُ مَثَلاً وَاحِداً!.

المسيح لم يقل «تأتي ساعة وهي الآن» بل قال: «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال، بل أخبركم عن الآب علانية». ويقيناً، لم تكن هذه الساعة التي يتكلم فيها، ولا يمكن أن تكون، لأن المعنى المقصود هو: بالاستعلان بالروح القدس سوف يتكلم المسيح إليهم، ويخبرهم على مستوى الروح، وليس الأذن. لذلك فتصورهم أن هذا الذي يقوله المسيح هو «العلانية» أو الاستعلان، سابق جداً لأوانه. صحيح أن اعتراف التلاميذ الذي جاء بعد ذلك بخصوص أنه خرج من الله، هو إيمان صحيح للغاية، ولكنه يسبق ويتعدى واقع إيمانهم، فإمامهم والمتقدم عليهم، بطرس، جاهر علنا وأمام العالم وشهود أنه لا يعرف المسيح، وأكد ذلك بقسم أمام جارية.

ولكن شجاعة التلاميذ هنا وحرارة إيمانهم، إنما جاءت انعكاساً وصدق لشجاعة المسيح وثقته العالية جداً بنفسه. فلما غاب عنهم، غابت شجاعتهم، وغاب إيمانهم بسرعة لا يصدقها العقل. ولكن الانسان هو الإنسان، وبدون نعمة الروح القدس، سيكون هو الإنسان دائماً.

٣٠- اَلآنَ نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَسْتَ تَحْتَاجُ أَنْ يَسْأَلَكَ أَحَدٌ. لِهَذَا نُؤْمِنُ أَنَّكَ مِنَ اللَّهِ خَرَجْتَ.

كلام التلاميذ هنا هو رد مباشر على ما قاله المسيح لهم في الآية (١٩) من هذا الحديث، حينما قال القديس يوحنا: «فعلم يسوع أنهم كانوا يريدون أن يسألوه، فقال هم: أعن هذا تتساءلون فيما بينكم، لأني قلت ...». وهنا في هذه الآية (٣٠) يُظهرون اندهاشهم لمعرفته لما في قلوبهم وأفكارهم، ويعبرون عن اندهاشهم باعترافهم بأنهم أصبحوا على يقين من أن المسيح «عالم بكل شيء»، ولا يحتاج أن يسأله أحد، بل هو يعرف ما في القلوب، ويرد عليها من تلقاء ذاته: «لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه، قبل أنأ تسألوه» (مت٦:٨)، «إني قبلما يدعون، أنا أجيب.» (إش٦٥:٢٤)

ولكن حتى اعتراف التلاميذ بهذا العلم بكل شيء، لا يأتي في مفهومه الإلهي المطلق بمعنى المعرفة الكلية، ولكن معرفة قلوب التلاميذ وحسب ، وهذا اعتراف ناقص.

«لهذا نؤمن أنك من الله خرجت»: وهي تفيد الإرسالية، وهو يستخدم لكلمة «من» حرف جر غير ( ) أو ( ). هذا إيمان عام لا يدخل إلى عمق حقيقة لاهوت المسيح، ولقد سبق نيقوديموس وقاله: «يا معلم، نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً ...» (يو٣:٢)» وهنا استخدم نيقوديموس أيضاً حرف ( ) التي تفيد الإرسال ولا تفيد الخروج الجوهري اللاهوتي الذي يقتصر التعبير عنه على استخدام حرفي ( ) أو ( )، ولو أن التمييز بين هذه الحروف لا يأتي بدقة، لأن الرواية الإنجيلية تشغل الفكر أحياناً عن التحديدات الدقيقة.

ولكن على كل، كانت ردود التلاميذ محصورة فى واقعهم الزمني «الآن»، في حين كان كلام المسيح يختص بما سيكون. لذلك كان اجتهاد التلاميذ للتعبير عن المستقبل بعرفتهم المحصورة في الحاضر فقط، وهو اجتهاد مشكور، ولكنه ناقص، ولا بد أن يكشفه المسيح لهم.

٣١- أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَلآنَ تُؤْمِنُونَ؟.

في هذه الآية، يأتي الظرف الزماني للتعبير عن الحال في أضيق حدوده، أي في هذهه اللحظة «الآن»: ( ) وليس اللفظة المستخدمة عن الزمن المطلق «الأن» بمعنى الحاضر دون حدود ( ). واستخدام القديس يوحنا هذا التعبير، توجيه ندرك منه صلة الحادث الآن، بما سيحدث الآن بعد قليل. والمعنى الذي يقصده المسيح. هو عمل مقارنة موجهة للتلاميذ بين إيمانهم «الآن»» وهروبهم بعد قليل وتركه وحده للمحاكمة والموت. وهكذا يأتي تسلسل الكلام: «الآن تؤمنون ... الأن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركونني وحدي»! وقصد المسيح من هذا، أن إيمانهم «الآن» ليس على مستوى قدرتهم واحتمالهم، ولا هو قادر على أن يواجه الواقع الذي يتطلبه الإيمان.

المسيح هنا لا يسأل ولا يوبخ، لأنه بحسب منهج إنجيل القديس يوحنا في نظرته تجاه التلاميذ، فهو لا يوبخهم ولا يظهر عيوبهم، ولا يقلل من قدرتهم. فهو بنفسه في ٨:١٨ فتح أمامهم الطريق ليهربوا وينجون بحياتهم! لذلك، فالمعنى هنا يقتصر على مراجعة التلاميذ أنهم «الآن» ليسوا على مستوى الإيمان، ولا قبل لهم باحتمال مواجهة ما يتطلبه الإيمان، فعليهم أن لا يتكلوا على مثل هذا الإيمان الناقص، وكأنما لسان حالهم هو: «أؤمن يا رب، فأعن عدم إيماني.» (مر ٩:٢٤)

ولا شك أنه بصلاة المسيح من أجلهم، خلصوا من هذه الساعة، كما حدث لبطرس حينما تمادى في التعبير عن إيمانه في نفس هذا الموقف: «يا سيد، لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن، إني أضع نفس عنك»، فكر طفولى، حينما ينبري الطفل ليقنع أباه أنه قادر ان يحميه، فكان رد المسيح: «أتضع نفسك عنى»؟ نفس كلام المسيح للتلاميذ: «الآن تؤمنون؟»، «الحق الحق أقول لك لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات». (يو ١٣:٣٧-٣٨)

وهكذا، وفي وقت المحنة، حينها يقع الإنسان في مأزق العدو ومحاصرته، حيث تُطلب الشهادة أو الإستشهاد، فلولا صلاة المسيح ومؤازرة الروح القدس، لوقفنا جميعنا موقف بطرس أو التلاميذ في محنتهم.

٣٢- هُوَذَا تَأْتِي سَاعَةٌ وَقَدْ أَتَتِ الآنَ تَتَفَرَّقُونَ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى خَاصَّتِهِ وَتَتْرُكُونَنِي وَحْدِي. وَأَنَا لَسْتُ وَحْدِي لأَنَّ الآبَ مَعِي

المسيح هنا لا يراجع ولا يؤاخذ ولا يوبخ، ولكن يشرح لهم عظيم الضربة التي ستقع عليهم من قبل العدو ليخلخل إيمانهم ويرعبهم رعباً، حتى يهربوا ويتركوه وحده. فالقصد النهائي من تجربة العدو لهم هو أن يبقى المسيح وحده، إمعاناً من الشيطان في تحطيم وحدة الجماعة، ليتعرى المسيح من أي مساندة أو معونة. وهذا لم يفت على الوحي المقدس أن يلقنه للأنبياء، حتى يصبح عمل العدو نفسه معرى إزاء إيمان الجماعة بعد ذلك، حينما تلتئم وتراجع مواقفها، وتدرك أن عمل العدو ضدهم وضد المسيح داخل ضمن المشورة الإلهية: «استيقظ يا سيف على راعي، وعلى رجل رفقتي، يقول رب الجنود. اضرب الراعي فتتشتت الغنم، وأرد يدي على الصغار» (زك١٣:٧). وهذه النبوة عينها رددها المسيح نفسه أمام التلاميذ قبل أن تبدأ المحنة: «احينئذ قال لهم يسوع: كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة، لأنه مكتوب: أني أضرب الراعي فتتشتت خراف الرعية» (مت٢٦:٣١). ثم عاد القديس متى ليعلق على ذلك بعد أن بدأ العدو ضربته: «وأما هذا كله فقد كان، لكي تُكمل كتب الأنبياء، حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا.» (مت٢٦:٥٦)

«وتتركونى وحدى»: ليست هذه مُعاتبة، فقد تيقن في الأزل أن يتألم المسيح وحده، ولا معين! هذا المنظر يصفه إشعياء النبي، في عظمة وشموخ، فيجعل الصليب وكأنه قمة النصرة في حرب خفية ضروس، يدوس فيها كراديس

الأعداء وجحافل الظلمة ومملكة الشيطان، وكأنها شعوب متراصة:

مَنْ ذَا الآتِي مِنْ أَدُومَ بِثِيَابٍ حُمْرٍ مِنْ بُصْرَةَ؟

هَذَا الْبَهِيُّ بِمَلاَبِسِهِ. الْمُتَعَظِّمُ بِكَثْرَةِ قُوَّتِهِ؟.

«أَنَا الْمُتَكَلِّمُ بِالْبِرِّ الْعَظِيمُ لِلْخَلاَصِ!!».

مَا بَالُ لِبَاسِكَ مُحَمَّرٌ وَثِيَابُكَ كَدَائِسِ الْمِعْصَرَةِ؟

قَدْ دُسْتُ الْمِعْصَرَةَ وَحْدِي وَمِنَ الشُّعُوبِ لَمْ يَكُنْ مَعِي أَحَدٌ.

فَدُسْتُهُمْ بِغَضَبِي وَوَطِئْتُهُمْ بِغَيْظِي.

فَرُشَّ عَصِيرُهُمْ عَلَى ثِيَابِي فَلَطَخْتُ كُلَّ مَلاَبِسِي.

لأَنَّ يَوْمَ النَّقْمَةِ فِي قَلْبِي وَسَنَةَ مَفْدِيِّيَّ قَدْ أَتَتْ.

فَنَظَرْتُ وَلَمْ يَكُنْ مُعِينٌ وَتَحَيَّرْتُ إِذْ لَمْ يَكُنْ عَاضِدٌ

فَخَلَّصَتْ لِي ذِرَاعِي وَغَيْظِي عَضَدَنِي.

فَدُسْتُ شُعُوباً بِغَضَبِي وَأَسْكَرْتُهُمْ بِغَيْظِي

وَأَجْرَيْتُ عَلَى الأَرْضِ عَصِيرَهُمْ». (إش٦٣:١-٦)

«وأنا لست وحدي لأن الآب معي»:

هنا ينبري داود بالنبوة ليصف منظر الرب في وحدته، وقد أحاط به اليهود يصرون بأسنانهم، والنقمة تملأ قلوبهم وعيونهم، والتف حوله العكر والشامتون يدقون الحديد في يديه ورجليه وهو ينادي الله!! «لأنه قد أحاطت بي كلاب، جماعة من الأشرار اكتنفتني، ثقبوا يدي ورجلي. أحصي كل عظامي، وهم ينظرون ويتفرسون في. يقتسمون ثيابي بينهم، وعلى لباسي يقترعون. أما أنت يا رب، فلا تبتعد، يا قوتي أسرع إلى نصرتي، أنقذ من السيف نفسي، من يد الكلب وحيدتي. »» (مز٢٢:١٦-٢٠)

في سلام، وفي العالم ضيق

٣٣- قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا لِيَكُونَ لَكُمْ فِيَّ سلاَمٌ. فِي الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ وَلَكِنْ ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ.

بهذه الآية يكون قد انتهى حديث المسيح الأخير، وانتهى تعليم المسيح في إنجيل يوحنا.

هنا يستدرك المسيح ما قاله التلاميذ، وما أجاب به عليهم، كونهم سيتركونه وحده، ويتفرقون كل واحد إلى خاصته، أي بيته وأهله ومهنته! ثم يكشف المسيح عما كان يقصده من كلامه هذا: «ليكون لكم فيّ سلام»، وذلك حينما يتم بالفعل ما تنبأ به المسيح عن هروبهم وتركه وحده، فيتذكرون ما قاله، وحينئذ يستردون إيمانهم وثقتهم بالمسيح. لأن وديعة المسيح التي تركها لهم، وإن غابت بعض الوقت عن أعينهم «سلاماً أترك لكم» (يو١٤:٢٧)، فهي قائمة وثابتة فيهم لن تغادرهم.

والذي يهمنا جداً في هذه الآية قول المسيح: «ليكون لكم في سلام»، فهو لم يقل: «ليكون لكم سلام»، بل «ليكون لكم في سلام»، فحينما نُهزم أمام التجربة، كما انهزم التلاميذ في محنة الصليب، وحينما نفقد السلام الذي فينا، فإنه يتبقى لنا «سلام في المسيح»، فلام المسيح هو القوة المدخرة لنا، حينما تنتهي قوتنا. يكفي أن نلقي همنا

عليه (ابط٥:٧)، لنجد فيه سلامنا المفقود: «لأنه هو سلامنا.» (أف٢:١٤)
أنظر كيف تحول انهزام التلاميذ إلى نصرة، وشكهم إلى يقين، وحزنهم إلى فرح إنجيلي ملأ المسكونة كلها. إن خبرة التلاميذ في هذا التحول القوي والغالب، سلموها للكنيسة. الكنيسة بعد ذلك عبرت مثل هذه المحنة، ومحن بلا عدد أقوى من محنة التلاميذ، وغلبت، وها هي غالبة وستغلب؛ والسر هو سلام المسيح الذي تركه لها ميراثاً ثابتاً دائماً لها: «وأبواب الجحيم لن تقوى عليها.» (مت١٦:١٨)
وليلاحظ القارىء المقارنة التي وضعها المسيح بين سلامه وبين ضيق العالم: « ليكون لكم في سلام. في العالم سيكون لكم ضيق» . المسيح يضع نفسه مباشرة في المقابل المقابل للعالم. هذه هي الحقيقة بغير مواربة، فالذين للمسيح تماماً يضطهدهم العالم حتماً. ولكن السلام الحقيقي في المسيح يوازن الضيق في العالم، مهما تعال ويزيد. بمعنى أن الذين في المسيح هم فوق العالم دائماً. لذلك أكمل المسيح المعادلة المنتصرة بقوله: «ثقوا، أنا قد غلبت العالم». فالذين هم في المسيح ولهم سلام «في» المسيح، قد غلبوا العالم. هذه المعادلة لخصها القديس يوحنا بقوله في رسالته الاولى: «وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، إيماننا.» (ايو٥:٤)
والآن يلزمنا أن ندخل قليلاً في اختبار الإيمان والسلام في المسيح، لندرك حقيقة غلبة العالم، لأن هذا بالحقيقة هو الميراث المسيحي العملي، الذي استلمناه من الإنجيل ومن القديين الأوائل والشهداء والأتقياء، الذين اختبروا المسيح وعاشوه، وغلبوا العالم وعبروا: فالإيمان العملي بالمسيح هو الثقة الكاملة والمطلقة بكل الكلام الذي قاله. فكل آية أعطاها لنا، هي كنز مغلق، سُلم لنا لكي نغتني بما تحويه الآية من مواعيد صادقة وأمينة. كل وصية للمسيح، تحمل وعداً منه بالتنفيذ، فإذا آمنا حقاً بكلام المسيح وتمسكنا به بقلب واحد غير منقسم، يكون لنا فيه كل الوعد تماماً كما وعد.
فقوله هنا: «ليكون لكم فىّ سلام» معناه أنه يتحتم أن يكون لكم «فيّ سلام»، إن كنتم تؤمنون، فهل تؤمن أيها القارىء العزيز؟ المسيح يعرض سلامه مجاناً، ومقابل ضيقات العالم. ولكن يلزم أن نرث منه هذا السلام، الآن مسبقاً، حتى إذا جاءت الضيقات انبرى سلام المسيح في قلوبنا ليخفض من كبرياء التجربة، مهما كانت عنيفة، ويخفضها ثم يخفضها حتى يضعها تحت رجليك. هذه هي غلبة العالم، وهذا هو إيماننا الذي نغلب به العالم.

ملخص أحاديث الفراق

والأن، ونحن داخلون إلى صلاة المسيح الأخيرة، ينبغي أن نلقي نظرة إلى مجمل أحاديث الفراق، لأنها تعتبر المدخل الوحيد لفهم صلاة المسيح الأخيرة، لأن العلاقة بين أحاديث المسيح السابقة على هذه الصلاة والصلاة نفسها، وثيقة للغاية.
لقد رأينا أن الأحاديث الأخيرة تدور حول محور واحد أو غاية واحدة، أن «نتحد بالمسيح» بمعنى الإيمان الفعلي بالمسيح المصلوب والقائم من الموت، إيماناً نمارسه بحياتنا. فالاتحاد بالمسيح المصلوب نمارسه بعبورنا نفس الضيقات والاضطهاد والألم والرفض والصلب، إذا تحتم؛ بشجاعة المسيح وصبره. واتحادنا بالمسيح القائم من الموت؟؛ نمارسه في آلامنا وضيقاتنا واضطهاداتنا وفي الرفض وتهديد الموت؛ بالفرح والتهليل والسلام الداخلي، كمن جازوا الموت بالقيامة الأكيدة، ولكن غلبوا العالم بكلمة شهادتهم.
ولكن هذا المحور الدوار، أو الهدف الواحد، الذي يتغلغل كل حديث قاله المسيح وكل تصوير صوره، يمكن تحديد مفرداته كالآتي:

١- الحديث بدأ بغسل الأجل، وقد جعل المسيح مفهوم هذه العملية محددا في قوله لبطرس: «إن كنت لا أغلسك، فليس لك معي نصيب» (يو١٣:٨). إذن، فغسل الأرجل يدخل في عمل المسيح الكرازي، أي نفس إرساليته. الغسيل هو تكريس أرجل تلاميذه، لإرسالية الكرازة بإنجيل الخلاص، إنجيل الموت والقيامة! فبكرازة التلاميذ بالإنجيل، دخلوا في نصيب المسيح على الأرض بالصليب، وفي السماء بالمجد المدخر لهم عند الآب، وفي الكنيسة نالوا كرامة مع المسيح. هذا عقب المسيح على غسل الأرجل بقوله: «الذي يقبل من ارسله، يقبلني، والذي يقبلني، يقبل الذي أرسلني.» (يو١٣:٢٠)

٢- وحدة التلاميذ معاً، هي الرباط الذي يربطهم، فلا يؤثر فيهم الفراق، كتلاميذ للرب أمام العالم. لذلك، فالوصية الجديدة لمواجهة العالم هي المحبة، محبة بعضهم البعض (١٣:٣٤). ولكن محبة على مستوى وطبيعة محبة المسيح لهم، أي أن يكونوا دائماً على استعداد البذل حتى الموت، بعضهم للبعض ومن أجل الكنيسة. والصورة المصغرة، هي أن يغسلوا أرجل بعضهم البعض، لتبقى وحدة الرسولية والكرازة، وتبقى رسالة المسيح.

٣- محبة المسيح لتلاميذه، تحققت بعودة المسيح إليهم (١٤:١-٩)، فتأكدت وحدته معهم. فبعد أن ماتت حبة الحنطة وحدها، قامت، فجاء زمن الثمر الكثير الذي مثله المسيح بالكرمة والأغصان، الذي هو أبهى وأعظم تصوير للوحدة بين المسيح والكنيسة. فالثمر لا يأتي إلآ عن طريق «الوحدة» معاً، وبالمسيح (١٥:١-٩).

٤- فالثمر الذي تُنشئه وحدة التلاميذ، معاً وبالمسيح، هو في الحقيقة وفي الأصل فعل لمحبة الآب التي أُستعلنت في المسيح، وهو نفسه (أي الثمر الكثير) يعتبر رداً مباشراً على محبة الآب. «بهذا يتمجد أبي أن تأتوا بثمر كثير، فتكونون تلاميذي» (يو١٥:٨). فالثمر، الذي هو خدمة اسم الآب والمسيح في العالم لتكميل رسالة الخلاص، هو الرد الصحيح والمباشر على محبة الآب لنا التي استعلنت في المسيح، هو(أي الثمر) في الحقيقة وبالنهاية عمل الوحدة التي تمت في المسيح.

٥- حتى الاضطهاد الذي سيجوزه التلاميذ في العالم، هو ثمرة الوحدة مع المسيح، وحدة عضوية كذات في ذات. نسمعها قوية من فم المسيح نفسه، وهو في السماء: «شاول شاول لماذا تضطهدني؟» (أع٩:٤)؟ وكأن المسيح يتألم بتألم أعضاء جسده على الأرض. هذا الاتحاد العجيب والسري الذي كشفه المسيح في قصة شاول، هو أعمق تعبير عن «وحدة» حقيقية قائمة بين المسيح والتلاميذه أي الكنيسة. «إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم ... إنما يفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي.» (يو١٥:٢٠-٢١)

٦- وحتى إرساله الروح القدس، كان ويكون لتعميق الوحدة واستعلان أسبابها وموجباتها، والحفاظ عليها بين المؤمنين والمسيح والآب.

٧- والمحبة التي تكلم عنها المسيح في كل أحاديث الفراق، ليست محبة كلام ووعود، بل محبة فعل وعطاء واتحاد سري، له نتائجه الفورية: «لا أعود أسميكم عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكنى قد سميتكم أحباء، لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي.». (يو١٥:١٥). ولكي يثبت قوله، بل فعله هذا، كشف عن سر موته أنه موت بداعي الحب لفداء مُحبيه؛ لكي بموته لأجلهم، يفديهم من الموت ويعطيهم حياته (١٥:١٣). هذه هي «محبة الاتحاد». فأن يموت المحب لأجل أحبائه ليحييهم معه إلى الأبد، فهذا

أقوى «فعل لاتحاد المحبة» عرفه الإنسان ملى الأرض، «ليس لأحد حب أعظم من هذا» (يو١٥:١٣)، «أحبني، وأسلم نفسه لأجلي.» (غل٢:٢٠)

٨- وأوضح مظاهر «محبة الاتحاد» أو«الاتحاد بالمحبة» في أحاديث الفراق، هي ذات هذه الأحاديث عينها، كونها جرت بين «حبيب ومن أحبهم». فهي تنطق بكيف يكون الاتحاد بين المسيح والإنسان!! وعلى من جرت هذه الأحاديث؟ أليس عن حب الآب ومعرفته ورؤيته والحياة الأبدية عنده والذهاب إليه؟ وهل يكون حديث الاتحاد وممارسته أكثر من هذا؟

٩- والواضح أن كل العلاقة التي تربط المسيح بتلاميذه وأتباعه ومحبيه، جرت على أساس ما هو حادث بينه، أي بين المسيح، والآب، ليس كنموذج وحسب بل كمصدر فعال ومثيل، يحتذي به المثيل وينهل منه. فإن كان المسيح قد قصد الوحدة بينه وبين محبيه قصدا، ونفذ بالفعل السري ذلك تنفيذاً، حين فرق جسده عليهم وأسقاهم كأس دمه، فالأمر كان في حاجة أشد الحاجة لإعطائهم صورة مسموعة للوحدة «الأصل» والمثيل الإلهي القائم بين الآب والابن. فكانت صلاة (يوحنا أصحاح ١٧).

ثم ما هى صلاة يوحنا ١٧؟

+ هي الإخلاء الكلي بالروح، في ذبيحة حب، مطعمة بالطاعة القصوى، قبل الإخلاء التاريخي على الصليب!!

- **«أيهأ الآب، قد أتت الساعة، مجد ابنك»!**
- **«العمل الذي أعطيتي لأعمل، قد أكملته»!**

+ هي صعود حقيقي بالروح إلى الآب، ومعه قلوب وأرواح محبيه، قبل الصعود الجسدي المنظور بالعين.

- **«لست أنا بعد في العالم، وأما هؤلاء فهم في العالم، وأنا آتي إليك».**
- **«أيها الآب، أريد أن هؤلاء يكونون معي، حيث أكون أنا».**

+ هي عمل تقديس فوري يتم بعد كل كلمة، كما ينطقها تكون، لأن الآب يسمع له في كل حين، ويستجيب في الحال!

- **«قدسهم في حقك».**
- **«ولأجلهم أقدس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدسين في الحق».**

+ هي ممارسة اتحاد فائق بالروح مع الآب، والتلاميذ داخلون بالسر في دائرة الاتحاد غير المنظور.

- **«كما أنك أنت، أيها الآب، في وأنا فيك»**
- **«ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا».**

+ هي سكيب روحي للحب الأبوي، انسكب فيهم، إيذاناً بسكنى المسيح!

- **«ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به».**
- **«وأكون أنا فيهم».**

الأصحاح السابع عشر

تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهذَا وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «أَيُّهَا الآب قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ. مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضاً. إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَاناً عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ. وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأبدية: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ المسيح الَّذِي أَرْسَلْتَهُ. أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى الأرض. الْعَمَلَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ. وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآب عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ. «أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ الْعَالَمِ. كَانُوا لَكَ وَأَعْطَيْتَهُمْ لِي وَقَدْ حَفِظُوا كلاَمَكَ. والآنَ عَلِمُوا أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَيْتَنِي هُوَ مِنْ عِنْدِكَ. لأَنَّ الْكلاَمَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ وَهُمْ قَبِلُوا وَعَلِمُوا يَقِيناً أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ وَآمَنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي. مِنْ أَجْلِهِمْ أَنَا أَسْأَلُ. لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ الْعَالَمِ بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لأَنَّهُمْ لَكَ. وَكُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي وَأَنَا مُمَجَّدٌ فِيهِمْ. وَلَسْتُ أَنَا بَعْدُ فِي الْعَالَمِ وَأَمَّا هَؤُلاَءِ فَهُمْ فِي الْعَالَمِ وَأَنَا آتِي إِلَيْكَ. أَيُّهَا الآب الْقُدُّوسُ احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ. الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا نَحْنُ. حِينَ كُنْتُ مَعَهُمْ فِي الْعَالَمِ كُنْتُ أَحْفَظُهُمْ فِي اسْمِكَ. الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي حَفِظْتُهُمْ وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ ابْنُ الْهلاَكِ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ. أَمَّا الآنَ فَإِنِّي آتِي إِلَيْكَ. وَأَتَكَلَّمُ بِهَذَا فِي الْعَالَمِ لِيَكُونَ لَهُمْ فَرَحِي كَامِلاً فِيهِمْ. أَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ كلاَمَكَ وَالْعَالَمُ أَبْغَضَهُمْ لأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ. لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ. لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ. قَدِّسْهُمْ فِي حَقِّكَ. كلاَمُكَ هُوَ حَقٌّ. كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَمِ أَرْسَلْتُهُمْ أَنَا إِلَى الْعَالَمِ. وَلأَجْلِهِمْ أُقَدِّسُ أَنَا ذَاتِي لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً مُقَدَّسِينَ فِي الْحَقِّ. «وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هَؤُلاَءِ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكلاَمِهِمْ. لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِداً كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآب فِيَّ وَأَنَا فِيكَ لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي. وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ. أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي. أَيُّهَا الآب أُرِيدُ أَنَّ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِي حَيْثُ أَكُونُ أَنَا لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ. أَيُّهَا الآب الْبَارُّ إِنَّ الْعَالَمَ لَمْ يَعْرِفْكَ أَمَّا أَنَا فَعَرَفْتُكَ وَهَؤُلاَءِ عَرَفُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي. وَعَرَّفْتُهُمُ اسْمَكَ وَسَأُعَرِّفُهُمْ لِيَكُونَ فِيهِمُ الْحُبُّ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي بِهِ وَأَكُونَ أَنَا فِيهِمْ»

صلاة المسيح للآب

[وبعد ما أعطى تلاميذه كل التعاليم فيما يختص بالخلاص، وأكمل معرفتهم وهيأهم لمواجهة التجارب، نقل الحديث إلى صلاة.] القديس كيرلس الكبير

مقدمة

مقارنة بين صلاة المسيح الأخيرة فى إنجيل القديس يوحنا والثلاثة ألأناجيل الأخرى:

+ صلاة يوحنا ١٧ المدموغة بالمجد والتجلي وغلبة العالم، والتي فيها يستعلن المسيح لاهوته على مستوى الوحدة غير المنفصلة مع الآب، يقابلها في الثلاثة الأناجيل الأخرى، وفي نفس المكان، صلاة جثسيماني بأحزانها ودموعها وسجودها وعرقها المتصبب كالدم، مع طلب إعفاء من شرب هذه الكأس، لوأمكن! فهل من تفسير؟

نعم، فهذ مضادة، مثل كل المتضادات في حياة المسيح التي نشأت من كون أن: «الكلمة صار جسداً» بلغة إنجيل يوحنا (١٤:١)، أما بلغة القديس بولس فهي: «الله ظهر في الجسد» (اتى ١٦:٣). لذلك يلزم أن لا نقرب المقارنة بين هاتين الصلاتين، إلا على أساس الرؤية المتكاملة لشخص المسيح، باعتبار «الاله المتجسد». لأننا بهذا نرى

في الصلاتين معاً منتهى حقيقة المسيح الإلهية والبشرية معاً، في ضوء الإخلاء الذي أُكمل بالمجد، واتضاع العبد الذي ارتفع إلى أن استوى على العرش في ملكه الأزلى مع الآب، لتسجد له كل ركبة ما في السماء وعلى الأرض.

+ لذلك ينبغي غاية الانتباه أن نفرق بين رؤية المسيح لنفسه التي يتحرك بها ويتصرف ويعلن ما يراه صالحاً للاعلان، ويحبس ما لا يلزم أن نعرفه قبل الآوان، وبين ما نراه نحن بعجز إدراكنا الذي لا يرقى أبداً إلى حقيقة ذاالله، فأحياناً نراه إنساناً فيما لا ينبغي أن يكون، ثم نراه إلهاً فنستكثر عليه ما للانسان: فمثلاً، نستكثر جداً في أنفسنا ما يقوله سفر العبرانيين أنه: «قدم بصراخ شديد ودموع، طلبات وتضرعات للقادر ان يخلصه من الموت، وسُمع له من أجل تقواه« (عب٥:٧). في حين أن هذا هو عمله الأعظم الذي من أجله نزل من السماء؛ لكي يحمل من أجل الإنسان هذا الخزي عينه، وهذا الضعف المشين بكل ما يعنيه وينطوي عليه، من رهبة الموت ورعبته، ومن الجزع من مواجهة فراغ القبر وعدميته؛ لكي يقوم بالإنسان، هذا الذي حمله في نفسه، منتصراً غالباً ودائساً الموت تحت رجليه؛ لكي لا يسود عليه الموت بعد، وكأنه صار إلى العدم، بل لكي يلاشي هذا الموت وجبروته، فيتحول موت الإنسان إلى مجرد انتقال إلى حياة أفضل، أي سماوياً. فالصراخ والدموع والرعبة والجزع، حولها له جميعاً إلى هتاف النصرة وسلطان الغلبة، بل واستحقاق مجد!

+ فصلاة المسيح في يو ١٧ هي وقفة للمسيح لمراجعة رسالته، في شموخ لاهوته كما جاءت في إنجيل يوحنا. أما صلاة جثسيماني بانبطاح المسيح على الأرض، كما جاءت في الأناجيل الثلاثة، فهي قمة ذلة الإنسان التي تبناها المسيح عن الإنسان، كمدخل لائق للصليب. فهذه وتلك هي المضادة التي نشأت أصلاً من «تجسد الكلمة»، والتي فيها وبها دُعي الإنسان من سكنى القبر إلى سكنى السماء.

+ لقد جاءت لتعبر عن أعلى مستوى لشركة الابن مع الآب، وأجلى صورة لابن الإنسان المستعلن كابن الله، مسيا الدهور، حامل الاسم العظم: «أنا هو»، «وكان الكلمة الله» (يو١:١)، «أنا هو نور العالم» (يو٨:١٢)، «أنا هو القيامة والحياة» (يو١١:٢٥)، «أنا والآب واحد» (يو١٠:٣٠)، «الذي رآني، فقد رأى الآب.» (يو١٤:٩)

+ وصلاة جثسيماني كما جاءت في إنجيل مرقس ١٤:٣٢، بدموعها وتضرعاللها، جاءت لتستعلن تنازل الابن، كيف أخلى ذاالله وأخذ شكل العبد! وكيف «أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس» (غل٤:٤)، وكيف «أرسل ابنه في شبه جسد الخطة، ولأجل الحظية، دان الخطية في الجسد» (رو٨:٣)، وكيف «أخلى نفسه آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس. وإذ وُجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه، وأطاع حتى الموت، موت الصليب» (في٢:٧-٨). وكيف وُضع قليلاً عن الملائكة «من أجل ألم الموت، لكى يذوق، بنعمة الله، الموت لأجل كل واحد، لأنه لاق بذاك الذي من أجله الكل، وبه الكل، وهو آت بأبناء كثيرين إلى المجد، أن يُكمل رئيس خلاصهم بالآلام» (عب٢:٩-١٠)، وكيف أن «الذي في أيام جسده، إذ قدم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات، للقادر أن يخلصه من الموت، وسُمع له من أجل تقواه؛ مع كونه ابناً، تعلم الطاعة مما تألم به» (عب٠:٧-٨)، وكيف «من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب، مستهينا بالخزي» (عب١٢:٢)، «فتفكروا في الذي احتمل من الخطاة مقاومة لنفسه مثل هذه، لئلا تكلوا وتخوروا في نفوسكم.» (عب١٢:٣)

+ القديس يوحنا، وان قدم لنا صلاة المسيح في (يو١٧) رافعاً المسيح إلى قمة الاستعلان الإلهي، لم يفته أيضاً أن يسجل بعضا مما سجلته الأناجيل الأخرى والرسائل من مظاهر اتضاعه وضعفه البشري. ففي يو ١٢:٢٧ سجل له: «الآن نفسي قد اضطربت، وماذا أقول؟ أيها الآب نجني من هذه الساعة، ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة».

كذلك، وفي موجة الحزن الأليم الذي اجتاح النسوة وهن تبكين على لعازر، انتبه المسيح وهو في مواجهة سلطان الموت، وفي الحال تراءت أمامه ساعته القادمة تحمل نفس المنظر والمشاعر، فاضطرب أيضاً و«بكى يسوع.» (٣٥:١١)

+ فإن كان في صلاته في (يو١٧) قد رفع عينيه نحو الآب، لكن لم يغب عن عينيه أيضاً صورة الصليب بمروعاته القادمة، وظلمة القبر البارد، ولكن كانت القيامة حاضرة فيه أيضاً والمجد المسترد! هذه كلها كانت داخلة حتماً في اعتباره وهو يصلي، ولكن كان قد جمعها كلها في رؤية واحدة وكأنها قد تمت!! ألم ينتبه من كسر جسده وسفك دمه مسبقاً على العشاء؟

+ بل إن خلفية هذه الصلاة في (يو١٧) التي أعطتها هذه القوة والشموخ والرزانة والجلاء البصري المنقطع النظير، مع السلام الذي يفوق العقل بالرغم من ظل الصليب المنعكس على نفسه بكل ثقله. هذه الخلفية كانت قائمة على أساس أنه قد انتهى مع نفسه وتخطى الألم الكثير الذي ينتظره . فعندها رفع عينيه إلى السماء، كان يتطلع إلى رحلة المجد القادمة، بعد أن استوفى في ضميره الرضى برحلة المذلة وكل مقاومة منتظرة: «ثقوا، أنا قد غلبت العالم».

+ لقد حبس أنين الألم القادم في صدره؛ ورعبة مواجهة الموت ومن له سلطان الموت ألقاها خلف ظهره إلى حين؛ والدموع التي هطلت في شهد الباكين على لعازر الحت عليه، فالمشهد واحد، فجفت في عينيه حينما تطع إلى الآب. وشعور الرغبة في الإعفاء من الكأس وساعة الظلمة كانت على شفتيه، ولكنه أجلها إلى ما بعد أن ينتهي من تقديم حساب الوكالة، وتسجيل وصيته الأخيرة من نحو تلاميذه والكنيسة القادمة من وراء الدهور.

+ فلما استوثق من سماع الآب له، كما أنه هو في كل حين يسمع للآب، انطلق مح تلاميذه صوب جثسيماني صامتاً؟

+ ليبكي هناك مع كل الذين بكوا موتاهم، ليستوفي أحزان بني الإنسان؛

+ وسجد وأمعن في السجود للآب، ليقدم آخر تعبيرات الخضوع والطاعة وواجبات التوبة عن كل جهالات الإنسان؛

+ وتصبب العرق كالدم من جبين آدم الثاني، استيفاء للعنة «عرق الجبين» التي اكتسبها آدم الأول، لما عصى الله وخرج من لدنه ملوماً محسوراً (تك٩:١٣)؛

+ وتحت ظلال أشجار جثسيماني أخذت نفسه تحزن وتكتئب حزناً حتى الموت، ليتقيأ الشهوة التي استقرت في أحشاء أبوينا الأولين، التي ورثاها لكل من اتوا بعدهما، حينما أكلا من الشجرة وأتيا الحرام.

+ في هذه الليلة الخالدة (يو١٧)، أكمل المسيح في صلاته مح الآب منتهى استعلان لاهوته. وفي جثسيماني (مر١٤: ٣٢)، استعلن المسيح بدموعه وسجوده وعرقه المتصبب كالدم ملء تجسده...

+ ولم يجد صعوبة أن ينتقل من الاولى إلى الثانية، أليس هو الذي انتقل من حضن الآب بملء مسرته، ليحتضن الإنسان؛ تاركا مجد السماء، ليعيش على أرض الأحزان؛

+ وقف المسيح في صلاته (يو١٧) مرفوع الرأس باعتباره «الكاهن الأعظم»، يستعد ويستبرىء ذمته أمام الآب ليكون أهلاً لتقديم ذبيحته، ليس عن نفسه، فهو لم يوجد فيه خطية ولا في فمه غش، ولكن من أجل العالم كله بمفهومه الإنساني البائس، على مستوى كل فرد على حدة!

+ أما في صلاته في جثسيماني (مر١٤: ٣٢)، فكان هو الذبيحة والخروف نفسه! يُساق إلى الذبح، منحنياً، ساجداً

حتى الأرض، باكياً، صارخاً، يستنزف شحنة عواطفه حتى يحتفظ بهدرئه وصمته لدى حاكميه وصالبيه! لقد صلب المسيح ذاالله قبل أن يصلبه العالم، واستدعى كل آلام الموت، ليجوزها بإرادته قبل أن تأتي عليه، فأكمل النبوة بيديه، قبل أن يكملها فيه الشامتون: «أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها، ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً» (إش٥٣: ٤)

الجلال الذي أحاط بصلاة المسيح في (يو١٧): منذ أول آية في الأصحاح السابع عشر، بدأ الجو الذي يحيط بالتلاميذ والمسيح يدخل في هدوء مفاجىء، كهدوء السماء، مع رهبة وهيبة وجلال!، يحسها القارىء إن كان حقاً على مستوى إنجيل يوحنا ...

والانطباع الشديد الذي يلقي بظله على فكر القارىء، أننا أمام مواجهة حقيقية بين الآب والآب؛ إنه حديث السماء، حديث الله مع نفسه، فيما يخص مستقبل الإنسان...

نحن لا نعلم بالضبط أين صلى المسيح صلاته هذه:

هل في العلية؟ لقد سبق أن قال: «قوموا ننطلق من ههنا» (يو١٤: ٣١)؛

هل في الطريق؟ وهل يمكن أن تقوم صلاة مثل هذه بين الغادي والرائح؟

هل في جثسيماني؟ ربما! لكن يقول العالم ومتكوت ومعه آخرون، إن الظن الغالب الذي يوحي به روح الكلام، أن هذه الصلاة قُدمت إلى الآب في الهيكل. ويرجح ذلك، خبر سجله المؤرخ اليهودي يوسيفوس أنه كان من عادة رؤساء الكهنة أن يفتحوا أبواب الهيكل في منتصف الليل للشعب، وخاصة الحجاج، لحضور صلاة الفصح. فهل عرج المسيح على الهيكل مع تلاميذه، لكي يتخاطب رسمياً مع الآب، ويضع أساس كنيسة الدهور القادمة؟ ربما.

ومما يرجح ظننا هذا، أي احتمال حدوث صلاة المسيح في الهيكل، ما جاء في بداية الأصحاح الثامن عشر، حيث يقول معقباً على الصلاة مباشرة: «قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه إلى عبر وادي قدرون حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه» (يو١٨: ١). والمعروف أن وادي قدرون يفصل الهيكل عن جبل الزيتون، حيث البستان المدعو «جثسيماني». وهكذا ينحصر المعنى أن «خروج»» المسيح هو وتلاميذه كان من الهيكل بعد الصلاة.

على كل حال، كان هدوء ذلك الليل في هذا المسيحاد، وهذه المناسبة، في هذا المكان، يزيد الشعور بخطورة الموقف.

كل هذا جعل من هذه الصلاة نقطة تحول عظمى في تاريخ، لا الجماعة الاولى وحدها، بل والكنيسة على مدى الدهور والعالم كله! لقه كانت البدء الحقيقي لاستعلان العلاقة الإلهية التي بدأت تربط الله بالإنسان، والدعوة العليا التي تلقاما الإنسان من خلال هذه الصلاة، ليدخل في وحدة مع الله وشركة. ويكفي برهاناً على ذلك وتوثيقا، أن تسجيل هذه الصلاة العلنية هكذا في الإنجيل أعطت الفرصة لكل إنسان أن يسمع هذا الحديث، ويفهمه، ويحتفظ به لنفسه، ويأخذه كوثيقة لحسابه إن يشاء!!

والمسيح حينما بدأ صلاته، بدأ وكأنه في حالة تجلي، معطيا للعالم ظهره، ليبدأ رحلته السرية الظافرة نحو الآب. وكان المسيح يصلي بتركيز شديد، موجهاً كل مشاعره نحو الآب، ولكن كان التلاميذ حاضرين في صلاته وكأنه يستعلن لهم أقصى ما يمكن من أسرار حياته الخاصة وتعاليمه ومشاعره، كاشفاً لهم ومن أجلهم صلته السرية بالآب، وكنا نحن أيضاً حاضرين بصفتنا كل الذين يؤمنون بكلامه، ولا زلنا حاضرين نسمع صوت الابن يصلي من أجل الكنيسة، وكل الذين يؤمنون به وبكلامه.

وصارت صلاة المسيح هذه كنز إلهامات للكنيسة على مدى الدهور، تستمد منها دستور إيمانها، ومفردات تعليمها، وضوابط سلوكها، ومنتهى رجائها!

أما قلب هذه الصلاة النابض، فهو قول المسيح: «ولأجلهم أقدس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدسين في الحق» (يو١٧: ١٩). بمعنى أن المسيح ارتضى وتعين منذ البدء أن يجعل نفسه ذبيحة خاصة من أجل العالم، لكي يقدم التلاميذ ذواتهم أيضاً ذبائح حية ومقبولة في ذبيحة المسيح، وهكذا يستمر الخلاص حياً فعالاً، حتى يتغير وجه العالم، وبهذا ينتهي عمل المسيح بتكريس البشرية لله!

تقسيم الصلاة: من العسير تقسيم الصلاة تقسيماً منهجياً صحيحاً، لأنها صلاة؛ والمسيح لم يبوبها مسبقاً، بل كان يعود إلى ذكر الأمر نفسه في مواضع متباينة.

ولكن بقدر الإمكان قسمها الشراح إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

القسم الأول: (١-٥). حيث يقدم الابن نفسه إلى الآب في المجد المشترك.

القسم الثاني: (٦-١٩). يقدم وصيته للآب فيما يخص التلاميذ الحاضرين هذه الصلاة.

القسم الثالث: (٢٠-٢٦). يقدم وصيته للآب فيما يخص الكنيسة على طوك المدى.

القسم الأول فيما يخص صلته بالآب

١٧: ١-٥

حيث يصلي من أجل:

١- مجده الذي يُنشىء مجداً للآب.

٢- عمل الابن على الأرض من حيث غايته.

٣- من حيث أسلوب عمله على الأرض.

٤- من حيث اكتمال عمله حسب المواصات المعطاة.

٥- طلب استعادة مجده السالف على أساس اكتمال كل شيء.

١- تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهَذَا وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ: أَيُّهَا الآبُ قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ. مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضاً.

«تكلم يسوع بهذا»: واضح هنا العلاقة الصميمة بين التعليم السابق وبين هذه الصلاة، صحيح أنها كانت نقلة مفاجئة ولكن دون انقطاع في المنهج العام، فهو انتقال من التعليم فيما يخص الخلاص إلى الدخول العملي في سر الفداء. كانت أخر جملة قالها المسيح قبل دخوله في الصلاة هي: «ثقوا، أنا قد غلبت العالم» (يو١٦: ٣٣)! كان هذا هو المدخل الرسمي لصلاة التكريس التي كرس فيها نفسه للموت، كآخر مرحلة في مراحل خطة الخلاص التي جاء بها من عند الآب.

و«أنا قد غلبت العالم» معناه تقديم الوثيقة التي تعني أنه غلب كل شيء في العالم، ولا يوجد فيه خطية واحدة تمنعه من أن يقدم ذبيحته لأجل الآخرين، وليس عن نفسه. فبطهارته وقداسته الكاملة تأهل أن تكون ذبيحته شاملة لكل العالم، لأنه غلب في معركة العالم. وبناء عليه، فقد استحق أن تُقبل ذبيحته على أساس استعلان مجده جنباً إلى جنب، حتى تُفهم الذبيحة أنها ذبيحة إلهية، لها ما لها من أثر وفاعلية دائمة، ذبيحة الغالب، وكل من

يشترك فيها يشترك في انتصارها. فهي ذبيحة إنتصار لحسابنا، كما يقرر ذلك القديس يوحنا في رسالته الاولى: «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح، فقد وُلد من الله، ... لأن كل من وُلد من الله يغلب العالم. وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، إيماننا. من هو الذي يغلب العالم؟ إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله» (١يو٥:١و٤و٥)

وما هي «غلبة العالم» بالنسبة للذين آمنوا بالمسيح واشتركوا في ذبيحته، قولاً بالإيمان، وعملاً بأكل الجسد وشرب الدم؟ هى اقتفاء حياة المسيح والاقتداء به: «ينبغي أن أكون فيما لأبي» (لو٢:٤٩)، «لكن ما كان لى ربحاً، فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة. بل إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي، الذي من أجله خسرت كل الأشياء، وأنا أحبها نفاية لكي أربح المسيح.» (في٣:٧-٨)

غلبة العالم هي الانتباه، حتى لا نتعلق بالمادة أو بمظاهر العالم الجاذبة «للرغبة»، المعشوقة لاستعباد الحواس؛ وهي إما خدع راق كالجمال والحب والفن، وإما خداع منحط كالجنس ولذة الأكل والشرب. لذلك نجد أن عنصر «غلبة العالم» سيصبح أساساً لتنويع درجاتنا في السماء، كنهاية النهاية: «من يغلب، فساعطيه أن يجلس معي في عرشي، كما غلبت أنا أيضاً وجلست مع أبي في عرشه» (رؤ٣:٢١)؛ وهذا بحد ذاته أعلى مستويات الوجود الروحي للانسان، الذي آمن بالمسيح واقتفى أثر حياته وتقوى بها.

والملاحظ أن غلبة المسيح على العالم بحياته، أعطته بالضرورة أن يغلب الموت بموته: «رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء» (يو١٤:٣٠). وصار لقب المسيح في السماء «الغالب»: «خرج غالباً، ولكي يغلب» (رؤ٦:٢). وغلبة المسيح منحها لنا كشركة في موته وقيامته، بهذه هتف بولس الرسول: «يعظم إنتصارنا بالذي أحبنا» (رو٨:٣٧)، أي أن المسيح كمنتصر سيمسك بيدنا لننتصر ونعبر. فالانتصار أساس الانتقال من العالم إلى الله؛ لأنه لما أكمل المسيح الانتصار على العالم، تهيأ للانتقال إلى الآب.

«ورفع عينيه نحو السماء وقال»: هنا انتقل السيح بنفسه وبسامعيه ودخل مباشرة في الحديث على المستوى الإلهي، فرفع عينيه إلى السماء، يعني اتجه بكل كيانه نحو الوجود الإلهي المطلق، فالسماء رمز الحضرة الإلهية الدائمة. ولأول مرة يسمع الإنسان حديثاً سرياً بين الآب والآب السماوي. فالحديث موجه للآب مباشرة، ولكن على مستوى الأذن البشرية لتسمع، والقلب ليفهم، ويرتقي بوعيه الروحي للمدارك الإلهية العالية. فالإنسان في هذه الصلاة، وبهذه الصلاة، مدعو رسمياً للدخول في هذه الشركة السرية بين الابن والآب، من خلف الابن الواقف يصلي بنا.

«أيها الآب»[1]: هكذا جاءت الترجمة اليونانية. ولكن الأصل العبري الذي تكلم به المسيح هي اللفظة المشهورة «أبا» وبالإنجليزية **father**. والنطق بهذه الكلمة معناه الاتجاه المباشر بين المسيح وأبيه السماوي. ولكن لم يقل «يا أبانا»، فالصلاة لا تُحسب أنها عامة وكأنه واحد من العامة. ولم يقل «يا أبي»، لذلك فالصلاة تُحسب هنا أنها

---

[1] نقول باختصار أن «الآب« هو مصدر القوة الإلهية المفكرة الواعية اللانهائية، ومصدر النور والحياة والإرادة والقداسة والمحبة التي لها القوة لتجذب كل شيء. و «الابن« هو الفعل: الفعل لقوة الآب وفكره ووعيه، وهو كلمة هذا الفكر وفعل حياة الآب وعمل إرادته، والمنفذ لحبه المطلق. لذلك كان بالضرورة أن الفعل (الكلمة) يكون هو الخالق كفعل إرادة الآب للخلق. وهو أيضاً وبالضرورة الخالق للكائنات الروحية كفعل حياة وروح مطلق للخلق الواعي. و «الروح القدس« هو روح الآب، وروح الابن، قوة الحياة المطلقة فى الآب والابن، فهو الشاهد لما بين الآب والابن، شهادة مدركة ومنطوقة في الآخرين، وهو قوام الحياة وديمومتها ونموها وسر غبطتها واتحادها بالله.

ليست سرية خاصة، فهي داخلة في الصفة التي تجعلها صلاة البشرية كلها بفم المسيح بين الابن والآب بآن واحد. لذلك يقولها علنا وبالصوت المسموع: «أيها الآب»، ويُحسب هذا استعلاناً وكشفاً لسر العلاقة المباشرة والاتصال الجوهري الذاتي بين الابن والآب في وضعه المطلق، هذا الذي استلمته الكنيسة وعبرت عنه أيضاً بالنداء «يا أبا الآب»: «إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف (من الله بعد) بل آخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب» (رو٨:١٥)، وقد كررها بولس الرسول لترسخ فى أذهاننا كميراث حقيقي. «ثم بما أنكم أبناء، أرسل الله روح ابنه (البنوة) إلى قلوبكم صارخا يا أبا الآب» (غل٤:٦)، وكأن المسيح في قلوبنا يدعو الآب بدالة البنوة.

ففي الحقيقة، هذه الصيغة التي خاطب بها المسيح الله: «أيها الآب» توضح كيف يحصر المسيح نفسه في الجنس البثمري، لا كواحد بل كمن يمثل الإنسان ككل، ولكن بجرأة تفوق قامة البشرية، إنها جرأة من هو وحده يعرف الآب، وله الآب، وهو آت إليه!

«قد أتت السأعة»: لاحظ أن المسيح كان يعرف ميعاد الساعة بالضبط، بل وما تحمله هذه الساعة من المهانة والمجد، من الذلة والرفعة، من الموت والقيامة! فلما كان العالم يستحثها للمجيء: إما بدفع المسيح للظهور في مجده سواء من أمه أو من إخوته؛ وإما لاستعلان المهانة المخبأة فيها وذلك من اليهود ورؤساء الكهنة؛ كان المسيح يحجزها بسلطان: «لم تأت ساعتي بعد» (يو٢:٣). ولكن الأن أدرك أنه قد استنفذ زمانه على الأرض، وحان موعد الكأس ليشربها بكل ما فيها، وليعبر إلى الآب عبر الصليب والهوان: «وأما يسوع، قبل عيد الفصح، وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب (أخذ الكأس وذاق وأعطى التلاميذ)» (يو١٣:١). المسيح كان يعلم أنه (أي العبور) ليس هو موت بل انتقال!! في ذلك يقول القديس أغسطينوس [وقد بين (المسيح) أن الزمن كله، وأن كل مناسبة عمل فيها عملاً، أو سمح بشيء ما أن يُعمل، فإن ذلك كله هو بتدبير منه، بينما هو لا يخضع للزمن.]

«مجد ابنك، ليمجدك ابنك أيضا»: هذا هو مضمون الساعة، فقد أتت الساعة التي يتمجد فيها الابن. وقد سبق وأن أعطى المسيح لهذه الساعة مضمونها : «وأما يسوع فأجابهما (فيلبس وأندراوس) قائلاً: قد أتت الساعة، ليتمجد ابن الإنسان» (يو١٢:٢٣). كما أن طلب التمجيد هذا يغطي مضمون هذا الجزء الأول من الصلاة (١-٥). والتمجيد هنا هو في مفهوم المسيح استعلان طبيعته الإلهية للعالم. وحقيقة طبيعته تظهر للعالم بواسطة قيامته المنتظرة، أي انتصاره على الموت؛ التمجيد الذي يستحقه بالفعل في مقابل انتصاره على العالم. فهنا طلب المسيح يختص بصميم الإعلان عن رسالته للعالم للخلاص المنشود. على أن قيامته علنا وصعوده إلى الآب ستؤل حتماً إلى استعلان وتمجيد الآب! حيث يتضح أن خطة الخلاص تبتدىء بإرسال الآب للابن لخلاص العالم، وتنتهي بذهاب الابن إلى الآب، متمماً هذا الخلاص. وهكذا تُستعلن حقيقة وطبيعة الآب، باستعلان حقيقة وطبيعة الابن، الأمر الذي عبر عنه المسيح: «مجد ابنك. ليمجدك ابنك أيضاً». هذا يفسره بولس الرسول بمنتهى الوضوح والقوة في رسالته إلى فيلبي: «لذلك رفعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كل اسم. لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو «رب» (اسم يهوة فى القديم) لمجد الله الآب» (فى٢:٩-١١)

ويلاحظ من هذا الطلب في الصلاة، أن «مجد ابنك» تجيء ولها هدف مباشر: «ليمجدك ابئك». هنا واضح العلاقة الصميمة والمتبادلة على المستوى الواحد بين مجد الابن ومجد الآب، كما يتضح بالمنطق أن أيا من مجد الابن

أومجد الآب لا يُستعلن بدون الأخر، فالارتباط بين مجد الابن ومجد الآب جوهري ولكن المطلوب في النهاية هو مجد الآب! لهذا يلزم أن نربط هذا الطلب: «مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضا»، بطلب سابق ألح عليه المسيح وهو في بدء التجربة: «الآن نفسى قد اضطربت، وماذا أقول، أيها الآب نجني من هذه الساعة، ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة، أيها الآب مجد اسمك. فجاء صوت من السماء: مُجدت وأُمجد أيضاً» (يو١٢:٢٧-٢٨). وكان تعقيب المسيح على هذا الصوت: «ليس من أجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم» (يو١٢:٣٠). واضح أن هذا الطلب السابق كان هو الطلب لتمجيد اسم الآب، وذلك بالتدخل في عمل المسيح الذي يعمله باسم الآب، والقصد أن يتمجد الآب بموت المسيح، حينما يستعلن غلبته على الموت بالقيامة، فيتمجد عمل المسيح كله، وبالتالى الاسم الذي يعمل به ومن أجله!

وهنا في هذه الآية (١:١٧) يتكرر الطلب بوضوح، على أساس أن تمجيد الابن يُنشىء تمجيد الآب، وهو القصد والنهاية. ثم لا ننسى، أنه تطبيقاً للآية الاولى (١٢:٣٠)، فإن طلب المسيح المجد من الآب، لم يكن من أجل نفسه، بل من أجل السامعين، أي التلاميذ والعالم من بعدهم، وبالنهاية ليتمجد الآب.

كذلك، فإن قول الآب من السماء ردا على طلب الابن في الآية (١٢:٢٧): «مُجدت وأمجد أيضاً»، يوضح أن الآب مجد اسمه في أعمال المسيح كلها، وهو يتمجد في ختام عمله بقيامة المسيح من الموت!

هنا أيضاً بالمثل في الآية (١٧:١)، فإنه بقدر ما سيتمجد المسيح بالقيامة من الأموات، هكذا سيتمجد الآب حتماً: « ... الذق أقامه الله» (أع٢:٢٤). ومجمل تعليم المسيح لخصه المسيح فى «السعى لمجد الآب» هكذا: «من يتكلم من نفسه، يطلب مجد نفسه، وأما من يطلب مجد الذي أرسله، فهو صادق، وليس فيه ظلم.« (يو٧:١٨).

تماما كما يلخص المسيح كل عمله على الأرض، أنه كان لحساب الآب، أى لمجده ولاستعلانه: «العمل الذي أعطيتني لأعمل، قد أكملته، أنا مجدتك على الأرض... أنا أظهرت اسمك للناس.» (يو١٧:٤-٦)

والمعنى البسيط الذي نستنبطه من مفهوم المجد بالنبسة للمسيح، هو في الواقع استعلان لاهوته وسلطانه المطلق على الموت، أو بمعنى إنجيلي عملي: استعلان قوة قيامته الإلهية وذهابه إلى الآب وجلوسه عن يمينه: و«المجد» في مفهومه الأساسي كأصل ومنبع، هو طبيعة الله في مفهوم سموه المطلق والفائق، وبقدر القرب منه ينتقل المجد إلى الآخرين. فللملائكة «مجد»، ولأرواح القديسين في السماء «مجد». وهكذا كما يقول بولس الرسول: «لأن نجماً يمتاز عن نجم في المجد» (١كو١٥:٤١)، تعبيرا من صدق القرب والبعد عن الله مصدر كل المجد. و«التمجيد» من قبل الله والمسيح للآخرين ينحصر في معنى «التكريم»، بالتقريب من الله مصدر المجد والنور: «وهؤلاء مجدهم أيضاً» (رو٨:٣٠)، وبإعطاء «مواهب فائقة»، بمعنى تجهيز الإنسان بقوة إلهية تعمل لاستعلان الله فيه!! وهو تثبيت لمفهوم القرب من الله.

١- ولكن ما هو المجد الذي يطلبه المسيح بمفهومه كغالب للموت بالقيامة وبكرامة الصعود والجلوس عن يمين الآب، كما جاء في الآية الاولى (يو١٧:١)؟ بل ما هي المحصلة النهائية من كل عمل المسيح على الأرض وفي السماء أيضاً، بالمفهوم العملي الإنجيلي، وخاصة بالنسبة لنا؟

٢- هذا يوضعه إنجيل يوحنا، بمنتهى الاختصار والوضوح، في الآية الثانية: «إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد، ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته» (يو١٧:٢). والبرهان الأكيد على صلة مجد المسيح بإعطاء الحياة الأبدية لنا، هو أن كل من حاز هذه العطية السماوية، أى الحياة الأبدية، يظل يمجد الآب والمسيح على الأرض وفي السماء،

الآن وإلى أبد الابدين!!

٣- ثم ما هي الحياة الأبدية في مفهومها العملي الإنجيلي أيضاً؟ وهذا أيضاً يوضحه إنجيل يوحنا بأجلى بيان في الآية الثالثة «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو١٧:٣)

٤- وما معنى «أن يعوفوك»؟ هذا كان عمل المسيح الذي استلمه من الآب في الآية الرابعة: «العمل الذي آعطيتني لأعمل، قد أكملته.» (يو١٧:٤)

وهكذا يأتي كلام المسيح للآب في صلاته الخالدة، من الآية الاول حتى الآية الرابعة، مرتبأ ترتيباً مذهلاً يفوق كل تصور. وعليه، فلينظر القارىء إلى أي حد يستحق المسيح المجد الذي يطلبه، لا كإضافة عليه، بل كاستحقاق من واقع عمله ونتيجة حتمية له. وإن كان من العدل، لو أنصف العالم، لأعطاه له منذ البدء، ولكنه أنكره عليه؛ فاستعلن مجده في النهاية ليفحم العالم الجاحد؛ بل ليخلصه: «وبالإجماع عظيم هو سر التقوق (حياة المسيح العملية)، الله ظهر في الجسد، تبرر في الروح (بالقيامة من الموت)، تراءى لملائكة (استعلان مجده المنظور من السماء)، كُرز به بين الأمم، أومن به في العالم (أخيراً أدرك العالم حقيقته)، رُفع في المجد (آخر منظر سماوي له).» (اتي٣:١٦)

كذلك يلزم أن نتبه أن «مجد» المسيح ليس صفة يمكن أن ندركها بمفردها، لأنها كما سبق وقلنا هي استعلان حقيقته الإلهية التي لا تُدرك إلا بالإيمان، ومن خلال عمله الذي أكمله على الأرض والذي لا يزال يُكمله عنا في السماء. وغاية استعلان المسيح، هي أن يدرك العالم حقيقته الإلهية الجوهرية، أنه والآب واحد في المجد؛ إلى هنا ينتهي عمل المسيح وينتهي معه التاريخ. فالتاريخ كله وُضع لكي ينتهي عند كمال استعلان المسيح، أي بلوغ الخلاص الكلي.

٢- إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَاناً عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ.

«إذ»: «إذ» أتت هنا بمعنى «كما»، كما جاء في الآية ١٧:٢٢ «ليكونوا واحداً، **كما** أننا نحن واحداً»؛ وأيضاً في ١٧:٢١ «ليكون الجميع واحداً، **كما** أنت أيها الآب في وأنا فيك». فالمعنى هنا هو التساوي في المناسبة. لذلك، فهذه الآية شرح لزومية وأحقيقة ما سبق، بمعنى أن يطلب المجد عل قياس، أو بداعي، أنه أعطي سلطاناً ليعطى الحياة الأبدية لكل جسد!

هنا القول: «أعطيته سلطاناً على كل جسد» تفيد بحد ذاتها ألوهيته المطلقة. فـ «كل جسد» تعني «كل بشر» بتعبير العهد القديم. وهذا هو سلطان الله وحده! «يا سامع الصلاة إليك يأتي كل بشر» (مز٦٥:٢). وإعطاء الابن الحق بإعطاء الحياة الأبدية لكل بشر، هي واحدة من المطلقات التي استلمها الابن، فقد أعطاه الآب كل شيء بصورة مطلقة: «الآب يحب الابن. وقد دفع كل شيء في يده» (يو٣:٣٥)، «يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه...» (يو١٣:٣)، وأعطاه الدينونة: «الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن.» (يو٥:٢٢)

من هذا يتبين أن المسيح كان يخدم خدمة المجد، وهذا معنى قول الصوت من السماء: «مّجدتُ»» (يو١٢:٢٨)، أما طلب المسيح للمستقبل فقد حُفظ له بوعد: «أُمجد أيضاً».

ولكن للأسف فإن خدمة المجد هذه، بالرغم من أنها كانت في صميم المجد، إلا أنها لم تكن مفهومة ولا مُدركة، بل وكان مُفترياً عليها. هذا يعني أن مجد المسيح في أعماله وحياته كلها على الأرض، كان مختبئاً في النهاية، أو أنه

كان يعمل على أساس استعلان النهاية.

«على كل جسد... لكل من أعطيته»: المعنى قد يبدو متضارباً، إذ كيف أعطي الابن سلطاناً على كل جسد، ثم يعود ويقتصر الفعل على من أعطاه الآب فقط ؟! فهل للمسيح سلطان على من يريد الآب أن يعطيهم حياة أبدية؟ نعم، فسلطان الابن مطلق بالفعل على كل جسد، ولكن منهم من لن يقبل الحياة الأبدية التي يدعو إليها الآب، برفضه المسيح، هؤلاء يبقى سلطان المسيح عليهم للدينونة وليس للحياة الأبدية!!

ولكن ما هي الحياة الأبدية التي أعطي الابن سلطاناً أن يعطيها لنا؟

٣- وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ المسيح الَّذِي أَرْسَلْتَهُ.

الحياة الأبدية:

١- هي اسم قد استخدمه المسيح في إنجيل القديس يوحنا للتعبيرعن نفسه: «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١:٢٥)، وعن عطائه لهذه الحياة. فلأن له هذه الحياة في ذاته، مثل الآب، فهو يُحيي من يشاء مثل الآب (٥:٢١و٢٦). ولأنه نزل من السماء، ودخل العالم ملتحماً فيه بتجسده، فقد أعطى العالم هذه الحياة بجسده (٦:٣٧)، وفوق كل شيء ، فهو يمنح حياته لأخصائه الذين يلتصقون به ويتبعونه من كل قلوبهم (٥:٢٤)، وللذين يسمعونه ويدخل صوته إلى أعماق قلوبهم (٥:٢٤). وبسبب كل هذا العطاء المتعدد الوسائل للحياة، يقول المسيح إنه هو «الحياة» (١١:٢٥)، كقوة فعالة مُحيية .

ولكن كل هذا العطاء يتركز في تقديمنا إلى الله أبيه من خلال عطائه لهذه الحياة (١٤:٦).

أما الوسائل التي استودعها سر الحياة لكي نقربها ونحن في موضعنا على الأرض، دون عناء، فهي تكمن في سر الشكر بكسر الخبز وشرب الكأس بعد البركة (الإفخارستيا) (٦:٣٥و٤٨)، وفي سر الماء بالدفن فيه، وكأننا نموت لنحيا ونقوم معه (المعمودية) (٣:٥)، وفي سر الكلمة (٤:١٠ و٦:٦٣ و٦:٦٨)، وفي سر الإيمان الحقيقي (٧:٣٨).

أما كُنة هذه الحياة بالمفهوم الإنساني الاخباري، فهي النور الحقيقي، أنا هو نور العالم، ونور الحياة (٨:١٢)، «والحياة كانت نور الناس» (يو ١:٤)، النور الذي يدخل الإنسان فيضيء كيانه ويفتح وعيه، ليدرك نفسه فيدرك خالقه. يدخل الإنسان في النور، فيدرك الله، ويعيش في حضرته (١يو:١:٤)، لأن «الله نور.» (١يو ١:٥)

ب _ «والحياة الأبدية» في إنجيل القديس يوحنا هي المقابل «لملكوت الله» في الثلاثة الأناجيل الأخرى. غير ان اسم «ملكوت الله» هوتعبير من تعابير التراث اليهودي، يفهمه اليهود على أساس أن الله كان يملك على إسرائيل على المستوى الفكري الضيق. في إنجيل يوحنا، المسيح يخاطب العالم كله، فالحياة الأبدية بالنسبة له هي الحياة الأفضل والأعلى والدائمة، بالمقارنة مع الحياة الأقل التي يألفها الناس عامة تحت نور الشمس على الأرض، وفي «ظل الله» وليس في نوره، حياة طبيعتها المادة المحسوسة التي تقيم أودها من أكل وشرب وتنفس، يحكمها الزمان والمكان والحرارة والجاذبية، ومجدها الطول والعرض والإرتفاع. الحياة الأبدية ليست كذلك، فهي حياة متحررة من كل ضوابط المادة. فإن كانت الحياة الحاضرة يلزمها عقل الحسيات والمدركات الحسية، فالعقل لا يصلح كأداة لمعرفة الحياة الأبدية. هنا تنبري الروح الواعية بالعقل العالي الواعي، الذي يدرك المطلقات، من نوع طبيعة الحياة الأبدية نفسها؛ هذا العقل يعمل الآن بصورة جزئية، لذلك فالإنسان أعطي له في هذا الزمان إدراك الله والحياة الأبدية إدراكاً جزئياً.

وكلمة «الحياة الأبدية» ليست غريبة عن الفكر والتراث اليهوديين، فهي واردة في الأسفار بمفهوم معنى الخلاص، بصيغة مبهمة. ولكي نفرق بين الحياة في العالم والحياة مع الله، أعطي للحياة صفة الديمومة الإلهية «الأبدية». فكلمة «الحياة» وهي مُعرفة وموصوفة بالأبدية، تُعرف وتُقرأ على مستوى الإنسان، أما عل مستوى الله والمسيح، فلا يُقال أنه الحياة الأبدية بل «الحياة»، كقوة وليس كاسم، فهو الذي يخلق الحياة ويقيمها، وهذا يتضح من وصف المسيح لكلماته الخارجة من فمه بل من كيانه الإلهي: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦:٦٣)، لأن «الكلمة» في المفهوم الاعتباري العال، هي تعبير عن الذات والكيان (يو٦:٦٨).

ج- فإذا فهما الحياة الأبدية عل ضوء معنى ملكوت الله، فهي الحياة التي يملك الله عليها بروحه، حيث يحيا الإنسان بقيادة روحه القدوس، وحسب مشيئته، سواء بالفكر أو بالعمل وجعله الغاية لكل شيء. ودخول الإنسان الحياة الأبدية هو كدخوله ملكوت الله، وكأن الإنسان يولد لحياة أعلى، ليس عشوائياً كما يولد الإنسان من بطن أمه، بل بالوعي الجديد لحياة أخرى، حيث عامل الإيمان هو الأساس، فيرتقي الإنسان بأفكاره وأعماله وكل ملكاته، وكأنه خُلق من جديد. وفي الحياة الأبدية، التي يحصل عليها الإنسان، يكون الله قطبها الجاذب وعنصر ديمومتها الفعال، يستمد منه الإنسان صفاته الجديدة، حيث يُقال، عن حق، أن الإنسان يصير شريكاً في الطبيعة الإلهية: «بمعرفة الذق دعانا بالمجد والفضيلة، اللذين بهما قد وُهب لنا المواعيد العظمى والثمينة، لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية، هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة.» (١بط١:٣-٤)

وتكون حيازة الحياة الأبدية، هنا، كالعربون، كسبق مذاق، وهناك بالامتلاك والإقامة. لهذا يُقال عن حق أننا نرث ما لله في المسيح يسوع كأبناء بالتبني.

د- **إعطاء الحياة الأبدية:** هنا يجيء إعطاء الآب السلطان للابن على كل جسد، أي على الخليقة البشرية كلها، ليعطي الحياة الأبدية حسب مشيئة الآب، في هذا الزمان استعلاناً سرياً لماهية «الابن» المتجسد، فهو يمتلك الحياة في ذاته أولاً: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يو٥:٢٦). ثم إن له سلطان الله في إعطاء الحياة الأبدية منذ الآن: «من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي (مستقبلاً) إلى دينونة، بل (الآن) قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥:٢٤)

معنى ذلك أن الآب والابن يشتركان معاً في إعطاء الحياة الأبدية، حسب نص الآية: «ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته»؛ المسيح يعطي بالفعل، والآب بالمشيئة والاختيار. ويستحيل فصل الفعل عن المشيئة المتتمة له، ولا المشيئة عن الفعل؛ فالآب «والابن المسيح» يعطيان الحياة الأبدية؛ وبناء على ذلك يتحتم أن تكون الحياة الأبدية هي معرفة الآب والابن معاً، بحيث لو قال المسيح: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك» فقط، لاستحال الأمر، لأن الحياة الأبدية أُعطيت بالابن يسوع المسيح. فبدون الابن يسوع المسيح، لا تكون حياة أبدية للناس. وكما أنه بغياب الحياة الأبدية، تغيب معرفة الله في ذاته، وهي المعرفة المؤدية لخلاص الإنسان، وتنحجب طبيعه الله كآب وابن عن الوعي البشري؛ كذلك فإنه بدخول الحياة الأبدية، تنكشف حقيقة الآب والابن، ويدرك الإنسان سر الله والخلاص.

من هذا يتضح حتمية ذكر: «ويسوع المسيح الذى أرسلته» مع «يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك»، لأن معرفة الآب والابن هي جوهر الحياة الأبدية، وهي جوهر الإيمان بالتالى؛ هي معرفة ليست بالفكر المجرد، بل بطاقة الحياة الواعية العاملة لحساب الله والحياة الأبدية، كقوة وعي إيماني تقربنا إلى الله، وتحضرنا أمامه.

هـ- ولكن ما هي الحياة الأبدية على مستوى الاختبار؟: لكي نعرف ما هي الحياة الأبدية على مستوى الاختبار اليومي، يلزم أن نعرف أولاً الفرق بين الحياة الأرضية التي تنتهي بالموت، وبين الحياة الأبدية التي لا يوجد فيها موت. فالحياة المائتة كلها متغيرات؛ فالفرح المعروف فيها قابل للتغيير وينقلب إلى حزن، والسلام ينقلب إلى قلق واضطراب، والحب ينقلب إلى بغضة وكراهية، والأمل والرجاء إلى يأس وقنوط .

أما طبيعة الحياة الأبدية، فكل صفاتها وأحوالها دائمة، غير قابلة للتغيير للضد، بل إلى الأفضل دائماً.

والآن، فإن كل مؤمن بالمسيح لا بد وأن يكون قد جاز فترة من فترات الفرح الروحي المبهج، وحمل أثارها في نفسه، يذكرها فتنتعش روحه، سواء كان ذلك على أثر سماع عظة أو قراءة كتاب روحي أو فصل من الإنجيل أو أثناء الصلاة. تلك اللحظات التي لا زالت منطبعة في نفسه وروحه، هي لحظة من لحظات الحياة الأبدية، ومذاقها فوق الطبيعة، وهي كافية أن تعزي الإنسان أثناء مصادماته لتجارب الحياة. ولكن يوجد مؤمنون جازوا فترات أطول، من هذا النوع من الفرح أو السلام أو الغبطة الروحية» حيث صارت لهم مجالاً دائماً يلوذون به في مواجهة العواصف وزعازع الحياة الأرضية.

وما يُقال عن الفرح، يُقال عن السلام الروحي، وكل تذوقات نعم الحياة الأبدية الأخرى التي تطفح على النفس، فتملأها هدوءا وطمأنينة ورجاء وعفة وقداسة وتمجيدا دائماً والتصاقا حاراً بالرب. وهؤلاء الذين يذوقون هذه يختبرون الصلاة بالروح، والسجود بالروح، والتسبيح بالروح، ببهجة تفوق العقل.

هذه هي الحياة الأبدية، وهذا هو سبق مذاقها. وأوضح صفاتها، أن أثرها لا يزول على مدى عمر الإنسان كله، وهي تجعله يسخر من تقلبات الأيام والسنين، وتبقى حصناً أميناً للنفس.

هذه هي الحياة الأبدية المبهجة التي سوف نحيا ملئها فوق. هذه هي الحياة الأبدية التي هي عينها الحضرة الإلهية، وهي نفسها تذوق العشرة مع المسيح، بل هي حياة المسيح والآب. لذلك يقول القديس يوحنا، إنه لما ظهرت الحياة الأبدية في شخص يسوع المسيح، والتي كانت مخفية في الله، ورآها في شخصه، وشاهدها بروحه في تعاليمه، ولمسها بقلبه وروحه لمس اليد، صارت له شركة مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح (أقرأ ١يو١:١-٤)؛ أي أن معرفة الآب وابنه يسوع المسيح، بالاستعلان، هي عينها الحياة الأبدية، وهي عينها الشركة مع الآب والمسيح! بل والإخبار بها يعطي نفس الشركة: «الذي رأيناه وسمعناه، نخبركم به، لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا.» (١يو١:٣)

«أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»:

«يعرفوك»: صيغة الفعل هنا استمرارية، فنحن هنا بصدد الحياة الدائمة والأبدية. والمعرفة هنا منصبة على «أنت الإله الحقيقي وحدك» أي الآب؛ و«يسوع المسيح الذي أرسلته» هوا الابن المتكلم عن نفسه ولكن بصيغة الغائب. ومعرفة الله ليست كمعرفة الناس أو الأشياء أو المعارف العالمية. فأداة معرفة الدنيا هي العقل المحسوس العامل بالمخ البشري. وأما معرفة الله، فلا تؤتى بالعقل، بل بالوعي الروحي، وهو العقل أو الذهن العالي المختص بالمطلقات، وهذا يكتسب المعرفة بالاستعلان، أي يُستعلن له الحق، فيدركه. والاستعلان يأتيه من فوق، من خارج الكيان الإنساني، بالخبر الإلهي، أي بالبشارة بأمور الله المفرحة والسارة، سواء بالكلمة المنطوقة أو المكتوبة أو الرؤيا: « إن كان منكم نبي للرب، فبالرؤيا أستعلن له، في الحلم اكلمه، وأما عبدي موسى، فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي، فما إلى فم وعياناً أتكلم معه، لا بالألغاز، وشبة الرب يعاين.» (عد١٢:٦-٨)

والمسيح افتتح عهد الملكوت أو الحياة الأبدية للانسان، على مستوى كلمته: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦:٦٣). هنا المسيح يُعرفنا بالحياة التي فيه، بواسطة سماع الكلمة وقبولها: «الحق الحق أقول لكم: الحق الحق اقول لكم: إن من يسمع كلامي، ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو٥:٢٤)

التعرف على المسيح، هو هو التعرف على الآب، لأن رسالة المسيح هي استعلان الآب الذي فيه، بالكلمة والعمل: «الذي رآني، فقد رأى الآب» (يو١٤:٩)). فالمسيح هو مستعلن الآب. والتعرف على المسيح والآب هو الحياة الأبدية. على أن المعرفة هنا لا يمكن أن تسمى معرفة فكرية أوعقلية، بل معرفة بالا ستعلان، أي كشفت الحقيقة؛ والحقيقة لا تنكشف إلا لمستحقيها، أي تُستعلن للآخذين فقط. فالله يُستعلن، أو يُعرف معرفة حقيقية لأخصائه، أي الذين له، أى الذين امتلكهم وامتلكوه. فالمعرفة للآب والابن هي بعينها شركة مع الآب والابن، كما يُعلن القديس يوحنا: «فإن الحياة أُظهرت، وقد رأينا، ونشهد، ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب، وأُظهرت لنا. الذي رأيناه وسمعناه، نخبركم به، كي يكون لكم أيضاً شركة معنا، وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح.» (١يو١:٢-٣)

واضح هنا أن «الحياة» هي المسيح، و«أظهرت» بالتجسد، وقد أُستعلنت في المسيح، فعرفوا الآب والابن. وما أدركه القديس يوحنا بالاستعلان المباشر بمعاشرته للمسيح نفسه، ينقله لنا، أي ينقل الاستعلان الذي حصل عليه، ينقله لنا بالخبر، ونحن من هذا الخبر نحصل على الاستعلان كاملاً بالإيمان بصدق الإنجيل. أما القديس يوحنا فبالاستعلان الذي بالإيمان حصل على شركة في المسيح والآب، وهو يدعونا إلى نفس الشركة معه، على مستوى تصديق الإيمان لقبول الاستعلان. هذه هي «معرفة» الآب والابن.

كما نلاحظ في هذه الآية (١٧:٣) أن «معرفة الآب» تساوي «معرفة يسوع المسيح» في بلوغ الحياة الأبدية. هذا التساوي هو على مستوى الفعل والعمل. هنا ممارسة حقيقية نحصل بها حالياً على الغبطة، التي هي عربون سعادتنا القادمة الدائمة. ولكن ملء معرفة الآب والمسيح مذخوة لنا في الحياة الأخرى، التي هي بعينها ممارسة سعادة الحياة الأبدية ذاتها.

في سفر الرؤيا نجد أن الصفات الأساسية التي بها يُخاطب الله الآب هي نفسها التي يُخاطب بها ويوصف المسيح الممجد. ففي الآية (٦:١٠) نسمع أرواح الشهداء تصرخ لدى الله قائلة: «وصرخوا بصوت عظيم قائلين: حتى متى أيها السيد القدوس والحق لا تقضى وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض»، ثم نجد الوحي يصف المسيح بنفس الصفات: «هذا يقوله القدوس الحق الذي له مفتاح داودى الذي يفتح ولا أحد يُغلق، ويُغلق ولا أحد يفتح.» (رؤ٣:٧).

«أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته»: المسيح يوجه الكلام للآب. ولكن كما يوجه المسيح الكلام للأب، نوجه نحن نفس الكلام للمسيح، حيث نقول: «أنت الإله الحقيقي وحدك». لأن صفة الألوهية هي للآب كما للابن، وصفة الحق هي للآب كما للابن، لأن الحق في المفهوم اليهودي ينصب على أمانة الله، واستقامة وصاياه، واستجابته لسؤال الإنسان البار، ووفائه بوعده إذا وعد. ها يظهر الإتجاه الفعلي العملي «للحق». وبالمفهوم الهلليني (أي اليوناني)، فإن الحق هو ما ليس «شبه حق»، فهو ليس خيالاً أو كذباً، أي الاتجاه الفكري التصوري. والمسيح هو كذلك بالمفهومين: فهو«الصادق الأمين» (رؤ٣:١٤؛ ١٩:١١). وصفة

«الواحدية» هي للآب كما للابن، لأنها صفة الطبيعة والجوهر الإهي أساساً. فالطبيعة الإلهية بسيطة بساطة مطلقة، أي غير غير مركبة، فالإنسان له طبيعة مركبة من جسد ونفس وروح، الله ليس كذلك. فالله روح كُلى مُطلق، لهذا يستحيل معه الثنائية، كما يستحيل فيه التقسيم أو الانقسام. فالله واحد كلي صاف، فالآب واحد، والابن واحد، لأن جوهرهما واحد بسيط غير منقسم قط.

من ها نفهم صفة الواحدية لله، أنها صفة جوهرية من وقع طبيعته وليس من جهة عدده؛ فحينما نقول: «الله واحد» فنحن نتعمق طبيعته، لا درءاً لتعدد الآلهة، ولكن وصفاً لحقيقة الله ذاته، على أن «الواحد المطلق» هو بآن واحد «الحق المطلق» وهو هو «الإله الواحد» حتماً.

ولكن المسيح جاء ليعلن الآب المحتجب. فمعرفة الآب يستحيل أن تتم بدون المسيح، الذي جاء ليستعلنه، ويستعلنه في ذاته، وفي طبيعته. فذكر المسيح مع الله الآب، هو بقصد التكميل الاستعلاني وليس الإضافة. وكما أن الابن يُمجد الآب، والآب يُمجد الابن، كذلك فالابن يستعلن الآب، والآب يستعلن الابن بالروح الذي أرسله. لذلك، يستحيل معرفة أحدها بدون الآخر. لذلك يقول المسيح ما هو مُعتبر تحصيل حاصل، أن «الحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته». وكأنما هو يقول: إن الحياة الأبدية هي معرفة الآب والابن، الله الواحد بذاته.

والمسيح لم يقل هذا بصيغة المتكلم، لأن الممطق يمنع القول بأن الإله الحقيقي هو «أنت وأنا»، فقال بصيغة الغائب: «أنت، وهو» حيث مضمون «هو» في المفهوم اليهودي اللاهوتي بحسب الأسفار المقدسة تعني «الإله» في أبغ تعبير سري، هذا إذا جاءت من موقف المتكلم، كما وردت بالعبري مئات المرات في الأسفار المقدسة «أنا هو» الله.

وتطبيقاً لما قلناه، نقرأ للقديس يوحنا في رسالته الاولى: «ونحن في الحق، في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية» (ايو٥:٢٠). وواضح هنا أن القديس يوحنا يعطي للمسيح كل الصفات التي لله الآب بلا تفريق، وهذا يعني بصورة جلية أن المسيح يسوع هو الاستعلان الكامل لله الآب الحامل لكل مفاته، الذي فيه وبه يُعرف الله الآب معرفة حقيقية وكاملة، وأن ملء الله الآب الكامل فيه.

٤- أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى الأَرْضِ. الْعَمَلَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ.

٥- وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ.

الآيتان هنا مترابطتان، وكأنهما شطران لبيت شعر واحد. مضمونه: «أنا مجدتك على الأرض، والآن مجدني أنت في السماء». كان المجد الذي طلبه المسيح في أول صلاته: «مجد ابنك»، يختص بتدخل الآب لتكميل باقي المهمة العظمى، وهي الجزء الأكثر إيلاماً وإذلالاً لابن الله في عملية الموت، بكل ما تثمله من العار والهزيمة الصورية.

أما المجد الذي يطلبه هنا، فهو مجد الاستحقاق للعمل، وكأنه قد اكمل «الآن» على الأرض وهو على عتبة الانطلاق إلى الآب. إذ لم يعد سبب للبقاء في حالة الإخلاء التي بقي فيها لحين تكميل المهمة العظمى.

أما طلب المجد في البداية، فالمسيح قدمه بصيغة الغائب غير المباشرة: «ابنك». ولكن هنا يقدم الطلب بصيغة المتكلم : «أنا»، لأن الأول يختص بعلاقة عامة، الابن بالآب. أما في الثاني فيسوع المسيح يتكلم على الأرض بمواجهة في حالة التجسد، وقد أكمل الابن المهمة. ولكن في كلتا الحالتين تظهر العلاقة الوثيقة بين الآب والابن بصورة صارخة.

«أنا مجدتك على الأرض»: الرسالة التاريخية أُكملت، وهي بحكم المنتهية، وجاهزة الآن لتقديم الختام. صحيح أنها في اتضاع العبد، ولكن العبد نجح في اتضاعه الكامل وطاعته المطلقة في تنفيذ المهمة، وأكمل استعلان الآب بالقول والعمل والآية. وهذا قمة التمجيد للاب. فتمجيد الآب تم باستعلان ابوته للمسيح وللانسان في كل العالم. هذا نراه اليوم بعد ألفي سنة بصورة فائقة النجاح، فاكل ينادي الآب: «يا آبانا»، بألوف وملايين الأفواه والقلوب، في كل يوم، بل في كل لحظة.

أما تمجيد المسيح على الأرض، فقد تم باستعلان بنوته لله، وهذا صار دستور إيمان كل مسيحيي العالم .

وأما تمجيده في السماء، فقد حازه بالدرجة الاولى، إذ صار المسيح والآب واحداً في كل إيمان.

ومن الآن والى الأبد سيظل تمجيد الله الآب يتم عن طريق تمجيد الابن يسوع المسيح وبه. فبدون الابن، لا يُمجد الآب، لأنه لا يوجد إلا وسيط واحد بين الله والناس، يسوع المسيح، ولأن بدون استعلان الابن (تمجيده) لا يُستعلن الآب (تمجيده). فالتمجيد هو إعلاذ الحق. فهو والاستعلان واحد.

«العمل الذي أعطيتني لأعمل، قد أكملته»: «أكملته»، تفيد الكمال أكثر مما تفيد الانتهاء منه، ويتضح ذلك من المقابل اللاتيني consommasi، وقد سبق أذ استخدم الإنجيل نفس اللفظة «أكمل» كمعيار أساسي وضعه المسيح نصب عينيه مذ البداية: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو٤:٣٤). واللفظتان العربيتان «أكمل»، و«أتمم» لا تفيدان صميم المعنى الذي يهدف إلى «الكمال» أي التكميل على مستوى الكمال. فعمل المسيح يفوق معنى الأداء وحسب!!

وقول المسيح من العمل ككل أنه قد «أُعطي له»، يفيد أنه يعمل عمل طاعة المشيئة الآبوية. فالعمل لم يختاره المسيح لنفسه، لذلك حُسب بالفعل أنه ذبيحة وفداء، كإسحق تحت يد إبراهيم مربوطاً. وقد سبق المسيح وأوضح هذا مرارا: «لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأكملهت، هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لى أن الآب قد أرسلني» (يو٥:٣٦). لهذا يستعذب النساك والرهبان الطاعة، وبالأخص إذا كانت تحت يد شديدة، للقيام بأعمال شاقة أو حقيرة، إذ تُحسب لدى الضمير الصاحي والنفس الواعية أنها ذبيحة مقبولة لدى الله. ولا يستثقل العمل الحقير إلا الجهال الذين لم تنفتح بصيرتهم بعد على ذبيحة المسيح. ولذلك قيل أيضاً عن موس النبي: «... مفضلاً بالآحرى أن يُذل مع شعب الله، على أن يكون له تمتع وقتي بالخطية، حاسباً عار المسيح غنى أعظم من خزائن ممصر، لأنه كان ينظر إلى المجازاة.» (عب١١:٢٥-٢٦)

«والآن مجدني أنت أيها الآب عنه ذاتك، بالمجد الذي كان لى عندك قبل كون العالم»: الآن في فم المسيح رفيقة الساعة التي جاء من أجلها، وقد أكمل ذبيحة التاريخ الطوعية التوافقية بحسب مشيئة الآب تماماً وكمالاً، وقد أضمر لنفسه ما أضمر اليهود ضده وكما صمم عدو البشرية لهم، أن يُكمل ذبيحة تواضعه بذبيحة موته، موت الصليب. والآن المسيح يطلب أن يرتفع ابن الإنسان من الأرض إلى السماء، لأن عمل المسيح على الأرض وعمله في السماء وحدة واحدة لا تتجزأ!! والآن، وهو يطلب المجد والبهجة، كختام لعمله المضني على الأرض الذي أكمله في عمق التاريخ الإنساني الحزين، يطلب في الحقيقة تجلي تاريخ الإنسان وبلوغ نهايته المفرحة، وبالتال تجلي الخليقة العتيقة، بعد أن دان عالم الظلمة الذي رفض أن يتبع النور، وطرح رئيسه خارج دائرة التجديد، وقاد عالم الإنسان في النور كخليقة أخرى تماماً، وأدخلها في مجالها الأعلى الاخروي. وهي وإن بدت محصورة نوعا ما في شخصه، إنما كان هو ولا يزال كباكورة وكسابق لأجلنا. فالذين دخلوا معه، ويدخلون كل يوم،

هم شهادة مدموغة بالتحول الخفي والسري الذي يتغير به العالم دون ضجيج. وهكذا تم، بالمسيح، القول الأول: «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس.» (يو ١:٣)

«عند ذاتك»: حيث تترجم "عند" أحياناً «مع». ففي الآية (يو٨:٣٨): «أنا أتكلم بما رأيت عنه أبي»، وفي الآية (يو١٤:١٧) : «... لأنه ماكث معكم ويكون فيكم». ولكن بالنسبة للمسيح والآب، فمجد الابن ومجد الآب هما المجد الواحد للذات الإلهية. فكلمة «عند ذاتك» تأتي هنا بمعنى الاتصال اللاهوتي المباشر الذي يفيد استعلان الوحدة القائمة بالمجد في الله بين الآب والابن. هنا عودة إلى القول الأول: «وكان الكلمة الله» (يو ١:١)، لأن طلب المسيح أن يأخذ المجد الذي كان له عند ذات الآب قبل كون العالم، هو بالنسبة لنا مقارنة استعلانية واضحة بين حالة المسيح الآن في الجسد، وحالته قبل تجسد «الكلمة». الآن في تخل طوعى عن مجده لتأدية مهمة لا تقبل الظهور في المجد، لأنها مهمة تحمل عار الإنسان وذله تحت الخطية والناموس، وقبول هوان الموت كعقوبة عن كل زي جسد. ومن الآن يتطلع المسيح لما كان له قبل التجسد، أي يستعلن لاهوته، لتستعلن وحدته مع الآب، هاتان اللتان لم تفارقاه قط، لا بالروح ولا بالجسد ولا لطرفة عين. ولكن الإخلاء كان على مستوى الإخفاء عن أعين الناس ومدارك الشيطان. والآن يطلب المسيح الاستعلان لما هو له، عند ذات الآب، قبل الخليقة، أمام تلاميذه واليهود والعالم كله، حتى تبلغ رسالة تواضعه وطاعته حتى الموت على الصليب ذروة قوتها وفعلها الفدائي الخلاصي، فالذي تألم وصُلب وقُبر وقام، لم يكن هو ابن الإنسان وحسب، بل هو هو ابن الله الوحيد الواحد مع الآب.

وفي قول المسيح: «بالمجد الذي كان لى عندك قبل كون العالم»، تصريح بلاهوته كحقيقة ينبغي أن يُعترف بها، ففبل كوذ العالم لم يكن إلا الله وحده!

هذا الطلب الذي يطلبه المسيح الآن، أي استعلان حقيقة نفسه كابن الله وطبيعته الإلهية، كان قد ألمح إليه سابقاً حينما أعثر فيه تلاميذه لما قال عن أكل جسده وشرب دمه: «فعلم يسوع في نفسه أن تلاميذه يتذمرون على هذا، فقال لهم: أهذا يعثركم؟ فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً؟» (يو٦:٦١-٦٢))

ويأتي الطلب الأول والطلب الثاني بخصوص المجد، في تطابق بديع مع مجد الآب واستعلان الذات الواحدة التي تتبادل المجد في ذاتها هكذا:

أنا مجدتك على الأرض، فمجدني أنت عند ذاتك في السماء.

أنا أعلنت حقيقة أبوتك فيّ، أي في ذاتي، للناس، أعلن أنت حقيقة بنوتي فيك، أي في ذاتك.

أنا استعلنت حقيقتك في عمق الزمان وفي العالم، استعلن أنت حقيقتي الآن في الأزلية قبل كوذ العالم.

والآن، أيها القارىء العزيز، قد يبدو في نظرك أن طلب المسيح المجد لنفسه واستعلان لاهوته ووحدته مع الآب، أمراً هيناً وتحصيل حاصل، وكأنه ليس من جديد في الموضوع. ولكن لننبه القارىء أن المسيح الآن يحمل جسد الإنسان ونفسه وروحه وفكره في ذاته، فهو مُثقل بطبيعة عاجزة غريبة كل الغرابة عن طبيعة الله!! فصعوبة هذا الطلب لا تخص المسيح «كابن الله» في ذاته، الذي لم يفارقه مجد اللاهوت؛ ولكن هذا يخص تجسده، أي طبيعة الإنسان الذي فيه، أنت وأنا وكل خاطىء مثلنا!! المسيح بطلبه هذا يطلب استحقاق ما لا يحق، بجراءة منقطعة النظير، تسندها طاعته حتى الموت، أن يكون للانسان الذي فيه ولطبيعته البشرية هذه الشركة في المجد عينه الذي يطلبه كابن الله!! فهذا الطلب هو بحد ذاته أعظم أعمال المسيح التشفعية لحساب الإنسان، باستحقاق ذبيحة

طاعته، فهو الذي يحمل إكليل جوهر الفداء والخلاص لبني الإنسان، والذي ينتهي بالمجد!

+ «ونحن أموات بالخطايا، أحيانا مع المصيح. بالنعمة أنتم مخلصون، وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع» (أف٢:٥-٦)

+ «... وتعرفون محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله.» (أف٣:١٩)

+ «الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده، بحسب عمل استطاعته أن يخضع لنفسه كل شيء.» (في٣:٢١)

+ «شاكرين الآب الذي أهلنا لشركة ميراث القديسين في النور، الذي أنقذنا من سلطان الظلمة، ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته. (كو١:١٢-١٣)

+ «متى أُظهر المسيح حياتنا، فحيئذ تظهرون أنتم أيضاً معه في المجد» (كو٣:٤)

+ «ونشهدكم لكي تسلكوا كما يحق لله، الذي دعاكم إلى ملكوته ومجده.» (١تس٢:١٢)

+ «الأمر الذي دعاكم إليه بإنجيلنا، لاقتناء مجد ربنا يسوع المسيح» (٢تس٢:١٤)

+ «وإله كل نعمة، الذي دعانا إلى مجده الأبدي في المسيح يسوع» (١بط٥:١٠)

+ «لأنه لاق بذاك الذي من أجله الكل، وبه الكل، وهو آت بأبناء كثيرين إلى المجد، أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام.» (عب٢:١٠)

+ «إن كا نتألم معه، لكي نتمجد أيضاً معه.» (رو٨:١٧)

والآن، ليعلم كل إنسان، أن المسيح ابن الله هو جالس الآن بجسدنا هذا عينه عن يمين الله، ينتظر ذهابنا إليه. والبشرية فيه، بعد أن تمجد بها، صارت هكذا شريكة في مجد الله. هذه هي الخليقة الجديدة والإنسان الجديد.

وهذا يتضح بأبلغ بيان في طلب المسيح الذي سوف يقدمه في الآية (٢٤): «أيها الآب، أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني، يكونون معي حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم».

وإن كنا سوف نقدم الشرح الوافي لهذه الآية البليغة في محلها، ولكن ما يهمنا هنا في الآية (٥) التي نحن بصددها، هو: يكونون معي، حيث أكون أنا»، فهنا شركة في المجد البنوي لله، ثم «لينظروا مجدي» ليس بنظر العين، بل بشركة الرؤيا والإدراك والمعرفة الإلهية الفائقة، ثم «الذي أعطيتني» تفيد بكل وضوح المجد الإضافي الذي حازه المسيح «كابن الإنسان» لحساب الإنسان.

وقد ألمح المسيح لهذه الشركة القائمة في المجد الفائق عن الزمن والرؤية العينية الآن، عند قوله لبطرس: «حيث أذهب، لا تقدر الآن أن تتبعني، ولكنك ستتبعني أخيراً» (يو١٣:٣٦). وأخيراً، هذه الشركة تفيد الأخروية (الإسكاتولوجيا) والتي جازها بطرس على الأرض وقت الشهادة تحت حد السيف، وكما رآها إستفانوس وهو تحت رجم الحجارة: «وأما هو فشخص إلى السماء وهو ممتلىء من الروح القدس، فرأى مجد الله، ويسوع قائماً عن يمين الله. فقال: ها أنا أنظر السموات مفتوحة، وابن الإنسان قائما عن يمين الله.» (أع٦:٥٥-٥٦)

القسم الثاني: فيما يخص التلاميذ

(يو١٧:٦-١٩)

وتتركز الصلاة في استعلان الآب للتلاميذ:

١- كيف استعلن الآب، وكيف قبلوه: (٦-٨).

٢- كيف كان يحفظ التلاميذ، وقد حان وقت تركهم: (٩-١١).
٣- العمل السابق، والعمل اللاحق: (١٢-١٣).
٤- محنة التلاميذ في العالم: (١٤-١٥).
٥- المسألة المطلوبة من أجلهم: (١٦-١٩).

بعد أن أفرغ المسيح ما في قلبه علناً، فيما يخص نفسه، لدى الله أبيه وأمام تلاميذه، اتجه بطلبه من أجل تلاميذه. ويلاحظ أن عمل المسيح الذي أكمله على الأرض في حدوده الضيقة كان يشمل في الحقيقة الوعد بالتكميل الأعظم، في حدوده اللانهائية في السماء لدى ارتفاعه وعودته إلى الآب.

ونحن نجد في سؤاله الآب من أجل نفسه: «مجدني» اتجاهاً سرياً ولكن ملحوظاً نحو التلاميذ، فالمجد الذي يطلب هو يخص التلاميذ والإنسان عموماً. والآن من داخل سؤاله المجد لنفسه يسأل من أجل تلاميذه أن: «احفظهم»، و«قدسهم». وأن المجد الذق يلح عليه من أجل نفسه والآب إنما يتجه في الواقع وضمناً إلى تكميل خلاص التلاميذ والعالم الذى بدأ بتجسده. والآن هو يطلب له الكمال .

١ – كيف استعلن الآب وكيف قبلوه:

٦- «أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ الْعَالَمِ. كَانُوا لَكَ وَأَعْطَيْتَهُمْ لِي وَقَدْ حَفِظُوا كَلاَمَكَ.

المسيح يقدم تلاميذه على ثلا ثة مستويات:

الاول: علاقتهم بالمسيح: «أنا أظهرت اسمك للناس».

الثاني: علاقتهم بالآب: «كانوا لك».

الثالث: من واقع حالهم: «قد حفظوا كلامك».

وكل مستوى من هذه المستويات جعله المسيح سبب سؤال وطلبة، والثلاثة معاً يكونون الصورة المتكاملة للتلمذة الصحيحة التي يودها لهم ويعمل من أجلها.

«أنا أظهرت اسمك للناس»: «أنا أظهرت اسمك» تأتي موازية ومتساوية لقوله: « أنا مجدتك» (عدد٤)، والاثنان يقعان تحت بند الاستعلان. فقد أكمل المسيح استعلان الله «كآب» له وللآخرين؛ له بنوع الخصوصية، وللآخرين بالنعمة المقدرة بتوسطه، وذلك بكل إصرار وتكرار، ليس في قوله وعمله فحسب بل وبحياته. وقد وضح أن هذا الاستعلان كان جديداً بالفعل على الذهن اليهودي، بالرغم من ادعائهم البنوية لله. وكم هو واضح في قول إشعياء النبي وهو يصف المسيح: «وأنا الرب إلهك، مُزعج البحر فتعج لجحه، رب الجنود اسمه. وقد جعلت أقوالى في فمك، وبظل يدي سترتك، لغرس السموات، وتأسيس الأرض، ولتقول لصهيون: أنت شعبي.» (إش٥١:١٥-١٦)

بثلاثة أمورو أظهر المسيح اسم الآب:

الأول: بكونه هو الابن الذي أطاع الآب حتى الموت، لأنه باستعلان بنوته الخاصة الجوهرية لله، أظهر وأعلن أبوة الله.

الثانى: بإعطاء تعاليم الآب وكلماته تحت اسم الآب: «أنا هو.»

الثالث: بصنح القوات والآيات التي تعلن عن الآب الحال فيه. وكل نور أدخله المسيح إلى عالم الإنسان بإعلان الحق وممارسة الحب كان في الحقيقة هو بهاء أو شعاع مجد الآب، ورسم أو صورة لجوهره.

ولكن ليس الكل قبل هذا الاستعلان، فالاستعلان أُعطي تماماً، ولكن الذين انفتحت أعينهم وقبلوا حقيقة رسالة المسيح كابن، هم هؤلاء الذين عبر عنهم المسيح: «للناس الذين أعطيتني». فالاستعلان العام لابوة الله، قبله الناس، إنما على مستوى التلاميذ أولاً، الزين اجتذبهم الآب، كعينة نموذجية وخميرة، حسب قوله السابق: «لا يقدر أحد أن يقبل إلي، إن لم يجتذبه الآب» (يو٦:٤٤)، «لا يقدر أحد أن يأتي إلي، إن لم يُعط من أبي» (يو٦:٦٥) والحقيقة أن الذي يجتذبه الآب، يجتذبه الابن بالضرورة: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض، أجذب إلي الجميع» (يو١٢:٣٢). والمسيح يختار أيضاً: «ليس أنتم اخترقوني، بل أنا اخترتكم وأقمتكم... » (يو١٥:١٦). ولكن على الناس أن يطيعوا هذا الاختيار، أو يرفضوه كيهوذا، ليصيروا عبرة للرافضين. ولكن كان عمل المسيح العام، هو إظهار اسم الله الآب لشعب إسرائيل أولاً: «أخبر باسمك إختوتي. في وسط الجماعة أسبحك.» (مز٢٢:٢٢)

«من العالم»: تفيد أن الله اختارهم وأخرجهم من حيازة العالم: «ولكن لما سر الله، الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته، أن يعلن ابنه في لابشر به بين الأمم، للوقت لم أستشر لحماً ودماً، ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلي، بل انطقلت إلى العربية» (غل١:١٥-١٧). هنا في هذا الوصف للدعوة يتضح كيف يدعو الله الذين له، حيث يكمن في هذا الكلام المعنى المتسع والعميق لقول المسيح: «كانوا لك». فدعوة بولس الرسول كان يقف خلفها علاقة مع الله ذات أبعاد لا يعرف مداها إلا الله وحده، أي أن بولس كان لله أولاً، ثم أعطاه الله للمسيح، فصار بولس للمسيح. وهكذا وراء كل إنسان دعاه الله إلى ابنه، قصة وحكاية ذات أبعاد غائرة في القلب والضمير والوجدان بين الإنسان ولله، قصة حق مستعلن، وحب طاغ، ومشاعر قلقة وملتهبة قادها الله إلى ملكوت ابن محبته

«كانوا لك، وأعطيتهم لي»: كان التلاميذ يمثلون في الحقيقة الشعب المختار، وبسلوكهم تجاه المسيح كانوا «إسرائيليين حقاً لا غش فيهم»، وأثبتوا بذلك أنهم «خاصة لله» يهوه، وبذلك اعتبرهم المسيح أنهم كانوا يتبعون، بإيمانهم الإسرائيلي، الله الذي جاء المسيح ليستعلنه الآن كآب. وبإيمانهم بالمسيح، وضح أن الآب سلمهم للابن ليكمل خلاصهم وفداءهم.

«وأعطيتهم لي»: «خرافي تسمع صوتي، وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أعطيها حياة أبدية... أبي الذي أعطاني إياها» (يو١٠:٢٧-٢٩). «الذين أعطيتني حفظتهم، ولم يهلك منهم أحد» (يو١٧:١٢). هنا، يتضح أن عمل الآب في اجتذاب النفوس يسبق عمل الابن، وهذا حتمي. والإنسان يعرف أولآ الله، وحينما يخلص الإنسان في عبادته لله، يكشف له الله عن طريق الخلاص ويعرفه بابنه: «وكانت نبية حنة بنت فنوئيل من سبط أشير، وهي متقدمة في أيام كثيرة، قد عاشت مع زوج سبع سنين بعد بكوريتها. وهي أرملة نحو أربع وثمانين سنة، لا تفارق الهيكل عابدة بأصوام وطلبات ليلاً ونهاراً، فهي في تلك الساعة وقفت تسبح الرب، وتكلمت عنه مع جميع المنتظرين فداء في أورشليم» (لو٢:٣٦-٣٨)؛ «وكان رجل في أورشليم اسمه سمعان. وهذا الرجل كان باراً تقياً ينتظر تعزية إسرائيل. والروح القدس كان عليه. وكان قد أوحي إليه بالروح القدس أنه لا يرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب، فأتى بالروح إلى الهيكل، وعندما دخل بالصبي يسوع أبواه ليصنعا له حسب عادة الناموس، أخذه على ذراعيه وبارك الله وقال: الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك، بسلام، لأن عيني قد أبصرتا خلاصك الذي أعددته قدام وجه جميع الشعوب.» (لو٢:٢٥-٣١).

حنة النبية وسمعان الشيخ كانا لله، وأخلصا جداً في إيمانهما بالله، فشاء الله أن يكلل إيمانهما بالإيمان بالمسيح. واضح أن العمل يبدأ بالأب، وينتهي بالابن عبر الروح القدس، ليستقر الثالوث في قلب الإنسان. واختيار التلاميذ

وكل المؤمنين الذين لم يكونوا يعرفون إلا الله، كان على أساس أن أرواحهم كانت ملتهبة فيهم مُسبقاً. ونحن نقرأ في بداية إنجيل يوحنا، كيف كان التلاميذ يبحثون عن الخلاص بكل قلوبهم: «وجدنا (المسيا) الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء.» (يو١:٤٥)

« حفظوا كلامك»: الترجمة العربية هنا تجاوزت المعنى، فالصحيح هو: «حفظوا "كلمتك" اللوغس». فالمعنى هنا عميق، ويفيد أنهم استعلنوا كلمة الله التى هى المسيح، باعتباره جوهر التوراة، وبذلك كرموا كلمة الله في شخصه، و«حفظوها»، بمعنى أدركوا سرها؛ فسهروا عليه وأبقوه في كنز قلوبهم، وهكذا أبقوا الآب والحق في معرفتهم!

هذا المعنى شرحه المسيح سابقاً: «إنه مكتوب فى الأنبياء ويكون الجميع متعلمين من الله، فكل من سمع من الآب وتعلم يقبل إليّ» (يو٦:٤٥). هنا «سمع من الآب» تكشف عن انفتح على صوت الله وقبل سر الكلمة.

وهما يطيب لنا أن نكشف عن القوة المستترة فى قول المسيح هذا، فحفظ كلمة الله هو هو التلمذة الحقيقية لله والمسيح، وهو يعني السهر على الإنجيل بقديم أسفاره وجديدها، لاجتلاء كنوزه وبركاته المذخرة لنا: «طوبى للانسان الذى يسمع لى ساهراً كل يوم... لأنه من يجدنى يجد الحياة وينال رضى من الرب» (أم٨:٣٤-٣٥). وما من قديس أو واعظ مُلهم إلا وكان السهر على الإنجيل والكلمة طعامه وشرابه وفرحه وعزاءه.

وكلمة يحفظ الكلمة في إنجيل يوحنا ورؤياه تعني السهر عليها، يقابلها في الإنجليزية watch وليس guard، أي «يسهر» وليس «يحرس»، فعكس «يسهر» على الكلمة هو «يرفضها ويزدري بها ولا يعتبرها»، أما عكس «يحفظها» بمعنى «يحرسها» هو أنها تسقط منه وتضيع. ومن هذا نفهم أن حفظ الكلمة بمعنى السهر عليها هو قبولها قبولاً شهياً : « وجد كلامك فأكلته. فكان كلامك لى للفرح، ولبهجة قلبى، لأنى دُعيت باسمك، يا رب إله الجنود.» (إر١٥:١٦)

والمزمور حينما يقول: «أما الآن فحفظت قولك (كلامك، اللوغس)» (مز١١٩:٦٧)، فهو يعني: «أدخرته لنفي دُخراً». فالمسيح يشبه الملكوت بإنسان باع كل ما عنده واشترى اللؤلؤة الكثيرة الثمن وحفظها (مت١٣:٤٦)، وكذلك بالذي وجد الكنز في حقل، ومن فرحه باع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل (مت١٣:٤٤). هذه الأمثلة كلها تدور حول قيمة كلمة الخلاص، أي الإنجيل، بالنسبة للحياة. فاللؤلؤة والكنز هما كلام الله، في تعبير المسيح، وقد أعطى المسيح لذلك مثلاً أقوى وضوحاً في مثل الزارع: «الذي في الأرض الجيدة هو الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيد صالح، ويثمرون بالصبر... فانظروا كيف تسمعون» (لو٨:١٥و١٨)

لذلك فقول المسيح عن التلاميذ أنهم «حفظوا كلامك» هو الإعلان عن سر التلمذة الصادق والوحيد، وهو سر التقدم أيضاً والنمو والانفتاح. ولعل أقوى قيمة لمفهوم حفظ الكلمة عند المسيح، جاء في قوله: «الحق الحق أقول لكم، إن كان أحد يحفظ كلامي، فلن يرى الموت إلى الأبد» (يو٨:٥١). وهكذا أصبح حفظ كلام المسيح في القلب، هو بذرة الحياة الأبدية التي تحول قلب الإنسان إلى ملكوت الله.

وإن أنسى فلن أنس في حياتي ما قراته عن السائح الروسي، لما أشعل أخوه الأكبر النار في كوخهم الوحيد، بعد أن سرق مدخوات أبيهم ليخفي فعلته الشنعاء، وفر هارباً، وكان السائح الروسي راقداً مع زوجته في الدور الأعلى، فدلى زوجته من النافذة وقفز وراءها، وذهبا كلاها يسيران في الشارع خالي الوفاض من كل ها امتلكاه، إلا الإنجيل في نسخة مخطوطة جلسا على قارعة الطريق يقرآن فيه؛ فأخذت زوجته تبكيه فسألها: لماذا تبكين يا أختي؟ فقالت له: كلام الإنجيل يا أخي حلو يعزيني عن كل ما فقدت!

٧- وَالآنَ عَلِمُوا أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَيْتَنِي هُوَ مِنْ عِنْدِكَ.

هنا يشرح المسيح معنى أو ثمرة حفظهم لكلمة الآب، أو معنى سهرهم على تعاليم المسيح وفهمهم لسر الآب المتكلم فيه والعامل الأعمال. فالكلمة أضاءت بصيرتهم وآلهمت قلوبهم، وفتحت أعينهم، وأدخلتهم في نور الحق والحياة، وحكمتهم بكل حكمة.

«علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك»: إذا أردنا أن نترجم هذا القول إلى أبسط معنى، فهو أن التلاميذ أدركوا أني جئت لأستعلنك قولاً وفعلاً وعملاً وحياة!!

«الآن»: إن وضع هذا الظرف الزماني «الآن» هنا في هذه الآية خطير. فهو تعبير صادق عن وقفة أمام الموت! وبهذا يصبح معنى اكتمال معرفتهم بأن كل ما للمسيح هو من عند الآب، يعني أنهم بلغوا إلى حد الصلة التي تربطهم وسوف تربطهم إلى الأبد بالمسيح، لا كإنسان بعد، لأنه هو بحد ذاته استعلان الآب؛ فإزاء الموت الذي كان كفيلاً سابقاً أن يفك بل أن يقطع كل رباط بين الإنسان والإنسان، «الأن» لن يجرؤ الموت أن يصنع هذا مع المسيح بالنسبة لتلاميذه!! لذلك، فهو يدخل إلى محنة الموت واثقاً من متانة الرباط، الذي لن تفصم عرى العلاقة التي تربطهم به!!

٨- لأَنَّ الْكلاَمَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ وَهُمْ قَبِلُوا وَعَلِمُوا يَقِيناً أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ وَآمَنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي.

المسيح يصعد بالدرجات نفسها التي صعدها التلاميذ، موضحاً أولاً أن حفظهم كلمة الآب المُعلنة بالمسيح وفيه، هو الذي أوصلهم إلى معرفة أن كل ما للمسيح هو من الآب، ثم يرتقي إلى درجة اليقينية التي بلغوها، موضحا أن سرها كان في أن المسيح سلمهم تلسيما وأعطاهم عطاء كل ما استلمه وكل ما أعطاه له الآب، وكان قبولهم للكلمة هو سر يقينهم بكل هذا. وهذا في الحقيقة أحد الأسرار المخفية في الإنجيل بخصوص كلمة الله أو وصيته وأوامره، فإنه بمجرد قبولها بالإيمان على أساس تصديق الله تصديقاً مطلقا لا يقبل افتراض الشك ولا يطلب البرهان، ولا يعتمد على المشاعر والعواطف المخادعة، بل تصديقاً قلبيا دون تدخل العقل الفاحص، فإن الكلمة، أو الآية أو الوصية أو الأمر الإلهي، يتحول في القلب إلى قوة تنفيذ!! فكلام الله ووصاياه، مهما بلغت في مظهرها الخارجي أنها صعبة التنفيذ أو حتى بلغت حد الاستحالة لدى العقل، فإنه بمجرد قبوها بالتصديق الكامل، تبدأ قوتها الكامنة تعمل في الحال. فكلام الله يحمل قوة تفيذه في داخله لدى الذين يؤمنون بصدق الله وأمانة وعده.

وعليك أيها القارىء أن تلحظ ذلك في ترتيب الأفعال التي جاءت في هذه الآية:

أعطيتهم الكلام، وهم قبلوا (بالإيمان)، وعلموا، يقيناً، وآمنوا باليقين، وبالنهاية بلغوا الإدراك الكلي الواثق بالمسيح ورسالته أنه خرج من عند الآب، كخروج الشعاع من مصدر النور، وأن الآب أرسله لتكميل الفداء والتقديس. هكذا يتحول القبول بالتصديق إلى علم، ثم إلى يقين، ثم إلى إيمان واثق، فاستعلان للحق. أي من علم إلى خبرة حية وشركة!! وعلى هذه الخبرة الحية والشركة الفعلية تأسست كنيسة الله التي نحيا خبرتها وإيمانها الحي اليوم. ولكن تبقى الحقيقة الاولى والأعظم أهمية «قبلوا»: «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله.» (يو ١:١٢)

«علموا يقيناً»: هنا الترجة العربية جاءت بتصرف، فهي «علموا حقاً وبالحقيقة». فالعلم بالحق، هو أكثر من

اليقين. لأن الإنسان قد يتيقن من العلم بالشيء، ولكن يظهر ان يقينه جاء غير صحيح. ولكن إن كان العلم هو عن حق، أو باكتشاف الحق، فهو الاستعلان الإلهي، لأن الحق هو الله؛ وهذا العلم بالحق لا يقبل الزيف على وجه الإطلاق. على أن قبول العلم بالحق لا يأتي بالفهم والملاحظة أو المنطق والقياس، ولكن قبول الحق يأتي بالخضوع والطاعة المذعنة تحت سلطان كلمة الله! وهذا يُنشيء، ليس مجرد إيمان أعمى بالعقيدة، بل إيماناً يسنده استعلان الحق، إيماناً منفتحاً على الله. فالإيمان الحقيقي هو حياة وسلوك في نور معرفة الله، والإيمان الحقيقي يظل حياً بالكلمة يستمد نموه من سرها بلا انقطاع.

«أني خرجت من عندك، وآمنوا أنك أنت أرسلتني»: «أني خرجت من عندك» هي نفسها «أنك أرسلتني»؛ ولكن الأول هو فعل الابن والثاني هو فعل الآب. الأول يفيد عملية التجد، والثاني يفيد عملية الصليب ومهمة الفداء.

والمسيح سوف يبني على هذا المعنى قوله فيما بعد: «إني لست من هذا العالم»، وسوف يبني عليه إيمان التلاميذ بأنه خرج من عند الآب، وأن الآب أرسله، وأنهم أيضاً أصبحوا ليسوا من هذا العالم، باعتبار أن إيمانهم بهذا يفصلهم عن العالم ويضمهم إلى الابن الذي خرج والآب الذي آرسله!! إذ تصبح حياة التلاميذ مستمدة من الله كأصل وجودهم وليست مستمدة من العالم!!

والعالم رفض المسيح وذبحه، وبذلك أثبت أن المسيح ليس منه، وكذلك التلاميذ، فقد رفضهم العالم بشدة وقتلهم، وأثبت أنهم ليسوا من العالم (يو١٥:١٨-٢١). ويعلق على ذلك القديس يوحنا في رسالته الاولى بقوله: «لا تتعجبوا يا إخوتي، إن كان العالم يبغضكم» (١يو٣:١٣). «هم من العالم، من أجل ذلك يتكلمون من العالم، والعالم يسمع لهم. نحن من الله، فمن يعرف الله يسمع لنا، ومن ليس من الله لا يسمع لنا.» (١يو٤:٥-٦)

٢- كيف كان يحفظ التلاميذ، وقد حان وقت تركهم:

٩- مِنْ أَجْلِهِمْ أَنَا أَسْأَلُ. لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ الْعَالَمِ بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لأَنَّهُمْ لَكَ.

«أنا أسأل»: تأتي بمعنى «أصلي»، وهكذا ترجمت بالإنجليزية: I pray، وهو نوع رفيع من السؤال. وهذا الاصطلاح، وان كان شائعاً في العهد الجديد في معاملة الناس في التخاطب معاً وليس للصلاة، إلا أن القديس يوحنا قد اختص به فقط دون جيع الأسفار، في مخاطبة الله. فهو سؤال يُقدم كطلب، بدالة، ولم يستخدمه إلا المسيح في مخاطبة الآب.

هنا السيح يفرق بين الذين لله وبين الذين عليه. فالذين كانوا لله الآب وأعطاهم للمسيح الابن، هؤلاء الذين «قبلوا» كباكورة لجميع الذين «يقبلون» الابن حتى نهاية الدهور، هم الأعمدة التي ستقوم عليها الكنيسة وتبقى وتدوم.

المسيح هنا يطابق الصوت القائل لإرميا النبي: «وأنت فلا تصلى لأجل هذا الشعب، ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة، ولا تلح علي لأني لا أسمعك» (إر٧:١٦). والسبب قاله المسيح، ردا على سؤالهم: «إلى متى تعلق أنفسا؟ إن كنت أنت المسيح، فقل لنا جهرا؟ أجابهم يسوع: إني قلت لكم ولستم تؤمنون... لأنكم لستم من خرافي» (يو١٠:٢٤-٢٦)، وأيضاً: «لو كان الله أباكم، لكنتم تحبونني، لأني خرجت من قبل الله وأتيت؛ لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني. لماذا لا تفهمون كلامي، لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولة (= كلمتي «لوغس»). أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يو٨:٤٢-٤٤)

أما من جهة محبة الله للعالم ومحبة المسيح له، والتي كلفته ذبيحة نفسه على الصليب من أجل كل العالم، فهي قائمة لا تثتنيها الصلاة ولا تتغاضى عنها، فذبيحته نفسها هي أعظم صلاة قُدمت لخلاص كل العالم: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١:٢٩). ولكن المسيح يصلى هنا خاصة من أجل الذين سيتركهم في العالم، العتيد أن يضطهدهم ويقتلهم أيضاً!

فالعالم المحبوب من الله سيرد الحب إيماناً، والذين لا يؤمنون سيُخرجون أنفسهم بأنفسهم من دائرة حب الآب وذبيحة الابن. المسيح أمرنا أن نحب أعداءنا ونبارك لاعنينا ونصلي من أجل الذين يسيئون إلينا ويطردوننا، لأنه بذلك يُستعلن فينا حب المسيح، وتُستعلن ذبيحة صليبه، ويتجلى الفداء والبذل. فإذا رأى ذلك الأعداء يؤمنون، واذا لم يؤمنوا ربحنا نحن أنفسنا.

والمسيح هنا يسأل ويصلي من أجل الذين سيقعون فريسة اضطهاد العالم الذي استثنى نفسه من إيمان المسيح وحب الآب؟ فمن أجل هؤلاء، هو لا يسأل، لأنهم أوقعوا أنفسهم تحت دينونة وليس تحت تشفع صلاته: «الآن دينونة هذا العالم.» (يو١٢:٣١)

١٠- وَكُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي وَأَنَا مُمَجَّدٌ فِيهِمْ.

هذا مو المعيار الجديد الذي يضع الآب والابن على مستوى واحد يقوم على أساس تبعية أو ملكية التلاميذ، أي المؤمنين فرادى أو ككنيسة. فالتلاميذ، وكذلك المؤمنون، يُعتبرون تابعين لله الآب، بقدر ما هم تابعون للمسيح. وبمعنى أعمق، يعتبر الإيمان بالمسيح تأكيداً لتبعية المؤمن لله الآب. وكذلك، فإن المؤمن بالله، يصير إيمانه حقيقة مؤكدة، إن كان يؤمن بالمسيح ويتبعه، ذلك لأن استعلان حقيقة الله هي كائنة بصورة فريدة في المسيح يسوع الابن المتجسد.

فالآن، ها هو المسيح بنفسه واقف يسأل الآب ويصلي من أجل تلاميذه، أليس ذلك تأكيدا لصدق تبعيتهم لله والمسيح، وعلى أنهم يستمدون من الله والمسيح حياتهم ووجودهم، وليس من العالم؟! وهذا هو سر صلاة المسيح لأجل تلاميذه، والمؤمنين، والكنيسة ككل، التي باستمداد حياتها ووجودها من الآب والمسيح، أصبحت ليست من هذا العالم، وبالتال فإنها أصبحت في حاجة شديدة، بل وتستحق كل استحقاق، أن يسأل المسيح الآب من أجلها، ولو أن الآب نفسه يحب كل من أحب الاب، فهو لا يحتاج بعد أن يسأله المسيح من أجلها.

ولكن في قول المسيح: «وكل ما هو لك فهو لى»، نقلة سرية إلى التعريف به، أي بشخصه، أكثر من التعريف بمن هو له. فقول المسيح: «كل ما لي فهو لك»، يمكن أن يقوله كل واحد. ولكن قوله لله الآب: «وكل ما لك فهو لي»، هو قول لا يجرؤ عليه ملاك ولا إنسان، كان من كان، أو أي مخلوق، غير الابن الذي له ما للآب وهو واحد معه. هذا يحققه لنا سفر الرؤيا، بأن يعطي للمسيح ما للآب تماماً هكذا:

+ «قائلين بصوت عظيم: مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة، والغنى، والحكمة، والقوة، والكرامة، والمجد، والبركة.» (رؤ٥:١٢)

ثم يعود سفر الرؤيا ويعطي لله الجالس على العرش هذه السبعة العظائم هكذا:

+ «وخروا أمام العرش على وجوههم، وسجدوا لله قائلين: أمين. البركة، والمجد، والحكمة، والشكر، والكرامة، والقدرة، والقوة لإلهنا إلى أبد الآبدين. أمين.» (رؤ٧:١١-١٢)

لذلك، فقول المسيح بعد ذلك: «وأنا ممجد فيهم» واقع في دائرة ما للآب حتماً وبالضرورة. فإن كان المسيح ممجداً

فينا، فهو بالتالي تمجيد للآب. فالمسيح هنا يقدم للآب واحداً من أعظم نجاحاته أكمله لحساب الله: أن صار الإنسان البائس العاجز مصدر تمجيد لله على مستوى استعلان حقيقة الآب والابن. وإن كان يبدو هذا أنه لحساب الله شكلاً، فالحقيقة هي أن الإنسان هو الذي فاز بهذه الرتبة العليا: أن يعطي المجد لله، ويلهج بتسبيح الآب وحب الابن.

وإنها لحقيقة جديرة بالتعريف والتأكيد، أنه ليس في جيع أعمال الإنسان وأقواله أعظم وأجل من أن يمجد الله ويسبح بمجده. فالتسبيح بمجد الله، هو عمل الملائكة، واكليل الأرواح البارة المكللة في السماء، التي لا تكف عن تقديس الاسم المبارك وتقديم الشكر والسجود المتواصل والمجد الدائم. يعرف هذا الذين يحبون التسبيح ويتقنون السهر فيه، ويعترفون بما حصلوه من بركات، وتحصلوا عليه من قربى ورؤيا وسماع!

«وأنا ممجد فيهم»: مرة أخرى يلزم أن نفهم أن تمجيد المسيح يعني «استعلان حقيقة» بنوته لله وطبيعته وصفاته وأعماله، والآن، قد أصبح المسيح مُستعلنا بكل صفاته في تلاميذه، بكل يقين الإيمان أنه ابن الله الآتي إلى العالم، وهو هكذا في الحقيقة: «وأنا ممجد فيهم»، حيث انطبعت فيهم صفاته، وذلك إلى الدرجة التي إن أردت فيها أذ تعرف من هو المسيح، فتأمل في حياة التلاميذ وسيرتهم وأعمالهم وكلامهم، فستعرف من هو المسيح حقاً. فالاستعلان بالنسبة للحقائق الإلهية هو شركة فيها، لذلك فالتمجيد والدوام فيه، هو الإرتفاع بالسيرة الذاتية من الأرض إلى السماء: «فإن سيرتنا نحن هي في السموات» (في٣: ٢٠). لذلك، فالتسبيح بمجد الله والمسيح هو دخول سرى في ذلك المجد.

١١- وَلَسْتُ أَنَا بَعْدُ فِي الْعَالَمِ وَأَمَّا هَؤُلاَءِ فَهُمْ فِي الْعَالَمِ وَأَنَا آتِي إِلَيْكَ. أَيُّهَا الآبُ الْقُدُّوسُ احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ. الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا نَحْنُ.

«ولست أنا بعد في العالم»: هنا علة هذه الصلاة بمجملها، فلولا أنه قد أكمل رحلته، ووجه وجهه شطر السماء لما صلى من أجلهم، إذ كان يكفيهم أنه معهم. ولكن الأن وقد حان الوقت أن يتركهم وحدهم ليدخل في عمله الأعلى طبيعةً وشأناً، وهو أن يتراءى أمام الآب متشفعاً عنهم؛ لذلك وقف يمارس مقدماً عينة منظورة من عمله غير المنظور والدائم إلى مدى الدهور، عن الذين له، طالما بقوا وحدهم في هذا العالم.

«وأنا آتي إليك»: الفعل «آتي» في المضارع الدائم، والمقابلة بين حالات المسيح الثلاث التي فيها يوصف المسيح أنه «آت»، تحتاج إلى تأمل:

١- «أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم.» (يو ١١: ٢٧)
٢- «وأنا آتي إليك أيها الآب القدوس.» (يو ١٧: ١١)
٣- «آتي أيضاً وآخذكم إلي.» (يو ١٤: ٣)

وكأن الزمن ملغى، فهو آت باستمرار إلى العالم، وآت إلى الآب وآت إلينا ليأخذنا! ولكن لكل حالة فعلها الخاص بها، وكل حالة مترتبة عل ما قبلها، وهي تبدو وكأنها جديدة، مع أنها ليست بجديدة. فالزمن وحده يتغير عندنا، أما عنده هو فلا يتغير: «بعد قليل لا تبصروني ثم بعد قليل أيضاً ترونني» (يو١٦: ١٦)، «ولست أنا بعد في العالم»، و«لا أترككم يتامى، إني آتي إليكم» (يو١٤: ١٨)، «وأنا آتي إليك»، «وأنا لست وحدي لأن الآب معي.» (يو١٦: ٣٢)

تأمل في ذلك بولس الرسول فقال:

+ «وأنت يا رب (يعني المسيح الذي مُسح بزيت البهجة أكثر من رفقائه)، في البدء أسست الأرض، والسموات هي عمل يديك، هي تبيد، ولكن أنت تبقى. وكلها كثوب تبلى، وكرداء تطويها فتتغير، ولكن أنت أنت، وسنوك لن تفنى.» (عب١: ١٠-١٢)

وأيضاً: «يسوع المسيح هو هو، أمساً واليوم وإلى الأبد.» (عب١٣: ٨)

ففي الظاهر الزمي، سيتركهم المسيح وحدهم؛ ولكن في الحقيقة، فإن ذهابه للآب هو دخوله في نطاق القوة الأكثر فعالية، وهذا يزيد من قربه إليهم، تماما كما سبق وقال عن نفسه: «وتتركوني وحدي، وأنا لست وحدي، لأن الآب معي.» (يو١٦: ٣٢)

ولكن الحقيقة الأشد عزاء، هو أنه طالما كان معهم على الأرض، فقد كانوا منه على بعد! ولكن لما تركهم وحدهم ذاهباً إلى الآب، أصبح وهو في السماء متحداً بهم وهم به متحدون، وعن قرب. لذلك كان يقول لهم مراراً: «إنه خير لكم أن أنطلق» (يو١٦: ٧)!! ولذلك عينه قال لتوما: «لأنك رأيتي يا توما، آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو٢٠: ٢٩). هذه الطوبى، هي الاتحاد عينه بالروح. أما إيمان العيان، فلا يزال يحتاج إلى الطوبى!!

والرؤيا العينية لا تفيد الإيمان شيئاً: «وأما الأن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي.» (يو١٥: ٢٤)، والعيان لا يسُعف اللحاق بالمسيح: «لا تقدر الآن أن تتبعني، ولكك ستتبعني أخيراً» (١٣: ٣٦)

ولكن عدم رؤياه، رؤيا العين، لا يمنع أن يرانا هو: «ولكني سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم» (يو١٦: ٢٢) فنمتلىء به حباً وفرحاً. «الذي وان لم تروه، تحبونه. ذلك، وإذ كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون به، فتبتهجون بفرح لا يُنطق به ومجيد.» (ابط١: ٨)

«أيها الآب القدوس»: بعد أن أوضح المسيح أن تلاميذه سيُتركون وحدهم في العالم، وأنه آت إلى الآب، يصبح دور الآب وارداً بصورة ملحة؛ وبسبب أن العالم قوة معادية للايمان ومركز تجارب، يكون الالتجاء إلى «قداسة» الآب أمراً حتمياً. فالنداء هنا من واقح الحال، وليس مجرد تسمية.

التجاء المسيح إلى «قداسة» الآب، هو بحد ذاته، يكشف عن خطورة وضع التلاميذ في غيابه بالنسبة لإمكانية ابتلاع العالم لهم. هنا تبلغ الصلاة ذروة توسلها الواقعي. فـ «قداسة» الآب هي حصن الذين في العاصف تجاه قدرة العالم على ابتلاع الضمائر الجزعة والواقعين تحت التهديد والوعيد والخوف أو الإغراء والترغيب.

هنا يبدو واضحاً، لماذا علمنا المسيح أن نخاطب الآب طالبين أن: «يتقدس اسمك». فهنا اللهفة في طلب تقديس اسم الآب، من حال واقعنا المهدد كل يوم ولحظة في العالم؛ فالشر محيط، والجذب عنيف، والإغراء ملبس بقوة شيطانية. فالالتجاء إلى اسم الله القدوس ليتقدس في حياتنا وأفكارنا وعيوننا وقلوبنا وضمائرنا، هو قوة غالبة وحصن منيع: «اسم الرب برج حصين، يركض إليه الصديق و يتمنع.» (أم١٨: ١٠)

وسوف تُكمل هذه الطلبة بالآية القادمة: «قدسهم في حقك»، حيث يُجري الآب فيهم فعل قداسته، ليحولهم من العالم إلى نفسه، من المستوى الجسداني إلى الروحاني، من الزيف إلى الحقيقة، من الزائل إلى الأبدي.

«احفظهم في اسمك الذي أعطيتني»: لقد أجمع العلماء المختصون بالمخطوطات أن «الذي أعطيتني» هنا تختص بالاسم وليس بالتلاميذ. وكذلك الاسم الوارد في الآية (١٢) الآتية بعد ذلك. ويقع هذا المعنى موقعاً لاهوتياً قويا وصحيحاً ، وهومطابق تماما لما جاء بالنبوة عن المسيح: «لأن اسمي فيه» (خر٢٣: ٢١). فالاسم هو

الاستعلان الحقيقي للشخص، والمسيح حاز هذا الاستعلان حيازة ذاتية لنفسه، فكان يقوله وكأنه له، أو كأنه هو هو «أنا هو»، وهو اسم «يهوه» في كل أسفار العهد القديم.

وحيازة المسيح لاسم الله، معناه حيازته الكاملة لطبيعة الله وقوته وصفاته، وهذا واضح من قول الله لموسى مُنبهاً بخصوص النبي الذي سيقيمه مثله أن «اسمي فيه»، بجعل عصيانه مرجباً للقضاء وللدينونة ولا غفران، وهو هنا يتكلم عن المسيح: «احترز منه واسمع لصوته ولا تتمرد عليه، لأنه لا يصفح من ذنوبكم، لأن اسمي فيه» (خر٢٣:٢١)، «وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكي تجثو، باسم يسوع، كل ركبة ممن في السماء، ومن على الأرض، ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب، لمجد الله الآب.» (في٢:٩-١١)

كل هذا يوضح أن المسيح يستعلن الآب استعلاناً ذاتياً، لذلك، يصبح معنى «احفظهم في اسمك الذي أعطيتي» يعنى «أعلن ذاتك لهم»، فهذا هو الحفظ البالغ منتهى القوة بالنسبة للإنسان الذي يواجه قوى العالم الشريرة!! وهذا الإعلان الذاتي لله، الذي هو الاسم في جوهر معناه، قائم في «الكلمة»، في الإنجيل، في تعاليم المسيح التي تركزت في استعلان الآب بالدرجة الاولى~ والمسيح بعد ما اكمل، باشر هذا العمل للتلاميذ: «فتح ذهنهم ليفهموا الكتب» (لو٢٤:٤٥). هذا هو نفسه استعلان ذات الله، وهو بعينه الحفظ الذي يعطي المناعة ضد قوى العالم السلبية.

وصلاة المسيح لكي يحفظهم الآب «في اسمك الذي أعطيتني» تطلب أن يثبتهم الآب في صفات أبوته، التي هي فعالة في المسيح كابن، لكي يعيشوا معاً في دائرة وجوده وعمله ومشيئته.

«في اسمك»: الاسم هنا طاقة وقوة. والحفظ هو، إما بإدخال التلاميذ في مجال فعل الاسم أي الاستعلان الذاتي، وإما شمول التلاميذ بهذه الطاقة لتدخل فيهم. الاول تكون بفعل استعلاني يجذب القلوب إلى مجال قوته، والثانية بفعل نعمة تنسكب داخل قلوبهم بحسب منتهى خيرية الله.

وفي التراث اليهودي التقوي الذي ورثته الكنيسة، فإن مجرد النطق باسم الله يدخلنا في مجال قوة عمله، وكأنه هتاف بحضور الله أو بالدخول في حضرته. وقد دخل ذلك في صميم الطقس الدعائي، فالصلاة تُفتتح باسم الآب والابن والروح القدس، والتقديس يتم بدعاء الاسم على الماء ليصير مقدساً للتقديس والتعميد، وعلى الخبز والخمر ليصيرا إلى الجوهر الجسدي الإلهي، وعلى رأس المريض وبدهنه فيشفى. وباختصار، فلا يجرى أي طقس في الكنيسة إلا بدعاء الاسم، الذي هو بمثابة الحضرة الإلهية. وباسم الله الآب والابن والروح القدس، تُبنى الكنيسة، وتتقوى، وتعمل، وتبشر. وبدون اسم الله الآب والابن والروح القدس، لا توجد كنيسة. لذلك، فكل عمل العالم هو أن يُخفي اسم الثالوث عن المؤمنين به، أو يزعزع سلطانه في القلوب، أو ينتزعه كلية بجحد الإيمان، أو الإلحاد، أو التمادي في الملذات التي تغمر القلوب ليُنسى الاسم.

على أن نسبة «القدوس» للآب، تفيد السلطان المطلق والفائق للآب، الذي يفصله كل الفصل عن الخطية والخطاة والعالم المخلوق الذي ينحرف عن التعبد له: «لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا، قدوس = بلا شر ولا دنس، قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات» (عب٧:٢٦). هنا، الجزء الثاني «انفصل عن الخطاة» شرح للجزء الآول «قدوس بلا شر»!!

ومن هنا تكون قوة قداسة الآب في حفظ تلاميذه والمؤمنين من سلطان العالم الخاطيء! «لأني (أنا) الله، لا إنسان، القدوس في وسطك، فلا أتي بسخط.» (هو١١:٩)

«ليكونوا واحداً كما نحن»: الوحدة المطلوبة هنا هي أساساً للحفظ، فاحفظهم في اسمك، لأنهم في العالم، بأن

تجعلهم واحداً. والوحدة ليست مجرد ألفة العشرة ورابطة المودة والإجماع على الرأي أو المشورة، بل هي وحدة الطبيعة التي تأخذ قوتها وتحقيقها وانسجامها الفائق من المسيح وفيه. فالمسيح في وحدة مع الآب، قائمة بحضور التجسد. والقصد أن قوة الوحدة التي في التجسد مع الإنسان، ثم قوة الوحدة بين المسيح والآب هي القوة التي يطلبها لنا لتجعل كل المؤمنين في المسيح واحداً. هكذا يطلب المسيح للتلاميذ أولاً أن يكونوا واحداً بهذه القوة، فتتكون الكنيسة في قوة الاسم.

والوحدة، كقوة نابعة من وحدة الآب والمسيح، والتي يطلبها المسيح، لا يقصد أن تأتيهم مفروضة عليهم من خارجهم، بل يطلبها لتنشأ فيهم من داخلهم، وذلك بثبوتهم في الاسم، وبالكلمة، وبالصلاة؛ الأمر الذي استجاب له الآب بقوة في تكميل وعده بإرساله قوة الروح القدس الفعالة لهذه الوحدة عينها، كما حدث فعلاً يوم الخمسين.

والإنسان ينزع بطبيعته إلى هذه الوحدة، ولكنه يُخطىء دائماً الوسيلة، كما اجتمع في بابل قديما. فالجمعيات والجماعات والمؤسسات والنوادي والرحلات والرياضات، كلها محاولات للوحدة، ولكنها وحدة كاذبة تجمع على الظواهر وليس على الحقائق والجوهر. تجمع على الراحة والفسحة والتسلية والمرح والمسرات واللهو، وكلها خدع يزول مع الوقت، وربما تؤول إلى الضد، وغالباً ما تنتهي بمزيد من الفرقة والعداوة والانقسام، وربما الخطية والانحدار للاستغراق في الفردية.

أما الوحدة الحقيقية، فهي التي يطلبها لنا المسيح في اسم الآب وحفظه وقوة استعلان ذاته وجذبه، وهي تقوم على تقديس الاسم واستعلان الحق الإلهي في الكلمة. لذلك، فالإنجيل والصلاة هما وحدهما منبع الوحدة بين أعضاء جسد المسيح. والوحدة ألتي طلبها المسيح وقد تمت بالفعل بقوة الروح القدس، هي الكنيسة الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية لقد كان الرسل والتلاميذ بذرتها الاولى، وصلاة المسيح كانت المخاض الذي وُلدت منه يوم الخمسين، وسر العلي الذي حفظها في العالم من العالم حتى اليوم!

وقوة الاسم، إذا تمسك بها كل واحد، هي بحد ذاتها قادرة أن توحد وترفع الفوارق بين طبائعهم، وتخفي ذواتهم عن أعينهم، وتخلي مشيئاتهم من أنفسهم، وذلك حينما يتوقف جذب العالم لشهواتهم ويتحرك الروح فيهم. وهذه هي الصورة التي أرادها لهم المسيح، فكانت:

+ «وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات. وصار خوف في كل نفس، وكانت عجائب وآيات كثيرة تجرى على أيدي الرسل. وجميع الذين آمنوا كانوا معاً، وكان عندهم كل شيء مشتركاً، والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع، كما يكون لكل واحد احتياج. وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة، وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب، مسيحين الله، ولهم نعمة لدى جميع الشعب. وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون.» (أع٢:٤٢-٤٧)

ولكن لنعد إلى: «أيها الآب القدوس احفظهم»، فالوحدة التي يطلبها المسيح هي داخل نطاق عمل الاسم القدوس، فهي وحدة تقديس وطهارة. لأنه خارج القداسة والتقديس، يوجد العالم؛ والقداسة والتقديس في مضمونها الفعلي هي الانفصال عن ما هو للعالم. هنا تكون الوحدة التي تجمع التلاميذ، هي بشد كل منهم وانفصاله عن ما هو للعالم، وهذا لا يتم إلاّ بالانجذاب المشترك نحو الآب والقداسة لتستمد الجماعة أو الكنيسة حياتها من مصدر خارج العالم، من قربهم من الآب والابن، من قوة استعلان الآب وعمله بالإنجيل. أما هذا الاتجاه التقديسي فسيوفي المسيح حقه في بقية الصلاة والتوسل (يو١٧:١٧-٢٣).

وبعد أن يعمل اسم الآب في الجماعة، أي الكنيسة، ويوحدها معه وفيه، تبقى أبعاد أسرار هذا الاسم فائقة عن الزمان الحاضر. ففي هذا الاسم يكمن الميراث المحفوظ لنا في السموات: «من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس: من يغلب فسأعطيه أن يأكل من المن المخفى، واعطيه حصاة بيضاء، وعلى الحصاة أسم جديد مكتوب لا يعرفه أحد غير الذي يأخذ.» (رؤ٢:١٧)؛ «وهم سينظرون وجهه، وأسمه على جباههم.» (رؤ٢٢:٤)

٣- العمل السابق والعمل اللاحق

١٢- حِينَ كُنْتُ مَعَهُمْ فِي الْعَالَمِ كُنْتُ أَحْفَظُهُمْ فِي اسْمِكَ. الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي حَفِظْتُهُمْ وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ ابْنُ الْهلاَكِ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ.

إن صلاة المسيح التي يقدمها في هذا الأصحاح هي أصلاً لإلغاء الفوارة الزمنية، في اعتبار العناية الإلهية. ويكاد المعنى يكون هكذا: لما كنت معهم في العالم بالجسد، كنت أحفظهم في اسمك، والأن لا تتركهم أنت حينما آتي أنا إليك، بل اشملهم بحفظك ورعايتك. وهذا ينسحب، بالتال، على كل الأجيبال الآتية هكذا: هذا الجيل، جيل التلاميذ، أنا كنت معهم بالجسد أحفظهم، فالأجيال القادمة ليكن نصيبهم محفوظاً في اسمك الذي هو اسمي: «عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.» (مت٢٨:١٩)!

كنت أحفظهم ... حفظتهم ......: الفعل الآول: «كنت أحفظم» وتعني «سهرت عليهم»، والفعل الثاني: «حفظتهم» بمعنى «حرستهم» سهرت عليهم بالتعليم، فحفظت قلوبهم باستعلان الحق في اسمك. وحفظهم، وحرستهم، وحميتهم من جذب العالم، وذلك بأن حصرت قلوبهم في دائرة معرفتك.

والفعلان يفيدان قدرة المسيح على استعلان اسم الآب، أي صفاته، لهم وتعليمهم بكلماته وتعريفهم بكل ما عند الآب. وهذا بالطبع ظل مدخراً لنا بالإنجيل، كما علم به تلاميذه، مضافاً إليه الاستعلان الفائق بالروح القدس الذي أصبح يعرفنا بكل الحق، ويذكرنا بكل ما قاله المسيح.

والآن، وقد ذهب إل الآب وجلس عن يمينه، أصبح وجوده أكثر وضوحاً لنا الآن مما كان بالجسد مع تلاميذه آنذاك.

«ولم يهلك منهم أحد»: هذه ثمرة الحفظ والسهرو الحماية التي أعطاها المسيح لتلاميذه، الذين أثمرت فيهم تعاليمه وكلماته المحيية واستعلانه لمحبة الآب التي قبلوها، فانسكبت في قلوبهم فلم يُفقد أحد، وظلوا محفوظين ومحروسين في الاسم وقوته. وكان الرب مرتاحاً لموقفهم، ولكن كان يقيته ذاك التلميذ الذي هو مزمع أن يسلمه!

«إلا ابن الهلاك ليتم الكتاب»: كان يهوذا في فكر الرب آنئذ، ولكن لم يذكر اسمه، لأن حساسيته تجاه الخطاة كانت رقيقة للغاية، شأن الراعي الصالح، وقد بلغت ذروتها تجاه صالبيه: «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لو٢٢:٣٤). أما يهوذا فلم ينظر المسيح إليه منذ البدء كتلميذ قط، وإنما كابن الهلاك: «أليس إني أنا اخترتكم الاثني عشر، وواحد منكم شيطان، قال عن يهوذا سمعان الإسخريوطي، لأن هذا كان مزمعاً أن يسلمه، وهو واحد من الاثني عشر.» (يو٦:٧٠-٧١)

لقد دخل في جماعة الاثني عشر لكي يسقط منها، وصار تلميذاً لا ليتتلمذ على معلمه بل ليسلمه! لم يكن غنمة، بل ذئباً اندس في وسط الغنم. لم يكن من عمل الفادي أن يحرسه، بل أن يحترس منه، لم يستثنيه من تعليمه وحبه وثقته، شأنه شأن شسمه التي يشرقها على الخطاة، فقد سلمه الصندوق ليبرر وضميره تجاهه، وهو عالم أنه يسرقه، ووهبه ما وهب التلاميذ من الحب والثقة، ولكنه خانهما.

«ابن الهلاك»: إن وصف المسيح ليهوذا بهذه الصفة، لم يكن بقصد أن يدينه أو يحكم عليه، بل ليوضح لماذا فُقد وهلك. فيهوذا اختار ذلك لنفسه، وصمم عليه، ونفذ خطته، بالرغم من تلميحات المسيح وتصريحاته، بل وكسر كل العوائق التي وضعها المسيح في طريق خيانته، باللطف حيناً، والوعيد أحياناً، بالحب مرة وبتهديد الدينونة مراراً. ولكن في النهاية فرط فيه المسيح: «ما أنت تعمله، فاعمله بأكثر سرعة»!! (يو١٣:٣٧)، لذلك فـ «هلاك» يهوذا لا يحط قط من قدر المسيح، كمعلم، ولا يقلل من شمولية فدائه: «أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته، غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة. ولكنك من أجل قساوتك، وقلبك غير التائب، تدخر لنفسك غضباً في يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة.» (رو٢:٤-٥)

لقد اختار يهوذا بنفسه لنفسه الدور الذي تتم به النبوات ويكمل المكتوب، واختيار المسيح له مع الاثني عشر بالرغم من معرفته المسبقة لمصيره والدور الذي سيقوم به، ليتم الكتاب! «لست أقول عن جيعكم، أنا أعلم الذين اخترتهم، لكن ليتم الكتاب: الذي يأكل معي الخبز، رفع علي عقبه» (يو١٣:١٨). والكتاب المذكور هنا هو المزمور 9:41 «أيضاً رجل سلامتي، الذي وثقت به، آكل خبزي رفع علي عقبه»، والكلام هنا على أخيتوفل (اقرأ ٢صم١٧:٢٣).

«قد جعلت قدامك الحياة والموت ... فاختر الحياة لكي تحيا» (تث٣:١٩-). ولكن يهوذا اختار الموت دون الحياة.

أن يهلك إنسان وهو في رفقة المسيح وواحد من التابعين له حتى النهاية، لا يمكن إلا أن يكون «ابناً للهلاك». لقد اختار يهوذا أن يهلك من أعلى وأميز موضع للأمان والخلاص!! ولا عيب على المخلص، لأنه إن كان قد اختار الصليب لنفسه، فلا عيب أن يختار أدواته!

١٣- أَمَّا الآنَ فَإِنِّي آتِي إِلَيْكَ. وَأَتَكَلَّمُ بِهذَا فِي الْعَالَمِ لِيَكُونَ لَهُمْ فَرَحِي كَامِلاً فِيهِمْ.

المعنى هنا جميل وعميق للغاية، فالمسيح على الأرض يتكلم، ولكن من منطق تكميل الرسالة، وهو في حالة التأهب لترك العالم والانطلاق إلى الآب، فالكلام يأخذ طابعه الاخروي. والتلاميذ يسمعون حديث السماء وكأنه تم في السماء. والمسيح يقصد هذا قصدا، حتى يشعر التلاميذ بوجودهم في حضرة الابن والآب. فالكلام يخصهم. ووجودهم في حضرة الآب، يسمعون الابن متكلماً عنهم، يسأل ويطلب من أجلهم هو بعينه عينة من وجودهم الاخروي المزمع أن يكون، الذي يشددهم بالفرح الآخر أو الأخروي، وهو الفرح الكامل في طبيعته الأخرى، الذي سبق أن أعلنهم به: «اطلبوا تأخذوا، ليكون فرحكم كاملاً» (يو١٦:٢٤)، والأن هو يطلب، وهم بالسر يأخذون، ليكون فرحهم كاملاً فيهم! ومعروف في التقليد اليهودي أن الفرح لن يكون فرحاً كاملاً، إلا في أيام المسيا!

ولكن هنا فرح أعظم، وهو فرح الابن حينما يستودعه تلاميذه بأن يسلمهم إلى حفظ الآب القدوس.

فرح المسيح الخاص، الأن يبلغ ذروته وهو يترك العالم ذاهباً إلى الآب، وهو هو نفس الفرح الذي يريد أن يُسر به لتلاميذه عبر هذه الصلاة. إذ، وهم محفوظون ومحروسون في اسم الآب، يكونون وكأنهم قد انتقلوا من هذا العالم إلى الآب، أو بالحري انتقلوا من الموت إلى الحياة. ولم يعد للعالم سلطاناً عليهم!

هنا يطيب لنا أن نقول للقارىء، إن هذا اختبار حي يبلغه الإنسان بالصلاة، حينما ينطلق بروحه نحو الآب والمسيح، تاركاً العالم خلف ظهره، حيث يكون لسان حاله: «من لى في السماء، ومعك لا أريد شيئاً في الأرض.» (مز٧٣:٢٥)

٤- محنة التلاميذ في العالم

١٤ – أَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ كلاَمَكَ وَالْعَالَمُ أَبْغَضَهُمْ لأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ.

« كلاَمَكَ»: (كلمتك بالمذكر): المسيح يشدد على «أنا» باعتبار وجوده الكامل، مشيراً بذلك أن استعلانه لكلمة الله حققه بذاته وفي ذاته. ولما قبلوا استملان الآب وكلمته، و«تقووا من ضعف» (عب١١:٣٤)، وظهروا أمام العالم بشخصيتهم الجديدة وكلمة الآب في فمهم، أبغضهم العالم بغضاً بائناً قاطعاً، إذ لم يعد لهم شكل العالم ولا لغته!!

وهكذا إذ صارت لهم هيأتهم الأخروية الجديدة، نبذهم العالم، وعزلهم وأبغضهم، لما اعتزلوا هم العالم وأبغضوا أعماله. ولكن هذه هي بعينها هيئة الرسولية في العالم. جماعة تحيا الحياة الجديدة التي تستمدها من الله، مولودين ولادة جديدة أخرى من فوق بالروح من خارج العالم، ولكنها تعيش على درب الصليب المؤدي إلى الحياة الأبدية إلى فوقق، ولكنها تبقى في العالم لتتلقى منه الضربات الموجعة، لأنها ليست من شكله ولا تتكلم لغفته. هذه هي محنة الرسولية المحبوبة عندهم: «ودعوا الرسل، وجلدوهم وأوصوهم أن لا يتكلموا باسم يسوع، ثم أطلقوهم. وأما هم فذهبوا فرحين من أمام المجمع، لأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل اسمه» (أع٥:٤٠–٤١). وهذه المحنة عينها ورثتها الكنيسة عبر الدهور في الضيقات، تفتخر بآلامها من أجل اسمه، ككنيسة رسولية، لها سمات الرب يسوع، كأغصان مثبتة في الكرمة الحقيقية التي جذرها في السماء. وقد حسب خادم المسيح أن خدمته أفضل، إن كان يتلقى إزاءها ضربات أوفر!!

+ «ولكن الذي يجترىء فيه أحد أقول في غباوة آنا أيضاً آجترىء فيه ... أهُم خدام المسيح (الرسل)؟ أقول كمختل العقل: فأنا أفضل، في الأتعاب أكثر، في الضربات أوخر، في السجون أكثر، في الميتات مراراً كثيرة، من اليهود خمس مرات جُلدت أربعين جلدة إلا واحدة، ثلاث مرات ضُربت بالعصي، مرة رُجمت، ثلاث مرات انكسرت بي السفينة، ليلاً ونهاراً قضيت في العمق (المياه)، بأسفار مراراً كثيرة، بآخطار سيول، بأخطار لصوص، بأخطار من جنسي، بأخطار من الامم، بأخطار في المدينة، بأخطار في البرية، بأخطار في البحر، بأخطار من إخوة كذبة، في تعب وكد في أسهار مراراً كثيرة، في جوع وعطش، في أصوام مراراً كثيرة، في برد وعري.» (٢كو١١:٢١–٢٧)

ويلاحظ في هذا السجل الافتخاري بالآلام، أن بعضها كان بفعل الأعداء المقاومين لانجيل المسيح، ولكن بعضها أيضاً ساقها عليه رئيس هذا العالم بنوع من التعقب والانتقام. فالذي ينسحب من هيئة هذا العالم ليحيا الله، يدخل مباشرة في مواجهة سافرة مع العد ووآتباعه.

لقد وُهب للكنيسة أن تتألم، إنها الشركة السرية مع المسيح في آلامه، التي هي سمة المفديين والمعينين للحياة الأبدية، إنها إكليل المجد الذي سيوضع على رؤوس الذين يصبرون إلى المنتهى نظير إكليل الشوك الذي يتلألأ الآن على رأس المسيح، وهو جالس عن يمين العظمة في السموات.

إنها الزوفا التي يغسلنا بها المسيح الآن من قذر العالم، لنؤهل لمسحة الدم والخلاص.

المسيح هنا في هذه الآية، يدافع عن تلاميذه وكل المضطهدين من أجل اسمه، الذين سيشربون من كأس آلامه واضطهاده. المسيح هنا شفيع حقيقي، وباراكليت شرعى، له حق الدفاع، لأنه حامل ثوت المحاماة المغموس بدم صليبه، فهو وحده له حق إقامة الدعوى والخصومة ضد العالم الذي قتله بالغش والكذب والخداع، وذلك لحساب كل الذين يدخلون شهوداً لآلامه وصليبه، فقضية الصليب مرفوعة حتى إلى نهاية الدهر، واليهود يتوارثون الشهادة جيلاً بعد جيل: «تكونون لى شهوداً» (أع١:٨)؛ «روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لى، وتشهدون أنتم أيضاً.» (يو١٥:٢٦–٢٧).

١٥- لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ.

حين أعيى إيليا النبي من اضطهاد إيزابل، «سار في البرية مسيرة يوم، حتى أتى وجلس تحت رتمة، وطلب الموت لنفسه وقال: قد كفى الأن يا رب، خذ نفسي، لأنني لست خيراً من أبائي» (امل١٩:٤). ليست هكذا خدمة الرسولية والبشارة المفرحة بملكوت الله والمناداة بإنجيل الخلاص!!

المسيح هنا يوعي التلاميذ بصلاته، حتى لا يقعوا في خطأ إيليا، فلا يكلوا في الضيقات: «كي لا يتزعزع أحد في هذه الضيقات، فإنكم أنتم تعلمون أننا مرضوعون لهذا. لأننا لما كنا عندكم، سبقنا فقلنا لكم إننا عتيدون أن نتضايق، كما حصل أيضاً وأنتم تعلمون.» (١تس٣:٣-٤)

«من الشرير»: في اللغة اليونانية لا يتضح من هذه التسمية «الشرير»، نوع الجنس إن كان مذكراً أو محايداً. ولكن الذي أخذ به معظم العلماء، أنه مذكر وأنه يقصد الشيطان بالذات، رئيس هذا العالم، لأن الشر في العالم نابع من سيطرته على نفوس الناس : «والعالم كله قد وُضع في الشرير» (ايو٥:١٩). والاصطلاح «من الشرير» واضح. «وفي الشرير» هو المقابل لعبارة «في المسيح». فكما يعيش المؤمنون في دائرة قوة المسيح وحفظه، يعيش الأخرون في قوة الشرير وإغرائه. ومعروف أن علاقة الإنسان بالشر عى علاقة شخصية. والمسيح، وهو عالم بأصل الشر ومصدره، يصلي أن يحفظ الآب أولاده من سلطان وتأثير الشرير المخادع والمقتحم، ليس فقط من جهة أعماله الظاهرة، بل ومن سلطانه الخفي غير المنظور، حتى لا يقع أحد في حبائله: «لأننا لا نجهل أفكاره.» (٢كو٢:١١)

وحينما يضع المسيح هذه المقابلة بوضوح بين «لست أسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير»، فهو يؤكد رسوخ الكنيسة في العالم، كمكان عملها الوحيد، الذي ينبغي أن تتعاطاه بفرح في وسط الضيقات، كما يقول بولس الرسول: «تعلمون أننا موضوعون لهذا» (١تس٣:٣). والعالم، كما أنه مركز الشر، هو أيضاً بالكنيسة مركز الشهادة.

وحينما يقول: «بل أن تحفظهم من الشرير»، فهو يؤكد عمل الخدمة الرسولية في وسط الشر وتجاه الشر وفي وسط الأشرار، دون الرضوخ للشر أو التنازل معه أو إليه. فالحفظ من الشرير لا يعني الهروب من مواجهته، بل الهروب من إغراته وإغواته.

وصلاة المسيح من أجل التلاميذ أن يحفظهم الآب من الشرير، مرادفة لما جاء في الصلاة الربانية التي علمنا فيها المسيح أن نطلب النجاة من الشرير. وهو أيضاً تراث يهودي استلمه اليهود من يعقوب أب الآباء في أعطائه للبركة على أولاد يوسف: «الله الذي رعاني منذ وجودي إلى هذا اليوم، الملاك الذي خلصني من كل شر، يبارك الغلامين ...» (تك٤٨:١٥-١٦). وقد دخل الكنيسة منذ البدء كدعاء رسمي سجلته لنا الديداخي، والديداخي هو كتاب تعليم الرسل الاثني عشر(١٠٠م - ١٥٠م) اكتشف سنة ١٨٨٣م، في الصلاة الليتورجية على القربان الباب العاشر البند الخامس: [أذكر يا رب كنيستك، وأنقذها من كل شر، واجعلها كاملة في حبك].

وفي قول المسيح سابقاً: «احفظهم في اسمك»، وقوله هنا : «احفظهم من الشرير» ترابط شديد. فالاسم القدوس يحيط النفس بجو القداسة، وبستار الطهارة يخفي عن عينها الشر، ويبطل قوة العدو وسهامه فلا تصيبها. ولكن «احفظهم من الشرير» لا ينحصر المعنى في الحماية، بل ويمتد ليشمل المقاومة حتى الموت، لأن الأخطر أن ينهزم الإنسان أمام سطوة الشرير فيضع حداً لجهاده المرير ضد الشر، فيقبل غوايته منهزما، ويخضع لمطالبه. لذلك،

فدعاء المسيح لتلاميذه بالحفظ من الشرير يؤمن شهادتهم للمسيح، حتى ولو بلغ الضيق حد الموت: «لم تقاوموا بعد حتى الدم، مجاهدين ضد الخطية» (عب١٢:٤). فكلما تعاظم الضيق، تعاظمت الشهادة: «فلما سمعنا هذا، طلبنا إليه نحن والذين من المكان أن لا يصعد إلى أورشليم. فأجاب بولس: ماذا تفعلون؟ تبكون وتكسرون قلبي؟ لأني مستعد ليس أن أُربط فقط بل أن أموت أيضاً في أورشليم، لأجل اسم الرب يسوع» (أع٢١:١٢-١٣)، «وفي الليلة التالية وقف به الرب وقال: ثق يا بولس، لأنك كما شهدت بما لي في أورشليم، هكذا ينبغي أن تشهد في رومية أيضاً.» (أع٢٣:١١).

وقد كان، وأصبحت المصادمة مع الشر فرصة عظمى للشهادة.

٥- المسألة المطلوبة من أجلهم

١٦- لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ.

هذا تكرار يقصد به التعقيب على الآية السابقة والتمهيد للآية القادمة: فاحفظهم من الشرير، لأنهم ليسوا من العالم، كما أنا، ولأنهم ليسوا من العالم، قدسهم في الحق، حتى يحفظوا من الشرير، ويغلبوه كما غلبت!

وهنا «ليسوا من العالم» تعني أن حياتهم ورجاءهم وحبهم وفكرهم الشاغل أصبح من الله، وفي الله، وليس من العالم، أو في العالم. هنا أصبح الحفظ حقاً لهم، والتقديس جزاء واجباً يستحقونه. وقوله أنهم «ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم» يوضح أنهم استمدوا من المسيح هذا الكيان الفائق، أنهم أغصان مثبتة في الكرمة، وهو تلميح للاتحاد الكائن في المسيح بالتجسد، كيف حصل فيه الإنسان على الانتماء الكلي للاهوت!!؟

وهكذا انفتح الباب أمام البشرية أن تتحد بالله وتنجو من التبعية للعالم كياناً وفكراً وعملاً وهدفاً: «فإن سيرتنا نحن هي في السموات» (في٣:٢٠)، «فإن كنتم قد قمتم مع المسيح، فاطلبوا ما فوق» (كو٣:١)، «لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جداً.» (فى١:٢٣)

١٧- قَدِّسْهُمْ فِي حَقِّكَ. كلاَمُكَ هُوَ حَقٌّ.

«قدسهم في الحق»: الترجمة العربية جاءت بتصرف، فالأصل اليوناني هو: «قدسهم في الحق»، وليس «قدسهم في حقك»، أي دون إضافة.

الطلبة الأولى التي طلبها المسيح للتلاميذ كانت: «احفظهم في اسمك» و«أن تحفظهم من الشرير»، على أساس أنهم ليسوا مم العالم، وهم باقون في العالم. هذه الطلبة في حدود العالم: «لست أسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير.» (يو١٧:١٥)

الطلبة الثانية: «قدسهم في (حقك) الحق». هنا الطلبة جاءت خارج حدود العالم. الحقيقة هنا عميقة وممتدة، فالمسيح يطلب لتلاميذه من الآب النقلة العظمى لكيانهم الشخصي، من تبعيتهم للعالم إلى تبعيتهم لله، لتنقل حياتهم وأفكارهم ورغباتهم وتعلقاتهم من عالم الشهوات والماديات التي كانوا مرتبطين بها ومنفعلين لها، إلى حياة «الحق»، التي منها وبها تتغذى الأفكار والرغبات والتعلقات لخدمة الله، حيث يتصفى الجسد بتقديس الروح ويتنحى من القيادة العشوائية، ليعطي للنفس المتحررة من ربقة العالم والماديات القدرة على السيادة والحركة والانطلاق لتكميل خدمة المسيح الكفارية، بالبذل على مستوى المحبة المتطهرة.

المسيح يدرك عمق وخطورة هذه الطلبة التي نوه عنها فيما يخص نفسه قائلاً: «فالذي قدسه الآب وأرسله إلى

العالم، أتقولون له إنك تجدف، لأني قلت إني ابن الله» (يو١٠:٣٦). لقد قدسه الآب قبل أن يرسله، بأن أعطاه اسمه القدوس، وبالمعنى اللاهوتي الكامل أعطاه وجوده وحضرته بالكامل: «الآب الحال في» (يو١٤:١٠)»، «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم، مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه.» (تث١٨:١٨-١٩)

وها هوذا نفسه يطلب لتلاميذه أن يقدسهم الآب!! فلننتبه إلى علو وخطورة هذا الطلب: «قدسهم في حقك»، ثم يردف الطلبة حالاً بالإرسالية على مستوى تقديسه وإرساله هو: «كما أرسلتني إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم.» (يو١٧:١٨)

هنا يربط المسيح بين تقديس الآب له، وتقديس الآب لهم؛ هذا التوازي يحمل معاني كبرى؛ كذلك فهو قائم على أساس إرسال الآب له كما على إرساله لهم!! وهنا التوازي في الارسالية خطير، بل ويزيد الأمر ربطاً وانسجاماً وخطوره حينما يضيف أيضاً ومباشرة قائلاً: «ولأجلهم أقدس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضاً مقدسين في الحق» (يو١٧:١٩). الآب يقدسهم بالروح وهو يقدسهم بالدم!! أما تقديس المسيح لهم بالدم فمعروف، أما تقديس الآب فهو سر من الأسرار العالية.

والأمر يا قارئي العزيز تتعدى أهميته وخطورته حدود تلاميذه، فهو إنما يعلن بهذا قداسة الكنيسة وإرساليتها في العالم على أساس تقديس الآب والابن لها، فهو يطلب لها تقديس الآب من فوق من الأعالي لتصير كنيسة السماء على الأرض متغربة ولكن محفوظة بالدم، على أساس تقديس نفسه لها، حتى تبقى في العالم، وهي ليست من العالم، ويكون لها قوة وسلطان الله الآب والابن في تقديس أولادها واحداً فواحداً وواحدة فواحدة، لحفظهم من الحياة بحسب دنيا الغرور والشروو والماديات والشهوات والجسد، ثم نقلهم إلى الحياة بالروح في تقديس الحق.

ما هو تقديس الحق: إن صلاة المسيح لدى الآب من أجل تقديس التلاميذ، والكنيسة بالتالي، هي مبتدأ الأسرار، فهذا هو سر التقديس الأعظم الذي انحدرت منه وبمقتضاه كل الأسرار.

والتقديس في الحق هو بحد ذاته التخصيص لله وللحياة الأبدية، أو هو الانتقال من الخضوع والانفعال لأعداء الحق الثلاثة: العالم والجسد والخطية، ورأسها الشيطان أبو التزييف والكذب، إلى الحرية، حرية أولاد الله، من كل صور وخداعات العالم المتركزة في الخطية المتسيطرة بالغش على الجسد، بتزييف أوهام يغرسها الشيطان في الفكر والتصور والعاطفة، لينخدع لها الإنسان ويقبلها، فينطوي تحتها كعبد: « إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية.» (يو٨:٣٤)

الحق: الله هو الحق الكلي، والمسيح هو الحق، والروح القدس هو روح الحق. الحق واحد، بسيط، لا ينقسم أبداً، ولا يُرى منقسماً على ذاته.

العالم: «العالم كله قد وُضع في الشرير» (ايو٥:١٩). وهكذا بسبب تزييف الشيطان لكل ما هو حق فيه، لأنه لا يملك العالم بالحق، ولكن يملكه بالغش، ويملك الغش الذي فيه!!، لذلك جعله مركزا لانقسام والازدواج الصارخ فأصبح الخداع يحيط العالم، ويتغلغل أجمل ما فيه. فالجمال مثلاً: كل جمال تتربص به الخديعة لاصطياد الجهال. والفرح؛ كل فرح سرعان ما ينقلب إلى حزن، والفرح الذي لا يدوم هو خداع، والفرح الذي ينقسم على ذاته ويتحول إلى حزن يكشف عنصر الخداع في الفرح والحزن كليهما. لذلك يقول المسيح، فاضحاً عنصر الخداع في الفرح الذي يعطيه العالم، هكذا: «ولكني سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم.» (يو١٦:٢٢). وعلى مستوى

الفرح، يعطي المسيح السلام: «سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا.» (يو١٤: ٢٧)
هنا يكشف المسيح الازدواج المؤلم في السلام الذي يعطيه العالم، فهو سرعان ما ينقلب إلى قلق واضطراب وضيق يخنق النفس. وهكذا فالسلام الذي يمكن أن ينقلب إلى كآبة، هو خداع، السلام والكآبة كليهما.
والجسد: هو ملتقى الخداع الذي يبثه تزييف رئيس هذا العالم: «فإني أسر بناموس الله، بحسب الإنسان الباطن، ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني، ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي. ويحى أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت؟» (رو٢٢: ٢٤)
وبنظرة واحدة مرتفعة عن العالم، نرى كيف ينتهي الجسد ويؤول إلى فساد وتراب، فيتضح مدى الخداع الذي عاش فيه بين الصحة والمرض، والغنى والفقر، والشبع والجوع ، والعطش والإرتواء، والعلم والجهل، والمتعة والحرمان، والرضى والغضب، والاطمئنان والخوف، والنور والظلمة وأخيراً الحياة والموت؛ فبنظرة من الأعالى، ترى الروح وهي في مقرها السماوي مدى زيف هذا الازدواج المؤلم الصارخ الذي يعبث بالانسان ويظنه الإنسان، وهو واقع تحته، أنه حق، وهو الخداع والسراب، عين الخداع وعين السراب!!
ولكن ليس وحدها العين الروحية للنفس وهي في السماء تكتشف هذا الخداع، بل وعين الإنسان الذي تقدس بالحق هنا على الأرض، ودخل مجال تقديس الآب والمسيح، فقد أعطي له أن يرى مهزلة هذه الازدواجية، ولكن أعطي أن يعيش فوقها، ويراها، ولكن لا يُمسك منها؛ يعيشها، ولكن لا تعيش فيه، لأنه يحيا الحقيقة، يحيا النور الدائم والفرح الدائم والسلام الدائم، يأكل الخبز السماوي الباقي إلى الآبد، «المأكل الحق» فلا يجوع أبداً، ويشرب ماء الحياة ودم الخلاص المحيي فيرتوي أبداً ولا يعطش أبداً لأنه «المشرب الحق». ويحيا حياة الأبد، لا يخشى الموت وما يؤدي إلى الموت، فلا يموت أبداً «فقد انتقل من الموت» الخادع «إلى الحياة» الحقيقية التي ليس فيها موت أو خداع. والحق يعلو الزمن، وكل ما يغيره الزمن، وكل ما يفنيه الزمن. وهذا تاج الإنسان الذي قبل تقديس الآب والمسيح.
المسيح حينما أكمل كرازته، وضمن خلاص الإنسان وتحريره من الخطية وخداع العالم، قال قولته الغالية: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يو١٢: ٣٢). دينونة العالم يعني الحكم على الخداع والتزييف الذي فيه، بظهور الحق الإلهي، وبدء عمله على مستوى الإنسان. أما طرح رئيس العالم خارجاً، فهو بعينه عزل قوة التزييف، واستعلان قوة الحق التي بدأت تفرز الكذب والغش الذي يلف به الشيطان الخطية، والتي بها قتل الانسان لذلك دعاه المسيح : «قتالاً للناس من البدء.» (يو٨: ٤٤)
وهكذا، وبعد أن قال المسيح: «ثقوا، أنا قد غلبت العالم» (يو١٦: ٣٣)؛ صلى إلى الآب قائلاً: «العمل الذي أعطيتني لأعمل، قد أكملته» (يو١٧: ٤)، وعليه فقد استطاع أن يتقدم بطلبته العظمى الآن: «قدسهم في حقك»، بمعنى أن يملك الحق فيهم، فلا ينجذبوا قط إلى العالم، بل بالحري يكونون نوراً للعالم يبدد ظلمته الخادعة، ومصدر توبيخ يفضح أكاذيبه: «ولا تشتركوا في أعمال الظلمة غير المثمرة، بل بالحري وبخوها.» (أف٥: ١١)
تقديس الحق: ليس هو إجراء ظاهرياً، بل هو انفتاح الوعي الداخلي للانسان بقوة الروح الذي يسكبه الآب على التلاميذ، والذي كان يوم الخمسين قمة استعلانه. الوعي المسيحي بعمل الروح القدس يعمل على رفع رؤية الإنسان وإدراكه. فهو بسهولة يكشف كل خداع العالم والشيطان: «لأننا لا نجهل أفكاره» (٢كو٢: ١١)، وبالتالي، فهو يصبح قادراً على أن يتعامل مع الظلمة بكل أفكارها وأدواتها، يدركها منذ أول حركتها، ويطاردها، ويطردها، لأنه يكشف زيفها وخطورتها وعدمها: «قاوموا إبليس، فيهرب منكم» (يع٤: ٧)، هروب الظلمة أمام النور. لذلك، فالذي يسلك

في الحق، يغلب العالم! «فرحت جداً لأني وجدت من أولادك بعضاً سالكين في الحق، كما أخذنا وصية من الآب.» (٢يو٤)

القديس يوحنا أدرك قوة الحق وفعله ودخوله إلى العالم بالمسيح: «لأجل هذا أظهر ابن الله، لكي ينقض أعمال إبليس.» (١يو٣:٨)

«النور»: وهو التعبير عن الحق في أوسع معانيه، مُشخصاً في المسيح يسوع، وقد جاء إلى العالم، فارتكز الحق على الأرض ارتكازاً أبدياً مشخصاً ومستعلناً في المسيح وكلمته وأسراره وإنجيله وكنيسته.

ولكن الحق ليس كالكذب، وليس كالخداع الذي يغوي الجهال، فالحق لا يستهوي إلا من انفتحت بصائرهم، فاستحلت النور في مصدره، أما الذين يستهويهم الزيف والوهم والكذب والحق المغشوش، فلا يرون في النورنوراً بل حرماناً لملذات وهمية مائتة: «النورقد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور» (يو٣:١٩). فالإنسان الأعمى لا يرى إلا ما هو تحت رجليه!!

وليس الانجذاب إلى الخداع هو قطيعة مح النور فحسب، بل إنه ولكي ينفضح عنصر الكذب والكذاب الذي فيه، فإن محب الظلمة تجده باغضا للنور أيضاً: «لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور، ولا يأتي إلى النور (الصلاة، الكنيسة، خدام الله) لئلا توبخ أعماله.» (يو٣:٢٠)

ولا يمكن أن يتقابل الحق مع الكذب والخداع، أو صاحب هذا مع صاحب ذاك، فهذا كأس حياة وهذا كأس موت، ولا يمكنك أن تجمع النور مح الظلمة؛ ليس لأن الظلمة شيء أو لأن الكذب شيء، بل لأنه هو اللاشيء، وحتماً يؤول إلى العدم. الظلمة والكذب تأخذ وجودها الكاذب خلف الحق، فهي قائمة لأنها تزيف الحق وتزيف النور، ولولا النور ما كانت ظلمة، ولولا الحق ما كان كذب. فإذا عم الحق والنور يوماً، تلاشى الكذب والظلمة حتماً!!

«الله نور، وليس فيه ظلمة البتة» (١يو١:٥). هذا يقيناً، فهو الحق كل الحق. فالنور والحق ليسا صفات لله بل هما طبيعة قائمة فعالة فيه. فلا وجود للحق بدون الله، فهو صاحبه الوحيد. فالحق والنور قوى إلهية لا تُدرك قط في طبيعتها، لأن من ذا الذي يدرك طبيعة الله؟ وإنما نحن ندرك فعلها في الإنسان: في فكره، فينعكس النور على عقل الإنسان الواعي للمعرفة الفائقة فيخشع الإنسان أمام الله؛ وفي قلبه وروحه، فتنطبع المحبة، التي هي محصلة فعل النور مع الحق، فينجذب قلب الإنسان نحو الله. لذلك «إن قلنا إن لنا شركة معه، (ومسيرة ومعرفة لله)، وسلكنا في الظلمة، نكذب ولسنا نعمل الحق» (ايو١:٦)، «من قال إنه في النور، وهو يبغض أخاه، فهو الى الأن في الظلمة... وفي الظمة يسلك، ولا يعلم أين يمضي، لأن الظمة أعمت عينيه.» (ايو٢:٩و١١)

ثم ما هو سلام الله الكامل؟ إلآ حينما يملك الحق بالكامل؟ وما هو الإتضاع الحقيقي إلا حينما يُستعلن النور في قمة قوته؟ ثم ما هي القداسة أو التقديس إلا حينما تُستعلن طبيعة الله بمفاعيلها، فتحول طبيعة الإنسان القابلة للخداع والتزييف، إلى طبيعة محصنة بالحق وقوته، وبالنور وقوته، فلا يعود الإنسان يُحتل بكل ريح، بل يثبت في الله: «الله محبة، ومن يثت في المحبة، يثبت في الله والله فيه.» (ايو٤:١٦)

أما الحق، وأما النور، فقد استعلنا للعالم في شخص يسوع المسيح: «أنا هو نور العالم» (يو٨:١٢)، »أنا هو... الحق...» (يو١٤:٦)، بالقوة في الأعمال الإلهية، وبالفعل في حياة شخصية ملؤها الحب الذي بلغ قمته في الصليب وفي أعمال المسيح وحبه المبذول، استعلنت أبوة الله فيه واستعلنت بنوته الفريدة لله، فكانت قمة الحق الذي عرفناه فتحررنا من الخطية التي ملكت علينا، ومن الشيطان الذي أفسد وعينا، ومن العالم الذي زيف الحق

في أعيننا، هذا عندما فدانا الابن بدمه، وكفر عن كل ذنوبنا، وجمعنا في جسده، ووحدنا وقدمنا إلى الله أبيه، فتبنانا.

ومن جهة هذا التحصيل الحاصل، يقول القديس يوحنا: «إننا نحن من الله، والعالم كله قد وضع في الشرير. ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق، ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح» (ايو٥:١٩–٢٠). هنا يكشف القديس يوحنا قطبي الحق والخداع، في مواجهة. ثم يختم على استعلان معرفة يسوع المسيح هكذا: «هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية» (ايو٥:٢٠). نعم، فقد وضح أن المسيح هو الإله الحق بسبب الحق الذي استعلن فيه لنا، إذ لم يوجد به غش، وإذ قام من الأموات ونلنا منه خلاصاً ونصرة على العالم: «من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله» (ايو٥:٥). والحق الذي استعلنه المسيح وعاشه، أعطاه كما عاشه، فأثبت بالفعل أنه هو الإله الحق، لذلك يضع القديس يوحنا مقابل المسيح الألهة الكاذبة بغشهم المفسود: «ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح... أيها الأولاد، احفظوا أنفسكم من الأصنام آمين» (ايو٥:٢٠–٢١)، وما الأصنام إلا أدوات عبادة الشيطان: المال بأمجاده الكاذبة، والملذات، والشهوات التي حللتها العبادة المغشوشة.

عبد الخطية المتعبد لملذات الجسد وشهوات النفس الجسدية، العائش في دنيا الأوهام، يشعر بنفسه شعوراً محدوداً ضيقاً وكأنه محصور في الجسد ودنيا الأطماع والجسديات. أما الذي تقدس بالروح لله وعبادته واستعلن له الحق، فإنه يشعر وكأن نفسه وروحه قد تحررتا من ضيق الجد وانحصار أطماعه ورغباته وملذاته الكاذبة، فلا يعود للجسد وجوده الطاغي وكأنه كل شيء، بل وتفقد الأمال والأطماع والملذات والشهوات جمالها المخادع، وتنحط قيمتها وتنحصر في عين الروح، وتنحط حتى تصير تحت قدميه، فتبدو مبتذلة يحيطها الندم، وتسرح الروح حرة في عالم الله الواسع، يقودها روح الله من حق إلى حق ومن سمو إلى سمو، فتكبر النفس مع الحقيقة وتتسع مع الحق، فلا تعود الدنيا تسعها باتساع آفاقها، إذ يبدأ الخلود ينبض في القلب فترتفع مدركات الروح، وتدخل في غبطة استعلانات الله، وهي تمتد نحو مصدر الخلود والحياة الحقيقية. وهكذا تبدأ النفس تخلع أردية أوهامها السابقة، وتندم وتتأسف على المشاعر الكاذبة التي لصقت بها، وتخلع أرديتها المزيفة من القلق والضيق والغضب والحسد والحقد والنقمة والخصام والتهديد والوعيد والحزن والكآبة مع الفرح الكاذب والتهليل المصطنع والآمال الترابية، التي هي كلها أبناء الزنى الروحي والجسدي ومخلفاته المخزية:

+ «لأنكم لما كنتم عبيد الخطية، كنتم أحراراً من البر، فأي ثمر كان لكم حينئذ من الأمور التي تستحوم منها الآن. لأن نهاية تلك الأمور هي الموت. وأما الأن، إذ أعتقتم من الخطية، وصرتم عبيداً لله، فلكم ثمركم للقداسة، والنهاية حياة أبدية.» (رو٦:٢٠–٢٢)

وبعد أن قال المسيح عن تلاميذه إنهم ليسوا من العالم كما أنه هو ليس من العالم، عاد وقال: «أما هؤلاء، فهم في العالم، وأنا أتي إليك» (يو١٧:١١)، ثم عاد وقال: «ولست أسال أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير.» (يو١٧:١٥)

واضح هنا أن التلاميذ كانوا قد بدأوا في الانسحاب من مظاهر العالم الكاذب، فلم تعد هذه المظاهر مصدر انفعال وقبول وحوارو تملك، ولم تعد حواسهم تعمل وفق العالم في غياب الله والحق؛ »وقد حفظوا كلامك» (يو١٧:٦)، فصار كلام الله حافظاً لهم، حارساً لانفعالاتهم، متدخلاً إزاء طغيان العدو إذا طغى. هنا تنبري قوة الحق في كلام الله، تعمل بسلطانها في قلب الإنسان، لضبط القوة المخادعة الشريرة التي دأبت على تخريب طبيعة الإنسان،

لضمها إلى سلطان رأس التخريب والخراب.

وهكذا يأتي طلب المسيح من أجل تقديسهم في الحق: «قدسهم في حقك»، لكي يصيروا مكرسين للحق وخدمته، يمسكون بالحياة الأبدية فيصيرون في مأمن من مزيفات عدو الحق. يعيشون في العالم خارج مظاهر العالم وأغلفته الكاذبة، لأنه حينما يتحررون من كذب العالم وخداعه، لا يكون من داع بعد لأخذهم من العالم، بل بالأولى بالعمل فيه بروح الله، وهوروح الحق، لإبطال خداعه: «يبكت العالم على خطية، وعلى بر، وعل ديونة» (يو ١٦:٨)

«كلامك هو حق»: كلام الحق، أو الكلام الذي هو حق، ليس حروفاً مكتوبة، ولا منطوقة أو مسموعة، ولا مصورة في الذهن، بل هو استعلان للوعي الداخلي للانسان. وما «الكلمة» إلا مرشد وقائد ومشير للروح الأمينة المصدقة لله، المفتوحة العينين، المستعدة للمقابلة!

«الكلمة» تقود الذهن الملتهب بالحب والوقار لتدخله إلى حضرة الله الآب، فترتسم على صفحة النفس صورة الله ينقشها شعاع نور الحق، فتتعدل النفس، وتتبدل وتتصحح وتتقدس، حيث تحترق منها كل شوائب الخداع والظنون والجهالة، وكل صور العالم الكاذبة، وتنطبع فيها ملامح الله في القداسة والحق! «كما هو حق في يسوع، أن تخلعوا من جهة التصرف السابق الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور(الخداع)، وتتجددوا بروح ذهنكم، وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق.» (أف٤:٢١-٢٤)

«كلام الله» هو واسطة الدخول إلى الله، «الكلمة» هي باب ينفتح على طبيعة الله القدوسة. لا أحد يدخل عبر«الكلمة الحق» إلى الله إلا ويتقدس. ولكن العبرة ليست في «الكلمة» في حد ذاتها، تلك المكتوبة أو المقروءة، ولكن العبرة في النية والقصد والضمير التي بها نقترب «للكلمة» كما يكون الاقتراب إلى الحق. فإن لم يكن القصد هو الدخول إلى الله، وان لم يكن القصد من الدخول إلى الله هو كشف الحال وتغيير الأحوال، ونوال التغيير، والتقديس حسب الوعد، فالكلمة تفوتنا، ونحن نفوتها: «لذلك يجب أن ننتبه أكثر إلى ما سمعنا لئلا نفوته» (عب٢:١). فلنعلم، بكل يقين الإيمان والاختبار، أن الكلمة في الإنجيل كانت ولا تزال إلى الأبد مصدر تقديس ملايين من نفوس أولاد الله، الساعين لمعرفة الحق وخدمته: فقد فتحوا الإنجيل برعدة الخطاة، واقتربوا من الكلمة وكأنها كنز الحق، فانفتح لهم الكنز، فاغترفوه ، وصاروا قديسين بالحق والعمل والشهادة.

كل هذا، كان السبب فيه ومنشأه وقوته صلاة المسيح من نحو تلاميذه والكنيسة: «قدسهم في الحق. كلامك هو حق»! فصار التلاميذ قديسين مقدسين في الحق. نطقوا الحق، وعلموه، ثم كتبوه، فكان لنا إنجيلاً ناطقا بقداسة هؤلاء التلاميذ وبالحق الذي قدسهم.

١٨- كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَمِ أَرْسَلْتُهُمْ أَنَا إِلَى الْعَالَمِ.

تقديس التلاميذ الذي يطلبه المسيح من الآب، يطلبه ليس لكي يترفع به التلاميذ وينعموا، بل ليقتحموا به ظلمة العالم، وليحطموا به أعظم بناء بنته الآلهة الكاذبة لأكبر إمبراطورية ظهرت في العالم، والتي استولى عليها الشيطان كملك وجلس في هياكلها كإله. قداسة التلاميذ لم تزدهم مجداً في عين العالم، بل سخرية وشقاء وبلاء وسجنا وسيفاً وقبر شهادة. كانت إرساليتهم إرسالية آلام. ولكن آلام هؤلاء القديسين كانت كفيلة بأن تهدم حصون الشر. وعلى أنقاض أعمدة الباطل وقبابه، قامت كنيسة الله، عمود الحق وقاعدته.

المسيح الكلمة، قدسه الله، وأرسله إلى العالم (يو١٠:٣٦) ليشهد لحق الآب، فشهد وذُبح. «هكذا» أرسل المسيح تلاميذه إلى العالم، ليشهدوا وهم تحت حد السيف وعلى الصليب عينه.

«كما أرسلتني... أرسلتهم»: «كما» = «كاثوس» وهي هنا لا تفيد المشابهة، بل تفيد الشرح والتوضيح، حتى إنه لا يصح أن نفصل أبداً إرسال الآب للمسيح عن إرسال المسيح لتلاميذه، فالثانية مشروحة ومستمدة من الاولى. وكما كان لا بد من تقديس المسيح مُسبقاً لكي يُرسل إلى العالم: «الذي قدسه الله، وأرسله إلى العالم...» (يو١٠:٣٦)، كذلك فإن تقديس الآب للتلاميذ كان ضرورة حتمية، حتى يستطيع المسيح أن يرسلهم إلى العالم: «كانوا لك، فقدسهم في حقك، لكي إذا ما أعطيتهم لي، أرسلهم».

كان نظر المسيح مثبتاً نحو إرساليته التي قدسه الآب لها، وكان ينظر إلى استمرارها. لهذا أعد منذ البدء الذين سيرسلهم، اختارهم، وتلمذهم، وأعلنهم بكل ما عند الآب، وأسماهم أحباء، لأنه أخذهم من يد الآب: «كانوا لك، وأعطيتهم لى» (يو١٧:٦)، كانوا عبيد يهوة الأتقياء، المختارين من نسل المختارين! وصاروا مسيحيين. لقد قدمهم إلى الآب أبيه، كأولاد وليس بعد عبيداً، جاهزين للتقديس، لأنه كان قد أعد لهم موطناً آخر، الموطن الذي منه أتى: «هؤلاء (أصبحوا) ليسوا من العالم كما إني لست من العالم». ونجح أن ينقل قلوبهم، فلم يعودوا يطلبون وطنهم الأول بل وطناً أفضل أي سماويا. ولما أتت الساعة، وتحتم الفراق والانطلاق، أوصى الآب أن يقدسهم تقديس من يرسلهم.

ولينتبه القارىء إلى تسلسل الأفكار. فإن تقديس الآب المُسبق للمسيح، أهله أن يقول: «أنا لست من العالم»، وهذا آهله للرسالة. وليس التلاميذ كالمسيح، إذ تحتم أن يصيروا أولاداً«ليسوا من العالم»، ليتأهلوا للتقديس، ثم الإرسال.

١٩- وَلأَجْلِهِمْ أُقَدِّسُ أَنَا ذَاتِي لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً مُقَدَّسِينَ فِي الْحَقِّ.

ليس إنسان قط بمستطيع أن يقول: «أقدس ذاتي»، بل ولم يُعط للانسان قط أن يُقدس تقديساً، فالتقديس هو عمل الله وحده؛ لأن التقديس هو أن يصير الإنسان من خاصة الله. فالله وحده هو من يعين خاصته، ويقيمهم تحت ولايته وخدمته ونعيمه. وللانسان فقط أن يطلب التقديس، ولكن لا يعطيه قط. هو يطلب أن يكون من خاصة الله، ويظل يرجو ذلك رجاءً.

أما المسيح، فهو يرد على تقديس الله له بأن يستجيب بنفس القدر والقصد» فيقدس ذاته للآب تقديساً، وهنا، تقديس الآب للابن يتساوى مع تقديس الابن نفسه للآب، فهذا بحد ذاته إعلان مساوته في الألوهية: بمعنى أنه بقدر ما اختار الآب أن يخصص الابن المتجسد ليمثله في العالم تمثيلاً، بقدر ما استجاب المسيح وقطع على نفسه أن يحيا ويموت له وحده خاصة، وقد أكمل، حتى بحياته يتقدس تلاميذه لله أبيه، باتباع تعاليمه ووصاياه التي أخذها من الآب وأعطاها لهم، وبموته يموتون هم أيضاً عن العالم موتاً، فيتقدمون كذبائح لله وللحق: «وأما من جهتى فحاشا لي أن افتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح، الذي به قد صُلب العالم لي، وأنا للعالم» (غل٦:١٤).

في العهد القديم الذي جاء المسيح ليكمله ثم يستوفي قصده، كان التقديس لله هو من نصيب البكر. والسيح هو بكر، بحكم مولده البشري، وبكر بحكم قيامته من الأموات حياً بالروح القدس، أي بكر الخليقة الجديدة: البكورية الاولى وضعته تحت حكم التقديس، والبكورية الثانية آهلته أن يقدس هو الناس. كما أنه هو بكر الله لأنه الابن الوحيد للآب ليس عن ولادة ولكن بالطبيعة، فالوحيد (المونوجانيس) بالطبيعة هو بكر بالتسمية أو اللقب: «هو يدعوني أنت أبي، إلهي وصخرة رجائي. وأنا أيضاً أجعله بكرا أعل من ملوك الأرض» (مز٨٩:٢٦-٢٧)؛ «وأيضاً متى أدخل البكر إلى العالم يقول ولتسجد له كل ملائكة الله.» (عب١:٦)

والمسيح، باعتباره البكر المقدس لله يقول عنه سفر العبرانيين إنه دخل العالم ليصنع مشيئة الله حياً ومذبوحاً: حياً

بطاعته الكلية، ومذبوحا لتقديس الإنسان:

+ «عند دخوله إلى العالم [«متى أدخل البكر إلى العالم» (عب١:٦) _ يقول ذبيحة وقرباناً (حيوانياً) لم تُرد ولكن هيأت لي جسدا. بمحرقات وذبائح للخطية لم تسر. ثم قلت (أنا) هأنذا أجيء، في درج الكتاب، (مز٤٠:٦)، مكتوب عني لأفعل مشيئتك يا الله. إذ يقول آنفاً إنك ذبيحة وقرباناً ومحرقات وذبائح للخطية لم ترد ولا سررت بها، التي تقدم حسب الناموس. ثم قال: هأنذا أجيء، لأفعل مشيئتك يا الله: ينزع الأول لكي يثبت الثاني: فبهذه المشيئة نحن مقدسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة.» (عب١٠:٥-١٠)

فإذا فحصنا هذه الإشارات معاً بترتيب، يتضح من تقديس البكر لله حسب العهد القديم وتعبيره: «إنه لى» (خر١٣:٢)، أن المسيح يكشف سرا كان مكنوناً في الأزلية وخطيراً! وهو أن الله سبق أن قدسه بالمشيئة وأرسله للعالم. ذلك كله في المشورة الآزلية ليكون الابن المتجسد «مخصصاً لله في العالم» كمرسل، وذلك لتقديس البشرية. هذا هو المعنى: «فبهذه المشيئة نحن مقدسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة».

ثم أن النبوة تأتي في (مز٤٠:٦)، لتكشف التمهيد لهذه المشيئة الآزلية: أن الله رفض الذبائح والقرابين، ولم يسر بالمحرقات؛ إذ صارت مشيئة الآب متركزة في تقديم المسيح الذي سبق فخصصه، أي قدسه، لتكميل هذه المشيئة، فهيأ له جسداً يُكمل به هذه المشيئة.

ثم يعود المسيح ويكشف كيف طابق مشيئة الآب بمشيئته الخاصة الحرة، كابن في الأزلية، وذلك في نفس المزمور ٤٠:٨ بقوله مجيباً لمشيئة الآب هكذا: «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت». أي أن مشيئة الآب، من نحو تقديم المسيح ذبيحة عوض كل الذبائح المرفوضة التي لم تكمل مسرة الآب، طابقت تماما وفي الآزلية أيضاً مشيئة الابن الشخصية في تقديم جسده بمسرة، كذبيحة خطية من أجل العالم. بمعنى أن مشيئة الآب صدرت للابن، كوصية منذ الآزل، وقبلها الابن في الأزلية، ونفذها بالجسد في ملء الزمن كيسوع المسيح.

وهكذا، وفي إنجيل القديس يوحنا، يكشف المسيح عن التطبيق العملي لنبوات العهد القديم التي التقطت صورة مسبقة لما دار بين الآب والابن في الأزلية، عما سيحدث حتماً في الزمن، وذلك حسب قول المسيح نفسه عن نفسه، أنه حان الزمن ليكمل الوصية، هكذا: «لأجلهم أنا (الآن) أقدس ذاتي». ويجيء سفر العبرانيين ليكشف هذه الدراما، في صورتها الأزلية وفي توقيعها العملي على مسرح الزمن، ثم ينتهي بذلك إلى مفهوم التقديس في العهد الجديد: «فبهذه المشيئة نحن مقدسون»!! سواء المشيئة بصورتها الأزلية أو بتطبيقها العملي: «بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة» (عب١٠:١٠). وقول سفر العبرانيين هذا، يوضح بأجلى بيان ما قاله بولس الرسول أيضاً من جهة هذه المشيئة الأزلية في رسالته إلى أفسس: «كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم، لنكون قديسين، وبلا لوم قدامه في المحبة، إذ سبق فعيننا للتبني، بيسوع المسيح لنفسه حسب مسرة مشيئته.» (أف١:٤-٥).

كما عاد وأوضحها، بقوة، في رسالته إلى تيموثاوس: «الذي خلصنا، ودعانا دعوة مقدسة، لا بمقتضى أعمالنا، بل بمقتضى القصد والنعمة التي أُعطيت لنا في المسيح يسوع، قبل الأزمنة الأزلية» (٢تي١:٩)

«ليكونوا هم أيضاً مقدسين في الحق»: يلاحظ أن كلمة «الحق» جاءت في اليونانية في هذه الآية بدون «أل» التعريف، فهي تترجم ليس «الحق» بل «حقا» أو «بالحق». يعني ليس تقديساً اسمياً، كما كان يجري في العهد القديم بإجراء ظاهري، ولكن تقديس إلهي من عمل الله نفسه. وتقديس التلاميذ الذي يهدف إليه المسيح هو على مستوى تقديس ذاته هو: «ولأجلهم أقدس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقديسين بالحق»؛ لأن تقديس المسيح لذاته

هو صميم الحق. والمعنى ها عميق وخطير، وهو يرمي إلى أن المسيح قدس حياته تقديسا روحيا لله أبيه؛ وقدس موته: أي أن ذبيحة نفسه قدمها لله خاصة، لا على مستوى الظاهر كذبائح الحيوانات التي كانت تقدم قديماً على مذبح المحرقة المصنوع بالأيدي، بل ذبيحة فائقة في طبيعتها وجوهرها، إلهية، دمها دم أزلي، حي بروح أزلي. لذلك كان تكفيرها مطلقا غير محدود، من جهة فعلها، على مستوى المكان والزمان والحياة. هذا هو تقديس المسيح لذاته في حياته ومماته. وهكذا هو يطلب لتلاميذه أن يكوذ تقديسهم لله من داخل فعل تقديسه، ليس بالمظاهر والاسم، ولكن بأن يشملهم تقديس ذبيحته، ليحسبوا أمام الله الآب مقدسين بالحق وقديسين بلا لوم (أف١:٤)، لهم رائحة المسيح الذكية لدى الآب (٢كو٢:١٥)، والتي «اشتمها أبوه وقت المساء عل الجلجثة» (التسبحة اليومية، ثيئوتوكية الأحد)، رائحة حياة لحياة (٢كو٢:١٦)

ومرة أخرى، يلزم التفريق بين تقديس المسيح لذاته، فهو (   )، هو«الحق»: هو «الله». أما تقديس التلاميذ فهو بالحق، أو حقاً، فهو إنعام إلهي. وبالمعنى العملي، فإن ذبيحة المسيح أعلنت لاهوته بالقيامة من الأموات، لأنها لم تكن ذبيحة ميتة قابلة للفساد، بل ذبيحة لم تر فساداً، حية بلاهوتها للحياة، لذلك صارت مُحيية. أما ذبائح التلاميذ، في حياتهم بالكرازة وفي موتهم بالاستشهاد، فهي ذبائح ناطقة شاهدة بموتهم للأب والمسيح. «دماء الشهداء بذار الكنيسة».

ذبيحة المسيح ذبيحة الحق المحيي التي فتحت الطريق إلى الحياة الأبدية. وذبائح التلاميذ والشهداء والكنيسة ذبائح مؤهلة للحياة الأبدية، وخدمتها، أي الكرازة بها. ذبيحة المسيح هي ذبيحة تقديس البكر، بكر الإنسان وبكر الله. فكان هو البكر الذي دخل إلى العالم: «متى أُدخل البكر إلى العالم، يقول ولتسجد له كل ملائكة الله» (عب١:٦)؛ والبكر القائم من الأموات: «الذي هو البداءة» بكر من الأموات، لكي يكون هو متقدماً في كل شيء» (كو١:١٨). فلذلك، أصبح التلاميذ والكنيسة المنتصرة كنيسة أبكار بالضرورة: «ربوات هم محفل ملائكة، وكنيسة أبكار، مكتوبين في السموات» (عب١٢:٢٢)؛ لأن قداسة بكورية المسيح الإلهية شملت، إخوته في الموت، أحباءه الذين أحبوه وماتوا من أجله كما مات هو من أجلهم: «لأن الذين سبق فعرفهم، سبق فعينهم، ليكونوا مشابهين صورة ابنه، ليكون هو بكرا بين إخوة كثيرين.» (رو٨:٢٩)

والسؤال في الختام، هل صرنا مقدسين في حق المسيح، في ذبيحته وقيامته وحياته؟ إنها لا زالت طلبة المسيح من أجلك ومن أجلي. إنها عطية تُسأل، فتُعطى، وتُدرك بالكلمة والسر والإنجيل، فتُعاش. والحق لا يصير حقاً فينا، إلا بالتقديس. والقداسة سيرة، قوامها جحد العالم والالتصاق بالله: «نظير القدوس الذي دعاكم، كونوا أنتم أيضاً قديسين في كل سيرة.» (ابط١:١٥)

تذكرة: «المكسور لأجلكم» (١كو١١:٢٤) ..... «يُسفك من أجل كثيرين.» (مت٢٦:٢٨)

هذا الدعاء لتقديس التلاميذ: «قدسهم في حقك ... من أجلهم أقدس أنا ذاتي»، ينسحب على الماضي القريب، عل ما تم في سر العشاء، والحبيب جالس وسط أحبته، يطعمهم لحم آلامه، خبز السماء الذي تشتهي الملائكة أن تطلع عليه، أو يسقيهم دم تقديسه بيديه! وبشيء من التعمق في المعاني والمقاصد، نجد أن كل ما صلى به المسيح في يو ١٧، إنما هو تفسير مستيكى لما جرى على العشاء الأخير، في نفس الليلة، فالربط الروحي الخفي بينهما وثيق!

أما كلمة «السر» التي تصل الفعل التقديسي بالدعاء، فهي «لأجل» و«من أجل». فالجسد المكسور بالنية أمامهم

ولأجلهم أخذه بالروح وأعطاهم بالسر، كسر آلام ذبيحته، الآلام الشافية والمُحيية، وبالروح أيضاً سقاهم دمه المسفوك لأجلهم، وروحه الأزلى فيه قائم للتقديس، وهذا وذاك قال لهم إنه يُقدم »لأجلكم«.

فتقديس المسيح سلمه لنا في ذبيحته تسليماً، أكلاً وشرباً: «مآكل حق ومشرب حق» (يو٦:٥٥)

ولكي ينالنا ما نالهم ويكون التقديس لنا كما كان لهم، قال في دعائه الممتد عبر الدهور: «أنا أقدس» بالفعل الحاضر الدائم ولم يقل «قدست». فالأمر لم يكن محصوراً في تمثيل السر أو إعطاء نموذجه مرة، بل سرع قائم دائم فيه وفينا، فهو «مكسور» بصيغة الفعل الدائم: «هذا هو جسدي المكسور»، نعم، المكسور مع كل نفس مكسورة، و« هذا هو دمي الذي يُسفك»، أو «المسفوك» بفعل مضارع ممتد، مسفوك مع كل نزف ينزفه الإنسان إزاء آلام الزمان الحاضر من أجله: «إن كنا نتألم معه، لكي نتمجد أيضاً معه.» (رو١٨:١٧)

وتقديس المسيح أو قداسته هو مثل مجده ومثل بنوته لله، فهذه وان كانت كلها أزلية إلا أنها أستعلنت لنا «لأجلنا» لتكون لنا كما كانت له وسواء كانت قداسته، أو كان مجده أو بنوته لله فهذه كلها ليست صفات إلهية جامدة فيه، ولكنها صفات استعلنت استعلاناً، كعمل بالنسبة للعالم والإنسان، وكانت بقصد أن ننال نصيباً فيها. فتجسده وميلاده، كبشر، أعلن اتضاعه الفائق على كل اتضاع «من أجلنا». وموته الفدائي العجيب أعلن حبه التقديسي والأزلى الفائق والمتعظم على كل حب «من أجلنا». وقيامته أعلنت مجده العالى فوق أعلى السموات «من أجلنا». وهذا كله ليشمل الإنسان بكل شمائله وينقلنا إلى مستوى بنوته ليقدمنا إلى أبيه، لتحيا وتتجلى خليقتنا مقدسة في الله من جديد.

ولكن هل هذا كله محبوس ومقصور فقط للعصر الاخروي القادم، الذي نتحرق إليه شوقاً من خلف ستار الموت الكثيف.

إننا مدعوون إليه الآن لنحياه كما سنحياه هناك، هنا في وسط ضيق العالم الحاضر الخانق، كسبق مذاق أو عربون؛ وإلا فلماذا التقديس؟ والتقديس لا يُرى إلا على ضوء هذا العالم، لأن التقديس لا يعني لنا الأن إلا جحداً لهذا العالم بكل شروره وأباطيله ووسائله المملوءة غشاً وكذباً ورياءً: «لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير.» (يو١٧:١٥)

القسم الثالث

المسيح يصلى من أجل الكنيسة (يو١٧:٢٠-٢٦)

هنا يرتفع المسيح بصلاته من الواقح التاريخي، التلاميذ، إلى الأفق الممتد عبر الدهور؛ ومن الوحدة المحدودة للاثني عشر (آية ١١)، إلى الوحدة التي بلا حد : «ليكون الجميع واحداً»؛ ومن المعرفة المعلنة للتلاميذ بحضوره، إلى المعرفة المستعلنة بالروح والممتدة عبر العالم كله.

٢٠- وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هَؤُلاَءِ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكلاَمِهِمْ.

نظرة المسيح للكنيسة القامة لا تخرج عن حيز الفعل المضارع الحاضر الممتد: «الذين يؤمنون» وليس «الذين سيؤمنون»، وهكذا لم يجعل الكنيسة تحت رحمة الزمن المترامي، بعيداً عن عينيه المرفوعتين نحو السماء، ولا كأنها غائبة عن حضوره. فكما أنه يرى التلاميذ أمامه، ويسمعهم صوته، ويسأل لهم وعنهم، هكذا يرى كنيسة الألفي سنة الآن، وكأننا حاضرون نسمع له، تحت بركة يديه الموضوعتين على رؤوس تلاميذه.

«يؤمنون بي بكلامهم»: الترجمة العربية تصرفت، والأصل اليوناني: «يؤمنون بي بكلمتهم = اللوغس» . وفرق بين الإيمان بالكلام والإيمان «بالكلمة». فـ«الكلمة» في المفهوم الروحي الخالص «اللوغس» هي التعبير عن «الحق». لذلك جاء هنا التعبير عن الإيمان «الكلمة» وليس بـ«الكلام»، فهي ليست مسألة صياغة حديث أو كثرة ألفاظ، بمعنى أن الإيمان ليس منطوق كلمات، بل إن جوهره كلمة واحدة، وتعني الحق. وهذا المعنى مُضمر في الكلمة التي قبلوها من المسيح، والتي هي التعبير عن طبيعة «اللوغس». لذلك فـ«الذين يؤمنون بي بكلامهم» تفيد الذين يعيشون في الإيمان الحق، أو يعيشون في بالايمان!! وكأن المسيح يرى، على امتداد الدهور، الذين له، أمام عينيه، ويصلي من أجلهم!!

وهكذا، يكفينا أن نكون تحت مرمى ناظريه: «ولكني سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم.» (يو١٦:٢٢)

٢١- لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِداً كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي.

٢٢- وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ.

٢٣- أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي.

يُلاحظ أن المسيح تدرج في صلاته من أجل التلاميذ، من الحفظ في اسم الآب، إلى التقديس في الحق، ثم إلى الوحدة في الآب والابن.

هذا في الواقع تدرج منهجي؛ لأننا إذا حُفظنا في اسم الله، ونحن في العالم، فإننا نتأهل للتقديس في الحق، وإذا تقدسنا في حق الله، نتأهل لهذا الاتحاد في الله، الفائق الوصف.

موضوع الوحدة أو الاتحاد بالآب والابن في الأصحاح السابع عشر

أولا: الوحدة كما سبق وعلم بها المسيح تلأميذه قبل أن يجعلها موضوع صلاته لدى الآب: لقد وردت هذه الآيات المتوالية في الأصحاح السابع عشر، للتعبير عن الوحدة أو الاتحاد بالله في صلاة المسيح كالآتي:

١- فى الآية ١١: «أيها الآب القدوس، احفظهم في اسمك الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً كما نحن».

٢- فى الآية ٢١: «ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب في وانا فيك، ليكونوا هم أيضاً وحداً فينا».

٣- الآية ٢٢: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد.»

٤- الآية ٢٣: «أنا فيهم وأنت في، ليكونوا مكملين الى واحد».

وبالعودة إلى الأصحاحين العاشر والرابع عشر، نجد أن المسيح علم تلاميذه، كاشفاً سر الوحدة بينه وبين الآب، ثم مُعلناً عن قصده المبيت في نفسه، من جهة وحدة التلاميذ والكنيسة به هكذا:

١- يو١٠:٣٨: «ولكن إن كنت أعمل، فإن لم تؤمنوا بي، فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب في وأنا فيه». وهذا هو المقابل لآية الصلاة في يو١٧:٢٣.

٢- يو١٤:٢٠: «في ذلك اليوم، تعلمون أني أنا في أبي، وأنتم في، وأنا فيكم». وهذا هو القابل لآية الصلاة في يو١٧:٢٣.

ومن هاتين الأيتين، يتضح لنا منهج المسيح في بلوغ الوحدة:

+ فمن الآية (١٠:٣٨)، يقدم المسيح موضوع الوحدة بينه وبين الآب، أنه مطلب أساسي يتحتم أن نبلغه. أولاً

بالمعرفة وثانيا بالإيمان. «لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب في وأنا في الآب». أي أن يتم ذلك على أساسين:

الأول: الإيمان التصديقي بالروح، بدون برهان: «تؤمنوا بي».

والثاني: برهان الأعمال التي عملها المسيح، ولم يعملها أحد غيره: «فآمنوا بالأعمال».

وقد كانت هذه الآية هي التمهيد والسبب في الآية الثانية:

+ يو١٤:٢٠: والتي فيها يضيف المسيح على استعلان وحدته بالآب استعلان وحدتنا في المسيح والمسيح فينا، وبالتالي نحن (في المسيح) في الآب: «تعلمون أني أنا في أبي، وأنتم في وأنا فيكم».

وقد قدم المسيح هذه الحقيقة الإيمانية العظمى: «إني أنا في أبي، وأنتم في وأنا فيكم»، كاستعلان سيتم في وقته: «في ذلك اليوم، تعلمون»، وهو اليوم الذي فيه تحقق التلاميذ بالفعل من قيامة الرب وصعوده وجلوسه عن يمين الآب مُمجداً؛ و«ذلك اليوم» نحن نعيشه الآن، وكل يوم، متحققين من، ومُستعلنين بالروح والإيمان، الوحدة التي أكملها المسيح فينا ولنا مع الآب.

ثانياً: العلاقة الوطيدة بين «المعرفة» ووحدة الوجود المتبادل (الاتحاد) في إنجيل يوحنا:

على أساس ما سبق أن أوضحه المسيح من جهة استعلان الوحدة القائمة بين الآب والابن، نسوق إلى القارىء هذه العلاقة بين «المعرفة المتبادلة» و«الاتحاد المتبادل» كما يؤكدها إنجيل يوحنا.

١- «الآب يعرفني، وأنا أعرف الآب» (يو١٠:١٥) = المعرفة المتبادلة.

«ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيّ» (يو١٤:١٠) = الاتحاد المتبادل.

واضح هنا أن المعرفة المتبادلة في ذات الله، قابلها وجود متبادل، أي اتحاد.

هنا يلزمنا أن ننتبه، ونحن بصدد الحديث عن طبيعة اللاهوت، أننا نتعامل مع المطلقات. فمعرفة الآب للابن معرفة مطلقة، لذلك يقابلها حتمَّ معرفة الابن للآب معرفة مطلقة. وهاتان المعرفتان، اللتان هما معرفة واحدة بالضرورة، يقابلهما الوجود الكياني الكلي أو المطلق المتبادل بين الآب والابن، فالآب موجود كلياً في الابن، والابن موجود كلياً في الآب. وهذا الوجود هو مطلق، بحكم الجوهر الإلهي الواحد، لذلك فهو وجود كياني واحد: «أنا والآب واحد.» (يو١٠:٣٠)

ثم يعود إنجيل يوحنا، ويعطينا هذه المماثلة في الآب والابن على مستوى الإنسان والله، أي أن معرفة الانسان للآب والابن تنشىء وجوداً في الآب والابن، ولكن، بسبب أن معرفة الإنسان محدودة جداً، فوجوده في الآب والابن محدود بمعرفته.

٢- «لوكنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً، ومن الآن تعرفونه وقد وأيتموه» (يو١٤:٧) = معرفة الإنسان للآب والابن.

«ليكونوا هم أيضاً واحدًا فينا» (يو١٧:٢١) = اتحاد في الابن والآب. وعلينا أن ندرك: ما هو مستوى المعرفة هذه التي يقصدها المسيح؟

لأننا هنا بصدد معرفة توصل إلى الاتحاد، أومنبثقة منه، فهي ليست معرفة فكر؛ ويكفينا أن ندرك أنها معرفة تقابل أو تماثل على وجه ما، معرفة المسيح للآب: «أبي هو الذي يمجدنى، الذي تقولون أنتم إنه إلهكم، ولستم تعرفوه، وأما أنا فأعرفه» (يو٨:٥٤-٥٥). ونحن نعلم تماما أن هؤلاء الفريسيين يتقنون معرفة الله بالفكر، ويفتخرون بتفوقهم في المعارف الإلهية. ولكن المسيح يعتبر أنهم: «لستم تعرفونه»! إذن، هى معرفة كشف الحق، أو

استعلان الحقيقة الإلهية الغائبة عن اليهودى وأهمها وأخصها هي أن الآب والابن واحد، وأن الآب في الابن والابن في الآب. ومن قوله: «لو كنتم عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً»، يتضح أن المسيح يقصد بـ«معرفته»: استعلان بنوته للأب، وبالتالي فإن معرفته توصل حتماً لمعرفة الآب.

هنا «المعرفة» التي يقصدها المسيح هي استعلان الحقيقة الإلهية! وهذا بحد ذاته «سر الله». وسر الله لا يستعلن إلا للمدعوين للاشتراك فيه، أي الاشتراك في هذا السر، أي الشركة في حقيقة الآب والابن: «إن السيد الرب لا يصنع أمراً، إلا وهو يعلن سره لعبيده الأنبياء» (عا٣:٧). «سر الرب لخائفيه.» (مز٢٥:١٤)

القديس يوحنا يربط ربطاً مباشراً بين استعلان سر الله المخفي في الله، وبين الشركة في حقيقة هذا السر هكذا: «وقد رأينا ونشهد ونخبركم **بالحياة الأبدية**، التي كانت عند الآب **وأظهرت لنا**. الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به، لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا، **وأما شركتنا نحن، فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح**» (١يو١:٢-٣).

وبولس الرسول يربط أيضاً بين سر الله، واستعلان هذا السر المخفي، **ونوال الشركة في مضمون هذا السر، أي الشركة في المسيح** هكذا: «الذي في أجيال أخر لم يُعرف به بنو البشر، كما **قد اعلن** الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح، أن **الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده (الروح القدس)، في المسيح، بالإنجيل**» (أف٣:٥-٦)؛ «وأنير الجميع فيما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور في الله.» (أف٣:٩).

إذا، فكل من يُستعلن له سر الله الآب والابن، فإن هذا يعني أنه صار شريكاً في ميراث البنوة والحياة الأبدية، أي أنه يكون قد دخل في شركة مع الآب وابنه يسوع المسيح، بالروح.

ثالثاً. مستويات الوحدة التي يطلبها المسيح لتلاميذه والكنيسة

يو ١٧:٢١-٢٣

لو دققنا في عرض المسيح لطلبته التشفعية لدى الآب، من جهة «الوحدة المسيحية» نجدها على ثلاثة مستويات، في ثلاث طلبات، جاءت في الأصحاح السابع عشر مماثلة للثلاث صلوات، مع السجدات الثلاث التي قدمها في جثسيماني، كما جاءت في الثلاث أناجيل الأخرى:

المستوى الأول للوحدة: **«ليكون الجميع واحداً»**.

المستوى الثاني للوحدة: **«ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»**.

المستوى الثالث للوحدة: **« ليكونوا مكملين إلى واحد»**

المستوى الأول للوحدة: «ليكون الجميع واحداً».

لا يقصد المسيح هنا أن يجتمعوا معاً في وحدة أو اتحاد مظهري تحت اسم، تجمعهم أهداف واحدة، أو تجمعهم الأخلاق الواحدة أو الاسم الواحد أو حتى منطوق الإيمان الواحد! لأنهم هم مؤمنون جاهزون. لأن المسيح الآن يطلب من أجل «الذين يؤمنون بي بكلامهم»، أي يطلب الوحدة للذين هم جاهزون في الإيمان الواحد بالكلمة! لذلك يلزمنا أن نلاحظ أن الوحدة التي يطلبها المسيح تأتي هنا أعلى من الإيمان، ومكملة له. فهي وحدة داخلية جوهرية حقيقية بالروح، مثلها المسيح تمثيلاً بالوحدة الكائنة في الآب والابن!! والتي هي ليست وحدة إيمان ولكنها وحدة «ذاتية»، أي وحدة «كيان واحد وطبيعة»، وحدة ليس فيها ثنائية ولا كثرة.

ويلزما أن ننتبه أن المسيح يطلب هنا الوحدة، بعد أن أكمل طلبته لهم سابقاً أن «يحفظهم في اسمه القدوس» في العالم، ثم «يقدسهم في الحق»؛ والآن يطلب لهم، بعد أن تأهلوا بالحفظ في الاسم القدوس وتقدسوا في الحق، أن يبلغوا «الوحدة».

فلو انتبهنا أيضاً إلى ما حدث للإنسان بعد أن أخطأ آدم، كيف تفتت وتحطمت فيه صورة الله، وفقد وحدانيته التي كان يتراءى بها في حضرة الله؛ لفهمنا لماذا الآن يطلب المسيح للجميع هذه الوحدة؛ لكي، مرة أخرى، يتراءى بها أمام الله في هيئة «كنيسة واحدة» مقدسة بلا عيب!! هذا نفهمه بكل يقين من شرح القديس بولس الرسول في قوله: «وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلاً، والبعض أنبياء، والبعض مبشرين، والبعض رعاة ومعلمين، لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة، لبنيان جسد المسيح (الكنيسة)، إلى أن ننتهى جميعنا إلى وحدانية الإيمان، ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح.» (أف٤: ١١-١٣)

يلاحظ هنا هذا التدرج التكاملي: «وحدانية الإيمان»، ثم «معرفة ابن الله»، إلى «إنسان كامل»، إلى «دقياس قامة ملء المسيح»، وكل من هذه التأهيلات، حتمي لبلوغ الغاية، ولكن التدرج هام للغاية، فوحدانية الإيمان توصل إلى معرفة ابن الله، أي استعلان سر الله، أي سر علاقة الآب بالابن والحياة الأبدية. واستعلان سر الله بالمعرفة الروحية، يوصل إلى «الإنسان الكامل»، وهو قصد المسيح من صلاته من أجل الوحدة، أي الإنسان الغير منقسم على ذاته، الإنسان الجديد المنطبعة فيه صورة الله الواحد، المعبر عنه بـ«جسد المسيح السري»، أي الكنيسة، كنيسة الإنسان في المسيح، والمسيح في الإنسان، والتي لها بالضرورة «قياس قامة ملء المسيح».

هنا نفهم أن الله قسّم في الكنيسة المواهب على قدر استعداد وإيمان كل عضو فيها: «كما قسم الله لكل واحد مقداراً من الإيمان» (رو١٢: ٣)، لكي تعمل المواهب في الأعضاء، والأعضاء بالمواهب، لتكميل «وحدة الكنيسة» في كل شيء، حتى نبلغ في النهاية إلى صورة المسيح الكاملة، التي يعبر عنها بولس الرسول هكذا: «إلى قياس قامة ملء المسيح» (أف٤: ١٣). ولكن على الأعضاء من جهتهم أن «يجدوا للمواهب» (اكو١٢: ٣١). فمسئولية الوحدة، بعد أن أعطى الله كل إمكانياتها للكنيسة، أصبحت واقعة عليها وأصبحت الكنيسة مسئولة عنها: «مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام، جسد واحد وروح واحد، كما دُعيتم أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد: رب واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة» (أف٤: ٣-٥). وهنا أيضاً نلاحظ أن بولس الرسول يلح في طلب «الوحدة» للكنيسة، بممارسة التصالح الذي لا يهدأ لكي تكون الوحدة مماثلة (= «كما دُعيتم») للايمان الواحد الذي أخذوه!! أي أن الوحدة مطلوبة كضرورة حتمية، لأنها مطلب الإيمان، الأعظم، والأول والأخير.

وعلينا أن نلاحظ أن الأساس الأول، الذي بمقتضاه يطلب المسيح الوحدة عبر الدهور، هو من أجل «الذين يؤمنون بي، بكلامهم»؛ هذا الأساس يجعل الوحدة مؤسسة على الإيمان، أي أصالة «الكلمة» المسلمة من المسيح للرسل، ومن الرسل للذين على بعد. بالتقليد والتسليم الرسوليين وهذا ما عبر عنه بولس الرسول: «مبنيين على أساس الرسل والأنبياء، ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية.» (أف٢: ٢٠)

المستوى الثاني للوحدة: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا

هنا ينتقل المسيح في سؤاله من أجل وحدة الكنيسة في ذاتها، إلى الوحدة «فينا»، أي: في المسيح والآب!

واضح هنا أن بلوغ الكنيسة حالة الوحدة في ذاتها، هو الذي يؤهلها للاتحاد بالمسيح والآب، وهذا ظاهر من تسلسل الارتقاء بمفهوم الوحدة: «ليكون الجميع واحداً، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا».

فالطلبة بدأت أولاً بأن: «يكون الجميع واحداً»، كعطية من لدن الآب، يهبها للكنيسة بسكب مواهب الروح في أعضائها، هذا «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»، فوحدتهم في ذاتهم تصير سبباً ومناسبة لكي يصيروا واحداً في المسيح والآب، أي توحدهم في الابن والآب.

ولكن المسيح يعطى نوعية خاصة للوحدة التي يطلبها للكنيسة في ذاتها، لتحياها في الآب والابن، وهي وحدة: «كما أنك أنت أيها الآب فيّ وانا فيك»، «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» !!!

هنا يلزمنا أن نفهم الآتى: حدود التشبيه بين الوحدة الالهية القائمة بين الآب والابن، وبين الوحدة المطلوبة للكنيسة المتحدة لتحياها في الآب والابن.

أولاً: ماهية النموذج الذي يقدمه المسح: «كما أنك أنت أيها الآب فيّ وانا فيك».

يُلاحظ من هذا التصريح الإلهي أن المعنى ينصب في أن الكيان الذاتي للآب قائم في الابن، كما أن الكيان الذاتي للابن قائم في الآب. هذا يمكن فهمه بصورة أوضح، حينما ندرك أن «الأبوة» في الله هي خاصة بـ «البنوة». وكذلك البنوة في الله خاصة بالأبوة. بمعنى ان الآب آب للابن وحده، وان الابن ابن للآب وحده. كذلك أيضاً نفهم أن الابن ليس ابناً لنفسه، بل هو كله للآب؛ والآب ليس آباً لنفسه، بل هو كله للابن. هذا الوجود الكياني المتبادل كليا، يجعل للآب والابن «كياناً واحداً ذاتياً». وهذا يعني أن «الله واحد أحد»، أو أن الله ذات واحدة آب وابن.

هذه الخاصية الإلهية، لو أردنا تشبيهها مجرد تشبيه بما يمكن أن يكون لدى البشر من تشبيه، لتصوير الوحدة، فهي تعني أن لا يكون الإنسان لنفسه، وأن يكون قادرا على أن يعطي نفسه أو يبذلها لله، أو للآخرين من أجل الله. وهذا أكمله ابن الله المتجسد، كإنسان، حينما وضع نفسه لله، وأسلمها له حتى الموت، طاعة له وحباً، مبرهناً، على مستوى الناس، أن الابن كله للآب بالحقيقة!!! وكان ذلك نموذجاً لنا في كيف نطيع الله ونحبه، ونبذل النفس حتى الموت، فيصير الإنسان كلة لله! وهذه صورة عملية لبلوغ حقيقة الوحدة مع الله.

بولس الرسول بلغ هذه الصورة عملياً، وعبر عنها بقوله: «فأحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا في، فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي أحبني، وأسلم نفسه لأجلي» (غل٢:٢٠)، «كي يعيش الأحياء فيما بعد، لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام» (٢كو٥:١٥)، «ولكنني لست أحتسب لشيء ولا نفسي ثمينة عندي.» (أع٢٠:٢٤)

بولس الرسول بلغ الوحدة السرية في المسيح، وبالتالي في الآب، من واقح الحياة والاختبار الشخصي، قبل أن يطرح ذلك كعقيدة: «جسد واحد وروح واحد، كما دُعيتم أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد.» (أف٤:٤)

ثانيا: ماهية النموذج الذي يقدمه المسيح في قوله مخاطبا الآب: «كل ما هو لى فهو لك، وما هو لك فهو لى».

هنا يمهد المسيح، في صلاته، لمعنى الوحدة وكيفيتها بالنسبة للكنيسة. فكما عبر عن تبادل الوجود الكلي الذاتي بين الآب والابن لتصوير أعلى نموذج عن الوحدة في صورتها الإلهية المطلقة، يعود ويعبر عن هذه الوحدة ذاتها بتبادل «كل» مخصصات الآب للابن والابن للآب، كنتيجة حتمية لتبادل الوجود والكيان. فهي ليست وحدة ذات وكيان فحسب، بل وحدة مخصصات وامكانيات أيضاً. وهذه الخاصية الإلهية، لو اردنا تشبيهها مجرد تشبيه، بما يمكن أن يكون لدى البشر لتصوير الوحدة، هي تعني أن لا يكون لأحد شيء لذاته: «من سألك فأعطه، ومن أراد آن يقترض منك فلا ترده» (مت٥:٤٢). وقد بلغت الكنيسة الاولى هذا الحد من الوحدة العملية بالفعل: «وجميع

الذين آمنوا، كانوا معاً، وكان عندهم كل شيء مشتركاً. والأملاك والمقتنيات، كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع، كما يكون لكل واحد احتياج، وكانوا، كل يوم، يواظبون في الهيكل بنفس واحدة» (أع٢:٤٤-٤٦)، «وكان لجمهور النين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة، ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له، بل كان عندهم كل شيء مشتركاً» (أع٤:٣٢)؛ ولكن يلزم أن نفهم ذلك على المستوى الروحي.

ثالثاً: ماهية النموذج في محبة الآب للابن والابن للآب، الذي يقدمه المسيح ليكون معبراً عن الوحدة التي يطلبها من أجلنا في قوله: «ليفهم العالم أني أحب الآب» (يو١٤:٣١)، ومن قوله: «الآب يحب الابن، وقد دفع كل شيء في يده» (يو٣:٣٥)، كذلك: «كما أحبني الآب، كذلك أحببتكم أنا» (يو١٥:٩)، وأخيراً: «ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به» (يو١٧:٢٦)؟

المحبة المتبادلة بين الآب والابن، صفة جوهرية، أي هي من صميم طبيعة الله؛ لذلك فهي تبرز لتكون برهاناً على الوحدة المطلقة في الآب والابن. فالمحبة في الله ليست وليدة إرادة أو عاطفة أو انفعال، من واقع الصلة بين الآب والابن، ولكنها متجذرة أزليا في طبيعة الله، فهي صفة ملازمة حتماً للوحدة. لذلك، فحينما نأخذها نموذجاً لنا لتكون قرينة للوحدة المطوبة، فلا يجب أن نحسب أنها معيار أخلاقي يُحتذى به ليؤهل للوحدة، ذلك لأنها أعطيت لنا على مستوى التشبيه والتشبه، لأن حرف «كما» الذي يأتي دائماً للتشبيه هو على مستوى الشرح لا على مستوى المطابقة: «كما أحبني الآب» (يو١٥:٩)، «كما أحببتني» (يو١٧:٢٣)؛ وأيضاً تشديد المسيح على التمثيل بالمحبة الأزلية الكائنة بين الآب والابن: «لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (يو١٧:٢٤)، لا يقتصر فيها على التشبيه وإنما يقصد به أن هذه المحبة ستكون لنا مصدر انسكاب قوة محبة، عاملة فينا، وعلى مستوانا البشري. وهذا صار واقعاً بالفعل: «لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا، بالروح القدس المُعطى لنا» (رو٥:٥). هاا الحب المنسكب علينا من الآب بالروح القدس، هو أعظم برهان على حدوث وحدة حقيقية مع الآب والمسيح. وهذا جاء نتيجة لصلاة المسيح وتشفعه بالكلمة والدم!

ومن هذا نفهم أن المحبة التي يحثنا المسيح أن نحب بها، سواء بعضنا لبعض أو نحبه هو أو الآب، للتدليل على صدق بنويتنا لله أو وحدتنا في المسيح به، ليست على مستوى الأخلاق ولا العاطفة كإرادة تحضر وتغيب، ذلك لأن هذه المحبة هي محبة مُشابهة بل ومستمدة من محبة الآب للابن ومحبة الابن للآب، فهي محبة من طبيعة الروح لا الجسد، أي محبة فائقة للطبيعة البشرية، أو بالمفهوم الإلهي هي «موهبة» كما سبق وقلنا: «لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا».

من هنا تنقشع الغمامة التي تعتم الفكر، حينما يسأل الإنسان متحيراً: كيف نقيم حد الوصية: «أحبوا أعداءكم» (مت٥:٤٤)!! هنا استحالة أن يكون ذلك على مستوى الإرادة أو العاطفة!! ولكن هذا يمكن إتمامه فقط في حالة واحدة وهي أن تكون المحبة هي «محبة الله»، المحبة الروحية الفائقة، الموهوبة لنا، والعاملة بالروح القدس، لتذليل كبرياء الإنسان، وإعلاء لإتضاع المسيح. هذه المحبة التي سبق وأن عملت فينا ونحن أعداء الله وخطاة : «الله، الذي هو غني في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها، ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح، بالنعمة أنتم مخلصون» (أف٢:٤-٥ وراجع رو٥:٨و١٠). هذه هي المحبة القادرة بالفعل أن تحب حتى الأعداء، والتي سماها بولس الرسول بالمحبة الفائقة المعرفة: «وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أف٣:١٩)، والتي تكون أقوى دليل على أن الإنسان بلغ الوحدة مع الله، الذي أحب العالم، وهو يشرق

شمسه على الأشرار والأبرار سواء بسواء.

المحبة أحد إلتزامات الوحدة: واضح أن المحبة كوصية أولى وعظمى، كما طلبها المسيح لنا من الآب، وكما طلبها منا مرارا، ليست مفروزة كعمل أخلاقي كما سبق وقلنا، لأن العمل الأخلاقي يعجز عن أن يلغي الذات في وصية محبة الأعداء؛ كما أن العمل الأخلاقي يقصر عن أن يقدم الذات فيدية من أجل الآخرين. فالمحبة هبة روحية وعطية؛ وعلى هذا الأساس يطالبنا بها المسيح، إذ كما أخذناها كهبة نعطيها كهبة أيضاً بل بالمقابل: «الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل٢: ٢٠)، ويقابلها: «بهذا قد عرفنا المحبة، أن ذاك وضع نفسه لأجلنا، فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الاخوة» (١يو٣: ١٦)

من هنا جاءت وصية المحبة كحالة التزام: «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم» (يو١٥: ١٢).

والتزام المحبة حتمي، لا مفر منه، في اللاهوت المسيحي: «أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً، لأن المحبة هي من الله، وكل من يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله. ومن لا يحب، لم يعرف الله، لأن الله محبة» (١يو ٤: ٧-٨)

المحبة هنا ثمرة حتمية للعلاقة الإيمانية التي تربطنا بالله، وغيابها يعني غياب الإيمان المسيحي كله، وغياب الله من حياتنا. أما حضور المحبة ونشاطها وفرحها بالبذل من أجل الأخرين، فهذا يعني حضور الله في روح الإنسان وقلبه، وإعلاناً عن إيمان حار وفعال.

القديس يوحنا يجعل ثبوت المؤمن في المحبة دليلاً قاطعاً على الثبوت في الله، وثبوت الله فيه، أي دليل حالة اتحاد: «الله محبة، ومن يثبت في المحبة، يثبت في الله، والله فيه.» (١يو ٤: ١٦)

صحيح أن المحبة، هبة عظمى مجانية، ولكننا لا نأخذها إلا لنعطيها. وعطاؤها هو هو بذل النفس وانكارها حتى الموت. ومن لا يتشجع ويعطيها، تُسحب منه، فيبيت بلا محبة، ويمسى غريباً عن صليب المسيح. أما الذي تشجع «وأبغض ذاته» «وأهلكها» بمعنى أهلك كبرياءها وجعلها تحت أقدام الآخرين، حباً لهم وللمسيح، وذلك حسب الوصية، أي من أجل المسيح والإنجيل، فقد عاش بل وقد انتقل من الموت إلى الحياة: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأننا نحب الإخوة. ومن لا يحب أخاه يبقى في الموت.» (١يو٣: ١٤)

إذن، فالوحدة التي وهب لنا الله أن نبلغها في المسيح في الله، ليست بدون مقابل أو التزام؛ فالذات أو الذاتية في الإنسالأ يلزم أن تكون «الأنا» هي ضحيتها الاولى، «مع المسيح صُلبت، فأحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا فيّ» (غل٢: ٢٠). فإن كانت «الأنا» التي فيّ قد ماتت، فقد انفتح لى باب الحب على مصراعيه، فأحب أعدائي، حتى صالبيّ، وأبارك من يلعن ذاتي، لأني قد دفنتها في قبر المسيح، أصلى لمن يُسىء إلى نفسي، ويطاردها، فنفسى لم يعد لها حساب عندي بعد (راجع أع٢٠: ٢٤)، إنها ليست هنا!!!

رابعاً: الفرق بين «الوحدة في الله»، وبين الوحدة المطلوب أن تكون لنا فيما بيننا، أو بيننا وبين الآب والابن: وحدة الله في ذاته: «أنا والآب واحد»، «أنا في الآب، والآب فيّ»، «كل ما هو لى فهو لك، وكل ما هو لك فهو لى»؛ هذه الوحدة الإلهية الفائقة تقوم على أساس التساوي المطلق بين الآب والابن في الذات وفي كل منهما، حتى إن كلمة «التساوي» هنا هي أضعف من أن تعبر عن الحقيقة، لأن لفظة «تساوي» هي وليدة القياس والله لا يُقاس؛ والأصح أن نقول أنهما واحد، لأن الله مُطلق في صفاته، فوحدته مطلقة، وبلا قياس، ومنزهة عن مفهوم العدد. لذلك ، يستحيل أن يكون للوحدة في الله شبيه في الإنسان، وإنما ساقها المسيح للشرح والتمثيل وليس للطباق أو المساواة، لأنه إذا استحال حتى القياس بالتساوي بين إنسان وإنسان، فكيف يمكن أن يبلغا اتحاداً

على مستوى الله؟

فالاتحاد، أو الوحدة التي يطلبها لنا المسيح فيما بيننا ثم فيما بيننا وبين الآب، هي وحدة تتناسب قبل كل شيء مع تفردنا واختلاف أجناسنا وتباين طبائعنا. فنحن لسنا متساوين في كياننا الداخلي، في أي شيء البتة، إلا في الخطية والعجز والقصور الروحيين.

لذلك، فالوحدة التي يطلبها لنا المسيح، لا تقوم البتة على ماهية أشخاصنا أو ما هو لنا، بل على أساس أن نتساوى فيه والآب، وليس تساوينا في ذواتنا. فبقدر ما تنسكب فينا قوة وحدة المسيح في الآب، سواء من جهة الحب بينهما أو من جهة الحق أو القداسة، بقدر ما نبتدىء نحن نتساوى ونتقارب ونتحد بهذه القوة الخارجة عنا والآتية إلينا من لدن الله. فمحبة الله تحصرنا، فتلغي عداواتنا وتُنهي على انقساماتنا؛ وحق المسيح والآب يصهر أفكارنا وقلوبنا، فيبدد جهالاتنا، ويوقف حماقاتنا ويقدس أرواحنا وأجسادنا: «ولأجلهم أقدس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدسين في الحق» (يو١٧: ١٩)؛ ونور معرفة المسيح والآب ينسابان في طبائعنا الروحية ووعينا «بالكلمة»، فتُستعلن لنا الوحدة الكائنة في المسيح والآب بقوة تُدخلنا في الإحساس والوجود الفعلي في حضرة الآب والابن بلا أي عائق فكري. وهكذا نتحد فيما لله، وليس فيما لنا، ونصير واحداً بسبب الروح الواحد الذي نستقي منه (١كو١٢: ١٣)، والجسد الواحد الذي نغتذي عليه: «كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح؟ الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح؟ فإننا نحن الكثيرين خبز واحد، جسد واحد، لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد.» (١كو١٠: ١٦-١٧)

فإن فسرنا معنى قول المسيح مراراً: «أنتم في وأنا فيكم»، عمليا في حياتنا اليومية، يكون المعنى هو التبادل الغير عادل بالمرة بين ما له وما لنا، كقول الآبصلمودية السنوية: «هو أخذ الذي لنا، وأعطانا الذي له، فلنسبحه نمجده ونزيده علواً» (مرد ثيئوطوكية الجمعة). نعم، فالوحدة التي سعى إليها المسيح نحونا هي تبادل القوة والطاقة. ولكن للأسف، أو يا للسعادة، فهو تبادل ليس على مستوى التساوي كما للآب والابن، بل على أساس تغطية عجزنا بكماله وجبران نقصاننا بملئه. فهو فينا بملئه وكماله، ونحن فيه بعجزنا ونقصاننا؛ هو فينا بقداسته الكلية، ونحن فيه بلا قداسة بالكلية، ولكننا بالنهاية صرنا مملوئين فيه، أحباء وقديسين وبلا لوم أمام الله.

الوحدة والملء: القديس بولس يعبر عن أسمى صورة للاتحاد بالمسيح بقوله: «فإن فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه» (كو٢: ٩-١٠). فما هو«ملء اللاهوت»؟ وما هو «ملء اللاهوت جسدياً»، أما «ملء اللاهوت» فهو للابن قبل تجسده، وهذا هو الذي عبر عنه المسيح بقوله: «الآب فّي»، وهذا ليس ليس لنا أن نقربه، أو حتى تطع عليه؛ أما «ملء اللاهوت جسدياً»، فهو ملء اللاهوت الذي صار في الجسد من أجلنا، منظوراً وملموساً ومُشاهدا، كما يقرر القديس يوحنا: «االذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدنا، ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة؛ فإن الحياة أُظهرت، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية، التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا... وأما شركتنا نحن، فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح.» (١يو١: ١-٣)

فملء اللاهوت جسديا هو ملء الله، الذي جعله في متناول أخذنا!! «ومن ملئه نحن جيعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة» (يو١: ١٦). أخذنا من ملئه الإلهي القداسة، الحياة الأبدية، والحب، والوداعة، وتواضع القلب، والنور، والخبز الحقيقي، وماء الحياة، أخذنا قدوسيته برضاه: «من أجلهم أقدس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدسين في الحق» (يو١٧: ١٩). كل هذا واكثر عبر عنه المسيح بقوله: «أنا فيهم». وبقوله: «أنا فيكم»، «وأنتم في»، يكون المسيح

قد عبر تعبيرا مزدوجاً عن اتحاد غير منفصم . وهكذا صارت طرق الله التي كانت في القديم تعلو عن طرقنا (إش٥٥:٩، رو١١:٣٣) علو السموات عن الأرض، صارت هي نفسها لنا طريقاً وباباً : «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤:٦)، «أنا هو الباب» (يو١٠:٩). وفكر الله الذي كان يعلو عن أفكارنا، صار هو هو بذاته «فكرنا». فما هو فكر الله إلا «الكلمة»، كلمة الله الفائقة عن الإدراك، الخالقة السموات والأرض وكل ما فيهما، أتتنا على الأرض متجسدة ومتأنسة في هيئة إنسان، لنسمعها من فم الله، سمع الاذن، ونراها رؤيا العين، ونلمسها لمس اليد. فأدركناه، بل وصار لنا فكره: «وأما نحن فلنا فكر المسيح» (اكو٢:١٦). والنور الذي لم يعرفه العالم سابقاً، عرفناه. والقداسة والبر الإلهي، أمور الله غير المقترب إليها حتى بالفكر، صارت كلها في متناول حياتنا: «الذي صار لنا حكمة من الله وبرا وقداسة وفداء» (١كو١:٣٠). نعم لقد أسس المسيح، بسر تجسده وصليبه، أسس الاتحاد المقدس.

الوحدة كعطاء ونعمة: وقد صور المسيح في سفر الرؤيا هذه الوحدة العملية التي يسعى إليها من نحونا هكذا: «هأنذا واقف على الباب وأقرع. إن سمع أحد صوتي وفتح الباب (باب الحب)، أدخل إليه، وأتعشى معه، وهو معى» (رؤ٣:٢٠). هو يتعشى من صحن هموم الإنسان وأوجاعه وأنينه، يتعشى متقاسماً معه لقمة الشقاء والتغرب. والإنسان يتعشى معه، بالنعمة، من صحن أفراحه وبهجة خلاصه، ويتناول من يده خبز حبه وختم استيطانه!!

إن وحدة الآب والمسيح تقوم على التساوي كلياً وفي كل شيء، فهي وحدة ذات وكرامة ومجد وكمال مطلق. فالوحدة بين المسيح والآب هي طبيعة جوهرية، أما الوحدة التي لنا في المسيح والآب فهي نعمة ورحمة، هي تفضل، هي هبة، هي مجرد إشعاع فعال لوحدة المسيح والآب، حتى لا تبقى الوحدة في الله بلا عمل فـ«نحن عمله» (أف٢:١٠)، ولكن يلاحظ أن المسيح لم يطلب الوحدة لتلاميذه، إلا بعد أن قدم شهادته للآب أنهم: «قد حفظوا كلامك» (يو١٧:٦)» وأنهم أصبحوا : «ليسوا من العالم» (يو١٧:١٤)، فهي ليست بلا ثمن كلية.

المستوى الثالث للوحدة: «ليكونوا مكملين إلى واحد»: المسيح هنا يسمو بالوحدة التي يطبها لنا، أولا فيما بيننا، وثانيا فيما بيننا وبينه والآب، ثم أخيراً إلى تكميلها إلى الكمال.

والإنجيل يعبر عن «التكميل» بكلمة (   )، وهي لا تعني تكميل الناقص، بل تكميل الكمال، وتترجم بالإنجليزية: **perfected**. فالذين اتحدوا بالابن والآب، لم يعودوا ناقصين محتاجون إلى التكميل بل هم مهيأون لقبول الكمال. فالمسيح سبق ومنحهم خصائصه بقوله: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني... ليكونوا مكملين إلى واحد»، أي ليبلغوا «كمال» الوحدة. هذا الكمال عبر عنه بولس الرسول بقوله: « لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أف٣:١٩)، حيث يستخدم الكلمتين: «تمتلئوا»، و«الملء» وهي المرادف تماما لتكميل الكمال. كما عبر عنها القديس يوحنا بقوله: «مملوءاً نعمة وحقاً ... ومن ملئه نحن جميعا أخذنا، ونعمة فوق نعمة» (يو١:١٤-١٦). وبولس الرسول يستخدم مرة أخرى كلمة «الملء» فيما يخصنا من ملء لاهوته، وذلك على مستوى الملء الذي له، ولكن على قدر ما تتسع له طبيعتنا العاجزة: «فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديا، وأنتم مملوؤون فيه» (كو٢:١٠). حيث لا يتحول الملء الإلهي الذي له إلينا، ولكن نصير باتحادنا به مملوئين فيه! وهذا أوضحه بولى الرسول أيضاً في قوله: بسبب هذا أحني ركبتى لدى أبي ربنا يسوع المسح، الذي منه تُسمى كل عشيرة (أبوة = **fatherhood**) في السموات وعلى الأرض، لكي يعطيكم، بحسب غنى مجده، أن تتأيدوا بالقوة، بروحه في الإنسان الباطن، ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسوذ في المحبة، حتى تستطعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما

هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله. والقادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر، بحسب القوة التي تعمل فينا» (أف٣:١٤-٢٠). ولكي ننبه ذهن القارىء إلى محور القوة في هذه الآيات نوجز الخلاصة كالآتي:

+ «يعطيكم... غنى مجده... بروحه... ليحل المسيح... في قلوبكم... تدركوا مع جميع القديسين (الكنيسة)... تمتلئوا إلى كل ملء الله... بحسب القوة التي تعمل فينا».

ومرة أخرى نختصر المعنى لتبرز القوة كالآتي:

«يعطيكم... مجده... المسيح فى قلوبكم... تدركوا... ملء الله... بحسب القوة التى تعمل فيكم»

وهذا هو روح كلمات المسيح يذكرها القديس يوحنا: «أنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني... ليكونوا مكملين إلى واحد». واضح أن عطية المجد التي يعطيها الآب للمسيح لحسابنا، والتي سلمها لنا المسيح، تكون سر الملء لبلوغ كمال الوحدة في المسيح والآب.

ولكن ما هو المجد الذي أعطاه الآب للمسيح، فأعطاه المسيح لنا؟

قطعا ليس هو مجد الإلوهية الذي «للكلمة الله» المساوي للآب، فهذا المجد ليس مُعطى للابن، بل هو من خصائص لاهوته. ولكن المقصود هنا هو المجد الذي أُعطي للابن حال تجسده لحسابنا. فهو مجد فائق، وانما على مستوى إدراك الإنسان ليبلغ به الإنسان في النهاية كمال الشركة في المسيح والآب. فما هو هذا المجد المُعطى؟ والذي هو لنا وتحت حسابنا؟

توجد آيات بسيطة غاية البساطة تشير إلى هذا المجد مثل: «... لأن يسوع لم يكن قد مُجد بعد» (يو٧:٣٩)، أي لم يكن قد صُلب. فهل آلام الصليب هي المجد الذي أعطي للمسيح ليكمله لحسابنا؟ ثم قول المسيح ليلة العشاء الأخير، وهو يقسم جسده مصلوباً بالنية قبل أن يُصلب بأيدي الأثمة: «قال يسوع: الآن قد تمجد ابن الإنسان وتمجد الله فيه. إن كان الله قد تمجد فيه، فإن الله سيمجده في ذاته، ويمجده سريعاً.» (يو١٣:٣١-٣٢)

واضح أن المسيح يتكلم عن مجد الصليب، إذ ينعته زمنياً: «سريعاً» ، وأن بالصليب سيتمجد المسيح، وسيُمجد الله الآب . فإن الأنبياء سبقوا وتنبأوا بآلام المسيح والمجد المتأتي منها: «باحثين أي وقت، أو ما الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح الذي فيهم، إذ سبق فشهد بالآلام التي للمسبح والألمجاد التي بعدها.» (١بط١:١١)

وقد حدث بالفعل، إذ قد «رُفع (المسيح) في المجد» (اتي٣:١٦) من بين الأموات! «ودخل إلى مجده» (لو٢٤:٢٦)، و«جلس في يمين العظمة في الأعالى» (عب١:٣)، مسبباً مجداً لله الآب من كل لسان وشعب وأمة في كل زمان ومكان وإلى أبد الآبدين، وهكذا صار الصليب بما يحتويه من جوهر الاستعلان: «متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أني أنا هو» (يو٨:٢٨)، وبما يؤدي إليه، مجداً، ومؤدياً إلى مجد، وممجداً الآب، وسبباً للمجد لكل من يحمل أو يتحمل عاره!!

وهذا المجد عينه، مجد الاستعلان لحقيقة الله الخلاصية، وما يؤدي إليه من احتمال الآلام، ببذل الذات حتى الموت، موت الصليب، شهادة للابن والآب؛ قد تحول بجملته لحساب الإنسان، لكل من يتألم من أجل اسم المسيح: «... أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي، وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً، لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي، وتجلسوا على كراسي تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر.» (لو٢٢:٢٨-٣٠)

وبولس الرسول يقولها واضحة مختصرة: «إن كنا نتألم معه لكي نتمجد أيضاً معه» (رو٨:١٧). ثم يشرحها بوضع

يفوق التساوي والتعادل بقوله: «فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا» (رو٨:١٨). وبطرس الرسول يقول بنفس القول: «إن عُيرتم باسم المسيح فطوبى لكم، لان روح المجد والله يحل عليكم» (ابط٤:١٤)

هذا هو المجد الذي أعطاه الله الآب للابن حال تجسده، أي «آلام الصليب»، لكي يفتح به المسيح طريق المجد للإنسان، ثم يسلم هذا الصليب عينه لكل من أحبوه وآمنوا به. لكي يبغ الإنسان، بنفس الآلام التي كان قد وُضع تحتها بسبب خطيئته، بعد أن حولها له المسيح إلى آلام من أجل اسمه، طاعة لله وحباً للآب والمسيح، فصارت له سسب مجد، بعد أن كانت بسبب خطيته. وهكذا، ومن نفس عقوبة الإنسان الاولى، أصبح له المسيح إكليل مجد لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمعل، محفوظاً له في السموات! وهذا هو المجد، الذي إذ نتحصل عليه، نصير مؤهلين لشركة «الوحدة» وسرها.

وهكذا أيضاً، وبالتال، فكما فتتت الخطية الإنسان، بآلامها المتنوعة التي كانت على مستوى اللعنة، ومزقته تمزيقاً، وشوهت صورة الله فيه، استطاع المسيح أن يحول هذا التفتت، بهذه الآلام عينها، وبجسد الخطيئة نفسه وبلعنة الآلام عينها، يحوله إلى وحدة!!! إذ بجسده الممزق، جمع شمل البشرية الممزقة، ووحدها في نفسه وفي جسده وفي روحه!!! «لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا، لنصير نحن بر الله فيه» (٢كو٥:٢١)، «المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا، لأنه مكتوب: ملعون كل من علق على خشبة.» (غل٣:١٣)

هكذا صار الصليب هو المجد، وروح المجد، وإكليل المجد، الذي وُهب للانسان أن يتقلده، كمثل المسيح، كأعلى وسام للكمال يدخل به إلى شركة المجد والوحدة مع المسيح والآب. والآن، تصبح آية صلاة المسيح ساطعة بنور أخاذ: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ... ليكونوا مكملين إلى واحد»!

علاقة كمال الوحدة بتكميل الآلام: وهكذا لاق بنا أن نبلغ كمال الوحدة بجد الآلام، كما لاق به هو أن يبلغ الكمال بالآلام: «لأنه لاق بذاك الذي من أجله الكل وبه الكل، وهو آت بأبناء كثيرين إلى المجد، أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام» (عب٢:١٠)، «وإذ كمل، صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي» (عب٥:٩). هنا علاقة سرية وطيدة بين كمال المسيح الذي بلغه بالآلام، وبين أن نكمل نحن إلى واحد. فهنا شرح عملي لعلاقة الآلام وسموها بمجد الخلاص بالصليب. هذا الصليب الذي تأهل به «ابن الانسان»، بنوع ممتاز كابن الله، المستأمن على كل سر الله، ليصنع صلحاً وسلاماً أبدياً بين الخليقة وخالقها، وليكشف بواسطته عن سر وحدته مع الآب، هذا السر بكل عمقه وسره وسموه، سلمه المسيح لخواصه، لا ليتصالحوا فقط مع الله بدم صليبه بل ليتحدوا أيضاً به، ليصالحوا الآخرين بالله: «ولكن الكل من الله، الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح، وأعطانا خدمة المصالحة. أي إن الله كان، في المسيح، مصالحاً العالم لنفسه، غير حاسب لهم خطاياهم، وواضعاً فينا كلمة المصالحة. إذا، نسعى كسفراء عن المسيح، كأن الله يعظ بنا، نطلب عن المسيح: تصالحوا مع الله» (٢كو٥:١٨-٢٠)، «من غفرتم خطاياه، تُغفر له» (يو٢٠:٢٣)

واضح هنا مبدأ التكميل بالآلام الذي بلغه المسيح، فبلغ به المجد، وأعلن به عن وحدته بالآب، وكيف سلمه لنا خلاصاً. فصرنا، بتكميل الآلام عينها من أجل اسمه، شركاء مجد ووحدة وعلاقة سرية معه ومع الآب، وسفراء لله فوق العادة.

نعم، فليس في كل ما يعمله الإنسان ما هو مثل الألام التي للشهادة، إذ لها قدرة أن توحد الإنسان في نفسه

والآخرين والله، وتورث مجد الحياة الأبدية: «أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم، أنا الشيخ رفيقهم، والشاهد لآلام المسيح، وشريك المجد العتيد أن يُعلن ...» (١بط١:٥)

الوحدة المسيحية أعظم شهادة لرسالة المسيح في العالم، وأوثق برهان لمحبة الآب الخالصة:

٢٣- أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي.

حينها يُستعلن المسيح فينا فنتوحد معاً فيه، وتوحدنا شركة آلامه، حينئذ تصير وحدتنا وتصير شركة آلامنا مصدراً دائماً ومستمراً، يدرك منه العالم صدق رسالة المسيح؛ كما ينبع من وحدتنا فيه ومن شركة آلامه، شهادة صادقة لمحبة الآب لنا، كما نبع من الصليب الشهادة لحب الآب للمسيح حينما استعلن مجد الله فيه.

إن أشد ما يتأثر به العالم ويقنعه برسالة المسيح المصلوب، هو استعلان سر الصليب في المسيحيين، وذلك حينما يتألمون من أجل اسمه، شاكرين، فرحين، متحدين، كقول بطرس الرسول: «إن عيَّرتم باسم المسيح فطوبى لكم، لأن روح المجد والله يحل عليكم» (ابط٤:١٤)

هنا يبرز عاملان يسندان طلب المسيح للوحدة المسيحية: الأول أن يؤمن العالم برسالة المسيح، والثاني: إمكانية انسكاب محبة الله الأبوية في قلوب المؤمنين.

إذن، واضح، وللأسف الشديد، أن في غياب الوحدة المسيحية ضياع الفرصة من العالم لكي يؤمن برسالة المسيح، وضياع الأمل من الكنيسة لانسكاب محبة الآب؛ وإن كانت هناك نماذج قليلة وفردية لا تزال تبث رسالة المسيح في العالم بنموذج وحدتها حيث تشهد لها محبة الآب التي تلهب قلوب متقيها.

والوحدة المقدسة، أو الاتحاد المقدس في المسيح والآب، هي في اللاهوت المسيحي «هبة» جعلها المسيح في متناول سؤالنا وإلحاحنا وسعينا المقدس بالروح. وهي هبة سماوية، لا تتطلب إلا أن يخضع لها الموهوب بالشكر، ويثبت استحقاته لها بالطاعة الروحية الباذلة للجسد ومشيئته حتى الموت والمحبة الصادقة عديمة الغش، حتى يستعلن الله ذاته ووجوده بلا مانع في القلب. وإن الرب يسوع المسيح جعل هذا «الاتحاد المقدس» موضوع اهتمامه حتى آخر لحظة من حياته على الأرض، وختمه بدمه على الصليب، وفتح الباب للدخول فيه بإرساله الروح القدس الذي يقودنا نحوه بالصلاة.

والاتحاد المقدس بالمسيح والآب هبة، وهي التي سنكتسب بها الخلود، وقد مُنحت لنا بمقتضى صلاة المسيح، الذي عضدها بصليبه، وأحدرها لنا من علو سمائه بدمه. فهي فائقة حقاً، ومتعاظمة في المجد» بحسب علو مجد معطيها. ونحن ننظر إلى هذه الهبة ونرتعب، بسبب عدم لياقة خساسة طبيعتنا، ولكن عندما ننظر إلى علو سخائه في المجد وعظمة قدرة محبته الفائقة نحونا، ونتمعن في استحقاق الثمن المدفوع لعطائها، نقول: نعم نشكرك، أيها الآب، لأنك أعطيتنا هذا الاتحاد المقدس في المسيح، لنحيا معك، استجابة لدعاء ابنك الوحيد ودمه الذي به اشترانا من الأرض لك.

٢٤- أَيُّهَا الآبُ أُرِيدُ أَنَّ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِي حَيْثُ أَكُونُ أَنَا لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ.

كلمتان تتصدران هذه الأية، لتعطيها ثقلاً روحياً؛ الكلمة الاولى: «أريدء». فالمسيح هنا لا يتوسل، بل يريد، لأنه إذ يختم توسلاته التي قدمها للآب من أجل الوحدة، وهو على الأرض، وذلك من منطلق ما قبل الصليب، بدأ يتكلم

ويطب من منطق، مجد، ما بعد الصليب: «اريد»!!

المسيح هنا يكشف عن دالة البنوة عند الابن، الذي يكون قد أكمل مشيئة الآب، إنه يضع على الآب تكليفاً يتوازن مع التكليف الذي وضعه الآب عليه!!!

علماً بأننا لا نستطيع أن نفرق كثيراً بين أن يطلب المسيح، أو أن يطالب، أو بين أن يصلي، وأن يتوسل، وأن يريد، لأنه ضامن الاجابة: «وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي» (يو١١:٤٢). كما يعلم أن إرادته هي إرادة الآب، وإرادة الآب هي إرادته» فهو لا يملي إرادته على الآب، بل يعبر بإرادته عن إرادة الآب!! ولكن هي لغة الدالة حينما تبلغ أقصى وثوقها .

ونلاحظ أن المسيح استخدم سابقاً كلمة «أنا أسأل»، وهي أيضاً لغة الدالة التي لم يستخدمها أحد في مخاطبة الله إلا المسيح. ولكن هنا ينتقل إلى التعبير الأعلى والأكثر وثوقاً بوحنا فى الاستجابة: «أريد»، كمن يتكلم بسلطان؛ ليس سلطانه لدى الأب، ولكن بالسلطان الذي أعطاه إياه الأب: «إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد، ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته.» (يو١٧:٢)

ويطيب لنا أن نقارن بين «أريد» هنا، فيما بعد الصليب بالنسبة لأحبائه، وبين «لا أريد» وهو تحت الصليب بالنسية لنفسه!! «يا أبا الآب، كل شيء مستطاع لك، فأجز عني هذه الكأس، ولكن ليكن، لا ما اريد أناء بل ما تريد أنت.» (مر١٤:٣٦)

أما الكلمة الثانية: ذات الثقل العالي، فهي أن هؤلاء «يكونون معي» حيث أكون أنا! فهذا هو مجد الوحدة وإكليلها الفاخر.

لقد مبق وأعلن المسيح عن هذه الإرادة التي تلح في داخله من أجل أحبائه: «إن كان أحد يخدمني، فليتبعني، وحيث أكون أنا، هناك أيضاً يكون خادمي، وإن كان أحد يخدمني يكرمه الآب» (يو١٢:٢٦). وواضح أنه إن كنا نتبعه هنا على درب الصليب، فسوف نتبعه هناك في دروب أمجاد العلا: «هؤلاء هم الذين يتبعون الخروف حيثما ذهب، هؤلاء أُشتروا من بين الناس، باكورة لله وللخروف، وفي أفواههم لم يوجد غش، لأنهم بلا عيب قدام عرش الله.» (رؤ١٤:٤-٥)

ولقد عبر المسيح مرة عن هذه الإرادة المحببة إليه، أن يكون أحباؤه معه حيثما يكون، وذلك بتأكيد في صورة وعد: «وان مضيت وأعددت لكم مكاناً، آتي أيضاً وآخذكم إلي، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً» (يو١٤:٣). ولقد أفصح المسيح مرة أيضاً لبطرس الرسول أنه (أي بطرس) سيتبعه من فوق ذات الصليب إلى هناك في ذات المجد: «حيث أذهب لا تقدر الأن أنذ تتبعني، ولكنك ستتبعني أخيراً.» (يو١٣:٣٦)

ولكن ما لنا نبتعد كثيراً عن سر «هؤلاء الذين أعطيتني»؟ أليسوا هم هم العروس؟ الكنيسة المفدية، المغسولة، والمطهرة، التي بلا عيب ولا دنس، كيف لا تكون حيث يكون، وكيف لا تبقى من قرب، بل وأقرب المقربين، لترى مجده، بل تقاسمه إياه؟ ثم أليس هو الوعد الذي وعد ليوحنا، في رؤياه، كاخر ما يقوله الروح للكنائس السبع: «من يغلب، فساعطيه أن يجلس معي في عرشي، كما غلبت أنا أيضاً، وجلست مع أبي في عرشه» (رؤ٣:٢١). وعجيب أن يطابق هذا الوعد، بحروفه، مع آخر كلمة قالها المسيح في كل تعاليمه التي جاءت في نهاية الأصحاح السادس مشر: «... ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم.» (يو١٦:٣٣)

ولكن السؤال الذي يتحتم الاجابة عليه هو: ما الفرق بين المجد الذي سبق أن رآه التلاميذ في المسيح وهو معهم.

«وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (يو ١:١٤)، والمجد الذي عاد المسيح يطلب من الآب أن يراه هؤلاء التلاميذ وهم معه: «أريد أن هؤلاء ... يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي» (يو ١٧:٢٤)؟

القديس يوحنا في الآية ١:١٤ يتكلم عن المجد الذي استطاع أن يستوعبه من خلال حجاب الجسد، سواء جسد المسيح وهو في حالة الإخلاء، أو جسد التلاميذ الذي لا يستوعب إلا جزئياً، وكما من خلال مرأة، كما في لغز، ولا يبلغ إلا إلى «بعض المعرفة.» (١كو١٣:١٢)

ولكن المسيح هنا يتكلم عن رؤيا مجده، وهو في كامل استعلان لاهوته في السماء مع الآب، وهي رؤيا لا يحجز عنها الجسد شيئاً من جلالها، بل رؤيا الكل والكمال، التي عبر عنها القديس يوحنا أيضاً في رسالته هكذا: «لأننا سنراه كما هو.» (ايو٣:٢)

والذي نلحظه بوضوح أن حالة «يكونون معي حيث أكون أنا»، هي حالة أشد استعلاناً وعلانية من: «أنا فيكم وأنتم في» والتي تمثل الوحدة في مفهومها الحاض! لأن المسيح يكون فينا، ونكون فيه الآن «بالإيمان» فقط: «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (آف٣:١٧). والوحدة المتأتية من ذلك هي وحدة «سر» أو سرائرية غير منظورة: «من يأكل جسدي ويشرب دمي، يثبت في وأنا فيه» (يو٦:٥٦). وهذه الوحدة بالحلول وبالسر يعوقها الجسد، ويحد من فاعليتها واستعلانها، وينقص من بهجتها، بسبب عجزه وقصوره ورغباته المعاكسة. لذلك حق للمسيح أن يطلب لنا ما فوق الحلول والسر، يطلب التواجد معه في حالة استعلان ورؤية كاملة، ترتقي إليها الروح، بعد أن تطرح عنها الفاسد وتلبس عدم الفساد.

ولكن المسيح كعادته أحجم عن ذكر ماذا سيراه المؤمنون هناك، فهو يسكت دائماً عن ذكر ما لا طاقة لنا بمعرفته: «إن كنت قد قلت لكم الأرضيات، ولستم تؤمنون، فكيف تؤمنون إن قلت لكم السمويات» (يو٣:١٢)، أو كما حاول بولس الرسول أن يصفها: «ولا يسوغ لانسان أن يتكلم بها» (٢كو١٢:٤)» إذ أنها «لا تخطر على قلب بشر» (١كو٢:٩).

ولكن الذي نعرفه والذي نثق فيه بالروح، أننا سنستوعب من مجده الأسنى قدر ما تستطيع الروح أن تستوعب، في غيبة جسدنا المعتم هذا، وسنرى العلاقة الأزلية بين الآب والابن، وسينفذ فينا شعاع مجد لاهوته لينطبع علينا بهاء صورته ولن تُمحى منا إلى الأبد: «ولكن نعلم أنه إذا أُظهر نكون مثله، لأننا سنراه كما هو» (ايو٣:٢)، «متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه في المجد.» (كو٣:٤)

لأنه إن كان قد أعطي لنا الآن أن نكون «نحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف، كما في مرآة، نتغير إلى تلك الصورة عينها، من مجد إلى مجد، كما من الرب الروح» (٢كو٣:١٨)؛ فماذا حينما لا تكون مرآة، بل يكون هو هو بملء لاهوته، وقد تخلى عن إخلائه، واسترد جلال جوهر مجده، والجسد فيه يتلألأ بضياء نور الآب، الذي ليس فيه ظلمة البتة. فإذا كانت صورته في المرآة تنطبع علينا لنتغير إليها من مجد إلى مجد، فماذا يكون حينما ندخل الأقداس العليا لنتراءى معه أمام أبيه لنستأمن سر الأزل، ونور الخلود، وحب الآب للابن، وشركة ميراث الوحيد المحبوب؟

ولكن يُستدل من قول المسيح، أنه «يريد» أن يكون المؤمنون به معه حيث يكون، أن الموت هنا في فكر المسيح غير محسوب البتة وكأنه لا يكون. فقد ألغى المسيح الموت بالنسبة للذين يؤمنون به، كما ألغى الحياة بصورتها

المادية المتعارف عليها: «أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا.» (يو١١:٢٥)

«لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لانك أحببتني قبل إنشاء العالم»: المجد هنا ليس هو مجد «الكلمة» ولكنه مجد الكلمة المتجسد: «وإذ وُجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه، وأطاع حتى الموت، موت الصليب. لذلك رفعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء، ومن على الأرض، ومن تحت الأرض، و يعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب. (في٢:٨-١١)

ومعلوم في اللاهوت المسيحي، أنه يمتنع أن يُقال عن «مجد» الابن قبل تجسده، أنه «مُعطى»، بل هو مجد واحد للآب والابن سواء بسواء، فهو حقه الأزلي. أما المجد «المُعطى»، فهو المجد الذي اكتسبه المسيح بطاعته للأب بآلامه الطوعية حتى الصليب: «ولكن الذي وُضع قليلاً عن الملائكة، يسوع، نراه مكللا بالمجد والكرامة، من أجل ألم الموت، لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد» (عب٢:٩). وعلينا أن نمعن النظر في الرباط الوثيق بين غاية المسيح في التجسد وبين طلبته هذه: أن نكون شركاء مجده الذي حازه بالصليب؛ لأنه إن كانت غاية التجسد هي الصليب، وغاية الصليب هي أن يمنح لنا تطهيراً، فغاية التطهير الذي نلناه هو أن يؤهلنا لأن نرتفع إليه ونبقى معه حيث هو: «بعد ما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا، جلس في يمين العظمة في الأعالى صائرا أعظم من الملائكة، بمقدار ما ورث اسماً أفضل منهم» (عب١:٣-٤)؛ ثم لمن أعد هذا المكان: «في يمين العظمة في الأعالى» إلا لنا؟ «وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً، آتي أيضاً وآخذكم إلي. حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً.» (يو١٤:٣)

هذا المجد هو مجد مصالحة الله مع الإنسان، أو هو عودة مجد الانسانأ المتصالح مع الله الذي استرده المسيح للبشرية، بالثمن الذي دفعه بالصليب غالياً، لذلك حق له ولنا أن يعطيه لنا كما أُعطى له: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتنى (يو١٧:٢٢). هذا مجد المصالحة مع الله، الذي دخلنا فيه، فاتحدنا في ظل حب الله الذي انسكب علينا كبنين، بنفس حب الآب للمسيح كقوله: «وأحببتهم كما أحببتني.» (يو١٧:٢٣)

حب الله الآب للابن أزلي هو، وليس مستحدثاً قط: «هذا هو ابني الحبيب، له اسمعوا» (مت١٧:٥). وحب الله الآب للابن الوحيد لم يتغير بالتجسد، ولم يتناقص، بل امتدت مجالاته نحو العالم بالتجسد: «هكذا أحب الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣:١٦). لقد امتد مجال حب الله الأبوي لابنه الوحيد، فشمل كل الذين آمنوا به وقبلوه، إذ أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله. لقد نلنا بالتبني عينة من حب الله الآزلي للابن: «لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم»، و «أحببتهم كما أحببتني». المسيح هنا يستشهد بحب الآب له قبل إنشاء العالم، ليدعم طلبه أن تصير محبة الآب بالمثل وعلى مستوى الزمن والدهر لأخصائه الذين أحبوه، وامنوا به، وحملوا صليبه. فشركاء آلامه كيف لا يكونون شركاء مجده وحب الآب له؟

لقد حق للمسيح أن يطالب الآب، وليس يطلب فقط (أيها الآب أريد...)، أن نكون معه، نتأمل مجده الذي اكتسبه لحسابنا، ونحيا في مجال حب الله الأزلى له، لأنه اشترانا بدمه لحساب الآب وأدخلنا عهد التبني، وأكمل لنا المصالحة مع أبيه بجروحه النازفة، وشوك لعنة الأرض، الذي أدمى أقدام الإنسان، لبسه عوضاً عنا كإكليل فوق رأسه: «فكيف لا يهبنا أيضاً معه كل شي ء.» (رو٨:٣٢)

٢٥- أَيُّهَا الآبُ الْبَارُّ إِنَّ الْعَالَمَ لَمْ يَعْرِفْكَ أَمَّا أَنَا فَعَرَفْتُكَ وَهَؤُلاَءِ عَرَفُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي.

تعقيب بديع على بنود الصلاة كلها، يُبرز سببها، ويسند ضرورتها. وكأنه يريد أن يقول: «أيها الآب البار، أنا طلبت طلباتي هذه كلها على أساس برك الفائق قبل كل شيء! ثم أنا طلبت، وأطلت طلباتي، وعمقتها، لا لشي إلا

لأن العالم لم يعرفك بعد. والآن، وقد أرسلتني إلى العالم، وأنا وحدي الذي أعرفك، لذلك توسلت إليك من أجل الذين اجتذبتهم أنت إلّي من العالم. وهؤلاء عرفوا يقيناً أنك أنت الذي أرسلتني، لذلك أسألك من أجلهم، وأنت أصلاً المتكفل بهم، لأنهم لك وقد أعطيتهم إلي».

«أيها الآب البار»: هي المقابل المساوي لقول المسيح في آية سابقة: «أيها الآب القدوس» (يو١١:١٧) ولكل صفة يذكرها المسيح للآب يلحقها بما يناسبها من الطلب: «أيها الآب القدوس، احفظهم في اسمك (القدوس)... ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم. قدسهم في حقك» (يو١١:١٧-١٧). المقارنة هنا قائمة بين العالم والتلاميذ، والطلب أن يحفظهم من العالم الشرير بأن يقدسهم في الحق الإلهي.

أما في هذه الآية: «أيها الآب البار، إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتك، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني»:

«الآب البار»: « البار» هنا صفة تشل العدل والرحمة معاً، وقد تُترجم بالعادل فقط، كما أوردها القديس يوحنا: «إن اعترفنا بخطايانا، فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا» (ايو١:٩)، وهكذا وضع صفة العادل في الله على مستوى غفران الخطية في الإنسان، وهذا أعلى مستوى لمفهوم العدل الرحيم أو «البر» الذي يفوق تصور الإنسان. وهكذا يستعلن لنا المسيح صفة العدل «البار» في الأبوة، ليعبر بها عن الحب المتفجر من قلب الآب، الذي يتجاوز حدود العالم الضيق في ذاته.

المقارنة هنا أيضاً بين العالم الذي لم يعرف الآب، والتلاميذ الذين عرفوه، عبر المسيح، ولكن هنا لا يطلب المسيح شيئاً، ولكن يقرر حقيقة واقعة، أن هؤلاء إذ قبلوا الإيمان بإرسالية الآب للمسيح، وعرفوا «اسم» الآب، حق لهم كبنين عند بر الآب، أن يكون فيهم حب الآب للابن! ذلك من واقع بر الله الآب، إذ ليس من المعقول أن يكون نصيبهم كنصيب العالم الذي لم يعرفه.

وكأننا، مرة أخرى، أمام إبراهيم وهو يحاجج الله: «حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر، أن تُميت البار مع الأثيم، فيكون البار كالأثيم، حاشا لك. أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً.» (تك١٨:٢٥)

«إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتك، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني»: المعرفة هنا تقع في ثلاثة أوضاع: العالم «لم يعرفك»، أنا «عرفتك»، هؤلاء «عرفوا أنك أنت أرسلتني». أما معرفة العالم، فهي الجحود والإنكار، أما معرفة المسيح فهي «الاستعلان». وأما معرفة المسيح، والذين أمنوا بإرسالية المسيح، فهي هي الحياة الأبدية التي أُستعلنت:«هذه هي الحياة الأبدية، أن يعر فوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧:٣) ومرة أخرى نكرر: إن «معرفة الله»، في المفهوم الروحي الاختباري، هي شركة، لأن الحق الإلهي لا يُستعلن إلا لمن استحق أن يقبله.

واضح هنا أن المسيح يدين العالم، في ختام صلاته، وفي قرارة قلب المسيح مرارة، لأن عدم معرفة العالم للمسيح والآب تأتي بلا سبب: «أبغضوني أنا وأبي... أبغضونى بلا سبب» (يو١٥:٢٤-٢٥). وبولس الرسول أكد هذا مراراً: «لأنه إذ كان العالم في حكمة الله، لم يعرف الله بالحكمة» (اكو١:٢١)، «حتى إنهم بلا عذر، لأنهم لما عرفوا الله، لم يمجدوه أو شكروه كإله.» (رو١:٢٠-٢١)

ولكن يعود المسيح ليطيب قلب الآب: «أما أنا فعرفتك». والمسيح هنا يتكلم بفم الإنسان الجديد، بفم الكنيسة التي اشتراها من بين كل شعوب الأرض طرا والتي لقنها «علم معرفته».

٢٦- وَعَرَّفْتُهُمُ اسْمَكَ وَسَأُعَرِّفُهُمْ لِيَكُونَ فِيهِمُ الْحُبُّ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي بِهِ وَأَكُونَ أَنَا فِيهِمْ»

التعريف باسم الله جاء هنا على مستوى استعلان الله في ذاته، اي استعلان ابوته القائمة في الابن الذي أرسله، وهو هو استعلان الحق ذاته. والحق ليس إلا الله في ذاته، وكل ما عداه هو حق فقط، بمقدار خضوعه وانسجامه مع الله. واسم الله ، معرفته هي هي الحياة الأبدية.

أن يعرف المسيح الناس «باسم الله الآب» هو أن يعرفهم بالحق الإلهي، لينفضوا عنهم كل ما هو مزيف وزائل ومنته بالموت. فإن كان اسم الله هو الحق الأليثيا، نكل ما عداه هو التزييف. والمسيحيون المؤمنون حقاً، يدعوهم القديس يوحنا في رسالته الثانية: «الذين قد عرفوا الحق.» (٢يو١:١)

وأن يُعرف المسيح الناس باسم الله الآب، فلا يكون هذا من على بعد، ولا كأنه على مستوى الفكر؛ بل يعني أنه استودع الاسم قلوبهم، ليعيشوا ويخلصوا به؛ ليستنيروا بنوره، لا كمعرفة بعد، بل كقوة حياة لا تزول.

والتعريف باسم الله الآب، ليس عملاً يمكن أن يُكمل أو يمكن أن ينتهي، بل هو عمل الابن منذ أن تجسد وإلى أبد الآبدين، عمل يغطى الزمن، ويمتد في الأبدية. فالله مُدرك كامل، يُدرك، ولكن لا يُدرك كماله. لذلك أردف المسيح القول: «عرفتهم اسمك» بقوله: «وسأعرفهم». فهو عمل المسيح حتى وإلى ما بعد الصليب. لقد وعد بذلك، حينما وعد بإرسال الروح القدس: «فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو١٦:١٣). ولكن معرفة الله في المستقبل، تقوم فقط وتمتد عل أساس المعرفة في الحاضر الزمني، فالذي أسقط من حسابه التعرف على اسم الله الآب هنا بسبب مشقة الصليب، ظالم هو، إذ ظن أنه يعوض ما فاته هناك! ولكن معرفة اسم الله الآب في الحاضر مهما كانت شاقة، ويكتنفها الآلام، فهي تبدو جليلة وعظيمة القدر، حينما تكمل وتمتد هناك.

فإذا سكن اسم الآب في قلوب متقيه عن وعي، فقد سكن الحب الأبوي حتماً وبضمان سكنى المسيح: «وأكون أنا فيهم». لكن حب الآب، يستحيل أن نذوقه في غيبة الابن المحبوب. لذلك صح القول: «ومن ملئه نحن جيعاً أخذنا» (يو١:١٦)، والمسيح يوجه نظرنا إلى أصل ومنبع حب الآب هكذا: «لأن الآب نفسه يحبكم، لأنكم أحببتموني» (يو١٦:٢٧). هذا الحب الأبدي الذي يتفجر من قلب الآب، كالنور الذي يتفجر من قلب الشمس، استطاع المسيح، بالروح القدس، أن يحوله في أمواجه الجارفة نحو قلوبنا. ولكي يضمن سخاء انسكابه، أمن على ذلك بوجوده الدائم: «وأنا فيهم».

لهذا كان شغل المسيحي الشاغل، أذ يحوز على حلول المسيح في القلب: «لكي يعطيكم، بحسب غنى مجده، أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن، ليحل المسح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون، ومتأسسون في المحبة.» (أف٣:١٦-١٨)

تم فى ٢٠١٧/٥/١١

الأصحاح الثامن عشر

قَالَ يَسُوعُ هَذَا وَخَرَجَ مَعَ تلامِيذِهِ إِلَى عَبْرِ وَادِي قَدْرُونَ حَيْثُ كَانَ بُسْتَانٌ دَخَلَهُ هُوَ وَتلامِيذُهُ. وَكَانَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ يَعْرِفُ الْمَوْضِعَ لأَنَّ يَسُوعَ اجْتَمَعَ هُنَاكَ كَثِيراً مَعَ تلامِيذِهِ. فَأَخَذَ يَهُوذَا الْجُنْدَ وَخُدَّاماً مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ وَجَاءَ إِلَى هُنَاكَ بِمَشَاعِلَ وَمَصَابِيحَ وَسِلاحٍ. فَخَرَجَ يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟». أَجَابُوهُ: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ». قَالَ لَهُمْ: «أَنَا هُوَ». وَكَانَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ أَيْضاً وَاقِفاً مَعَهُمْ. فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي أَنَا هُوَ» رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ. فَسَأَلَهُمْ أَيْضاً: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟» فَقَالُوا: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ». أَجَابَ: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي أَنَا هُوَ. فَإِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي فَدَعُوا هَؤُلاَءِ يَذْهَبُونَ». لِيَتِمَّ الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ: «إِنَّ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لَمْ أُهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَداً». ثُمَّ إِنَّ سِمْعَانَ بُطْرُسَ كَانَ مَعَهُ سَيْفٌ فَاسْتَلَّهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذْنَهُ الْيُمْنَى. وَكَانَ اسْمُ الْعَبْدِ مَلْخُسَ. فَقَالَ يَسُوعُ لِبُطْرُسَ: «اجْعَلْ سَيْفَكَ فِي الْغِمْدِ. الْكَأْسُ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ أَلاَ أَشْرَبُهَا؟». ثُمَّ إِنَّ الْجُنْدَ وَالْقَائِدَ وَخُدَّامَ الْيَهُودِ قَبَضُوا عَلَى يَسُوعَ وَأَوْثَقُوهُ. وَمَضَوْا بِهِ إِلَى حَنَّانَ أَوَّلاً لأَنَّهُ كَانَ حَمَا قَيَافَا الَّذِي كَانَ رَئِيساً لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ. وَكَانَ قَيَافَا هُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَى الْيَهُودِ أَنَّهُ خَيْرٌ أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ عَنِ الشَّعْبِ. وَكَانَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَالتِّلْمِيذُ الآخَرُ يَتْبَعَانِ يَسُوعَ وَكَانَ ذَلِكَ التِّلْمِيذُ مَعْرُوفاً عِنْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَدَخَلَ مَعَ يَسُوعَ إِلَى دَارِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ. وَأَمَّا بُطْرُسُ فَكَانَ وَاقِفاً عِنْدَ الْبَابِ خَارِجاً. فَخَرَجَ التِّلْمِيذُ الآخَرُ الَّذِي كَانَ مَعْرُوفاً عِنْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَكَلَّمَ الْبَوَّابَةَ فَأَدْخَلَ بُطْرُسَ. فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ الْبَوَّابَةُ لِبُطْرُسَ: «أَلَسْتَ أَنْتَ أَيْضاً مِنْ تلامِيذِ هَذَا الإِنْسَانِ؟» قَالَ ذَاكَ: «لَسْتُ أَنَا». وَكَانَ الْعَبِيدُ وَالْخُدَّامُ وَاقِفِينَ وَهُمْ قَدْ أَضْرَمُوا جَمْراً لأَنَّهُ كَانَ بَرْدٌ وَكَانُوا يَصْطَلُونَ وَكَانَ بُطْرُسُ وَاقِفاً مَعَهُمْ يَصْطَلِي. فَسَأَلَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ يَسُوعَ عَنْ تلامِيذِهِ وَعَنْ تَعْلِيمِهِ. أَجَابَهُ يَسُوعُ: «أَنَا كَلَّمْتُ الْعَالَمَ علاَنِيَةً. أَنَا عَلَّمْتُ كُلَّ حِينٍ فِي الْمَجْمَعِ وَفِي الْهَيْكَلِ حَيْثُ يَجْتَمِعُ الْيَهُودُ دَائِماً. وَفِي الْخَفَاءِ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ. لِمَاذَا تَسْأَلُنِي أَنَا؟ اِسْأَلِ الَّذِينَ قَدْ سَمِعُوا مَاذَا كَلَّمْتُهُمْ. هُوَذَا هَؤُلاَءِ يَعْرِفُونَ مَاذَا قُلْتُ أَنَا». وَلَمَّا قَالَ هَذَا لَطَمَ يَسُوعَ وَاحِدٌ مِنَ الْخُدَّامِ كَانَ وَاقِفاً قَائِلاً: «أَهَكَذَا تُجَاوِبُ رَئِيسَ الْكَهَنَةِ؟». أَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ قَدْ تَكَلَّمْتُ رَدِيّاً فَاشْهَدْ عَلَى الرَّدِيِّ وَإِنْ حَسَناً فَلِمَاذَا تَضْرِبُنِي؟». وَكَانَ حَنَّانُ قَدْ أَرْسَلَهُ مُوثَقاً إِلَى قَيَافَا رَئِيسِ الْكَهَنَةِ. وَسِمْعَانُ بُطْرُسُ كَانَ وَاقِفاً يَصْطَلِي. فَقَالُوا لَهُ: «أَلَسْتَ أَنْتَ أَيْضاً مِنْ تلامِيذِهِ؟» فَأَنْكَرَ ذَاكَ وَقَالَ: «لَسْتُ أَنَا». قَالَ وَاحِدٌ مِنْ عَبِيدِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَهُوَ نَسِيبُ الَّذِي قَطَعَ بُطْرُسُ أُذْنَهُ: «أَمَا رَأَيْتُكَ أَنَا مَعَهُ فِي الْبُسْتَانِ؟». فَأَنْكَرَ بُطْرُسُ أَيْضاً. وَلِلْوَقْتِ صَاحَ الدِّيكُ. ثُمَّ جَاءُوا بِيَسُوعَ مِنْ عِنْدِ قَيَافَا إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ وَكَانَ صُبْحٌ. وَلَمْ يَدْخُلُوا هُمْ إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ لِكَيْ لاَ يَتَنَجَّسُوا فَيَأْكُلُونَ الْفِصْحَ. فَخَرَجَ بِيلاَطُسُ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: «أَيَّةَ شِكَايَةٍ تُقَدِّمُونَ عَلَى هَذَا الإِنْسَانِ؟». أَجَابُوا: «لَوْ لَمْ يَكُنْ فَاعِلَ شَرٍّ لَمَا كُنَّا قَدْ سَلَّمْنَاهُ إِلَيْكَ!». فَقَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «خُذُوهُ أَنْتُمْ وَاحْكُمُوا عَلَيْهِ حَسَبَ نَامُوسِكُمْ». فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «لاَ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَقْتُلَ أَحَداً». لِيَتِمَّ قَوْلُ يَسُوعَ الَّذِي قَالَهُ مُشِيراً إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يَمُوتَ. ثُمَّ دَخَلَ بِيلاَطُسُ أَيْضاً إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ وَدَعَا يَسُوعَ وَقَالَ لَهُ: «أَأَنْتَ مَلِكُ الْيَهُودِ؟». أَجَابَهُ يَسُوعُ: «أَمِنْ ذَاتِكَ تَقُولُ هَذَا أَمْ آخَرُونَ قَالُوا لَكَ عَنِّي؟». أَجَابَهُ بِيلاَطُسُ: «أَلَعَلِّي أَنَا يَهُودِيٌّ؟ أُمَّتُكَ وَرُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ أَسْلَمُوكَ إِلَيَّ. مَاذَا فَعَلْتَ؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هَذَا الْعَالَمِ لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لاَ أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ. وَلَكِنِ الآنَ لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا». فَقَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «أَفَأَنْتَ إِذاً مَلِكٌ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنْتَ تَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ. لِهَذَا قَدْ وُلِدْتُ أَنَا وَلِهَذَا قَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ لأَشْهَدَ لِلْحَقِّ. كُلُّ مَنْ هُوَ مِنَ الْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي». قَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «مَا هُوَ الْحَقُّ؟». وَلَمَّا قَالَ

هَذَا خَرَجَ أَيْضاً إِلَى الْيَهُودِ وَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً. وَلَكُمْ عَادَةٌ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ وَاحِداً فِي الْفِصْحِ. أَفَتُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ مَلِكَ الْيَهُودِ؟». فَصَرَخُوا أَيْضاً جَمِيعُهُمْ: «لَيْسَ هَذَا بَلْ بَارَابَاسَ». وَكَانَ بَارَابَاسُ لِصّاً

الجزء الخاسر: إنجيل الفداء

هذه الأصحاحات تشمل:

التسليم- المحاكمة أمام الهيئات الدينية، المحاكمة أمام الدولة الرومانية- النهاية- القيامة (الحياة الجديدة)- صور مستيكية لمستقبل الكنيسة الرسولية

خصائص الأصحاحين الثامن عشر والتاسع عشر

+ يرتفع فيهما القديس يوحنا فوق السرد التاريخي لحوادث الآلام والصلب ليجذب انتباه القارىء إلى ما تحمله الحوادث من معان هامة.

+ فالآلام والموت، وحتى القيامة، تحمل أقصى الاستعلان عن شخصية المسيح.

+ كل حديث وكل قول جاء معه، يحمل في أعماقه صفة الآية التي تشير إلى مضمون يتفوق كثيراً عن مجرد السرد التاريخي الذي جاء به هذا الحدث وهذا القول.

+ ليس من الصواب أن نعتبر ما أضافه القديس يوحنا في رواية الآلام والصلب أنه تكميل لما جاء في الثلاثة الأناجيل، بل الصواب هو أن هذه الإضافات تنطلق من قاعدة شاهد عيان كان على قرب وثيق مع المسيح في كل تحركاته، إذ لازمه ولم يتخلى عنه لحظة واحدة، مما أهله أن يصف، عن ملء الرؤيا والمعرفة الباشرة، الأمر الذي لم يتسنى لبقية التلاميذ.

القديس يوحنا، في سرده لحوادث الآلام والصلب، اكتفى، كباقي رواية الإنجيل، بمواقف اختارها خصيصا دون بقية الحوادث والآيات، ليتخذ منها أساساً يبني عليه القصد الكلي والنهائي من الانجيل، وهو استعلان شخص المسيح باعتباره ابن الله، الأمر الذي اعتبره دستوراً للايمان المسيحي والحياة الأبدية، واعتبرته الكنيسة من بعده كذلك.

وعلى هذا الأساس، يمكن أن نستخلص من رواية القديس يوحنا عناصر استعلانية واضحة تكشف عن لاهوت المسيح، وهو يجوز آلامه.

أولاً: المسيح جاز الآلام عن مشيئة وإرادة طوعية:

١٨:٤ فَخَرَجَ يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟».

١٨:٨ أَجَابَ: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي أَنَا هُوَ. فَإِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي فَدَعُوا هَؤُلاَءِ يَذْهَبُونَ».

١٨:١١ فَقَالَ يَسُوعُ لِبُطْرُسَ: «اجْعَلْ سَيْفَكَ فِي الْغِمْدِ. الْكَأْسُ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ أَلاَ أَشْرَبُهَا؟».

١٨:٣٦ أَجَابَ يَسُوعُ: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هَذَا الْعَالَمِ لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لاَ أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ. وَلَكِنِ الآنَ لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا».

١٩:٢٨ بَعْدَ هَذَا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ فَلِكَيْ يَتِمَّ الْكِتَابُ قَالَ: «أَنَا عَطْشَانُ».

١٩:٣٠ فَلَمَّا أَخَذَ يَسُوعُ الْخَلَّ قَالَ: «قَدْ أُكْمِلَ». وَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ.

ثانياً: الحوادث تنطق أن المسيح كان يكمل بآلامه خطة إلهية مرسومة مسبقاً.

١٨:٨-٩ فَسَأَلَهُمْ أَيْضاً: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟» فَقَالُوا: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ». أَجَابَ: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي أَنَا هُوَ. فَإِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي فَدَعُوا هَؤُلاَءِ يَذْهَبُونَ».

١١:١٨ فَقَالَ يَسُوعُ لِبُطْرُسَ: «اجْعَلْ سَيْفَكَ فِي الْغِمْدِ. الْكَأْسُ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ أَلاَ أَشْرَبُهَا؟».

١١:١٩ أَجَابَ يَسُوعُ: « لَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَيَّ سُلْطَانٌ الْبَتَّةَ لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقُ. لِذَلِكَ الَّذِي أَسْلَمَنِي إِلَيْكَ لَهُ خَطِيَّةٌ أَعْظَمُ».

٢٤:١٩ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لاَ نَشُقُّهُ بَلْ نَقْتَرِعُ عَلَيْهِ لِمَنْ يَكُونُ». لِيَتِمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: «اقْتَسَمُوا ثِيَابِي بَيْنَهُمْ وَعَلَى لِبَاسِي أَلْقَوْا قُرْعَةً». هَذَا فَعَلَهُ الْعَسْكَرُ

٢٨:١٩ بَعْدَ هَذَا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ فَلِكَيْ يَتِمَّ الْكِتَابُ قَالَ: «أَنَا عَطْشَانُ».

ثالثاً: سمات التفوق الإلهي من داخل ذلة القبض، وعصة الآلام، وعار الصليب:

٦:١٨ فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي أَنَا هُوَ» رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ.

٢٠:١٨-٢١ أَجَابَهُ يَسُوعُ: «أَنَا كَلَّمْتُ الْعَالَمَ علاَنِيَةً. أَنَا عَلَّمْتُ كُلَّ حِينٍ فِي الْمَجْمَعِ وَفِي الْهَيْكَلِ حَيْثُ يَجْتَمِعُ الْيَهُودُ دَائِماً. وَفِي الْخَفَاءِ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ. لِمَاذَا تَسْأَلُنِي أَنَا؟ اِسْأَلِ الَّذِينَ قَدْ سَمِعُوا مَاذَا كَلَّمْتُهُمْ. هُوَذَا هَؤُلاَءِ يَعْرِفُونَ مَاذَا قُلْتُ أَنَا».

٣٧:١٨ فَقَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «أَفَأَنْتَ إِذاً مَلِكٌ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنْتَ تَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ. لِهَذَا قَدْ وُلِدْتُ أَنَا وَلِهَذَا قَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ لأَشْهَدَ لِلْحَقِّ. كُلُّ مَنْ هُوَ مِنَ الْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي».

٣٦:١٩-٣٧ لأَنَّ هَذَا كَانَ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: «عَظْمٌ لاَ يُكْسَرُ مِنْهُ». وَأَيْضاً يَقُولُ كِتَابٌ آخَرُ: «سَيَنْظُرُونَ إِلَى الَّذِي طَعَنُوهُ».

أما العناصر الجديدة التي ساهم بها إنجيل يوحنا في خزانة الإنجيل، فنحن نلخصها في الآتي:

١- كلمات القوة والسلطان لحظة القبض عليه: (١٨:٤-٩).

٢- الفحص والمحاكمة أمام حنان رئيس الكهن: (١٨:١٣-٢٤).

٣- الاجتماع الأول بين اليهود وبيلاطس، الذي أعقبه إجراء سري لاستجواب بيلاطس: (١٨:٢٨-٣٧، ١٩:٩-١١)

٤- الاستهزاء الأول بالمسيح وهو مقبوض عليه. وخروج بيلاطس بجملته المشهورة: «هوذا الإنسان»: (١٩:٢-٥).

٥- إصرار بيلاطس على كتابة ما كتب بخصوص ملك اليهود: (١٩:٢١-٢٢).

٦- تسليم المسيح والدته القديسة مريم العذراء للتلميذ الذي يحبه: (١٩:٢٥-٢٧).

٧- الجملة الأخيرة: «أنا عطشان«، و«قد أكمل.» (١٩:٢٨-٣٠).

٨- طعن جنب المسيح بالحربة، وخروج دم وماء: (١٩:٣١-٣٧).

٩- عودة نيقوديموس علناً، وقيامه بواجب الأمانة التي أخفاها طويلاً في الظلام: (١٩:٣٩).

وقد برزت في رواية القديس يوحنا إضافات، استطراداً للشرح الضمني، هي ذات وزن تاريخي للرواية، وعلى غاية من الأهمية، وتوضح أن الذي يقولها شاهد عيان وخبير بأمور الرب:

١- «قال يسوع هذا (صلاة يو١٧)، «وخرج» مع تلاميذه إلى عبر وادي قدرون حيث كان بستان ...» (١:١٨)

٢- «وكان يهوذا مسلمه يعرف الموضع، لأن يسوع اجتمع هناك كثيرا مع تلاميذه.» ٢:١٨)

٣- «ثم إن سمعان بطرس كان معه سيف، فاستله وضرب عبد رئيس الكهة، فقطع أذنه اليمنى. وكان اسم العبد ملخس (١٠:١٨)

٤- «فقال يسوع لبطرس: اجعل سيفك في الغمد، الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟» (١١:١٨)

٥- «ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا عل يسوع، وأوثقوه» (١٢:١٨)

٦- «ومضوا به إلى حنان أولاً، لأنه كان حما قيافا، الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة.» (١٣:١٨)

٧- «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع. وكان ذلك التلميذ معروفاً عند رئيس الكهنة، فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة.» (١٥:١٨)

٨- «واما بطرس فكان واقفاً عند الباب خارجاً. فخرج التلميذ الأخر الذي كان معروفاً عند رئيس الكهنة، وكلم البوابة، فأدخل بطرس.» (١٦:١٨)

٩- «قال واحد من عبيد رئيس الكهة، وهو نسيب الذي قطع بطرس أذنه: أما رأيتك أنا معه في البستان؟» (٢٦:١٨)

١٠- «ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية، وكان صبح. ولم يدخلوا هم إلى دار الولاية، لكي لا يتنجسوا، فيأكلون الفصح.» (٢٨:١٨)

١١- «وكان استعداد الفصح، ونحو الساعة السادسة، فقال لليهود: هوذا ملككم.» (١٤:١٩)

١٢- «فخرج وهو حامل صليبه، إلى الموضع الذي يقال له موضع الجمجمة، ويقال له بالعبرانية جلجثة.» (١٧:١٩)

١٣- «وكتب بيلاطس عنواناً، ووضعه على الصليب، وكان مكتوباً: يسوع الناصري ملك اليهود.» (١٩:١٩)

١٤- «ثم إن العسكر لما كانوا قد صلبوا يسوع، أخذوا ثيابه وجعلوها أربعة أقسام، لكل عسكري قسماً. وأخذوا القميص أيضاً، وكان القميص بغير خياطة، منسوجاً كله من فوق.» (٢٣:١٩)

١٥- «وكان في الموضع الذي صُلب فيه بستان، وفي البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط.» (٤١:١٩)

الآلام والصليب ساعة بساعة

يقدم لنا الأسقف التقليدي والعالم الكتابي وستكوت حوادث القبض والمحاكمة والآلام والصلب موقعة على الساعات في جدول زمني رتيب» نقدمه للقارىء، على أساس الساعة العمول بها الأن في العالم. أما الحساب الزمني لساعات اليهودى والتي لا تزال تعمل بها الكنيسة، فنضعها بين أقواس:

الساعة	الحادثة الزمنية
الواحدة بعد نصف الليل (السابعة من الليل)	أ ــ معاناة الآلام في صلاة البستان.
	ب ــ ظهور يهوذا مع الجند والخدام.
	ج ــ القبض على المسيح، والذهاب به إلى منزل رئيس الكهنة.
الثانية بعه نصف الليل (صباحاً) (الثامنة من الليل)	المحاكمة الأو لية أمام حنان، بحضور قيافا.
الثالثة بعد نصف الليل (صباحاً) (التاسعة من الليل)	محاكمة قيافا، ومجلس السنهدريم في اجتماع غير عادي.
الخامسة بعد نصف الليل (فجراً) (الحادية عشر من الليل[1])	أ ــ خروج حكم السنهدريم.
	ب ــ وساقوه إلى بيلاعلى حيث الفحص الأول في دار الولاية
الخامسة والنصف (صباحاً) (منتصف الثانية عشر من الليل)	أ– الفحص أمام هيرودس .
	ب– الجلد، والاستهزاء الأول في قصر هيرودس.
السادسة والنصف صباحا (منتصف الساعة الاولى من النهار)	النطق بالحكم من فم بيلاطس
السابعة صباحا (الساعة الاولى من النهار)	الستهزاء الثاني للعسكر «بالملك»
التاسعة صباحا (الساعة الثالثة من النهار[2])	أ ــ بدء الصلب.
	ب ــ رفض الخل
الثانية عشر ظهراً (الساعة السادسة من النهار	بدء النزع الأخير.
من الثانية عشر ظهرا إلى الثالثة عصرا (من السادسة حتى التاسعة)	«كانت ظلمة عل الأرض»[3] .
الساعة الثالثه عصراً (الساعة التاسعة من النهار)	النهاية «قد أُكمل»

والآن حانت الساعة ليقدم المسيح ذبيحة نفسه، علناً، أمام التلاميذ والعالم والتاريخ.

١:١٨ قَالَ يَسُوعُ هَذَا وَخَرَجَ مَعَ تلاَمِيذِهِ إِلَى عَبْرِ وَادِي قَدْرُونَ حَيْثُ كَانَ بُسْتَانٌ دَخَلَهُ هُوَ وَتلاَمِيذُهُ.

«خَرَجَ»: لأول وهلة، تفيد هذه الكلمة أن الرب خرج من العلية التي كانوا مجتمعين فيها، ولكن في موضع آخر، وفي نهاية الأصحاح الرابع عشر، بعد الحديث على العشاء، نسمع الرب يقول: «قوموا ننطلق من ههنا»

---

[1] لو٢٢:٦٦ وَلَمَّا كَانَ النَّهَارُ اجْتَمَعَتْ مَشْيَخَةُ الشَّعْبِ: رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ وَأَصْعَدُوهُ إِلَى مَجْمَعِهِمْ.

مت٢٧:١ وَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ تَشَاوَرَ جَمِيعُ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَشُيُوخُ الشَّعْبِ عَلَى يَسُوعَ حَتَّى يَقْتُلُوهُ.

مر١٥:١ وَلِلْوَقْتِ فِي الصَّبَاحِ تَشَاوَرَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ وَالْكَتَبَةُ وَالْمَجْمَعُ كُلُّهُ فَأَوْثَقُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ وَأَسْلَمُوهُ إِلَى بِيلاَطُسَ

[2] مر١٥:٢٥ وَكَانَتِ السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ فَصَلَبُوهُ.

[3] مت٢٧:٤٥ وَمِنَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ.

مر١٥:٣٣ وَلَمَّا كَانَتِ السَّاعَةُ السَّادِسَةُ كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ.

لو٢٣:٤٤ وَكَانَ نَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ فَكَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ.

(يو١٤: ٣١)، كإفادة للخروج من العلية. لذلك يعلق بعض الشراح على الخروج هنا أنه كان من أحد الأروقة في الهيكل التي عرج عليها الرب في طريقه إلى جثيماني في جبل الزيتون.

ويرجح ذلك، العالم وستكوت، بسبب قول الإنجيل أنه خرج إلى عبر وادي قدرون، وهو الوادي الذي يفصل الهيكل عن جبل الزيتون، بمعنى أن الرب اجتاز الأرض من الغرب، ناحية الهيكل، إلى الشرق. وهذا لا يتأتى، إلا إذا كان خارجاً من الهيكل، وغالباً من باب دمشق، وهو المرسوم عليه الكرمة الذهبية بأفرعها الممتدة. ولكن الذي يزيدنا شعوراً بصدق هذا الاحتمال، هو الإحساس الشديد الذي يخلفه المسيح في صلاته التي قدمها إلى الآب بالحضرة الإلهية المهيبة التي يصورها الهيكل: «بيتي بيت الصلاة يدعى» (مت٢١: ١٣). خاصة وهو يرفع بصره بعيداً، نحو الكنيسة الجديدة الأزلية، حيث السجود للأب سيكون بالروح والحق!

«قدرون»: هو نهر يجف صيفاً، فيترك قاعه جافاً كالوادى، ليمر فوقه المارة.

ولكن يبدو أن القديس يوحنا اعتنى أن يقدم لنا هذا الوصف التفصيلي للرحلة الحزينة للمسيح، وهو خارج من المدينة صوب جبل الزيتون، مُطارداً من التلميذ الخائن والشعب الأحمق، ليعطينا نفس الصورة النبوية لداود «ملك إسرائيل»، وهو خارج باكياً حافي القدمين، هارباً مم وجه «أبنه» أبشالوم الطامع في ملك أبيه، متسلحاً بمشورة أخيتوفل، وبجيش من الشعب الأحمق الذي أغواه ضد أبيه:

+ «وكانت جميع الأرض تبكي بصوت عظم، وجميع الشعب يعبرون، وعبر الملك في وادي قدرون، وعبر جميع الشعب نحو طريق البرية.» (٢صم١٥: ٢٣)

+ «وأما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون، كان يصعد باكياً، ورأسه مغطى، ويمشي حافياً، وجميع الشعب الذين معه غطوا كل واحد رأسه، وكانوا يصعدون وهم يبكون.» (٢صم١٥: ٣٠)

أما أبشالوم الابن الجاهل، فأصابه سهم في ظهره وعُلق عل شجرة ميتاً. وأما أخيتوفل، صاحب المشورة، فذهب وخنق نفسه (٢صم١٧: ٢٣)!!

«... حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه»: هذا هو بستان «جثسيمانى»، الاسم الذي أطلقه كل من القديس متى والقديس مرقس. ويحكي لنا المؤرخ يوسيفوس اليهودي، أن مثل هذه البساتين الصغيرة كانت منتشرة عل جبل الزيتون، وكانت تدعى بالبراديسوى، أي «الجنات»

وكلمة «جثسيماني» من مقطعين «جاث _ شماي» وتعني «معصرة الزيت»:

+ «من ذا الآتي من أدوم بثياب حمر من بصرة، هذا البهي بملابسه، المتعظم بكثرة قوته؟ أنا المكتم بالبر، العظيم للخلاص. ما بال لباسك محمر وثيابك كدائس المعصرة؟ قد دست المعصرة وحدي، ومن الشعوب لم يكن معي أحد. فدستهم بغضبي، ووطئتهم بغيظي، فرش عصيرهم على ثيابي، فلطخت كل ملابسي. لأن يوم النقمة في قلبي، وسنة مفديي قد أتت.» (إش٦٣: ١-٤)

كثير من الشراح والقديسين الأوائل تغنوا ببستان جثسيماني كبستان، أو بالتعبير الإنجيلي الصحيح جنة، وبتعبيرنا «جنينة» أي تصغير «جنة» ، وذلك في مقابل جنة عدن، فكما فقد الإنسان الأول فيها هويته، إذ طغى عليه الشيطان وأغواه وأحدره إلى الأرض عرياناً، مفضوحاً، ميتاً بجهله؛ جاء ابن الإنسان ودخلها مصلياً، وانتقم للانسان، بأن أسقط الشيطان من السماء كالبرة المنطفيء، وأحدره إلى الهاوية، مكبلاً بقيود الظلام، وأعاد آدم إلى رتبته الأولى حياً، غالباً الموت، لميراث نعيم الحياة الأبدي .

وربما يكون القديس يوحنا قد وضع موضوع المقابلة في أمر جنة عدن والبستان = الجنة ضمن اعتباره، إذ يكرر مرة أخرى أن موت الرب وقيامه كانا في بستان (جنة) أيضاً: «وكان في الموضع الذي صُلب فيه بستان، وفي البستان قبر جديد لم يدفن فيه أحد قط» (يو١٩:٤١). بل وأمعن في أمر البستان، أذ مريم توهمت أن المسيح القائم من الموت أنه هو «البستاني»: «فظنت تلك أنه البستاني، فقالت له: يا سيد إن كنت أنت قد حملته، فقل لي أين وضعته وأنا آخذه» (يو٢٠:١٥). ولم تعلم مريم أنه «البستاني» الحقيقي، الذي فلح لنا الفردوس الجديد، عوض آدم الذي أفقدنا الفردوس الأول.

«دخله هو وتلاميذه»: واضح أن البستان له أسوار وباب. لقد كان مكاناً مختاراً للرب والتلاميذ لقضاء أوقات وأيام للراحة والصلاة والتأمل. هنا يذكر الإنجيل التلاميذ بكامل عددهم: «تلاميذه»، بعد أن أسقط يهوذا، فتلاميذ المسيح لا يجمعهم عدد، بل يجمعهم الحب والإيمان اللذين فقدها يهوذا، ففقد نفسه، ولم يفقد التلاميذ شيئاً بفقده.

لم يذكر القديس يوحنا شيئاً عن معاناة الرب في الصلاة التي اشتهرت بها جثسيماني، ولكن لم يغفل القديس يوحنا مرارة الروح التي صلى بها المسيح في جثسيماني، وعمق المعاناة التي جازها، وصرخة الجزع التي خرجت لتعبر عن ثقل التجربة؛ ولكنه ذكرها مسبقاً عبر أحاديث هادفة، ولم يشأ أن يركز عليها تركيزاً كباقي الإنجيليين. لقد ذكرها في موضوع تعليمي يليق بموت الذات الإرادي في موضوع موت حبة الحنطة، وضمها إلى ساعة الصليب، ليفهمها القارىء اللبيب:

+ «وَأَمَّا يَسُوعُ فَأَجَابَهُمَا: «قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ لِيَتَمَجَّدَ ابْنُ الإِنْسَانِ. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الأَرْضِ وَتَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلَكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ. مَنْ يُحِبُّ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا وَمَنْ يُبْغِضُ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَحْفَظُهَا إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ. إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدِمُنِي فَلْيَتْبَعْنِي وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا هُنَاكَ أَيْضاً يَكُونُ خَادِمِي. وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدِمُنِي يُكْرِمُهُ الآبُ. اَلآنَ نَفْسِي قَدِ اضْطَرَبَتْ. وَمَاذَا أَقُولُ؟ أَيُّهَا الآبُ نَجِّنِي مِنْ هَذِهِ السَّاعَةِ. وَلَكِنْ لأَجْلِ هَذَا أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ. أَيُّهَا الآبُ مَجِّدِ اسْمَكَ». فَجَاءَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ: «مَجَّدْتُ وَأُمَجِّدُ أَيْضاً». فَالْجَمْعُ الَّذِي كَانَ وَاقِفاً وَسَمِعَ قَالَ: «قَدْ حَدَثَ رَعْدٌ». وَآخَرُونَ قَالُوا: «قَدْ كَلَّمَهُ مَلاَكٌ». أَجَابَ يَسُوعُ: «لَيْسَ مِنْ أَجْلِي صَارَ هَذَا الصَّوْتُ بَلْ مِنْ أَجْلِكُمْ. اَلآنَ دَيْنُونَةُ هَذَا الْعَالَمِ. اَلآنَ يُطْرَحُ رَئِيسُ هَذَا الْعَالَمِ خَارِجاً. وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ». قَالَ هَذَا مُشِيراً إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يَمُوتَ.»

نعم، هكذا استوفى القديس يوحنا كل تعبيرات جثسيماني وكل أنينها وتنهداتها، بل وكل رعدتها وجزعها، ولكنه صبها صباً في قالب تعليمي. اسمع كيف يسرد القديس يوحنا قول المسيح، في جثسيماني، عن موضوع «شرب الكأس»، مخاطبا بطرس، وكل بطرس، الذي جزع من شربها، مع أنه شربها في النهاية: «اجعل سيفك في الغمد، الكأس التي أعطاني الآب، ألا أشربها» (يو١٨:١١)

واضح أن القديس يوحنا ثبت نظره على الصليب كمجد، والآلام كطريق للمجد، والموت كانتصار. هكذا اختزل القديس يوحنا محنة جثسيماني في جملة واحدة: «الكأس التي أعطاني الآب، ألا أشربها؟» (يو١٨:١١)

٢:١٨ وَكَانَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ يَعْرِفُ الْمَوْضِعَ لأَنَّ يَسُوعَ اجْتَمَعَ هُنَاكَ كَثِيراً مَعَ تلاَمِيذِهِ.

القول فيه دفاع عن كون المسيح لم يخرج من المدينة ويذهب إلى ظلال شجر جبل الزيتون هروبا من يهوذا والمطاردين، فالقديس يوحنا يؤكد أنه المكان المختار الذي كان يلجأ إليه المسيح كثيراً . والمسيح، كيوحنا، يعلم أن يهوذا يعرف الموضح جيداً، فكأنه ذهب إلى هناك لا هروبا من التسليم بل تسهيلاً للخائن أن يكمل مشورته: «ما

أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة» !!! فوقت الاختباء قد ولى، والآن هي ساعة العلانية.

ويبدو أن بستان جثسيماني كان يمتلكه سرا أحد تلاميذ الرب، تماما كالعلية التي تم الاجتماع فيها، فالقديس متى يلمح على ذلك: «اذهبوا إلى المدينة إلى فلان (سر)، وقولوا له: المعلم يقول: إن وقتي قريب، عندك أصنع الفصح مع تلاميذي.» (مت٢٦:١٨)

وفي رواية القديس مرقس لحوادث جثسيماني، يذكر عرضاً أمراً عجيباً يلفة السر من كل جانب، إذ يذكر بالحرف الواحد أنهم وهم داخل البستان، أقبل عليهم يهوذا ومعه جمع كثير، ويردف ويقول: «فأجاب يسوع وقال لهم: كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصي لتأخذوني. كل يوم كنت معكم في الهيكل أعلم ولم تمسكوني، ولكن لكي تكمل الكتب. فتركه الجميع، وهربوا. وتبعه شاب لابساً إزارا على عريه، فأمسكه الشبان، فترك الإزار وهرب منهم عرياناً» (مر١٤:٤٨-٥٢)

والمعتقد أن هذا الشاب لم يكن إلآ صاحب البستان «جثسيماني»، حيث كان فيه يؤانس ضيوفه ويرحب بهم، ثم ذهب لينعس بإزار خفيف على عريه. ثم هب من نومه على ضجة العسكر، وأراد أن يتبع المعلم، وأخيراً هرب بجلده، وساعده عريه على ذلك. ولم يكن هذا الشاب أيضاً حسب التقليد إلا مرقس الرسول، صاحب العلية أيضاً، وهو الوحيد الذي كتب قصة عريه وهربه، كما أنه هو الوحيد الذي ذكر اسم البستان «جثسيماني»، وقد أخذ عنه القديس متى وحده هذا الاسم!

«لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه»: «اجتمع»: واضح من اللفظة اليونانية أن البستان كان مخصصا لاجتماع الرب مع تلاميذه، بمعنى اجتماع للصلاة والتعليم والقيادة الروحية أكثر منه مكان راحة واستجمام: «خرج إلى الجبل ليصلي، وقضى الليل كله في الصلاة» (لو٦:١٢)»، «وكان في النهار يعلم في الهيكل، وفي الليل يخرج ويبيت في الجبل، الذي يدعى جبل الزيتون» (لو٢١:٣٧). وربما إذ كان التلاميذ قد تعودوا النوم هناك، أنهم بمجرد أن تركهم المسيح ليصلي فإنهم ناموا جميعاً! بل وربما على هذا الأساس، اعتقد يهوذا أنه سيداهم الرب والتلاميذ وهم نيام، كما اعتادوا في الأيام السابقة.

كذلك واضح من الآية: «اجتمع هناك كثيراً» ، أن تواجد المسيح في أورشليم لم يقتصر على موسم الفصح هذه المرة فقط، فإنجيل يوحنا يذكر زيارات المسيح لأورشليم لثلاثة أعياد فصح خلت، مع الأعياد الأخرى الرسمية، وهو في هذه المرة لم يغادر أورشليم منذ عيد المظال وحتى هذا الفصح الأخير.

١٨:٣ فَأَخَذَ يَهُوذَا الْجُنْدَ وَخُدَّاماً مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ وَجَاءَ إِلَى هُنَاكَ بِمَشَاعِلَ وَمَصَابِيحَ وَسِلاَحٍ.

وأخيراً، انضمت قوات الظلمة معاً على ثلاث درجاتها: تلميذ من الخاصة الاثني عشر المختارين؛ ورؤساء كهنة وفريسيون، حكماء صهيون، مختفين وراء خدامهم؛ ثم سفارة عن هيئة هذا العالم، والكل بقيادة الشيطان: فبالنسبة للتلميذ، قال المسيح بخصوصه: «فغمس اللقمة، وأعطاها ليهوذا سمعان الإسخريوطي. فبعد اللقمة، دخله الشيطان، فقال له يسوع: ما أنت تعمله، فاعمله بأكثر سرعة.» (يو١٣:٢٦-٢٧)

وبالنسبة لرؤساء الكهنة والفريسين، حكماء إسرائيل، فقد خصهم المسيح بالقول: «أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالاً للناس من البدء.» (يو٨:٤٤)

أما عن هيئة هذا العالم، فقد سخرها رؤساء الكهنة لخدمة أغراضهم وهم أبرياء. هؤلاء خرجوا بمشاعل يفتشون عن

النور الحقيقي الذي ينير كل العالم مسلحين، يتسترون بالسلاح خلف رعبتهم. وعند أول مواجهة سقطوا على الأرض، وسيوفهم في أيديهم.

ومن الآية (١٢) القادمة، التي يذكر فيها القديس يوحنا: «الجند والقائد وخدام اليهود» (يو١٨:١٢)، يتضح من اللغة اليونانية نوع وعدد العساكر ورتبة القائد:

«الجند»: ومقابلها باللاتينية (   )، وتعني الاورطة، وتعدادها حوالى ٢٠٠ جندي. وهي ثلث الفرقة المكلفة أصلاً بحراسة الهيكل ، ومقرها قلعة أنطونيا شمال شرقي الهيكل.

«والقائد»، وهو كما يتضح من اليونانية رئيس ألف، وهى رتبة كبيرة.

أما كلمة «خداماً» من عد رئيس الكهنة التي جاءت في الأية (١٢) تحت «خدام اليهود» فهي في اللغة اليونانية (   )، وترجمتها «ضباطاً». وهؤلاء بعضهم ضباط رومانيون مكلفون بخدمة حراسة الهيكل، ولكنهم كانوا يأتمرون بأمر أعضاء السنهدريم لحفظ الأمن، بالنسبة لخدمة الهيكل، خاصة في أيام الأعياد.

ومن هذه المجموعة المشكلة من كافة اختصاصات القوات الرومانية واليهودية، يتضح مقدار الرعبة التي ملأت قلوب رؤساء الكهنة والفريسين والسنهدريم من جهة خطورة القبض على المسيح، لا خوفاً من هياج الشعب، كما يدعون، بل بسبب الرعبة من شخص الرب.

وقد اعتنى القديس يوحنا في تعداد أنواعها ودرجاتها وعددها ضمناً ليعطي صورة حقيقية لمشهد القبض المخيف والمرعب.

كذلك من قول المسيح في إنجيل القديس متى: «أتظن أني لا أستطيع الأن أن أطلب إلى أبي، فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة، فكيف تكمل الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون» (مت٢٦:٥٣-٥٤)، نستشف أن المسيح كان يهدىء من روع بطرس، الذي ارتاع من كثرة الجند، وخرج من هدوئه وبدأ يضرب بالسيف.

وهذا كله لا يمكن أن يجري بهذه الضخامة والسهولة، بدون ترتيب مسبق مع الحكومة الرومانية. وإذا لاحظنا مجريات الحوادث بدقة، نجد أن دورة الفحص لقضية المسيح انتهت عند قيافا بعد منتصف الليل، ثم في الحال رحلوا المسيح إلى دار الولاية، أي مقر الحكومة الرومانية.

ويقول القديس يوحنا: «ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية وكان صبح» (يو١٨:٢٨). كلمة «صبح» هنا، ترجمة غير معبرة تماما، فهي باليوناية تعني «مبكراً جداً». وتكميل الكلام: «فخرج بيلاطس إليهم... » (يو١٨:٢٩)

هذا الاهتمام من جانب بيلاطس وخروجه باكراً جداً، حوالى الساعة الخامسة صباحاً لمقابلة المشتكين، وقبوله فحص القضية في الحال أمر يسير الدهشة، ويخفي وراءه سعاية ضخمة من رؤساء الكهنة إذ لم تكن مؤامرة مدبرة مع بيلاطس نفسه. إلى هذا الحد بلغ تدبير رؤساء الكهنة، أو بلغة العصر «التكتيك»، الذي يحوطه الشك في ذمة هؤلاء وهؤلاء!

ومن جهة أخرى لا تخلو من الأهمية، فهناك ما جاء في إنجيل القديس متى من جهة بيلاطس: «وإذ كان جالساً على كرسي الولاية، أرسلت إليه امرأته قائلة: إياك وذلك البار، لأني تألمت اليوم كثيراً في حلم من أجله» (مت٢٧:١٩). ولكنه ضرب بتحذير امرأته عرض الحائط. ويعلق القديس متى على ذلك بقوله: «ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرضوا الجموع على أن يطلبوا باراباس ويهلكوا يسوع» (مت٢٧:٢٠). يتضح من هذا ثقل الضغط

الذي مارسه رؤساء الكهنة بوسائلهم على الحاكم الروماني المهزوز.

٤:١٨ فَخَرَجَ يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟».

لم يتركهم المسيح ليقتحموا أسوار البستان، بل خرج إليهم. لقد شعر السيح بضرورة الملاقاة لاهوتيا، إذ لم يكن ممكناً أن يعطي للشر فرصة لمباغتة ابن الله. والعكس في اللاهوت صحيح، إذ أن عمل الله في الأساس، هو أن يباغت الشرير في عقر داره: لذا خرج للمباغتة، وهو عالم بكل ما سيأتي عليه، لأنه أراده، بل لأنه نزل من السماء ليلاقيه!

كانت رؤية المسيح سباقة لاكتشاف مجيئهم واقترابهم قبل أن يكتشفوا هم وجوده. «هوذا ابن الإنسان يُسلم إلى أيدي الخطاة. قوموا لنذهب (للملاقاة)، هوذا الذي يسلمني قد اقترب» (مر١٤: ٤١-٤٢). لقد تمت المقابلة داخل البستان، لأنه يبدو أن المسيح فتح لهم الباب، بدليل أن نسيب «ملخس» الذي قطع بطرس أذنه اليمنى قال لبطرس متعرفاً عليه: «أما رأيتك أنا معه في البستان» (يو١٩: ١١)

«عالم بكل ما يأتي عليه»: هذا اصطلاح فريد، يوضح أن الآلام أتت عليه من فوق، ولم تقتحم إرادته، كان يعلمها مسبقاً، بل أعد نفسه لها منذ ما قبل التجسد. لم يسقها عليه أحد مهما كان: «لم يكن لك عليّ سلطان البتة، لو لم تكن قد أعطيت من فوق.» (يو١٩: ١١)

«وقال لهم: من تطلبون»: مبادرة، بل مباغتة غير متوقعة، لم يكن يخطر لهم على بال أن الرب نفسه سيلاقيهم. لقد ظنوا، على أقصى تقدير، أنه أحد التلاميذ، لم يتعرفوا عليه على أضواء مشاعلهم الخافتة، ولم يسعفهم ضوء القمر وهو في اكتمال استدارته، فالليلة ليلة الرابع عشر من نيسان. لقد أدرك المسيح عجزهم عن التعرف عليه، فتقدم بسؤال من هو مشفق على جهلهم، وقد أعد لهم المفاجأة، إذ نوى أن يعلن لهم عن «شخصه»، لا عن اسمه فحسب!

٥:١٨ أَجَابُوهُ: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ». قَالَ لَهُمْ: «أَنَا هُوَ». وَكَانَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ أَيْضاً وَاقِفاً مَعَهُمْ.

اللقب فيه استهزاء، فهو الذي يدور على السنة غير المؤمنين به، لأنه فرق أن يُقال: «يسوع الناصرى»، وأن يقال «يسوع الذي من الناصرة»، كما جاء في التعريف الإنجيلي به (يو١: ٤٥).

«أنا هو»: بحسب الفهم البسيط، فإن المسيح هنا يعلن عن نفسه باعتباره أنه هو الذي يطلبونه، يسوع الناصري. ولكن كان مصاحباً لهذا النطق، استعلان فائق لشخصه، أراده المسيح إرادة، لكي يستخدمه كمساومة لفك الطوق عن التلاميذ الحاضرين!

أما يهوذا، فوقف مشدوهاً، والقبلة ميتة على فمه، فقد ألغى المسيح تديره، وأفقده قيمة المبادرة التي قام بها، إذ أعلن المسيح عن نفسه، بل عن شخصه الإلهي.

٦:١٨ فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي أَنَا هُوَ» رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ.

واضح هنا أيما وضوح، أن المسيح رفع الحجاب عن شخصه، فظهر بمجده إلى لحظة، فكان ذلك أشد مباغتة، تدافعوا على الأثر إلى الوراء: القائد والجند وفرقة الحرس، وسقطوا على الأرض، وسيوفهم وعصيهم ومصابيحهم ومشاعلهم بأيديهم أمام المسيح، وهو واقف بقامته في جلال مهيب. كان هذا هو صورة مصغرة لقول الكتاب: «عندما يأتي العدو كنهر، فنفخة الرب تدفعه» (إش٥٩: ١٩). وكانت هذه من المرات القليلة جداً التي استخدم

المسيح فيها سلطانه، وهدفه الوحيد في ذلك لا أن ينجو من أيديهم بل أن ينجي تلاميذه، في سبيل أن يتمم لهم مسعاهم، ويسلم نفسه لهم بحرية إرادته: «فلما رأيته، سقطت عند رجليه كميت، فرفع يده اليمنى علي قائلاً لي: لا تخف، أنا هو الأول والآخر.» (رؤ١:١٧)

الآن علم القائد وأعضاء فرقته والحرس من هو الذي يطلبون القبض عليه، والآن أصبح من السهل على المسيح أن يطلب، وكأنه على مستوى الأمر، أن يطلق سراح تلاميذه.

٧:١٨ فَسَأَلَهُمْ أَيْضاً: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟» فَقَالُوا: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ».

محاولة من المسيح لتلطيف الجو، وإعطائهم فرصة لاسترجاع وعيهم وشجاعتهم. وكأن تكرار السؤال بمثابة تذكيرهم بواجبهم المكلفين بتتميمه. ولكن بعد سقوطهم أمامه، عرفوا تماماً كيف يلتزمون حدود القبض، وفي الحدود الواجبة، بل ويصغون تماماً لما يقول.

٨:١٨ أَجَابَ: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي أَنَا هُوَ. فَإِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي فَدَعُوا هَؤُلاَءِ يَذْهَبُونَ».

«استيقظ يا سيف على راعي، وعلى رجل رفقتي، يقول رب الجنود. اضرب الراعي، فتتشتت الغنم، وأرد يدي على الصغار.» (زك١٣:٧)

الآن يملي المسيح شروطه، لم يتوسل المسيح، بل كان يأمر، وذلك من موقع التفوق على القائد والجند، ولم يكن أمامهم إلاّ قبول الشرط.

فإن كانوا قد جاءوا يطلبون المسيح فقط، وهذا من واقع إجابتهم مرتين، فقد صح أن يطالبهم المسيح بتنفيذ الأمر الواقع عليهم فقط؛ أي أن لا يقبضوا على التلاميذ!

يلاحظ القارىء أن هدف المسيح لم يكن فقط أن يحافظ عل أرواح تلاميذه، بل بالأكثر أن يجمل آلامه في حدودها الخاصة به وحده، ولا يضار بسببها أحد. فدور الآلام بالنسبة لتلاميذه لم يكن قد حان بعد. وموتهم الآن ربما يعترض تكميل خلاصهم: «ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير.» (مت٦:١٣)

٩:١٨ لِيَتِمَّ الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ: «إِنَّ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لَمْ أُهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَداً».

واضح أنه من غير الممكن أن يموت أحد عن المسيح، قبل أن يموت المسيح نفسه، لأنه بدون قيامة المسيح يكون الموت هلاكاً بالفعل: «وإن لم يكن المسيح قد قام، فباطل إيمانكم، أنتم بعد في خطاياكم، إذاً، الذين رقدوا في المسيح (بدون قيامة المسيح)، أيضاً، هلكوا.» (اكو١٥:١٧-١٨)

وضع القديس بطرس الرسول، وهو مقدام الرسل في ذلك الأمر يعزز هذا القول، فهو لم يستطع قبل قيامة المسيح أن يشهد للمسيح مجرد شهادة، بل حينما سُئل عن علاقته بالمسيح، أنكر: «إني لا أعرف هذا الرجل»، وزاد بأن «أخذ يحلف ويلعن»!! ولكن، وفي الوقت المحدد، وبعد أن مات من أجله المسيح وقام، استطاع بطرس أن يموت عن المسيح وعلى ذات الصليب!! إذاً، فموت المسيح من أجلنا وقيامته أصبحت لنا مصدر قوة للشهادة، وقبول الآلام، والموت بفرح.

١٠:١٨ ثُمَّ إِنَّ سِمْعَانَ بُطْرُسَ كَانَ مَعَهُ سَيْفٌ فَاسْتَلَّهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذْنَهُ الْيُمْنَى. وَكَانَ اسْمُ الْعَبْدِ مَلْخُسَ.

لكي نفهم مجريات الحوادث بالنسبة لهذه الآية، يلزمنا أن نقرأ المقابل الذي جاء في رواية القديس مرقس: «وكان

مسلمه قد أعطاهم علامة، قائلاً: الذي أقبله هو هو، أمسكوه، وامضوا به بحرص. فجاء للوقت وتقدم إليه قائلاً: يا سيدي، يا سيدي؛ وقبله، فألقوا أيديهم عليه، وأمسكوه، فاستل واحد من الحاضرين السيف، وضرب عبد رئيس الكهنة، فقطع أذنه.» (مر١٤:٤٤-٤٧)

يتضح من رواية القديس مرقس أن خدام رئيس الكهنة الخصوصيين، وكانوا على مستوى العبيد الذين يُشترون بالمال، كانوا في المقدمة. وهم واحد منهم بشيء من الخشونة، وألقى يده على المسيح؛ فأثار هذا المنظر بطرس، فعمل ما عمل. وربما لم يلحظ ذلك القائد ولا الجند، لأنهم كانوا على بعد.

والذي أنقذ بطرس من القبض عليه، هو سرعة تحرك الرب، بأن مد يده وشفى أذن ذلك العبد، كما جاء في رواية القديس لوقا: «وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة، فقطع أذنه اليمنى، فأجاب يسوع وقال: دعوا إلى هذا، ولمس أذنه، وأبرأها.» (لو٢٢:٥١-٥٣)

«ملخس»: وهو اسم العبد، ويبدو أنه اسم عربي لأن أصل الاسم بعد حذف الأداة (   ) يكون «ملك» وهو أصل الكلمة، بحسب تحقيق علماء اللغة.

١١:١٨ فَقَالَ يَسُوعُ لِبُطْرُسَ: «اجْعَلْ سَيْفَكَ فِي الْغِمْدِ. الْكَأْسُ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ أَلاَ أَشْرَبُهَا؟».

«السيف والكأس» لقد وضع المسيح، بهذه الآية، المعيار الأعلى، أو المُعلى، للايمان المسيحي. فالمسيحي لا يمد يده بالسيف إزاء الخطر، بل يتقبل كأس الموت طواعية!

فالدف عن النفس، عمل غير مشروع على حملة الصليب! فالذي يحمل الصليب، لا يحمل الخنجر. ولماذا السيف، والموت ربح؟ «لأن لى الحياة هي المسيح، والموت هو ربح» (في١:٢١). لقد صلى المسيح في جثسيماني، منذ لحظات، بحسب البشرية التي فيه: «أجز عني هذه الكأس» (مر١٤:٣٦). ثم عاد المسيح، بعد أن أكمل الصلاة وسلم الإرادة ليد الآب: «ولكن، ليكن لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت» (مر١٤:٣٦)؛ وبهذا جعل الكأس، إذا تحتم بكل ما يحمله من خطر، «عطية» مباشرة من يد الآب: «الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟» (يو١٨:١١)

بطرس أراد أن يحمي المسيح بسيفه ليعطله عن الصليب!! فكرر غلطته الكبرى التي نال عليها توبيخاً مرا! «حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا، فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان، أنت معثرة لى، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس.» (مت١٦:٢٢-٢٣)

ثانياً: المحاكمة المزدوجة

أ- المحاكمة الأولى أمام المحكمة الكنسية (١٨:١٢-٢٧).

ب _ المحاكمة الثانية أمام المحكمة المدنية (١٨:٢٨-١٩:١٦).

أ- المحاكمة الأولى: أمام المحكمة الكنسية (١٨:١٢-٢٧).

لقد انفرد القديس يوحنا في إنجيله بسرد وقائع المحاكمة الكنسية. ومن لغة الرواية يُستدل أنه كان حاضراً وشاهد عيان: «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع. وكان ذلك التلميذ معروفاً عند رئيس الكهنة، فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة» (يو١٨:١٥). «فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه.» (يو١٨:١٩)

وقبل أن نخوض في خطوات المحاكمة الكنسية، وجدنا من المفيد أن نُطلع القارىء على القوانين اليهودية الكنسية التي جمعها العالم وستكوت، والتي كان معمولا بها في ذلك العهد تقريباً، من واقعع كتب المشناه. علماً بأنه من

العسير تحديد زمان كتابة هذه القوانين التي جاءت تحت رأس عنوان «السنهدريم». ومن هذه القوانين نستشف، إلى حد ما، كيف اتفق بعضها مع الإجراءات التي اتخذت في محاكمة المسيح، وكيف ابتعدوا جداً في كثير منها عن أصالة التقليد:

١- القضايا الخاصة والمخالفات الرئيسية، يصير الحكم فيها بواسطة مجمع من ثلاثة وعشرين عضوا: (الفصل الأول مقطع ٤).

٢- القضايا الخاصة بمحاكم إدعاء النبوة، أي النبوة الكاذبة، يصير الحكم فيها على وجه الخصوص بحضور المجمع الكبير للسنهدريم، أو واحد وسبعين عضواً: (الفصل الأول مقطع ٥).

٣- بخصوص الشهود، يلزم أن يُفحصوا بدقة، وعلى انفراد، في جميع الأحوال. على أن اتفاق اثنين منهم يعتبر كافياً وصحيحاً: (فصل ٣ مقطع ٦؛ فصل ٥ مقاطع ١ وما بعده).

٤- في القضايا الرئيسية، يُختبر الشهود اختباراً خاصاً من جهة دوافعهم التي أتت بهم للشهادة، ويُحزروا من جهة خطورة هلاك النفس: (الفصل ٤ مقطع ٥)، على أن لا تُقتل شهادة عن طريق السماع المنقول.

٥- يجلس القضاة على شكل نصف دائرة، على أن يجلس الرئيس في الوسط، حتى يواجه الكل بعضهم وجهاً لوجه: (فصل٤ مقطع ٣).

٦- في القضايا الرئيسية، يرتب كل شي، حتى يُعطى للمتهم حق الاستفادة من جنوح القضية نحو الشك! وحينئذ تؤخذ أصوات المبرئين أولاً: (فصل ٤ مقطع ١).

٧- في القضايا المدنية، يمكن أن تستمر المحاكمة ويُفرغ منها في الليل. على أن التقرير يمكن أن يخرج في نفس يوم فحص القضية.

٨- في القضايا الرئيسية، تصير المحاكمة فقط بالنهار؛ بينما الحكم بالبراءة يمكن أن يُنطق به في يوم القضية نفسه، لكن النطق بالاتهام والإدانة لا ينطق به إلا في اليوم الثاني للقضية. على أن مثل هذه القضايا لا يجوز فحصها مساء السبت ولا في عيد: (الفصل٤ المقطع١؛ الفصل الخامس مقطع٥).

٩- في حالة الاتهام، يلزم أن يُمنح المتهم أربع أو خمس مرات حسب مقتضيات الحاجة، ليأتي بحجج والتماسات جديدة: (فصل٦ مقطع ١)

١٠-في ختام الاتهام والإدانة، يُستحث المتهم أن «يعترف» حتى لا يهلك فيما بعد: (فصل٦ مقطع٢).

١١-يتقدم المُدان مناد، ويقول بصوت عال: إن فلان الفلاني ابن فلان الفلاني ذاهب للرجم بسبب كذا وكذا من السيئات. والشهود عليه هم فلان وفلان، وكل من يستطيع أن يدلي ببيانات تثبت براءته فليتقدم ويعطي الأسباب: (فصل٦ مقطع١).

١٢-في قضايا التجديف يُفحص الشهود فحصاً شديداً فيما يخص اللغة التي استخدمها المتهم، فإذا ثبتت صحة شهادة الشهود ثبوتاً قاطعاً يقف القضاة ويشقتون ثوبهم: (فصل٧ مقطع٥).

١٣-المجدف يُرجم. (فصل٧ مقطع٤)

١٤-بعد رجم المجدف، يُعلق على المشنقة: (فصل٦ مقطع٤)، وينزل عنها في المساء، ليُدفن في مقبرة عامة، تُعد خصيصاً لهذا الغرض: (فصل٦ مقطع٥).

ب_ المحاكمة الثانية أمام المحكمة المدنية (١٨:٢٨؛١٩:١٦)

«رئيس هذا العالم يأتي، وليس له في شيء.» (يو ١٤: ٣٠)

لقد أثبتت كل التحقيقات التي قام بها بيلاطس، سواء مع اليهود أو مع المسيح أنه لا توجد علة واحدة توجب الحكم عليه. لقد اعتنى القديس يوحنا أن يسجل ما كرره بيلاطس علناً، لثلاث مرات، كون المسيح بريئاً تماماً:

١- «أنا لست أجد فيه علة واحدة» (يو ١٨: ٣٨)

٢- «اني لست أجد فيه علة واحدة.» (يو ١٩: ٤)

٣- «خذوه أنتم واصلبوه لأني لست أجد فيه علة.» (يو ١٩: ٦)

بل إن نية القاضي استطاع أن يكشفها القديس يوحنا بوضوح، أنها اتجهت منذ أول المحاكمة وحتى نهايتها ناحية التبرئة والإطلاق: «من هذا الوقت، كان بيلاطس يطلب أن يطلقه.» (يو ١٩: ١٢)

لقد اختلى بيلاطس بيسوع مرتين:

الاختلاء الأول: يستفسر عن لقب «ملك اليهود»، وانتهى الحديث الأول عند تصريح المسيح: «لهذا قد وُلدت أنا ... لأشهد للحق» (يو ١٨: ٣٧)، فوقف بيلاطس عند كلمة «الحق»، وارتعب، وخرج ليعلن تقريره الأول: «أنا لست أجد فيه علة واحدة.» (يو ١٨: ٣٨).

الاختلاء الثاني: عندما سع بيلاطس من اليهود أن «المسيح ابن الله»، «ازداد خوفاً، فدخل أيضاً إلى دار الولاية وقال ليسوع: من أين أنت؟؟» (يو ١٩: ٨-٩). وانهى الحديث بتصحيح مفهوم بيلاطس، أن له سلطاناً ليُصلب أو يُطلق المسيح، ولكن السلطان إنما يأتيه من فوق، أما هو فليس له على المسيح سلطان البتة!! «من هذا الوقت كان بيلاطس يطلب أن يطلقه» (يو ١٩: ١٢)، لا لشيء إلا لأنه لا بد وأنه اقتنع بما قاله المسيح مباشرة.

واضح أن المحاكمة أمام بيلاطس انتهت بوقوف المسيح في المستوى الأعلى، وقوف الواثق من قضيته، في الوقت الذي ملأ الخوف قلب القاضي.

أما وثوق المسيح، فلأنه كان قد قبل حكم القضية من فوق قبل أن يُنطق بها، بل قبل أن يولد: «لهذا قد أتيت إلى العالم» (يو ١٨: ٣٧)، «الكأس التي أعطاني الآب ...» (يو ١٨: ١١)، «لم يكن لك علي سلطان البتة، لو لم تكن قد أُعطيت من فوق» (يو ١٩: ١١). أما ازدياد خوف بيلاطس، فلأنه سيحكم على بريء، وليس فيه علة واحدة. ولكنه، للأسف، حكم تحت تأثير تهديد اليهود: «إن أطلقت هذا، فلست محباً لقيصر. كل من يجعل نفسه ملكاً، يقاوم قيصر» (يو ١٩: ١٢)، «فلما سمع بيلاطس هذا القول، أخرج يسوع وجلس على كرسي الولاية... فحينئذ أسلمه إليهم ليصلب.» (يو ١٩: ١٣و١٦)

من كل هذا نفهم من صميم التقرير الذي يقدمه القديس يوحنا بذكاء ومهارة قانونية، وكشاهد عيان، أن الحكم الروماني المدني في قضية المسيح كان قائماً على غير أساس، بحسب ما تنص عليه أصول القوانين الجنائية الرومانية، فقد نطق القاضي ثلاثاً أن المتهم ليس فيه علة واحدة، وأنه بحسب الضمير كان عاملاً لإطلاقه؛ وأن الحكم صدر، فقط وفي آخر لحظة، تحت التهديد، والقاضي في حالة: «ازداد خوفاً») من جهة المتهم. أما من جهة القاضي نفسه، فقد نجى نفسه بأن أصدر حكم الإدانة، وهوغير مقتنع؛ وكان في حالة فقدان إرادة الحياد المطلق الذي ينص عليه القانون الروماني.

اليهود فقدوا ملكهم والمسيا والله: الذي خسر القضية هم اليهود فقط: «قال لهم بيلاطس: أأصلب ملككم، أجاب رؤساء الكهنة؛ ليس لنا ملك إلا قيصر» (يو ١٩: ١٥). وهكذا، وفي سبيل حقدهم على المسيح وتحرق قلوبهم

بشهوة قتله، فرطوا في الله الذي اعتبروه منذ الدهر أنه ملك إسرائيل، بل والله الذي كان يعتبر نفسه فعلاً ملك إسرائيل، خسروه بالإعلان العلني الذي نطقوه أمام الأمم، والذي يشبه سبق حنثهم في الله ملكهم سابقاً:

«فاجتمع كل شيوخ إسرائيل، وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة، وقالوا له ... فالآن اجعل لنا ملكاً يقضى لنا كسائر الشعوب ... فقال الرب لصموئيل: اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك، لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا، حتى لا أملك عليهم» (١صم٨:٥-٧)

وحتى قول بيلاطس: «أأصلب ملككم»، فلم يكن عن غير وعي بل: «لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسداً» (مر١٥:١٠)

أ- المحاكمة الأولى: أمام المحكمة الكنسية: (١٨:١٢-٢٧).

١٨:١٢ ثُمَّ إِنَّ الْجُنْدَ وَالْقَائِدَ وَخُدَّامَ الْيَهُودِ قَبَضُوا عَلَى يَسُوعَ وَأَوْثَقُوهُ.

«إلهي إلهي لماذا تركتني ... لا تتباعد عني لأن الضيق قريب ... أحاطت بي ثيران كثيرة ... فغروا علي أفواههم، كأسد مفترس مزمجر... لأنه قد أحاطت بي كلاب، جماعة من الأشرار اكتنفتني ... أنقذ من السيف نفسي» (مز٢٣).

«فيا رب الجنود، القاضي العدل! فاحص الكلى والقلب، دعني أرى انتقاقك منهم، لأني لك كشفت دعواي. لذلك، هكذا قال الرب، عن أهل عناثوث، الذين يطلبون نفسك، قائلين: لا تتنبأ باسم الرب فلا تموت بيدنا ...، هأنذا أعاقبهم. يموت الشبان بالسيف، ويموت بنوهم وبناتهم بالجوع، ولا تكون لهم بقية، لأني أجلب شراً على أهل عناثوث، سنة عقابهم.» (إر١١:٢٠-٢٣)

«الجند»: أورطة وعددها حوالى ٢٠٠ عسكري، والقائد (   )رئيس ألف، وخدام اليهود (   ) الضباط المكلفون بخدمة الهيكل والرؤساء (اليهود).

يلاحظ في إعادة ذكر هذه الأسماء المخصصة لتشكيل الجند، أن القديس يوحنا يضعها في بداية الجملة، بنوع من الضغط والتركيز للأهمية.

«وأوثقوه»: كان يطيب لجميع الأباه القديسين الأوائل الذين شرحوا هذا الإنجيل، أن يقفوا عند هذه الكلمة كثيراً ويتذكروا معها كيف أمسك إبراهيم ابنه إسحق وأوثقه: «فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله، بنى هناك إبراهيم المذبح، ورتب الحطب وربط (أوثق) إسحق ابنه، ووضعه على المذبح فوق الحطب.» (تك٢٢:٩)

والملاحظ، سواء في موضوع ربط إسحق أو المسيح، أن الاثنين يشتركان معاً في عدم المقاومة، بل كانا في صورة خضوعية مذهلة. ولكن ما كان لإسحق أن يقاوم وهو تحت يد أبيه، إذ لم يكن معقولاً قط أن يبدي أية مقاومة، وهو واثق من شدة رحمة أبيه الذي يحبه حباً كنفسه. وينسحب الأمر نفسه على المسيح، وهو في الظاهر واقع بين أيدي جماعة أشرار هربت الرحمة من قلوبهم، وتحرقت أسنانهم لافتراسه بسيوف وعصي، لكنه وقف موقف إسحق عينه، إذ كان في الحقيقة واثقاً أنه تحت يدي أبيه السماوي الذي أحبه كوحيد له: «الكأس التي أعطاني الأب، ألا أشربها؟» (يو١٨:١١)

وهكذا لما لم يجد القائد والجند والخدام أية مقاومة، مدوا أيديهم عليه وأوثقوه، هذا الذي أعطى للانسان أن يربط ما في السماء ويحله، ربطوه بحبل!!، هذا الذي كسر مصاريع النحاس وقطع حديد الهاوية وفك أسرى الجحيم، ربطوه بحبال!... اليد التي ضمدت جراحهم، ولمست حنانها قلوبهم، وشفت مرضاهم، وأقامت موتاهم، ربطوها بحبال!...

هذا الذي فك قيود خطاياهم، وحل رباط الشيطان عنهم، وأطلقهم أحراراً، قبضوا هم عليه وأوثقوه.!

لقد صدق موسى حيما خاطبهم بالقول: «الرب تكافئون بهذا، يا شعباً غبيا غير حكيم، أليس هو أباك ومقتنيك، هو عملك وأنشأك.» (تث٣٢:٦)

لسنا ندري لماذا أوثقوه، وهو الذي قدم نفسه طواعية، ولكن ليتم القول الذي قيل في هذا المقام: «أوثقوا الذبيحة بربط إلى قرون المذبح.» (مز١١٨:٢٧)

ملابسات محاكمة المسيح

توجد بعض أركان خاصة جاءت في المحاكمة ذات مدلولات هامة، يفيدنا كثيراً لو جمعناها وتتبعناها في أصولها وأسبابها ومعانيها، ودرسنا معاً إلى أي حد يمكن أن تهدم الأساس الذي قامت عليه هذه القضية.

١- واضح، بدء كل ذي بدء، أن قضية المسيح لا ترتكز على أصول جنائية، أو حتى مخالفات يمكن أن تعطي لها الشكل القضائي، والذي بمقتضاه تُحتسب قضية صحيحة، وذلك من واقع سبق تحدي المسيح للجهات القضائية بقوله: «من منكم يبكتني على خطية. فإن كنت أقول الحق، فلماذا لستم تؤمنون بي؟» (يو٨:٤٦). وهم لم يستطيعوا بالفعل أن يقيموا عليه أية حجة. كذلك، ومن واقع تحديه لرئيس الكهنة عند أول استجواب له: «فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه. أجابه يسوع: أنا كلمت العالم علانية. أنا علمت كل حين في المجمع وفي الهيكل (أي تحت نظركم وسمعكم، وكنتم تشتركون في الأمثلة، وتستمعون إلى الأجوبة)، حيث يجتمع اليهود دائماً. وفي الخفاء لم أتكلم بشيء. لماذا تسألني أنا؟ اسأل الذين قد سمعوا ماذا كلمتهم. هوذا هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا؟» (يو١٨:١٩-٢١). ولم يستطع رئيس الكهنة أن يرد، أو يستطرد في الأسئلة.

ولكن هناك سؤال نقدمه نحن إلى قيافا: ألا تعلم حقيقة كل ما قاله المسيح وعلم به؟ ثم ألا تعرف حقاً تلاميذه جميعاً وبالأخص يوحنا؟ وإلا لماذا استحلفته بالله الحي أن لا يعلق أنفسكم ويقول صراحة هل هو المسيح ابن الله؟ أليس لأن تعاليمه أذهلت عقولكم، وصغرت نفوسكم، وبكتت ضمائركم؟

٢- هذه القضية مستوجبة السقوط قانونياً من واقع ضرورة «رد القاضي»، إذ سبق له الحكم فيها قبل رفعها وقبل القبض على المسيح. وهذا ألمح إليه القديس يوحنا، عند ذكر اسم رئيس الكهنة المكلف بالمحاكمة هكذا: «وكان قيافا هو الذي أشار على اليهود، أنه خير ان يموت إنسان واحد عن الشعب.» (يو١٨:١٤)

٣- تقديم المسيح للمحاكمة أمام «حنان»، ليبدي رأيه أو ليحكم، كان عملاً غير قانوني بالمرة. فحنان ليس رئيس كهنة، بل كان رئيس كهنة وعُزل منذ مدة. ولكن الأمر الوحيد الذي جعله يقوم بهذا الإجراء غير القانوني، أعلنه القديس يوحنا متهكماً عند ذكر اسم حنان هكذا: «ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع، وأوثقوه، ومضوا به إلى «حنان أولاً» لأنه كان حما قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة» (يو١٨:١٢-١٣)

وهنا في هذه الآية يوجد ثلاثة أمور يلزم الانتباه إليها:

أولاً: أنه لم يذكر أن حنان رئيس كهنة، فكيف يقدم إليه وبأي صفة يحاكمه؟

ثانياً: يقول القديس يوحنا ويشدد: «ومضوا به إلى حنان أولاً». هنا كلمة «أولاً» لا يمكن أن تغيب عن ذهن الرجل القانوني، فهي تهكمية إلى أقصى حد. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن القديس يوحنا يعقب على الثلاثة الأناجيل الأخرى أنها لم تذكر محاكمة المسيح أمام «حنان»، بل ذكرت مباشرة أنها كانت أمام قيافا. فالقديس يوحنا يقرر هنا حقيقة لم ترد في باقي الأنا جيل، يعلمها هو تمام العلم، لأنه كان حاضراً تلك المحاكمة الباطلة!

ثالثاً: يعود القديس يوحنا ويشرح السبب الذي دعا إلى تقديم المسيح إلى «حنان أولاً»، وهو أنه «كان حما قيافا»[1]. وهذا هو المؤهل الوحيد والباطل الذي أعطاه هذا الشرف أن يحاكم المسيح.

٤- في كل رواية القديس يوحنا عن المحاكمة الكنسية، سواء أمام «حنان» أو أمام رئيس الكهنة قيافا، لم يورد القديس يوحنا أي إشارة إلى أي اتهام استقروا عليه، لا كأنه أغفل ما تم داخل قاعة المحكمة في دار رئيس الكهنة، ولكن تأكيداً منه أنهم لم يمسكوا على المسيح خطية واحدة.

فإذا رجعنا إلى الثلاثة الأناجيل الأخرى، نجد في إنجيل القديس متى كيف تعلق قيافا بتصريح قاله المسيح وشق ثيابه[2]، إدعاء كاذباً منه أن المسيح جدف على الله وهكذا أصدر حكمه بالإجماع أن المسيح جدف أمامه وأن لا حاجة بعد إلى شهود. أما الذي قاله المسيح، ردا على إلحاح قيافا واستحلافه له هكذا: «وأما يسوع، فكان ساكتاً. فأجاب رئيس الكهنة وقال له أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله؟ قال له يسوع: أنت قلت. وأيضاً أقول لكم: من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء. فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلاً: قد جدف، ما حاجتنا بعد إلى شهود، ها قد سمعتم تجديفه.» (٢٦:٦٣-٦٥)

فإذا دققنا في رد المسيح، نجد أنه لم يجدف ولم يدع لنفسه شيئاً. بل رد عليه قائلاً: «أنت قلت»؛ ثم أكمل كلامه بنبوة دانيال. فكيف يفسر قيافا رد المسيح الإيجابي أنه تجديف. حتى ولو قال: نعم أنا المسيح، كما جاء في إنجيل القديس مرقس، فهل هذا تجديف؟ ولكنْ المسيح بأسلوبه المتواضع الرقيق غير المتهجم ولا المتعالي، قال: «أنت قلت». أما باقي الكلام فهو نبوة دانيال التي قيلت والتي لا بد أن تتحقق، فكيف يكون هذا تجديفاً؟، «ماذا ترون؟ فأجابوا وقالوا: إنه مستوجب الموت» (مت٢٦:٦٦). إن هذا حكم افتراء لا يقوم على واقع ولا يستند إلى حقيقة.

كدلك نرى ان بعض الملابسات، كما جاءت فى سرد روايه المحاكمه، كانت على شيء من الغموض، ويهمنا أن نوضحها للقارىء حتى تصير خطوات المحاكمة واضحة

1. **يقول إنجيل القديس يوحنا إن «الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع، وأوثقوه، ومضوا به إلى حنان أولاً، لأنه كان حما قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة.» (يو١٨:١٢-١٣)**
2. **ثم يستطرد: «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع، وكان ذك التلميه معروفاً عند رئيس الكهنة، فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة.» (يو١٨:١٥). هنا يلزما أن نوضح أن «دار حنان»، و«دار رئيس الكهنة قيافا»، هي دار واحدة[3]، وكان كل منهما يباشر مهامه في مكان منفصل داخل الدار الواحدة، وكانت قاعة المحكمة مشتركة بينهما. علماً بأن حنان كان صهرا لقيافا، وكان رئيساً للكهنة سابقاً.**
3. **كذلك يقول الإنجيل: «وكان حنان قد أرسله موثقاً إلى قيافا رئيس الكهنة» (يو١٨:٢٤). وهنا أيضاً، المسيح لم ينتقل من دار رئيس الكهنة إلى مكان آخر، بل انتقل من أمام حنان إلى أمام قيافا في نفس**

---

[1] يقول عنه العالم هنجستنبرج: «تقديم المسيح للمحاكمة أمام حنان لم يكن بناء على أية وظيفة رسمية كان يقوم بها حنان في ذلك الوقت، بل إن قيافا كان مديناً لصهره حنان بمركزه الذي رفعه إليه كرئيس كهنة، وهو هنا يرد الجميل الذي ناله على يده«

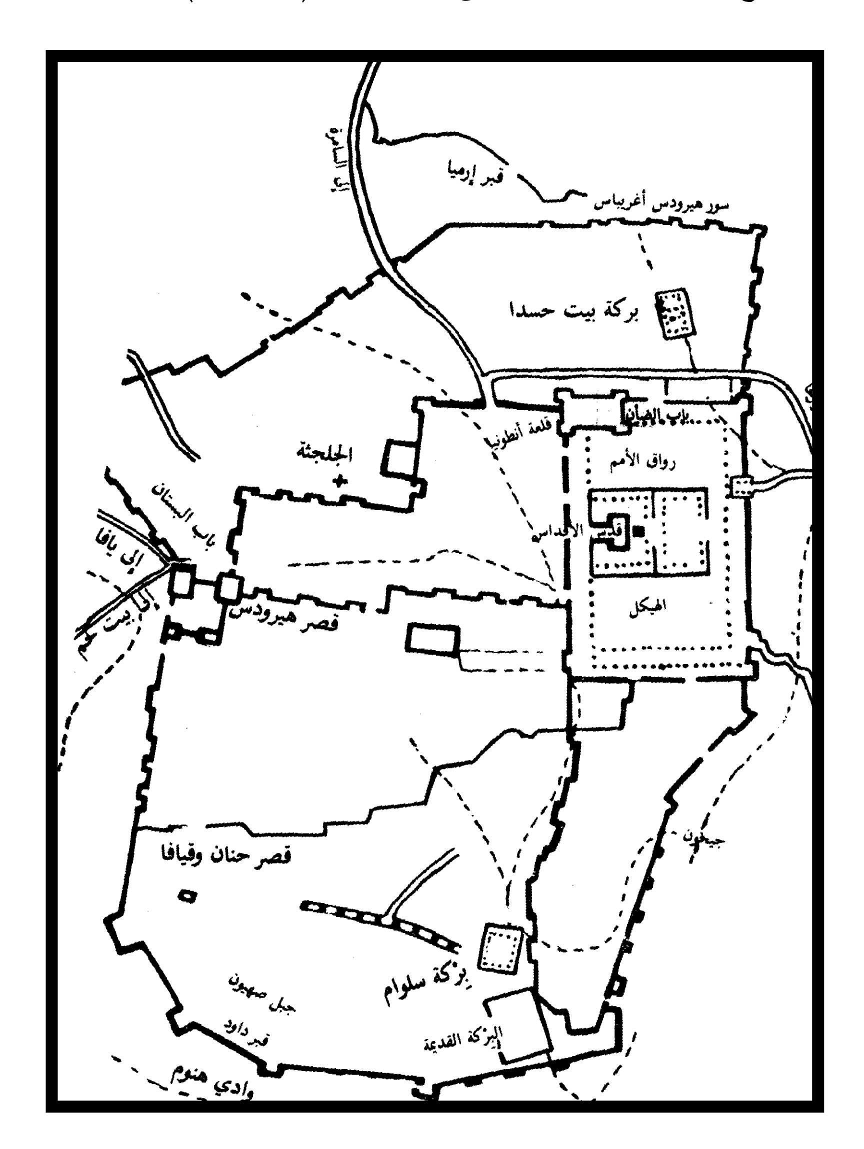
[2] يقول العلامة إدرزهايم اليهودي المتنصر، إن رئيس الكهنة إزاء التجديف يقف علنا ويشق ثوبه الخارجي وثوبه الداخلي شقاً لا يمكن إصلاحه.

[3] إلى الآن، ومن واقع الآثار، مسجل على خريطة أورشليم موضع دار رئيس الكهنة، ومكتوب عليه: «قصر حنان وقيافا». أنظر الخريطة.

الدار.

٤- كذلك يقول إنجيل القديس يوحنا: «ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية» (يو١٨:٢٨). وبهذا يكون القديس يوحنا قد أغفل المحاكمة التي تمت أمام السنهدريم! وهذا ليس صحيحاً، لأن مجلس السنهدريم انعقد أيضاً في دار رئيس الكهنة حيث كان حنان أيضاً. فالمسيح لم يخرج من دار رئيس الكهنة إلا إلى دار الولاية، كما ورد في إنجيل القديس مرقس: «فمضوا بيسوع إلى رئيس الكهنة فاجتمع معه جميع رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة (أي مجمع السنهدريم بكامل هيئته).» (مر١٤:٥٣)

وظل هذا المجمع مجتمعاً حتى الفجر: «وللوقت في الصباح (الساعة الخامسة)، تشاور رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة والمجمع كله. فأوثقوا يسوع ومضوا به وأسلموه إلى بيلاطس.» (مر١٥:١)



خريطه أورشليم أيام المسيح

أما كون القديس يوحنا قد آغفل ذكر المجمع، فالسبب واضح، وهو أنه اعتبر منذ البدء أن الكلمة والحكم النهائي كانا كليهما بيد قيافا وحده، وأنه سبق وأن أصدر حكمه قبل المحاكمة!! وأن المجمع قال بقول قيافا، فلم يكن له وجود فعلي في المحاكمة.

إزاء كل هذا الخلل الواضح في مجريات المحاكمة الأولى أمام الهيئات الكنسية اليهودية، نفهم لماذا لم يعط القديس

يوحنا للنتائج المترتبة على هذه المحاكمة أي اهتمام، بل كان اتجاهه مصوباً ناحية المحاكمة الثانية المدنية أمام بيلاطس والتي وقف عندها طويلاً.

وفي الحقيقة والواقع، نرى وبكل تأكيد، أن ميعاد محاكمة المسيح أمام الهيئات الكنسية قد تأخر عن موعده كثيرا، بل تخطى الوقت المسموح به لرئيس الكهنة وكل مجمع سنهدريم اليهود وفريسيه وحكمائه للقيام بواجبهم إزاء أسس ديانتهم وتقاليدهم وكل تعاليمهم التي نقضها المسيح من الأساس. فلو كانت الأمة اليهودية صاحية حقاً لواجباتها الدينية وبقيادة رؤسائها، لكانت حققت مع المسيح طويلاً وطويلاً جداً بمجرد ظهور المعمدان وشهادته للمسيح وبدء خدمة المسيح العلنية التي بدأت هكذا: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء... وأما أنا فأقول لكم...» (مت٥:٢١)

أما الآن، وقد مضى على كرازة المسيح ما يزيد على الثلاث سنوات، فالوقت ليس هو وقت محاكمة المسيح، بل هو حقيقة وقت محاكمة الأمة اليهودية محاكمة عسيرة للغاية!! إذ أين كانوا هذه السنين الطوال، وتعاليم المسيح قد ملأت ربوع البلاد طولاً وعرضاً؟ وكيف يفسرون وجود مسيح الدهور كلها والفادي، هذا الذي ترجته كل الأجيال بكل ابائها وأنبيائها، بينما هو في وسطهم قائم، يعلم في المجامع والهيكل، ويشفي ويصنع المعجزات، ولثلاث سنوات!!!

إن محاكمة المسيح بعد ثلاث سنوات وأكثر من ظهوره وتعاليمه هي أكبر فضيحة، بل ومهزلة لأمانة الرسالة اليهودية التي حملها رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيون، وهم لم يكونوا عليها أمناء قط: «لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب، يوجد الذي يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم، لأنكم لوكنتم تصدقون موسى، لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني.» (يو٥:٤٥-٤٦)

١٣:١٨ وَمَضَوْا بِهِ إِلَى حَنَّانَ أَوَّلاً لأَنَّهُ كَانَ حَمَا قَيَافَا الَّذِي كَانَ رَئِيساً لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ.

«حنان»: وهو حنان بن شيث، حسب تسمية المؤرخ يوسيفوس. كان واحداً من أكبر الشخصيات اليهودية. ولقد تبوأ عرش رئاسة الكهنوت من سنة ٧م. حتى السنة ١٤-١٥م. حينما أسقطه فاليريوس جراتوس الحاكم السابق على بيلاطس، ومن بعده تقلد الرئاسة الكهنوتية ابنه ألعازر إلى سنة ١٦-١٧م، أي سنة واحدة، ومن بعده جاء يوسف قيافا نسيبه، الذي تزوج ابنته، والذي بقي في الرئاسة حتى سنة ٣٥-٣٦م. ومن بعد قيافا تولى الرئاسة ابن آخر لحنان، هو يوناثان سنة ٣٦-٣٧م، ومن بعده توالى على الرئاسة ثلاثة آخرون من أولاده، أي أولاد حنان، ثاوفيلس سنة ٣٧-٤١م، متياس ٤١-٤٤م، وكان آخرهم حنان الصغير سنة ٦٢م (؟) الذي حمل اسم أبيه، أي كان اسمه حنان بن حنان، وهو الذي مد يده وقتل يعقوب أخا الرب. والمعروف عن هذه العائلة أنها عائلة الرشوة والدسائس الدينية.

وقد وردت إشارات في التلمود، أن رؤساء الكهنة في أيام حنان وبقيادته كانت عبارة عن عصابة لها الصفة الدينية شكلاً فقط، وكانت غير وطنية، يحتكرون الزمنيات، وأغلبهم دخلاء، أي ليسوا من فلسطين أصلاًُ، وحنان يقال أنه من الإسكندرية، وقد استدعاه هيرودس ليعاونه في خططه، وكانت الحكومة تناصرهم. وكان حنان محور النشاط السياسي للسنهدريم الذي كان شبه معطل رسمياً (انظر فارار، «حياة المسيح»، ص ٧٢٢-٧٢٣).

وفي التلمود (كتاب سجلات وتواريخ وعلوم اليهود)، يذكر المؤلف بلا احتياط أنه تمت اللعنة على بيت حنان وعلى سيرتهم التي أسموها «فحيح الأفعى»، ولم يكن قول المعمدان عنهم إلا مصدقاً لسيرتهم: «يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الأتي.» (مت٣:٧)

وفي الواقع لم يذكر أحد من الإنجيليين هذه العلاقة التي تربط حنان بقيافا إلا القديس يوحنا، وحينما يذكره هنا دون أن يذكر انه كان رئيس كهنة، فهو ينبه ذهن القارىء أنه يمارس الرئاسة خلسة وبالقوة الشخصية التي فرضها على نسيبه. كما يلاحظ القارىء أن القديس يوحنا يذكر تقديم المسيح للمحاكمة أمام حنان قبل قيافا، مع أن قيافا هو رئيس الكهنة الرسمي، وذلك لكي يؤكد طغيان حنان على سلطة رئيس الكهنة من جهة، ومن جهة أخرى لكي يلمح إلى ضعف شخصية رئيس الكهنة قيافا.

ولكن من الواضح جداً أن هذا كان هو التدبير المتفق عليه مع بيلاطس، لأنه من غير المعقول أن يأمر القائد الروماني بأخذ يسوع إلى منزل حنان وهو ليس رئيس كهنة في اعتبار الحكومة الرومانية. فالأصول الواجبة هي أن يؤخذ إلى دار الولاية أولاً، ثم على أسوأ الفروض إلى دار رئيس الكهنة الرسمي. ولكن أن يذهب به أولاً إلى دار حنان، فهذا إجراء غير قانوني مكشوف، يكمن وراءه عوامل غير عادية، تخل إخلالاً شديداً بحياد المحاكمة والوالي ورئيس الكهنة. وليس عبثاً أن يضع القديس يوحنا هذه الكلمة: «أولاً» في هذا الموضع، إلا لينبه القارىء إلى هذا الخلل الخطير.

كما يلاحظ القارىء أن الحامية العسكرية الكبيرة العدد (٢٠٠جندي على الأقل)، وبقيادة القائد «رئيس ألف»، انسحبت فوراً بعد تسليم المسيح لحنان (؟) هذا إجراء عسكري يتعجب منه! وكأن الحامية العسكرية كانت تعمل لحساب حنان!!!

وبهذا يراجع القديس يوحنا، بأسلوبه الناقد المهذب، على صحة المحاكمة، كوْنها كانت خارجة عن العرف التقليدي وعن أصالة القانون: [فلم تكن المحاكمة أمام حنان إلا إجراء سياسياً]. وسوف يلاحظ القارىء أنه، حتى بينما كان المسيح يقف أمام رئيس الكهنة قيافا، كان يجري ذلك (يو١٨:١٩) في دار حنان نفسه. وهذا يتضح لنا أكثر بالرجوع إلى أيام المعمدان، حينما ظهر المعمدان في أيام الاثنين كليهما: «في أيام رئيس (واحد) الكهنة حنان وقيافا...» (لو٣:٢)، حيث لم يكن هنا حنان رئيس كهنة بالمرة ولكنه كان يمارس الوظيفة خلسة من خلف قيافا نسيبه، وهذا واضح ومفضوح بسبب مجيء الوظيفة بالمفرد: «في أيام رئيس الكهنة» التي يمارسها اثنان!! والذي يتقدم هو المغتصب.

وواضح من حادثة تطهير الهيكل من جهة وقف البيع والشراء وطرد البائعين والصيارفة، أن هذا العمل كان له أكبر وأخطر الأثر على أطماع وسياسة حنان، فهو الذي كان يدير هذه الحركة التجارية كلها، وكانت الأموال تنهال عليه كالنهر. فبهذا العمل الذي أتاه المسيح، والذي نبه أذهان اليهود الأتقياء والغيورين بل والفريسيين الأمناء، إلى فضيحة سلوك حنان ونسيبه قيافا، هذا العمل شكل أساس عداوة وحقد وتربص في قلب حنان لا يُنسى. لهذا ظل يعمل بوحي هذه الحادثة ليل نهار، حتى يقضي على المسيح بأي ثمن. وهذا واضح من محاولة إقامة شهود ضده بأنه قال إنه قادر أن ينقض الهيكل ويبنيه في ثلاثة أيام (مر١٤:٥٨)، في حين أن المسيح قال ذلك عن هيكل جسده وليس عن هيكل اليهود. كذلك نفس موضوع تطهير الهيكل الذي كان يفزع حنان وقيافا، كان هو موضوع الشماتة الأكثر عندهم عندما اطمأنوا إلى صلبه: «يا ناقض الهيكل وبانيه...»» (مر١٥:٢٩)

وليفهم القارىء مدى خطورة فهمهم الخاطىء لقول المسيح أنه قادر أن ينقض الهيكل، أي هيكل اليهود، ويبني غيره في ثلاثة أيام. فهم تصوروا أنه فعلاً سيقوم بثورة، وبالتالي سيغير نظام الهيكل بأجمعه ليعمل هيكلاً جديداً يتناسب مع تعاليمه الجديدة. فإذا أضفنا إلى ذلك الأثر الذي تركته حادثة مقابلته لخدام الهيكل، وهم ضباط على

مستوى عال من الدراية والمعرفة، والذين أرسلهم رؤساء الكهنة للقبض على يسوع، فلما استمعوا إليه وتأثروا بكلامه، أحبوه وآمنوا به: «فجاء الخدام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين. فقال هؤلاء لهم: لماذا لم تأتوا به؟ أجاب الخدام: لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان. فأجابهم الفريسيون: ألملكم أنتم أيضاً قد ضللتم. ألعل أحداً من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به. ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون.» (يو٧:٤٥-٤٩)

ولكن قد تحققت مخارفهم بصلبه، فقد نقض الهيكل القديم المصنوع بالأيادي، وأقيم الهيكل الجديد غير المصنوع بالأيادي. وقضي على هيكل اليهود، وانتهى رؤساء الكهنة من قاموس العبادة اليهودية!

ولكن المتابع لتاريخ سلوك حنان من جهة التربص للمسيح منذ ظهوره، وحتى لتلاميذه من بعده، يدرك لماذا قدم قيافا المسيح للمحاكمة أولاً أمام حنان، وبالإضافة إلى التكتيك السياسي، كونه يعلم مدى العداء الذي كان يكنه للمسيح، فقد قدمه له إرضاء لنزواته، واستطاع أن يحبك القضية منذ البداية بغش الأفعى ودهائها. وفي غالب الظن أن حنان هو الذي تعاهد مع يهوذا، وأرسل معه الجند والقائد والضباط. وقد لعبت الأموال دورها، فكان يغدق على يهوذا عطفاً وأموالاً، مما شجعه أن يلعب هذا الدور الخاسر.

ولكن القديس يوحنا ضرب عرض الحائط بكل محاكمة حنان، ولم يورد منها أي نص، بحسب ما كانت تستحق في نظره.

وقد ورث ابن حنان الأصغر نفس هذا العداء والحقد، واستطاع أن ينفثه في يعقوب الرسول المدعو أخا الرب، فتجرأ على قتله هو وكثيرين معه، مجازفاً بوظيفته، بتحديه للسلطة الرومانية التي لم تكن تسمح أبداً بهذا التعدي على حقوقها السياسية، فيما يخص حياة أو موت الأفراد الذين تحت حكمها، ومستغلاً أيضاً غياب الحاكم الروماني، وكان ذلك حوالي سنة ٦٢م. ولم يرد ذكر هذه الحادثة إلا في تاريخ يوسيفوس. ويعقوب هذا غير يعقوب أخي يوحنا، الذي قتله هيرودس مبكراً جداً كما جاء في سفر الأعمال (أع١٢:١-٢).

«الذي كان رئيسا للكهنة في تلك السنة»: كان رئيس الكهنة إذا اختير مرة، يبقى إلى نهاية حياته حاملاً الرتبة وكرامتها، حتى ولو تنحى عن العمل لأي سبب أو نُحي عنها. ولكن إذا نُحى عن القيام بمهام وظيفته رسمياً، فكان لا بد أن يخلفه آخر، كما في حالة حنان الذي خلفه قيافا في إدارة الشئون الدينية للبلاد، والتكلم رسمياً باسم الأمة اليهودية، فهو الناطق بلسانها لدى الجهات الرسمية الرومانية. أما قول القديس يوحنا: «كان رئيساً للكهنة في تلك السنة»، فهو لا يعني أن رئاسة الكهنوت كانت بالمناوبة سنوياً. ولكن بلغة القديس يوحنا الروحية فإن «هذه السنة» تعني سنة خيبة أمال اليهود ونهاية مجدهم، وبداية تعاستهم؛ ولكنها في نفس الوقت هي «سنة الرب المقبولة» أو سنة الخلاص الأبدي للعالم. فهي «سنة» وليس «كل السنين»، إذ استعلن فيها الأول والآخر، البداية والنهاية، وهي التي عرفت في القديم بكلمة «هذا اليوم»، «وتلك الأيام»، «وآخر الزمان».

١٨: ١٤ وَكَانَ قَيَافَا هُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَى الْيَهُودِ أَنَّهُ خَيْرٌ أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ عَنِ الشَّعْبِ.

الإشارة هنا إلى ما ورد في إنجيل يوحنا (١١:٤٩-٥٠): «فقال لهم واحد منهم، وهو قيافا، كان رئيساً للكهنة في تلك السنة: أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون، أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها» وكما سبق وقلنا، هذه لغة القديس يوحنا التي يضرب بها ذات اليمين وذاته اليسار، فهو يعلن بها مسبقاً ماذا ننتظره من الحكم الذي يصدره إنسان له هذا التفكير وهذه العرفة وهذا المستوى من سهولة القتل بلا سبب، والغاية الكاذبة عنده تبرر الواسطة الدنيئة. ولكن أسلوب القديس يوحنا لا يقف عند هذا الحد، فهو يضرب بعصي الإنجيل

فوق رأس القضاء اليهودي العابث بالحق، والملفق، بغير حياء. إذ كما سبق وقلنا أن هذا الإعلان القضائي المقدم من القديس يوحنا هو بمثابة «رد المحكمة»، وإعلان لفساد ذمة القاضي، وبالتال سقوط الدعوى والقضية، لأن القاضي قيافا سبق وأعلن مقدماً عن الحكم الذي سيبرمه والذي في سبيل إبرامه، حتماً، سيلفق التهم المناسبة ويزور الشهود ليبلغ قصده المبيت في نفسه، والذي أعلنه على مسامع مجمع السنهدريم.

ولكن لم يفت على بيلاطس أن يكتشف هذا السلوك المبيت، ولا هذه الأساليب السفلى، فقد أظهر من كلامه ومن مشاعره، سواء تجاه زمرة رؤساء الكهنة أو تجاه المتهم المبرأ، ما جعل الإنجيليين يسجلون للقاضي هذه اللفتة: «فأجابهم بيلاطس قائلاً: أتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود، لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسداً.» (مر١٥:٩-١٠؛ مت٢٧:١٨)

ويلاحظ أنه سواء في عملية القبض، أو في بدء المحاكمات، أم في حضور الصلب، لا نجد أي ذكر للفريسيين على الإطلاق. ويبدو أنهم انسحبوا من هذه العمليات وتركوا لزمرة رؤساء الكهنة (الصدوقيين) وكل من يتبعهم، القيام بهذه المهمة. ومن المعتقد أنهم كانوا غير متفقين فيما بينهم: «انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً، هوذا العالم قد ذهب وراءه» (يو١٢:١٩)، «وإذا رجل اسمه يوسف وكان مشيراً ورجلاً صالحاً باراً (سنهدريمي أي فريسي، بحسب تحقيق كثير من العلماء) هذا لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم» (لو٢٣:٥٠-٥١). «وجاء أيضاً نيقوديموس (فريسي بحب رواية إنجيل يوحنا٣:١) الذي أتى أولاً إلى يسوع ليلاً وهو حامل مزيج مر وعود، نحو مائة مناً» (يو١٩:٣٩)

١٨:١٥ وَكَانَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَالتِّلْمِيذُ الآخَرُ يَتْبَعَانِ يَسُوعَ وَكَانَ ذَلِكَ التِّلْمِيذُ مَعْرُوفاً عِنْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَدَخَلَ مَعَ يَسُوعَ إِلَى دَارِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ.

القديس يوحنا يورد هذه المعلومة الهامة، ليوضح بها أولاً أنه كان شاهد عيان لكل ما سيرويه، فهو والقديس بطرس، دون جميع التلاميذ الذين آثروا الهروب، تبعا يسوع.

ولكن عند الباب، احتجز بطرس لأنه لم يكن معروفاً بالوجه، أما يوحنا فدخل، لأنه بحسبه تعبيره، كان معروفاً عند رئيس الكهنة؟ وهنا «قيافا» هو المقصود وليس «حنان». وبالتالي كان يوحنا معروفاً لدى الخدام والبوابين.[1]

هذه المعرفة الخاصة عند رئيس الكهنة هي التي جعلته يعرف العلاقة الأسرية بين حنان وقيافا، وهي التي آهلته أن يعرف عبد رئيس الكهنة بالاسم، الذي قطع بطرس أذنه بالسيف، كذلك جعلته يتعرف على نسيب ملخس أيضاً من بين الخدام!! وهي التي أهلته أن يدخل دار رئيس الكهنة في أخطر المواقف دون حرج، بل وهي التي أهلته أن يأمر البوابة أن تسمح لبطرس بالدخول، بل هذه المعرفة الخاصة أيضاً هي التي جعلته يوضح لنا أن الجارية التي أنكر بطرس المسيح أمامها في الثلاثة الأناجيل هي البوابة!

وعلاقة القديس يوحنا برئيس الكهنة تلقي ضوءاً كثيراً على رواية إنجيله. فهو، وإن لم يكن ذا قرابة برئيس الكهنة، فهوعلى الأقل يحمل المؤهلات الدينية والروحية والتقليدية التي تتناسب مع إنسان معروف لدى رئيس الكهنة، وله من الدالة والجرأة أن يدخل داره بلا استئذان، وأن يدخل رفيقاً لمتهم على أعلى مستوى من العداوة والخطورة بالنسبة لرئيس الكهنة وكل عشيرته؟ بل وله من الدالة أن يأمر البوابة أن تسمح بدخول شخص أخر غريب ومشكوك في

---

[1] حسب التقليد الكاثوليكى فإن معرفة القديس يوحنا برئيس الكهنة قيافا ترجع إلى أن القديس يوحنا كان يقوم بتوريد الاسماك له ودون مقابل – ميشيل

أنه أحد أتباع المتهم.

والسؤال هو كيف أن البوابة والخدم لم يتصرفا تجاه القديس يوحنا، كما تصرفا مع بطرس، بالرغم من علمهم الأكيد أن القديس يوحنا أحد تلاميذ المسيح؟ اللهم إلآ إذا كان القديس يوحنا يمت بقرابة، وليس مجرد معرفة لرئيس الكهنة؟

ولكن، وبصورة غير مؤكدة، يقص لنا المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري أن القديس يوحنا والقديس يعقوب البار أخا الرب كانا يلبسان أثناء الخدمة في عهدهما الميمي تاجاً من نفس النوع الذي يلبسه رؤساء الكهنة، وعليه القلادة الذهبية الخاصة برئيس الكهنة. وهذا يكشف عن أن أسرة كل منهما كانت تمت بصلة أكيدة إلى الكهنوت.

ونحن لا ننسى أن القديس يوحنا كان هن تلاميذ المعمدان الأوائل، ويقيناً أنه كان قبل تعرفه على المعمدان يلتمس النور من مصادره التقليدية، أي من الهيكل ومن علمائه. وأخيراً باع كل شيء واشترى اللؤلؤة!!

إن سيرة القديس يوحنا قبل المسيح كانت شديدة الشبه بتلك التي للقديس بولس، أما بعد المسيح فهما مؤتلفان في الروح ، وفي الوعي المسيحي النادر، وفي الرؤى السماوية.

«دار رئيس الكهنة»: بحسب تحقيقات بعض العلماء، ومنهم هنجستنبرج ووستكوت، يبدو أن قصر حنان كان مكان اجتماع «رئاسة الكهنة»؛ خاصة وأنه توالى على رئاسة الكهنة، كما علمنا، أولاده من بعده . وهذا قيافا أيضاً، وقد تزوج بنت حنان، فقد كان من الطبيعي أن يبقى مقر اجتماع رئاسة الكهنة كما هو في دار حنان حميه. وهذا يوضح لنا كيف تمت المحاكمة الأولى والمحاكمة الثانية، دون أن ينتقل المسيح خارج الدار. كما يتضح لنا بالأكثر كيف أن بطرس بقي في موضعه في الطابق السفلي، حتى أكمل إنكاره المعهود إلى ثلاث مرات، دون أن ينتقل خارج الدار. والمعروف في التاريخ اليهودي، أن السنهدريم وهو الجهة القضائية العليا المنوط بها الفحص والحكم في القضايا الكبرى التي تختص باليهود، قد توقف عن العمل أربعين سنة قبل خراب أورشليم، أي في أيام المسيح. وقد مُنع من الاجتماع في الدار المخصصة بالسنهدريم المسماة جازيت. كذلك فإنه بحسب التقليد اليهودي، كان لا يجوز لمجمع السنهدريم أن يحكم بالموت إلا داخل داره الرسمية هذه المسماة جازيت. لذلك اجتمع اجتماعاً غير قانوني في دار حنان المتسعة، بناء على استدعاء رؤساء الكهنة، وذلك بعد منتصف الليل للتصديق الشكلي على أحكام رؤساء الكهنة.

١٨:١٦ وَأَمَّا بُطْرُسُ فَكَانَ وَاقِفاً عِنْدَ الْبَابِ خَارِجاً. فَخَرَجَ التِّلْمِيذُ الآخَرُ الَّذِي كَانَ مَعْرُوفاً عِنْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَكَلَّمَ الْبَوَّابَةَ فَأَدْخَلَ بُطْرُسَ.

حينها استقر القديس يوحنا في الداخل، وعن قرب من سيده، عاد يطلب صديقه بطرس. أما بطرس فكان راضياً بوقوفه خارج الباب، لأن الاساءة التي ارتكبها في حق عبد رئيس الكهنة كانت تقلقه خوفاً من أن يكتشف أمره، إضافة إلى لمسة من الرعبة سرت في أوصاله، زادها البرد وظلمة الليل، وبدأ يسأل نفسه لماذا أنا هنا؟

وأخيرا فتحت البوابة، وظهر القديس يوحنا، ودعا بطرس للدخول في صمت. هنا يمدنا القديس يوحنا للمرة الثانية، وبشيء من التأكيد، بصورة صادقة واثقة عن شجاعته الهادئة الثابتة، ويكرر على مسامعنا مرة أخرى معرفة رئيس الكهنة له، ليمهد لحديثه مكاناً واثقاً في إيماننا، كمن يتكلم عن سماع ورؤيا.

بينما اتجه بطرس إلى جماعة الخدم والعبيد، واندس بهدوء بينهم، راضياً أن يكون كأحد المتفرجين، أو عل الأقل من الذين لا يعنيهم أمر«هذا الرجل». كان هذا قد استقر في قرارة نفسه، كقرار لم يستطع أن يخفيه، لما اضطر أن

يعلن عن علاقته «بهذا الرجل».

أ- «فأنكر قائلاً لست أدري ولا أفهم ما تقولين.» (مر ١٤:٦٨)

ب- «فابتدأ يلعن ويحلف أني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه.» (مر ١٤:٧١)

لقد ارتضى بطرس أن يجلس بين الناكرين، فأنكر.

١٨:١٧ فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ الْبَوَّابَةُ لِبُطْرُسَ: «أَلَسْتَ أَنْتَ أَيْضاً مِنْ تلاَمِيذِ هَذَا الإِنْسَانِ؟» قَالَ ذَاكَ: «لَسْتُ أَنَا».

ولج بطرس داخل الدار بشيء من الإر تباك، وكمن يريد أن يخفي شخصيته، ولكن البوابة تفرست فيه في ضوء مصباحها الخافت، وتطلعت إلى شكله وعينيه، وكانت على شي ء كثير من الذكاء والفراسة، فخمنت، وأصابت الحقيقة. وفي تساؤل غير وائق بادرته بسرعة: «ألست أنت أيضاً من تلاميذ هذا الإنسان؟. لم تقصد البوابة شيئاً غير وضعه في موضعه، إنها مجرد بوابة. فقولها «أيضاً» يفيد أنها كانت قد تعرفت على القديس يوحنا أولاً أنه تلميذ «هذا الإنسان». وها هي ترى القديس يوحنا يترفق بزميله، فكيف لا يكون تلميذ هذا الإنسان أيضاً؟ هنا خانت بطرس شجاعته وارتج عليه الأمر، بحث فلم يجد في خزانة إيمانه حبة خردل. ولمح من بعيد صورة ملخس بين العبيد الواقين، أو تصور ذلك، فأخذته الرعدة، وبسرعة أراد أن ينفي عنه كل شيء: «لست أنا». وكأنه التقط الاستنكارمن فم البوابة: «ألسث أنث؟»، وحوله إلى جواب: «لست أنا». لقد سهلت عليه الرد، كالحية التي أغوت حواء.

«لست أنا»: في لغة إنجيل القديس يوحنا، هذا القول هو النقيض البغيض للقول المحبوب المُهاب لاسم المسيح ووجوده «أنا هو». لقد ألغى القدير بطرسص بقوله هذا وجوده وكيانه، لأنه فقدهما في الحقيقة لما أنكر تلمذته لذاك الذي يستمد منه وجوده وكيانه!!!

أما القديس يوحنا فتجاسر ودخل ليكون بجوار الرب، فكان كمن ارتكن إل حصن؛ وأما القديس بطرس فاكتفى أن يكون بعيداً بين البعداء فزل، ولكن أن يتبع بطرس المسيح ولو من بعيد، أفضل من أن يظل بعيداً ولا يتبعه!!! وكان ممكناً بعد أن تعرفوا على بطرس أنه كان في البستان، ولولا قليل لعرفوا أنه هو صاحب السيف، أن يوقعوا به أذية ومهانة، ولكن: «ولكني طلبت من أجلك ...» (لو ٢٢:٣٢)، كانت صلاة المسيح من أجله حصناً حصيناً ومجنا وسراً.

١٨:١٨ وَكَانَ الْعَبِيدُ وَالْخُدَّامُ وَاقِفِينَ وَهُمْ قَدْ أَضْرَمُوا جَمْراً لأَنَّهُ كَانَ بَرْدٌ وَكَانُوا يَصْطَلُونَ وَكَانَ بُطْرُسُ وَاقِفاً مَعَهُمْ يَصْطَلِي.

لقد انسحب القائد والجند ولم يتبق إلا عبيد رؤساء الكهنة وضباط الحراسة اليهود، هؤلاء تجمعوا معاً في فسحة الدار في الدور الأرضي، وأضرموا جمراً، أي أوقدوا فحماً وليس خشباً. ومعروف أنه في أيام القمح في ١٤ نيسان، غالباً يكون الجو دافئاً إلا في بعض السنين. لهذا يقول القديس يوحنا: «لأنه كان برد» ، معتبراً أن ذلك كان على غير المعتاد.

أما ذكر الجمر المتقد وهو يتلألأ ويرسل وهجه المنير هنا وهناك، فلأنه هو الذي فضح بطرس في الحقيقة. لأن الذي ينقل لنا هذا المشهد بدقة ليس القديس يوحنا بعد، لأنه دخل إلى مقر المحاكمة ولم يعد يعرف ماذا حدث

كشاهد عيان، ولكن هنا يعطينا القديس لوقا ما سمعه من شهود عيان هكذا: «ولما أضرموا ناراً في وسط الدار وجلسوا معاً، جلس بطرس بينهم، فرأته جارية (البوابة عنمد القديس يوحنا) جالساً عند النار (أي في مواجهة نور الجمر). فتفرست فيه، وقالت: وهذا كان معه» (لو٢٢:٥٦). لقد ساعد نور الجمر على التعرف على شخصية بطرس.

ويكتل لنا القديس مرقس في إنجيله، على لسان القديس بطرس نفسه، حسب التقليد: «فلما رأت بطرس يستدفيء، نظرت إليه وقالت: وأنت كنت مع يسوع الناصري. فأنكر قائلاً: لست أدري ولا أفهم ما تقولين. وخرج خارجاً إلى الدهليز» (الطرقة الخارجية بين الفسحة الوسطى والباب)، فصاح الديك. فرأته الجارية أيضاً وابتدأت تقول للحاضرين: إن هذا منهم، فأنكر أيضاً. وبعد قليل أيضاً قال الحاضرون لبطرس: حقاً أنت منهم، لأنك جليلي أيضاً، ولغتك تشبه لغتهم، فابتدأ يلعن ويحلف أني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه. وصاح الديك ثانية، فتذكر بطرس القول الذي قاله له يسوع: إنك قبل أن يصيح الديك مرتين تنكرني ثلاث مرات. فلما تفكر به بكى.» (مر١٤:٦٧-٧٢).

واضح من رواية القديس مرقس أن بطرس لم يغادر دار رئيس الكهنة، بل كان أسفل الدار يصطلي، والمسيح فوق يُحاكم، أولاً عند حنان، ثم عند رئيس الكهنة قيافا وبالتال السنهدريم.

١٨: ١٩ فَسَأَلَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ يَسُوعَ عَنْ تلاَمِيذِهِ وَعَنْ تَعْلِيمِهِ.

«شهود زور يقومون، وعما لم أعلم يسألوني.» (٣٥:١١)

«لو لم أكن قد جئت وكلمتهم، لم تكن لهم خطية، وأما الآن فليس لهم عزر في خطيتهم.» (يو١٥:٢٢)

الكلام هنا يتبع مباشرة الآية (١٤)، أي بعد أن أجرى حنان تحقيقه غير الرسمى، وهذا واضح من تعقيب القديس يوحنا في نهاية تحقيق قيافا، إذ يقول مستدركاً: «وكان حنان قد أرسله موثقاً إلى قيافا رئيس الكهنة.» (يو١٨:٢٤)

قيافا رئيس الكهة يبدأ تحقيقه الرسمي بكل دقة وترتيب حسب الأصول القضائية تماماً. نعم، لأنه بقدر ما يكون الحكم المعد مسبقاً غير عادل وغير معقول بالمرة، بقدر ما تكون إجراءات المحاكمة غاية في الدقة وحسب الأصول بكل انضباط. هذه سنة المحققين المفسدين، وفلسفة القضاة الذين لا يخشون الله ولا الضمير، حينما ينوون تعريج القضاء والتدليس على الضمير، يستمعون للدفاع بكل انتباه ويناقشون المتهم بكل حرص وأدب، ويطيلون فرص الدفاع ويكررون نظر القضية في جلسات تلو جلسات دون تعب أو تململ. ثم ينطقون بالحكم الظالم الغاشم المتعنت بأقل كلمات وفي أدب جم، ثم يشرحون أسبابه بإسهاب وبمنطق القضاء العادل الذي يخشى الله والحق والتاريخ. هكذا حققوا مع المسيح بكل اهتمام، وقتلوه بغير اكتراث.

رئيس الكهنة سأل المسيح عن «تلاميذه» أولاً، ثم عن «تعليمه». لم يكن القصد معرفة من هم تلاميذه لأنهم كانوا يعرفونهم، والقديس يوحنا يقف كعينة فاخرة من هذه الزمرة. ولكنه كان يسأل عن مدى العلاقة التي تربطه بتلاميذه، لأن بيت القصيد في التهمة والاتهام أنه جعل نفسه «ابن الله» وبالتال فهو، بحسب ادعائهم هذا، يكون فوق السلطة الكهنوتية والراكب فوق رؤوسهم! وتلاميذه هم، والأمر كذلك، رؤساء كهنة بالدرجة الأولى والقيمون على الرسالة وانتشارها والمعلمون المنوط بهم تعليم الشعب. هذا أمر يخص رئيس الكهنة من الاتهام. أما الإعداد لتقديم الاتهام للرومان، فلأنه «المسيح الملك»، فتلاميذه بالتال يكونون هم الحكام والقواد والمنوط بهم القيام بالثورة. هذا

دور التلاميذ الذي يسأل عنه.

أما من جهة «تعليمه» فقد جمع مسبقاً من فم المسيح ما يكفي لتغطية الحكم بالرجم، وأعطى آنئذ علامة التزكية للطق بالحكم فيما بعد بأن «شق ملابسه» أمام السنهدريم، حب التقليد القضائي. وهو الآن يريد المزيد ليستوفي من فمه مسببات الحكم.

ولكن المسيح فوت عليه البند الأول من جهة تلاميذه، فلم يلتفت إليه أصلاً، لأن مبدأ المسيح الذي حرص عليه منذ البدء: «أن لا يهلك منهم أحد» (يو٦:٣٩؛ ١٢:١٧). ثم ابتدأ المسيح يهاجم فكرة التعليم السري، التي يدور حولها قيافا، وكأنها خطة خفية عن مملكة وملكوت يعده بالشفرة، ليعلنه في الوقت المناسب لينصب نفسه «مسيا الملك». وهذا من واقع الاتهام الذي قدمه لبيلاطس، كما جاء في إنجيل القديس لوقا: «ويمنع أن تُعطى جزية لقيصر، قائلاً إنه هو مسيح ملك» (لو٢٣:٢). وهذا هو الذي حدا ببيلاطس أن يسأله، كما جاء في إنجيل القديس يوحنا: «ودعا يسوع وقال له: أنت ملك اليهود» (يو١٨:٣٣). هنا واضح أن القديس يوحنا يكمل ويشرح عرضاً ما جاء في إنجيل القديس لوقا.

٢٠: ١٨ أَجَابَهُ يَسُوعُ: «أَنَا كَلَّمْتُ الْعَالَمَ علاَنِيَةً. أَنَا عَلَّمْتُ كُلَّ حِينٍ فِي الْمَجْمَعِ وَفِي الْهَيْكَلِ حَيْثُ يَجْتَمِعُ الْيَهُودُ دَائِماً. وَفِي الْخَفَاءِ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ».

«أنا كلمت ... أنا علمت»: واضح كيف أن المسيح لكي يفوت على قيافا الإجابة عن «التلاميذ»، ابتدأ يركز بصورة قوية وشامخة على نفسه: «فأنا ... أنا» تحمل المجاهرة القوية الصلبة والشجاعة.

ويلاحظ أن كلمة «أنا كلمت ... أنا علمت»، يجيء كل منهما في التصريف الكامل المنتهي (الماضي التام) لتمهد لآخر كلمة قالها، بعد التطبيق العملي على الصليب، لكل ما قال وعلم: «قد اكمل.» (يو١٩:٣٠)

كما يتضح من مجيء كلمة «أنا كلمت» قبل «أنا علمت»، أن التعليم الذي يسأل عنه قيافا لم يكن سرياً ولا بالشفرة أو الرموز، بل بالكلام العلني الحر، المسموع والمفهوم لدى «العالم»، وكلمة «العالم» هنا تشمل كل درجات الناس بلا تمييز، تلاميذ وغير تلاميذ: «كما قلت لليهود ... أقول لكم أنتم الآن» (يو١٣:٣٣). والعلنية التي يفتخر بها المسيح، تجيء موبخة وفاضحة للسرية التي اتخذها قيافا ومن معه في خطة القبض عليه والتخابر السري مع يهوذا ودفع الثمن له! وتدبير هذه المحكمة وجمع شهود الزور. ثم يعود المسيح ويخصص تعاليمه لكل العالم على مستوى العلانية في البيوت والشوارع إلى: «أنا علمت كل حين في المجمع، وفي الهيكل، حيث يجتمع اليهود، وفي الخفاء لم أتكلم بشيء». لاحظ هنا تأكيد المسيح على موضوع «الخفاء».

واضح أن المسيح يقدم نفسه كمعلم دولة أولاً على مستوى «العالم»، ثم معلم الشعب اليهودي كافة بكل فئاته، حيث استمع إليه رؤساء كهنة وكتبة وفريسيون، خاطبهم وخاطبوه وناقشهم وناقشوه. إذن، لم يكن معلم جماعة، أو شيخ طريقة، أو صاحب مذهب، أو إمام شيعة، بل هو الناطق بكلمة الله في كل مكان وزمان ولكل إنسان!

«وفي الخفاء لم أتكلم بشيء»: «لم أتكلم بالخفاء في مكان من الأرض مظلم. لم أقل لنسل يعقوب باطلاً اطلبوني. أنا الرب متكلم بالصدق، مخبر بالاستقامة.» (إش٤٥:١٩)

إن أقوى ما كان في تعاليم المسيح وإعلاناته هي «العلانية»، بل وأقوى إعلان نطقه كان لقيافا هذا عينه، حينما توسل إليه مستحلفا بالله: «والذين أمسكوا يسوع، مضوا به إلى قيافا رئيس الكهنة ... وقال له: أستحلفك بالله الحي

أن تقول لنا: هل أنت المسيح ابن الله، قال له يسوع أنت قلت (أو نعم كما قلت)؛ وأيضاً أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء.» (مت٢٦:٥٧-٦٤)

وفي إنجيل القديس مرقس جاءت العلانية صارخة: «فسأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له أأنت المسيح ابن المبارك؟ فقال يسوع: أنا هو. وسوف تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً في سحاب السماء.» (مر١٤:٦١-٦٢)

بل ولم يصرح المسيح قط أن ما يعلم به يبقى في الخفاء: «الذي أقوله لكم في الظلمة قولوه في النور، والذي تسمعونه في الأذن، نادوا به على السطوح» (مت١٠:٢٧). المسيح هنا يشجب كل تعليم سري، لأن كل تعليم سري يخلو من الحق. أما الحق فهو علم العلانية ومعرفة النور، ويكفي أن يقول المسيح كمعلم: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤:٦). على الجبل علم، وفي الطريق علم، وفي البيوت وفي الخلاء وفي القفر وعلى شاطىء البحر وأمام القبر علم! بالليل مع نيقوديموس الذي آثر الظلام علم، وفي منتصف النهار ضرب ميعاده مع السامرية وعلم، وعلى مدى النهار كله وحتى خار الشعب، علم وأطعم. اختار السبوت للمجامع، والأعياد للهيكل. وما قاله هنا وهناك سمعناه كلنا، وفي كل مكان، وفي الدنيا كلها الآن. وحديث القلب الخاص جداً في العلية لتلاميذه، الذين أحبهم إلى المنتهى، على العشاء الأخير، صار حديثنا، بل صار إنجيلنا، بل صار طقسنا نرتل به، ونسبح، ونهذ فيه الليل مع النهار!

هذه الإجابة التي رد بها المسيح على سؤال قيافا، نسمعها بصورة أخرى يقولها المسيح لبعثة قيافا عينه، التي تسلحت بالسيوف والعصي للقبض عليه كما على مجرم ثائر ضد الأمة، هكذا: «فأجاب يسوع وقال لهم: كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصي لتأخذوني. كل يوم كنت معكم في الهيكل أُعلم، ولم تمسكوني، ولكن لكي تكمل الكتب» (مر١٤:٤٨-٤٩). وكأن قيافا أراد، ببعثة القبض عليه، أن يصوره بصورة المجرم الثائر.

٢١:١٨ لِمَاذَا تَسْأَلُنِي أَنَا؟ اِسْأَلِ الَّذِينَ قَدْ سَمِعُوا مَاذَا كَلَّمْتُهُمْ. هُوَذَا هَؤُلاَءِ يَعْرِفُونَ مَاذَا قُلْتُ أَنَا».

واضح جداً من قول المسيح هذا أنه، في الحقيقة، إنما كان يخاطب السامعين أنفسهم!! رؤساء الكهنة والمحققين. يخاطب، إن لم يكن شجاعتهم ليدلوا بشهادتهم لو أرادوا، هذا لو كانت لهم حرية الإرادة، فضمائرهم!! ثم أنه في قول المسيح هذا، رجعة قانونية على المحقق المتحامل المدلس. فبحسب القانون اليهودي، يلزم حضور شهود الدفاع أولاً لتبرئة ذمة المتهم! هو هنا يطلب شهود الإيجاب، أي يطلب تعديل وضع المحكمة!! فالوضع القانوني الصحيح في المحاكمات اليهودية العريقة في القدم أن المتهم بريء إلى أن تثبت إدانته. ولكن المسيح كان، في قرارة نفسه ولسان حاله، قد أكمل التعليم والأجوبة والشهادة والبراهين الكلامية التعليمية والإعجارية، والوقت لم يعد وقت شهادة وسؤال وجواب، ولكن هي شدة وضيق كان عليه أن يجوزها في صمت، لو أمكن!

ثم أليس هو الذي تكلم جهرا أمام مجلس السنهدريم معلناً بنوته لله وصدق مسيانيته؟ واننا، في الحقيقة، نلمح في قول المسيح: «لماذا تسألني»، رفضاً مقنعاً للاجابة، وهو ما نسمعه في الأناجيل الأخرى أنه صمت وأنه لم يرد بشيء!! «فقام رئيس الكهنة في الوسط، وسأل يسوع قائلاً: أما تجيب بشيء ماذا يشهد به هؤلاء عليك. أما هو فكان ساكتاً، ولم يجب بشيء.» (مر١٤:٦١-٦٢؛ مت٢٦:٦٢-٦٣)

ثم كيف يجيب المسيح على قاض صمم وأعلن عن قتله؟

لقد أعيي رئيس الكهنة، لكي يجمع شهادات زور، فلم يوفق أبداً: «وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله

يطلبون شهادة زور على يسوع، لكي يقتلوه، فلم يجدوا» (مت٢٦:٥٩-٦٠)، «لأن كثيرين شهدوا عليه زوراً، ولم تتفق شهادتهم.» (مر١٤:٥٦)

ولكن حينما حل دور الشهادة للحق أمام المجمع عن بنوته لل، وأمام بيلاطس عن ملكوته، أجاب الإجابة القاطعة: «وشهد الاعتراف الحسن»، وهو الأمر الذي صار من صلب إيماننا: «أوصيك أمام الله الذي يحيي الكل والمسيح يسوع الذي شهد لدى بيلاطس البنطي بالاعتراف الحسن» (١تى٦:١٣)

١٨:٢٢ وَلَمَّا قَالَ هذَا لَطَمَ يَسُوعَ وَاحِدٌ مِنَ الْخُدَّامِ كَانَ وَاقِفاً قَائِلاً: «أَهكَذَا تُجَاوِبُ رَئِيسَ الْكَهَنَةِ؟».

لقد سجل إشعياء النبي هذا المنظر قبل أن يحدث بستمائة سنة وصوره أروع تصوير: «بذلت ظهري للضاربين، وخدتي للناتفين (في السبعينية «للطم»، وجهي لم أستر عن العار والبصاق» (إش٥٠:٦)، [وخديك أهملتهما للطم] (القداس الغريغوري القبطي)

لم يكن العبد أسوأ من سيده، فلو كان رئيس الكهنة «الاضعف» احترم حقوق المتهم بحسب القانون، ما تجرأ العبد ومد يده على رئيس الكهنة «الأعظم».

١٨:٢٣ أَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ قَدْ تَكَلَّمْتُ رَدِيّاً فَاشْهَدْ عَلَى الرَّدِيِّ وَإِنْ حَسَناً فَلِمَاذَا تَضْرِبُنِي؟».

المسيح هنا لا يرد على العبد، بل على قيافا حامي التوراة، وهل أعطت التوراة هذا العبد علة هذا التعدي: «لا تسب الله، ولا تلعن رئيساً في شعبك» (خر٢٢:٢٨)، وقد قرأها القديس بولس «رئيس شعبك لا تقل فيه سوءاً» (أع٢٣:٥). فالمسيح هنا يسأل رئيس المحكمة الذي رأى ووافق على اللطم. إن القانون يقول: «لا تقل سوءاً»، فما هو هذا السوء الذي تكلمت به حتى تعطي لعبدك الحق في الاساءة؟ وأنا لم أتكلم سوءاً، بل حسناً!! لقد احتسب المسيح هذه الإساءة، دون سبب، أنها مخلة بإجراءات المحاكمة وخروجاً على القانون والتوراة. وتجدر الاشارة هنا، إلى أن القانون اليهودي ينص على أنه ليس للقاضي الحق إلا ليطرح المذنب، إذا ثبت عليه الذنب، ثم يأمر بعد ذلك بالجلد في حدود كرامة الانسان «لئلا يُحتقر في عينيك»!!!

+ «إذا كانت خصومة بين أناس، وتقدموا إلى القضاء ليقضي القضاة بينهم فليبرروا البار، ويحكموا على المذنب. فإن كان المذنب مستوجب الضرب، يطرحه القاضي، ويجلدونه أمامه على قدر ذنبه بالعدد. أربعين يجلده، لا تزد، لئلا إذا زاد في جلده على هذه ضربات كثيرة، يحتقر أخوك في عينيك.» (تث٢٥:١-٤)

ولكن كان هذا مبتدأ الأوجاع، فقد زحفت ساعة الظمة، وتحرك العقرب على يد هذا العبد المتعوس، وبعد ذلك وبتحريض من رئيس الكهنة، أكملت الآلام، كما جاء في الأناجيل الأخرى:

+ «حيث اجتمع الكتبة والشيوخ (أعضاء السنهدريم)... ها قد سمعتم تجديفه ماذا ترون. فأجابوا وقالوا: إنه مستوجب الموت. حينئذ بصقوا في وجهه، ولكموه، وآخرون لطموه قائلين: تنبأ لنا أيها السيح من ضربك.» (مت٢٦:٦٥-٦٨)

+ «فابتدأ قوم يبصقون عليه، ويغطون وجهه، ويلكمونه ويقولون له: تنبأ. وكان الخدام يلطمونه.» (مر١٤:٦٥)

+ «والرجال الذين كانوا ضابطين يسوع، كانوا يستهزئون به وهم يجلدونه. وغطوه وكانوا يضربون وجهه ويسألونه قائلين: تنبأ من هو الذي ضربك؟ وأشياء أخرى كثيرة، كانوا يقولون عليه، مجدفين.» (لو٢٢:٦٣-٦٥)

وقد انقسمت الآلام والتعديات على المسيح إلى ما كان منها قبل النطق بالحكم من فم قيافا، وما بعد النطق بالحكم، أي بعد انتهاء المحاكمة. وكانت التي قبل النطق بالحكم هي السبة العظمى في القانون اليهودي، ودلالة قاطعة

على أن المحاكمة كانت على مستوى التشفي.[1]
لماذا؟ إشعياء يتأمل ويتعجب والروح يجيب!
+ «مخزول من الناس، رجل أوجاع، ومختبر الحزن... محتقر فلم نعتد به!
نحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً...
لكن: أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها، .. مجرح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا. تأديب سلامنا عليه وبحبره (كدمات أو رضوض أو سحق) شُفينا! ظُلم، أما هو فتذلل، ولم يفتح فاه؛ كشاة تُساق إلى الذبح...
ضُرِبَ من أجل ذنب شعبي... على أنه لم يعمل ظلماً، ولم يكن في فمه غش!
أما الرب فسُر بأن يسحقه بالحزن. إن جعل نفسه ذبيحة إثم.» (إش٥٣:٣-١٠)
الآن أدركت لماذا ضُرب المسيح بالكف على وجهه، فأسرع ينفي عن نفسه نفياً باتاً أنه يستحق اللطم! لكي يصير عار اللطم الذي كان علي أن أحتمله، احتمله وجهه ثمناً مدفوعاً عن عاري أنا، وأتبرأ عن اللطم الذي أستحقه لتأديبي، ألم يقل إشعياء، «تأديب سلامنا عليه» (إش٥:٥٣)
الآن فهمت لماذا عرض المسيح وجهه للبصاق!! إنه ثمن فضيحتي الذي ستر به خزيي. اقشعري يا نفسي وارتعدى، فعارك حمله على وجهه لطماً وبصاقاً، ليجعلك بلا لوم أمامه. ليس مجاناً اغتسلنا بل تقدسنا بل تبررنا، بل بالثمن الغالي الذي تقشعر منه السماء والأرض معاً.
أربعون جلدة إلا واحدة، تحملها على ظهره الغض بتأوهات وأنين وآلام مبرحة، واللحم يتهرأ والدم يتفجر، والعقوبة أصلاً هي عقوبتى، فالجناية جنايتى، والذنب ذنبي، والتعدي صنعته حماقتي.
ذوبي يا نفسي خجلاً، وانطرحي إلى الأرض، وعفري وجهك بالتراب، فالثمن المدفوع لتبرئتك لا تطيقه السماء، والأرض كلها تميد من تحته!

١٨: ٢٤ وَكَانَ حَنَّانُ قَدْ أَرْسَلَهُ مُوثَقاً إِلَى قَيَافَا رَئِيسِ الْكَهَنَةِ.

هذه الأية ليس موضعها هنا، لكنها أتت استدراكية، استدرك بها الكاتب ما كان يجب أن يقوله قبل البدء في المحاكمة أمام قيافا قبل الآية: «فسأل رئيس الكهنة يسوع...» (يو١٨: ١٩)، لأن حنان أنهى تحقيقاته المبدئية قبل أن يرسله «موثقاً» إلى قيافا. وكلمة «موثقاً» هي الإشارة الوحيدة للادانة.
وإلى هنا تكون قد تمت التحقيقات المبدئية أمام «حنان» شكلياً، ثم التحقيقات التسجيلية في مضابط الجلسة أمام قيافا ومجلس السنهدريم. على أن التقليد اليهودي والتقليد المسيحي معاً، لا يقول أي منهما أن المسيح حوكم أمام السنهدريم رسمياً، وهي التحقيقات التي انتهت بتمزيق رئيس الكهنة ثوبه إعلاناً عن تجديف سجله على المسيح زوراً، وأشهد عليه السنهدريم، وهيج الأعضاء، فقاموا على المسيح وصنعوا به كل ما أرادوا. وهذا جاء في إنجيل القديس مرقس من الآية ٥٥ حتى الآية ٦٥ من الأصحاح الرابع عشر.

---

[1] كثيرين تساءلوا لماذا لم يدر المسيح الخد الآخر حينما لُطم على الخد الأول؟ يرد على ذلك القديس أغسطينوس قائلاً: [إن وصايا المسيح لا تتتم بالجسد، ولكن باستعداد القلب، لأنه يمكن أن إنساناً غاضباً حاقداً يحول الخد الآخر. ولكن كم يكون من الأفضل للإنسان أن يكون في ملء السلام الداخلي، ليرد بجواب فيه الحق، وبهدوء الفكر يمسك نفسه باستعداد لاحتمال آلام أكثر تأتي عليه].

١٨:٢٥ وَسِمْعَانُ بُطْرُسُ كَانَ وَاقِفاً يَصْطَلِي. فَقَالُوا لَهُ: «أَلَسْتَ أَنْتَ أَيْضاً مِنْ تلاَمِيذِهِ؟» فَأَنْكَرَ ذَاكَ وَقَالَ: «لَسْتُ أَنَا».

هذا الإنكار هو الثاني لبطرس، وقد تم في نهاية التحقيقات أمام حنان، وكان الداعي لهذا الانكار هو بمناسبة ظهور الممسيح موثقاً، وهو يمر محروسا بالخدم مم مكان حنان إلى مكان قيافا، إذ كانت فرصة جديدة للخدم، لإعادة النظر في هذا الغريب الجالس وسطهم دون أن يتعرفوا عليه.

١٨:٢٦ قَالَ وَاحِدٌ مِنْ عَبِيدِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَهُوَ نَسِيبُ الَّذِي قَطَعَ بُطْرُسُ أُذْنَهُ: «أَمَا رَأَيْتُكَ أَنَا مَعَهُ فِي الْبُسْتَانِ؟»

هنا تظهر إمكانيات القديس يوحنا في التعرف على أهل بيت رئيس الكهنة وخدامه، التي تشير إلى احتمال شديد للقرابة أكثر منها للمعرفة عند بيت رئيس الكهنة. كانت هذه اللفتة من نسيب ملخس مرعبة بالنسبة للقديس بطرس، لذلك أسرع في النفي.

١٨:٢٧ فَأَنْكَرَ بُطْرُسُ أَيْضاً. وَلِلْوَقْتِ صَاحَ الدِّيكُ.

هذا هو الإنكار الثالث لبطرس، والآن وقد تم العدد المتفق عليه، إذ صاح الديك بالفعل! هنا، في هذه اللحظة، كانت قد تمت المحاكمة أمام قيافا والسنهدريم، وخرج يسوع موثقاً في طريقه لبيلاطس، وكان لابد أن يمر بالفسحة التى في الدور الأرضي التي كان بطرس واقفاً فيها مع الخدم يصطلي. وكان تدبير الله للخلاص أن مر الرب بجوار القديس بطرس في اللحظة التي أنكر فيها، فصاح الديك، ونظر إليه، فانتبه بطرس وقرأ ما في عيني الرب، هذا بحسب إنجيل القديس لوقا: «فقال بطرس: يا إنسان، لست أعرف ما تقول. وفي الحال، بينما هو يتكلم صاح الديك. فالتفت الرب ونظر إلى بطرس. فتذكر بطرس كلام الرب، كيف قال له إنك قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات، فخرج بطرس إلى خارج، وبكى بكاء مراً.» (لو٢٢:٦٠-٦٢)

أما القديس يوحنا، فبحسب أسلوبه المحافظ جداً، لم يشأ أن يورد أي إشارة لإدانة القديس بطرس، أو الحط من كرامته، شأنه في ذلك مع بطرس شأنه مع جميع التلاميذ الذين كانوا موضع تكريم دائماً في إنجيل القديس يوحنا.

وواضح أن اهتمام القديس يوحنا في تسجيل حادثة إنكار بطرس، ومثل تسجيله لبقية الحوادث، كان منصباً على توجيه النظر ناحية لاهوت المسيح، وكيف تم ما قاله المسيح لبطرس بالحرف الواحد: «وقلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون.» (يو١٤:٢٩)

«لا تحرف حق فقيرك في دعواه. ابتعد عن كلام الكذب، ولا تقتل البريء والبار، لأني لا أبرر المذنب.» (خر٢٣:٦-٧)

«هكذا قال رب الجنود قائلاً: اقضوا قضاء الحق واعملوا إحساناً ورحمة، كل إنسان مح أخيه، ولا تظلموا... ولا يفكر أحد منكم شراً على أخيه فى قلبكم، فأبوا أن يصغوا، وأعطوا كتفاً معاندة، وثقلوا آذانهم عن السمح... فجاء غضب عظيم من عند رب الجنود. فكان كما نادى هو، فلم يسمعوا، كذلك ينادون هم فلا أسمع، قال رب الجنود، وأعصفهم إلى كل الأمم الذين لم يعرفوهم. فخربت الأرض وراءهم، لا ذاهب ولا آئب، فجعلوا الأرض البهجة خراباً.» (زك٧:٩-١٤)

في ختام رواية محاكمة المسيح أمام رؤساء الكهنة، ومجلس السنهدريم من الباطن[١]، لا نعثر على قرار واضح أجرى عليه التصويت، ولا حتى إجراءات قانونية واضحة. وهذا ما لا يخفى على القارىء، أن رؤساء الكهنة ومجلس السنهدريم لم يكن له أي سلطة قضائية للمحاكمة أو لإصدار قرارات في عهد الحكم الروماني: «لا يجوز لنا أن نقتل أحداً» (يو١٨:٣١). وكل ما عملوه هو الإنتهاء إلى قرار موحد يستطيعون تقديمه لبيلاطس، ليحكم لهم بمقتضاه، إن أمكن. فالمسألة كانت مجرد اجتهاد بالنسبة لهم، وقد استخدموا كافة وسائل الضغط والترغيب، ثم الإرهاب ليبلغوا إلى غايتهم

وقد كشف بيلاطس العوامل النفسية الواضحة والصارخة التي حركتهم ضد المسيح، والتي استخلصها من قضيتهم ودعواهم، فوق كل صراخهم وإدعاءاتهم: «لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسداً» (مر١٥:١٠). كما كشف بيلاطس على عدم استنادهم على أي أدلة واضحة أو صادقة لإقامة هذه الدعوى برمتها، وبالتالى المطالبة بصلبه.

١- شهادة بيلاطس ثلاث مرات بعدم وجود علة واحدة في المسيح (يو١٨:٣٨؛ ١٩:٤-٦).

٢- «وأى شر عمل؟ فكانوا يزدادون صراخاً قائلين ليصلب.» (مت٢٧:٢٣)

٣- «فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً، بل بالحري يحدث شغب، أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلاً: إني بريء من دم هذا البار، أبصروا أنتم.» (مت٢٧:٢٤)

٤- أتريدون أن اطلق لكم ملك اليهود.» (مر١٥:٩)

٥- «قد قدمتم إلي هذا الإنسان كمن يفسد الشعب، وها أنا قد فحصت قدامكم ولم أجد في هذا الإنسان عله مما تشتكون به عليه، ولا هيرودس أيضاً لأني أرسلتكم إليه. وها لا شيء يستحق الموت صُنع منه.»(لو٢٣:١٤-١٥)

٦- «فقال لهم ثالثة: فأي شر عمل هذا؟ إني لا أجد فيه علة للموت.» (لو٢٣:٢٢)

ب- المحاكمة الثانية: أمام المحكمة المدنية. (١٨:٢٨-١٩:١٦

الملك السماوي أمام الحاكم الروماني

يختص إنجيل القديس يوحنا بمفرده بالكشف عن التحقيقات الخاصة التي أجراها بيلاطس مع المسيح في غياب اليهود، وقد جاءت على مرتين (١٨:٣٣-٣٧؛ ١٩:٨-١١)

ولكننا نسمع عنها باختصار بالغ في رواية القديس متى ٢٧:١١. كما تأتي عرضاً كمسلمة من المسلمات الإيمانية العالية القيمة جداً في وصية القديس بولس الرسول الأخيرة لتيموثاوس هكذا: «أوصيك أمام الله الذي يُحيي الكل، والمسيح يسوع، الذي شهد لدى بيلاطس البنطي بالاعتراف الحسن» (اتي٦:١٣). من هذا نستنتج أن القديس يوحنا يلزم أن يكون قد رافق المسيح ودخل معه دار الولاية، وربما كان هذا أسهل بكثير من دخوله مع المسيح دار رئيس الكهنة. كما يتضح ذلك أيضاً هن شرح للقديس يوحنا للغة بيلاطس سواء لليهود أو للمسيح، فقد كانت بوضوح واسهاب، في حين أن ما ورد في الثلاثة الأناجيل عما تم لدى بيلاطس كان باختصار وبدون ترتيب.

ورواية القديس يوحنا لمحاكمة المسيح لدى بيلاطس يمكن تقسيمها إلى فواصل واضحة؛ ما تم منها داخل دار الولاية (البريتوريون) وما تم منها خارج الدار:

---

[١] معروف أن مجلس السنهدريم كان قد توقف عن إصدار قرارات رسمية أربعين سنة قبل هدم الهيكل وأورشليم

الجزء الأول: خارج دار الولاية؛ وفيه طالب بيلاطس اليهود بنفاذ حكم الإعدام الذي نطقوه (١٨:٢٨-٣٢).

الجزء الثاني: داخل دار الولاية؛ «الاعتراف الحسن». المسيح ملك (١٨:٣٣-٣٧).

الجزء الثالث: خارج دار الولاية؛ الإعلان الأول عن براءة المسيح؛ وموضووع باراباس (١٨:٣٨-٤٠).

الجزء الرابع: داخل دار الولاية؛ الحكم بالجلد والاستهزاء الأول (١٩:١-٣).

الجزء الخامس:خارج دار الولاية؛ الإعلان الثاني والثالث عن براءة المسيح: «هوذا الإنسان»،«ابن الله»(١٩:٤-٧).

الجزء السادس: داخل دار الولاية؛ مصدر السلطان والخطية الأعظم (١٩:٨-١١).

الجزء السابع: خارج دار الولاية؛ تهديد القاضي، يحيا قيصر، وليمت المسيح (١٩:١٢-١٦).

الجزء الأول من سير القضية

خارج دار الولاية (١٨:٢٨-٣٢)

بيلاطس واليهود. المطالبة بالإعدام والرد بالرفض

١٨:٢٨ ثُمَّ جَاءُوا بِيَسُوعَ مِنْ عِنْدِ قَيَافَا إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ وَكَانَ صُبْحٌ. وَلَمْ يَدْخُلُوا هُمْ إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ لِكَيْ لاَ يَتَنَجَّسُوا فَيَأْكُلُونَ الْفِصْحَ.

إن آخر مرحلة عبر عليها المسيح في المحاكمة لدى رئيس الكهنة كانت باشتراك جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب حيث قرروا قتله، وذلك حسب رواية إنجيل القديس متى: «ولما كان الصباح، تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه، فأوثقوه، ومضوا به، ودفعوه إلى بيلاطس البنطى الوالي.» (مت٢٧:١-٢) كانت أحكام اليهود، مهما أخذت من رسميات، بلا قوة وغير قابلة للتنفيذ بدون السلطة الرومانية. أما دار الولاية، فبالرغم من أنه كان لها مقر رسمي في قصر خاص كان قد بناه هيرودس الملك على التلال الغربية الشمالية لمدينة أورشليم، إلا أن المعروف أن بيلاطس كان مقرة المؤقت في قلعة أنطونيا في الشمال الشرقي، لأن مقره الدائم كان في مدينة قيصرية. إلا أنه كان ينتقل من مقره الرسمي إلى أورشليم في الأعياد، ليشرف بنفسه على الأمن والنظام، لأن المدينة حينذاك تكون مكتظة باليهود الآتين من الشتات، الذين يبلغ عددهم في الفصح ما يقرب من ثلاثة ملايين.

«وكان صبح (الفجر)»: هذا التعبير الروماني يقابله في تقسيم الزمن اليهودي، الهزيع الرابع من الليل (ويبدأ من الساعة الثالثة بعد نصف الليل حتى الساعة السادسة صباحاً). ومعروف في القانون اليهودي أنه تحظر إصدار حكم بالموت أثناء الليل.

وهكذا عُقد السنهدريم بكامل هيئته في الصباح، ليوافقوا على حكم الليل، لمجرد استيفاء الشكليات القانونية، وهذا هو العبث، عين العبث، بروح القانون.

ولكن ظل القرار الذي أخذوه بالإجماع في الصباح مخالفاً لنص القانون اليهودي، وهو أن حكماً بالموت لا يصدر في يوم المحاكمة، إذ لا بد أن يؤجل إلى يوم آخر غير يوم المحاكمة. ولكنهم، باعتبارهم الهيئة العليا المهيمنة على الشئون القانونية، أعطت لنفسها الحرية أن تعبث بالقانون، ظناً منها أنه لن يوجد من يؤاخذها. ولكن العالم كله، وكل جيل، وفي كل أمة، يشهد الآن على فساد ذمة القضاة اليهود الذين تولوا الحكم على يسوع.

ذهبوا إلى دار الولاية في وقت مبكر للغاية، مع أن القانون الروماني ينص على انعقاد المحكمة بعد شروق الشمس على كل حال. ولكن يبدو أنهم كانوا على ميعاد مع بيلاطس، وأنه هو الذي أرسل الحامية العسكرية. ومعروف أن حنان، أغنى أغنياء اليهود، كان على صلة بكل الذين في دار الولاية، وأنه كان يرشو الجمع بالأموال. ولكن بيلاطس ظلق محتفظاً برأيه فيما يختص بالحدود التي تفصل بين قضاء اليهود والقضاء الروماني.

«ولم يدخلوه لكي لا يتنجسواء فيأكلون الفصح»: كانوا يخشون نجاسة الجسد، ولا يخشون سفك دم بريء!! وصح فيهم قول المسيح أنهم: «يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل.» (مت٢٣: ٢٤).

قبل أن نخوض في إثبات تقليد إنجيل القديس يوحنا في كون المسيح ذُبح في يوم ١٤ نيسان، وهو ميعاد ذبح الخروف، يلزم أن نوضح الآتي:

أولاً: ذبح خروف الفصح، حسب الناموس، يكون في يوم ١٤ نيسان قبل الغروب بين العشائين، أي من الساعة الثالثة حتى الساعة السادسة بالتوقيت الإفرنجي.

ثانياً: اليوم اليهودي يبدأ من بعد غروب الشمس حتى غروب الشمس في اليوم التالي (أربع وعشرون ساعة).

ثالثاً: يوم ذبح الخروف يُسمى يوم الفصح، أو عيد الفصح، وهو ١٤ نيسان. واليوم الذي يليه وهو ١٥ نيسان يسمى أول أيام العيد، وهو أول أيام عيد الفطير، وفيه محفل رسمي. ففي يوم الفصح يُذبح الخروف وقت الغروب. ويكون أكل الفصح بعد الغروب، أي يدخل في يوم ١٥ نيسان، وهو أول يوم لعيد الفطير.

بعد يوم ١٤ نيسان يبدأ أسبوع الفصح الذي لا يؤكل فيه خمير قط بل فطير، ويسمى عيد الفطير. ولكن عدد أيام أكل الفطير هي ٦ أيام، لأن في يوم ١٤ نيسان يُقطع الخمير، ويُصنع الفطير.

خامساً: بحسب رواية الثلاثة الأناجيل، يبدو أن المسيح صنع العشاء الأخير في غروب يوم الفصح نفسه، ي في ١٤ نيسان، وأنه صُلب ثاني يوم، أي أنه في ١٥ نيسان بدأ عيد الفطير.

سادساً: بحسب رواية إنجيل القديس يوحنا، يبدو أن المسيح صنع العشاء الأخير قبل يوم الفصح، لأنه يعلم أنه هو نسه سيكون خروف الفصمح: «حمل الله الذي يرفع خطايا العالم» (يو١: ٢٩)، وأنه صُلب يوم ١٤ نيسان، وهو يوم ذبح الخروف، عن علم سابق وقصد. والمسيح بذلك يكون قد ألغى الفصح اليهودي بذبح الخروف، وأسس الفصح المسيحي بذبح نفسه. وهذا تؤكده شهادة بولس الرسرل القوية: «لأن فصحنا أيضاً المسيح، قد ذُبح لأجلنا، إذاً لنعيد ليس بخميرة عتيقة، ولا بخميرة الشر والخبث، بل بفطير الإخلاص والحق.»(اكو٥: ٧-٨)

سابعاً: إمكانية التوفيق بين رواية الثلاثة الأنا جيل ورواية إنجيل القديس يوحنا قام بها كثير من العلماء، وأثبتوا صحة الروايتين، محاولين التوفيق بينهما:

١- فمثلاً في الثلاثة الأناجيل، وفي إنجيل القديس يوحنا، معروف أن ليلة العشاء الأخير كانت هي ليلة التسليم.

٢- من رواية القديس لوقا، يتضح أن القيامة حدثت يوم الأحد. ومعروف أن الكنيسة عيد يوم الخمسين بحسب سفر الأعمال (الذي هو ملحق لإنجيل لوقا) من تلك السنة إلى اليوم بعد خمسين يوماً وكان يوم الأحد ولا يزال. ومعروف في الناموس أن حساب يوم الخمسين هو بعد خمسين يوماً بعد أول سبت من عيد الفصح مباشرة. وعيد الفصح سنة صلب المسيح، إذا حسبناه يوم السبت أي بحساب الخمسين يوماً يكون ١٤ نيسان هو يوم الجمعة ميعاد ذبح الخروف، وهكذا يتفق إنجيل لوقا مع إنجيل يوحنا تماماً. «ثم تحسبون

لكم من غد السبت (أول سبت بعد عيد الفصح)، من يوم إتيانكم بحزمة الترديد، سبعة أسابيع تكون كاملة، إلى غد السبت السابع، تحسبون خمسين يوماً، ثم تقربون تقدمة جديدة للرب ... وتنادون في ذلك اليوم عينه محفلاً مقدساً يكون لكم» (لا٢٣:١٥-٢١)، وهو عيد الخمسين.

٣- معروف أن المسيح صنع عشاء الفصح في بداية يوم رفع الخمير وبدء الفطير، يوم ١٤ نيسان، لأن هذا اليوم يبدأ بعد غروب يوم ١٣ نيسان (الخميس) مباشرة. وفي هذا اليوم صنع العشاء الأخير ١٤-١٣ نيسان، بدأه في غروب الخميس وأكمله في دخول الجمعة، وفي منتصف نهار ١٤ نيسان رُفع على الصليب. إذن، فالمسيح أكمل العشاء الأخير في الساعات الأولى من ١٤ نيسان، وقدم ذبيحة نفسه على الصليب في الساعات الأخيرة ليوم الفصح ١٤ نيسان أيضاً. ومن هذا يتضح أن اللبس في مفهوم عشاء الخميس وفصح الجمعة هو بسبب عدم فهمنا لنظام توقيت اليهود؛ لأن يوم الخميس، بحسب التوقيت الإفرنجي الآن، ينتهي في منتصف ليلة الخميس عشية الجمعة؛ أما بحسب توقيت اليهود، فيوم الخميس ينتهي الساعة السادسة في غروب شمس يوم الخميس عشية الجمعة. لذلك حينما نقول إن العشاء الأخير تأسس في مساء الخميس، يكون هذا التعبير مسارياً للتعبير اليهودي أن العشاء الأخير تأسس في الساعات الأولى من يوم الجمعة الذي يبدأ بعد غروب شمس الخميس مباشرة.

٤- التلمود اليهوي، سجل فيه اليوم الذي صُلب فيه المسيح هكذا!: [أن يسوع عُلق على خشبة في مساء الفصح].

٥- قول المسيح في إنجيل متى: «المعلم يقول إن وقتي قريب، عندك أصنع الفصح مع تلاميذي» (مت٢٦:١٧). فكلمة: «وقتي قريب»، يتضح من هذا التعبير ان الرب لا يقصد الفصح الرسمي بل عشاء فصحياً يصنعه تحت اضطرار عدم إمكانية إقامة الفصح الرسمي مع التلاميذ بسبب «وقتي قريب»، أي أن «الساعة» ستكون هي ساعة ذبح الحروف، وقد صنعه خصيصاً ليؤسس فيه سر دمه وجسده.

٦- قول المسيح: «شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم، قبل أن أتألم، لأني أقول لكم إني لا آكل منه بعد، حتى يُكمل في ملكوت الله» (لو٢٢:١٥-١٦). ومن هذا التعبير يتضح أن الرب، وهو عالم أنه لن يأكل هذا الفصح رسميا مع تلامنذه، صنع هو هذا الفصح مسبقاً، ليؤسس فيه سر الشكر والحب، لأن هذه هي شهوته الحقيقية.

٧- هذا كله، يكشف سره ويوضحه توضيحاً بليغاً القديس يوحنا في تسجيله لهذا العشاء: «أما يسوع قبل عيد الفصح، وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إل الآب، إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إل المنتهى، فحين كان العشاء ...» (يو١٣:١-٢). هنا يأتي تصريح القديس يوحنا القاطع، أن المسيح صنع الفصح الخاص الذي قدم فيه جسده ودمه سراً للعالم، قبل أن يصنعه عملياً وعلنا على الصليب. وكان بالفعل يتحتم أن يكون ذلك قبل عيد القمح، فإن كان كلا الفصحين واحداً، ففصح الخميس يقدم أعظم شرح لما تم في فصح الجمعة، وسر فصح الخميس يستمد قوته وفعله من فصح الجمعة. وكان يستحيل على الكنيسة أن تفهم فصح الصليب أو تنتفع به، إلا بتأسيس فصح الخميس!!

٨- واضح من تسمية الخبز الذي أخذه المسيح عل يده باعتباره جسده أنه خبز خمير: «خبز»، وليس «فطيراً»، في حين أنه في يوم الفصح يتحتم تحتيما أن يكون فطيراً، والكنيسة المسيحية لا تزال تستخدم

الخبز المختمر، وحتى الكنيسة الكاثوليكية كانت تستخم الخبز الخمير وليس «البرشامة» (الفطير) حتى القرن الحادي عشر.

٩- لم يُذكر في طقس عشاء الرب، في الثلاثة الأناجيل، المكونات الأساسية لعشاء الفصح الرسمي، وهي الأعشماب المرة والخروف.

١٠- استخدم كأس واحد من الخمر، مر على الجميع، في حين أن طقس عشاء الفصح الرسمي يتحتم أن يكون في يد كل واحد كأساً، أثناء بدء قراءة خدمة الفصح.

١١- ذهاب المسيح من أورشليم إلى جثسيماني خارج المدينة، هو ممنوع يوم العيد.

١٢- حمل بطرس سيفاً، هو أمر محرم قطعاً يوم العيد.

١٣- مجيء سمعان القيرواني من الحقل، وهو الذي سخروه لحمل الصليب، يعني أنه كان يعمل في ذلك اليوم، وهو أمر محرم قطعاً يوم العيد.

١٤- شراء يوسف الرامي الكتان والحنوط، أمر مستحيل يوم العيد، فلا محلات مفتوحة، ولا سماح للبيع والشراء في يوم العيد.

١٥- مكتوب في إنجيل القديس يوحنا: «وكان استعداد الفصح ونحو الساعة السادسة فقال اليهود هوذا ملككم» (١٩:١٤)، «ثم إذ كان استعداد، فلكي لا تبقى الأجساد على الصليب في السبت ... » (١٩:٣١). هذا هو الاستعداد «الجمعة» الذي يسبق الفصح.

وهنا ينقسم العلماء إلى مجموعتين: مجموعة تقول بأن «أكل الفصح» (يو١٨:٢٨) عند القديس يوحنا هو ذبح الخروف الفصحي، بينما العشاء الفصحي هو يوم الجمعة ١٤ نيسان. وهذه المجموعة يتبعها بعض الآباء القديسين الذين شرحوا إنجيل القديس يوحنا مثل القديس كيرلس الكبير ومن العلماء: ماير، كييم، دي برسانسيه، بو ير، نياندر(حاخام يهودي متنصر)، إبرارد، إيفالد، وستكوت، جوديه، لوكه وآخرون.

أما المجموعة الأخرى فتقول بأن يوم الصلب ليس هو يوم الفصح ١٤ نيسان، بل إن يوم الفصح هو ١٥ نيسان، وأن يوم الجمعة هذا يتبع الفصح فقط وهو المختص لأكل «الشجيجة»، وليس الفصح، وهي ذبيحة سلامة إضافية للعيد، وهؤلاء لا يعنوننا، لأننا نعتقد أن الرأي الأول هو الأصح.

قول للقديس كيرلس الكبير في هذا المعنى: [«اقضوا قضاء عادلاً ولا تقتلوا البريء ولا البار»، كان هذا نص الناموس. ولكن هؤلاء البؤساء لم يخجلوا، كون أدلة الإتهام لم تسعفهم ليقيموا دعواهم ضد المسيح، بل إذ وجدوا أن قيامهم أصلاً ضد المسيح بلا سبب، واذ هم ممنوعون من قتله بأيديهم، وقد اقترب ميعاد ذبح الكفارة، فإذ قرب ميعاد ذبح خروف الفصح بحسب الناموس، ولو أنهم كانوا فاقدين قوته، أحضروه إلى بيلاطى معتقدين بجنونهم أنهم لن يحملوا وزر إهراق دمه ظلماً ما داموا لم يسفكوا دمه بأيديهم، فأحضروه ليُقتل بيد آخر؛ مع أن الذي أضمروه في قلوبهم مخالف بجملته لقانون موسى.]

واضح هنا أن القديس كيرلس الكبير يقول بأن يوم صلب المسيح هو ١٤ نيسان ميعاد ذبح الخروف.

والسبب الأول على أن قول القديس يوحنا هو ما يخص أكل الفصح الرسمى وأن اليهود لم يدخلوا دار الولاية لئلا يتنجسوا فيمتنع عليهم أكل الفصح الرسمي، هر أن معظمهم كان رؤساء كهنة وكهنة، وهم المنوط بهم ذبح خروف الفصح باعتباره عملاً طقسياً رسمياً في الهيكل. فالأمر لا يختص بالأكل فقط ولا كان مجرد الاستحمام بعد غروب

الشمس يعطيهم حق الأكل من الفصح، ولكن الذي منعهم بالفعل هو خوفهم من تعطيل طقس ذبح الخروف الذي يتحتم أن يكون في الغروب. فإذا تنجسوا، امتنع عليهم الاقتراب من طقس الذبح حتى إلى ما بعد الغروب.

أما السبب الثاني الذي يؤكد أن يوم الجمعة هذا هو يوم الفصح ١٤ نيسان، الذي يُذبح فيه الخروف، فهو أنه يتعذر، بل ويستحيل أن يكون يوم الخميس وهو يوم القبض على المسيح ومحاكمته طول الليل، هو اليوم الذي يذبحون فيه الفصح، لأن هذا معناه أن صلب المسيح يكون بالتالى في العيد (١٥ نيسان)، الأمر الذي تحاشاه اليهود ما أمكن.[1]

السبب الثالث: يلاحظ أن رؤساء الكهنة ومجمع السنهدريم أرادوا أن يتحاشوا إمدار حكمهم بموت المسيح، حسب الأصول القضائية الناموسية، ثاني يوم بعد التحقيق، لئلا يكون ذلك في العيد ١٥ نيسان، فاضطروا اضطراراً أن يصدروه في نفس يوم التحقيق ١٤ نيسان في الفجر، مخالفين بذلك قواعد الناموس، ولكن عن اضطرار تورطوا فيه.

١٨: ٢٩ فَخَرَجَ بِيلاَطُسُ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: «أَيَّةَ شِكَايَةٍ تُقَدِّمُونَ عَلَى هَذَا الإِنْسَانِ؟».

لا بد أن بيلاطس أخذ علماً بعذر اليهود عن الدخول إلى دار الولاية، ولعلمه بتعصبهم العنيد لعوائدهم الدينية لم يشأ أن يرغمهم، بل خرج هو خارج دار الولاية، وبدأ يستجوبهم بشيء من الرسمية.

«أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان»: تعبير يحمل كثيراً من المعاني والأحاسيس، فهو أولاً يعرف موضوع هذه القضية جيداً، فهو الذي أصدر الأمر للقائد بالقبض على يسوع بناء على طلب وإلحاح من رؤساء الكهنة، وكان سلوك القائد يدل على أنه كان هناك توصية خاصة بترحيل المقبوض عليه إلى المكان الذي عينه اليهود «بيت حنان»، وهو بيت غيررسمي. ولكن معروف أن هناك علاقات بين هذا الرئيس المتقاعد وكل الهيئات الرسمية.

والسؤال هنا، لماذا يبدو بيلاطس وكأنه يتجاهل القضية برمتها؟ بل وسؤاله يحمل شيئاً من الارتياب في نيات اليهود، بل ومن قويه: «هذا الإنسان» يبدو وكأنه يعطف نوعاً ما على وضعه.

هنا يفيدنا أن نأتي بقول للقديس متى، له وزنه: «وإذ كان جالساً على كرسي الولاية، أرسلت إليه امرأته قائلة: إياك وذلك البار. لأني تألمت اليوم كثيراً في حلم من أجله» (مت١٩:٢٧). إذن، فامرأة بيلاطس، وبالتالي كل أسرته، وشخصه أيضاً، يعرفون ماذا كان يجري من وراء الكواليس في الخفاء، ويعلمون من هو «هذا البار»، وهم قد سمعوا عنه الشيء الكثير والكثير! في سؤال بيلاطس شيء من الاستنكار لما عملوه واتفقوا عليه، ولكل الإتهامات

---

[1] طبقا للتقليد الكاثوليكى وحسب رؤية القديسة آنا أميرتش أنه أثناء محاكمة السيد المسح أمام السنهدريم وطُلب من من نيقوديموس ويوسف الرامى أن يبررا كيف أنهما سمحا للسيد المسيح أن يأكل الفصح فى اليوم السابق للفصح في غرفة تخصهما، فبرهنا لهم من وثائق قديمة أنه منذ زمن بعيد قد سُمح للجليليين أن يأكلوا الفصح في يوم مبكر عن بقية اليهود. وأضافوا أن كل الطقوس قد مورست طبقا للشريعة، وأنه كان هناك بعض الأشخاص الحاضرين العشاء الذين ينتمون للهيكل. أربك ذلك الشّهود تماما وأزاد نيقوديموس غيظ أعداء يسوع بذكر الفقرات التى تبرهن على ما فعله السيد المسيح كونه جليلى من واقع السجلات، التى أوضحت السّبب الذى من أجله قد مُنح هذا الامتياز. وكان السّبب أن الذبائح لم يكن من الممكن أن تنتهي بيوم السبت لو تجمع هذا العدد الهائل معاً لذلك الغرض ليؤدوا جميعاً المراسم فى نفس اليوم؛ مع أن الجليليين لم يستفيدوا دوما بهذا الحق، ومع ذلك فأن وجوده قد برهنه نيقوديموس (ميشيل)

التي لُفقت مسبقاً، وبلغت أسماع بيلاطس من بعيد. وقد ظل هذا السؤال على فم بيلاطس طوال المحاكمة، إذ لم يكن مقتنعاً قط بكل ما يقولونه ويطلبونه، والى أخر لحظة.

«بيلاطس»: هو خامس وال على البلاد (أي اليهودية، وهي الجزء الجنوبي من فلسطين وعاصمته أورشليم)، وذلك من سنة ٢٦م وظل حتى سنة ٣٦م. ويصفه العلامة فيلو اليهودي الإسكندري أنه (متغطرس، إنسان لا يمكن أن يُضط، يبغض العوائد اليهودية المتعصبة المتحيزة. وقد اشتبك كثيراً مع اليهود فأظهر طباعاً شرسة، له نوبات من الغضب الذي يثير أحاسيس الناس بقسوته، فمن الممكن أن يحكم بالإعدام بدون محاكمة وبدون اتهام، كما اشتهر أنه بلا إنسانية).

١٨: ٣٠ أَجَابُوا: «لَوْ لَمْ يَكُنْ فَاعِلَ شَرٍّ لَمَا كُنَّا قَدْ سَلَّمْنَاهُ إِلَيْكَ!».

صُدم اليهود من سؤال بيلاطس، إذ لم يكونوا ستعدين لأي تردد، فكشفوا في الحال عن آخر ما في نيتهم من الأمر ملحين أن ينفذوا حكمهم، في اقتضاب وخشونة ووقاحة، وفي الحال كان رد بيلاطس على رغبتهم في الاستقلال برأيهم،ء أن: «خذوه أنتم واصنعوا به كل ما تريدون»، بجفاء أشد، ملمحاً إلى أن ناموسهم طالما هو مقيد، إذ كان ممنوعاً عليهم إصدار أحكام بالإعدام، إذا، فيلزم أن يخضعوا للقانون الروماني.

١٨: ٣١ فَقَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «خُذُوهُ أَنْتُمْ وَاحْكُمُوا عَلَيْهِ حَسَبَ نَامُوسِكُمْ». فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «لاَ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَقْتُلَ أَحَداً».

يكاد بيلاطس أن يسخر «بهم» و«بناموسهم»: «خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم»، إنما بشيء من التعال والغطرسة، في مقابل وقاحتهم.

واليهود، وذ ضيق عليهم الخناق هكذا، لم يكن أمامهم أي اختيار غير أن يعلنوا عن طلبهم ويقفوا عنده بعناد وإصرار، واختاروا من الاتهام ما يجعل بيلاطس ينتبه إلى خطورة مطلبهم، وإلى حتمية النظر فيه لأنه من صميم اختصاصه.

«لا يجوز لنا أن نقتل أحداً»[1]: أما «القتل» فهو فعلاً من اختصاص المحكمة الرومانية وحدها. ولكن كان في اعتبارهم أنهم لم يأتوا إلى بيلاطس ليناقشهم في حكمهم الذي حكموا به وانتهوا منه، إنهم يطلبون التنفيذ وحسب! وعند هذه النقطة الحرجة للغاية، يتدخل القديس يوحنا، ويرفع عنا هذا الكابوس الضاغط على صدورنا نتيجة مسلك رؤساء الكهنة هذا، والذي بلغ هنا أقصى ما يحتمل بشر، وذلك بجملة إعتراضية:

١٨: ٣٢ لِيَتِمَّ قَوْلُ يَسُوعَ الَّذِي قَالَهُ مُشِيراً إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يَمُوتَ.

لأنه معروف أن اليهود لو كانوا هم الذين نفذوا الحكم الذي انتهوا إليه بقتل المسيح، لتم ذلك بحب الناموس، «احكموا عليه حسب ناموسكم»، رمجاً بالحجارة. ولكن المسيح أعلن مراراً أنه سيُصلب!! وبتعبير إنجيل القديس يوحنا أنه سيُرفع أو يرتفع عن الأرض، كما رفع موسى الحية النحاسية على العصا في البرية. وليس ذلك فقط، بل إن المسيح سبق وأعلن أن ابن الإنسان يُسلم لأيدي الأمم!! من هذا نفهم ونتأمل في أعاجيب سياسة الله. كيف دخلت الأمم في قلب الأمة اليهودية، وتعين بيلاطس على اليهودية حتى يشترك اليهود والامم، ممثلين عن العالم كله، في تقديم ذبيحة الفداء والخلاص عن اليهود وأمم العالم كله، كما هو مكتوب: «ها نحن صاعدون إلى

[1] لماذا إذن قتلوا اسطفانوس رجماً .... ميشيل

أورشليم، وابن الإنسان يُسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة، فيحكمون عليه بالموت، ويسلمونه إلى الأمم لكي يهزأوا به، ويجلدوه، ويصلبوه، وفي اليوم الثالث يقوم» (مت٢٠:١٨-١٩)، الأمر الذي تممه اليهود والأمم بالفعل والحرف الواحد!

وفي موت المسيح على الصليب، استعلن على الملأ كيف تنازل المسيح عن حياته متكبداً في ذلك أفدح الآلام والمهانة والمذلة، ليكمل كل عقوبة ممكنة عن كل من يستحق العقوبة، فيبرر مجاناً كل من يؤمن بهذا الصليب وآلامه! أما من وجهة نظر توراة اليهودى فقد أكمل اللعنة التي ينبغي أن يتحملها الإنسان وحده كميراث آدميته، لما عُلق على الخشبة!!

عجيب هو هذا القديس يوحنا الإنجيلي، كيف استطاع في هذه اللحظة التي اشتبكت فيها السياسة اليهودية مع السلطة الرومانية لتقدح منها نار الغضب مع الكبرياء، والتعصب مع العنف، فيفك هذا الاشتباك المعقد المفزع بأن يرده إلى سر الخلاص والفداء، وحتمية الصلح بالصليب؛ كما رسمها المسيح نفسه المحسوب أنه هو الذي وضع الخطة التي قام بتنفيذها، دون أن يدري المتنازعون!!

وربما يعطينا القديس لوقا مفتاحاً سهلاً ندخل به إلى سر تحول قلب بيلاطس من قاض يستنكر الاتهامات التي كان يصبها رؤساء الكهنة على المتهم: «أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان»؟ إلى قلب يأمر بالصلب! يقول القديس لوقا: «وابتدأوا يشتكون عليه قائلين: إننا وجدنا هذا يفسد الأمة، ويمنع أن تُعطى جزية لقيصر قائلاً إنه هو مسيح ملك» (لو). فكان وقع هذا الاتهام شديد الوطأة بالنسبة لبيلاطس. ولو أنه تعجب أن هؤلاء الكهنة المتعصبين الثائرين يقولون هذا، وهم كانوا دائماً على نزاع وتمرد مع السلطة الرومانية بسبب امتناعهم عن الإلتزام بدفع الضرائب. كان رياؤهم ممزوجاً بخبث شنيع، مسنوداً بصياح وهياج شعبي منسق بدعوى الوطنية، وهو مدفوع دفعاً ليلعب دور التهديد. لقد أحس بيلاطس بنذير الشؤم يزحف نحو كرسيه!!

ولكن لم يفت على بيلاطس، كما لا يمكن أن يفوت عل القارىء، أن هذه التهمة عينها لو صحت، وهي إدعاء مناداته بعدم إعطاء الجزية لقيصر، وهي التهمة التي يتسترون وراءها، لكان يمكن أن ترفع من شأن هذا المتهم المطلوب قتله ليكون زعيم الأمة اليهودية والمنادي بخلاصها، لأنهم كانوا في تلهف على مثل هذا المخلص، لولا ما يحملونه نحوه من حقد وحسد وضغينة.

الجزء الثانى من سير القضية

داخل الولاية (١٨:٣٣-٣٧)

«الأعتراف الحسن»

١٨:٣٣ ثُمَّ دَخَلَ بِيلاَطُسُ أَيْضاً إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ وَدَعَا يَسُوعَ وَقَالَ لَهُ: «أَأَنْتَ مَلِكُ الْيَهُودِ؟».

هذا الفحص السري داخل دار الولاية الذي جرى بين بيلاطس والمسيح دون حضور رئيس الكهنة، ولا شهود من أي نوع، يختص به القديس يوحنا وحده في إنجيله، فقد اختص وحده بسرد وقائع محاكمة المسيح أمام حنان أيضاً بدون شهود. لذلك، فالمعروف أن القديس يوحنا كان حاضراً في كل من المحاكمتين.

هذا السؤال الأول الذي سأله بيلاطس للمسيح، نجده في الأناجيل الأربعة على السواء، لأن هذا اللقب «ملك اليهود» استرعى انتباه بيلاطس، لأنه خطير بحد ذاته، فهو يحمل وراءه حركة تعصب لـ «ملك اليهود» كما يحمل وراءه أطماعاً وخططاً، وهذا ما قصده اليهود قصداً أن يرسموه في فكر بيلاطس. لقد سمع بيلاطس هذا اللقب عن

المسيح أول ما سمع، وذلك عندما «... دخل أورشليم، ارتجت المدينة كلها قائلة: من هذا؟ فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل» (مت٢١:١٠-١١)، «قائلين مبارك الملك الآتي باسم الرب، سلام في السماء ومجد في الأعالى» (لو١٩:٣٨)، «أوصنا (خلصنا)، مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل» (يو١٢:١٣)

هذا الهتاف المدوي، الذي ملأ سماء أورشليم، ورج الهيكل، وأرعب قلوب رؤساء الكهنة، لم ينسه حنان ولا قيافا أبداً: «فلما رأى رؤساء الكهنة والكتبة العجائب التي صنع، والأولاد يصرخون في الهيكل ويقولون: أوصنا لابن داود، غضبوا وقالوا له: أتسمع ما يقول هؤلاء» (مت٢١:١٥-١٦)، «... يا معلم انتهر تلاميذك، فأجاب وقال لهم: أقول لكم إنه إن سكت هؤلاء، فالحجارة تصرخ» (لو١٩:٣٩-٤٠). أما الآن، فقد جاء وقت التشفي وتصفية الحساب ... ولم يدر هؤلاء الحاقدون والمتشفون أن هذا اليوم هو هو يوم التجلي وتنصيب الملك على خشبة، هو يوم الخلاص الآتي من الأعال فعلاً، يوم سلام في السماء ومجد على الأرض حقاً، يوم إعلان بدء مملكة أبينا داود الأبدية، مملكة المسيح أصل وذرية داود، كوكب الصبح المنير.

والآن يسمع بيلاطس هذا اللقب من رؤساء الكهنة وحشود الشعب المأجور والمدفوع على أنه هو علة للصلب: «وكان رؤساء الكهنة يشتكون عليه كثيراً (بخصوص لقب الملك). فسأله بيلاطس أيضاً قائلاً: أما تجيب بشيء. انظركم يشهدون عليك. فلم يجب يسوع أيضاً بشيء حتى تعجب بيلاطس» (مر١٥:٣-٥). هذه المواجهة أغفلها إنجيل يوحنا، ولكن القانون الروماني يحتم أن تكون كل شكوى في حضور المتهم، ولكن ذلك تم قبل أن يدخل بيلاطس إلى دار الولاية، وذلك بحسب رواية مرقس الرسول. فدخل بيلاطس دار الولاية واستدعى المسيح سراً وبدأ يسأله كما في الآية السابقة (١٨:٣٣)، لا كمتأثر بطبيعة المتهم الهادىء الصامت، ولكن كمتعجب من سلوك متهم مُقدم للموت، وكأنه لا يبالي بالموت. ولو كان هؤلاء المتعطشون إلى الدماء صادقين في إلصاق هذه التهمة السياسية عليه، فأين أتباعه ومعاونوه؟ أين الذين يسعون لتمليكه؟ كان هذا يدور في فكر بيلاطس ويتعجب!!

١٨:٣٤ أَجَابَهُ يَسُوعُ: «أَمِنْ ذَاتِكَ تَقُولُ هَذَا أَمْ آخَرُونَ قَالُوا لَكَ عَنِّي؟».

ليس هذا جواباً، بل سؤالاً من المسيح، تحذيراً خطيراً، وذلك لكي يفرق بيلاطس بين ما يشعر به هو من جهة الحق وبين ما يسمعه كذباً وتلفيقاً من اليهود. أما إن كان الآخرون هم الذين يقولون عني هذا، ففي توراتهم مكتوب إني لهذا وُلدت بقسم الله من فوق: «أقسم الرب لداود بالحق، لا يرجع عنه، من ثمرة بطنك أجعل على كرسيك» (مز١٣٢:١١)، لا كملك وحسب، بل وملك الملوك ورب الأرباب، لا كملك على أجساد، بل على أرواح وضمائر وقلوب!! كرسي ليس على الأرض، بل في السماء، ومجلسى عن يمين عرش الله!

المسيح لا يجاوب، بل يسأل مرة أخرى، ماذا يعني بيلاطس من سؤاله، هل لكي يعرف الحقيقة: «أمن ذاتك تقول هذا»؟ وكأن ضميرك يطلب الحق؟ أم آخرون يدسون عليك اللقب لتحاكمني بمقتضاه؟ هل هذا اللقب يعنيك أنت «ذاتك» (شخصياً)؟ وهنا «الملك» يأخذ معناه الروحي العالى الذي لا يتعارض مع وظيفتك وسياستك ورئيسك! أم أنه يعني الشاكين، الذين يُلبسون اللقب ثوب السياسة والخيانة والغدر؟

لقد نجح المسيح في استجوابه لبيلاطس أن يصحح عنده مفهوم لقب «ملك». فإن كان هو من ذاته يقول هذا، فهو لقب صحيح مائة بالمائة، لأنه يكون قد قاله عن وعي صادق؟ أما إن كان نقلاً عن آخرين فهو مرفوض من المسيح، كما هو مستنكر من بيلاطس سواء بسواء!! وإلا أين أعواني وما هي مظاهر مطالبتي بالملك؟

١٨:٣٥ أَجَابَهُ بِيلاَطُسُ: «أَلَعَلِّي أَنَا يَهُودِيٌّ؟ أُمَّتُكَ وَرُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ أَسْلَمُوكَ إِلَيَّ. مَاذَا فَعَلْتَ؟»

لقد فهم بيلاطس الدرس تماماً، وعن صحة، مما يفيد أن روحه بالفعل تتحرك فيه، لأنه يرد على الإحتمال الأول كأنه بالإيجاب: «ألعلي أنا يهودي؟»، لأن الذي يقول عنك أنك ملك بالحق يلزم أن يكون يهودياً، أو ينبغي أن يصير يهودياً، ولكني على غير استعداد. أنا روماني، ووظيفتي محقق، ماذا فعلت؟ إجابة بيلاطس فيها وعي حقيقي، وفيها أيضاً رجعة عن الحق والوعي!!

«أُمتك ورؤساء الكهنة أسلموك إلي»: «أُمتك» بالمعنى السياسي الجنسي: «أمة اليهود»، أسلمت ملك اليهود؟ يا للعجب عند بيلاطس! لأن أشد ما كان يتوق إليه اليهود هو أن يرزقهم الله بملك يحررهم من نير الرومان، هذا كان يعلمه بيلاطس تمام العلم. والآن هم يقدمون من يقولون إنه ملك اليهودى ليُقتل: «إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله» (يو١:١١). بيلاطس يتبرأ من أي مفهوم «للملك» قال عنه المسيح، لا المفهوم الإلهي ولا المفهوم السياسي، وألقى اللوم المضاعف على أمته وعلى رؤساء الكهنة!! «ضعوا أنتم هذا الكلام في آذانكم، إن ابن الإنسان سوف يُسلم إلى أيدي الناس» (لو٩:٤٤)، «إن إله إبراهيم واسحق ويعقوب، إله آبائنا، مجد فتاه يسوع، الذي أسلمتموه أنتم، وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس، وهو حاكم بإطلاقه.» (أع٣:١٣)

ويكاد رد بيلاطس أن يكون صارخاً، مؤكداً للمسيح أنه إذا كان هو الآن بين يدي الحاكم الروماني، فأُمتك اليهودية ورؤساء الكهنة هم الذين جحدوا ملوكيتك، كانت ما كانت، وكل مؤهلاتك.

ماذا فعلت. أو ما هو السبب في كل هذا؟ هذا ما كان يحير بيلاطس بالفعل.

٣٦:١٨ أَجَابَ يَسُوعُ: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هَذَا الْعَالَمِ لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لاَ أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ. وَلَكِنِ الآنَ لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا»

«كنت أرى في رؤى الليل، وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان، أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه. فأُعطي سلطانا ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض.» (دا٧:١٣-١٤)

لا يزال المسيح يفتح وعي العالم على حقيقته: «أنتم من أسفل» أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم، أما أنا فلست من هذا العالم» (يو٨:٢٣). وهذا هو سر التعارض الهائل الذي أنتج هذا الهياج، وهذه المحاكمة، وهذه المرارة. أما «ماذا فعلت»، فالرد الذي لا يُقال ولا يُسمع: ما فعلت هو أني نزلت إلى الأرض، جئت إلى خاصتي، النور أضاء في الظلمة، والظلمة لم تدركه. أنا ملك السلام، ومملكتي هي الحق، وخدامي هم أبناء النور.

حينما طلبتم القبض علي سلمت نفسي لكم في سلام وخضوع، لأن ملكوتي لا يضيره القيود ولا يشينه القبض ولا المحاكمة، ولا الموت يجوز عليه، فهو فوق هذا وذاك.

لست كأمتي، أنا لا أعتبركم أعداء لى، فأنا صديق العالم كله. وحتى لو كنتم أعداء أمتي، فأنا أحبكم، لأني أنادي: «أحبوا أعداءكم» (مت٥:٤٤)، فكيف تظن في العنف؟ مملكتي ليست هنا ولا من هنا، فأنا أستمد سلطاني من فوق، وخدامي هم أيضاً ليسوا من هذا العالم، كما إني أنا لست من هذا العالم. فلو كانت مملكتي من هذا العالم وخدامي من هذا العالم، لكانوا الآن يحاربون عني حتى لا أُسلم إلى اليهود.

«لكي لا أُسلم إلى اليهود»: اليهود هنا، ومن فم المسيح، ليسوا يهود التوراة، ولا إسرائيل الله، ولا الشعب المحبوب المختار، بل يهود العالم والسياسة الذين جعلوا «بيت أبي بيت تجارة» (يو٢:١٦)، والذين يصفون عن

البعوضة تأففاً من النجاسة، ويبلعون الجمل بما حمل بلا ملامة، الذين ينهبون بيوت الأرامل، ولعلة يطيلون الصلوات، الذين جلسوا على كرسي موسى يعلمون الحق، وعملوا أعمال أبيهم، الذي كان قتالاً للناس منذ البدء!

واضح هنا لماذا اشترط المسيح لكي يُسلم نفسه لهم طواعية أن يتركوا التلاميذ يذهبون أحراراً!! لأن المسيح أراد أن يسلم نفسه في سلام، ورفض أن يكون له في الضيق أعوان! كذلك، فإن رد المسيح هنا على بيلاطس يشرح معنى ما قاله القديس متى في إنجيله: «إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود؟» (مت٢: ١-٢). كما يشرح أيضاً معنى «ملكوت السموات» فهي «مملكتي التي ليست من هذا العالم».

خدامي هم خدامكم، وخدام العالم كله، لأنهم كما قلت ليسوا من العالم أصلاً. أسلحتي هي الحق والبر والحب والفرح والسلام؛ جئت لأغزو بها قلب العالم كله. أما وسائلي في الاستيلاء على القلوب عنوة، فهي الوداعة والاتضاع والحب الباذل حتى الموت.

حكومتي تقوم على أساس أن السيد هو الذي يخدم، ويغسل أرجل الذين يخدمهم؛ والأول هو الذي يجلس آخر الكل، والعظيم منهم هو أصغرهم. حربي معلنة عل الخطية، ولا مهادنة، والذي يريد أن يسخرنا ويأخذ ثوبنا، فإننا نخع له الرداء أيضا؛ والذي يسخرنا ميلاً نسير معه اثنين.

هذه هى مملكتي، وهذه هى سماتها وشروطها.

«والآن مملكتي ليست من هذا العالم».

٣٧:١٨ فَقَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «أَفَأَنْتَ إِذاً مَلِكٌ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنْتَ تَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ. لِهَذَا قَدْ وُلِدْتُ أَنَا وَلِهَذَا قَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ لأَشْهَدَ لِلْحَقِّ. كُلُّ مَنْ هُوَ مِنَ الْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي».

جملة نصفها استفهامي، ونصفها تعجبي، بروح تهكمية نوعا. إجابة المسيح: «أنت تقول»، معناها أن ما قاله بيلاطس يقع في موضع لا يقبل النفي ولا الإيجاب! فلا هو يقبل هذا اللقب من فم بيلاطس، ولا هو يرفضه؛ لأن بيلاطس يضع اللقب في موضع الفهم اليهودي كما سمعه منهم دون أن يلتفت إلى المعنى والشرح الذي قاله المسيح. ثم ابتدأ المسيح يوضح له المعنى الحقيقي لما قاله بيلاطس نفسه:

«لهذا قد وُلدت أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم»: [هنا يورد القديس يوحنا النص الوحيد الذي يفيد ميلاد المسيح].

«لهذا وُلدت أنا»، تجعل لملوكيته سبق تعيين. فهو لم يولد كأي إنسان لكي يعيش أولاً، ثم الظروف هي التي تحدد إمكانية أن يكون ملكاً، بل إنه وُلد ليكون ملكاً؛ أو أنه تعين ملكاً قبل أن يولد، فلما وُلد استعلن ملكاً بالضرورة، أي أن ملكونه غير مستحدث ولا هو زمني، فهو معين قبل الزمن، وقائم في الزمن بلا تعيين أي بلا حدود، فهو ملكوت من فوق يستمد وجوده، وهو أزلي! هذا هو الاعتراف الحسن أمام محكمة تمثل أقوى دولة في العالم آنئذ.

«ولهذا قد أتيت إلى العالم»: توضيح ما بعده توضيح، أنه ليس من هذا العالم، وأن كيانه الدائم فوق العالم، ولكن «لهذا»، أي «لقيام مملكته أو ملكوته في العالم بين الناس»، هو أتى إلى العالم من خارج العالم: «تجسد».

فالمسيح هنا، لا يجيب بكونه ملكاً فقط، بل هو يجيب ليؤكد لبيلاطس أن مملكته قائمة على أسس ثابتة وأزلية، وأنها لا تستمد قوتها أو وجوها من سلطة أرضية، ولا من أي قوة أرضية. علماً بأن كلمة :أتيت» تفيد الإتيان المستمر غير المنتهي، وليس كما جاءت في الترجمة العربية كفعل ماض منته، فهو آت، ويأتي، وسيأتي، ويبقى

«آت إلى العالم»: هذا هو الاعتراف الحسن، والجملة كلها تفيد لاهوته.

«لأشهد للحق»: هنا، الحق هو بمفهومه المطلق، أي الحقيقة الكلية، التي هي المجال الذي يحيا ويعمل فيه المسيح.

والإنسان الذي ينفتح قلبه وتنفتح بصيرته لهذا الحق، يدرك في الحال معنى ما يقوله المسيح بمجرد أن يسمعه. والمسيح يشهد للحق، لا كأنه يشهد لشيء خارج عنه، بل هو يشهد للحق باستعلان ذاته، وعلاقته بالله أبيه، لأنه هو الحق! هذا هو الاعتراف الحسن.

«كل من هو من الحق»: أي «كل من يستمد من الحق فكره وقوله وعمله وسلوكه، كل من جعل الحق مصدراً يستمد منه حياته، كل من أحب الحق وعشقه وسار على هداه ووحيه...». هذا، حتماً، يسمع صوت المسيح ويفهمه؛ وصوت المسيح يصير له حياة أبدية: «الحق الحق أقول لكم: إن من يسمع كلامي، ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية» (يو٥:٢٤). المسيح، هنا، يخاطب ضمير بيلاطس وكل ضمير لكل إنسان.

«الاعتراف الحسن» الذي شهد به المسيح أمام بيلاطس، شمل عناصر الإيمان جميعاً:

أ- أنه وُلد ليعلن ملكوت الله بالحق الذي يقوله، ويملكه، ويملك عليه.

ب-أنه نزل من السماء، وأتى إلينا على الأرض، ليؤسس ملكوت الحق.

ت-كل من يسعى ويجد في أثر الحق، يُستعلن له المسيح والحق والحياة.

١٨:٣٨(أ) قَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «مَا هُوَ الْحَقُّ؟».

لم يرفض بيلاطس كلام المسيح، ولكنه لم يفهمه، ولم يجد في داخله مدخلاً إليه؛ ويلاحظ أن كلمة «الحق» الذي يستفسر عنه بيلاطس لا يأتي قبلها (في الكلمة اليونانية الأصلية) أداة التعريف «أل». أما «الحق» الذي يتكلم عنه المسيح فهو «الحق» معرفا بـ «أل» ليعطي ويغطي مفهوم الحق الكلي، وهذا يوضح أنه لم يعثر على مفتاح الحق الحقيقي. سؤال بيلاطس يخلو من الجدية، سؤال من لا يعرف، ومن لا يريد أن يعرف، سؤال نصفه حزين، يمثل العجز والقصور، والنصف الآخر استنكارتي، يمثل الجهل والتمادي فيه، لأن بيلاطس أراد أن يبحث عن الحق في الحياة الأرضية، وفي حياة الإنسان الأرضي. والحق لا يوجد في الزائلات، فكل ما هو متغير ليس حقاً، ولا يؤول إلى حق، وكل ما هو زائل يحكم على نفسه بالخداع والتفاهة. الحق يبقى إلى الأبد، ولا يؤول إلا إلى حق أكثر.

«الحق عند المسيح» هو«كلامك هو حق» مخاطباً الآب (يو١٧:١٧). كل ما يصدر من الله هو الحق. ولأن عمل المسيح الأول، هو استعلان الله، وكلمة الله وعمل الله وإرادة الله، لذلك فالمسيح وكل ما يقوله المسيح هو «الحق». لذلك قال: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤:٦)؛ ولأنه يوصل إلى الله، فهو الطريق الواحد الوحيد الحقيقي، ولأنه يوصل إلى الله، فهو الحياة الأبدية، وكل من يسمع لصوته، يحيا إلى الأبد.

«معرفة الحق» هي، بآن واحد، الدخول فيه، والحياة به وامتلاكه. لذلك كل من يعرف الحق، يتحرر من كل باطل وفاسد، فالحق يحرر. ولأن المسيح ابن الله، فقد وهبنا أن نتحد به لنبلغ إلى بنوة الآب، لذلك «فالابن يحرر»: «فإن حرركم الابن، فبالحقيقة تكونون أحرارا.» (يو٨:٣٦)

والحق حينما يحرر يقدس، أي يحفظ الإنسان من الشر والعالم، يحفظه في الله لله: «قدسهم في حقك» (يو١٧:١٧). فالحق والله، والحق والمسيح، والحق والحرية، والحق والقداسة، والحق والحياة الأبدية، هي متساويات مطلقة. والحق لا ينقسم، ولا يتجزأ، فهو كل مطلق. لذلك، فهو مصدر الوحدة الحقيقية. لذلك أيضاً،

فالذين أحبوا الحق وعاشوه، هم واحد، لأنهم صاروا متحدين في الواحد وبالواحد، فالحق يوحد، وهو رجاء الإنسان المتفتت.

الحق واحد أحد مطلق. لذلك، كل ما هو قابل للازدواج، وكل ما ينقلب إلى ما هو ضده، هو خداع وزائل.

فالنور الذي ينقلب إلى ظلمة، هو خداع، النور والظلمة كلاهما، أما النور الحقيقي، فهولا ينطفىء قط، وليس فيه ظلمة البتة.

والفرح الذي ينقلب إلى حزن، هو خداع، الفرح والحزن كلاهما، أما الفرح الحقيقي فهو لا يُنزع قط، ولا يقدر العالم أن يلغيه.

والسلام الذي يتحول إلى قلق واضطراب، هو خداع، السلام والقلق كلاهما، لأن السلام الحقيقي يبدد كل قلق واضطراب في العالم.

والحياة التي تنتهي بالموت هي خداع، الحياة والموت كلاهما، أما الحياة الحقيقية فليس فيها موت، وهي حياة أبدية.

كل من يعرف الحق ينفتح وعيه المسيحى ويدرك الغش والخداع، والإنقلاب والتقلب هما الأساس الذي يقوم عليه العالم بكل مظاهره وأمجاده، لأن «العالم كله قد وُضع في الشرير» (١يو٥:١٩)، ولأن رئيس هذا العالم «ليس فيه حق» (يو٨:٤٤). ولا يمكن أن يتآلف الحق مع الخدام، فكأس الله ليس فيها موضع لكأس الشيطان (١كو١٠:٢١).

لذلك، فأولاد النور يبغضون أعمال الظمة، وأولاد الحق يقاومون إبليس فيهرت منهم!

وتماماً تماماً، كما لا يمكن أن يتعامل النور مع الظلمة، فالنور أيضاً يبدد الظلمة أينما وكيفما كانت، والظلمة لا تدرك النور قط. لذلك، إن قلنا أننا في الحق أو أن لنا شركة مع اللهه، ثم سلكنا في الظلمة، نكذب وليس الحق فينا (راجح ايو١:٦).

والقديس يوحنا أقوى من أدرك قطبي الحق والخداع: «نعلم أننا نحن من الله، والعالم كله قد وُضع في الشرير» (ايو٥:١٩). أما الحق فقد أسسه المسيح: «ونعلم أن ابن الله قد جاء، وأعطانا بصيرة (الوعي المسيحي) لنعرف الحق. ونحن في الحق، في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (ايو٥:٢٠)

وبسؤال بيلاطس للمسيح: «ما هو الحق؟»، يتضح أنه نسي، إلى حين، أن من يسأله عن الحق هو متهم مقدم للاعدام. ولكن المسيح أنشأ بوجوده أمام بيلاطس مجالاً ذا تأثير على فكره، جعله يسرح ببصره فيما هو أعلى من قامته: ما هو؟ ما هو الحق؟

وإلى هنا فقد بيلاطس صبره تجاه تجني اليهود على المسيح، وإزاء هذه الإتهامات الهابطة التي لا تتناسب قط مع هذا الإنسان الشامخ والمتعاظم في تفكيره، الذي جاء ليشهد للحق! لقد عيل صبره، وتحركت فيه أحاسيس العدالة، فانفجرت فيه غضبة الحاكم الروماني، وصمم أن ينتزع من هؤلاء الملفقين حق إطلاقه:

الجزء الثالث من سير القضية

خارج دار الولاية (١٨:٣٨(ب)-٤٠)

الإعلان الأول عن براءة المسيح

١٨:٣٨ (ب) وَلَمَّا قَالَ هَذَا خَرَجَ أَيْضاً إِلَى الْيَهُودِ وَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً.

كان حديث المسيح مع بيلاطس، هو الذي أقنع بيلاطس أن يخرج إلى اليهود ويعلن لهم عن براءة المسيح من كل التهم التي وُجهت إليه. فكانت هذه صفعة غير متوقعة لرؤساء الكهنة، الذين كانوا قد أحكموا كل الخطط كى ينتهوا من المسيح بأسرع ما يمكن.

وكان رد فعل رؤساء الكهنة واليهود سريعاً ومنسقاً:

+ «فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب، وقال لهم : قد قدمتم إلي هذا الإنسان كمن يفسد الشعب، وها أنا قد فحصت قدامكم، ولم أجد في هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه، ولا هيرودس أيضاً، لأني أرسلتكم إليه، وها لا شيء يستحق الموت صُنع منه! فأنا أؤدبه وأطلقه. وكان مضطراً أن يطلق لهم كل عيد واحداً».

«فصرخوا بجملتهم قائلين: خذ هذا، وأطلق لنا باراباس»!...

«فناداهم أيضاً بيلاطس، وهو يريد أن يطلق يسوع. فصرخوا قائلين: اصلبه اصلبه» .

«فقال لهم ثالثة: فأي شر عمل هذا؟ إني لم أجد فيه علة للموت! فأنا أؤدبه وأطلقه».

«فكانوا يلجون بأصوات عظيمة طالبين أن يُصلب».

«فقويت أصواتهم، وأصوات رؤساء الكهنة.» (لو٢٣:١٣-٢٣)

لم يكن الشعب، من نفسه، يطلب باراباس ولا أن يُصلب المسيح، ولكن كان هذا قد لقنه لهم رؤساء الكهنة: «فهيج رؤساء الكهنة الجمع لكى يطلق لهم بالحري باراباس» (مر١٥:١١)

المفارقة هنا شاسعة بين هدوء واتزان ورجاحة فكر بيلاطس، في مقابل هياج وخبث وعنف وفقدان أعصاب رؤساء الكهنة، ممثلى الله والشعب المختار.

وقفة قصيرة

مراجعة قانونية في أسلوب الاتهام: كيف يطلب رؤساء الكهنة أن يطلق لهم باراباس، وهو متهم مسجون بالفعل ومدان كفاعل شر، بنفس التهم وأكثر مما يلصقونها بالمسيح؟

«وذاك كان قد طُرح في السجن، لأجل فتنة حدثت في المدينة وقتل» (لو٢٣:١٩). (فتنة أدت إلى إزهاق أرواح، وتعني نوعاً من المظاهرات أو الثورات المحدودة، سياسية أو اجتماعية، من نوع تلك التي يقوم بها أرباب المهن أو الصناعات أو أحزاب الأمة من أجل مبادىء عامة). كما يتضح من رواية القديس مرقس الرسول أن باراباس سجين سياسي: «وكان المسمى باراباس موثقاً مع رفقائه في الفتنة، الذين في الفتنة فعلوا قتلاً» (مر١٥:٧)

وكان الهياج والصخب المصطنع المغالى فيه جداً، من جهة شكله وأسبابه إزاء صمت المسيح وهدوئه وسكوته، سبباً لإقناع بيلاطس أكثر ببراءة المسيح . لقد أدرك بيلاطس، في هدوء وذكاء، الحقيقة التي أعلنها القديس متى: «لأنه علم أنهم أسلموه حسدا.» (مت٢٧:١٨)

١٨:٣٩-٤٠ وَلَكُمْ عَادَةٌ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ وَاحِداً فِي الْفِصْحِ. أَفَتُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ مَلِكَ الْيَهُودِ؟». فَصَرَخُوا أَيْضاً جَمِيعُهُمْ: «لَيْسَ هَذَا بَلْ بَارَابَاسَ». وَكَانَ بَارَابَاسُ لِصّاً.

[اليهود يعطون الكرامة للص قاتل، ويلحون إلحاحاً في قتل البار!!].

«أفتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود»: هذا تعبير خطير يمس الاتهام الذي ترجى اليهود أن يُصلب المسيح بسببه! بيلاطس هنا يسخر، لا من ملك اليهود ولا من اليهود، بل من رؤساء الكهنة الذين ألبسوه هذه التهمة!!

وكون بيلاطس يقول، بعد فحصه على أساس بنود الاتهام كلها، أنه يطلق هذا الملك، فهذا معناه مباشرة أن المسيح ليس ملكأ بحسب إتهام رؤساء الكهنة بأنه ملك يمنع جباية الضرائب لحساب قيصر (أي ينادي بالتحرر من نير الرومان). فلو كانت مثل هذه التهمة محتملة مجرد احتمال، لكان قد احتجزه لتكميل الفحص، ولكنه الأن برأه تماماً من كل تهمة، وأهمها أنه «ملك سياسي» يطالب بملك.

ولكن واضح أن بيلاطس وهو يسعى لإطلاق المسيح، لم يتخذ الطريق القانوني، ولا استخدم سلطاته كقاض يقطع بالأمر بدون مشورة الشعب. لقد انزلق بيلاطس وراء فكرة الاستعانة بالشعب ضد رؤساء الكهنة، يستفتيه في أمر إطلاق المسيح في العيد حسب عادة اليهود في إطلاق أحد السجناء، وكان كأنه يستجدي الشعب، وهذا ضعف ورخاوة قضائية معيبة. ولكن الشعب، وبسرعة، تلقن من فم رؤساء الكهنة ماذا يقول، وبعكس ما يطلب بيلاطس، أي أن يطلق لهم باراباس، ويصلب المسيح. لقد أسقط بيلاطس بين يدي نفسه، وفوت عليه رؤساء الكهنة هذه المحاولة التي خرج منها خاسراً مُضعضعاً.

تم فى ٢٠١٧/٨/٢٧

فَحِينَئِذٍ أَخَذَ بِيلاطُسُ يَسُوعَ وَجَلَدَهُ. وَضَفَرَ الْعَسْكَرُ إِكْلِيلاً مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَى رَأْسِهِ وَأَلْبَسُوهُ ثَوْبَ أُرْجُوانٍ.وَكَانُوا يَقُولُونَ: «السَّلاَمُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ». وَكَانُوا يَلْطِمُونَهُ. فَخَرَجَ بِيلاَطُسُ أَيْضاً خَارِجاً وَقَالَ لَهُمْ: «هَا أَنَا أُخْرِجُهُ إِلَيْكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً». فَخَرَجَ يَسُوعُ خَارِجاً وَهُوَ حَامِلٌ إِكْلِيلَ الشَّوْكِ وَثَوْبَ الأُرْجُوانِ. فَقَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «هُوَذَا الإِنْسَانُ». فَلَمَّا رَآهُ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْخُدَّامُ صَرَخُوا: «اصْلِبْهُ! اصْلِبْهُ!» قَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «خُذُوهُ أَنْتُمْ وَاصْلِبُوهُ لأَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً». أَجَابَهُ الْيَهُودُ: «لَنَا نَامُوسٌ وَحَسَبَ نَامُوسِنَا يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ لأَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ ابْنَ اللَّهِ». فَلَمَّا سَمِعَ بِيلاَطُسُ هَذَا الْقَوْلَ ازْدَادَ خَوْفاً. فَدَخَلَ أَيْضاً إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ وَقَالَ لِيَسُوعَ: «مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟» وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمْ يُعْطِهِ جَوَاباً. فَقَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «أَمَا تُكَلِّمُنِي؟ أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ لِي سُلْطَاناً أَنْ أَصْلِبَكَ وَسُلْطَاناً أَنْ أُطْلِقَكَ؟». أَجَابَ يَسُوعُ: « لَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَيَّ سُلْطَانٌ الْبَتَّةَ لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقُ. لِذَلِكَ الَّذِي أَسْلَمَنِي إِلَيْكَ لَهُ خَطِيَّةٌ أَعْظَمُ». مِنْ هَذَا الْوَقْتِ كَانَ بِيلاَطُسُ يَطْلُبُ أَنْ يُطْلِقَهُ وَلَكِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَصْرُخُونَ: «إِنْ أَطْلَقْتَ هَذَا فَلَسْتَ مُحِبّاً لِقَيْصَرَ. كُلُّ مَنْ يَجْعَلُ نَفْسَهُ مَلِكاً يُقَاوِمُ قَيْصَرَ». فَلَمَّا سَمِعَ بِيلاَطُسُ هَذَا الْقَوْلَ أَخْرَجَ يَسُوعَ وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلاَيَةِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ «الْبلاَطُ» وَبِالْعِبْرَانِيَّةِ «جَبَّاثَا». وَكَانَ اسْتِعْدَادُ الْفِصْحِ وَنَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ. فَقَالَ لِلْيَهُودِ: «هُوَذَا مَلِكُكُمْ». فَصَرَخُوا: «خُذْهُ! خُذْهُ اصْلِبْهُ!» قَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «أَأَصْلِبُ مَلِكَكُمْ؟» أَجَابَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ: «لَيْسَ لَنَا مَلِكٌ إِلاَّ قَيْصَرُ». فَحِينَئِذٍ أَسْلَمَهُ إِلَيْهِمْ لِيُصْلَبَفَأَخَذُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ. فَخَرَجَ وَهُوَ حَامِلٌ صَلِيبَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ «مَوْضِعُ الْجُمْجُمَةِ» وَيُقَالُ لَهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ «جُلْجُثَةُ». حَيْثُ صَلَبُوهُ وَصَلَبُوا اثْنَيْنِ آخَرَيْنِ مَعَهُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا وَيَسُوعُ فِي الْوَسْطِ. وَكَتَبَ بِيلاَطُسُ عُنْوَاناً وَوَضَعَهُ عَلَى الصَّلِيبِ. وَكَانَ مَكْتُوباً: «يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ مَلِكُ الْيَهُودِ». فَقَرَأَ هَذَا الْعُنْوَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ لأَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ يَسُوعُ كَانَ قَرِيباً مِنَ الْمَدِينَةِ. وَكَانَ مَكْتُوباً بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَاللاَّتِينِيَّةِ. فَقَالَ رُؤَسَاءُ كَهَنَةِ الْيَهُودِ لِبِيلاَطُسَ: «لاَ تَكْتُبْ: مَلِكُ الْيَهُودِ بَلْ: إِنَّ ذَاكَ قَالَ أَنَا مَلِكُ الْيَهُودِ». أَجَابَ بِيلاَطُسُ: «مَا كَتَبْتُ قَدْ كَتَبْتُ». ثُمَّ إِنَّ الْعَسْكَرَ لَمَّا كَانُوا قَدْ صَلَبُوا يَسُوعَ أَخَذُوا ثِيَابَهُ وَجَعَلُوهَا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ لِكُلِّ عَسْكَرِيٍّ قِسْماً. وَأَخَذُوا الْقَمِيصَ أَيْضاً. وَكَانَ الْقَمِيصُ بِغَيْرِ خِيَاطَةٍ مَنْسُوجاً كُلُّهُ مِنْ فَوْقُ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لاَ نَشُقُّهُ بَلْ نَقْتَرِعُ عَلَيْهِ لِمَنْ يَكُونُ». لِيَتِمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: «اقْتَسَمُوا ثِيَابِي بَيْنَهُمْ وَعَلَى لِبَاسِي أَلْقَوْا قُرْعَةً». هَذَا فَعَلَهُ الْعَسْكَرُ. وَكَانَتْ وَاقِفَاتٍ عِنْدَ صَلِيبِ يَسُوعَ أُمُّهُ وَأُخْتُ أُمِّهِ مَرْيَمُ زَوْجَةُ كِلُوبَا وَمَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أُمَّهُ وَالتِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ وَاقِفاً قَالَ لأُمِّهِ: «يَا امْرَأَةُ هُوَذَا ابْنُكِ». ثُمَّ قَالَ لِلتِّلْمِيذِ: «هُوَذَا أُمُّكَ». وَمِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ أَخَذَهَا التِّلْمِيذُ إِلَى خَاصَّتِهِ. بَعْدَ هَذَا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ فَلِكَيْ يَتِمَّ الْكِتَابُ قَالَ: «أَنَا عَطْشَانُ». وَكَانَ إِنَاءٌ مَوْضُوعاً مَمْلُوّاً خَلاًّ فَمَلأُوا إِسْفِنْجَةً مِنَ الْخَلِّ وَوَضَعُوهَا عَلَى زُوفَا وَقَدَّمُوهَا إِلَى فَمِهِ. فَلَمَّا أَخَذَ يَسُوعُ الْخَلَّ قَالَ: «قَدْ أُكْمِلَ». وَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ. ثُمَّ إِذْ كَانَ اسْتِعْدَادٌ فَلِكَيْ لاَ تَبْقَى الأَجْسَادُ عَلَى الصَّلِيبِ فِي السَّبْتِ لأَنَّ يَوْمَ ذَلِكَ السَّبْتِ كَانَ عَظِيماً سَأَلَ الْيَهُودُ بِيلاَطُسَ أَنْ تُكْسَرَ سِيقَانُهُمْ وَيُرْفَعُوا. فَأَتَى الْعَسْكَرُ وَكَسَرُوا سَاقَيِ الأَوَّلِ وَالآخَرِ الْمَصْلُوبَيْنِ مَعَهُ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمَّا جَاءُوا إِلَيْهِ لَمْ يَكْسِرُوا سَاقَيْهِ لأَنَّهُمْ رَأَوْهُ قَدْ مَاتَ. لَكِنَّ وَاحِداً مِنَ الْعَسْكَرِ طَعَنَ جَنْبَهُ بِحَرْبَةٍ وَلِلْوَقْتِ خَرَجَ دَمٌ وَمَاءٌ. وَالَّذِي عَايَنَ شَهِدَ وَشَهَادَتُهُ حَقٌّ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ لِتُؤْمِنُوا أَنْتُمْ. لأَنَّ هَذَا كَانَ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: «عَظْمٌ لاَ يُكْسَرُ مِنْهُ». وَأَيْضاً يَقُولُ كِتَابٌ آخَرُ: «سَيَنْظُرُونَ إِلَى الَّذِي طَعَنُوهُ». ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ الَّذِي مِنَ الرَّامَةِ وَهُوَ تِلْمِيذُ يَسُوعَ وَلَكِنْ خُفْيَةً لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ سَأَلَ بِيلاَطُسَ أَنْ يَأْخُذَ جَسَدَ يَسُوعَ فَأَذِنَ بِيلاَطُسُ. فَجَاءَ وَأَخَذَ جَسَدَ يَسُوعَ. وَجَاءَ أَيْضاً نِيقُودِيمُوسُ الَّذِي أَتَى أَوَّلاً إِلَى يَسُوعَ لَيْلاً وَهُوَ حَامِلٌ مَزِيجَ مُرٍّ وَعُودٍ

نَحْوَ مِئَةِ مَناً. فَأَخَذَا جَسَدَ يَسُوعَ وَلَفَّاهُ بِأَكْفَانٍ مَعَ الأَطْيَابِ كَمَا لِلْيَهُودِ عَادَةٌ أَنْ يُكَفِّنُوا. وَكَانَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ بُسْتَانٌ وَفِي الْبُسْتَانِ قَبْرٌ جَدِيدٌ لَمْ يُوضَعْ فِيهِ أَحَدٌ قَطُّ. فَهُنَاكَ وَضَعَا يَسُوعَ لِسَبَبِ اسْتِعْدَادِ الْيَهُودِ لأَنَّ الْقَبْرَ كَانَ قَرِيباً

الجزء الرابع من سير القضية

داخل دار الولاية (١٩:١-٣)

الجلد بدون حكم مسبق والاستهزاء بالمسيح كملك

١٩:١ فَحِينَئِذٍ أَخَذَ بِيلاَطُسُ يَسُوعَ وَجَلَدَهُ.

«بذلت ظهري للضاربين، وخدي للطم، ووجهي لم أستر عن خزي البصاق.» (إش٥٠:٦ حسب الترجمة السبعينية)

«وبجلداته شُفينا......» (إش٥٣:٥ حسب الترجمة السبعينية)

لا يزال بيلاطس يأمل في إطلاق المسيح. ورأى أنه يمكن إرضاء الشعب الهائج بإجراء عقوبة شكلية، دون حكم رسمي، تستدر عطف الشعب، فأقدم على هذا العمل وهو مقتنع ببراءة المسيح، وقد أعلن ذلك وعمل على إطلاقه، لهذا قام بعملية الجلد: «إني لم أجد فيه علة للموت، فأنا أؤدبه وأطلقه.» (لو٢٣:٢٢)

وهنا تجدر الإشارة للتنبيه، أن هذا التجاوز المجحف الذي تورط فيه بيلاطس بعملية الجلد والاستهزاء، كان، دون أن يدري، أساساً لاهوتياً للخلاص، لأن المسيح أكمل به ما هو مستحق توقيعه بالفعل من العقوبة على الإنسان، فحمله هو على ظهره ورأسه ليعطينا حق البراءة. فالآلام، والجلد على الظهر، والاستهزاء الذي احتمله المسيح، إضافيا فوق الموت، استكمل به المسيح الخلاص اللازم لنا. لذلك تحتل هذه الآلام من يد الحاكم الروماني، وهي غير اللازمة وغير القانونية أيضاً، إذ لم تثبت عليه تهمة واحدة من التي سُجلت في عريضة الدعوى.

وقد تفنن بيلاطس في الاستهزاء بالمسيح، بقصد أن يجرده من كرامة الملوكية التي كرهها اليهود، وذلك فقط استرضاء لهم. وواضح أن جيع أنواع التهكمات التي أُجريت عليه، أُجريت للتهزئة بملوكيته فقط:

«فعروه وألبسوه رداء قرمزيا»، وهو اللون الخاص بملابس الملوك.

«وضفروا إكليلاً من شوك، ووضعوه على رأسه»، وواضح أنه كان بمسابة إكليل الغار الذي وضع على رأس الملوك الراجعين من الانتصار!!

«وقصبة في يمينه»، هى قضيب الملك.

«وكانوا يجثون قدامه، كما يسجد الناس للملوك عادة.

«ويستهزئون به قائلين: السلام يا ملك اليهود».

«ويصقوا عليه» أقصى ما يمكن أن يُهان به ملك.

«وأخذوا القصبة، وضربوه على رأسه»، أي على إكليل الشوك، استهزاء بملوكيته (مت٢٧:٢٨-٣٠)

ولم يدر الحاكم أنه إنما يكمل كأس آلام الخلاص، ليستطيع بها المسيح أن يسترد للانسان كرامته وملوكيته أمام الله أبيه. وبإكليل الشوك الذي ألبسه أخيراً فوق رأس المسيح، أعاد للانسان بالنهاية إكليل المجد الذي كان قد نزُع منه: »الذي أحبنا، وقد غسلنا من خطايانا بدمه، وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه، له المجد والسلطان إلى أبد الأبدين آمين.» (رؤ١:٥-٦)

تصحيح المفهوم:

+ يقول القديس كيرلس الكبير: (إنه جُلد ظلما) في شرحه لإنجيل يوحنا صفحة ٦٠٦.

+ يتهيأ لكثيرين، أنه بعد الحكم بصلب المسيح، أعاد الجند الجلد والاستهزاء مرة أخرى. وهذا خطأ يلزم التنبيه إليه. وقد نتج هذا من اللبس الحادث في سرد الرواية. فمثلاً، في إنجيل مرقس يقول بغاية الوضوح هكذا: «وأُسلم يسوع، بعد ما جلده، ليصلب» (مر١٥:١٥)، بمعنى أنه بعد أن جلده بيلاطس أمام الجموع، وهو في حالة الاستهزاء، ولابس إكليل الشوك والثوب الارجواني، بقصد من بيلاطس أن يكتفي بذلك، وبعدها يأمر بإطلاقه، هاج الشعب وزاد الصخب، وطلبوا صلبه، فيئس من كل محاولات الإفراج عنه وسلمه لهم ليُصلب. ولكن القديس مرقس جمع كل ما تم من عمليات الجبلد والاستهزاء، ولم يفصلها، أثناء سرده، عن الصلب، بل أضافها لها، لأنه لم يشير سابقاً إلى المحاولة التي قام بها بيلاطس لإطلاقه، والتي استلزمت الجلد والاستهزاء!

كذلك في إنجيل القديس متى نجد أنه جمع عملية الجلد والاستهزاء مع الصلب. لأنه أيضاً لم يتعرض لمحاولة بيلاطس لإطلاق المسيح بالمرة.

+ أما إنجيل القديس لوقا، فكان واضحاً للغاية في سرد هذه الأحداث، إذ فصل بين محاولة إطلاق المسيح وبين الحكم بالصلب. وبعد النطق بالحكم بالصلب، لم يذكر اي شيء عن جلد أو استهزاء.

+ ولكن في إنجيل القديس يوحنا اتضحت الحقائق، إذ سُردت رواية محاولة بيلاطس إطلاق المسيح ومعها الجلد والاستهزاء. ولما لم تأت هذه المحاولة بالنتيجة التي كان يطلبها بيلاطس، اضطر اضطراراً وتحت التهديد، أن يسلم لهم يسوع ليصلب مباشرة، دون أي جلد أو استهزاء.

+ ولكن حتى وإن كانت الكتيبة قد اجتمعت فعلاً على المسيح بعد النطق بالحكم، كما يُفهم خطأ من سرد إنجيلي القديسين متى ومرقس، وأكتملت تمثيليتها بل تمثيلها بالملك، فهذه العملية تتناسب فعلاً مع الوحشية الرومانية لدى الجنود.

+ وحينما يقول كل من القديس متى والقديس مرقس: «وبعدما استهزأوا به، نزعوا عنه الرداء، الثوب الارجواني، وألبسوه ثيابه، ومضوا به للصلب» (مت٢٧:٣١؛ مر١٥:٢١)، فإنه يُفهم من هذا أنه بعد ما تمت عملية الاستهزاء العلني أمام اليهود خارج دار الولاية، ولم تأت بالنتيجة التي كان يترجاها بيلاطس، وهي أن يتمكن من إطلاق سراحه بعد ذلك، أدخل المسيح مرة أخرى إلى دار الولاية ونزعوا عنه إكليل الشوك والثوب الارجواني (رمز الملوكية)، وذلك ليتسنى، بمقتضى كرامة القانون وهيبة المحكمة، محاكمته بملابسه العادية. فحكموا عليه وسُلم لهم ليصلبوه.

وقد كشفت لنا أبحاث الحفريات الحديثة في أورشليم التي قام بها الضابط وارن، عن صالة كبيرة تحت الأرض، قرر مستر فرجسون بعد فحصها أنها المكان الذي تألم فيه المسيح وجُلد واستُهزى، به. وهي في موقع قلعة أنطونيا، مركز دار ولاية بيلاطس، وفيها لا يزال هناك عمود مقطوع تاجه قائم بمفرده، وليس له اتصال بتركيب هيكل المبنى (لأن الصالة مقبية بقبو يعلو العمود، ولكن دون أن يتلامس معه، وواضح أنه العمود الذي كان مستخدماً لربط المحكوم عليه وجلده). وتاريخ هذه الصالة يرقى إلى زمن هيرودس.

٢:١٩ وَضَفَرَ الْعَسْكَرُ إِكْلِيلاً مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَى رَأْسِهِ وَأَلْبَسُوهُ ثَوْبَ أُرْجُوانٍ.

«محتقر ومخذول من الناس، رجل أوجاع ومختبر الحزن... مُحتقر فلم نعتد به» (إش٥٣:٣)

كان هذا العمل بأمر بيلاطس، ليمثلوا بالمسيح تمثيلاً كملك تحت الإهانة، وقد أتقنوا جداً عملية الاستهزاء بكل صنوف الوقاحة المتاحة، وقد فلت زمام تعقلهم، لأن الأمر صادر من رئيسهم!

«ضفر العسكر إكليلا من شوك، ووضعوه على رأسه»: القصد أن يهزأوا بملوكيته، فألبسوه إكليلاً من شوك عوض إكليل الغار الذي يطوقون به الملوك عند رجوعهم من انتصاراتهم. ولكن ألم يقل المسيح: «ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يو١٦:٣٣)؟ لقد رجع المسيح من نصرته العظمى غالباً العالم ورئيسه وكل مصادر الخطية والموت والهلاك، وحمل لعنة الإنسان في جسده، فلاق به أن يلبس إكليلاً من شوك رمز لعنة الإنسان «ملعونة الأرض بسببك ... شوكاً وحسكاً تنبت لك.» (تك٣:١٧-١٨)

كان منظر المسيح وهو لابس إكليل الشوك، هو منظر الإنسان مطروداً من أمام وجه الله، خارجاً من جنة عدن، حاملاً اللعنة والشوك، ومستقبلاً التعب والشقاء. وها هو المسيح قد وفى العقوبة بكل بنودها، وما بقي منها إلا الموت، آخر عدو للإنسان، والذي هو(أي المسيح) وشيك أن يدوسه ليعود بالإنسان إلى حيث خرج.

يعقد بعض العلماء أن نوع هذا الشوك اسمه العلمي (   )، وهو موجود بكثرة في أورشليم ، وأشواكه حادة جداً، إذا انغرست في اللحم تدميه. ويقول أخرون إنه نبات (   ) وأسمه العبري «سارح» أو «سيراخ»

«وألبسوه ثوب أرجوان»: «من ذا الآتي من أدوم بثياب حُمر، من بصرة، هذا البهي بملابسه ... ما بال لباسك محمر، وثيابك كدائس المعسرة؟ قد دست المعصرة وحدي، ومن الشعوب لم يكن معي أحد.» (إش٦٣:١-٣)

«وهو متسربل بثوب مغموس بدم، ويدعى اسمه كلمة الله.» (رؤ١٩:١٣)

وهو الثوب الذي خلعه عليه هيرودس تهكماً من ملوكيته أيضاً، عندما أرسله بيلاطس إليه، لما علم هذا أن المسيح من الجليل. وكان هيرودس والي الجليل، ولكنه كان مقيماً في أورشليم، «فاحتقره هيرودس مع عسكره، واستهزأ به، وألبسه لباساً لامعاً، ورده إلى بيلاطس.» (لو٢٣:١١)

ومعروف أن لباس الملوك هو الأحمر اللامع.

٣:١٩ وَكَانُوا يَقُولُونَ: «السّلاَمُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ». وَكَانُوا يَلْطِمُونَهُ.

«في ظلعي فرحوا واجتمعوا، اجتمعوا علي شاتمين ولم أعلم، مزقوا ولم يكفوا.» (مز٣٥:١٥)

كانت هي تحية قيصر الرسمية، كما كان يقوها الألمان لهتلر: «هايل هتلر». وهي التي أخذ عنها كلمة «السلام الملكى»، ليقال بالموسيقى وليس بالفم؛ وهي تحية الملوك العظام.

لم يدر هؤلاء الجنود البؤساء أنهم فعلاً يحيون ملك الملوك، «ورئيس ملوك الأرض» (رؤ١:٥)، ولم يكن استهزاؤهم إلا استهزاء بجهالتهم وعمى عيونهم، التي نضح عليها اليهود فعموا بعماهم!

«وكانوا يلطمونه»: كان المسيح، بعد الجلد، ينزف دماً، وظهره متورم تجتاحه الآلام، كموجات مرعبة تسري في جسده المتهرأ بلا توقف، ثم بدأوا يلطمونه على الوجه وعلى الرأس: «وبصقوا عليه، وأخذوا القصبة، وضربوه على رأسه» (مت٢٧:٣٠)

«اسمعي أيتها السموات وأصغي أيتها الأرض .... ربيت بنين ونشأتهم، أما هم فعصوا علي، الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم!! ويل للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الإثم، نسل فاعلي الشر، أولاد مفسدين!! تركوا الرب، استهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء .... كل الرأس مريض، وكل القلب سقيم، من أسفل القدم، إلى الرأس ليس فيه صحة! بل جرح، وأحباط، وضربة طرية، لم تعصر ولم تُعصب ولم تُلين بالزيت. بلادكم خربة، مدنكم محروقة بالنار!!» (إش١:٢-٧)

«وكانوا يقولون: السلام يا ملك اليهود، وكانوا يلطمونه»! هذا هو سلام العالم، سلام بالفم ولطمة باليد، وحق للمسيح أن يقول: «سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم...» (يو ١٤: ٢٧)

الجزء الخامس من المحاكمة

خارج الولاية (١٩: ٤-٧)

«هذا هو الرجل»، «جعل نفسه ابن الله»

٤:١٩ فَخَرَجَ بِيلاَطُسُ أَيْضاً خَارِجاً وَقَالَ لَهُمْ: «هَا أَنَا أُخْرِجُهُ إِلَيْكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً».

كانت حيرة بيلاطس واضحة، فلو كان لديه من الأدلة ما يكفي للحكم، لحكم. ولكن لم يكن أمامه أية أدلة يستند عليها، بل كان أمامه من الأدلة الدامغة على براءته، ما جعله يكاد يتوسل ملتمساً براءته. وقد أقدم عل فعلة شنعاء، بأن ظلمه ظلماً قاسياً وعنيفاً، ليرضي ظلم رؤساء الكهنة القساة وعنفهم! ولسان حاله أنه: يهون جلده، حتى الدم، وتهون إهانته حتى التراب، أمام تبرئته من الصلب! ولكن هيهات، فحسب لسانه هو: «ما كتبت قد كتبت»

«ها أنا أخرجه إليكم لتعلموا أني لست أجد فيه علة واحدة»: بيلاطس يحاول أن يوقظ روح الإنسانية في اليهود، ويدفعهم دفعا إلى روح العدالة، بإعلانه الجهوري عن براءة من يتهمونه، براءة لا يشوبها الشك ولا «علة واحدة»، ويستدر رحمتهم بمنظر المسيح الدامي والمهان جداً! هذا كله من وراء المسيح، فالمسيح كان حتى هذه اللحظة داخل دار الولاية: «ها أنا أخرجه إليكم».

«لست أجد فيه علة واحدة»: «رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيّ شيء». وبيلاطس هنا يدين نفسه إدانة مخزية. فلماذا، إذن، وبأي حق، وبأي إنسانية، تأمر بجلده بضربات قد تؤدي إلى موته، تأمر بإهانته هكذا وهو بريء!!

٥:١٩ فَخَرَجَ يَسُوعُ خَارِجاً وَهُوَ حَامِلٌ إِكْلِيلَ الشَّوْكِ وَثَوْبَ الأُرْجُوانِ. فَقَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «هُوَذَا الإِنْسَانُ».

«يا جميع عابري الطريق، تطلعوا وانظروا أن كان حزن مثل حزني...»» (مراثى ١: ١٢)

+ «بُليت بمظامي. عند كل أعدائي صرت عاراً،... ورعباً لمعارفي... الذين رأوني خارجاً هربوا عني، نُسيت من القلب مثل الميت، صرت مثل إناء مُتلف، لأني سمعت مذمة من كثيرين، الخوف مستدير بي بمؤامرتهم معاً علي، تفكروا في آخذ نفسي.» (مز ٣١: ١٠-١٣)

+ «اذكر يا رب عار عبيدك الذي أحتمله في حضني!! ... ، الذي به عير أعداؤك... ، عيروا آثار مسيحك!!» (مز ٨٩: ٥٠)

+ «كان منظره كذا مفسداً أكثر من الرجل، وصورته أكثرمن بني آدم... لا صورة له ولا جمال، فننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه. محتقر ومرزول من الناس، رجل أوجاع ومختبر الحزن، وكمُستر عنه وجوهنا. محتقر فلم نعتد به، لكن أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها، ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً، وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا، تأديب سلامنا عليه، وبحُبره شُفينا... والرب وضع عليه إثم جميعنا. ظُلم، أما هو فتزلل، ولم

يفتح فاه...، ضُرِبَ من أجل ذنب شعبي.» (إش٥٢: ١٤-٥٣: ٩)

«هوذا الإنسان»: هوذا الإنسان ليس ملكاً بعد، لقد رفِّع عنه كل كرامة، «الذي له الكرامة والمجد إلى دهر الدهور.» (اتى١: ١٧)

ألبسه الهزء والسخرية، «اللابس النور كثوب» (مز١٠٤: ٢)

أزال بهاء منظره، وحطم قوته «البهي بملابسه، المتعظم بكثرة قوته» (إش٦٣: ١)

ألبسه تاج الشوك، وهو الذي «على راه تيجان كثيرة» (رؤ١٩: ١٢)

قال لهم: «هو ذا الإنسان»، لعلهم يتعرفون عليه في أخوة الإنسانية وآلامها!! فجحدوه كإنسان متألم، وهو الإله المتمجد، ملك الملوك ورب الأرباب. أهانوا خروجه إليهم، الذي سيأتي في مجده ومجد أبيه مع ملائكته القديسين ليدين المسكونة بالعدل: «العار قد كسر قلبي فمرضت، انتظرت رقة، فلم تكن، ومعزين فلم أجد.» (مز٦٩: ٢٠)

هموذا الإنسان!! هذا هو التجسد. نعم وكيف صار الكلمة جسداً! هذا هو الإخلاء في أعمق مظاهره ومعانيه! كيف مار الإله في هيئة عبد؟ (راجع في٢: ٧) ولم يكتف بهيئة العبد، بل حمل على هيئة العبد عار العبيد والأسياد ومذلة بني الإنسان، ودفع بمذلته ثمن كبريائنا، تهيداً ليدفع بموته ثمن موتنا ويعطينا الحياة!

هذه هي طاعة العبد، أدخلوه دار الولاية، فدخل. وألبسوه عار الإنسان، فلبس. وأخرجوه ليكون منظراً للناس والملائكة، فخرج. هو راض بكأسه الذي أخذه من يد الآب لشتربه رشفة رشفة!

في يوم ميلاده، يوم إعلان تجسده، ظهرت الملائكة في السماء جوقات جوقات تسبح لملكها وتمجد مهللة، ولكنها في هذا اليوم انحصرت مذعورة، وصمتت السماء، استعداداً لساعة الظلمة على الأرض.

أما بيلاطس فخاب رجاؤه لأنه ترجى أن يسمع كلمة رحمة من اليهود، فسمعه «اصلبه»، «اصلبه»، لأن لصوص الكرم تعاهدوا وتربصوا: «فلما رآه الكرامون تأمروا فيما بينهم قائلين: هذا هو الوارث هلموا نقتله، لكى يصير لنا الميراث». (لو٢٠: ١٤)

٦:١٩ فَلَمَّا رَآهُ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْخُدَّامُ صَرَخُوا: «اصْلِبْهُ! اصْلِبْهُ!» قَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «خُذُوهُ أَنْتُمْ وَاصْلِبُوهُ لأَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً».

نعم، لا يكفيهم الجلد على الظهر، ولا الضرب على الرأس؛ واللطم والبصاق على الوجه لا ينفعان شيئاً! هذا كله لا يكفي لغسل خطاياهم ورفع تعدياتهم، هذا لا يكفي ولا يصلح قط ليكون ذبيحة للفداء، إنهم بروح جميع الأنبياء يطلبون بل ويصرخون بأعلى أصواتهم أن «يُذبح المسيح»، فليس أقل من الذبح فداء، ولا دون الصليب خلاص.

«خذوه أنتم واصلبوه، لأني لست أجد فيه علة»: قول بيلاطس يُترجم هكذا: أنا غير موافق على صلب المسيح، إذا كنتم مصممين على قتله، فخذوه كما أتيتم به، واصلبوه أنتم! قالها بيلاطس مع شيء من السخرية.

أراد بيلاطس أن ينفض عن نفسه تحمل «دم البار»: «لست أجد فيه علة واحدة» (يو١٨: ٣٨)، «إياك وذلك البار» (مت٢٧: ١٩). وبقوله مرة ثالثة: «لست أجد فيه علة»، وضع القضية بكافة ملابساتها على رؤوسهم وحمّلهم دم فريستهم! وكل نتيجة أعمالهم. إن تصريح بيلاطس بهذا الوضوح والعلانية، جعل اليهود وحدهم هم المسئولين عن صلب المسيح أمام هيئة القضاء العالى في السماوات، ولدى ذوي البصيرة من الروحيين والأنبياء: «إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتموه، معلقين إياه على خشبة» (أع٥: ٣٠). وليس هنا ذكر لبيلاطس، أو الرومان! «إن إله

إبراهيم اسحق ويعقوب، إله آبائنا مجد فتاه يسوع، الذي أسلمتموه أنتم، وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس، وهو حاكم بإطلاقه، ولكن أنتم أنكرتم القدوس البار، وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل، ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات، ونحن شهود لذلك.» (أع٣:١٣-١٥)

وهذا ذكر تاريجي يبرى بيلاطس من دم المسيح حقاً. ولكن الخطأ الذي وقع فيه، هو أنه لم يستطيع أن يقف عند قوله، بمعنى أنه لم يستطع أن ينفذ ما يعتقده من جهة تبرئة المسيح. هنا لعنة السياسة، فسياسة الدولة تضحي بالحق في سبيل سلامة كيانها: يموت هو ولا أموت أنا. هذا هو عجز السيامة!! وعجز السياسة يأكل من جسم القانون!!

٧:١٩ أَجَابَهُ الْيَهُودُ: «لَنَا نَامُوسٌ وَحَسَبَ نَامُوسِنَا يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ لأَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ ابْنَ اللَّهِ».

رفض بات للمساومة التي دخل فيها بيلاطس. وما كان يجب عليه أن يفتح باب الحوار مع الشعب والشاكين، في أمر إزهاق روح بريء. ثم الخطأ الثاني أن يخيرهم بين إطلاقه من عدمه، بأن يوازنه بمجرم محترف محكوم عليه بالفعل.

اليهود هنا يزكون طلبهم بضغط، معتبرين أن حكمهم «إلهي»، وما عليه إلا التنفيذ، كما تراءى لهم، أو ربما كما أعطتهم الدولة الحاكمة من ضمانات في عدم التدخل في شئونهم الدينية. فالناموس اليهودي يقول بحسب سفر اللاويين (٢٤:١٦): «من جدف على اسم الرب فإنه يُقتل، يرجمه كل الجماعة رجماً، الغريب كالوطني، عندنا يجدف على الاسم، يُقتل».

ولكن ما هو عمل بيلاطس كقاض تأكد له بالفحص الشخصي والسماع المتأني لليهود من براءة المسيح؟ بالإضافة إلى معرفته ائسابقة كوالى للبلاد بشئون قيام هذه الحركة الجديدة التي يقودها المسيح في البلاد والتي يتبعها كثير من الشعب والرؤساء، هل كان من واجبه، بل بالأحرى هل هو في حدود صلاحياته، أن يبرىء إنساناً يتهمه اليهود بمخالفات دينية تدخل في اختصاصات رؤساء الكهنة؟

الجزء السادس من سير القضية

داخل دار الولاية (١٩:٨-١١)

الإعلان عن مصدر السلطان الذي يحكم به بيلاطس، والخطية الأعظم التي يتحملها رؤساء الكهنة وحدهم

٨:١٩ فَلَمَّا سَمِعَ بِيلاَطُسُ هَذَا الْقَوْلَ ازْدَادَ خَوْفاً.

لقد أحس بيلاطس بالرهبة تسري في كل كيانه، منذ تحدث مع المسيح في اختلائه الأول معه (١٨:٣٣-٣٨)، وسماعه القول الذي قاله المسيح والذي يوحي بأصله الإلهي، وبرسالته فوق العادة من أجل الحق في العالم كله. وهنا، وعند سماعه بأصل المسيح يُعاد وصفه مرة أخرى بأكثر وضوح أنه ابن الله، زاد إحساسه بالخوف. إذ الآية لا تقول أنه ابتدأ يخاف بل «ازداد خوفاً». وقد انعكس هذا الخوف عل الإجراء الذي كان قد عمله في التو، إذ أمر بجلده؛ صحيح أنه جلد إنساناً له علاقة بالآلهة اليهودية مُرسلاً من عالم آخر! إن العبادات الرومانية ليست غريبة من هذا اللقب: «ابن الله»، خصوصاً وأن عبادات الشرق كان لها إشعاعات مؤثرة في السنين الأخيرة. فبولس الرسول يحكي لنا، بل ويستخدم معلومة مستمدة من أشعارهم: «كما قال بعض شعرائكم أيضاً لأننا أيضاً ذريته.» (أع١٧:٢٨)

فالسؤال الذي بدأ يرعب قلب بيلاطس، هل سيجره اليهود لكي يدخل في حرب مع الآلهة؟ «وإذ كان من الله ، فلا

تقدرون أن تنقضوه، لئلا توجدوا محاربين لله أيضاً» (أع٥:٣٩)... لقد بدأ يزداد عنده، مع الخوف، الإحساس بالشؤم في هذه القضية. وكان بيلاطس على حق في كل أحاسيسه. فالواقف أمامه هو حقاً وبالحقيقة ابن الله، الذي تهتز وتسجد أمامه كل عروش السموات والأرض. وكان عل حق، كل الحق، عدما أحس بالشؤم من صراخ اليهود الذي ظل يرن في أذنه حتى اليوم: «اصلبه اصلبه»، فقد تلوثت يداه بالفعل بدم «ذلك البار»، الذي لم تكن حقيقته عن زوجته بعيدة ...

إن إحساس بيلاطس بالخوف، ثم بازدياد الخوف بتقدم القضية نحو لحظة الصلب، يكشف تماما عن أن أحاسيس هذا الرجل كانت صادقة. وصراخه في وجه اليهود مرات ثلاث: «أنا لا أجد فيه علة واحدة» هو ليس فقط الصدق والحق، بل هو النبوة العفوية التي تستمد وحيها من فم المسيح: «من منكم يبكتني على خطية.» (يو٨:٤٦)

٩:١٩ فَدَخَلَ أَيْضاً إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ وَقَالَ لِيَسُوعَ: «مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟» وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمْ يُعْطِهِ جَوَاباً.

«ظُلم، أما هو فتذلل، ولم يفتح فاه، كشاة تُساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازيها، فلم يفتح فاه. (إش٥٣:٧)

«من أين أنت»: هل أتيت من نسل إنسان؟ أم من كائن إلهي: أمن السماء أنت أم من الأرض؟ «فالجموع لما رأوا ما فعل بولس، رفعوا صوتهم بلغة ليكاونية قائلين: إن الألهة تشبهوا بالناس، ونزلوا إلينا.» (أع١٤:١١)

كان من الصعب جداً على المسيح أن يقول لليهود من أين هو: «فاحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تعلق أنفسنا، إن كنت أنث المسيح، فقل لنا جهراً» (يو١٠:٢٤). ولما قال لم يصدقوا: «أجابهم يسوع: إني قلت لكم ولستم تؤمنون» (يو١٢:٢٥)، فكم وكم يكون لبيلاطس؟ لا يمكن بالكلام أن يدرك إنسان من هو المسيح، لا بد من الأستعلان، والوسيلة الوحيدة لدى المسيح لكي يعرف بيلاطس من هو حقاً، هي أن يُصلب!! حتى يعرف، ليس بيلاطس وحده، بل كل العالم! لهذا كان صمت المسيح لم يكن تمنعاً، أو عزوفاً عن الكلام، لأنه لا يستطيع أن يزيد على ما قاله سابقاً (١٨:٢٥)، أما استعلانه الكلي، فيستحيل، لأن عقارب الساعة لم تكن قد بلغت السادسة بعد!

كان الذي يقلق بيلاطس الأن، هو الإجراءات العنيفة التي اتخذها في حقه، لقد بدأت تضغط على أعصابه، إنه يود أن يعرف نفسه هل هو بريء فيما صنع، أم أنه واقع تحت اتهام الألهة!! لذلك حاول بصورة أخرى أن يبتز من المسيح الجواب:

١٠:١٩ فَقَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «أَمَا تُكَلِّمُنِي؟ أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ لِي سُلْطَاناً أَنْ أَصْلِبَكَ وَسُلْطَاناً أَنْ أُطْلِقَكَ؟».

لم يكن بيلاطس، بهذا القول، يُرهب المسيح. كما لم يكن يهدد، بل كان يتوسل باسم السلطان الذي في يده. لم يرفع السلطان فوق المسيح، بل جعله تحت أمره، لو هو أسر إليه بسره، فيريح نفسه وينير الطريق أمام النطق اللائق بالحكم. أن يصمت المسيح» في نظر بيلاطس، وأمام الناس، وفي أي مكان وزمان، فهذا معقول ولا فرق يتأتى منه، أما الآن فأنا بيلاطس، لي الكلمة الأخيرة لا سدل بها الستار على هذه القضية العصية! فكيف تصمت ولماذا؟

كان بيلاطس الروماني يظن في بادىء الأمر، أن على المسيح أن يرتجف أمامه، وبالنهاية انعكس الوضع.

المسيح لم يكسر صمته بالنسبة لسلؤال، بل أراد أن يصحح لبيلاطس من أين يستمد مصدر سلطانه، في أن يصلب أو يطلق! المسيح لم يكن مشغولاً فيما سيحدث له على يد بيلاطس، بل عينه كانت فوق، مسلطة على الآب الذي

خرجت من لدنه المشورة الآزلية، لتتم في وقتها على يد بيلاطس أو غيره.

أما صمت المسيح، مع جلال هدوئه، فقد صور في قلب بيلاطس الرد على سؤاله: «من أين أنت؟»[1]

١١:١٩ أَجَابَ يَسُوعُ: «لَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَيَّ سُلْطَانٌ الْبَتَّةَ لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقُ. لِذلِكَ الَّذِي أَسْلَمَنِي إِلَيْكَ لَهُ خَطِيَّةٌ أَعْظَمُ».

هذا التصور المديد الذي تصوره بيلاطس في أمر سلطانه، أنه هكذا كما يريد يفعل، هو الذي حرك المسيح ليرده إلى الصواب، ويضعه هو وسلطانه تحت التدبير السماوي العالى.

كان هذا، من فم المسيح، القول الفضل في العلاقة بين السلطة المدنية والسلطة الإلهية في حكومة الناس والعبث بمصائرهم .

فليس تعيين الحاكم والقاضي من قبل السلطة المدنية العليا كالإمبراطور، يعطيه السلطان المطلق أن يعمل كما يشاء أو حتى كما تشاء السلطة العليا التي تشرف عليه وتراجعه بمقتض القوانين الوضعية. إذ لا يزال فوق حكومة الناس حكومة الله، فاته يضع حدودا لصاحب السلطان لا يتعداها: «ليس سلطان إلا من الله، والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله» (رو١٣:١)

حينما قال المسيح لبيلاطس: «لو لم تكن قد أُعطيت من فوق»، فقد كان يشير إلى المكان الذي أتى منه، ردا على سؤال بيلاطس: «من أين أنت»؟ هذه أوليات المعرفة الإنجيلية لسلطان الله في العالم وعلى الناس: «قامت ملوك الأرض، واجتمع الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه. لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع، الذي مسحته، هيرودس وبيلاطس البنطي، مع أمم وشعوب إسرائيل، ليفعلوا كل ما سبقت يدك ومشورتك أن يكون» (أع٤:٢٦-٢٨)، «هذا أخذتموه مُسلماً بمشورة الله المحتومة، وعلمه السابق وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه» (أع٢:٢٣). فإن كان بيلاطس يحكم بسلطان، ففوق سلطانه الشخصي، هناك القانون الذي يعمل بسلطانه. فبقدر أمانته للقانون، يكون أميناً في سلطانه. وفوق القانون والسلطان المدني، عين الله التي لا تغفل ولا تنام!!

بيلاطس لم يكن أميناً في سلطانه الذي يعتز به، بل أساء إليه، فبينما هو ينطق بالبراءة ثلاثاً، نطق بالإعدام تحت الخوف والإرهاب. هذه تُحسب له خطية إزاء القانون، وبالتالي إزاء الله. ولكن الذي دس هذه القضية، بل هذه الخطية، في يد بيلاطس، يتحمل أضعاف ما يتحمله بيلاطس. يقول المسيح: «لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم»!!

فبيلاطس أخطأ في الإلتزام بالقانون والسلطان الذي أعطاه أن يقضي، وهو قانون مدني، تحت عين الله على كل حال. أما قيافا، ومن معه، فقد فاق في خطئه كل تعقل وكل تصور، فقد استخدم «القانون»، أي الناموس الإلهي نفسه وسلطانه الذي أخذه من الله، استخدمه لتلفيق تهمة القتل: «لنا ناموس، وحسب ناموسنا يجب أن يموت» (يو١٩:٧). بيلاطس أخطأ في الإلتزام بالقانون المدني فله خطية، وقيافا واليهود استخدموا القانون الإلهي وسلطان الله في ارتكاب خطية قتل عمد مع سبق إصرار واعتراف، فلهم خطية أعظم!

الله هو الذي دفع المسيح ليد قيافا، ومن معه، ويد بيلاطس، لا لكي يحكم قيافا، ومن معه، بقتله مخالفين

---

[1] جاء في قاموس أكسفورد للكنيسة المسيحية عن بيلاطس البنطي، أنه بحسب يوسابيوس القيصرى في تاريخ الكنيسة قد انتحر. ولكن في التقليد الشرقي أنه صار مسيحياً هو وزوجته كلوديا بروكيولا. والتقليد القبطي، كما يقول قاموس أكسفورد، أنه صار شهيداً وقديسا. وتعيد له الكنيسة الأثيوبية في يوم ٢٥ يونيو.

الناموس، بل ليتعرفوا على المسيا حسب الناموس، ودفعه لبيلاطى لكي يحكم بيلاطس بحسب عدل القانون الروماني، وليس لكي يلغي القانون الروماني، بسلطانه الشخصي، فيحكم بسلطانه بغير ما يحكم به القانون الروماني! ولكن لأن الكأس، كأس الآلام المبرحة والفضيحة والإهانة والصليب والدم المسفوك، قد تسلمها المسيح من الله راضياً بمشورة الله الأزلية، وان كانت خلفت خلاصاً لنا ومجداً له، إلا أن الخير الوفير المترتب على شرب المسيح لكأس الموت، لا يمكن أن يشفع أبداً في خطية بيلاطس والخطية الأعظم التي لقيافا ومن معه!

نعم، كان لا بد أن يموت المسيح، ولكن موت المسيح كان لا بد له من قلب الإنسان الخائن ونفوس طامحة وحاقدة وقلوب جامدة وشخصيات مهزورة، وهي حاضرة في كل زمان ومكان. لم يضف الله على خبثهم، ولا كلفهم بتشغيل مواهبهم الشيطانية، بل تركهم يعملون حسب مشيئاتهم وغرائزهم»، «حيثما تكون الجثة فهناك تجتمع النسور» (مت٢٤:٢٨). ولكنهم، وقت الحساب، يقفون في الصف وخطاياهم أمامهم!!

وقيافا، كان بحكم وظيفته التي أعطاها له الله، له الامتياز الأول والأعظم في التاريخ اليهودي كله، ومن بين جميع رؤساء الكهنة منذ أن قامت للكهنوت رئاسة على يد هارون، وذلك أن يتعرف على المسيا ويقدمه للشعب والعالم.!! قيافا خيب أمال هارون، أباه الأول في كرامة كهنوته، وخيب أمال موسى نبيته في نبوته! وخيب أمال داود، ملكه الأغر في ملوكيته؛ وخيب أمال الآباء جيعاً والأنبياء الذين اجتهدوا بكل جهد، ووصفوا المسيح الآتي بكل الإشارات والإمارات، حتى يسهل على الكهان ورؤساء الكهان في ملء الزمان أن يتعرفوا عليه. ولكن قيافا ونسيبه اشتركا في التربص بالمسيح، الابن الوحيد الوريث، كلصوص الكرم، ووضعوا الخطط، ونصبوا الشراك، خارج الكرم في جثسيماني، وقالوا: «هلموا نقتله» (مت٢١:٣٨). استخدموا سلطانهم الكهنوتي، وناموسهم الإلهي، وزوروا الحقائق، ولفقوا التهم، وقبضوا عليه، وأوثقوه كلص، وأسلموه للحكم، وتوسلوا بكل وسيلة لدى بيلاطس القاضي الأممي أن يحكم لهم. ولما أكتشفوا أنه كشف حسدهم وكيدهم وغشهم، بينما هو طالب بإطلاقه، تمسحوا في الحال في قيصر الملك الوثني، وادعوا الرعوية له، وجحدوا الله ملكهم الأبدي، وأنكروا مسيحهم الأزلى، و باعوا أمتهم ثمناً لقتل مسيا الدهور ومسيح الخلاص.

«لذلك الذى أسلمني إليك، له خطية أعظم»: كانت هذه هي آخر كلمة قالها المسيح في ختام هذه المحاكمة، وكانت بمثابة كشف الحساب النهائي لكل القضاة بكل أتعابهم، وأصحاب الأدوار الذين قاموا بتكميل قصة الصليب، وحيث أعلن المسيح أنه هو الديان الحق الوحيد، الذي سوف يمثل أمامه كل الذين خانوا الحق والأمانة، وتعدوا القانون والناموس عمدا، وباعوا ضمائرهم وإلهم فى سبيل أمجادهم الشخصية وأطماعهم الدنيوية.

الجزء السابع والأخير فى سير القضية

خارج دار الولاية (١٩:١٢-١٥)

تهديد القاضى، فليحيا قيصر، وليمت المسيح

١٢:١٩ مِنْ هَذَا الْوَقْتِ كَانَ بِيلاَطُسُ يَطْلُبُ أَنْ يُطْلِقَهُ وَلَكِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَصْرُخُونَ: «إِنْ أَطْلَقْتَ هَذَا فَلَسْتَ مُحِبّاً لِقَيْصَرَ. كُلُّ مَنْ يَجْعَلُ نَفْسَهُ مَلِكاً يُقَاوِمُ قَيْصَرَ».

«من هذا الوقت»: ليس بعد هذا الوقت، ولكن لحظة قال المسيح قولته وكشف لبيلاطس: إن «العلي متسلط في مملكة الناس، وأنه يعطيها من يشاء ... وعد انتهاء الأيام أنا نبوخذنصر رفعت عيني إلى السماء، فرجع إلي

عقلي، وباركت العلي، وسبحت، وحمدت الحي إلى الأبد، الذي سلطانه سلطان أبدي، وملكوته إلى دور فدور. وحُسبت جميع سكان الأرض كلا شيء، وهو يفعل كما يشاء في جند السماء وسكان الأرض، ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل ... الذي كل أعماله حق، وطرقه عدل، ومن يسلك بالكبرياء فهو قادر على أن يذله.» (دا ٤:٣٢-٣٧)

فعندما أدرك بيلاطس ما قاله المسيح، تأكد له خوفه الذي خافه، وابتدأ يسعى (يطلب) بنفسه، وليس لدى اليهود، أن يطلقه. ولكن إصرار بيلاطس على الإطلاق، كان يقابله من قيافا المتربص ازدياد وهياج في الصراخ، فكانت وراءه جوقة خدام (ضباط) الهيكل المدربة والملقنة متى وكيف يعلو صوتها! كان سعي قيافا ومن معه لسفك دم المسيح جنونياً، رصد له كل قوته وماله وسلطانه ودهاءه، وبمساعدة الشيطان! «هذه ساعتكم، وسلطان الظلمة.» (لو ٢٢:٥٣)

«إن أطلقت هذا، فلست محباً لقيصر، كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر»: ليحيا قيصر، وليمت المسيح!! وفي جنون وفقدان وعي المسئولية عن ثبات الأمة وكرامتها، استهان قيافا بيهوديته وانزلق إلى التهديد، حتى راهن بولائه لله، في سبيل سفك دم المسيح، واتمى تحت رجلي قيصر، متقمصاً الولاء للامبراطورية الرومانية والدفاع عن «الحب والأمانة» لقيصرها!! وكان ذلك منه بقصد اكتساب الحق بعدئذ في إلقاء التهمة على بيلاطس، أنه يخون أمانته وحبه لقيصر، بل ويقاومه متسبباً في قيام الثورة ضد روما!!

وهكذا، وبعد ما استفرغ قيافا اللعب بكل أوراقه الدينية، من جهة الولاء للناموس، وتعدي الناموسى، والإلتزام بالناموس، «لنا ناموس»، وبعد أن وجد أن كل ذلك كان لعبة مكشوفة لدى بيلاطس، الذي حينما وزنها بميزان العدالة وجد أنه ليس فيه علة واحدة مما يقولون! أسرع قيافا بالورقة الأخيرة والخطيرة، ورقة اللعب بالسياسة، وترك الولاء للناموس وصاحب الناموس للالتجاء إلى الولاء لقيصر وحب قيصر، لمحاولة زعزعة كرسي بيلاطس من تحته بالإلتجاء إلى الشكاية لقيص!

ولكن يا للحزن المرير؛ كان مجرد التهديد بهذه السياسة، بإعلان الولاء لقيصر، معناه إعطاء الله القفا دون الوجه. فكان هذا السلوك المشين من رئيس كهنة، بمثابة ترك عبادة الله الحي والسجود للأوثان! وهكذا، وفي ساعة، انقلبوا من يهود متعصبين للناموس إلى رومان متعصبين لقيصر!! وكانت هذه التهديدات الخطيرة قد لقنها قيافا لخدامه (الضباط)، ولكل الشعب، ليصرخوا بها صراخاً بلغ عنان السماء، وظلت يتردد في أذن يوحنا ستين سنة! وظلت تتردده أجواء السماء والأثير، وتردده الأيام إلى يوم الدين!

«محباً لقيصر»: هذا النعت ليس تركيباً من ألفاظ اليهود، بل كان هذا «لقبا» للضباط العظام الذين يقومون بأعمال جليلة لحساب الإمبراطورية، وبالتال لقيصر، ولكن اللقب المضاة وهو «ليس محباً لقيصر»، معناه نوع من الخيانة، أو نعت لمن يتكلم ضد قيصر. ومعروف أن طيباريوس قيصر كان ذا أذن مفتوحة لكل وشاية!!

وليلاحظ القارىء كيف انتقل اليهود من الوضع الأقل في الاتهام (بالكلام): «ليس محباً لقيصر»، إلى الوضع القاتل: «يقاوم قيصر»، الذي معناه الخيانة والثورة السافرة.

فلو أخذنا في الاعتبار، وهذا مهم للغاية، أنه كان معروفاً لدى اليهود أن بيلاطس كان على غير وفاق مع قيصر، بالإضافة إلى معرفتهم الوثيقة بالتصرفات الأخرى سواء كانت رشاوي، أو تجاوزات أخلاقية ووظيفية، لأدركنا مدى خطورة هذا التهديد عليه.

١٩: ١٣ فَلَمَّا سَمِعَ بِيلاَطُسُ هذَا الْقَوْلَ أَخْرَجَ يَسُوعَ وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلاَيَةِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ «الْبَلاَطُ» وَبِالْعِبْرَانِيَّةِ «جَبَّاثَا».

بمجرد أن أدرك بيلاطس ما يخططه اليهود، وأنهم على استعداد فعلاً أن يبيعوا أنفسهم لقيصر ليتخلصوا منه، لم يكن أمامه إلا حل من اثنين: إما الوقوف مع الحق والقانون، وبالتالي مح المسيح لتبرئته، وإما الانسحاب نهائيا من أمام العاصفة الهوجاء وتسليم المسيح لهم ليصنعوا به ما يريدون. وفي الحل الأول فقط، تكون المجازفة بكرسيه وربما بحياته هو. لذلك فضل الحل الثاني: فلأحيا أنا، وليمت المسيح! وقد تغلب الخوف من قيصر على خوفه من المسيح. فقد أيقظت فيه تلويحات اليهود بالإلتجاء إلى قيصر، القسوة التقليدية التي لا تعرف الرحمة.

«أخرج يسوع، وجلس على كرسي الولاية»: كان المسيح داخل دار الولاية، فأخرجه خارجاً. وجلس بيلاطس على كرسي الحكم، بمعنى جلس ونطق في الحال بحكم الصلب. وهنا يكمل القديس متى هذا المشهد هكذا: «فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً، بل بالحري يحدث شغب، أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع، قائلاً: إني بريء من دم هذا البار، أبصروا أنتم. فأجاب جميع الشعب وقالوا: دمه علينا وعلى أولادنا.» (مت٢٧: ٢٤-٢٥)

«جباثا»: ومعناه «الرصيف الذي يتبع البيت»، وهو مكان مرتفع مستدير، يقع بين قلعة أنطونيا وبين الهيكل، حيث كلمة «باثا» أى البيت، تعني هنا «الهيكل». هذه الأوصاف كلها هي ذكريات شاهد عيان.

١٩: ١٤ وَكَانَ اسْتِعْدَادُ الْفِصْحِ وَنَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ. فَقَالَ لِلْيَهُودِ: «هُوَذَا مَلِكُكُمْ».

بعد ما حدد القديس يوحنا المكان الذي فيه نطق بالحكم، حدد اليوم ثم حدد الساعة. أما اليوم فمحددة بالنسبة للفصح، وليس لأيام الأسبوع، كما يقول بعض الشراح. فهو يوم الاستعداد للفصح، ولكن كلمة «الاستعداد» تُستخدم كالعادة لتدل على الاستعداد للسبت أيضا، ولكن القديس يوحنا أوضحها صراحة أنه استعداد للفصح. ولكن الحاصل أنه كان يوم الجمعة وهو بطبيعته يسمى الاستعداد للسبت «باراسكيفي»، ففي هذه السنة كان الاستعداد للفصح هو أيضاً الاستعداد للبت، لأن عيد الفصح كان يوم السبت.

وفي مكان قادم (الآية١٩: ٣١) عاد القديس يوحنا وأوضح ما يدل دلالة قاطعة أن يوم عيد الفصح في هذه السنة كان يوم السبت بقوله: «لأن يوم ذلك السبت كان عظيماً»، أي كان يوماً مقدساً كونه عيد الفصح، ومقدساً كونه يوم السبت أيضاً.

«الساعة السادسة (من النهار)»: يقول العلماء، ومنهم وستكوت، إن التوقيت الذي سجل به القديس يوحنا الساعات، كال توقيتاً على غرار التوقيت الغربي في روما، وكان سائداً في شمال اسيا الصغرى، وهو التوقيت بالساعة الرسمية التي يُذبح فيها الفصح، والتي يبدأ فيها بأكل الفطير.

هنا يبدو قول القديس بولس الرسول مفصلاً على الواقع والتقليد حرفا بحرف: «إذا، نقوا منكم الخميرة العتيقة، لكي تكونوا عجيناً جديدا كما أنتم فطير. لأن فصحنا أيضاً، المسيح، قد ذُبح لأجلنا. إذا، لنعيد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث، بل بفطير الإخلاص والحق.» (اكو٥: ٧-٨)

وهنا حبك للتاريخ الخلاصي. فإن الساعة التي خلص الله فيها إسرائيل من عبودية مصر وسخرة فرعون، كانت هي نفس الساعة التي انخبلت فيها إسرائيل وقدمت فيها عريسها ليُذبح. ليخلص به العالم من عبودية الخطية وسخرة الشيطان. نعم، وفي هذه الساعة، حل الأصل محل الصورة، وذُبح حمل الله عوض الخروف الداجن، واستعلن

المخلص الذي عبر بشعبه؛ فانتهى الطقس، وبلغت الذكرى منتهى تحقيقها» وفصح مصر صار فصح العالم.

«هوذا ملككم»: «أنا هو الرجل الذي رأى مذلة بقضيب سخطه ،أبلى لحمي وجلدي. كسر عظامي، ثقل سلسلتي، فلا أستطيع الخروج، ميل طرقي، ومزقني. جعلني خراباً، مد قوسه ونصبني كغرض للسهم، أدخل في كليتي نبال جعبته، صرت ضحكة لكل شعبي، وأغنية لهم اليوم كله، أشبعني مرائر، وأرواني أفسنتيناً، وجرش بالحصى أسناني، ذكراً تذكر نفسي، وتنحني في، جيد أن ينتظر الإنسان، ويتوقع بسكوت خلاص الرب!» (مراثي٣:١-٢٦)

هنا بيلاطس يقول الحقيقة، دون أن يدري. فحقاً بالحقيقة «هوذا ملككم»!! ولكن عيونهم لا تبصر، واذانهم لم تسمع!! هنا بيلاطس يسخر، ولكن ليس من المسيح، بل من اليهود. ولكن القديس يوحنا لم يكن يسخر، بل هو يسجل أمام التاريخ، أنه في هذا اليوم وفي الساعة السادسة صدر الأمر الإلهي بأن يُرفع ابن الإنسان عن الأرض، ليجذب الجميع، ويملك على العالم.

١٥:١٩ فَصَرَخُوا: «خُذْهُ! خُذْهُ اصْلِبْهُ!» قَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «أَأَصْلِبُ مَلِكَكُمْ؟» أَجَابَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ: «لَيْسَ لَنَا مَلِكٌ إِلاَّ قَيْصَرُ».

«فصرخوا»: وتعني: «صرخوا بصوت واحد عالى، وبجميع الأصوات كلها»: إنهم يجحدون أي علاقة تربطهم بالملك المسيح. خذه خذه، وكأنه أصبح عاراً عليهم، وهم يتبرأون من وجوده. اصلبه، ليتخلصوا من تعييره وتبكيته لهم ولأعمالهم. كانت شهوة رؤساء الكهنة في التخلص من المسيح ممزوجة بالتشفي، فلم يكن أقل من الصلب يريح نفوسهم، التي أقلقها فيهم.

«قال لهم بيلاطس: أأصلب ملككم؟»: هنا بيلاطس يضمر لليهود إحراجاً ما بعده إحراج. فنحن لو نحينا جانباً نظرة اليهود، أن هذا إدعاء من المسيح، وأنه ليس ملكاً، نجد هنا بيلاطس يطلق سؤالاً عاماً قد لا ينصب على المسيح! أأصلب ملككم؟ وفي الحقيقة، فإن ملكهم هنا، في ضمير القديس يوحنا هو الله. كان يجب أن يلتفت رؤساء الكهنة إلى هذا التحذير، فهو يمس كرامة اليهود، ولكنهم قبلوا المهانة، وزادوا عليها لأنفسهم.

«أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلا قيصر»: لينتبه القارىء، فالذي يرد هنا هذه المرة ليس اليهود عامة، ولا رؤساء الكهنة والخدام أصحاب جوقة الهتاف، ولكن رؤساء الكهنة فقط، ممثلوا الأمة اليهودية، فهؤلاء هم الذين يتنكرون ألا يكون لهم ملك. كيف؟ وأين الله؟ لقد طمسوا معالم إيمانهم وفخر أمتهم، لقد جدفوا تجديفاً.

كيف؟ ومن الذي قال: «إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد لأحد قط»؟ (يو٨:٣٣). أهكذا يبيعون حريتهم ويقبلون العبودية علنا في سبيل سفك دم مخلصهم؟! لقد مات رجاؤهم في المسيا إلى الأبد، ليى لنا ملك إلا قيصر! نعم، هذا حق، لأنهم أنكروا ملكهم، بل أسلموه لقيصر ليقتله لهم!! انزلاقهم في منحدر السياسة الرهيب أسقطهم بالنهاية في يد قيصر، وجعلهم يتنازلون برضاهم عن ملكوت الله، واستبدلوه بملكوت العالم ورئيسه!

لقد تخلصوا من المسيح، وارتاحوا لقيصر، لقد جحدوا ملوكيته أولاً، ثم تمادوا فجحدوه كلية. لقد سمع الله هذا الصوت من السماء، وكتب أمامه سفر تذكرة، واستجاب. كما حدث في أيام صموئيل النبي: «فقال الرب لصموئيل: اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك، لأنهم لم يرفضوك أنت، بل إياي رفضوا، حتى لا أملك عليهم.» (١صم٨:٧)

هم طلبوا أن يملك عليهم قيصر، فملكه الله عليهم بالفعل، فاستعبدهم، وأذلهم، وخرب أورشليم فخر مدائنهم؛ مدينة

الملك العظيم صارت هي وهيكلهم محرقة بالنار، ذبح كهنتهم عل مذبح ذبائحهم، نجس قدس أقداسهم، نفاهم إلى أقصى الأرض وشتتهم في جميع ممالك العالم: «مخيف هو الوقوع في يدي الله الحي» (عب١٠:٣١)

في نهاية هذا المشهد، لا يسعنا إلا أن نقول إن اليهود وبيلاطس، على السواء، متهمون بالخيانة، اليهود للسلطان الذي أخذوه من الله وللمبادىء والناموس وملكهم الإلهي، وبيلاطس لمركزه كقاضى ووالى، وأمانته للحقيقة والعدالة.

ثالثا: النهاية (١٩:١٦-٤٢)

في هذا الجزء من رواية المسيح يختص إنجيل يوحنا ببعض الوقائع، التي لم يذكرها أحد غيره مم الإنجيليين:

(أ) الإصرار عل كنابة العنوان (٢٠-٢٢).

(ب) الوصية الأخيرة بخصوص والدته العذراء القديسة مريم والتلميذ المحبوب (٢٨-٣٠).

(ج) الطعن بالحربة في جنب المسيح وخروج الدم والماء (٣١-٣٧).

(د) خدمة نيقوديموس للجسد (٣٩-٤٢).

(هـ) يوحنا شاهد عيان حى الآية (٣٥).

وينقسم هذا الجزء من الإنجيل إلى العناصر الأتية:

١ _ الصلب (١٦-٢٢).

٢- المرافقون للصليب (٢٣-٢٧).

٣ _ النهاية: «قد أكمل» (٢٨-٣٠)

٤- طلبان يقدمان إلى بيلاطس، يستجيب لهما في الحال (٣١-٤٢).

ويلاحظ في رواية يوحنا أن أسلوبه يتميز بالتلميح المستمر لتكميل ما قيل بالأنبياء في العهد القديم، سواء من جهة النبوات أو تحقيق الصور(٢٤ و٢٨ و٣٦ و٣٧)، رافعاً المسيح إلى مرتفع المجد، فوق مجرى حوادث الآلام. مؤكداً إرادة الله والمسيح في كل ما يحدث، وبصورة خامة، يقف عندها القديس يوحنا وقفة استعلان واشارة وتنبيه، عندما يطبع على الرب صورة «الحمل الفصحى» كمذبوح ومأكول.

١- الصلب (١٩:١٦-٢٢)

١٩:١٦ فَحِينَئِذٍ أَسْلَمَهُ إِلَيْهِمْ لِيُصْلَبَ، فَأَخَذُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ

«أخذوه»: أي قبلوه منه، وهي نفس الكلمة التي جاءت في الأصحاح الأول «إلى خاصته جاء وخاصتم لم تقبله». وهكذا أسلوب القديس يوحنا في اختياره للكلمات يحمل وراءه الشرح والمقارنة والتهكم والاستعلان بطريقة غاية في الحذق، أو على الأصح غاية في الاستنارة. فاليهود لم يقبلوه من يد الله، ولا من الآباء، ولا من نبوات الأنبياء ليفرحوا به ويحبوه، ويصيروا به أبناء الله الحى؛ بل قبلوه من يد بيلاطس الوالي الأممي ليصلبوه، قبلوه كمدعي البنوة لله، وكمضلل الشعب ومفسد الأمة، بل وفاعل شر وكاسر الناموس، كمقاوم لقيصر، وهادم للهيكل، قبلوه ليسفكوا دمه ويشفوا غليلهم فيه ويقبلوا دمه عليهم وعلى أولادهم إلى الأبد!

تسلموا فريستهم وأسرعوا، فلم يعد من الزمن ما يكفي أن يواروه التراب قبل حلول السبت وهو العيد، حيث لا يحل بقاء أجساد معلقة على خشبة.

كانت لهفة ونشاط وتشفي اليهود الغيورين على اليهودية وعلى الناموس وعلى الحرف القاتل، متساوية تماما مع

لهفة الجنود الرومان المتعصبين لغطرسة الجنس الروماني المتفوق المتعصب لسيادته، وكان كل منهما يسعى للفتك بفريسته!! «لماذا ارتجت الأمم... قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه.» (مز٢:١-٢)

بيلاطس لم ينطق بنفسه بالحكم، كما تقتضي الأصول المتبعة في القضايا، وهذا نتحققه أيضاً من الأناجيل الثلاثة. فقد سلمه لرؤساء الكهنة ومضوا به (مت٢٧:٢٦؛ مر١٥:١٥؛ لو٢٣:٢٥). لقد حاول أن يختزل إجراءاته ضد العدالة، إلى أقصى حد ممكن. فكان مسوقاً في هذه القضية ضد إرادته[٢]. وهذا واضح غاية الوضوح في رواية إنجيل القديس متى: «فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً (محاولاته المتكررة لإطلاقه)، بل بالحري يحدث شغب، أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلا: إني بريء من دم هذا البار، أبصروا أنتم. فأجاب جميع الشعب، وقالوا: دمنا علينا وعلى أولادنا.» (مت٢٧:٢٤-٢٥)

فبهذا الإجراء وهذه السياسة التي سار عليها بيلاطس من أول القضية لنهايتها، أصبح اليهود وعلى رأسهم رؤساء الكهنة هم وحدهم المتحملين تنفيذ سفك الدم، بل وتنفيذ الحكم إرادياً، (لأن عسكر الرومان قاموا بالعمل) بمقتضى قانون غريب عنهم، أي الصلب، لأن الموت صلبا ليس في صلب الناموس، بل هو وسيلة رومانية وثنية.

كما يلاحظ القارىء المدقق، أن بيلاطس لم يقل «أسلمه إليهم ليصلب»، كمن يعطيهم حق الصلب، بل النطق الوحيد فيما يختص بالصلب جعله بيلاطس مبنيا للمجهول وفاعله غير محدد « ليصلب». صحيح أنهم لم يصلبوه بأيديهم، ولكن هم الذين صلبوه، وانما بأيدي الأمم، وهي أيدي أقوام أثمة: «وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه» (أع٢:٢٣)، «ورئيس الحياة قتلتموه... ونحن شهود لذلك.» (أع٣:١٥).

ولكن كما سبق وقلنا، فإن كلا من اليهود وبيلاطس مدانان بالخيانة للحق والقانون والعدالة، وبالتالي لله!!

١٩:١٧ فَخَرَجَ وَهُوَ حَامِلٌ صَلِيبَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ «مَوْضِعُ الْجُمْجُمَةِ» وَيُقَالُ لَهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ «جُلْجُثَةُ».

«خرج»:

«فقال الرب لموسى: قتلاً يُقتل الرجل. يرجه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة.» (عد١٥:٣٥)

«فأخذ إبراهيم حطب المحرقة، ووضعه على إسحق ابنه. وأخذ بيده النار والسكين.» (تك٢٢:٦)

خرج خارج المدينة، فمكان المحاكمة كان قريباً من الباب الشمالي الغربي المؤدي إلى خارج المدينة، حيث مكان الصلب.

ولكن في كلمة «خرج» معاني روحية التقطها القديس بولس في رسالته إلى العبرانيين: «فإن الحيوانات التي يُدخل بدمها عن الخطية إلى الأقداس، بيد رئيس الكهنة، تُحرق أجسامها خارج المحلة. لذلك، يسوع أيضاً، لكي يقدس الشعب بدم نفسه، تألم خارج الباب. فلنخرج، إذاً، إليه خارج المحلة، حاملين عاره (الصليب)، لأن ليس لنا هنا مدينة باقية، لكننا نطلب العتيدة.» (عب١٣:١١-١٤)

---

[٢] حسب القانون الروماني، يتحتم أن يمر يومان، على الأقل، بين يوم إصدار الحكم بالإعدام ويوم تنفيذه. ولكن لم تكن القوانين الرومانية فرعية في هذه القضية بصورة عامة.

طريق الآلام[٣]: هو الطريق الذي سار فيه المسيح وهو حامل صليبه من أمام قلعة أنطونيا، أي دار الولاية، من المرتفع الذي يقال له جباثا، أي البلاط، ماراً بشوارع المدينة، حيث استقبلته النسوة بالبكاء والنواح، ليس على مستوى المعرفة والروح، بل من منظره الذي كان يستدر الدموع من الصخور، لو عزت دموع الإنسان. ولكن المسيح أبى بثمدق أن يُبكى عليه وهو مصدر الفرح السماوي الذي لا يؤول إلى حزن: «وتبعه جمهور كثير من الشعب والنساء اللواتي كن يلطمن أيضاً و ينحن عليه. فالتفت إليهن يسوع وقال: يا بنات أورشليم، لا تبكين علي، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن، لأنه هوذا أيام تأتي يقولون فيها: طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد، والثدى التي لم ترضع ... لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا، فماذا يكون باليابس» (لو٢٣:٢٧–٣١).

والذي يلفت النظرى أنه لا يزال في كل يوم جمعة، وقبل الفصح، كل سنة، وحتى اليوم، يُقام احتفال بمسيرة في طريق الآلام عينه، حيث تسير نفس الجموع ويشكل النساء فيها الجزء الأعظم، وبكاؤهن لم يجف. وتقف المسيرة في أربع عشرة محطة، بعضها مأخوذ اسمه من الكتاب المقدس، والآخر من التقليد، وينتهي طريق الآلام الآن عند كنيسة القبر المقدس حيث تقام صلاة احتفالية كبرى بواسطة آباء الفرنسيسكان.

«حامى صليبه»: حينما حمل المسيح الصليب، اختفى مفهوم الصليب من العالم كأداة للموت والتعذيب؛ وحل محل هذه الصورة المرعبة المفهوم الجديد للصليب، كرمز الإيمان والرحمة والرقة والبذل والإسعاف والحب والسلام والقداسة والكرامة والمجد؛ يحمله الأطفال للفرح، ويحمله الشباب للنصرة الأخلاقية، وتحمله النساء للعفة والطهارة، ويحمله الرجال للحكمة والكمال، ويحمله الرهبان كسلاح على الصدر والظهر، ويحمله الشيوخ كغلبة على العالم، تحمله الهيئات للرحمة المجانية، وعلامة الإسعاف في المخاطر والإنقاذ المجاني، كأعلى ما بلغت إليه المشاعر الإنسانية، وترفعه الجيوش علامة لوقف القتال وطلب الصلح والسلام، ويحمله الملوك مرصعاً في تيجانهم للكرامة والمجد. وصار للصليب عشرات الأشكال ومئات الألوان، وصار هو الوحدة الزخرفية المفضلة لتكميل كل الفنون.

كان يئن تحت ثقله، وهو الحامل كل شيء بكلمة قدرته. عرقه يتصبب ويتساقط من جبينه، وهو مسخن، فكان يتقطر ممزوجاً بالدم، من الأشواك المغروسة حول رأسه، لم يذق طعاماً ولا ماء ولا نوما منذ عشاء الخميس. الظهر متورم وجروحه تنزف، والوجه متألم من اللطم، والرأس مرضوض من الضرب، والمهانة أحنت نفسه فيه، وبلغ به الحزن حتى الموت قبل الموت! «تطلعوا وانظروا، إن كان حزن مثل حزني» (مراثي١:١٢)، «نفسي حزينة جداً حتى الموت!!» (مت٢٦:٣٨). لقد سبق أن أحسها قبل أن تأتي عليه!!

الدوار ألم به، عيناه لم تعودا تنظران الطريق، موجات الوجع تلو موجات، ونوبات من الرعدة العصبية تسري وتعصف بالجسد، «من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة بل جرح وأحباط وضربة طرية لم تُعصر ولم تعصب ولم تلين بالزيت» (إش١:٦)، هاوية ليس لها قرار، يشيعه إليها جمهور الشامتين!!

«إن المياه قد دخلت إلى نفسي، غرقت في حمأة عميقة وليس مقر، دخلت إلى أعماق المياه، والسيل غمرني، تعبت من صراخي، يبس حلقي، كلت عيناي... ، أكثر من شعر راسي الذين يبغضونني بلا سبب، اعتز مستهلكي أعدائي (فوقي) ظلماً، حينئذ رددت الذي لم أخطفه، ... لأني من أجلك احتملت العار، غطى الخجل وجهي، صرت

---

[٣] هذا الاسم أصبح تقليدا تقام له الشعائر الدينية يوم الجمعة الحزينة في أورشليم. وأول من رتبه هم جماعة الفرنسيسكان منذ القرن الرابع عشر، ولا يعرف التقليد القبطي عنه شيئاً.

أجنبياً عند إخوتي...، وتعييرات معيريك وقعت علي...، نجني من الطين فلا أغرق، نجني من مبغضي ومن أعماق المياه، لا يغمرني سيل المياه ولا يبتلعني العمق، ولا تطبق الهاوية علي فاها...، أنت عرفت عاري وخزيي وخجلي، قداقك جميع مضايقي، العار قد كسر قلبي فمرضت، أنتظرت رقة فلم تكن ومعزين فلم أجد.» (مز٦٩:١-٢٠) [٤]

من دار حنان إلى دار قيافا، إلى دار هيرودس، إلى دار الولاية، من الداخل إلى الخارج، ومن الخارج إلى الداخل، مهانة تلو مهانة، ومن تعذيب إلى تعذيب، مصنفات من الضرب والتنكيل والفضيحة صنفتها قلوب رؤساء وخدام وجنود، أعظمهم من لم يعرف الرحة، وأقلهم وُلد فيها. جمعتهم جميعا قسوة الإنسان، وحركتهم طاعة الشيطان!

سار حاملاً عار الصليب، محمولاً بمجد الله، منحنيا تحت ذلة الخطاة، شامخا بعمل الخلاص. في الهيئة كإنسان، مُعسر فيه رؤساء اليهود، فقتلوه؛ وفي الحقيقة هو ابن الله، فارتاع منه قاضي الرومان، وعمل على إطلاقه. «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم، حتى يبصر الذين لا يبصرون، ويعمى الذين يبصرون» (يو٩:٣٩). لاهوته لم يفارق ناسوته، ليكمل ناسوته أشنع صنوف الألم والذبح، لنبلغ بهما الخلاص!

النسوة لم يحتملن منظره، فتوجعن، ولطمن، ونحن؛ «أما الرب فسر بأن يسحقه بالحزن» (إش٥٣:١٠)، وأما نحن فنعبده حاملاً الصليب ونسجد لجسده الممزق ودمه المسفوك، ونقبل جروحه التي بها شفينا وحيينا. ضعفه صار لنا قوة، وانحناؤه صار لنا استقامة، وسقوطه تحت الصليب صار لنا قيامة. خطواته على طريق الآلام صارت لنا طريقاً نعبر به من الضيق إلى السعة، ومن هوان الأرض إلى مجد السماء. فإن كنا نبكي، نبكي على خطايانا، التي حملته ثقل هذه الآلام، وكن حزننا حتما يتحول إلى فرح للخلاص.

«إلى الموضع الذي يقال له موضح الجمجمة ويقال له بالعبرانية جلجثة»: لقد اخترق الموكب، والمسيح في المقدمة، المسافة من دار الولاية (قلعة أنطونيا) حتى إلى ما بعد باب سور المدينة الشمالي الغربي الذي يدعى باب دمشق، وقديماً كان يسمى «باب إسطفانوس»، لأن خارج هذا الباب رجموا الشهيد الأول للمسيحية. أما بعد خروج المسيح من باب المدينة فكانت الحقول المتاخمة وطريق رئيسي، وهنا وبحسب رواية القديس مرقس، ثقل حمل الصليب على الجسد المنهك: «فسخروا رجلاً مجتازاً (نحو المدينة) كان آتياً من الحقل وهو سمعان القيرواني، أبو ألكنسدروس وروفس، ليحمل صليبه»(مر١٥:٢١)، وفي إنجيل القديس لوقا: «رجلاً قيروانياً كان آتياً من الحقل ووضعوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع وتبعه جمهور كثير من الشعب والنساء اللواتي كن يلطمن أيضاً وينحن عليه» (لو٢٣:٢٦-٢٧)

عندما نزل المسيح من فوق جبل الزيتون داخلاً الى أورشليم، بكى عليها لأنها لم تعرف زمان افتقادها. والآن، وهو خارج منها، هم يبكون لأنهم لم يعرفوا أن هذا هو زمان افتقادهم.

«موضع الجمجمة»: تقول المصادر التقليدية أن هذا الاسم يرجع إلى أن جمجمة أدم كانت مدفونة هناك. ويرجح العلماء أن هذا الاسم هو صفة لشكل المرتفع الذي كان يتم فوقه عمليات الصلب، إذ أن شكله الجغرافي (الأرضي) يشبه الجمجمة.

وكان الموضع خارج باب المدينة وبالقرب منها، على بعد دقائق: «لأن المكان الذي صُلب فيه يسوع كان قريباً من المدينة» (يو١٩:٢٠)، وكان المكان بقرب مدافن أخرى وعلى الطريق الرئيسي. وتقول أحد المصادر اليهودية أن

[٤] داود النبى كتب مزاميره قبل المسيح بألف سنة، وهو يصف صلب السيح هنا وصفاً هو الواقع بعينه.

هذا المكاذ بالذات كان مخصصا للرجم، وفيه توجد «مغارة إرميا». وكاذ المسطح المرتفع شبه هضبة، ولها شكل الجمجمة، تعلو قليلاً من الأرض المجاورة، حيث يوجد بستان، وفي البستان صار أقدس مكان على الأرض، مغارة جديدة منحوتة، هي التي استودع فيها يوسف ونيقوديموس الجسد الطاهر، وربما كان يملكها القديس يوسف الرامي كما سيجي ذكره.

١٩: ١٨ حَيْثُ صَلَبُوهُ وَصَلَبُوا اثْنَيْنِ آخَرَيْنِ مَعَهُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا وَيَسُوعُ فِي الْوَسْطِ.

«وكان المجتازون يجدفون عليه وهم يهزون رؤوسهم قائلين: يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام خلص نفسك إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب، وكذلك رؤساء الكهنة أيضاً وهم يستهزئون مع الكتبة والشيوخ قالوا: خلص آخرين، وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها. إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به. قد اتكل على الله فلينقده الآن، إن اراده، لأنه قال: انا ابن الله.» (مت٢٧: ٣٩-٤٣)

«فأرى الدم وأعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك» (خر١٢: ١٣)

القديس يوحنا يعبر على صلب المسيح عبوراً ، يذكر «الكلمة» فقط دون أي مزيد من الوصف أو التوضيح، إما لفظاعة الآلام، أو لرعبة المنظر، أو حتى لتعيير المعيرين، تماماً كما عبر على حادثة الجلد بذكر الكلمة فقط، مع أن الصليب هو قمة الحوادث كلها وقمة الآلام كلها .

والرومان هم وحدهم الذين جعلوا هذا العقاب على مستوى المجرمين الخطرين، وخصصوه بالأكثر للعبيد، وكانوا ينكلون بالمحكوم عليهم شر تنكيل. ويقول الخطيب شيشرون الروماني عن عملية الصلب: (إنها قسوة ورعب).

وللأسف كانت رجل اليهود قد انزلقت في استخدام هذه العقوبة قبل ذلك. فالمعروف في التاريخ، أن رئيس الكهنة ألكسندر حناؤس، سنة ٨٨ ق.م صلب ٨٠٠ شخصاً في وقت واحد. ولما جاء الإمبراطور قسطنطين الأول وقبل الإيمان المسيي، ألغى الحكم بالصلب وانتهى نهائياً من العالم بمنشور تحذيري.

لقد ورثت الكنيسة القبطية هذا المنهج الروحي الميتافيزيقي في التعبير والتصوير عن الصلب والألام. فمن أجل التقاليد القبطية المعروفة التي عبرت عنها بالتصوير، بإحدى الأيقونات القديمة، لصلب المسيح، أنها صورته وهو بكامل ملابسه، وليس بحالة العري كما يظهر في الصور الأجنبية التي دخلت خلسة إلى الفن القبطي بعد ذلك. كذلك، فإنه محظور في الفن القبطي التعبير عن آلام الشهداء بالتصوير. فأي صورة لأي شهيد، مهما كان نوع استشهاده، تصور والشهيد لابس ملابس بيضاء وعلى رأسه إكليل مرصع، وفي يديه سعفة نخيل رمز النصرة، دون أي إشارة فنية عن الألم الذي جازه. لأن الصلب لا يرى عند الروحيين، أو بالعين الروحية، في إطاره الجسدي المحدود، بل يُنظر بالمنظر المعقول أنه «موت لفداء» و«ألم لخلاص» و«بذل لحب» و«وضع للنفس لقيامة». وهكذا يمتنع، بحسب الفكر اللاهوتي السليم، أن يُنظر للصليب نظرة جسدية محصورة ومتوقفة فقط عند الآلام والعذاب، بل لا بد من الانطلاق بها فوراً لرؤية القيامة الكائنة فيه والحياة والغفران والمجد وبهجة الخلاص، حتى إن الكتاب المقدس نفسه عبر عن حادثة الصلب بالمجد: « ... لأن يسوع لم يكن قد مُجد بعد» (يو٧: ٣٩)، أي لم يكن قد صُلب.

وفي الحقيقة، نجد أن تراث الغرب التقليدي هو الذي يتمادى جداً، بل ويتوقف كثيراً عند الإحساس بالصليب، والحياة في آلامه، والتأمل في تعاذيب المسيح، وعبادة قلبه المطعون وجروحه الخمسة. أما التراث الشرقي فيحيا القيامة ويتوقف عندها كثيراً، ولا يرى الصليب إلا في نور القيامة. والى الآن كثير من الشرقيين، تحيتهم التقليدية اليومية

وعلى مدار السنة هي : «أخرستوس آنستى» أى «المسيح قام».

«وصلبوا اثنين آخرين معه، من هنا ومن هنا، ويسوع في الوسط»: «ما هذه الجروح في يديك؟ فيتول: هي التي جُرحت بها في يت أحبائي.» (زك١٣:٦)

«ثقبوا يدي ورجلي. أحصي كل عظامي، وهم ينظرون ويتفرسرن» (٢٢:١٦-١٧)

يقول عنهما كل من القديس متى والقديس مرقس إنهما كانا لصين: «وصلبوا معه لصين واحداً عن يمينه وآخر عن يساره، فتم الكتاب القائل: وأحصي مع أثمة» (مر١٥:٢٧-٢٨)، ويقول القديس لوقا إنهما: «صلبوه هناك مع المذنبين واحداً عن يمينه والآخر عن يساره» (لو٢٣:٣٣)، وكلمة «مذنب» لا تفيد «مذنب» بل «مجرم» وغير إشارة إشعياء المشار إليها في إنجيل القديس مرقس، يجب الإشارة هنا أيضاً إلى المزمور ٢٢:١٦ «جماعة من الأشرار اكتنفتني (أحاطوا بي)».

ويختص القديس لوقا وحده بسرد الحديث الذي دار بين اللصين وخاصة كلام اللص التائب: «أو لا أنت تخاف الله» (لو٢٣:٤٠)، وعجبي هنا على اللص الذي يخاف الله!! ثم بين التائب والمسيح الذي قال للمسيح: «اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك» (لو٢٣:٤٢)، وهي المقطع المحبوب الذي تسبح به الكنيسة في يوم الجمعة العظيمة أو الحزينة، ساعة ذكر الصلبوت، وتردده مرات ومرات، وكأن كل متعبد ينطق بلسان هذا اللص الطوباوي الذي سرق ملكوت السموات بعد سرقة العالم، ولكن كان فيه بارقة من خوف الله، قادته إلى التوبة. والكنيسة تناجيه أنه «الحلو اللسان والمنطق»، ثم توازن بينه وبين الذين عاشروا المسيح وتأملوا مجده على الجبل المقدس، وكيف أعوزهم هذا الإيمان وقت المحنة؛ وتقارن بينه وبين بطرس التلميذ المقدام، صاحب السيف المسلول، والذي سمع الصوت آتيا من المجد الأسنى: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت، له اسمعوا» (مت١٧:٥)، كيف أنكر بينما اللص آمن واعترف به وهوع لى الإقرانيون!! وفي التقليد القبطي يقال أن اسم هذا اللص «ديماس»، وقد رد المسيح عليه، فاستجيبت طلبته في الحال: «الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس» (لو٢٣:٤٣)، مما يوضح لنا بأجلى بيان، أن بالصليب افتتح المسيح الفردوس المفقود، واسترده لحساب الإنسان. وأن أول قدم وطئته كانت هي قدم هذا اللص الطوباوي «ملك التائبين» يسير وراء «ملك المجد». وكان هذا إيذاناً بدخول أفواج الخطاة التائبين من كل لسان وأمة وشعب!!

وفي الحقيقة تقدم الكنية القبطية هذا الفصل الكنسي رسمياً، مسنوداً بالألحان من الخورس على مدى وقت ليس بقليل، كدرس تعبيري ذي وزن عال، من جهة معنى انفتاح القلب بالإيمان البسيط الذي يورث الحياة الأبدية. الإيمان الذي لا يقوم على براهين ونصوص ومعرفة وعلم. فاللص، وهو في أشد محنته، آمن بالمسيح المصلوب معه، وهو على مستواه في نفس المحنة والمهانة وقسوتها! لا تعليم ولا إغراء ولا فهم ولا منطق، فهي ومضة من النور الحق، انفتح لها قلبه فرأى المسيح في مجده وفي مجيئه الآتي في ملكه. فنطق الفم، كان كما أحس القلب. كيف اشتهى أن يذكره المسيح مجرد ذكر وهو آت في مجد ملكوته، فكانت له شهوته وأعظم، إذ رافق المسيح في رحلته لانفتاح الفردوس المغلق، ولم تذهب نفسه إلى الهاوية، فكان أول الغالبين للموت والناجين من الهاوية وراء المسيح، لأنه كان أول من آمن بالقيامة والمجيء الثاني.

وفي تقليد الإنجيل بحسب القديس لوقا، كان هذا النطق الملكي للمسيح على الصليب هو النطق الثاني، لأن الأول قال فيه: «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.» (لو٢٣:٣٤).

أما لماذا لم يذكر القديس يوحنا حديث اللصين معا، وحديث اللص مع المسيح ورد المسيح عليه، فيقول العالم والمؤرخ الكنسي إدرزهايم اليهودي المتنصر إنه يبدو أن القديس يوحنا، وبعد أن سلم بيلاطس المسيح للعسكر للصلب، انطلق بسرعة إلى المدينة وأحضر الأم العذراء القديسة مريم وأختهاه ومريم زوجة كليوباس ومريم المجدلية. فلم يكن يوحنا حاضراً بداية عملية الصلب ولا الأم القديسة، ولهذا لا نجد في إنجيل القديس يوحنا ذكرا لأي من التعبيرات التي كان الشامتون يعيرون بها المسيح، سواء كانوا من رؤساء الكهنة أو الذين ساروا في موكبهم» فلم يذكر إنجيله شيئاً من ذلك قط، وهذا، بحد ذاته، يوضح لنا إلى أي مدى كان القديس يوحنا يعتمد على المشاهدة والسماع الشخصى في تسجيلاته.

١٩:١٩ وَكَتَبَ بِيلاَطُسُ عُنْوَاناً وَوَضَعَهُ عَلَى الصَّلِيبِ. وَكَانَ مَكْتُوباً: «يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ مَلِكُ الْيَهُودِ».

«عنواناً»: يلاحظ أن القديس يوحنا يستخدم الاصطلاح اللاتيني الرسمي. وكان من عادة الرومان أن يضعوا فوق رأس المصلوب لوحة بها اسمه وعلة صلبه، كما يتصح ذلك من إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس متى: «وجعلوا فوق رأسه علته مكتوبة هذا هو يسوع ملك اليهود.» (مت٢٧:٣٧)

ومن كلام القديس يوحنا يفهم العلماء، بحسب أصول اللغة، أنه يقصد أن بيلاطس كتب بنفسه هذا العنوان، ومن كلمة: «كتب» يفسرون أنه كتب هذا العنوان بعد أن شيعوا المسيح إلى المكان المعد؛ بل ويعتقدون أيضاً أن بيلاطس هو الذي أمر بصلب المسيح في الوسط .

وعلى كل حال، سواء كتابة العنوان أو الوضع الذي صُلب فيه المسيح، فبيلاطس عبر والى أخر لحظة عن المرارة والسخط الذي كان يشعر به طوال المحاكمة من اتهام اليهود، وخاصة لما ركزوا، بغير حق وبغير وعي، على كونه «ملك». فهو هنا ضرب سهمين في طلقة واحدة، فأصاب كرامة اليهود في الصميم، الأمر الذي احتج عليه رؤساء الكهنة بشدة، فقابل احتجاجهم بإصرار على ما كتب؛ والسهم الثاني ألغى به كل صدى لصراخهم من جهة استخدامهم هذا اللقب لتهديد بيلاطس لدى قيصر، فالآن «ملككم قد مات» وفرصتكم في الشكاية قد ماتت يضاً!

ولكن لا يستبعد بعض الشراح أن بيلاطس كان يكن للمسيح شعوراً فائقا، أراد أن يعبر عنه.

وهكذا، وبالنهاية، حقق بيلاطس رغبة قيافا التي ظل يحلم بها ويعمل لها: «أنتم لستم تعرفون شيئاً، ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمة كلها.» (يو ١١:٤٩-٥٠)ا

وهذه النبوة نفسها كانت، في وجهها المنظور لقيافا، أن يهلك المسيح هلاكاً لتنجو الأمة من الرومان، الأمر الذي أكمله بقتل المسيح بسكين الحقد والتشفي، وأهلك أمته، بحماقته، هلاكاً؛ لأنه لم يحسن الرؤيا ولم يفسر الحلم كدانيال المبارك، ولكنه كان كهامان الذي أعد الصليب ليصلب نفسه عليه.

أما في وجهها غير المنظور ليوحنا وللمسيح ولنا، فهي أن يقدم المسيح ذبيحة على مذبح محبة الله، فيقوم، لينجو من الهلاك من آمن من اليهود، ويخص العالم، ولا يهلك كل من يؤمن بهّ.

٢٠:١٩ فَقَرَأَ هذَا الْعُنْوَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ لأَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ يَسُوعُ كَانَ قَرِيباً مِنَ الْمَدِينَةِ. وَكَانَ مَكْتُوباً بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَاللاَّتِينِيَّةِ.

يُعتقد أن الرضع الأصح كما جاء في بعض المخطوطات أن اللاتينية قبل اليونانية.

كان المكان لا يبعد عن سور المدينة أكثر من بضع دقائق، وكان على الطريق العام المؤدي إلى دمشق. فبطبيعة

الحال قرىء من كثيرين» بل من عشرات الألوف، سواء الخارجين أو الداخلين إلى المدينة أو المسافرين نحو الشمال. ويلاحظ أن الوقت هو الفصح، وكان يؤم أورشليم عدة ملايين من اليهود الذين في الشتات من جميع أنحاء العالم، وبكل اللهجات واللغات. وهكذا حملوا معهم الأخباره وملأوا الدنيا ومهدوها للبشارة بالمصلوب الذي تعين بالقيامة من الأموات أنه ابن الله، ملك الملوك ورب الأرباب؛ حيث صار الصليب هو هو عرش النعمة الذي نستمد منه القوة والخلاص والحياة، بل وبه ويمن عليه، نملك معه.

أما ترتيب اللغة التي كُتب بها العنوان هنا، فهو بحسب التقليد الرسمي: أولاً اللغة الوطنية التي تخص البلد (العبرية)، ثم لغة الدولة الرسمية (اللاتينية)، ثم اللغة العامة (اليونانية). وفي الحقيقة، فإن هاته اللغات الثلاث توافق لغة «الدين» ثم لغة «المجتمع» ثم اللغة «الفكرية». وكأنما كان عمل الرومان حتى وفي صلب المسيح أن يمهدوا للكرازة بالمسيح على مستوى العالم بمستوياته الثلاثة: الدينية والاجتماعية والفكرية.

وكانت قد بدأت حركة تنوير العالم بكل ممالكه وفرض اللغة اليونانية على جميع البلاد، كلغة رسمية للتكلم بها، والتعامل مع الحكومات الرومانية المحلية. كما بدىء بشق الطرق العامة الرئيسية لتربط ممالك الدنيا كلها مع روما، ومن هنا جاء المثل المشهور: كل الطرق تؤدي إلى روما!، بل وعلى كل طريق وَضعت العلامات التي تدل على عدد الفراسخ التي تبعد عن قلب روما من أول الطريق حتى نهايته. كل هذه، كانت الدولة الرومانية جادة في تنفيذه، وكأنما كانت تمهد للكرازة بملكوت الله في العالم كله.

٢١:١٩ فَقَالَ رُؤَسَاءُ كَهَنَةِ الْيَهُودِ لِبِيلاَطُسَ: «لاَ تَكْتُبْ: مَلِكُ الْيَهُودِ بَلْ: إِنَّ ذَاكَ قَالَ أَنَا مَلِكُ الْيَهُودِ».

لأول مرة يكتب القديس يوحنا «رؤساء كهنة اليهود»، وكأنما يضعها القديس يوحنا في مستوى ملك اليهود.

لقد أدركوا في الحال، وربما قبل أن يُعلق العنوان على الصليب، أن بيلاطس قصد تسجيل تهمتهم على أنها حقيقة رغماً عن أنفهم. قابلوه محتجين وبلغة شبه آمرة: «لا تكتب»، اللهجة التي قابلها بيلاطس بجفاء ظاهر وتعالي الحاكم الآمر.

ويلاحظ في المقابلة بين ما كتبه بيلاطس بخصوص كلمة «ملك» إذ وضع لها أداة التعريف (أل) والنسب معاً لليهود: «الملك الخاص باليهود» ليجعل منه الشخصية الملكية الاول. فكان احتجاج اليهود وطلبهم أن يكتب «ملك» بدون أداة التعريف، ليعطوها صفة الإدعاء وليس الحقيقة: «قال أنا ملك». وكأنما أراد بيلاطس أيضاً، ومن جهة أخرى، أن يجردهم من طملقهم الكاذب، ونسبهم المزعوم لقيصر: «ليس لنا ملك إلا قيصر»، ولكن لا هذا ولا ذاك!!.

٢٢:١٩ أَجَابَ بِيلاَطُسُ: «مَا كَتَبْتُ قَدْ كَتَبْتُ».

إن تعالي بيلاطس في الرد وعناده في عدم التغيير، يعبر عن وقفة الحاكم الروماني المعتد بعمله الرئاسي. ولكن وراء صوت بيلاطس الحاكم، كان صوت الحكومة الأعلى التي تُملي ماذا ينبغي أن يكتب التاريخ، وماذا يسجل؛ لأن من فوق الصليب هذا، ومن تحت هذا العنوان عينه، طالب المسيح بملكه الحقيقي. فقد نصب المسيح نفسه على الصليب ملكاً بجدارة، إلى أبد الآبدين: «دُفع إلّي كل سلطان في السماء وعلى الأرض» (مت١٨:٢٨). ولم تكن الكتابة التي كُتبت إلا إعلانا ثابتا أبديا، أملاه بيلاطس على كل ممالك العالم، ليسود ويملك على العالم، وبكل لغة! «ما كتبت قد كتبت»، «أحتى الآن لا تفهمون.» (مت١٦:٩)

٢- المرافقون للصليب (١٩:٢٣-٢٧)

١٩:٢٣-٢٤ ثُمَّ إِنَّ الْعَسْكَرَ لَمَّا كَانُوا قَدْ صَلَبُوا يَسُوعَ أَخَذُوا ثِيَابَهُ وَجَعَلُوهَا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ لِكُلِّ عَسْكَرِيٍّ قِسْماً. وَأَخَذُوا الْقَمِيصَ أَيْضاً. وَكَانَ الْقَمِيصُ بِغَيْرِ خِيَاطَةٍ مَنْسُوجاً كُلُّهُ مِنْ فَوْقُ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لاَ نَشُقُّهُ بَلْ نَقْتَرِعُ عَلَيْهِ لِمَنْ يَكُونُ». لِيَتِمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: «اقْتَسَمُوا ثِيَابِي بَيْنَهُمْ وَعَلَى لِبَاسِي أَلْقَوْا قُرْعَةً». هَذَا فَعَلَهُ الْعَسْكَرُ.

«إلهي إلهي لماذا تركتني ...، كل الذين يرونني يستهزئون بي. يفغرون الشفاه، ويغضون الرأس، قائلين، اتكل على الرب، فلينجه، لينقذه لأنه سر به.....، كالماء انسكبت. انفصلت كل عظامي، صار قلبي كالشمع، قد ذاب في وسط أمعائي. يبست مثل شقفة قوتي ولصق لساني بحنكي ...، جماعة من الأشرار اكتنفتني، ثقبوا يدي ورجلتي، أحصى كل عظامي، وهم ينظرون ويتفرسون في، يقسمون ثيابي بينهم، وعلى لباسي يقترعون» (مز٢٢:١-١٨)

«العسكر»: هم عساكر الرومان، الذين تحت إمرة بيلاطس خاصة. بعد أن انتهوا من رفع المسيح، جلسوا تحت الصليب يقتسمون الغنيمة. ومن النص يبدو أن الجو كان بارداً، إذ أن المسيح كان يلبس أربعة أنواع من الثياب، منها ما كان على الرأس وحول الكتف، ومنها ما يدثر به فوق الجسد، ومنها الملابس الداخلية، وتحتها كان يلبس قميصا منسوجا نسيجا واحدا بغير خياطة. هذه كلها، جردوه منهاى وبقي ما يستر جسده فقط. لأنه وان كان الرومان قد اعتادوا أن يصلبوا ضحاياهم عرايا تماما (كما نرى تماثيلهم التي نحتها أشهر مثاليهم)، إلا أنه في الشرق، وعند اليهود، كان محظورا حسب الناموس أن يُعرى المحكوم عليه من كل ملابسه.

ويصف العلامة اليهودي المتنصر إدرزهايم بشيء من التفصيل، ومع ذكر الأسماء كل أنواع هذه الملابس.

كان عدد العساكر أربعة، فكان من السهل تقسيم الملابس الخارجية، وهي تنطق بالعبرية «لابوس»، أما القميص فهو ثوب رئيس الكهنة، وهو قصير إلى الركب فقط: «وفي وسط السبع المنائر شبه ابن إنسان، متسربلا بثوب إلى الرجلين، ومتمنطقا عند ثدييه بمنطقة من ذهب» (رؤ١:١٣)، وهو، بحسب وصف إدرزهايم، ثمين جدا، وهو الذي يلبسه رؤساء الكهنة لأنه خاص بالنذيرين، وهو منسوج من أوله إلى آخره بغير قطع ولا خياطة. وهذا الطقس بدأ به موسى أيام خدمته، فكان يلبس مثل هذا الثوب الأبيض بدون خياطة، ويخدم به أمام الله.

وهكذا ذهب المسيح، كرئيس كهنة، بملابسه المستورة في الداخل إلى الصليب، ليباشر تقديم الذبيحة. ولأنه هو الحمل، نُزع عنه الرداء وهو صامت أمام من يجزه!!

«فقال بعضهم لبعض: لا نشقته، بل نقترع عليه لمن يكون»: لقد أطال الشراح قديماً وحديثاً الحديث عن هذا القميص، واتفقوا على أنه يمثل الكنيسة التي لا تنقسم، كقول القديس كبريانوس، الذي يضيف أنه «منسوج كلة من فوق»، أي أن وحدة الكنيسة مقررة ومعانة من فوق، من الله، وليس لإنسان أن يمزقها. ويزيد على ذلك العالم بولتمان، وهو غير تقليدي، فيقول على ضوء الأبحاث والتعاليم الرابية في التلمود وغيره، إن هذا الثوب هو مثل الثوب الذي صنعه الله لآدم، وأعطى مثله لموسى ليخدم به. ويقول آخرون، إنه مئل قميص يوسف الخاص الذي أعطاه له أبو علامة الحب، الذي نزعه من عيه إخوته ولطخوه بالدم، ثم ألقوا قرعة على يوسف نفسه، يموت أولا يموت.

ولكن بهذه الأعمال التي كان يقوم بها العسكر في غير اكتراث، وبالمنظر الدامي أمامهم وكأنهم بلا شعور إنساني،

كانوا مدفوعين، يوقعون أعمالهم على صوت داود النبي الآتي من وراء الزمان كلمة كلمة، كما قالها في المزمور الثاني والعشرين أعلاه.

«هذا فعله العسكر»: لفتة لتأكيد الفعل: تقسيم الثياب والقاء القرعة، والفاعل «العسكر»، ورده إلى المستوى التاريخي والنبوي، بشيء من الضمان الشخصي كشاهد عيان.

ولا يفوتنا هنا، في أسلوب القديس يوحنا، كيف يوزع في ختام المشهد الأدوار التي قام بها كل فريق حسب نوع عمله، ويرده إلى النبوة الخاصة به، وكمن يوقع الحوادث على النبوات.

فالأول: بيلاطس (كملك) يكتب ما يخصه: «هذا هو ملك اليهود» إعلاناً للعالم كله.

والثاني: رؤساء الكهنة: «ينبغي أن يموت إنسان واحد عن الشعب»، وبهدمهم هيكل جسده، هدموا هيكل عبادتهم.

الثالث: اللص. قدم التوبة مُعلناً عن أول ثمرة للصليب: «اليوة تكون معي في الفردوس». وهو أول نطق ملكى من فوق عرش الخلاص.

الرابع: العسكر؛ اقتسموا ثيابه، وألقوا قرعة على القميص، اكتفوا من اللؤلؤة بصندوقها.

الخامس: النسوة؛ أتين ليقدمن مشاركتهن القلبية بعواطف النساء، كمندوبين فوة العادة عن البشرية التي في المسيح: «يا آمرأة».

السادس: التلميذ الذي كان يحبه؛ في صمت، قدم ما يجب أن يقدم من أمانة التلمذة للمعلم الذي «أحبهم إلى المنتهى».

السابع: المسيح يسوع؛ «يا أمرأة هوذا ابنك ... هذه أمك». البشرية التي في المسيح تُسلم الأمانة لمن يستحقها، وسر «الكلمة صار جسداً»، يستودعه المسيح للكنيسة.

١٩:٢٥ وَكَانَتْ وَاقِفَاتٍ عِنْدَ صَلِيبِ يَسُوعَ أُمُّهُ وَأُخْتُ أُمِّهِ مَرْيَمُ زَوْجَةُ كِلُوبَا وَمَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ.

كان الذين يحيطون بالصليب نوعين من الناس: نوع العسكر الذين يقومون بوظيفتهم الكريهة، ومعهم رؤساء الكهنة والمعيرون، ومعهم جوقة الهتافة الملازمين لهم، يرددون أصواتهم، وربما بالثمن. .

أما النوع الثاني، فكانوا واقفين على بعد، في بدء عملية الصلب، ولكن بعد أن خفت جدة العملية وتفرق رؤساء الكهنة ومن معهم، لأن الساعة التاسعة كانت بالنسبة لهم من أحرج الساعات التي يتحتم عليهم أن يكونوا فيها داخل الهيكل يؤدون وظائفهم من جهة الصلوات وإعداد خراف الفصح. فلما ابتعد الأعداء، اقترب الأحباء، وهن النسوة اللاتى أحضرهن يوحنا ووقف معهن يحرسهن.

وكن مجموعتين: المجموعة الأقرب للمسيح، وهن مريم الأم العذراء القديسة، وأختها. والمجموعة الثانية، مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية. هذا الترتيب والتفصيل بين الأسماء، أخذ به أكثر العلماء تدقيقاً، ومنهم العالم والأسقف وستكوت.

ويوضح لنا هذا الترتيب بالنسبة للنسوة الثلاث القديس متى هكذا: «وكانت هناك نساء كثيرات ينظرن من بعيد، وهن كن قد تبعن يسوع من الجليل، يخدمنه، وبينهن مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب ويوسى، وأم ابني زبدي، (مت٢٧:٥٥-٥٦). فإذا طابقنا هذه الأسماء على الأسماء الواردة في إنجيل القديس مرقس: «وكانت أيضاً نساء ينظرن من بعيد، بينهن مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب الصغير، ويوسي وسالومة» (مر١٥:٤٠). بهذه المقارنة يتبين لنا أن أم ابني زبدي هي سالومة. وهي التي جاء ذكرها في إنجيل القديس يوحنا مع القديسة مريم هكذا:

«واختها»، ونحن نعلم أسلوب القديس يوحنا في ذكر الأسماء، فهو يمتنع نهائيا في إنجيله عن ذكر اسمه أو اسم أمه، أو حتى اسم أم المسيح.

والأمر المحير للعلماء هو أن ذكر «مريم المجدلية» يجيء هنا مفاجأة باعتبارها شخصية معروفة دون إشارات سابقة! أو أي تفسير.

و يلاحظ أيضاً أن القديس يوحنا حرص على وصف مريم أنها زوجة كلوبا، بدل أن يقول مريم أم يعقوب ويوسي، لئلا يظن من جهة «يعقوب» أنه أخو القديس يوحنا. كذلك نجد أن القديس مرقس حرس أن يصف يعقوب بالصغير، لئلا يُظن أنه يعقوب أخو القديس يوحنا. لأنه كان يوجد شخصان باسم «يعقوب»، واحد منهما، وهوالأكبر سناً هو يعقوب ابن زبدي، أخو القديس يوحنا. كذلك، ولأن القديس متى أورد اسم «ابني زبدي»، فلم يجد ضرورة أن يصف يعقوب بـ «الصغير».

والملاحظ كذلك أن القديس يوحنا يسلك في ترتيبه لذكر الأسماء سلوكاً إنجيلياً واعياً، فيجعل القديسة مريم الأساس، ويضيف إليها «أختها» إضافة دون أن يذكر اسمها لأنها أمه، ولأنه يبدو أن القديسة مريم العذراء لم يكن لها إلا أخت واحدة، هي أم يوحنا.

وبعد ذلك، يذكر مريم الأخرى زوجة كليوباس، وآخر الكل يضع مريم المجدلية، مع أن كلا من القديس متى والقديس مرقس يضعها في المقدمة لما كان يبدو أنها ذات أهمية وتقوى كثيرة بين النسوة.

ويقول كل من «وستكوت» و«هنجستبرج» و«إدرزهايم»، ومعهم شراح كثيرون، أن كلوبا أو كليوباس، هو حلفائوس أو «حلفى» الذي ورد اسمه في إنجيل القديس متى، كوالد لأحد التلاميذ المدعو يعقوب، المدعو هنا بالصغير: «فيلبس وبرثولماوس توما ومتى العشار يعقوب بن حلفى ولباؤس الملقب تداوس.» (مت١٠:٣)[٥]

أي أن المريمات الثلاث اللاتي كن عند الصليب، هن: مريم القديسة العذراء أم المسيح، ومريم أم يعقوب الصغير أحد التلاميذ وهي زوجة كلوبا أو كليوباس، ومريم المجدلية.[٦]

وفي نهاية عملية الصلب وانفضاض معظم الملتفين حول الصليب، تسنى للعذراء مع القديس يوحنا الاقتراب من الصليب فصارا في مواجهة المسيح.

١٩ :٢٦ فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أُمَّهُ وَالتِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ وَاقِفاً قَالَ لِأُمِّهِ: «يَا امْرَأَةُ هُوَذَا ابْنُكِ».

بعد أن انجلت الظلمة التي خيمت على الأرض حزناً على قتل النور الذي انحجب عن قلوب صالبيه، وقفت العذراء القديسة مريم تحت الصليب، مصلوبة!! تشخص نحو ابنها، وسيف يجوز في نفسها، كما سبق وأنبأت به نبوة سمعان الشيخ، حينما كانت تحمل ابنها طفلاً، وهي تدخل الهيكل لتكمل عنه القرابين!! «وباركهما سمعان، وقال لمريم أمه: ها إن هذا قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل، ولعلامة تقاوم، وأنت أيضاً يجوز في نفسك سيف، لتعلن أفكار من قلوب كثيرة» (لو٢:٣٤-٣٥)لاوهلا). لقد كانت على علم سابق بما هو حادث أمامها الآن، فالمسيح سبق ووعاها بكل ما سيحدث له، كما قال لتلاميذه، حتى إذا كان، تستطيع من وراء حزنها أن تدرك سر الذبيحة والخلاص والمجد. لم تكن آلام المسيح غريبة عنها، فلحمه من لحمها ودمه من دمها، وسر القداسة وحد الآلام بينهما. لم نسمع أنها صرخت، كما لم نسمع أنه صرخ. فالآلام امتصها الجسد، والروح هيمنت، فكان الصمت

[٥] حسب التقلديد الكاثوليكى فإن يعقوب بن حلفى هو اخو يهوذا الغير اسخريوطى وهما ابنى حلفى الذى هو شقيق يوسف النجار خطيب العذراء مريم - ميشيل

[٦] حسب التقليد الكاثوليكى مريم المجدلية هى مريم أخت لعاذر الذى اقامه الرب يسوع من بين الأموات - ميشيل

وكان الهدوء.

هذه هي الأم، هذه هي المرأة الوحيدة من بين كل الناس التي شاركت المسيح آلام صليبه! حول الصليب تجمع الشامتون والحاقدون، ولم يكن أحد يذرف دمعة إلا هذه الأم، التي بكت بالدمع المتواصل! لقد نابت عن البشرية في وداع فاديها.

يلاحظ أن إنجيل يوحنا يستظهر هنا على الأناجيل الثلاثة في أمر النسوة حول الصليب. فبينما نجد الأناجيل الثلاثة يلخصون موقف النسوة في نهاية مشهد الصليب باختصار، ويتفقون على أنهن كن ثلاثا فقط، وكن واقفات على بعد يشاهدن فقط، ولم يذكروا حضور العذراء القديسة مريم؛ نجد أن إنجيل يوحنا ينفرد بالعدد أربع من النسوة، ويقسمهن إلى قسمين: اثنتان منهن قريبات وأخصاء للمسيح، أمه وأخت أمه، واثنتان ذوات صلة التلمذة فقط وهما مريم أم أحد التلاميذ، يعقوب الملقب بالصغير، ومريم المجدلية.

كذلك ينفرد إنجيل يوحنا بذكر العذراء مريم، ويذكرنفسه التلميذ المحبوب، وكيف اقتربا من الصليب، فكانا على مستوى النظر والسماع والكلام للمسيح المرتفع على الصليب. وظهور القديسة مريم العذراء فجأة مع القديس يوحنا، يوضح ببيان أن القديس يوحنا ترك مشاهد الصلب الاولى، وأسرع بإحضار الأم الحزينة، لإحساسه الذي لم يخب قط بما يريد المسيح أن يقوله لأمه، ككلمة وداع أخيرة يستودع بها أنبل وأقدس قلب بعد قلبه. إن الإنسانية، في المسيح، تؤدي دور بنوتها المخلصة للأمومة. وهذا لم تسجله الأناجيل الثلاثة، لأن القديس يوحنا وحده فقط كان هو الحاضر، وهو وحده الذي سجل هذا الحضور.

«التلميذ الذي كان يحبه»: إن وضع هذه الصفة لهذا التلميذ في هذا المكان والزمان يئبىء في الحال بما سيكلفه به المسيح.

«يا أمرأة»: أعطى المسيح لأمه صفتها الاولى: «يا امرأة»، والمسيح يرفع البشرية، التي منها أُخذ، من صفتها الخاصة به كأمه، إلى مستواها العام للانسان ككل،أمنا. فهي، بموته، تأخذ صفة الأمومة للتلميذ، وبالتالى للكنيسة كلها. فالمسيح هنا لا يسلم أمه باعتبارها الخاص به وحده، بل يسلم، فيها، البشرية التي قبلت، من أجله، قوة العلي وتقدست بحلول الروح القدس فيها ليأخذ منها ابن الله الوحيد القدوس جسده المعلق الآن على الصليب، والمزمع أن يحتل يمين العظمة لله. فكما أن الجسد المقدس صار جسدنا، هكذا ينبغي أن الأم التي حملت به وولدته، تصير أمنا.

المسيح هنا يرد الأم، المرأة المولود منها، إلى صفتها الطبيعية «امرأة»، ولكن في وضعها الجديد، الذي يعلو فوق حواء الأولى علو المسيح عن آدم .

نحن لا نولد الآن من مريم العذراء، نحن نولد بالروح من المسيح، ونعيش بالروح من الجسد الإلهي بدمه الإلهي والروح الأزلى الذي فيه. ولكن كل من يولد من المسيح بالروح، يحمل في ولادته الروحية الجديدة علاقة المسيح بالأم التي ولدته بالجسد حتماً.

إذ كان كل ابن لآدم يولد الآن، وله علاقة متسلسلة حتمية «بحواء»، فهذه «المرأة حواء» هي أم عامة لأجسادنا، فكيف نولد الآن من المسيح ولا تكون لنا علاقة «بالأم العذراء،» التي ولدته. هذه «المرأة مريم» هي أم عامة لأرواحنا. والمسيح بقوله لمريم العذراء أمه: «يا امرأة» يضعها في مستواها الروحي العام للإنسان عامة؛ كأم ليوحنا التلميذ المحبوب أولاً، وكأم لكل من أحب المسيح وأحبه المسيح بالتالى.

«هوذا ابنك»: إن العذراء القديسة مريم لم يكن لها أبناء قط إلا المسيح، وهوذا المسيح يهبها يوحنا ابناً بالتبنى، عوضاً عنه، يسند قلبها المكسور.

المسيح لم يختر العذراء مريم لتكون أما له، بل لقد تعينت أما له من السماء بقوة يمين العلي وروحه القدوس. فمن السماء، اتخذها أماً، وتعينت لذلك مسبقاً بوعود، وتقديس، ونبوات، رآها إشعياء النبي: «ها العذراء تحبل، وتلد ابنا، وتدعو اسمه عمانوئيل» (إش٧:١٤). إنها ثمرة قسم إلهي صدر من فم العلي، أن تخرج من نسل داود في الميعاد ليملك الخارج من أحشائها ملكه الأبدي. والذي بشرها بالحبل الإلهي ملاك، والذي حضر الولادة ملاك.

وإن كان المسيح، بهذه اللفتة: هوذا ابنك»، قد رفع القديس يوحنا إلى مرتبة الاخوة بالنسبة لنفسه، أي للمسيح: «لا يستحي أن يدعوهم إخوة» (عب٢:١١)، فكيف نستحي أن ندعى أمه أمنا؟

كذلك لا ننسى أن القديسة مريم الذ راء هي من أصل يسى، من جذر داود، التي بواسطتها يستمد المسيح علاقته بداود والأبا، كابن له: «أوصنا لابن داود» (مت٢١:٩)، ومنها يستمد المسيح علاقته بالقسم إلذي أقسم به الله لداود من جهة مملكته الأبدية: «أقسم الرب لداود بالحق لا يرجع عنه، من ثمرة بطنك أجعل على كرسيك» (مز١٣٢:١١)، «حيذ كلمت برؤيا تقيك... وجدت داود عبدي، بدهن قدسي مسحته... أنا أيضاً أجعله بكرا أعلى من ملوك الأرض... وكرسيه مثل أيام السموات... والشاهد في السماء أمين.» (مز٨٩:١٩-٣٧)

معنى هذا، أن القديسة مريم العذراء هي الصلة القائمة والدائمة بالجسد بالأباء والأنبياء والسماء، التي يستمد المسيح عبرها كل وعود الله لداود والأنبياء كافة. فكأنما تسليم القديسة العذراء مريم «ام» المسيح إلى يوحنا ليكون هو ابنها ولتكون هي «أما» له، هو بمثابة تسليم العهد القديم بمواعيده الصادقة والأمينة التي تحققت في المسيح ليوحنا، وبالتالي للكنيسة» لتكون للكنيسة، كما كانت مريم العذراء للمسيح، صلة حية ثابتة ودائمة بكل ميراث وتراث الآباء والأنبياء، وتكون الكنيسة الجديدة بمثابة الابن بالتبني (للعهد القديم)، الابن الذي ورث من أمه أمجادها وتراثها وهي محفوظة ومصونة في كنفه.

إن وصية المسيح كآخر وصية، وهو على الصليب، هي ومضة النور التي ربطت العهدين.

١٩:٢٧ ثُمَّ قَالَ لِلتِّلْمِيذِ: «هُوَذَا أُمُّكَ». وَمِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ أَخَذَهَا التِّلْمِيذُ إِلَى خَاصَّتِهِ.

«أخذها التلميذ إلى خاصته»: إلى صميم رسالته، إلى علية صهيون ويوم الخمسين، إلى الكرازة منذ لحظتها الأولى.

كان القديس يوحنا مرتبطاً بالقديسة مريم أم المسيح برباط الدم، فهو ابن أختها سالومة. فكان أقرب إليها بالروح وبالجسد من إخوة الرب الذين كانوا إخوة من يوسف خطيب مريم[٧]، أي إخوة ليس بالدم ولا حتى بالنسب، لأن يوسف لم يتزوج العذراء بل ظل خطيبها فقط، يرعاها حتى مات. وهوذا القديس يوحنا يأخذ دور يوسف في الرعاية مرة أخرى.

الله يرفع الأمومة والبنوة بارتفاع المسيح على الصليب من مستوى الدم واللحم، إلى مستوى الوحدة الروحية لبناء الكنيسة، الكنيسة التي بنُيت على الأمومة الإلهية والبنوة الرسولية. والملاحظ أن المسيح لما ارتاح إلى هذا الإجراء الذي صنعه، وكان آخر إجراء من إجراءات الخلاص، قال: «قد أكمل».

القديس أفرام السرياني يتغنى بأشعاره، في القرن الرابع، وهو يتأمل العذراء القديسة تحت أرجل المسيح المصلوب

---

[٧] أخوة الرب هم أبناء شقيق القديس يوسف النجار المدعو «حلفى» وذلك حسب التقليد الكاثوليكى ... ميشيل

واقفة، فيراها صورة متجلية للكنيسة. ويضيف قائلاً: كما أن موسى عين يشوع ليرعى الشعب من بعده، هكذا، وبصورة ما، عين المسيح يوحنا، ليرعى أمه العذراء، أي الكنيسة، من بعده.

«ومن تلك الساعة، أخذها التلميذ إلى خاصته»: كان للقديس يوحنا منزل في أورشليم، ولو أن إقامته كانت في الجليل؛ وذلك حسب تحقيق كثير من العلماء. ولقد نفذ التلميذ الوصية في الحال، فلم تحضر العذراء الساعة الأخيرة ولا يوحنا، وذلك عن قصد، لأنها كانت ساعة لا تطيقها مشاعر الأم. لقد أسرع بها يوحنا إلى بيته، ولهذا نجد أن وصف القديس يوحنا للساعات الأخيرة للصلب مختصر، فهو كان غائباً في البداية، ولم يحضر عند إنزال الجسد.

يلاحظ هنا أهمية هذا التسجيل بالنسبة لعقيدة الكنيسة بخصوص عذراوية القديسة مريم أم المسيح، فهنا يمعن الآباء العظام القديسون أثناسيوس وابيفانيوس وإيلاريون، في اتخاذ تسليم العذراء ليوحنا البتول وليس لإخوة الرب أو لأي أحد أخر، برهاناً واضحاً هادئاً رزيناً كون العذراء لم يكن لها أولاد سوى المسيح ابنها وابن الله.

والمعروف بحسب التقليد، أن القديسة مريم العذراء بقيت مع القديس يوحنا تمارس حياة التقوى والشهادة في أورشليم مدة إحدى عشرة سنة بعد موت الرب، وتنيحت عن ٥٩ سنة. ومكان قبر القديسة العذراء مريم يقع في وادي قدرون. ولما جاءت الملكة هيلانة، بُنت عليه كنيسة. والكنيسة الموجودة الآن بناها الصليبيون.

كما يوجد تقليد أخر، أن العذراء رافقت القديس يوحنا في سفره إلى أفسس وعاشت ودُفنت هناك، لأنه يوجد حتى الآن، في تركيا الحديثة، على أحد التلال الواقعة على بعد خمسة أميال من سلقوك، وهي أزمير أصلاً، واسم التل بانايا كابيولو، قبر للعذراء القديسة يحكي في صمت وإصرار أن العذراء رافقت يوحنا في كل مكان ذهب إليه.

٣- النهاية: قد أكمل (١٩:٢٨-٣٠)

الموت الإرادى

٢٨:١٩ بَعْدَ هَذَا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ فَلِكَيْ يَتِمَّ الْكِتَابُ قَالَ: «أَنَا عَطْشَانُ».

«لصق لسانى بحنكى» (مز٢٢:١٥)

«وفى عطشى يسقوننى خلاً» (مز٦٩:٢١)

إذ أكمل المسيح رغبته في تسليم أمه إلى يوحنا، وبعد أن أكمل الإطار الكلي للخلاص حسب الترتيب الذي بدأه: «وهو عالم بكل شيء» ، والآن رأى، وصحتها علم، أن كل شيء قد كمل.

«كل شيء قد كمل»: يلاحظ المقابلة بين قول القديس يوحنا «قد كمل»، وقول المسيح بعد ذلك «قد أُكمل»، وهي نفس اللفظة. وقد اهتم القديس يوحنا، منذ البدء، بمقابلة كل أحداث الآلام بما جاء عنها. في النبوات، حاسباً ذلك شهادة ذات وزن إنجيلي عال للغاية. والآن، يؤكد أنه لكي يتم الكتاب، يورد هنا قمة الآلام ونهايتها: أي قول المسيح:«أنا عطشان». والقديس يوحنا هو الوحيد الذي سجل هذا القول للمسيح، الذي به يدرك العالمون ببواطن الأمور، وخاصةالأطباء، ماذا يعني: «أنا عطشان» بالنسبة للمسيح الذي لم يتأوة أو يشتكي من أي ألم سابق في أنواع العذاب التي صادفها، بل يصفه الواصف كما تنبأ عنه النبي، أنه «كشاة سيق للذبح، ولم يفتح فاه». ولكنه هنا لم يستطع، بل فتح فاه اضطراراً، كإنسان بلغ به العذاب ما بعد أقصاه، لأنها لحظة الاحتضار الحتمي، لفقدان كل الدم، حيث بلغ الإحساس بالعطش إلى مراكز المخ العليا، التي لا يمكن لإنسان التحكم فيها. وهنا، العطش

يحمل داخله قمة «كل شيء»، أي كل التعذيب اللائق بالخلاص، الذي يوازنه «قد أكمل»، لأن وراء العطشى القاتل لا يتبقى إلا تسليم الروح.

يلاحظ هنا أن القديس يوحنا ضمن القول: «رأى يسوع أن كل شيء قد كمل»، كل ما سبق وسجله الإنجيليون الثلاثة، سواء من جهة التعيير من كل فئة، أو من جهة ساعات الظلمة الثلاث وانشقاق حجاب الهيكل، والزلزلة، وشهادة رئيس الجند، وقول المسيح: «ألوي ألوي لما شبقتني»، وتفسير الجموع الخاطىء لهذا القول. لأن تركيز القديس يوحنا كان على شخص المسيح نفسه، وعلى ما فات على الإنجيليين تسجيله من أقواله وهو على الصليب.

وكل شيء قد أكمل، في نظر المسيح، يعني أن كل ما يلزم لذبيحة الخلاص وتقديمها أمام الآب قد استوفاه لقيام حياة جديدة للانسان. فقد أُكملت خليقة السماوات الجديدة والأرض الجديدة ليسكن فيها البر، على نمط ما صنعه الله بالكلمة في البدء حينما «أُكملت السموات والأرض وكل جندها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل» (تك٢:١-٢)، وهوذا المسيح قد فرغ للتو، في اليوم السادس، ليدخل راحته في اليوم السابع أيضاً ليستريح من كل أعماله التي عمل.

لقد استجابت الطبيعة لكلمة المسيح: «قد أكمل». فابتدأ العالم القديم يعطي إشاراته أنه تداعى أمام العالم الجديد الذي خلق، فتزلزلت الأرض، وتشققت الصخور، لأن صخر الدهور المقتطع بغير يد من لحم الإنسان ودمه، صار هو الجبل الذي يملأ العالم والسماء، وهو الذي سحق العالم الوثني سحقاً مع رؤساء وسلاطين عالم الظلمة، كما تداعى النظام القديم للعبادة المرتبطة بالعالم القديم، فانشق حجاب الهيكل من أعلى إلى أسفل، وكأنها ومضة من السماء أتته من فوق لتلغي وجوده، لما انشق جنب «الحجاب الجديد»، أي جسده، ليفتح عالم الله على الإنسان، وليصير طريقاً للعبور إلى قدس أقداس الله. وانحل سلطان الموت لحظة قبول المسيح للموت في داخله، فظفرت به الحياة التي فيه، وحاصرته، وأطبقت عليه، وسحقته سحقاً، فبطل عمله. وتفتحت القبور وخرجت أجساد الراقدين، تستقبل فجر اليوم الجديد الذي صنعه الله لأزمنة الخلاص (مت٢٧:٥٢-٥٣).

هذا التكميل أو التتميم فهمته الكنيسة، كما قاله المسيح تماماً: «وأقوال الأنبياء التي تقرأ كل سبت، تمموها، إذ حكموا عليه، ومع أنهم لم يجدوا علة واحدة للموت، طلبوا من بيلاطس أن يُقتل، ولما تمموا (أكملوا) كل ما كُتب عنه، أنزلوه عن الخشبة، ووضعوه في قبر» (أع١٣:٢٧-٢٩). يلاحظ القارىء في هذه الآية صدى قوياً لتسجيل القديس يوحنا، وبنفس الكلمات، فهو تقليد كُتب قبل أن يكتب يوحنا إنجيله.

لقد كانت مسرة الرب أن يعمل في السبوت، والآن قد أكمل تعاليمه، بل وآلامه، قبل أن يلوح السبت ليدخل، ونحن معه، إلى راحته الأبدية في سبت الله الروحي.

١٩:٢٩ وَكَانَ إِنَاءٌ مَوْضُوعاً مَمْلُوّاً خَلاًّ فَمَلَأُوا إِسْفِنْجَةً مِنَ الْخَلِّ وَوَضَعُوهَا عَلَى زُوفَا وَقَدَّمُوهَا إِلَى فَمِهِ.

هذا الإناء يذكره فقط القديس يوحنا، كذلك نوع هذا الخل، وهو نوع من النبيذ الفاسد، يشربه العسكر لرخصه. ولكن وجود إسفنجة وقصبة أو زوفا خاصة لرفعها، يعني تماماً أنها جزء من ترتيبات الصلب كلها، كانت موجودة ومعدة لمثل ذلك العمل. فالوعاء للاسفنجة، والإسفنجة للوعاء، لأنه يستحيل إعطاؤه كأساً ليشرب[٨]. وقد اشتركت الأناجيل

[٨] يقول العالم جون ليون موريس في كتابه: «الإنجيل بحسب القديس يوحنا» ص ٨١٤ نقلاً عن آخرين أن من تقاليد قوانين السنهدريم

كلها في ذكر هذا المشهد، ولكن القديس يوحنا هو الوحيد الذي يقول أنه قبل أن يشرت. وواضح أن تقديم الخل كان عملاً فيه نوع من الرحمة، وليس المقصود به المضايقة.

٣٠:١٩ وَكَانَ إِنَاءٌ مَوْضُوعاً مَمْلُوّاً خَلاًّ فَمَلأُوا إِسْفِنْجَةً مِنَ الْخَلِّ وَوَضَعُوهَا عَلَى زُوفَا وَقَدَّمُوهَا إِلَى فَمِهِ.

هنا يذكر الكتاب أن المسيح رضي أن يشرب من الخل. أما في بداية الصلب، كما جاء في إنجيل القديس متى (٣٤:٢٧)، رفض المسيح المشروب المخدر حينما قدموه إليه، وكان خلاً ممزوجا بمرارة، ليلطف من آلام الجسد المبرحة، ولكن المسيح جاء «ليذوق الآلام لأجل الكل» وقد «لاق ... أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام» (عب٢:١٠)، و«ينبغي أن المسيح يتألم بهذا» (لو٢٤:٢٦). وأخيراً، ذاق الخل ليستطيع أن ينطق الكلمة الأخيرة: «قد أكمل»، ويكمل الكتاب القائل: «وفي عطشي، سقوني خلاً.» (مز٦٩:٢١)

وواضح في إنجيل القديس يوحنا، أن المسيح أسلم الحياة وهو في ملء الحياة، ومالكاً لكل قواه. وتم قوله: «ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي، لى سلطان أن أضعها، ولى سلطان أن آخذها أيضاً» (يو١٠:١٨). وإن كان المسيح قد طلب هنا أن يشرب، فلكي يستطيع أن ينطق الكلمة الأخيرة، بصوت عال كما جاء في الأناجيل الأخرى، لهذا قيل: «فلما أخذ ... قال».

«قد أكمل»: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته.» (يو١٧:٤)، إنها صرخة النصر الأخيرة، فقد أكمل عملاً، يشق على أي كاتب ماهر أن يصفه، بل يشق على أي تصور أن يصفه. لم يستطيع القديس يوحنا، بكل ما كان له من وعى إنجيلي ورؤيوي أن يزيد على هذا كلمة، أو يشرح ما تحتويه بكلمة. ففي ظنه أن كتب الأرض لا تسعها، ولا الأرض تسع الكتب إذا كُتبت. فقد أكمل عملاً أخذه من الآب، وأكمله بكل شروطه التي عرفناها والتي لم نعرفها بعد، أن ينزل من الحضن الآبوى، ويلبس عار الإنسان عوض النور الذي يلبسه. وأن يصير في الهيئة كعبد، ويتضع تحت أرجل عبيده، أن يأخذ خطية الإنسان أخذاً، لتدخل جسده دخولاً، فيقبل بها اللعنة قبولاً! فيصبح بالخطية واللعنة قابلاً للمذلة، متقبلاً للاذلال، ومستحقاً للموت، بسبب ما وضعه على نفسه، لا بسبب ما وضعه عليه الآخرون. منظوراً للناس كأنه مستحق الضرب والإذلال، وهو مضروب ومذلول بسبب ما أخذه عنا. ومن واقع ما حمله من شر الإنسان، طمع فيه الشيطان، إذ وجد له فيه مدخلاً وليس مأخذاً! لأنه من الداخل، كان ما كان، نور ليس فيه ظلمة البتة، قدوس بلا عيب ولا شر.

زحف عليه الموت حتى غطاه، عن حق وعدالة، لأن الخطية التي لبسها واللعنة التي صار إليها هما والموت رفيقان وصنوان لا يفترقان! فلا يمكن أن يؤخذ واحد ويُترك الأخر، فأخذهما كليهما ليوفي بالواحد كيل الآخر! فبالموت، داس الموت، لما داس الخطية، وبالحياة والقداسة التي له، انفصل عن الخطية والخطاة، وارتفع إلى أعلى السموات، بعد أن صنع تطهيراً أبدياً لخطايانا، وجلس في يمين العظمة في الأعالي (عب١:٣).

قام، حقا قام، ولكن لم يكن في ذلك عجب، لأن القيامة كانت فيه، قبل أن يموت، وفي الموت، وما بعد الموت، فهو

المعمول بها منذ القدم: (إذا اقتيد أحد من الناس للقتل، فإنه يُعطى جرعة من الخمر مذاباً فيه قطعة من اللبان (المر) حتى تتخدر حواسه. لأنه مكتوب: «أعطوا مسكراً لمن سيهلك، وخمراً لمري النفس. يشرب وينسى« (أم٣١:٦). وقد صار التعليم أن النساء الشريفات في أورشليم كن تعودن أن يقمن بتقديم هذا).

الحي الأزلي الذي لا يموت. ولكن العجب العجاب والمعجزة الكبرى أن يموت من هو حقاً «القيامة والحياة». يقولون إنه مات بالجسد! ولكن، وحتى هذا الجسد، كيف يموت وهو الذي وُلد من الروح القدس، ومن عذراء تقدست بالروح القدس؟ فله جسد بلا خطية، وعاش ولم يقبل أن يدخل على جسده خطية، فأعلن المسيح إعلاناً: «من منكم يبكتني على خطية؟» (يو٨:٤٦)، متحدياً لا الأعداء، بل فكر الإنسان؟ فكيف يموت جسد مثل هذا، والموت هو استحقاق الخطاة: «لأن أجرة الخطية هي موت»؟ (رو٦:٢٣)؟ هنا معجزة المسيح والصليب والموت. فلولا أنه أخذ منا عنصر الموت، أي الخطية، وقبله في جسده قبولاً، وارتضى بملء إرادته أن يقف من الله أبيه موقف الإنسان المتعدي عوض المتعدين، ليقبل منه التخلي مع من قبلوا التخلية من الله، لا شكلاً، بل بالحقيقة، وإلا ما استطاع أن يلطمه عبد رئيس الكهنة، ولا أن يبصق في وجهه أعضاء السنهدريم، ولا أن يهزأ به العسكر، ولا أن يمدوه على الصليب، ولا أن يتجرأ عليه الموت ويدخل إلى أعماقه!!

أن يموت المسيح بالحقيقة، فليست هذه معجزة الإنسان، بل معجزة الله، أن يبذل ابنه الوحيد بذلاً، ويتركه للموت تركاً، بل ويسحقه بالحزن سحقاً! ومعجزة موت المسيح كلها، هي معجزة حب وقداسة. حب الله للعالم الساقط واللاهي عن سقوطه! وقداسة المسيح التي ألبسها الخطية والموت لبساً! فحب الله الآب للإنسان وازن ثقل الصليب والآلام لابنه الحبيب، فتعادلا، وفاض الحب ولا يزال فائضاً! وقداسة المسيح وازن «عنصر» الخطية في «الإنسان» بكل صنوفها وقبحها، وفي الناس جيعاً، كل الناس، فرفعها عن كاهل الإنسان، بل محتها محواً، بعنصرها القاتل، كما من جسد المسيح المقام، كذلك من كل جسد في المسيح يؤمن بمن مات وقام! فهذا الخلاص «قد اكمل» «وتم الفداء».

«ونكس رأسه»: وصحتها «أمال»، أو «أحنى» رأسه، الذي لم يكن له أين يسند رأسه، أسندها أخيراً على الصليب كما على حضن الله. لأنه «كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا، ويدخل إلى مجده» (لو٢٤:٢٦)، «لأن الذي دخل راحته، استراح هو أيضاً من أعماله، كما الله من أعماله.» (عب٤:١٠)

«وأسلم الروح»: رآه إشعياء، بالنبوة، في هذا المنظر عينه: «أنه سكب للموت نفسه» (إش٥٣:١٢). لم تؤخذ روحه منه كبشر؛ بل سكب هو، بنفسه، روحه بإرادته، كمن يذبح ذبيحة ويسكب روحها مع دمها. هكذا المسيح قبل سفك دمه بيد الذابحين، أما روحه فسكبها بيده في يد الآب سكبياً. فأسلمها له تسليماً، كمن يستودع وديعة، هو وشيك أن يستردها: «يا أبتاه في يديك أستودع روحي.»» (لو٢٣:٤٦)

والآن، يليق بنا أن نسترجع من إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى، ما قاله المسيح على الصليب. هي سبع كلمات:

ما قبل الظلمة التي جاءت على الأرض:

١- «يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.» (لو٢٣:٣٤)

٢- «الحق الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس.» (لو٢٣:٤٣)

٣- «يا امرأة هوذا ابنك ... هوذا أمك.» (يو١٩:٢٦)

أثناء الظلمة:

٤ – «إيلي إيلي لما شبقتني.» (مت٢٧:٤٦؛ مر١٥:٣٤)

بعد الظلمة:

٥- «أنا عطشان» (يو ١٩:٢٨)
٦- «قد اكمل» (يو ١٩:٣٠)
٧- «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي.» (لو٢٣:٤٦)

هي سبع كلمات لم يحوها إنجيل واحد بأكملها، ولكن الأربعة معاً احتووها، لتخرج لنا هكذا، باتحاد الأصوات، كما من قيثارة بيد داود!

٤- طلبان يُقدمان إلى بيلاطس
يستجيب لهما فى الحال

الأول: طلب تكسير السيقان للتعجيل بالموت (١٩:٣١-٣٧).

٣١:١٩ ثُمَّ إِذْ كَانَ اسْتِعْدَادٌ فَلِكَيْ لاَ تَبْقَى الأَجْسَادُ عَلَى الصَّلِيبِ فِي السَّبْتِ لأَنَّ يَوْمَ ذَلِكَ السَّبْتِ كَانَ عَظِيماً سَأَلَ الْيَهُودُ بِيلاَطُسَ أَنْ تُكْسَرَ سِيقَانُهُمْ وَيُرْفَعُوا.

«المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا، لأنه مكتوب ملعون كل من عُلق على خشبه» (غل٣:١٣) ينفرد القديس يوحنا بسرد دقائق هذه الحادثة، ويركز كثيراً على أهميتها بشهادته .

«الأستعداد»: هو اليوم السادس من الأسبوع في العادة. الآن «اليهود»، ويقصد بهم القديس يوحنا أعضاء السنهدريم، وهم لا يزالون يناورون، وقد تمموا شهوة حقدهم، واكملوا تزييف قضية القتل حتى النهاية؛ سبقوا وذهبوا إلى بيلاطس يطالبون بضرورة إنزال الجسد من على الصليب تتميماً لحرفية الناموس: «واذا كان على إنسان خطية حقها الموت، فقُتا، وعلقته على خشبة. فلا تبت جثته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم. لأن المعلق ملعون من الله. فلا تنجس أرضك التي يعطيك الرب إلهك نصيباً.» (تث١٢:٢٢-٢٣)

ولأن في ظنهم، لن يموت المسيح سريعاً، وهكذا يدخل (السبت) اليوم التالي للصلب فتتنجس به الأرض وهو معلق، طلبوا مسبقاً بكسر سيقان الكل، أي المسيح واللصين، ليعجلوا من الآن بموته. وواضح من هذاء الإتجاه إلى مزيد من التشفي لكسر ساقيه وهو حي!! بالإضافة إلى الاطمئنان إلى أنه يموت أيضاً ميتة لا قيام منها حينماتُكسر ساقاه! وكان الطلب، ولو أنه لا يدخل في صلاحية القانون الروماني ويمكن رفضه، إلا أن بيلاطس وافق عليه.

وكلمة «الاستعداد» تجوز على يوم ما قبل السبت كما تجوز على يوم ما قبل العيد، فالثلاثة الأناجيل أخذوها بمعنى الاستعداد للسبت، أما القديس يوحنا فأخذها بالاعتبارين، أي اعتبار السبت، ولأن هذا السبت هو المحسوب أول أيام الفطير وهو «عيد الفطير» اعتبر يوم هذا السبت عظيماً: «سبعة أيام تأكلون فطيراً، اليوم الأول تعزلون الخمير من بيوتكم. فإن كل من أكل خميرا من اليوم الأول إلى اليوم السابع تُقطع تلك النفس من إسرائيل. و يكون لكم في اليوم الأول محفل مقدس. وفي اليوم السابع محفل مقدس. لا يُعمل فيهما عمل ما، إلا ما تأكله كل نفس، فذلك وحده يُعمل منكم.» (خر١٢:١٥-١٦)

السبت العظيم: كان لا بد أن يأتي هذا السبت هكذا عظيماً، ليس على مستوى أيام طقس اليهود بعد، بل على أزمنة الخلاص، وكل ساعاته مقبولة، لأنه كان لا بد أن يدخل المسيح بعد عناء الصليب وتكميل الرسالة الشاقة جداً إلى راحة سبته العظيم، الذي أشرقت شمسه في السماء وليس على الأرض، ليبقى سبتاً إلهياً إلى أبد الأبد. لم يُخلق سبت، منذ أن خُلق الزمن والى أن يزول الزمن، مثل هذا السبت الذي دخل فيه المسيح إلى راحته وأدخلنا

معه حيث لا زمن بعد، بل حياة أبدية وسيرة مقدسة مكتوبة مفرداتها في السموات: «فلنخف أنه، مع بقاء وعد بالدخول إلى راحته، يرى أحد منكم أنه قد خاب منه ... فلنجتهد أن ندخل تلك الراحة.» (عب٤:١و١١)

ويوم الاستعداد يبدأ من مساء الخميس، من الساعة السادسة وحتى الساعة السادسة مساء يوم الجمعة عشية السبت. وبعض الشراح الذين ينحازون لتوقيت الثلاثة الأناجيل الزمني، يعتبرونه يوم ١٥ نيسان، مثل بولتمان وكثيرون»، وآخرون يعتبرونه ١٤ نيسان اليوم الذي يُذبح فيه الفصح، والذي صُلب فيه المسيح، مثل وستكوت وريمون براون وآخرون كثيرون، حيث يوم ١٦ نيسان يكون أيضاً عيدا رسمياً هو عيد ترديد حزمة الباكورة، أي باكورة القمح: «وكلم الرب موس قائلاً: كلم بني إسرائيل، وقل لهم: متى جئتم إلى الأرض التي أنا أعطيكم وحصدتم حصيدها، تأتون بحزمة أول حصيدكم إلى الكاهن، فيردد الحزمة أمام الرب للرضا عنكم، في غد السبت يرددها الكاهن.» (لا٢٣:٩-١١)

وهذا السبت هو السبت الأول بعد الفصح. أما «غد السبت» بالنسبة للمسيح ولنا، فهو عيد القيامة، حيث قدم المسيح نفسه للآب كباكورة من بين الراقدين، كحصاد وفير جداً لحبة الحنطة التي ماتت يوم الجمعة!! فعندما كان رئيس الكهنة وزمرته منهمكين في استلام باكورات الشعب منذ فجر الأحد، والشعب كله مسرع إسراعاً لتقديم باكوراته، كان المسيح قد قام وقدم نفه باكورة، وابتدأ يجمع أول حزمة من حصيده من المريمات والتلاميذ، ليرفعها ويرددها على المذبح الناطق السمائي، رائحة بخور تدخل إلى عظمة الآب السمائي.

ويلاحظ أن كلا من إنجيلي القديس مرقس والقديس يوحنا يتفقان، كل واحد مع الأخر، في كون المسيح صُلت يوم الجمعة، وهو يوم الاستعداد: «ولما كان المساء، إذ كان الاستعداد، أي ما قبل السبت، جاء يوسف الذي من الرامة مشير شريف، وكان هو أيضاً منتظراً ملكوت الله، فتجاسر ودخل إلى بيلاطس، وطلب جسد يسرع» (مر١٥:٤٢-٤٣). ولكن يتفق إنجيل القديس متى مع القديس لوقا في أن ذلك اليوم كان ١٥ نيسان، أي ثاني يوم ذبح الخروف، في حين أن إنجيل يوحنا يؤكد في مواضح كثيرة، كما سبق وذكرنا، أن المسيح يوم الفصح ١٤ نيسان.

«لكي لا تبقى الأجساد على الصليب»: كان القانون الروماني يمعن في التشهير بالمجرمين، فكان يُبقي على أجسادهم معلقة على الصلبان ربما لأيام، وحتى لكي تفتك بها طيور السماء، وذلك عبرة للمجرمين، ولزيادة هيبة القانون. ولكن الناموس اليهودي يمنع ذلك، باعتبار أن من عُلق على خشبة هو ملعون من الله، فإذا بقي على الخشبة لثاني يوم فإنه ينجس الأرض، أي أرض إسرائيل! «فلا تبت جثته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم، لأن المعلق ملعون من الله. فلا تنجس أرضك التي يعطيك الرب إلهك نصيباً.» (تث٢١:٢٣)

«أن تُكسر سيقانهم»: كانت الآلة التي تكسر بها السيقان مطرقة خشبية ثقيلة. وكانت هذه العملية بحد ذاتها عملاً وحشياً، لا يطيق الإنسان النظر إليها، وكانت الآلام الناتجة لا يمكن وصفها. وكان هذا الإجراء عقوبة قائمة، بحد ذاتها، عند الرومان، والآن أرفقوها بالمصلوب. ولكنهم بالنسبة للمصلوب المعلق الذي تتعذب روحه من طول فترة النزع الأخيره ربما كان يُحتسب هذا عمل رحمة (أعتقد أنها حتى للحيوان لا تعتبر رحمة). والمعروف أن المصلوب قد يمكث على الصليب في نزعه الأخير ربما إلى أيام. لهذا نجد أن بيلاطس، في إنجيل القديس مرقس، يتعجب كثيراً من سرعة موت الرب على غير العادة.

وفي العادة، لم تكن تكمل الوفاة بتكسير السأقين، فكان يجري على المصلوب ما هو معروف في القضاء بالضربة القاضية من أجل الرحمة بحد السيف، أو بضربة عنيفة تحت الإبط والذراع ممدودة أو بطعنة حربة مصوبة للقلب

لتقضى في الحال على المتألم. وهذه كانت تعتبر ملحقات لعقوبة الصلب ، لتقليل زمن النزع للموت.
واليهود اختاروا سحق العظام للساقين. ولكن احتراسهم الشديد جداً للقضاء على المسيح، جعلهم حتى وبعد موته يستوثقون من غرضهم بطعنة الحربة.

١٩: ٣٢ فَأَتَى الْعَسْكَرُ وَكَسَرُوا سَاقَيِ الأَوَّلِ وَالآخَرِ الْمَصْلُوبَيْنِ مَعَهُ.

العسكر كانوا أربعة، فكان لكل مصلوب حارسه. بهذا تفهم لماذا ذكر اللصان أولاً مع أن المسيح في الوسط. فكل حارس كمل الأمر الصادر إليه، فلما جاء الحارس المنوط بحراسة المسيح، رأى أنه مات، فامتنع عن إجراء الكسر. وهكذا كُسرت ساقا اللص المجدف والتائب كليهما. فالعالم لا يستطع، في صب غضبه، أن يفرق بين البار والشرير، فحادثة واحدة تحدث لكليهما: لواحد تٌحسب له نقمة، ولآخر تُحسب له نعمة، لواحد يأخذها كأجر، والآخر يأخذ عنها الأجر!!

١٩: ٣٣ وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمَّا جَاءُوا إِلَيْهِ لَمْ يَكْسِرُوا سَاقَيْهِ لأَنَّهُمْ رَأَوْهُ قَدْ مَاتَ.

«لأنهم رأوه قد مات»: الرب مات سريعاً! هذا كان موضع تعجب بيلاطس، الذي أراد أن يستوثق من هذه الحقيقة، فاستدعى قائد المائة، وسأله وتحقق فعلاً أنه مات: «فتعجب بيلاطس أنه مات كذا سريعاً، فدعا قائد المائة، وسأله: هل له زمان قد مات؟» (مر ١٥: ٤٤)
إن كان القديس بولس اشتهى أن ينطلق وهو صحيح وسليم يدب على الأرض، فكم تكون نفس الرب بعد هذا العذاب المرير، لقد كان الموت بيده كما كانت الحياة، فلما استوفى متطلبات الموت وعلاماته، وأكمل نزيف الذبيحة بالقدر الذي يكفي لخلاص العالم، اكتفى الرب بهذا الحد وانطلق: «إنه خير لكم أن أنطلق» (يو ١٦: ٧)، فلماذا التأخير في إتيان الخير؟
النفس بقدر تعلقها بالعالم، والأهل والأحبة، ومسرات الدنيا، تتعوق في الجسد كثيرا، لا تشاء أن تفارقه، والرب أنهى معركته مع العالم، وسلم الأم للحبيب، وكانت أمامه في الأعالي مسرات عظمى تنتظره، فلماذا التعوق على الأرض؟ ويقدر ما كانت أعمال الأرض الكثيرة، التي أعطاه الآب ليكملها، تشده كما يشد الجوع والعطش الإنسان للجرى وراء الأكل، بقدر ما أسرع في فك الربط عنها، لما أكملها حتى النهاية، كالشبعان الذي يزهد الأكل في النهاية: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو ٤: ٣٤)، «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته» (يو ١٧: ٤)، «قال قد أكمل ونكس رأسه وأسلم الروح.» (يو ١٩: ٣٩)
وكل إنسان يسلم الروح، تتنكس رأسه عن غير إرادة. أما يسوع فنكس رأسه أولاً، ثم أسلم الروح، هذه بإرادته وتلك بإرادته، ليبقى سيدا على الموت لما يستقبله. فقد استدعى المسيح الموت، ومات، كما يستدعي الإنسان النوم وينام: «لى سلطان أن أضعها»، «ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي» (يو ١٠: ١٨). فالموت، فى اعتبار الرب، ليس أكثر من نوم تعقبه اليقظة: «لعازرحبيبنا قد نام، لكني أذهب لاوقظه... وكان يسوع يقول عن موته، وهم ظنوا أنه يقول عن رقاد النوم. فقال لهم يسوع حينئذ علانية: لعازر مات» (يو ١١: ١١–١٤). وذهب، وبالفعل أيقظه!... وداود في المزمور لم ير في موت الرب وقيامته معاً إلا كنائم ثمل من الخمر استيقظ فجأة: «فاستيقظ الرب كنائم كجبار معيط (ملتهب) من الخمره فضرب أعداءه إلى الوراء، جعلهم عاراً أبدياً» (مز ٧٨: ٦٥–٦٦)، «لماذا تطلبن الحي بين الأموات، ليس هو ههنا، لكنه قام.» (لو ٢٤: ٥–٦)
وبعدما سلم المسيح أمه لتلميذ سبق فأحبته، وسلم الجسد لفريسى سبق وولده مع غنى له قبر، سبق فأعدوه،

حينئذ انسل من الجسد الميت، لمهمة أخرى كانت تنتظره، إذ «ذهب فكرز للأرواح التي في السجن.» (١بط٣:١٩)

١٩: ٣٤ لَكِنَّ وَاحِداً مِنَ الْعَسْكَرِ طَعَنَ جَنْبَهُ بِحَرْبَةٍ وَلِلْوَقْتِ خَرَجَ دَمٌ وَمَاءٌ.

«فينظرون إلي الذي طعنوه وينوحون عليه كنائح على وحيد له.» (زك١٢:١٠)

«ويكون في ذلك اليوم أن لا يكون نور... ويكون في ذلك اليوم أن مياهاً حية تخرج من أورشليم، نصفها إلى البحر الشرقي ونصفها إلى البحر الغربي... ويكون الرب ملكاً على كل الأرض» (زك١٤:٦-٩)

لقد كان ذلك ليستوثق الحراس من صحة موت المسيح. وكان الطعن بالحربة إحدى الوسائل القانونية للاجهاز على المحكوم عليهم بالموت للتعجيل بالموت. ولكن يد النبوة كانت هي التي حركت هذا الشك في قلب ذلك العسكري ليتتم ما كان مقضياً به على الأرض.

«الحربة»: وهي الحربة التي نراها الآن في أيدي الجنود الخيالة. وطعنة الحربة تخترق الجسم بسرعة شديدة، فهي مدببة الطرف، حادة إلى أتصى حد. ويقول العلماء أنه لكي تصل إلى القلب وتمزقه، وهذا هو الفرض الأساسي من الطعن، يلزم أن تأتي الضربة من اليمين إلى اليسار. وهذا هو ما تسلمناه بالتقليد تماماً، فالمتوارث عند الآباء أنه طُعن في جنبه الأيمن.

«وللوقت خرج دم وماء»: «الذى أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه.» (رؤ١:٥)؛ «وقد غسلوا ثيابهم وبيضوا ثيابهم في دم الخروف.» (رؤ٧:١٤)

اهتمام القديس يوحنا لهذه الحقيقة بشهادة موثقة من الحق، جعل الآباء ينظرون إليها نظرة روحية ولاهوتية خاصة. لأن اشتغال القديس يوحنا الأساسي هو الشهادة للاهوت المسيح، وأول وأهم معنى لخروج الدم والماء من جسد المسيح الميت هو الأمر الذي يخالف طبيعة الإنسان، هذا يعنى أن الجسد مات، ولكن لم ير فساداً وبالتالي فهو جسد ابن الله حقاً.

+ فخروج الدم والماء معاً شيء، وخروج الدم له معناه، ثم خروج الماء له معناه أيضاً.

+ فخروج الدم والماء معاء يذكرنا بكأس العشاء، وهو كأس الإفخارستيا[٩] الممزوج. فنحن هنا أمام صورة حية لذبيحة ميتة، على مستوى التحقيق البشري، بالرؤيا العينية، والمعاينة الفاحصة، وشهادة شهود جنود متمرسين في القتل. وفي نفس الوقت، ذبيحة حية عل المستوى الفائق على الطبيعة، فينبوع الدم والماء، ولو أن له الشكل والقوام والمادة الطبيعية، ولكنه في مناسبة وفي وضع يخالف كليا وبصورة قاطعة كل دلائل الموت الطبيعي وعلاماته التي تمت وكملت. فالحياة هنا التي يتحرك بها الدم والماء، هي حياة فائقة عن علامات الحياة الطبيعية للدم. إذن، فهي جسد ميت بحسب الإنسان، وهي، وبآن واحد، ذبيحة حية ناطقة على المذبح الناطق السمائي، بحسب الإيمان، تعلن أنه قد تم الفداء، وأن العقوبة اُستكملت، فتم الغفران أيضاً. فالموت بآلامه قبل بكل شروطه من الحي الذي لا يموت، وبه استطاع البار أن يبرر كثيرين.

كذلك، نحن هنا أيضاً أمام صورة حية طبق الأصل من ليلة العشاء: «هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا» (مت٢٦:٢٨). فخروج الدم والماء من جسد المسيح الميت، هو بمثابة ينبوع الحياة الأبدية الذي انفتح على الكنيسة على يد القديس يوحنا وبشهادته. فالكأس الذي قدمه المسيح ليلة العشاء،

---

[٩] «(الحكمة) ذبحت ذبحها، مزجت خمرها، أيضاً وتبت مائدتها... هلموا كلوا من طعامي، واشربوا من الخمر التي مزجتها» (أم٩:٢-٥)

بعد أن قسم ومزق الجسد، والدم فيه على مستوى السر، استعلنه اليوم والجسد ممزق (مكسور) بالفعل، والدم مسفوك بالحق. فهناك إفخارستيا علنية، وهنا إفخارستيا علنية مشروحة.

+ أما خروج الدم بحد ذاته، سائلاً يسيل ويجري، ويخضب الجسد، فهذا علامة الحياة ولا شك، ولكن أي حياة؟ فدم المسيح هو «بروح أزلى»، «فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلى قدم نفسه لله، بلا عيب يطهر ضمائركم من أعمال ميتة، لتخدموا الله الحي.» (عب٩:١٤)

وعلى خروج «الدم» من جنب المسيح المطعون، ورثنا صلاة القسمة السريانية التي يقولها الكاهن وهو «يقسم الجسد»:

هكذا بالحقيقة تألم كلمة الله بالجسد، وذُبح وأحنى رأسه على الصليب، وانفصلت نفسه من جسده، أما لاهوته فلم ينفصل قط لا من نفسه ولا من جسده، وطُعن بالحربة وجرى منه دم وماء غفرانا لكل العالم، وتخضب بهما جسده وأتت نفسه واتحدت بجسده، وعوض الخطية المحيطة بالعالم مات الابن بالصليب وردنا من التدبير الشمالي إلى اليمينى، وأمن بدم صليبه وألف السمائيين مع الأرضيين، والشعب مع الشعوب والنفس مع الجسد، وفي ثالث يوم قام من القبر، واحد هو عمانوئيل وغير مفترق إلى طبيعتين من بعد الأتحاد، وغير منقسم إلى طبيعتين، هكذا نؤمن وهكذا نعترف وهكذا نصدق، أن هذا الجسد لهذا الدم، وهذا الدم لهذا الجسد، أنت هو المسيح إلهنا الذى طُعن فى جنبه فوق الجلجثة بأورشليم لأجلنا، أنت هو حمل الله الحامل خطية العالم، اغفر ذنوبنا واترك خطايانا وأقمنا عن جانبك اليمين. (القسمة السريانية)

بهذا المعنى يقدم لنا العالم وستكوت، بكل جرأة، وهو أسقف كرسي درهام بإنجلترا، وكان أحد لوردات مجلس العموم في زمانه، يقدم لنا هذا التفسير بهذا المعنى:

(نحن نؤمن أنه من اللحظة التي مات فيها المسيح بدأ جسد الرب يأخذ استعداده بالتغييرات التي انتهت باستعلان القيامة. وأن خروج الدم والماء من جنبه، يلزم أن يعتبر كعلامة حياة من موت. وهي تكشف عن حقيقة بشريته، وبمعنى سري، دوام الحياة البشرية فيه. فهو، ولو أنه ميت، فهو ميت بالنسبة لحياتنا المائتة، إلا أن الرب كان حيا، وبينما كان معلقاً على الصليب أعلن علنا أنه ينبوع لقوة التطهير والحياة التي كانت تتبعه حياً وميتاً.)

+ وأما خروج الماء بحد ذاته، فهو يذكرنا في الحال بقول الرب: «من آمن بي، كما قال الكتاب، تخرج من بطنه أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه» (يو٧:٣٨-٣٩). إذا، أصبح خروج الماء من جنب المسيح، هو بالحري أعظم تعبير عن الروح الذي أُستعلن منسكباً من جسد المسيح الميت! وهل مات المسيح إلا لكي يعطينا حياته؟ إذن، فالماء الذي خرج من جنب المسيح كان يحمل الحياة. ونحن لو تأملنا في سر المعمودية، باعتباره سر الموت مع المسيح، لانتبهنا في الحال أننا في المعمودية ننال الاغتسال الروحي بالماء، الذي خرج من جنب المسيح الميت الحامل للحياة. أي أننا، إذ نموت معه، ننال الحياة من سر الماء لنحيا كما هو حي. فى المعمودية هو سر موت مع المسيح، لحياة مع المسيح. وبمعنى آخر هو ولادة جديدة؛ لأن الولادة الجديدة، الثانية، تحتم موتاً مسبقاً للولادة الاولى. وموت هذه الولادة اللحمية ماته المسيح من أجلنا، حتى نجوز مباشرة بموته إلى الولادة الثانية الروحية، أي نحيا معه. هكذا نفهم أن الماء الخارج من جنب المسيح، هو حقاً خارج من جسد ميت، ولكنه حقاً بالحقيقة مُحيي وحامل الحياة الجديدة لميلاد الإنسان الجديد. فهو أعظم تعبير لاهوتي عن سر المعمودية.

ونقدم هنا بعض تفسيرات للأباه القديسين والعلماء الأولين:

أولاً: الشرقيون:

١- كلوديوس أبوليناريوس: هو قديس تعيد له الكنيسة الغربية إلى الآن في ٨ يونيو، عاش في القرن الثاني سنة ‎>١٧٠‎ وله كتابات وصلت إلينا أسماؤها وبعض محتوياتها، ولكن معظمها ضاع. كان مدافعاً قوياً عن الإيمان، له دفاع قوي ضد ماوكوس أوريليوس، ويعتبر أول من شرح معنى خروج الدم والماء، وقد نسبهما إلى الكلمة، كلمة الإنجيل، والروح التقديسي، بمعنى أنهما شهادة تاريخية وسرية.

٢- أويجانوس: مصري سكندري (١٨٥-٢٥٤). وهو عالم لاهوتي وشارح للانجيل (وله أخطاء مأخوذة عليه). وقد أخذ عنه القديس جيروم رأيه في الدم والماء أنهما علامتا حياة في الجسد الميت: (في كل الأجساد الميتة يتجمد الدم ولا يخرج منها ماء نقي. ولكن نجد في المسيح العجيبة في جسده، أنه وحتى بعد الموت كان في الجسد دم وماء، خرجا من جنبه).

٣- كيرلس الأورشليمي: نسب الدم والماء إلى نوعي المعمودية، معمودية الماء ومعمودية الدم: (إن المخلص إذ قد فدى العالم بالصليب، لما طُعن في جنبه، أعطى الدم والماء حتى إن البعض في أيام السلام يعتمدون بالماء، والأخرين في أيام الاضطهاد يعتمدون بصبغة دمائهم، أي بدم موتهم).

٤- يوحنا ذهبي الفم (عظة ٨٥): (ليس كأنه بدون سبب أو كأنها صدفة أن يخرج هذان من جنب المسيح. ولكن لأن الكنيسة تأسست بهذين معاً. والذين انفتحوا على الإيمان يعلمون هذا، إذ أنهم وُلدوا ثانية من الماء، وأُطعموا من الدم والجسد. إذا، فهذان السران ابتدأ من هنا، حتى حينكا تتقرب إلى الكأس المقدس الرهيب، تعلم أنك تشرب في الحقيقة من ذات الجنب المطعون).

٥- القديس كيرلس الإسكندرى: (إن الرب قد عين هذه الحقيقة لتكون هي الصورة الأولى لسر الأولوجيا (الإفخارستيا) وسر المعمودية المقدسة. لان المعمودية المقدسة هي بالحقيقة من المسيح ابتدأت، وبالمسيح تُكمل، وقوة الأولوجية المقدسة تنبع لنا من جسده المقدس).

٦- القديس غريغوريوس النزينزي: (ومزجت لنا كأساً من كرمة حقيقية التي هي جنبك الإلهي غير الفاسد، هذا الذي من بعد أن أسلمت الروح فاض لنا منه ماء ودم، هذان الصائران طهراً لكل العالم)[١٠]

٧- أبوليناريوس من لاودكا: (الرب قدم لنا جنباً عوضاً عن جنب، فالمرأة، حواء، التي أتت من الجنب، الشر الذي أتى منها حله الرب بآلامه، لأن من جنب أتت المشورة التي أفسدت الإنسان، ولكن من الجنب المقدس نبع لنا ماء ودم، وبهما اغتسل العالم من خطاياه. والمادتان اللتان كانتا تعملان بانفراد في الناموس، جاءتا معاً فيه، كان في الناموس رش الدم للتطهير، والماء للتقديس. لأن كل شيء قد رُتب مسبقاً، ليكون بجسد المسيح، الدم والماء الأقدسان، حتى وان كان الجسد قد مات بالفعل على الوضع البشري، إلا أنه يملك في نفسه قوة الحياة العظمى).

ثانياُ: العلماء والآباء اللاتين (الغرب):

١- ترتليان: (الاستشهاد هو معمودية أخرى. والدم والماء، عنصرا التطهير والتقديس، نبعا من الجنب المجروح

---

[١٠] القداس الغروغورى – صلاة القسمة

للرب ... فلنا تطهير ثان قائم بذاته، هو تطهير بالدم، الذي قال عنه الرب: «لي صبغة أصطبغ بها» (لو١٢:٥٠). وها هوذا قد اصطبغ وجاء لنا بالماء والدم. وإذ نعتمد بالماء، نتمجد بالدم. نُدعى بالماء، ونُختار بالدم. لهذا أرسل لنا هاتين المعموديتين من جنبه المجروح، حتى إن كل من يؤمن، يغتسل بدمه، والذي يغتسل بالماء يستعد لشرب الدم). (لقد مات، لكي من الجرح الذي أصاب جنبه، تتشكل الكنيسة الأم للأحياء بالحقيقة).

٢- القديس أمبروسيوس: يأخذ نفس أفكار أوريجانوس ثم يشرحها؛ (بعد الموت يتجمد الماء في أجسادنا، ولكن من الجسد الذي لا يفسد، مع أنه ميت، نبعت منه حياة للكل، الماء والدم اللذان خرجا منه، الماء للاغتسال، والدم للفداء).

٣- القديس أغسطينوس: (إن رقاد أدم، لكي يصنع الله من ضلعه حواء، كان موتاً للمسيح؛ لأنه لما علق على الصليب بلا حياة، وطُعن جنبه بالحربة، خرج منه دم وماء، ونحن نعلم أنهما السران اللذان بهما بُنيت الكنيسة، التي هي رمز حواء).

هكذا يرى القارىء أن موضوع خروج الدم والماء من جنب المسيح، احتل ركناً هاما من تفسيرات الآباه في الشرق والغرب، الذين ردوه إلى العناية الإلهية، كتدبير سابق تأسيسه منذ خروج حواء من جنب أدم، ومنذ أن ضربت الخطية جذورها السامة في طبيعة الإنسان وقتلته. وقد استعلن الآباه عموماً في هاتين العلامتين، الدم والماء، العنصرين المؤسسين لسري الكنيسة، الإفخارستيا والمعمودية، أو بالمعنى الذي يحويه «الدم والماء» سر استبدال الموت بالحياة في الاغتسال بالماء الحي الخارج من جنب المسيح، الميت؛ وذلك بعد الانفكاك من أسر العبودية للخطية، بالفداء بسر الدم الذي نبع من الجنب المطعون، أي من الذبيحة الحية!

هذا الحادث يسجله القديس يوحنا في رسالته الأولى. ولكن عند تدوين القديس يوحنا لإنجيله، كانت قد ترسخت في ذهنه هذه الرؤية الواقعية التي رأها وهو واقف تحت الصليب، والكنيسة (الأم) مستندة على ذراعيه. وقد سجلها في رسالته قبل كتابة إنجيله بزمن ليس ببعيد، ووثقها أيضاً بالشهادة، ثم رفع شهادته إلى مستوى شهادة الحق، أي الله: «هذا هو الذي أتى بماء ودم، يسوع المسيح. لا بالماء فقط، بل بالماء والدم، والروح هو الذي يشهد، لأن الروح هو الحق.» (ايو٥:٦)

المعنى المختبىء هنا هام للغاية، فكلمة «أتى» فيها إفادة تاريخية قائمة على انتظار سابق، بلا شك حدده الله بواسطة الأنبياء. وتشديد القديس يوحنا على تلقيب المسيح بأنه «يسوع المسيح» يفيد أن «الماء والدم» يتعلقان به شخصياً من واقع رسالته وشخصه الإلهي (المسيا= يسوع) المستعلن. أي أن عنصري الماء والدم يتعلقان تعلقاً أساسياً بوظيفة المسيح الخلاصية وطبيعته الإلهية، ويعلنان هذا، لأن القديس يوحنا سيتمادى بعد ذلك ويجعل هذين العنصرين يشهدان للمسيح ولنا.

الدم: بلا شك يتعلق «الدم» هنا بما تم عل الصليب؛ فالمسيح «جاء بالدم» من واقع ذبيحته. والدم على الصليب هو عمل الفداء، الذي هو موضوع مجيئه الأساسي. فيينبوع الدم الذي انفتح بالحربة، بعد كمال الموت، أي بعد تكميل ذبيحة الفداء، هو بعينه ينبوع الفداء والخلاص. فالمسيح جاء بهذا الدم، وإن كان بشكله وقوامه الطبيعي، ولكن أيضاً بمستواه «الإلهى»، «بروح أزلى»، «وبقوته الفدائية» بسبب «ذبيحته الكفارية»، «وقوة الحياة» التي فيه، التي «لا تزول»، وذلك عوض رش دم الحيوانات المذبوحة في العهد القديم، والتي كان مفعولها قاصراً عل تخليص الجسد من العقوبة الجسدية. وفي هذا المعنى، وبهذا الدم، أصبحت كلمة «الفداء بالدم»، وعمل الدم

الإلهي، بكل معانيها الروحية العالية التي وردت في الأسفار المقدسة، منبثقة من هذا الدم المنسكب حياً من الجنب الميت المطعون، لذبيحة المسيح الفدائية.

+ فبهذا الدم صرنا نحن غير اليهود قريبين من الله والمسيح: «ولكن الآن في المسيح يسوع، أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين، صرتم قريبين بدم المسيح.» (أف٢:١٣)

+ وبهذا الدم تم الصلح بين مطالب الله العالية وعجزنا الفاضح: «عاملاً الصلح بدم صليبه.» (كو١:١٠)

+ وبهذا الدم يتم تقديس الإنسان ودخوله في العهد الجديد لله: «... دم العهد الذي قدس به.» (عب١٠:٢٩)

+ وبهذا الدم يعبر عنا ملاك الهلاك لننجو: «وهم غلبوه بدم الخروف، وبكلمة شهادتهم.» (رؤ١٢:١١)

+ وبهذا الدم نحصل على الكفارة فلا نُطالب بدين الموت: «... بالإيمان بدمه، لإظهار بره، من أجل الصفح عن الخطايا السالفة.» (رو٣:٢٥)

+ وبهذا الدم نحصل على التبرير المجاني باعتبار الدم ثمناً مدفوعاً عن كل الخطايا: «متبررون الآن بدمه» (رو٥:٩)

+ وبهذا الدم نكون قد اغتسلنا من كل دنس وتعد، وصرنا أطهاراً أمام الله: «غسلنا من خطايانا بدمه.» (رؤ١:٥)

+ وبهذا الدم يكون المسيح قه اشترانا من العالم لحساب الله أبيه، لنحيا معه: «...واشتريتنا لله بدمك.» (رؤ٥:٩)

+ وبهذا الدم نتطهر من جميع خطايانا: «ودم يسووع المسيح ابنه، يطهرنا من كل خطية.» (١يو١:٧)

واضح أيضاً هنا أن اللاهوت المسيحي المتركز في عملية الفداء والكفارة والخلاص يدور كله حول «الدم» ولكن أية حالة من حالات الدم؟ لا بد أن يكون الدم الذي له هذه الفعاليات والصلاحيات العظمى، دماً مسفوكاً، دم ذبيحة أُكملت حتى الموت التام، دماً حياً فيه قوة حياة أبدية من ذبيحة إلهية ميتة موتاً اختيارياً ولكن بلا أي عيب ولا لوم. وهذه الشروط جيعا تتجمع في الدم الخارج من جنب المسيح المطعون، بعد أن قال: «قد أكمل»، وقد شهد شهود محايدون بصحة وكمال موته، بعد أن تأكدوا، بطعنة قاتلة، التي لم تزد الموت موتاً، ولكنها فجرت من الموت حياة!!

الماء: كان الماء الخارج من جنب المسيح الميت يشبه الماء الذي صبه إيليا على الذبيحة ولحستها النار الإلهية وقت إصعاد الذبيحة، والقصة شيقة وهي كالأ تي: كان إيليا يتحدى أنبياء البعل الذين قدموا ذبيحتهم فلم يقبلها الله، فقدم هو ذبيحته ووضع الماء عليها للتعجيز، أو لإظهارمعجزة قبول الله لذبيحته كالأتي: «ثم رتب الحطب، وقطع الثور، ووضعه على الحطب، وقال: أملأوا أربع جرات ماء، وصبوا على المحرقة وعل الحطب، ثم قال: ثنوا، فثنوا. وقال: ثلثوا، فثلثوا. فجرى الماء حول المذبح، وامتلأت القناة أيضاً ماء. وكان عند إصعاد التقدمة، أن إيليا النبي تقدم وقال: أيها الرب، إله إبراهيم واسحق واسرائيل، ليُعلم اليوم أنك أنت الله في إسرائيل، وأني أنا عبدك، وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور. استجبني يا رب، استجبني. ليعلم هذا الشعب أنك أنت الرب الإله، وأنك أنت حولت قلوبهم رجوعاً. فسقطت نار الرب، وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب، ولحست المياه التي في القناة.» (امل١٨:٣٣-٣٨)؛ كانت «المياه» في ذبيحة إيليا هي المعجزة الأوولى، لأن عنصر الماء عنصر يقاوم النار، ويمكن أن يطفئها إذا لم تكن ناراً إلهية، لها شكل النار المادية، ولكها فائقة ومتفوقة عن عل عجزها، ولها القدرة أن تُشعل الماء كالحطب سواء بسواء.

هكذا كان خروج الماء من ذبيحة المسيح يخالف ويقاوم معنى الموت الذي ماته، لو لم يكن موت المسيح الذي ماته موتاً له شكل الموت الجسدي ولكنه موت فائق عن عجز الجسد، وله قدرة أن يطفىء الموت ذاته ويحيي

الجسد!

حينما تقدم المسيح ليعتمد من يد يوحنا المعمدان، امتنع هذا وقال: «أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي؟ فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر. حينئذ سمح له» (مت١٣:١٤-١٥) إذاً، فالمعمودية في نظر المسيح هي تكميل للبر.

الماء الخارج من ذبيحة المسيح هو لتكميل البر. لذلك ذكره القديس يوحنا في إنجيله بعد الدم، وليس قبل الدم. المسيح لما صعد من ماء المعمودية، انفتحت السموات، ونزل روح الله وحل على المسيح، واستقر، وصوت الآب من السماء قال: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت». هذا كله يستعلن لنا معنى المعمودية وقوتها عند المسيح، وفيه، بل ومنه أيضاً . فهي أولاً مرتبطة بالسماء من فوق، وعلاقتها أساسية بروح الله، فهي من من أسرار السموات، وسر يقوم فيه روح الله بالعمل الأساسي. أما قوتها فواضحة في استعلان البنوة لله الحائزة على مسرة الله. وماء الأردن تحت يد يوحنا، استعلن لنا سر المعمودية الأعظم في المسيح. إلى هنا تنتهي مهمة معمودية يوحنا، أي تنتهي باستعلان وقيام المعمودية القائمة في المسيح بالروح. هنا تسليم وتسلم، ماء المعمدان يسلم ماء الروح في المسيح، فينتهي عمله.

معمودية يوحا انتهت، أي توقفت، بخروج ماء الحياة من جنب ذبيحة المسيح المطعون؛ التي هي المعمودية الجديدة من جنب المسيح، حيث بدأت الحياة الجديدة للانسان بروح الله وبدأ فعل بر العهد الجديد يملأ العالم: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.» (مت٢٨:١٩)

والآن، لننظر مرة أخرى لينبوع الماء والدم الفائض من جنب ذبيحة المسيح المطعون وهو ميت، كيف امتد هذا الينبوع، ينبوع الدم والماء، امتداداً تاريخياً وسرياً بآن واحد، من ناموس موسى كعنصر للتطهير المادي والتقديس الشكلي في العهد القديم؟

«الماء والدم»: الماء، كان في العهد القديم لغسل الأدوات أو لغسل الجد للتطهير المادي من الدنس الشكلي؛ كمجرد غسيل.

والدم، وهو دم حيوانات، كان يستخدم بالرش أيضاً للتطهير الشكلي: «لأن موسى بعد ما كلم جميع الشعب بكل وصية بحسب الناموس، أخذ دم العجول والتيوس، مع ماء وصوفاً قرمزياً وزوفا[11]، ورش الكتاب نفسه وجميع الشعب قائلاً: هذا هو دم العهه الذي أوصاكم الله به. والمسكن (الهيكل) أيضاً وجميع آنية الخدمة، رشها كذلك بالدم، وكل شيء تقريبا يتطهر حسب الناموس بالدم، وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة» (عب٩:١٩-٢٢)؛ حيث المغفرة، هي رفع عقوبة جسدية عن خطية اقترفت بدون عمد ضد وصايا شكلية للناموس.

بهذا يتجلى أمامنا مسار التاريخ وسر الله، من ناموس موسى إلى ناموس المسيح، فينبوع الماء والدم الخارج من جنب المسيح يحمل نفس العنصرين إنما للتطهير والتقديس الروحي للعهد الجديد: «دم المسيح الذي، بروح أزلي، قدم نفسه لله بلا عيب، يطهر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي» (عب٩:١٤)، «هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا.» (مت٢٦:٢٨)

كذلك الماء الذي كان «لغسل كؤوس وأباريق وآنية نحاس وأسرة» (مر٧:٤)» أصبح ماء المعمودية الجديدة بالروح،

---

[11] واضح أن اختيار القديس يوحنا كلمة «زوفا« بدل القصبة التي استخدمها القديس مرقس كان لكي ينبه ذهن القارىء للمقابلة بعد ذلك بين العهد القديم والعهد الجديد فيما يخص رش الدم: «فملأوا إسفنجة من الخل ورفعوها على زوفا وقدموها إلى فمه.« (يو١٩:٢٩)

ماء لغسل الخطايا: «قم، واعتمد واغسل خطاياك» (أع٢٢:١٦)، ماء يغتسل به للخلاص: «لا بأعمال في بر عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثانى، وتجديد الروح القدس» (تى٣:٥)، وماء لميلاد جديد للانسان بالروح، لميراث ملكوت الله: «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح، لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو٣:٥)

هكذا نرى أن شهادة القديس يوحنا لهذا السر الذي استعلن في آخر لحظة بطعنة الحربة، والذبيحة معلقة على الصليب، ربطت ربطاً محكماً بين تسلسل الدور التاريجي بالنسبة لعمل الماء والدم في العهد القديم الذي لم يكن له أي قيمة من جهة الروح، وعمل الماء والدم بجوهرما الروحي، بل الإلهي، في العهد الجديد، كونهما نبعا من ذبيحة المسيح الفدائية بعد تقديمها على الجلجثة وقت المساء: «هذا هو الذي أتى بماء ودم، يسوع المسيح، لا بالماء فقط، بل بالماء والدم. والروح هو الذي يشهد، لأن الروح هو الحق.» (ايو٥:٦)

القديس يوحنا في رسالته الأولى، يحذر من الانتحاء ناحية الفصل بين عمل الماء وعمل الدم، فالفداء حتمي، وله الأولوية في قبول المسيح وفي شهادة الإيمان. لذلك وضع القديس يوحنا الشهادة لخروج الدم قبل الماء (يو١٩:٣٤). فقبل العماد، يلزم الاعتراف والشهادة بالدم المسفوك بموت المسيح على الصليب كفارة للخطايا. هنا يجوز العماد، ويكون العماد بمثابة ختم الروح على الخليقة الجديدة المفدية لله. القديس يوحنا لا يقبل فصل السرين، ويؤمن بعملهما معاً.

ولقد انتحى الآباء في إقامة سر الأولوجيا (الإفخارستيا) منذ بكور ممارسته في الكنيسة سواء في تعاطيه أو في شرحه، إلى مزج الخمر بالماء لهذا الغرض بالذات، أي لجمع فعل الدم والماء الخارجين من جنب المسيح معاً في كأس واحدة.

وإليك طعن في صحة تقديم كأس الإفخارستيا بدون مزجه بالماء:

[ليت الآرمن يخزون، الذين لا يمزجون الماء بالخمر في الأسرار، لأنه يبدو أنهم لا يؤمنون بخروج الماء، بل الدم فقط، من جنب المسيح التي هي المعجزة الأعظم] ..... ثيئوفيلا كت

وثيئوفيلا كت هذا كان بطريركاً لبلغاريا في القرن الحادي عشر. وهو يتبع القديس ذهبي الفم في آرائه، وقد شرح كل العهد الجديد بلغة سهلة وتأمل عميق.

«والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة: الروح والماء والدم، والثلاثة هم في الواحد» (١يو٥:٨)

واضح أن جمع «الماء» و «الدم» و «الروح» معاً كثلاثة على التساوي، هو محاولة لجعها شهادة قانونية من ثلاثة: «على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر.» (تث١٩:١٥)

ويلاحظ أن مفردات هذه الآية جاءت لغوياً هكذا: كلمة «الروح» (محايدة)، و«الماء» (محايد)، و «الدم» (محايد) ثم في الحال يرفع الكاتب المحايد إلى حالة المذكر العاقل في لفظ «ثلاثة»، سواء في البداية بقوله: «هم يشهدون»، أو في النهاية بقوله: «والثلاثة هم ...».

والقديس يوحنا جعل شهادة الدم والماء والروح، كل من الثلاثة له شهادة في الإنساذ كقوة. ولكن القديس يوحنا لما أضاف «الروح» و«الدم» و«الماء» معا، صار الثلاثة ولهم ضمير مذكر سالم. أي أن «الثلاثة» يعبرون بفم شخصي واحد، بمعنى أن كل من الماء والدم ينطق بالروح في الإنسان نطقاً، بفعل الله الذى تم. ففي المعمودية، الروح يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله، والدم في الإفخارستيا: «إلى وسيط العهد الجديد يسوع، والى دم رش، يتكلم

أفضل من هابيل.» (عب١٢: ٢٤)
وفي الحقيقة إن الذى يشهد للمسيح في العالم من داخل الكنيسة، هو الماء في المعمودية، والدم في الإفخارستيا، والروح في التكريس والتقديس من داخل هذه الأسرار: «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز، وشربتم هذه الكأس، تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء» (اكو١١: ٢٦)، «ونحن شهود له بهذه الأمور، والروح القدس أيضاً الذي أعطاه الله للذين يطيعونه.» (أع٥: ٣٢)
والإهتمام البالغ الذي ركز به القديس يوحنا على ينبوع الدم والماء الخارج من جنب ذبيحة المسيح المطعون، والذي استجبنا نحن أيضاً له وركزنا على تركيزه، إنما كان لسبب لاهوتي واضح، وهو أن القديس يوحنا يرى في الجسد المصلوب على الصليب قمة إنجيل الخلاص، ومنتهى عمل الله للفداء، وأنه هو هو «حمل الله الذي يرفع خطية العالم»، كما سمع ذلك من فم معلمه الأول المعمدان (يو١: ٢٩)، وهو ينبه ذهن القارىء إلى أن الدم والماء الخارجين من جنب المسيح، يحملان له الغسل الحقيقي من خطاياه، والتقديس الداخلي لحياة جديدة، والدخول في عهد المسيح بدمه. وهو يعدد في رسالته، ويكشف، عمل الروح القدس من خلال سري الدم والماء، والشهادة الحية الشخصية التي يشهد بها الروح والماء والدم بفم واحد للمسيح في داخلنا أنه ابن الله، وأنه أعطانا الحياة الأبدية. فإذا قبلنا شهادة الروح للمسيح، صارت لنا حياة أبدية؛ وكل ذلك في تسلسل بديع:
«والذين يشهدون، للمسيح، في الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم، والثلاثة هم في الواحد»، «هذه هي شهادة الله، التي قد شهد بها عن ابنه»، «من يؤمن بابن الله، فعنده الشهادة في نفسه»، «وهذه هي الشهادة، أن الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة هي في ابنه»، «من له الابن، فله الحياة؛ ومن ليس له ابن الله، فليست له الحياة.» (ايو٥: ٨-١٢)

١٩: ٣٥ وَالَّذِي عَايَنَ شَهِدَ وَشَهَادَتُهُ حَقٌّ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ لِتُؤْمِنُوا أَنْتُمْ.

القديس يوحنا يعلن صراحة أنه كان شاهد عيان، وليس بالمشاهدة العابرة. بل إنه «عاين» أي تحقق من الرؤيا، وكلمة «شهد» تفيد هنا أنه سجلها في إنجيله، وهو نفسه يختم على هذا التسجيل أنه حق، لسبب هام وخطير، لا يستطيع أن يبوح به علنا، وهو لا يخرج عن أن الروح القدس كان يوضح له الحقائق التي يرى بالإلهام والفهم، ويؤكد له بالروح صحة ما يمليه عليه ويكتبه.
ثم يعود القديس يوحنا يختم على صدق روايته ومعاينته لهذه المعجزة فيقول، إنه يعلم أنه يقول «الحق» بمعنى أنها ليست رواية شخصية من رؤيا شخصية، إنه في كمال إدراكه ووعيه المسيحي وليس عن دهش أو منظر معقول أو غيبة. بمعنى أن الإملاء الروحي من الروح القدس لم يأته وهو في غيبوبة، بل وهو في صحو الذهن وكمال ملكة الإدراك والتمييز. أما لماذا هذا الإثبات لصحة ما كتب، فهو ليؤمن القارىء. ليس مجرد الإيمان بخروج الدم والماء فقط بل بكل ما كتبه. فغاية القديس يوحنا من إنجيله هي الإيمان الكلي بالمسيح!

١٩: ٣٦ لأَنَّ هَذَا كَانَ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: «عَظْمٌ لاَ يُكْسَرُ مِنْهُ».

القديس يوحنا بقوله: «هذا كان ليتم الكتاب» يجمع بين حادثة عدم كسر عظام الساقين مع حادثة طعن جنبه بالحربة، لأن الأولى تسببت في الثانية. وهنا موضع التدبير العجيب، فلأنهم وجدوه قد مات، فلم يجدوا ضرورة لكسر الساقين، وهكذا تحاشى التدبير الإلهي أن تمس عظام المسيح بأذى، وذلك بحسب الطقس والنبوة معاً. ولكن لكي يتأكدوا من موته بالأكثر لجأوا إلى طعن جنبه بالحربة، فكان هذا بدوره تدبيراً آخر لتتم النبوة، وفي نفس الوقت

لتستعلن قوة الحياة النابعة من ذبيحة الموت.

«عظم منه لا يُكسر منه»: الإشارة المباشرة هنا لطقس خروف الفصح الذي كان هو الرسم التحضيري لذبيحة الفصح الحقيقية، كما سبق الشرح في الآية١٩:٣١ وما بعدها. أما الإشارة الثانية، فهي تخص تتميم النبوة «كثيرة هي بلايا الصديق، ومن جميعها ينجيه الرب، يحفظ جميع عظامه، واحد منها لا ينكسر.» (مز٣٤:١٩-٢٠)

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: وهل كان المسيح يجوز هذه الحوادث المحددة ليتم المكتوب عنه في النبوات؟ والجواب على هذا هو العكس تماماً، فأنه سبق وأنبأ بالروح على فم الأنبياء على مدى عصور مختلفة ومتباعدة ما سيلاقيه المسيح عند مجيئه. والسبب في ذلك هو غاية في الأهمية والخطورة، وهو لكي حينما يتمم المسيح المكتوب عنه، يتعرف عليه حفظة الناموس والأنبياء، ولا يكون عذر البتة لمن ينكره أن يتنكر له: «لو لم أكن قد جئت وكلمتهم، لم تكن لهم خطية، وأما الآن فليس لهم عذر في خطيتهم» (يو١٥:٢٢)، «لو كنتم تصدقون موسى، لكنتم تصدقونني، لأنه هو كتب عني. فأن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك، فكيف تصدقون كلامي» (يو٥:٤٦-٤٧)، «فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية، وهي التي تشهد لى.» (يو٥:٣٩)

فالإيمان بالمسيح، في بداية الكرازة، كان يقع بين النبوة وتتميمها؛ لأن ما سبق وكتبه الله بالروح على قلوب الأنبياء ونطقه على ألسنتهم، كان يلزم حتما أن يتم! ولهذا السبب كان التشديد على إجراء طقس تقديم الفصح واكله بكل حذر وتدقيق، حتى يتسلط نور النبوة الطقسي على ذبيحة المسيح في حينها، للتعرف عليه والحفاظ على هيكل جسده سالما: «لا يبقوا منه إلى الصبأح، ولا يكسروا عظماً منه، حسب كل فرائض الفصح يعملونه.» (عد٩:١٢)

ولعل الأمر المشدد عليه بأن «لا يبقى منه إلى الصباح»، هو الذي كان وراء سرعة إنزاله من على خشبة الصليب لتكتمل فيه ملامح الفصح، خلواً من كرامة السبت التي ظهرت في الطريق.

وإن كان الأمر في الطقس يختص بخروف الفصح بحد ذاته، فماذا كان يضيره لو تكسرت كل عظامه؟ أو لو بقي ممه شيء إلى الصباح، إن كانت هي مسألة أكل وذكرى وتاريخ؟ ولكن كان الطقس يحمل ملامح إلهية دقيقة وحساسة، ليبرز في الميعاد الصورة المجيدة للفصح الحقيقي الذي عظمه هو هيكل الله، الذي لا يستطيع أحد أن يفسده، بل هو الإنسان الجديد الكامل في كل شيء حسب صورة خالقه، بل هو الكنيسة التي لا عيب فيها! فنحن، وعلى ضوء حقيقة ذبيحة المسيح الإلهية، لو عدنا إلى تدقيقات الطقس، نجد كيف أحاط الناموس ذبيحة الفصح القديم بهيبة وجلال وتقديس تفوق في اهتمامها البالغ ما تستحقه ذبيحة حيوانية! وذلك كان، في الحقيقة، هو سبق تصوير بارع لحقيقة ومضمون الفصح الإلهي! ومجد القيامة بذات الهيكل الجسدي الذي مات مقاما في المجد والكرامة.

١٩:٣٧ وَأَيْضاً يَقُولُ كِتَابٌ آخَرُ: «سَيَنْظُرُونَ إِلَى الَّذِي طَعَنُوهُ».

الإشارة هنا إلى سفر زكريا: «وأفيض عل بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة والتضرعات، فينظرون إلي (أنا) الذي طعنوه، وينوحون عليه، كنائح عل وحيد له، ويكونون في مرارة عليه، كمن هو في مرارة عل بكره» (زك١٢:١٠). ولكن القديس يوحنا، هو نفسه، سبق في سفر الرؤيا وسجل هذا المشهد الحزين لعودة المسيح وجنبه كما هو مفتوح، فيتعرف عليه الذين طعنوه سواء بالحربة، أو بالتجديف، أو الإنكار، أو بالخطية: «هوذا يأتي مع السحاب، وتنظره كل عين، والذين طعنوه، وينوح عليه جميع قبائل الأرض، نعم آمين» (رؤ١:٧). ولكن من

حيث تكميل النبوة، يكون المقصود هو سفر زكريا فقط. وقد عدل القديس يوحنا ما جاء في السبعينية في قول النبي من : «فينظرون إلى» بصيغة المتكلم، إلى «ينظرون إلى الذي طعنوه» بصورة الغائب ويقال أن هذا هو الأصح.

وهكذا، كما جاءت الطعنة لتكميل نبوة سابقة، هكذا أيضاً جاءت الطعنة كعلامة مرافقة لجنب المسيح، حيث ستكون علامة تبكيت مر للذين طعنوه، كالذي ذاقه بطرس عند صياح الديك بعد أن أنكر من أحبه.

ولنا مقابلة أخرى وشيكة مع جنب الرب المفتوح، الذي وضع توما يده فيه فصرخ: «ربي وإلهي». وهكذا أصبح الجنب المفتوح في إنجيل القديس يوحنا علامة تكميل نبوة سابقة منذ الدهر السالف، وعلامة استعلان قادمة من الدهر الاتي، كما انه علامة تعرف وايمان، والجرح طري ينطق بالقيامة من الأموات. منه خرج سران، وتشكلت كنيسة، وانفتح لنا باب السماء عبر الحجاب الذي شقته الحربة المباركة.

الثاني: طلب جسد يسوع

«مبادرات محبة نشطة من تلاميذه جريئة، ولكن في الخفاء»!

٣٨:١٩ ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ الَّذِي مِنَ الرَّامَةِ وَهُوَ تِلْمِيذُ يَسُوعَ وَلَكِنْ خُفْيَةً لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ سَأَلَ بِيلاَطُسَ أَنْ يَأْخُذَ جَسَدَ يَسُوعَ فَأَذِنَ بِيلاَطُسُ. فَجَاءَ وَأَخَذَ جَسَدَ يَسُوعَ.

هنا، وفي الآية القادمة، نشعر بحركة صحوة بين تلاميذ خاملين كانوا في الظل، أو بحسب تعبير القديس يوحنا: «خفية لسبب الخوف»، هذا من جهة هذا الرجل المقدام يوسف الرامي. أما من جهة نيقوديموس، فيسرع القديس يوحنا ويعرفنا بزيارة الليل والظلام، هناك في البداية!

الموت الذي شتت صف تلاميذ النهار، ورحلات الحب ودروس الجبل، جذب الصف الثاني من تلاميذ الخفاء والخوف وزيارات الليل؛ لأن جلال الموت لمعلم محبوب، يشعل نار الجرأة في بعض القلوب النبيلة. والعرفان بالفضل والجميل، له عشاقه ورواده في وقت المحنة وزمن الملمات. والمحبة الصادقة لا تهاب المخاطر، وان كان يُحسب لها الحساب.

«يوسف الذي من الرامة»: «الرامة»: يختلف على موقعها العلماء ، فمنهم من يقول إنها المدينة المعروفة باسم «رام الله»، واخرون «الرملة»، واخرون «رامتايم صوفيم» بلد صموئيل النبي. وكون يوسف هذا من الرامة أصلاً، يعني أنه كان مستوطناً في أورشليم بداعي وظيفته التي عُين فيها كـ «مشيرا» في السنهدريم، مما اضطره للاقامة في أورشليم. وأن يذكر أن له «قبراً جديداً» بجوار سور المدينة في بستان، يعني أنه مستوطن حديثاً مما كلفه أن يكون له ملك أرض، وأن يحفر له فيها قبرا: «فأخذ يوسف الجسد ولفه بكتان نقي، ووضعه في «قبره الجديد» الذي كان قد نحته في الصخرة.» (مت٢٧:٥٩-٦٠)

هذه الأمور، لوتأملناها معاً، لشعرنا بالعناية الإلهية التي هيأت هذا الإنسان بهذه الظروف معاً. وقد تجتمعت له صفات ذُكرت في الأربعة الأناجيل هي غاية في الكرامة.

فالقديس متى يقول عنه: «رجل غني». وهنا الإشارة واضحة لسفر إشعياء: «وجعل مع الأشرار قبره ومع غني عند موته.» (إش٥٣:٩)

والقديس مرقس يقول: «مشير شريف، وكان هو أيضاً منتظراً ملكوت الله، فتجاسر ودخل إلى بيلاطس، وطلب جسد يسوع.» (مر١٥:٤٣)

والقديس لوقا يقول: «وكان مشيراً ورجلاً صالحاً بارا. هذا لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم» (لو٢٣:٥١-٥٢). ثلاث

صفات عالية القدر، واخرها هي التي أهلته لهذا الموقف الأخير، والصلاح والبر هما اللذان أعلاه لشرف التلمذة ولرفض رأي اليهود وعملهم الدنيء.

أما القديس يوحنا فاكتفى باللقب الأكثر شرفاً: «وهو تلميذ يسوع»، وان كان قد سبق وألمح إلى موقفه في الآية (٤٢:١٢): «ولكن مع ذلك آمن به كثيرون من الرؤساء أيضاً، غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به لئلا يصيروا خارج المجمع، لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله» (يو١٢:٤٢–٤٣)

ويلاحظ أن الصفة التي يذكرها القديس لوقا كونه «مشير»، تعني، بحسب العلامة إدرزهايم، أنه عضو فى مجلس السنهدريم، خاصة ما أضافه بقوله إنه «لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم»، «فالرأي» هنا هو رأي مجلس السنهدريم الأخير، «وعملهم» هو الإجراءات التي اتخذت في سبيل القبض عليه أو صلبه.

والقديس مرقس يستعلن لنا الصفة البارزة في هذا العضو الصالح والبار، أنه كان «متجاسرا» في ذهابه إلى بيلاطس شخصياً وطلبه جسد يسوع، مما يكشف ضمناً عن موقف لا بد أن يكون قد وقفه إزاء زملاء السوء في المجلس المشنوم، إذ لا بد أنه حجب صوته ولم يعطهم الموافقة على ما قالوه وعملوه. كما أن أقوال الأناجيل الثلاثة عن هذا الرجل توضح كيف كان يجتمع مع التلاميذ ومع المسيح، ويكشف نيات وأعمال مجلس السنهدريم والرؤساء. من هنا نعتقد أن بواسطته صارت المعرفة للتلاميذ بكل التفاصيل الدقيقة لمجريات الحوادث في الجانب الأخر، سواه قبل الصليب أو بعده.

«سأل بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع»: لقد سبق أن وافق بيلاطس لرؤساء اليهود على هذا الطلب ضمناً مع طلب تكسير سيقان المصلوبين الثلاثة: «سأل اليهود بيلاطس أن تسكر سيقانهم، ويرفعوا.» (يو١٩:٣١)

ولكن يوسف هذا ذهب بمفرده ليمنحه بيلاطس حق استلام الجسد وانزاله، فأذن له بيلاطس بنوع من الإمتياز، لأن هذا الإجراء لم يكن سهلاً، إذ كان الولاة عادة يتعاطون رشاوي لمنح مثل هذه التصاريح. ولكن بيلاطس أعطى تصريحه بإيجابية سهلة، وكان هذا العمل النبيل أخر ذكر لاسمه في الإنجيل.

وليس من السهل أن نعبر على الاسم المبارك «يوسف» دون أن نشير إلى العناية الإلهية التي احتفظت بهذا «الغني»، المشير، الصالح، البار، المتجاسر» كتلميذ ولكن في السر، إلى الميعاد الذي جُهز له، بل وربما وُلد من أجله، ليتسلم الجسد المقدس الذي للابن الوحيد من فوق خشبة الصليب، الأمر الذي لم يتجاسر عليه لا تلميذ من التلاميذ ولا حتى قريب من المقربين. ولا شك أن هذه الصفات الخمس أهلته لهذه المهمة الجليلة والخطيرة والحرجة جداً بآن واحد!

ثم هل لنا أن نتأمل في ما عمله «يوسف مصر» في أبيه «إسرائيل» المتغرب في مصر، كيف «وقع يوسف على وجه أبيه ويكى عليه وقبله، وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه، فحطط الأطباء إسرائيل ... فقال فرعون اصعد وادفن أباك كما استحلفك ... ودفنوه في مغارة حقل المكفيلة التي اشتراها إبراهيم مع الحقل ملك قبر من عفرون الحثي أمام ممرا.» (تك٥٠:١–١٣)

ووجه المقارنة يتعدى الأسماء والمواقف، ويدخل في صميم اللغة، فقد استخدم القديس يوحنا لفظة: «فأخذا جسد يسوع ولفاه بأكفأن مع الأطياب، كما لليهود عادة أن يكفنوا»، وهي نفس كلمة «يحنطوا» كما جاءت في سفر التكوين في تكفين إسرائيل ملى أيدي أطباء يوسف : «وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه».

وهذا هو يوسف الجديد، يحنط ويدفن جسد إسرائيل الجديد، في قبره الذي نحته جديداً، الذي اشتراه ملك قبر أمام

سور أورشليم الغربي .

٣٩:١٩ وَجَاءَ أَيْضاً نِيقُودِيمُوسُ الَّذِي أَتَى أَوَّلاً إِلَى يَسُوعَ لَيْلاً وَهُوَ حَامِلٌ مَزِيجَ مُرٍّ وَعُودٍ نَحْوَ مِئَةِ مَناً.

«وجاء أيضاً نيقوديموس»: «نيقوديموس» هو المعروف في التلمود باسم نيقوديموس بن جوريون، وأنه كان غنياً جداً، ويقال أنه في حفل زواج ابنته قدم لها عريسها صداقاً قيمته مليون دينار ذهبي. وفي التقليد القديم يذكر أنه تنصر وصار مسيحياً. وفي روايات التاريخ يُقال أنه مات في حصار أورشليم.

بداية الآية تشير إلى موقف موحد حدث بالضرورة بين يوسف ونيقوديموس، فهما عضوان في مجلس السنهدريم، وكانا ولا شك على رأي مخالف لرأي المجمع والرؤساء، بل وعلى مستوى المعارضة للاجراءات والأعمال التي اتخذها رؤساء الكهنة، والتي كانت في نظرهما غير قانونية، فوق أنها شائنة وفظيعة، بالنسبة لمعلم يعلمون أنه قد أتى من الله معلماً؛ بل ويؤمنون به؛ بل وينتظرون على يديه ملكوت الله (راجع يو٣:٢؛ ١٢:٤١؛ ١٥:٤٣).

ونيقوديموس سبق له أن حاول الدفاع عن قضية المسيح، ولكنه ارتدع تحت رادع إرهاب الفريسيين: «قال لهم نيقوديموس الذي جاء إليه ليلاً وهو واحد منهم، ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يُسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل؟ أجابوا وقالوا له: ألعلك أنت أيضاً من الجليل؟ فتش وانظر إنه لم يقم نبي من الجليل، فمضى كل واحد إلى بيته» (يو٧:٥٠-٥٣). لذلك كان يجمعهما للأسف «الخوف من الفريسيين» بصفتهما عضوين في مجلس السنهدريم، وكانا يعلمان المصير المرعب إذا ما جاهرا بتلمذتهما للمسيح: القطع من السنهدريم، وربما من شعب إسرائيل، وهذا كان هو السيف المسلط.

وواضح أنهما تعاهدا، بعد أن رأيا المسيح قد رُفع على خشبة الصليب بالفعل، أن يوزعا الأدوار على نفسيهما بغاية السرعة لأن غروب الشمس كان وشيكاً. فاضطلع يوسف بشراء الكتان النقي للف الجسد، ونيقوديموس قام بشراء مزيج المر والعود. كما عهد إلى يوسف بعملية طلب جسد يسوع من بيلاطس لصفته البارزة وهي الجسارة. ثم تقابلا عند الصليب، وقد فارقهما الخوف والرعب من الفريسيين وابتدءا عملهما بجسارة وعلانية بانزال الجسد المقدس، بكل كرامة، لأن روح الله كان ثالثهما.

«وهو حامل مزيج مر وعود نحو مئة مناً»: «كل ثيابك مر وعود وسلخة» (مز٤٥:٨)؛ «بسلام تموت، وبإحراق (أطياب الدفن) آبائك الملوك الأولين الذين كانوا قبلك، هكذا يحرقون لك ويندبونك قائلين: آه يا سيد.» (إر٣٤:٥)

«مر وعود»: أما المر فهو المادة الراتنجية المستخرجة من سيقان شجرة معروفة باسم «كوميفورا مولمول»، وتنمو في شبه الجزيرة العربية. واسم المادة بالعبرانية كالعربية «مر». وقد أخذ الأوربيون الاسم كما هو Myrrh وقد ذُكر كثيراً في مواضع عديدة من العهد القديم.

والمر له مفعول مطهر، ويستخدم في الطب على هذا الأساس، وهو معروف منذ القدم، من أكثر من ألفي سنة، وقد استخدمه قدماء المصريين في التحنيط (هيرودوت٢:٦٨) كما استخدمه بنو إسرائيل في عمل المسحة المقدسة (خر٣٠:٢٢). ويضرب به الأمثال في التعطير. وكان أحد مكونات الهدايا التي قدمها المجوس للمسيح في بيت لحم (مت٢:١١)، كما قُدم للمسيح على الصليب ممزوجاً بخل (مر١٥:٢٣).

«**العود**»: هو غالباً المادة المستجرجة من شجرة تسمى بشجرة الفردوس، وخشبها يسمى خشب السنر، واسمها العلمي (   )، وتنمو نواحي آسيا الإستوائية. وهو أيضاً ثمين للغاية يوزن بوزن الذهب، ورائحته نفاذة تبقى لسنين عديدة. وهو أيضاً مذكور في الكتاب المقدس. يُضرب به المثل «كشجرات عود غرسها الرب» (عد٢٤:٦)، «كل ثيابك مر وعود وسلخة (قرفة).» (مز٤٥:٨)

أتى نيقوديموس وهو حامل هذه الهدية التذكارية الثمينة جداً سواء في قيمتها المالية العالية التي يقدرها العلامة إدرزهايم بمقدار ما يساوي الان مئتين وخسين جنيها إنجليزيا، آنئذ، او فى قيمتها بالنسبة للجسد المقدس، بحد ذاته، أو قيمتها بالنسبة للبشرية ككل وهي تستودع جسد ابن الله سر مجدها وخلاصها، جسد إكليلها وفخرها كابن الإنسان، أو قيمتها في المقابل بالنسبة لما صنعه اليهود عامة والرؤساء الذين أهانوا اسمهم، واسم اليهود، واسم إسرائيل، واسم شعب الله المختار، بل واسم الإنسانية جميعاً بما فعلوه بهذا الجسد الطاهر.

والمزيج منهما هو أبسط ما يمكن أن يسمى بمواد للتحنيط، أي لحفظ الجسد من الفساد، حسب العادة التي اكتسبوها من فراعنة مصر بتحنيط أجساد عظمائهم؛ لأن المزيج الكامل للتحنيط يتعدى العشرات من الأصناف.

والكمية التي ذكرها القديس يوحنا ليست في الحقيقة مبالغاً فيها، لأن لف الجسد كله يحتاج إلى مثل هذه الكمية التي يساوي وزنها بالموازين الحالية ما يقرب من ٣٦ كجم.

ونحن نقرأ في تحنيط جسد «آسا» الملك: »اثم اضطجع آسا مع ابائه ... فدفنوه في قبوره التي حفرها لنفسه في مدينة داود، وأضجعزه في سرير كان مملوا أطيأباً وأصنافاً عطرة حسب صناعة العطارة، وأحرقوا له حريقة عظيمة جداً.» (٢أى١٦:١٣-١٤)

ويحكى في التلمود اليهودي: (إنه عند دفن غمالائيل الأكبر، عملوا له حريقاً من الأطياب والعطور بلغ٨٠ رطلاً (الرطل ٣٦٠ جراماً تقريباً) فلما سألوا أونكيلوس (أحد الربيين) عن سبب هذه الكثرة رد قائلاً: أليس غمالائيل أفضل من مائة ملك مثل آسا؟)

واضح، إذاً، أن الكثرة التي حملها نيقوديموس من الأطياب هي في الحقيقة تعبير رائع وصامت عن التوقير الملكي الذي كان يكنه هذا الفريسي المتمرس في تاريخ ملوك أبائه.

ولكن لا يفوتنا أن هذه الأطياب الحلوة، ذات الرائحة اللذيذة والمسرة، هي أيضاً تعبير آخر عن صنف الذبيحة المقدمة، كما رتب لها، ليس الأنبياء وحسب، بل والمسيح نفسه كان يرى أن ذبيحة حبه لا بد أن تكون عطرة الرائحة عند أحبائه كما هي عند أبيه: «فأخذت مريم مناً (واحداً بـ ٣٠٠ دينار) من طيب ناردين خالص كثير الثمن، ودهنت قدمي يسوع، ومسحت قدميه بشعرها. فامتلأ البيت من رائحة الطيب ... فقال يسوع: اتركوها، إنها ليوم تكفيني قد حفظته.» (يو١٢:٣ و٧)

ولقد اختزنت الكنية المرتشدة بالروح أطيأب الرب وعطوره التي تركها مح أكفانه في القبر الفارغ واعتبرتها ذخيرة حياة أو مسحة موت لقيامة، عجنتها بالزيت الطيب وصنعت منها دهن ميرونها واوقفته على مسح المعمدين الخارجين من من جرن المعمودية، الذين دفنوا مع الرب لشركة موته، فتمسحهم بهذا الميرون عينه، كمسحة قيامة من الأموات لشركة الرب فى قيامته. وظلت هذه الذخيرة تتناقلها أيدى الأساقفة الأمناء على مر الأجيال، وحتى زماننا هذا. وصدر في ذلك قول بولس الرسول: «لأننا رائحة المسيح الذكية لله» (٢كو٢:١٥)، وكأن بولس الرسول يرى مفدى الرب ذبائح سرور تفوح منها رائحة ذبيحة المسيح: «اسلكوا فى المحبة، كما أحبنا المسيح أيضاً، وأسلم

نفسه لأجلنا، قرباناً وذبيحة لله، رائحة طيبة.» (أف٥:٢)

١٩: ٤٠ فَأَخَذَا جَسَدَ يَسُوعَ وَلَفَّاهُ بِأَكْفَانٍ مَعَ الأَطْيَابِ كَمَا لِلْيَهُودِ عَادَةٌ أَنْ يُكَفِّنُوا.

وتحقق قول الرب فى الحال والتو، إذ لما ارتفع، جذب إليه أكثر التلاميذ بعدا وأشدهم خوفا، وأقلهم إيمانا، عربون «للجميع»!! «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلي الجميع» (يو١٢:٣٢)

وإن كان الملائكة قد خلقوا لأعمال وخدمات تعينوا لها وتعينت لهم، فيوسف ونيقوديموس وُلدا، معينين في المقاصد الإلهية، لخدمة الجسد المصلوب وتكريم جروح الرب.

لقد تبدد خوف يوسف وتحول إلى جسارة ما بعدها جسارة، وليل نيقوديموس الذي كانت تحلو له فيه الزيارة، والظلام حالك، تحول له إلى نهار ومجاهرة. لقد أفاض عليهما الجسد تباشير من أنوار العهد الجديد. وكأن الروح الذى أسلمه يسوع على الصليب اتخذ طريقه فى الحال، وتوزع على قلوب الزين كانوا ينتظرون ملكوت الله!

«فأخذا جسد يسوع ولفاه بأكفان مع الأطياب»: حملوا الذي يحمل المسكونة كلها على كفه؛ وأنزلوا الذى علقوه على خشبة، وهو الذي «يعلق الأرض على لا شيء» (أي٢٦:٧). كنز الحياة حملوه ميتاً على الأذرع، وأسندوا الرأس التي تسند الأكوان، وتقيم الجبال الرواسي، فلا تميد!

طيبوا الجسد، وهو منبع الطيب، وعطروه، وهو الذى «يجعل البحر كقدر عطارة.» (أى٤١:٣١)

لفوه بالكتان، وهو اللابس النور كالثوب، وكفنوا بالدموع ، من هو مصدر الفرح والابتهاج.

في صمت مهيب، تبادلا إحكام الرباط، «والكلمة» بين أيديهما بلا حراك، وهو يعد لجسده القيامة!

«ولفاه بأكفان»: القديس يوحنا يستخدم كلمة «لفاه» في إعداد الجسد للدفن، وتأتي بمعنى «ربط». كذلك يستخدم كلمة «الأكفان» بالجمع، بمعنى أن القماش مقسم لكل عضو بمفرده.

أما كل من القديس متى والقديس مرقس والقديس لوقا، فيستخدمون كلمة مشابهة ( ) تُرجمت بالعربية «لفة» أيضاً، وتأتي بمعنى «لفة» صحيحا. كما تأتي كلمة «الكفن» بالمفرد بدون اصطلاح الدفن، كمجرد قماش «لفه بكتان نقي» (مت٢٧:٥٩).

والفارق في المعنى يبدو وكأن في إنجيل يوحنا أن يوسف ونيقوديموس أجريا عملية التكفين الأصولية، وهي ربط كل ذراع وكل ساق بأشرطة من الكفن، كذلك لفا الجسد كله والرأس بمفرده.

أما في الأناجيل الأخرى، فتبدو العملية وكأنها مجرد لف الجسد بثوب واحد من الكتان على سبيل التكفين المبدئي، ليتم تكفينه حسب الأصول، بعد انقضاء السبت.

وهكذا يأتي تقليد القديس يوحنا في التكفين مخيبا لآمال الذين يأخذون بقصة اكتشاف كفن تورين المنطبع عليه صورة جسد المسيح ووجهه. وهذا الكفن قطعة واحدة من القماش بطول ١٤ قدم، وأقل من أربعة أقدام عرضاً. وأول ذكر لاكتشاف كفن تورين حدث سنة ١٣٥٣ م في كنيسة ليراى بمدينة تروي بفرنسا. ولو أنه حدث ذكر لهذا الكفن قبل ذلك بمائة سنة في نواحي تركيا. وقد قامت بعض الهيئات العلمية الأمريكية حديثاً بتحليل الألوان المنطبعة على الكفن وأثبتوا أنها لا تحمل أي أثر عضوي، بل أصباغاً من أكاسيد ومعادن.[١٢]

«مع الأطياب»: يبدو أن المر والعود كانا على هيئة مسحوق، وقد أضيف إليهما بعض الزيوت العطرة، فتكرن

---

[١٢] ليتنا نتوقف عن هدم ما هو كاثوليكى ..... فليس بهذا نمجد الله ... ميشيل

مزيج سائل يمكن دهن الجسد به قبل ربطه.

«كما لليهود عادة أن يكفنوا»: عادة اليهود هذه سبق أن وصفها القديس يوحنا في دفن لعازر: «فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل، فقال لهم يسوع حلوه ودعوه يذهب.» (يو ١١:٤٤)

الساقان اللتان سارتا على الماء ولم تميدا، ربطوها بقماط! والذراع التي فكت أسر شعب إسرائيل (مز ٧٧:١٥)، قمطوها برباط! والرأس مع الوجه بمنديل لفوه، وحجبوه، وأنت الذي «تحجب وجهك، فترتاع (كل خليقة).» (مز ١٠٤:٢٩)

لقد تعلم اليهود من المصريين كيف يحنطون الجسد. ولكن احتفظ اليهود بتمسكهم أن لا يفضل من الجسد شيء. في حين أن المصريين كانوا ينزعون الأعضاء الأكثر تحللاً مثل المخ والأحشاء، فكانت توضع فى قوارير خاصة بجوار التابوت، بعد أن يجروا عليها أصولاً أخرى للتحنيط.

والمصريون كانوا يحنطون برجاء عودة الروح من العالم الآخر، وأما اليهود فكانوا يحنطون لمجرد تكريم الجسد.

وأما يوسف ونيقوديموس، فبينما كانا منهمكين في خدمة الجسد الممزق، كانت النفس تعمل عملها العظيم لكرازة العالم الآخر: «مماتاً في الجسد، ولكن محيى في الروح، الذي فيه أيضا ذهب فكرز للأرواح التي في السجن.» (١بط٣:١٨-١٩)

وهكذا كسر المسيح السبت حتى في موته، إذ ذهب وكرز للأرواح المحجوزة في سجن سبى خطاياها، بانتظار الفادي الذي ألقى عليهم ظل صليبه، فانفكت قيودهم، وقادهم صاعداً في موكب نصرته: «سبى سبياً وأعطى الناس عطايا.» (أف ٤:٨)

١٩:٤١ وَكَانَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ بُسْتَانٌ وَفِي الْبُسْتَانِ قَبْرٌ جَدِيدٌ لَمْ يُوضَعْ فِيهِ أَحَدٌ قَطُّ.

حملوا الجسد بين أيديهم، وساروا به، وهو الذي تسير الأفلاك والنجوم على هداه! من فوق رابية الجلجثة، انحدروا قليلاّ حيث أعد يوسف بستانا ونحت فيه قبراً بوحي من الروح و بإلزام. ولم يدر آنئذ أنه وضع الأساس لأقدس بقعة على الأرض، لتبنى عليها أعظم كاتدرائيات العالم عبر كل العصرم والأزمان، ليؤمها شعوب الأرض طراً، وحيث يطرح على أعتابها الملوك تيجانهم، ويحنون الرؤوس والركب. لقد أراد يوسف قبراً لدفن موتاه! فصار قبرا لإعلان القيامة والحياة! وسواء في بستان جثيماني، حيث تألم متوجعاً، أو في بستان الجلجثة، حيث حمل لعنة الخطية في الجسد حتى القبر، فالمسيح يعيد في أذهاننا صورة أدم كيف خالف وهو في بستان الفردوس، وكيف حل عليه العقاب وحلت عليه وعلى أولاده لعنة الموت، وذلك تمهيداً للقيامة من البستان أيضاً التى بها أعاد آدم وبنيه إلى الفردوس مرة أخرى.

«قبر جديد لم يوضع فيه أحد»: مضادة كبرى، أن يستودع جسد الابن الوحيد في قبر، ليس لدى الإنسان وحسب، بل ولدى الملائكة، إذ حسبوها أيضاً مضادة أعظم من أن تحل: «لماذا تطلبن الحى بين الأموات.» (لو ٢٤:٦)

فإن كان ولا بد أن يُسند الجسد القدوس في قبر، فلا بد أن يُخلى القبر من معناه، فلا يكون قبرا قط فيما كان وفيما سيكون، لأن الذي توسده هو قاهر الموت ومقيم الحياة!

والذي لا تسعه السموات العلا، إن وسعه قبر فهو السماء الجديدة بعينها.

وصخر الدهور، لا يسكن الصخور؛ وإن هو سكنها فهي قُدت من خلود.

والجسد، بالرؤيا العتيقة، هو قسط المن، وهو هو لوحا العهد! فجسد «الكلمة» لا يعتريه لحد؛ وإن احتواه، فهو تابوت عهد الله الذي مقره السماء: «وانفتح هيكل الله في السماء، وظهر تابوت عهده في هيكله.» (رؤ١١:١٩)

السلام للقبر، مخزن الحنطة، وأهراء الحياة، الذي اختزن فيه «يوسف» مؤونة الدنيا، ليسد عوز عجاف السنين لكل العالمين!

السلام للقبر، الذي انهزمت فيه ظلمة الموت، وخرج النور ليضيء طريق الخلود.

السلام للقبر، الذي احتجز الأطياب والحنوط، التي سقطت عن الجسد، فصنعت منها الكنيسة مسحة الروح والحياة، ليعبر بها أولادها نهر الموت، كعباءة إيليا التي سقطت عنه، ففلق بها أليشع الأردن، وعبر.

٤٢:١٩ فَهُنَاكَ وَضَعَا يَسُوعَ لِسَبَبِ اسْتِعْدَادِ الْيَهُودِ لأَنَّ الْقَبْرَ كَانَ قَرِيباً

الآية اعتذارية عن عدم تقديم كل واجبات التكفين أو التجنيز. فعامل السرعة هو الذي حتم اختصار الإجراءات في تكريم الجسد، من جهة؛ وعامل السرعة بسبب اقتراب السبت، من جهة أخرى، هو الذي حتم اختيار هذا القبر الخاص بيوسف، كونه قريباً من الجلجثة، حيث الصليب.

«هناك وضعا يسوع»: في سفر الأعمال يبرز «فعل الوضع في القبر» كمرادف حتمي لفعل القتل! فالموت لا يصبح موتاً إلا إذا أصبح الجسد موضوعاً في قبر: «... إذ حكموا عليه، ومع أنهم لم يجدوا علة واحدة للموت، طلبوا من بيلاطس أن يُقتل، ولما تتموا كل ما كُتب عنه، أنزلوه عن الخشبة، ووضعوه في قبر» (أع١٣:٢٧-٢٩)

يلاحظ القارىء في هذا الوصف المؤثر الحزين اللائم أن وضع الجسد في القبر، بالرغم من أنه تم على يدين حانيتين لصديقين مؤمنين: يوسف ونيقوديموس؛ إلا أن فعل الوضع في القبر كان في نظر القديس لوقا كاتب سفر الأعمال، عملاً جحودياً وعدائياً من أمة اليهود التي خانت عريسها وقتلته، ثم دفنته بيديها! وكأن دفنه هو التكميل لشماتة موته. ولكن الدفن، في الوجه اللاهوتي، أعطى توكيداً لموته، وبالتال لاكتمال موجبات الفدية.

لقد شدد المسيح على أن تكون هذه آيته التي يعطيها لجيل فاسق وشرير: «جيل شرير وفاسق، يطلب آية، ولا تُعطى له آية إلا آية يونان النبي. لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام، وثلاث ليال، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال» (مت١٢:٣٩-٤٠). ليس جزافاً أن يقول المسيح «قلب الأرض»، لم يقل «تحت التراب» ولا «في باطن قبر» بل في «قلب الأرض» مشيراً إلى المركز الأعمق الذي يحتجز الأرواح، والذي انطلق هو إليه ليقوم برسالته التبشيرية في عالم الأرواح المحبوسة، على مستوى يونان الذي اتخذه المسيح مثلاً، عن قصد، بسبب إرساليته بالمناداة لخلاص أهل نينوى.

وهذا ما يراه القديس بولس في نزول المسيح إلى القبر بالجسد، مشيراً إلى نزول آخر على مستوى الكرازة: «إذ صعد إلى العلاء، سبى سبياً، وأعطى الناس عطايا، وأما أنه صعد، فما هو إلا أنه نزل أيضاً أولاً إلى أقسام الأرض السفلى. الذي نزل، هو الذي صعد أيضاً فوق جميع السموات لكي يملأ الكل» (أف٤:٨-١٠). وبهذا يحكم القديس بولس الربط اللاهوتي بين «نزول المسيح» إلى القبر بالجسد ومنه لنزول النفس إلى أقسام الأرض السفلى، وبين صعوده إلى أعلى السموات. فكما أنه، بنزوله، أفرغ من البشرية كل أوزار خزيها وعقوبتها حتى التراب؛ هكذا، بصعوده، ملأ الكل حتى إلى أعلى السمرات. ويلاحظ توكيد بولس الرسول على النزول أولاً، كسبب وعلة وقوة صعوده: «وأما أنه صعد،» فما هو إلا إنه نزل أيضاً أولاً».

فسلام للقبر، محط «قلب» كل الأرض، محط «الأقسام السفلى». والجسد فيه مسجى، بانتظار تكميل الرسالة،

بخروج المقيدين في الهاوية، المقيدين بالذل والحديد، المسببين في ظلمة الخطية، والمأسورين منذ الدهر في الجحيم بقيود من له سلطان الموت.

هوذا أشرق عليهم نور، فك أسرى الرجاء، وسبى سبي الجحيم، وصعد بهم كجبار، وهم في موكب نصرته، وعلى رؤوسهم فرح وابتهاج أبدي.

تم فى ٢٠١٧/٩/١٠

الأصحاح العشرون

وَفِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى الْقَبْرِ بَاكِراً وَالظَّلاَمُ بَاقٍ. فَنَظَرَتِ الْحَجَرَ مَرْفُوعاً عَنِ الْقَبْرِ. فَرَكَضَتْ وَجَاءَتْ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَإِلَى التِّلْمِيذِ الآخَرِ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ وَقَالَتْ لَهُمَا: «أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ». فَخَرَجَ بُطْرُسُ وَالتِّلْمِيذُ الآخَرُ وَأَتَيَا إِلَى الْقَبْرِ. وَكَانَ الاِثْنَانِ يَرْكُضَانِ مَعاً. فَسَبَقَ التِّلْمِيذُ الآخَرُ بُطْرُسَ وَجَاءَ أَوَّلاً إِلَى الْقَبْرِ. وَانْحَنَى فَنَظَرَ الأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ. ثُمَّ جَاءَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ يَتْبَعُهُ وَدَخَلَ الْقَبْرَ وَنَظَرَ الأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً. وَالْمِنْدِيلَ الَّذِي كَانَ عَلَى رَأْسِهِ لَيْسَ مَوْضُوعاً مَعَ الأَكْفَانِ بَلْ مَلْفُوفاً فِي مَوْضِعٍ وَحْدَهُ. فَحِينَئِذٍ دَخَلَ أَيْضاً التِّلْمِيذُ الآخَرُ الَّذِي جَاءَ أَوَّلاً إِلَى الْقَبْرِ وَرَأَى فَآمَنَ. لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعْدُ يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ: أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ مِنَ الأَمْوَاتِ. فَمَضَى التِّلْمِيذَانِ أَيْضاً إِلَى مَوْضِعِهِمَا. أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَ الْقَبْرِ خَارِجاً تَبْكِي. وَفِيمَا هِيَ تَبْكِي انْحَنَتْ إِلَى الْقَبْرِ. فَنَظَرَتْ مَلاَكَيْنِ بِثِيَابٍ بِيضٍ جَالِسَيْنِ وَاحِداً عِنْدَ الرَّأْسِ وَالآخَرَ عِنْدَ الرِّجْلَيْنِ حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعاً. فَقَالاَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ لِمَاذَا تَبْكِينَ؟» قَالَتْ لَهُمَا: «إِنَّهُمْ أَخَذُوا سَيِّدِي وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ». وَلَمَّا قَالَتْ هَذَا الْتَفَتَتْ إِلَى الْوَرَاءِ فَنَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفاً وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ. قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟» فَظَنَّتْ تِلْكَ أَنَّهُ الْبُسْتَانِيُّ فَقَالَتْ لَهُ: «يَا سَيِّدُ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ وَأَنَا آخُذُهُ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا مَرْيَمُ!» فَالْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: «رَبُّونِي» الَّذِي تَفْسِيرُهُ يَا مُعَلِّمُ. قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «لاَ تَلْمِسِينِي لأَنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى أَبِي. وَلَكِنِ اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلَهِي وَإِلَهِكُمْ». فَجَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَأَخْبَرَتِ التَّلاَمِيذَ أَنَّهَا رَأَتِ الرَّبَّ وَأَنَّهُ قَالَ لَهَا هَذَا. وَلَمَّا كَانَتْ عَشِيَّةُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهُوَ أَوَّلُ الأُسْبُوعِ وَكَانَتِ الأَبْوَابُ مُغَلَّقَةً حَيْثُ كَانَ التَّلاَمِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ جَاءَ يَسُوعُ وَوَقَفَ فِي الْوَسَطِ وَقَالَ لَهُمْ: «سَلاَمٌ لَكُمْ». وَلَمَّا قَالَ هَذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَجَنْبَهُ فَفَرِحَ التَّلاَمِيذُ إِذْ رَأَوُا الرَّبَّ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً: «سَلاَمٌ لَكُمْ. كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ أُرْسِلُكُمْ أَنَا». وَلَمَّا قَالَ هَذَا نَفَخَ وَقَالَ لَهُمُ: «اقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ. مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ». أَمَّا تُومَا أَحَدُ الاِثْنَيْ عَشَرَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ حِينَ جَاءَ يَسُوعُ. فَقَالَ لَهُ التَّلاَمِيذُ الآخَرُونَ: «قَدْ رَأَيْنَا الرَّبَّ». فَقَالَ لَهُمْ: «إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ وَأَضَعْ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ وَأَضَعْ يَدِي فِي جَنْبِهِ لاَ أُومِنْ». وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَانَ تَلاَمِيذُهُ أَيْضاً دَاخِلاً وَتُومَا مَعَهُمْ. فَجَاءَ يَسُوعُ وَالأَبْوَابُ مُغَلَّقَةٌ وَوَقَفَ فِي الْوَسَطِ وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكُمْ». ثُمَّ قَالَ لِتُومَا: «هَاتِ إِصْبِعَكَ إِلَى هُنَا وَأَبْصِرْ يَدَيَّ وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي وَلاَ تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِناً». أَجَابَ تُومَا: «رَبِّي وَإِلَهِي». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لأَنَّكَ رَأَيْتَنِي يَا تُومَا آمَنْتَ! طُوبَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَرَوْا». وَآيَاتٍ أُخَرَ كَثِيرَةً صَنَعَ يَسُوعُ قُدَّامَ تَلاَمِيذِهِ لَمْ تُكْتَبْ فِي هَذَا الْكِتَابِ. وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةٌ بِاسْمِهِ.

مكان البشارة: بعد القيامة في أورشليم

رابعاً: القيامة أى «الحياة الجديدة»

القيامة حدث يفوق التاريخ:

١- القيامة من بين الأموات «بذات الجسد» الذي صُلب، وبجروحه، وبطعنة الحربة النافذة إلى القلب؛ هذا الفعل الذي أجراه المسيح في نفسه، هو فعل غريب على البشرية. وكلمة «القيامة[1]» التي دخلت قاموس المسيحية، ليست أصلاً من كلمات بني آدم؛ إنها تختص بعمل لا يختص بالأرض ولا بأية خليقة، إن في السماء أو على

[1] إذا فحص القارىء في فهرس الكتاب لا يجد لكلمة «االقيامة« أي شواهد من أسفار العهد القديم.

الأرض.

القيامة حدث هبط إلينا من السماء: «إن يؤلم المسيح يكن هو أول قيامة الأموات» (أع٢٦:٢٣)، ومفهومه يفوق العقل والحواس والمشاعر والتفكير وأعماق الضمير، لأنه يفوق اللحم والدم. إنه فعل خلقة جديدة في صميم الخلقة العتيقة، أضافت إلى الإنسان سواء في فكره أو كيانه بندا جديداً سماوياً.

لذلك ينبغي أن يستعد الفكر الآن قبل أن نخوض في كيف ظهرت القيامة واستعلنت ورُتبت وسُمعت وجُست ولُمست، يلزمنا في هذا ذهن مستعد لقبول حقائق جديدة لا تقاس بأي حقائق أو قياسات سابقة في تاريخ الإنسان ومفهومه، وإن كانت هي، في ذات الوقت، حقائق ليست وهمية أو تصورية أو رؤيوية بل حقائق واقعية يمكن أن تمسكها العين مسك اليد، وتلمسها اليد لمس اليد لليد، وتتحسسها كما تحس العظم واللحم. ولكن بالرغم من واقعيتها الصلبة فهي لا تمت إلى واقع الإنسان!

لأنه يلزم أن نعرف من بولس الرسول أن هذا الذي يقوم من الموت هو جسد روحاني: «هكذا أيضاً قيامة الأموات، يُزرع في فساد ويُقام في عدم فساد، يُزرع في هوان ويُقام في مجد، يُزرع في ضعف ويُقام في قوة، يُزرع جسماً حيوانياً ويُقام جسماً روحانياً، يوجد جسم حيواني (أو نفساني) ويوجد جسم روحاني» (١كو١٥:٤٢-٤٤). والجسم الروحاني لا يقاس بعد بقياسات الجسم الحيواني؛ إنه يحتاج لعيون روحانية لكي تراه، أوعلى وجه الأصح، يحتاج إلى البعد الروحي في قياسات العين الترابية لكي ترى العين ما لم يكن في حيز طبيعتها.

هذا من جانب الإنسان، أما من جانب المسيح المُقام، فقد أوضح القديس بطرس الرسول، بوصفه قد اختبر شخصياً، أن المسيح أُعطي من الله ألا يصير ظاهراً، بمعنى أنه كان يُظهر ذاته بإرادته للذين انتخبهم ليكونوا شهود قيامته وليس للجميع: «هذا أقامه الله في اليوم الثالث وأُعطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب بل لشهود سبق الله فانتخبهم، لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات.» (أع١٠:٤٠-٤١)

والصعوبة كل الصعوبة هي بسبب سلطان الموت الذي استبد بوعي الإنسان أشد استبداد، حتى إنه ألقى ستاراً من الظلمة كثيفة العتامة على كل ما هو بعد الموت! فالموت تصور في شعور الإنسان ولاشعوره أنه العدم، عين العدم! هكذا تجبر الموت على وعي الإنسان وتسيطر ظلماً وعسفاً وكذباً وبهتاناً. والسبب فى ذلك لا يُخفى على الإنسان الروحي. فالموت بحد ذاته عقوبة، وعقوبة الموت رسخت في كيان الإنسان كعقدة لا تُحل، وعقدة الموت لا يتخللها رجاء بالحياة، أي رجاء، وهكذا قتل الموت فكرة الحياة بعد الموت قتلاً، وبدد مجد الروح وما للروح! لذلك أصبحت القيامة، وهي الحياة بعد الموت بكل ملء الحياة، داخلة في نطاق المستحيل لمن صدق الموت وعاش عقدته واستسلم لعقوبته: «ويحي أنا الإنسان الشقي، من ينقذني من جسد هذا الموت.» (رو٧:٢٤)

لذلك نعود ونقول، إنه بالرغم من أن القيامة ظهرت علنا كحقيقة تُرى وتُسمع وتُجس بملء الحواس وملء المشاعر، إلا أن عقدة الموت هزت الواقع المنظور والمحسوس هزا عنيفاً وحاولت بكل جهد أن تلغي المنظور إلغاءً، وأن تُدخل الواقع الحي المتكلم أمامها في دائرة الخيال عنوة وتجبرا:

+ «فقال لهما يسوع لا تخافا...» (مت٢٨:١٠)، مع أن المسيح نفسه كان قائما بشخصه تماماً كما كان!

+ «ولكن بعضهم شكوا...» (مت٢٨:١٧)، مع أن المسيح أراهم كل العلامات أنه هو هو!

+ «فخرجن سريعاً وهربن من القبر، لأن الرعدة والحيرة أخذتاهن، ولم يقلن لأحد شيئاً لأنهن كن خائفات.» (مر١٦:٨)

+ «فلما سمع أولئك أنه حي، وقد نظرته (المجدلية)، لم يصدقوا» (مر١٦:١٣)، مع أنه سبق وأخبرهم بكل ما سيحدث!

+«وذهب هذان وأخبرا الباقين فلم يصدقوا ولا هذين» (مر١٦:١٣)، بالرغم من تكرار الشهادة!

+ «أخيراً ظهر للأحد عشر، وهم متكئون، ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم، لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام.» (مر١٦:١٤)

+ «وإذ كن خائفات ومنكسات وجوههن إلى الأرض، قال لهن: لماذا تطلبن الحي بين الأموات.» (لو٢٤:٥)

+ «فقام بطرس وركض إلى القبر، فانحنى ونظر الأكفان موضوعة وحدها، فمضى متعجباً في نفسه مما كان» (لو٢٤:١٢)

+ «فقال لهما: أيها الغبيان والبطيئا القلوب في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء، أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده» (لو٢٤:٢٥-٢٦)، حتى العقل وحتى القلب تقهقرا أمام حقيقة القيامة!!

+ «وقف يسوع نفسه في وسطهم وقال لهم: سلام لكم، فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحاً، فقال لهم: ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم، انظروا يدي ورجلي إني أنا هو، جسوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لى. وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه، وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال لهم: أعندكم ههنا طعام... فأخذ وأكل قدامهم.» (لو٢٤:٣٦-٤٣)

+ «ثم قال لتوما هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدي، وهات يدك وضعها في جنبي، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً.» (يو٢٠:٢٧)

بهذا الجزع، والخوف، والرعدة، والحيرة وعدم الإيمان، والتعجب وعدم التصديق، بل والغباء وقساوة القلب، استقبل التلاميذ «القيامة»، ولهم في ذلك الحق، كل الحق، فهم أموات بالخطية وأولاد المائتين الذين ماتوا جيعاً، وعلى بكرة أبيهم، لا يعرفون إلا لغة الموت، أما ما هو بعد الموت فليس له لغة، وإن وُجدت فليس لها وعي يدركها.

كل هذا يجعلنا، حينها نتترض لرواية القيامة التي حدثت على مستوى التاريخ، أن نتيقن أنها لا تمت إلى التاريخ بصلة. فالموت هو ختم نهاية التاريخ لكل إنسان، وليس من بعد الموت تاريخ لإنسان قط. فأن يقوم المسيح من الموت حياً بجسده، وبجروحه القاتلة وطعنة جنبه النافذة، يتكلم ويُحيي، ويكشف جروحه في يديه ورجليه وجنبه، ويأخذ يد توما ويضعها في مكان الحربة، فهنا حديث ما فوق التاريخ، وأحاسيس خاصة بجسد القيامة، ولغة الحياة الجديدة التي دخلت عالم الإنسان.

إذاً، يتحتم على الإنسان الذي يريد أن يؤمن بالقيامة أن يبدأ يتعلم علم ما بعد الموت، وكلام ما فوق التاريخ، وحديث ما يخص الحياة الجديدة للانسان. وليس معقولاً قط أن يُفسح المجال هنا لناقد يقيس بقياساته العتيقة ما يخص الحياة الجديدة.

كذلك على قارىء القيامة في الإنسانجيل الأربعة أن يستعد ليسمع متفرقات موقعة بغاية الصعوبة على التاريخ من الذين عاينوا وسمعوا وشهدوا، كل على قدر ما اتسع وعيه لإدراك هذا الحدث الجلل الفائق الإدراك الذي لا يمت للطبيعة البشرية بأية صلة. والقارىء إن وعى ذلك تماماً، وعى القيامة وهتف مع الكنيسة الأولى: السيح قام، بالحقيقة قام!

٢- ولكي نمهد للوعي المسيحي أن يدرك «القيامة»، يلزم بالأساس أن نضع في الاعتبار اننا في تعاملنا مع

المسيح فنحن نواجه «الله ظهر في الجسد» (١تى٣:١٦). فمعجزة المسيح العظمى هي الموت وليست القيامة، لأن السيح هو القيامة والحياة، وهو ابن الله المتعالي جداً عن مفهوم الموت، وحتى بعد تجسده لم يكن فيه خطية واحدة. ومعروف أن الموت هو عقوبة الخطية، فكيف يموت من هو القيامة والحياة، ومن هو المتعالي عن الموت، ومن هو بلا خطية قط؟ فكون المسيح يقبل أن يدخله الموت، فهذه هي معجزة الفداء، وقد استلزم منه أن يقبل الخطية، بمعنى أن يُحسب متعدياً حقيقياً ليتسنى للموت أن يدخله كعقوبة! دفع ثمنها بالفعل ومات وقُبر. ولكنه دفع ثمنها ليس عن نفسه بل من أجل الإنسان ليعفي الإنسان من الموت كعقوبة التعدي أو الخطية.

الموت دخل إلى المسيح، فمات المسيح حقاً، وقُبر، وبقي ميتاً من الثالثة بعد ظهر الجمعة إلى فجر الأحد ما يقرب من ٣٦ ساعة. ولكن لم يستطع الموت أن يتعامل مع جسد المسيح أكثر من انفصال النفس عن الجسد، بمعنى أنه لم يقرب الفساد خلية واحدة من الجسد: «لا تدع قدوسك يرى فساداً» (أع٢:٢٧)، لأن الجسد كان في حراسة روح الحياة باستعداد القيامة. لذلك، فالمسيح مات ليقوم، ويقوم بذات الجسد في ملء كماله وجروحه عليه، وعلامات الموت صارت برهان وصدق القيامة. والقيامة صارت برهان وصدق التجسد «عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد، وتعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات.» (رو١:٣-٤)

صفحة المجد فى تاريخ الإنسان

انفتاح سفر الحياة الأبدية بقيامة المسيح من الأموات وجراحه عليه

القديس يوحنا يكتب عن قصة القيامة التي عاصرها في أيامه، لكنيسة تعيش القيامة بالفعل على مدى ستين سنة سالفة، وعلى دراية بتاريخ حوادثها من واقع ثلاثة أناجيل.

لذلك، لا نتوقع من القديس يوحنا تدقيقات في السرد التاريخي. ولكنه يطرق المواقف البارزة التي رسخت في قلبه وذهنه، والتي فرضت عليه الإيمان بالقيامة فرضا، عن اقتناع جارف بدد الحزن المريع الذي خلفته حوادث الصلب، وأطاح بشعور الشك والخوف. لذلك جاءت تقاريره عن القيامة كرد حاسم للموت على الصليب بعذاباته.

وكما هبطت حوادث الآلام والموت في تصويراته لحوادث الصلب إلى مستوى العدم واليأس والتشتت والبؤس معاً للتلاميذ، ارتفعت تصويراته للقيامة في المقابل إلى مستوى الإيمان الكامل واليقين والتجمع والفرح لنفس التلاميذ. وهذا الانقلاب الجذري السريع في حياة التلاميذ، هو بحد ذاته برهان حاسم لصدق القيامة وقوة فاعليتها.

محتويات الأصحاح العشرين

المنظر الأول عند القبر (١٨:١)

١- رؤية القبر مفتوحاً

(أ) المجدلية في فجر الأحد تذهب إلى القبر، وتجده مفتوحاً، فتخبر التلاميذ. (٢٠:١-٢)

(ب) بطرس والتلميذ الأخر يركضان نحو القبر، ويجدان الأكفان واللفائف موضوعة بحرص. فيتعجب الأول ويؤمن الثاني (٢٠:٣-١٠) .

٢ _ المسيح يظهر للمجدلية:

(أ) المجدلية تنظر داخل القبر، فتجد الملائكة. (٢٠:١١-١٣)

(ب) المسيح يظهر للمجدلية بجوار القبر، فتخطىء معرفته، ويلفت نظرها بأن يدعوها باسمها. والمجدلية تبشر التلاميذ أنها رأت الرب. (٢٠:١٤-١٨)

المنظر الثاني: في العلية والتلاميذ مجتمعون.

١- فى مساء الأحد المسيح يظهر للتلاميذى ويحييهم، والتلاييذ يفرحون برؤية الرب. ثم يفتتح سفر الارساليات فى العالم. ويؤازرهم بنفخة الروح القدس وسلطان مغفرة الخطايا. (٢٠:١٩-٢٣)

٢ ـ المسيح يظهر خصيصا للأحد عشر من أجل توما في العلية.

(أ) توما كان غائباً عن الاجتماع الاول، ويرفض تصديق القيامة، ويرفض شهادة إخوته التلاميذ (٢٠:٢٤-٢٥)

(ب) في الأحد الثاني الثانى (اليوم الثامن من القيامة)، المسيح يظهر للتلاميذ المجتمعين ومعهم توما، والمسيح يدعو توما أن يرى ويتحسس جروحه. توما يعلن المسيح رباً وإلهاً. والمسيح يطوب الذين آمنوا ولو يروا. (٢٠:٢٦-٢٩)

المنظر الأول: عند القبر

(٢٠:١-١٨)

١ ـ رؤية القبر مفتوحاً فارغاً . (٢٠:١-١٠).

(أ) المجدلية في فجر الأحد تذهب إلى القبر، فتجده مفتوحاً، فتخبر التلاميذ: (٢٠:١-٢).

٢٠:١ وَفِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى الْقَبْرِ بَاكِراً وَالظّلاَمُ بَاقٍ. فَنَظَرَتِ الْحَجَرَ مَرْفُوعاً عَنِ الْقَبْرِ.

«أنا أحب الذين يحبونني، والذين يبكرون إلي يجدونني» (أم٨:١٧)

«وفي أول الأسبوع»: وترجمتها الحرفية: وفي «الأول للسبت»، لأن السبت محسوب أنه تاج الأيام في التعبيرات العبرية، لذلك فكل أيام الأسبوع تُحسب من بعده، أي الأول للسبت يعني (الأحد)، الثاني للسبت يعني (الاثنين). وهكذا. فالسبت يحمل في طياته كل الأسبوع، حتى إن كلمة »السبت» قد تأتي بمعنى الأسبوع كله، ففي قول الفريسي المتفاخر بتقواه: «أصوم مرتين في الأسبوع» (لو١٢:١٨) تأتي كلمة «السبت» بمعنى الأسبوع كله، لأنه يحتويه بكرامته.

وقد صار هذا الاصطلاح «أول الأسبوع» أي «الأحد» هو اليوم الذي كرمته القيامة فوق السبت وكل أيام الأسبوع. ويسميه الآباء القديسون اليوم «الثامن» أي يوم ما بعد الأسبوع، أي يوم ما فوق الزمان بالحساب الإنساني. لأنه يوم الرب.

وهذا التعبير يأتي موازياً لليوم الأول في الخليقة، الذي سُمى «الأسبوع» أي السبعة ايام للخليقة كلها من خلفه، أي بعده وقياساً عليه. ففي اليوم الاول قبل أن توجد الايام الأخرى بدأ الله الخلقة الاولى مبتدئاً: «ليكن نور» (تك١:٣). هكذا في «أول» الأسبوع «الأحد» قام المسيح من الموت ليبدأ الخليقة الجديدة: «أنا هو نور العالم (الجديد)».

«باكر والظلام باقي»: لم يهدأ لها بال ولم يغمض لها جفن. لقد أعدت الحنوط مع الزميلات المريمات بعد أن انقضى السبت، ثم باتت تنتظر الفجر، أسرعت أكثر من الباقيات، وكانت أول من ولج باب أورشليم الذي يطل على الجلجثة ... كان أملها الوحيد أن تطيب جسد من أسدى إليها الشفاء والمحبة، وما كانت تظن أنها ستسمع اسمها من فمه مرة أخرى، وتراه حياً بل وأكثر حياة. والذي يذوق محبة المسيح يستعذب سهر الليالى، والإسراع إليه

والظلام باق. ولكن فوق كل شيء، يا لشجاعة تلك المرأة العجيبة!

أين التلاميذ؟ أين بطرس والزمرة كلها؟ ألا يتراءى أحد عند القبر باكراً إلا هذه المرأة؟ وهل للنساء السير في الظلام، واقتحام المخاطر، والتواجد عند القبر خارج أسوار المدينة؟ منذ أن صُلب الرب، والتلاميذ يلوذون بالصمت، وهم مشلولو الحركة، والخوف يعصف بهم من كل جانب. ولكن هذه النكسة التي تكشف عن فداحة عثرة الصليب، هي هي عينها التي تضاف إلى مجد القيامة «وقوتها»، التي استطاعت أن تغير مثل هذه الرعدة والجبانة إلى قمة الشجاعة والمجاهرة وفصاحة البشارة ، التي هدت أركان أعتى إمبراطورية ظهرت في التاريخ، ومعها سرطان الوثنية التي كانت تنخر في جسم البشرية كلها.

إذا جمعنا ما يقوله القديس مرقس على ما يقوله القديس يوحنا فيما يخص ذهاب النسوة إلى القبر، تبرز الحقيقة؛ يقول القديس مرقس: «وباكراً جداً في أول الأسبوع أتين إلى القبر، إذ طلعت الشمس.» (مر ١٦:٢)

واضح من رواية القديس مرقس، أن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة (أم القديس يوحنا) قمن من بيوتهن «باكراً جداً، والظلام باق» كقول القديس يوحنا. ولكن مريم المجدلية سبقتهن مسرعة إلى القبر، فوصلته سريعا قبل أن ينقشع الظلام تماماً، فتسجلت شهادتها أولاً وبمفردها في إنجيل القديس يوحنا، أما أم يعقوب وسالومة فوصلتا ببطء وكانت الشمس قد طلعت. وهكذا تبدو المجدلية الاولى دائماً بين التقيات.

«فنظرت الحجر مرفوعاً عن القبر»:

القديس يوحنا يتميز با ستخدامه الاصطلاح «مرفوعاً» بالنسبة للحجر الموضوع على فوهة القبر، تماما كما وصف فتحة القبر والحجر عليها في قصة لعازر: «وجاء إلى القبر، وكان مغارة، وقد وُضع عليه حجر، قال يسوع ارفعوا الحجر» (يو ١١:٣٨-٣٩). وهذا يوحي أن الحجر الموضوع على فوهة القبر يكون مستديراً، ساقطاً في مجرى محفور له، يلزم إما رفعه، أو دحرجته، حسب الإنسانجيل الأخرى.

والحجر عادة يكون ثقيلاً ويلزم أكثر من رجل لدحرجته أو رفعه من مكانه، «من يدحرج لنا الحجر عن باب القبر ... لأنه كان عظيماً جداً.» (مر ١٦:٣-٤)

٢:٢٠ فَرَكَضَتْ وَجَاءَتْ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَإِلَى التِّلْمِيذِ الآخَرِ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ وَقَالَتْ لَهُمَا: «أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ».

جاءت إلى القبر مسرعة كأول زائر، وخرجت مسرعة كأول بشير، كانت السرعة إلى مستوى الركض تكشف عن مقدار اللهفة وشدة التأثر. ذهبت أولاً لبطرس، ومن هذا نستدل على أن مركز القديس بطرس لم يهتز بالرغم من السقطة التي وقع فيها قبل صياح الديك منذ ٤٠ ساعة لا غير. وتكرار القول عن ذهاب المجدلية «إلى» سمعان بطرس، و«إلى» التلميذ الآخر يكشف عن أنهما كانا يقطنان كل واحد في بيت بعيداً عن الآخر. وكونها تختار هذين الاثنين من بين التلاميذ، يكشف عن التساوي في المركز الأول بين القديسين بطرس ويوحنا، ولكن من شهادة القديس مرقس الأنجيلي، يبدو أن تعيين اسم «بطرس» كان بواسطة ملاك (مر ١٦:٧).

«أخذوا السيد من القبر، ولسنا نعلم أين وضعوه»: هذا التقرير يكشف عن أن المجدلية، إما اكتفت برؤيتها الحجر مرفوعاً عن فم القبر كدلالة على أن الجسد رُفع أيضاً من القبر، سواء بيد اليهود، أو بيد آخرين ليضعوه في المكان الأليق؛ وإما أنها تحققت وهي عند القبر أن الجسد فعلاً كان مرفوعاً وغير موجود. والاحتمال الأول هو

الأكثر توقعاً.

وقولها «لسنا نعلم» بالجمع، يفيد أن آخرين يشاركونها هذا التقرير، فربما أن النسوة كن قد حضرن أيضاً وشاركنها فى اكتشاف الحجر مرفوعاً.

و يا له من تعبير غاية في الوقار: «أخذوا السيد»، أي الرب، وهو ينم عن احساس عميق بأن المسيح لا يزال، بعد مأساة الصلب والإهانة والموت والدفن، هو السيد الأكرم والمتعالى، انها المحبة الصادقة، هي التي تصور للعين والقلب كل ما هو عظيم ومجيد لمن تحبه النفس؛ والقول الشائع هنا صحيح: «وعين الحب (الرضى)، عن كل عيب كليلة».

ولكن إذا عدنا إلى شهادة بقية النسوة وبقية شهادة المجدلية، ننتهي إلى حقيقة راسخة مرئية رؤى العين، لخصها القديس لوقا عن لسان تلميذى عمواس في إنجيله في آية واحدة: «بل بعض النساء منا حيرننا، إذ كن باكراً عند القبر. ولما لم يجدن جسده، أتين قائلات إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حي» (لو٢٤: ٢٢-٢٣)؛ ... ثم يكمل شهادة النسوة بشهادة بعض التلاميذ قائلاً: «ومضى قوم من الذين معنا (يقصد بطرس ويوحنا)، إلى القبر، فوجدوا هكذا كما قالت أيضاً النساء، وأما هو فلم يروه.» (لو٢٤: ٢٤)

ويلاحظ القارىء في آخر الآية القول: «وأما هو فلم يروه» الذي يفيد أن النسوة رأينه كما قرر القديس متى: «وفيما هما منطلقتان (مريم المجدلية ومريم الأخرى) لتخبرا تلاميذه، إذا يسوع لاقاهما وقال سلام لكما. فتقدمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له.» (مت٢٨: ٩)

لذلك ينبغي لنا أن نفحص جيداً، ويتمعن، في تقرير المجدلية الذي قدمه إنجيل يوحنا باختصار زائد: «أخذوا السيد من القبر، ولسنا نعلم أين وضعوه»، إذ نلاحظ أنها لم تكن تبكي، بل قدمت تقريرها بعد أن قطعت المسافة كلها ركضا. إذن، فهي كانت مفعمة بمشاعر صاحية يحدوها نوع من الأمل، فلما فقدته عادت إلى القبر الفارغ تبكي.

ثم لينتبه القارىء لحركتين تحملان معهما إحساساً قوياً بأن شيئاً هاما وخطيرا قد حدث، ركض المجدلية لتخبر بطرس ويوحنا، ثم ركض بطرس ويوحنا بالتالي لاستطلاع الأمر، ثم ركض يوحنا بالذات ركضا فائقا ليسبق. هذا الركض اللاهث المتلهف لمعرفة ما حدث، يحمل معنى الأمل الذي كان شبه نائم في أعماق وجدانهم جميعا: هل قام الرب؟ وأين هو؟ القبر الفارغ وحده، أي عدم وجود الجسد لم يقنع المجدلية، ولم يقنع بطرس كدليل على قيامة الرب، إنهم كانوا يبحثون عن دليل آخر للقيامة. فالمجدلية تعلق على ما بعد القبر الفارغ: «أين وضعوه»، إنها تبحث عما سبب الفراغ للقبر. أما بطرس، فبعد أن نظر القبر الفارغ، وحتى الأكفان نفسها موضوعة وحدها، لم يفهم شيئاً، فالقيامة عنده كانت تحتاج إلى دليل أخر: «فقام بطرس وركض إلى القبر، فانحنى، ونظر الأكفان موضوعة وحدها، فمضى متعجبا في نفسه مما كان.» (لو٢٤: ١٢)

إذاً، نفهم من هذا جيداً، أن القبر الفارغ وحده وحتى الأكفان التي وُجدت كما هي ملفوفة بلفتها، والجسد منسحب منها، ومنديل الرأس في موضع الرأس وليس بداخله الرأس، لم تكن كافية لتكون العامل الأساسي للايمان بالقيامة، إذا استثنينا إيمان القديس يوحنا، وهو الوحيد الذي رأى القبر فارغاً والأكفان وحدها «فأمن».

أي أن القيامة استعلنت من خلال ظهور الرب نفسه. ولمن ظهر أولاً وكان أكثر ظهوراً؟ إلا لمن كانت المحبة تتأجج في قلبها تأججاً: «الذي يحبني ... أحبه وأظهر له ذاتي.» (١٤: ٢١)

أما «إيمان» القديس يوحنا بالقيامة مباشرة قبل أن يظهر له المسيح شخصياً، كالمجدلية، فهو نموذج الإيمان

الأعلى غير القائم على العيان (النقيض الشديد لإيمان توما). وإيمان القديس يوحنا هو الذي استلمته الكنيسة كلها كميراث رسول فائق القدر، وعليه نحن نعيش الآن: «الذي وإن لم تروه تحبونه، ذلك وإن كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون، فتبتهجون بفرح لا يُنطق به، ومجيد» (١بط١:٨)؛ «طوبى للذين آمنوا ولم يروا.» (يو٢٠:٢٩)

(ب) بطرس والتلميذ الآخر يركضان نحو القبر، ويجدان الأكفان واللفائف موضوعة بحرص، فيتعجب الأول، ويؤمن الثاني. (٢٠:٣-١٠)

٢٠:٣ فَخَرَجَ بُطْرُسُ وَالتِّلْمِيذُ الآخَرُ وَأَتَيَا إِلَى الْقَبْرِ

التعبير يوحي بأن كل منهما خرج من بيته في طريقه إلى القبر، فتلاقيا في الطريق، وتابعا الركض معاً نحو القبر. هنا في هذا الموضع، يكشف لنا القديس لوقا في إنجيله عن كيف استقبل التلاميذ عموماً رسالة المجدلية بفتور ممزوج بعدم التصديق، والتقليل من انفعال المجدلية ومن معها إلى درجة الإتهام بالهذيان: «... اللواتي قلن هذا للرسل، فتراءى كلامهن لهم كالهذيان، ولم يصدقوهن.» (لو٢٤:١٠-١١)

ولكن يخص إنجيل القديس لوقا بطرس من دون التلاميذ بمراجعة موقفه بسرعة، وقيامه وذهابه للقبر راكضاً، كما جاء في إنجيل القديس يوحنا: «فقام بطرس وركض إلى القبر» (لو٢٤:١٢). ولكن في موضع آخر من رواية القديس لوقا وحينما يروي بشارة النسوة على لسان تلميذي عمواس، نستشف أن بطرس لم يذهب وحده إلى القبر هكذا: «بل بعض النساء منا حيرتنا، إذ كن باكراً عند القبر ولما لم يجدن جسده، أتين قائلات: إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حي. ومضى قوم من الذين معنا إلى القبر، فوجدوا هكذا، كما قالت أيضاً النساء، وأما هو فلم يروه.» (لو٢٤:٢٢-٢٤)

٢٠:٤ وَكَانَ الاِثْنَانِ يَرْكُضَانِ مَعاً. فَسَبَقَ التِّلْمِيذُ الآخَرُ بُطْرُسَ وَجَاءَ أَوَّلاً إِلَى الْقَبْرِ.

عن قصد وإصرار وللفت نظر القارىء، يسجل القديس يوحنا لنفسه هذا السبق، ومخطىء من يقول بعامل السن، أن هذا شاب وذاك متقدم في السن، فالآيات القادمة تخطىء مثل هذا الزعم، لأن السرعة في الجري لو كانت من رعونة الشباب، ما تأخر يوحنا عامداً ولم يدخل القبر، إذ ترك هذا السبق لبطرس توقيرا واحتراماً للسن.

إذاً فالسبب واحد ووحيد هو أن يوحنا هو: «التلميذ الذي يحبه يسوع». وهذا قصد القديس يوحنا أن يوحي به للقارىء ليفهمه. فمحبة المسيح له جعلت له أجنحة يطير بها أكثر من أن يجري، هذا لم ينسه القديس يوحنا قط، فقد كان يوماً فريداً وساعة فريدة في حياته. وليفهم القارىء أن القديس يوحنا أخفى اسمه واستبدله بـ «التلميذ الذي يحبه يسوع»، وعلى مستوى إنجيله كله يبرهن على صدق دعواه. وهنا، فأن يسبق يوحنا بطرس فهذه مسألة تعبر عما تفعله المحبة. فالذي يريد أن يجري إلى المسيح ويسبق، تلزمه قوة المحبة. أما لماذا يصر القديس يوحنا أن يسجل لنفسه هذا التفوق على بطرس، فهو لكي يوحي للقارىء أيضاً تلميحا لماذا اختاره المسيح ليسلمه أمه، وليس بطرس.

٢٠:٥ وَانْحَنَى فَنَظَرَ الأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ.

كان المكان الذي يوضع فيه الجسد في غرفة منخفضة نوعاً ما عن الغرفة الخارجية للقبر حيث كانت تجتمع النسوة للتحنيط والبكاء؛ فكان على الواقف خارج غرفة الجسد أن ينحني على فتحة الباب لينظر ما بداخل غرفة الدفن حيث الجسد يكون مسجى على مصطبة.

أما كون يوحنا لم يدخل، فهذا قطعاً ليس لعامل الخوف أو الرهبة أوالنجاسة من لمس القبر، كما يقول بعض الشراح؛ ولكن لأن بطرس كان قد وصل، فأعطاه الفرصة ليكتشف الأمر أولاً. والذي يوضح ذلك، أن فعل «نظر» الذي استخدمه القديس يوحنا في تعبيره عن استطلاعه لما في داخل القبر جاء باليونانية ( )، ويفيد النظرة العابرة البسيطة من بعد. أما الفعل الذي استخدمه لاستطلاع بطرس لما دخل القبر فهو ( )، ويفيد التطلع مع التأمل الفاحص عن قرب. وما نشأ عن اختلاف النظرتين: البسيطة والمتعمقة، أن بطرس استطاع أن يرى منديل الرأس الذي كان داخلا على بعد، أما يوحنا فلميتره.

وكل هذه الدقة في وصف القديس يوحنا لحادث دخولهما القبر، كانت بسبب انطباع هذه الحوادث بشدة في ذهن القديس يوحنا وهو يصفها من واقع حضورها في ذهنه، الذي لم يفارقه أكثر من ستين سنة!!

وليلاحظ القارىء أن الفكر الذي كان طاغياً على كل من بطرس ويوحنا، والذي دعاهما إلى الجري ودخول القبر والفحص، كان بسبب رواية المجدلية أن: «السيد أخذوه». فكان السؤال الذي يفتشون عن جواب له هو: هل الجسد قد أُخذ من القبر فعلاً؟ وكيف؟ ومن هم الذين تجرأوا على ذلك؟

ولعل رواية القديس. يوحنا هذه، وكيف ابتدأ بخبر: «أخذوا السيد، ولسنا نعلم أين وضعوه»، بالرغم من أنها جاءت معطلة للتفكير في القيامة، فقصد الروح القدس والوحي منها كان هو فحص القيامة فحصاً متأنياً؛ لا يبدأ من الصفر فقط بل ومن تحت الصفر. فهذا الخبر السلبي: «أخذوا السيد، ولسنا نعلم أين وضعوه»، هو فرض تكذيب القيامة، من هذا المستوى بدأ القديسان بطرس ويوحنا معاً يفحصان موضوع القيامة حتى انتهى بهما الأمر إلى يقين الظهور الإلهي.

٦:٢٠ ثُمَّ جَاءَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ يَتْبَعُهُ وَدَخَلَ الْقَبْرَ وَنَظَرَ الأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً.

كان دخول بطرس سريعاً جريئاً تحمله اللهفة لمعرفة كيف «سُرِق» الجسد، ولكن بدخوله داخل غرفة الدفن، وهي مظلمة بطبيعة الحال، استلزم منه نظرة فاحصة متأملة؛ فأخذ يجول ببصره وبكل انتباه وإعمال التفكير والذكاء والملاحظة، فللحال اصطدم بالحقيقة شبه العظمى أن اللفائف التي كُفن بها الجسد هي هى، وموضوعة في مكانها. إذاً فالجسد لم يُسرق؛ هذه هي الحقيقة الأولى التي كانت تهم الراوي في روايته، لتفتح مجرى القيامة قبل استعلانها بظهور المسيح قائماً من الموت. وهنا نفى كل تفكير في أي شيء غير القيامة.

وكلمة «اللفائف موضوعة»، وبعد ذلك في الآية القادمة: «والمنديل ... ملفوفاً في موضع وحده»، هو وصف يختص بنفي إمكانية السرقة نفياً قاطعاً، لأن اللفائف كانت بحسب كلمة «موضوعة»، والمنديل بحسب كلمة «ملفوفاً في موضع وحده»، وليس مع اللفائف بل «ملفوفاً وحده»، هذا الوضع في جملته يصور الجسد كيف كان راقداً مسجى، ثم انسحب من داخل اللفائف دون أن يفقدها نظامها التي كانت ملفوفة به حول الجسد. هذا المنظر، بحد ذاته، يذهل العقل الذي عبر عنه في إنجيل القديس لوقا: «فمضى متعجبا في نفسه مما كان».

٧:٢٠ وَالْمِنْدِيلَ الَّذِي كَانَ عَلَى رَأْسِهِ لَيْسَ مَوْضُوعاً مَعَ الأَكْفَانِ بَلْ مَلْفُوفاً فِي مَوْضِعٍ وَحْدَهُ.

كان وضع المنديل مكملاً لشكل الجسد كما كان مسجى سابقاً؛ فهو لم يفك من حول الرأس ليُرفع مع اللفائف، ولا اللفائف فُكت من مكانها ومن لفتها حول الجسد. كان المنظر ينطق نطقا بأن الجسد غادر الكفن ... لقد طرح أردية الموت لبني الموت، ليلبس النور كالثوب (مز ٢:١٠٤)، وخلع أثواب الجسد ليلبس الجلال (مز١:٩٣). لم تفكه يد بشر، ولا يد سارق، بل انفك هو من الكفن، كما دخل العلية والأبواب مغلقة!! ألم يقل سابقاً: «أنتم من أسفل أما أنا

فمن فوق» (يو٨: ٢٣)!!

لقد وقف تفكير بطرس عند حد استحالة سرقة الجسد، بدليل الأكفان الموضوعة في مكانها، ولكن لم يتقدم إلى فكر القيامة الذي يحتم الإعتقاد بالحياة التي لا تخضع لقوانين هذه الحياة. وبهذا انحصر في لغز يصعب حلة.

٢٠: ٨ فَحِينَئِذٍ دَخَلَ أَيْضاً التِّلْمِيذُ الآخَرُ الَّذِي جَاءَ أَوَّلاً إِلَى الْقَبْرِ وَرَأَى فَآمَنَ.

رأى يوحنا ما رأى بطرس، اللفائف الموضوعة والمنديل بعيدا عنها موضوعاً بحرص وحده، وكل شيء في ترتيب ونسق طبيعي، ولا علامة لأي يد تدخلت في خروج الجسد من الكفن. ولكن الصمت عند بطرس والتعجب مما كان، ارتفع عند يوحنا إلى حد «الإيمان» ولكن ليس بالقيامة، وإلا لكان الأنجيل قد ذكر ذلك بوضوح، ولكن «الإيمان» كان بأن شيئاً قد تم!! وإن نور فجر هذا الايمان العريض بالمسيح كان يحوى فيه بصيص تكميل وعد المسيح. ولكن إلى هنا توقف الإيمان عند يوحنا بانتظار استعلان أكثر. على كل حال، لم يكن غبيا كتلميذي عمواس، أو بطيء الايمان بالقلب، فقد تسحبت عليه أنوار القيامة، ولكن من بعد. القديس يوحنا يقدم اختباره للايمان دون أن يرى؛ هو إيمان، ولكن لا يجزم القديس يوحنا أنه إيمان مباشر بالقيامة، بل كان ممهدا لها بكل تأكيد. القديس يوحنا نعرفه بعد ذلك في حادثة صيد السمك بعد القيامة، كيف عرف الرب تلقائياً دون الأخرين، «إنه الرب». هو حدس إلهامي أكثر منه تحقيق رؤيا أو إدراك نظر.

٢٠: ٩ لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعْدُ يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ: أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ مِنَ الأَمْوَاتِ.

ها يقدم القديس يوحنا حقيقة جوهرية، وهي أن الأسفار المقدسة بالرغم من النبوات المرشدة والهادية إلى حقيقة المسيح لم تكن هي القائد للتلاميذ للتعرف على القيامة، بل الحوادث المتتابعة هي التي ألمعت في ذهنهم، وأعطت للأسفار المقدسة فرصة لفرض ذاتها: الحجر المرفوع من على القبر، القبر الفارغ، بشارة المجدلية والنسوة، الأكفان الموضوعة بمفردها وبنظام؛ هذا كله في الحقيقة يوضح لنا بأجلى بيان أن التلاميذ لم يكونوا قط مستعدين لتقبل القيامة، ولم يكن في ذهنهم أي تمهيد من واقع الأسفار المقدسة، مما يفيد أن القيامة كحدث فائق اقتحمت مجالهم الفكري اقتحاماً، وفرضت ذاتها عليهم كموضوع إيمان.

والقديس يوحنا كان دقيقاً وواضحاً وصريحاً في ذكر ضعف إيمان التلاميذ وتباطؤ ذهنهم في قبول هذه الحقيقة: «لم يكونوا بعد يعرفون الكتاب أنه ينبغي أن يقوم من الأموات». وهذا بدوره يوضح لنا منتهى صدق القيامة بحد ذاتها، فهي حدث إلهي دخل إلى عالم التلاميذ عنوة، وبدون تمهيد، ولا باستعداد سابق. كما كشف لنا هذا التباطؤ الشديد أن كل الشهود، شهود العيان بدون إيمان، صمتوا جميعا. ولكن، للأسف الشديد، فإن صراحة الأنجيل في سرد نقط ضعف إيمان التلاميذ وبطء قبولهم لحقيقة الإيمان، اتحذه بعض النقاد والهراطقة والمقاومين للايمان المسيحي كمحاولة لمهاجة القيامة ونفي حدوثها. وهكذا يتبين للقارىء، كيف أن نقط القوة في استعلان الحق الإلهي تتحول عند المحرومين من نور النعمة إلى نقط ضعف، وأن أسباب الإيمان الشديدة الصدق تصير عند الفاقدين للبصيرة الروحية، أسباب هزء وتجديف ومقاومة.

«يعرفون الكتاب»: القديس يوحنا هنا لا يشير إلى مجمل الأسفار، بل إلى كتاب واحد بالذات، وغالباً يقصد المزمور السادس عشر، وهو الذي استشهد به القديس بطرس الرسول بعد الخمسين: «لذلك فرح قلبي وابتهجت روحي. جسدي أيضاً يسكن مطمئناً. لأنك لن تترك نفسي في الهاوية. لن تدع قدوسك يرى فساداً.» (مز١٦: ٩-١٠)

ويعلق بطرس الرسول في سفر الأعمال على هذا النص، موضحاً بشدة أنه نص نبوة القيامة بالدرجة الاول هكذا: «أيها الرجال الإخوة يسوغ أن يُقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داود، إنه مات، ودُفن، وقبره عندنا حتى هذا اليوم، فإذ كان نبياً وعلم أن الله حلف له بقسم أنه من ثمرة صلبه يقيم المسيح حسب الجسد، ليجلس على كرسيه، سبق فرأى وتكلم عن قيامة المسيح، أنه لم تترك نفسه في الهاوية، ولا رأى جسده فساداً. فيسوع هذا، أقامه الله، ونحن جميعاً شهود لذلك (٢:٢٩-٣٢)

٢٠:١٠ فَمَضَى التِّلْمِيذَانِ أَيْضاً إِلَى مَوْضِعِهِمَا.

واضح أن لكل منهما موضعه، أو خاصته، كما جاءت فى اليونانية. يوحنا إلى بيته الخاص مع القديسة العذراء مريم، والقديس بطرس في العلية مع التلاميذ في بيت يوحنا مرقس. و يعطينا القديس مرقس صورة حزينة يخيم عليها اليأس لهؤلاء التلاميذ المجتعين في العلية مع كل الذين من خاصتهم هكذا: «فذهبت هذه، وأخبرت الذين كانوا معه (مع يسوع)، وهم ينوحون ويبكون.» (مر١٦:١٠)

هذا هو منظر التلاميذ قبل القيامة. وحتى بعد أن رأوا الحجر مدحرجا والقبر فارغاً واللفائف موضوعة في مكانها، ذهبوا إلى مواضعهم صامتين، وحتى المحبوبة بقيت عند القبر الفارغ تبكي

٢- المسيح يظهر للمجدلية: (٢٠:١١-١٨).

(أ) المجدلية تنظر داخل القبر فتجد الملائكة: (٢٠:١١-١٣).

٢٠:١١ أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَ الْقَبْرِ خَارِجاً تَبْكِي. وَفِيمَا هِيَ تَبْكِي انْحَنَتْ إِلَى الْقَبْرِ.

الإنسانجيل الثلاثة تتفق في ذكر زيارة واحدة لمريم المجدلية إلى القبر، والقديس يوحنا هو الذى ينفرد بذكر الزيارة الاولى التي تمت باكراً جداً، ثم يذكر الزيارة الثانية ببيانات أوفى؛ والقصد هو توضيح تدرج استعلان القيامة خطوة خطوة، بكل دقة.

وهذا التدرج نلاحظه أيضاً في سياق الرواية هكذا:

١- المجدلية ترى الحجر مرفوعاً والقبر فارغاً، فتقول: «أخذوا السيد».

٢- يوحنا يرى أولاً الأكفان موضوعة ولم يدخل.

٣- بطرس يرى اللفائف وحدها ومنديل الرأس وحده، فيتقدم خطوة أن الجسد لم يُؤخذ.

٤- يوحنا يرى أيضاُ كل هذا، فيؤمن.

كذلك نرى التدرج الذي يعتني القديس يوحنا بتسجيله للقيامة في استخدامه ثلا ثة أفعال مختلفة لفعل «يرى»، بالنسبة ليوحنا أولاً، ثم بطرس ثانياً، ثم يوحنا ثالثاً:

١- فيوحنا أولاً نظر الأكفان موضوعة، نظرة بسيطة عابرة.

٢- بطرس ثانياُ نظر الأكفان والمنديل، نظرة تأملية فاحصة.

٣- ويوحنا ثالثاً رأى فآمن، وهي نظرة تصديق وإيمان.

واضح أن المجدلية بعد أن أخبرت بطرس ويوحنا، تبعتهم هي أيضاً إلى القبر، وربما تركض أيضاً، إذ لما خرج التلميذان من القبر كانت المجدلية خارجاً. أما التلميذان فخرجا من القبر، وذهبا، كل في طريقه، وكأن القبر لم يعد فيه ما يحل لغز المسيح طالما ليس فيه الجسد. أما المجدلية فتشبثت بالقبر ولم تغادره، وكأنها تطالب القبر أن يحل لغز نفسه، وتستعطفه ببكائها أن رجاءها كان لا يزال منعقدا عليه. ويعبر القديس أغسطينوس عن وقفتها هذه

هكذا: (إن ضعف طبيعتها والمشاعر الجياشة في قلبها سمرتها في المرضعا).
لم تحاول الدخول إلى غرفة الدفن ولكنها تشجعت وانحنت أيضاً لتنظر هي الأخرى. إنه وحي الروح فيها، وقد اجتذبها نور السماء من داخل القبر.

١٢:٢٠ فَنَظَرَتْ ملاَكَيْنِ بِثِيَابٍ بِيضٍ جَالِسَيْنِ وَاحِداً عِنْدَ الرَّأْسِ وَالآخَرَ عِنْدَ الرِّجْلَيْنِ حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعاً.

«يا جالساً على الكروبيم أشرق... أيقظ جبروتك وهلم لخلاصنا.» (مز ٨٠:١-٢)
هذه أول مرة يذكر فيها القديس يوحنا شيئاً عن ظهور فعلي للملائكة.
وضع الملاكين هنا في غاية الأهمية اللاهوتية، لأنه يمثل مطابقة لما نصت عليه التوراة في مكان الحضرة الإلهية من الشاروبيم فوق غطاء التابوت المسمى: «كرسي الرحمة» أو «الغفران»: «فاصنع كروبا واحداً على الطرف من هنا، وكروباً آخر على الطرف من هناك... وأنا أجتمع بك هناك، وأتكلم معك من على الغطاء، من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به.» (خر ٢٥:١٩-٢٢)
وهنا وضع الملاكين على طرفي مصطبة القبر حيث كان الجسد موضوعاً، يشير إشارات بليغة إلى مركز الجسد الإلهي المسجى بمفهوم الحضرة الإلهية، وإلى قداسة المكان على المستوى العالي كموضع الحضرة الإلهية؛ كما يشير إلى أن القبر صار بمفهوم تابوت العهد الجديد بلا نزاع، ليس في مكانه ومظهره، لأنه فارغ، ولكن في معناه. فمن القبر استعلنت القيامة التي هي الركن والسند للايمان المسيحي، واستعلن المسيح ابن الله. أما جلوس الملاكين وليس وقوفهما فهو يشير إلى انتهاء نوبتهما في الحراسة، بعد أن قام المسيح وغادر القبر. فمجرد وجودها جالسين عند طرفي القبر هو بمثابة إشارة، أول إشارة، بالقيامة. وبالفعل كان الملاكان، أو الرجلان الإلهيان بحسب إنجيل القديس لوقا، أول من أعلن القيامة: «لماذا تطلبن الحي بين الأموات؟ ليس هو ههنا لكنه قام» (لو ٢٤:٥-٦)
ولكن في إنجيل القديس يوحنا كان عمل الملاكين هو تحديد مكان وضع الجسد، «واحداً عند الرأس والأخر عند الرجلين». وهذا التحديد الملائكي هو بحد ذاته شهادة فائقة ليقين موت الرب ويقين الدفن. إنه ختم تصديق لكل رواية ما بعد الصليب، وبالتالي إشارة صامتة ولكن دامغة أنه قام. لقد كان عمل الملاكين هو استعلان سر القبر وسر القيامة، الأمور التي فاقت قدرة بطرس والآخرين، ثم تحويل البكاء والعويل إلى بشارة وتهليل.
وكان ظهور الملاكين في قبر المسيح، كحراس سمائيين، ردا حاسماً دامغاً على القول أنهم أخذوه ولسنا نعلم أين وضعوه، بل تبكيتا وتقريعا مرا على اليهود الذين حاولوا أن يشيعوا هذا الإدعاء.
لقد اعتنى القديس يوحنا أن يوضح، بالبرهان السمائي، إلى أي مدى كان الجسد والقبر في حوزة السماء وحراسة جبابرة الأرواح العليا.
وإن وجود الملاكين في قبر المسيح هو مصداق وفاق لقول المسيح لبيلاطس: «مملكتي ليست من هذا العالم» (يو ١٨:٣٦). فهوذا الجنود يحرسون جسد رب الجنود. لقد رافقوه في ميلاده (لو ٢:١٣)، وفي تجربته (مت ٤:١١)، وفي جثسيماني (لو ٢٢:٤٣))، وفي قبره وفي قيامته وفي صعوده (أع ١:١٠)!!.
السلام للقبر مهبط الملائكة وبيت النور، الموضع الذي انطلقت منه بشرى الحياة.

١٣:٢٠ فَقَالاَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ لِمَاذَا تَبْكِينَ؟» قَالَتْ لَهُمَا: «إِنَّهُمْ أَخَذُوا سَيِّدِي وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ

وَضَعُوهُ».

(لماذا الطيب والنحيب....إن زمن البكاء قد انقضى، لا تبكين، بل بشرن بالقيامة للرسل – الأبصلمودية المقدسة السنوية)

«يا امرأة لماذا تبكين؟»: ليس هذا سؤالا بل مراجعة وعتاب. لقد هال الملائكة في يوم ارتفاع الرب بالمجد إلى أعلى السموات، أن يقف البشر في القبر يبكون وينوحون، وعلى أيديهم حنوط للجسد، والجسد قام وصار أعلى العليين!

«أخذوا سيدي»: لا تزال الفكرة الي تسلطت عليها، أنهم «أخذوا الجسد». ولا تزال هي تبحث وتفكر: «أين وضعوه؟». فالحنوط عل كفها وهي تود أن تحنط الجسد مهما كان وبأي ثمن، والبكاء يقطع نياط قلبها، وقد كفت عيناها عن أن ترى قيمة لأية قيمة، حتى للملاكين اللذين يحدثانها! أنا أريد «سيدي» وحسب.

عجيب في عينيها وفي مسامعها أن يسألها الملاكان: «لماذا تبكين؟» إنه «سيدي»، أخذوه، كيف لا أبكي؟ إن غيبة المسيح عنها ألغت حضرة الملائكة أمامها؛ بل ألغت الخوف والجزع من كل رهبة، فلم تعد للملائكة مكانة بعد غياب «سيدي»، ولسان حالها بالنسبة للملاكين هو: إن كنتما تعرفان أين وضعوه قولا لي وإلا فلماذا الكلام؟

(ب) المسيح يظهر للمجدلية، فتخطىء معرفته ويلفت نظرها بأن يدعوها باسمها، والمجدلية تبشر التلاميذ أنها رأت الرب. (٢٠:١٤–١٨).

١٤:٢٠ وَلَمَّا قَالَتْ هَذَا الْتَفَتَتْ إِلَى الْوَرَاءِ فَنَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفاً وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ.

لما احتار الملاكان من بجاحة هذه المرأة وعنادها، استغاثا بالرب فأغاثهما، وظهر خلفها. فلما ظهر، جفل الملاكان وتغيرت جلستهم؛ لمحت المجدلية هذا منهم ورأت أعينهما مسلطة على أمر خطير خلفها، فأدارت وجهها لترى، فكان يسوع، ولكنها لم تعرفه. كانت عيناها مملوءتين بالدموع، بل بالحزن والهموم، ولكن الرب يتراءى بالفرح. فالفرح نور القيامة، وضوئها الذي به نرى الرب والسماء والآب والحياة الأبدية.

«بعد قليل لا يراني العالم أيضاً، وأما أنتم فترونني» (يو١٤:١٩)، المجدلية كانت لم تخرج بعد من نطاق العالم، إنها كانت تعيش ماضيها، والماضي غريب دائماً عن الجديد، و«هوذا الكل قد صار جديداً» (٢كو٥:١٧)

المعمدان كان يعيش قبل أزمنة الجديد «وأنا لم أكن أعرفه» (يو١:٣٣)، فلما جاء زمن الاستعلان، رآه، وعرفه، وسمع صوت، وفرح، وأعلن شهادته؛ والمجدلية لما دخلت زمن الاستعلان عندما ناداها الراعي باسمها، عرفته. فانطلقت للبشارة بأنها «رأت الرب».

تماماً كما حدث للتلاميذ بعد انقضاء «ليل» الصيد الفاشل، الذي يمثل النكسة نحو عالم الشقاء، وصيد الطعام البائد، فلما ظهر الرب على الشاطىء لم يعرفوه لأن عم الفشل ونكد السهر الخاسر أفقدهم القدرة على رؤية «الطريق والحق والحياة»؛ إلا يوحنا الذي كان جالساً وسط المركب، يهدس بأفكار الحب، وسط أنين الخسارة واللعنات على ليل ناء عليهم بكلكه، وانجلى دون سكة واحدة يتقاسمونها، فلما وقعت عيناه على الإنسان الواقف على الشاطىء نسي همه وقلبه دله على الحبيب فصرخ: «إنه الرب». فيا لبؤس وشقاء العمل بدون لمسات الحب!

١٥:٢٠ قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟» فَظَنَّتْ تِلْكَ أَنَّهُ الْبُسْتَانِيُّ فَقَالَتْ لَهُ: «يَا سَيِّدُ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ وَأَنَا آخُذُهُ».

«في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته، إني أقوم وأطوف في المدينة، في الأسواق، وفي الشوارع أطلب من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته. وجدني الحرس الطا ئف في المدينة، فقلت: أرأيتم من تحبه نفسي، فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته ولم أرخه!!! (نش٣:١-٣)

«يا أمرأة»: كانت هذه أول كلمة نطق بها المسيح بعد القيامة. أعاد المسيح استنكار الملاكين لبكائها في يوم فرح السمائيين، لماذا تبكين؟ المسيح القائم من الموت يتساءل أكثر مما يسأل، من تطلب هذه المرأة؟ أو كيف تطلب الجسد الميت وهو حي؟ هو نفس استنكار الملاكين للنسوة والمجدلية في إنجيل القديس لوقا: «لماذا تطلبن الحي بين الأموات» (لو٢٤:٥)، «...اذكرن كيف كلمكن وهو بعد في الجليل، قائلاً: إنه ينبغي أن يسلم ابن الإنسان في أيدي أناس خطاة، ويُصلب، وفي اليوم الثالث يقوم.» (لو٢٤:٦-٧)

يُلاحظ أن المسيح يسأل المجدلية عن «من» تطلب، مع أنها تطلب شيئا (ماذا) وليس «من»، هنا محاولة لردها إلى موضوع طبها الذي ينبغي أن يكون شخص المسيح وليس جسده.

المسيح، هنا، يتوسم في المجدلية جلاء البصر!! إنه واقف أمامها، «إنه حي»، فينبغي أن تحيا بحياته، فلا تبكي موته ومواتها.

«إنه يراها» فكان عليها أن تفرح، لا أن تبكي، وأن يدوم فرحها!! «ساراكم أيضاً فتفرح قلوبكم.» (يو١٦:٢٢)

إنه يتكلم معها، وقد «سمعت صوته» فيتحتم أن تقوم هي من موتها، لا أن تبكي موته!!

إنه قام من القبر، فكان ينبغي أن تكون قد قامت معه، لا أن تعيش في قبره!!

ولكن المجدلية تعود تجتر جهالتها، وفي عتمة الرؤيا تظنه البستاني، فتستعطفه أن يدلها على الجسد!! لقد تجاهلت سؤاله، لقد فقدت كل رؤيا لكل ما بعد القبر. إنها فقط تريد أن تحيا باكية على جسد تأخذه لنفسها، لتشبع بؤس حبها بالبكاء والنواح عليه!

هكذا الإنسان الذي يفقد رؤيا القيامة والقائم من بين الأموات، إنه يعيش ذكرى أمواته، يرتاح بالنواح عليهم، ويجوس بين مقابرهم، إن لم يكن برجله فبفكره، يندب أيامهم إلى أن تفنى أيامه!

«وأنا آخذه»: في تفجر عواطف حبها رأت في قوتها الكفاءة التي يمكن أن تجعلها تحمله بنفسها لنفسها. وهكذا إن كان الإيمان يقدر أن ينقل الجبال، فالحب قادر أن يحمل الأهوال!

٢٠:١٦ قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا مَرْيَمُ!» فَالْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: «رَبُّونِي» الَّذِي تَفْسِيرُهُ يَا مُعَلِّمُ.

ناداها بالاسم كما نادى لعازر، نبه روحها فاستيقظت من موت حالها، دخل صوت ابن الله (يو٥:٢٥)، إلى أعماق نسفها التائهة في مجاهل القبر، ففك عنها أكفانها، فانفتحت عيناها وأبصرت نور القيامة «ربوني»!!

ناداها باسمها، كراع ينادي خرافة بأسمائها لتعرفه حالاً، وتتبعه. حينما كانت تطلبه في القبر، كانت قد نأت بعيداً عن درب الحظيرة، فناداها من فوق، من عالم النور والقيامة، فعرفته بعض المعرفة، تذكرت فيه صوت نداء المعلم لها، فحسبته أنه لا يزال هو المعلم، في يوم من أيام ابن الإنسان، ولكن هيهات، هذا لا يعود، إنه لم يعد «ربونى» بل رب القيامة، التي باسمها افتتح سجلات الخلود.

٢٠:١٧ قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «لاَ تَلْمِسِينِي لأَنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى أَبِي. وَلَكِنِ اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلَهِي وَإِلَهِكُمْ».

كان المسيح هو هو بلحمه وعظامه، فحق لها أن يطير صوابها. أرادت أن تُخضع الوهم للحقيقة، لم تطق أن تبقى ناظرة إليه تسمعه، لقد اندفعت نحوه تتشبث به بكل قواها، أرادت أن تطوقه بذراعيها فتقبض عليه قبضاً حتى لا يفلت منها. إنها اكتشفته وحدها، فهو لها وحدها: «أين وضعته وأنا أخذه»، نسيت التلاميذ والناس: «حبيبي لي (وحدي)، وأنا له.» (نش٢:١٦)!!

أرادتها مصارعة كمصارعة يعقوب مع الملاك وحتى الفج: «لا أطلقك إن لم تباركي» (تك٣٢:٢٦)، ولما ضجر الملاك من تشبث يعقوب به وهو ماسك بتلابيبه ضربه على حق فخذه حتى يفلت من يديه؛ هذا لم يرده المسيح، لم يشأ أن يلمسها بسوء فاكتفى أن حذرها: «لا تلمسيني.».

إن كان «لا إنسان يراني ويعيش» (خر٣٣:٢٠)، فكيف لهذه أن تعانقه؟

توما لما لمس حقيقته صرخ «دربي وإلهي»! لقد رجه اللاهوت رجاً، وسرى فيه سريان النار في الحطب، فكيف لهذه أن تضم النار في حضنها ولا تحترق.

فرق أن يقول هو: «جسوني والمسوني» (راجع لو٢٤:٣٩)؛ وأن نحاول نحن أن نجسه ونلمسه، فهو وحده الذي يخضع طبيعة جسده الإلهي للجس أو اللمس في حدود إحساسنا ، لأنه أصلاً لا يُحس. أما نحن، فيستحيل أن نبلغ من أنفسنا مستوى مجسته وملامسته بطبيعتنا؛ أو هل يمكن أن تُجس النار؟ أو يُلمس النور؟ أو يُعانق الهواء؟

النسوة تمسكن بقدميه كإله، وخررن ساجدات عابدات، فارتضى. ولكن أن تلمسه «امرأة» لمسة الصداقة كمعلم سبق وشفاها، فهذا غير وارد. لقد تغيرت هيئته، وتغيرت وظيفته. إنه في لحظة العبور وليس الإقامة، ولسان حاله: «إني صاعد إلى أعلى السموات، لتجثو لي كل ركبة ممن في السموات ومن على الأرض. إني صاعد لأفتتح لكم الطريق إلى الحياة الجديدة، إلى الآب وإلي، لتكونوا حيث أكون، لا لتعيشوا معي وحسب بل وتعيشوا فيَ. لا تلمسوني أو تجسوني بعد، لتتأكدوا مني، أو لتستمتعوا بي، بل لتتحدوا بي، بل لتأكلوني، فأصير فيكم وتصيرون فيّ».

لقد كان النور معهم زمانا قليلاً، وها الآن لم يعد زمان. فالنور يومض في ابن الإنسان ومضته الختامية على الأرض، ليصعد النور لأبي الأنوار، ويكفينا منه الغسق مدى الأيام. لقد حسبت النور لها وحدها، فقال لها: اذهبي خبري «إخوتي»، إني صاعد إلى أبي ليكون أباكم كلكم، صاعد بأخوتي التي لكم ومنكم التي قدمتها ذبيحة لكم، ومن أجلكم، أمام إلهي وإلهكم، لتشتركوا معي في بنوتي لآبي، فيكون أباكم.

القيامة أعطت المسيح طبيعته المهيأة للاقامة في الأعالي وعن يمين العلي. الجسد المُقام من الموت، لم تناسبه الإقامة على أرض الإنسان تحت طبيعة عالم الناس. «أنتم من أسفل، أما أنا فمن فوق.» (يو٨:٢٣)

أن يقوم المسيح من بين الأموات، فلا بد أن يصعد أيضاً، فالقيامة تمهيد للصعود، والصعود تكميل القيامة.

والصعود الذي تكلم عننه القديس لوقا في سفر الأعمال شيء، والصعود الذي يتكلم عنه المسيح هنا في إنجيل القديس يوحنا شيء آخر. الأول يتبع مراحل الفداء الأربع: التجسد (الميلاد)، والموت (الصلب)، والقيامة، ثم الصعود، في تدرجها المحسوس والمنظور لنا. أما الصعود في إنجيل القديس يوحنا فهو العمل السري غير المنظور، والخاص بالمسيح في علائقه السرية بالآب؟ لأنه من جهة علاقة المسيح بالآب، لا يمكن التفريق «الزمني» بين القيامة والصعود، فهما عمل واحد لدى الآب، عبر عنه المسيح: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض، أجذب إلي الجميع»» (يو١٢:٣٢)، حيث يشير هنا إلى ارتقاع الجسد على الصليب، والارتفاع من الموت بالقيامة،

والارتفاع بالصعود. هذا كله عند المسيح والآب عمل فدائي واحد متكامل. لذلك لا يصح هنا في قوله: «إني صاعد، وأصعد» اللجوء إلى التمييز الزمني في الأفعال.

ولأن المسيح هو ابن الإنسان، لذلك صح أن يقول إن الله إلهه؛ ولأنه هو ابن الله أيضاً حق له أن يدعو الله «أبى». وأذ يجمعهما لنفسه معاً «أبي والهي» فهو يوضح بنوته الإلهية المتجسدة كطبيعة.

وقد اعتنى القديس بولس الرسول جداً في إظهار نسب الله للمسيح، كإله، مؤكداً على بشرية المسيح تماماً، بحسب تسجيل القديس يوحنا، وذلك في مواضع كثيرة: «كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته» (أف١٧:١). ويُلاحظ أن الترجمة العربية في الآيات التالية خرجت من النص الدقيق كالآتي: «مبارك (الله) إله وأبو ربنا يسوع المسيح أبو الرأفة وإله كل تعزية.» (٢كو٣:١)

«لكي تمجدوا (الله) إله وأبا ربنا يسوع المسيح بنفس واحدة وفم واحد» (رو٦:١٥)

«مبارك (الله) إله وأبو ربنا يسوع الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح.» (أف٣:١)

وقد حذفت الترجمة العربية حرف الـ «و» الواقع بين «الله وآب»، فضاع مفهوم نسب الله للمسيح «كإله»» توكيدا لبشريته، من ناحية، ونسبته الطبيعية اللاهوتية لله كآب من الناحية الأخرى. «فالله» في الآيتين السابقتين يجمع الصفتين معاً بالنسبة للمسيح «إله وآب» تماما كما قال المسيح للمجدلية.

وأن يطلقهما معاً بالنسبة لنا «أبوكم وإلهكم»، يوضح ماذا صار لنا بموته وقيامته وصعوده من مشاركتنا في مخصصاته كنعمة وُهبت لنا .

وهذا ينطق به نطقا قوله: «قول لإخوتي». هذا الاصطلاح الأول من نوعه، وبعد القيامة، يفيد الوضع الجديد الذى صار للإنسان والكنيسة المؤمنة بقيامة المسيح؛ فبالتعليم عن كل ما عند الآب، صار التلاميذ «أحباء» (يو١٥:١٥)، أما بالقيامة من الأموات فقد اكتسب المسيح لهم علاقة إلهية به، وبالتالى بالآب: «إخوتي» وبالتالى «أبوكم».

المسيح، بالنسبة للتلاميذ بعد القيامة، لم يعد هو المسيح ابن الإنسان النازل من السماء، وكلام الحياة الأبدية عنده، بل المسيح الذي صعد إلى الآب وعاد بالحياة الأبدية ليسكبها علينا بغنى. لقد حقق وعده «إنه خير لكم أن أنطلق» (يو٧:١٦). لقد عاد من عند الآب بعد أن أسس المكان والمنازل، ومعه عطية الآب: «الروح القدس» الذي أعطاهم في نفس المساء.

ويلزم أن ننتبه إلى التفريق المتعمد الذي أوضحه المسيح بقوله: «أبي وأبيكم»، فهو لم يقل «أبونا»، بل «أبي» خاصة «وأبوكم» عامة، «أبي» بالطبيعة »وأبوكم» بالنعمة والتبني الذي وهبه لنا المسيح كشركة في بنوته.

كذلك «إلهى» خاصة، لما تنازل وأخلى ذاته وأخذ شكل العبد، وصار إنساناً بإرادته، غير مخلوق، من تحت لاهوته، «وإلهكم» عامة، كعبيد اقتناهم الله لنفسه من خليقته.

١٨:٢٠ فَجَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَأَخْبَرَتِ التَّلاَمِيذَ أَنَّهَا رَأَتِ الرَّبَّ وَأَنَّهُ قَالَ لَهَا هذَا.

في اليونانية «جاءت»، و«أخبرت» تفيد الحال والتو، بمعنى أنها تركت الرب راضية في الحال، لتقوم ببشارتها الأولى لعالم الإنسان الجديد، للكنيسة التي قبلت هذه الكلمة: «قد رأيت الرب»، كإنجيل الحياة الجديدة، وبشارة الملكوت الذي دب منذ تلك اللحظة في روح التلاميذ، وإلى الآن يتفرخ ألفي سنة، ولا يزال، ثم إل الأبد.

لقد خرج النص في الترجمة العربية عن الأصل، وحول البشارة إلى الغائب «أنها رأت الرب»، ولكن النص اليوناني

واضح وأكيد: «مبشرة التلاميذ. قد رأيت الرب»، وهكذا تبوأت المجدلية الصدارة في سجل البشارة كأول إنسان رأى المسيح قائما من بين الأموات، وكأول بشير نادى بالقيامة.

السلام لمريم بنت ذات البرج[1]، التي حرست حراسات الليل حتى تقبلت أول شعاع النور...

السلام للتي بكرت جدا والظلام باق، تسعى، يقودها الحب، تطلب تكريم من تحبه، فوجدها ووجدته.

التلاميذ رأوا القبر قبراً فارغاً؛ وهذه رأته سماء مزينة بالملائكة. هؤلاء لما دخلوا القبر ما طلبوا شيئاً؛ وهذه تشبثت ببكاء تطلب جسد من تحبه، حتى استُعلن لها صاحبه في ملء الحياة وقوتها.

هؤلاء عادوا صامتين من القبر إلى حيث أتوا؛ وهذه تسمر قلبها ورجلاها في الحجر كالحجر، تتأوه، والدموع ملء عينيها، فاستحقت أن ترى مجد الله!

السلام لمبشرة صهيون، أول من قطفت من ثمرة شجرة الحياة، وأعطت التلاميذ، فأكلوا وانفتحت أعينهم، وعاينوا النور، وادثروا بثوب الخلاص.

السلام لمن استؤمنت، أول من استؤمن على رؤية الرب المُقام، وعلى سماع أول كلمة من فيه.

السلام لمن تسجل اسمها، أول ما تسجل في سفر الخلود وسجلات ملكوت السموات. بوركت يا مجدلية الإنسانجيل الأربعة، وبوركت دموعك وجرأتك ولجاجتك وأمانتك للجسد.

شهوة اشتهيت تكريم الحبيب الميت، وتطييب الجسد، فاستحققت حب الحي ونوال رائحة المسيح الزكية ببشارة الحياة.

المنظر الثاني: في العلية والتلاميذ مجتمعون

في مساء الأحد المسيح يظهر للتلاميذ الخائفين وهم مجتمعون ويعطيهم السلام، والتلاميذ يفرحون برؤية الرب. المسيح يفتتح سفر الإرساليات للعالم، ويؤازرهم بنفخة الروح القدس وسلطان مغفرة الخطايا. (٢٠:١٩-٢٣)

٢٠:١٩ وَلَمَّا كَانَتْ عَشِيَّةُ ذلِكَ الْيَوْمِ وَهُوَ أَوَّلُ الأُسْبُوعِ وَكَانَتِ الأَبْوَابُ مُغَلَّقَةً حَيْثُ كَانَ التَّلاَمِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ جَاءَ يَسُوعُ وَوَقَفَ فِي الْوَسَطِ وَقَالَ لَهُمْ: «سَلاَمٌ لَكُمْ».

ينفرد القديس يوحنا بذكر حوادث ومناظر لم يأت عليها الإنجيليون الثلا ثة: الأبواب المغلقة، الخوف من اليهود، غياب توما، السلطان بالروح القدس.

من ملابسات ظهور المسيح للمجدلية، واضح أنه كان لا بد سيظهر للتلاميذ، كما كانت بشارة المجدلية الحافز السريع لاجتماع التلاميذ مع الترقب والأنتظار. وهذه تمهيدات لازمة بالفعل لجو الاستعلان.

والمعتقد أن عددا كبيرا من الأخصاه كانوا مجتمعين غالباً في العلية حيث صنع الرب عشاءه الأخير، هذا يتأكد لنا من رواية القديس لوقا بخصوص عودة تلميذي عمواس إلى التلاميذ المجتمعين: «فقاما في تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم ووجدا الأحد عشر مجتمعين هم واللذين معهم» (لو ٢٤:٣٣)، كما يتأكد لنا من الصورة الموازية لاجتماعهم يوم الخمسين: «ولما دخلوا، صعدوا إلى العلية التي كانوا يقيمون فيها... هؤلاء كلهم كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة والطلبة مع النساء ومريم أم يسوع ومع إخوته.» (أع ١:١٣-١٤)

«عشية ذلك اليوم»: كان هو اليوم المشهود والخالد في تاريخ الكنيسة، بل على وجه الصدق في تاريخ الإنسان.

---

[1] المجدل هو البرج العالى المخصص للمراقبة لرؤية المسافات على بعده.

فقد أُستعلن المسيح غالب الموت الذي هو عدو الإنسان الأول والأخير. ووهب للانسان الحياة الجديدة التي لا سلطان للموت عليها. ونفخ في الإنسان من روح الله القدوس ليتقبل قوة الحياة التي لا تموت، عوض نفخة الله في نفس آدم التي أطفأتها لعنة العقوبة، فساد عليها الموت كتأديب.

ويلاحظ أن المسيح اختار يوم الأحد بالذات ليقدسه للكنيسة بحضوره في وسط التلاميذ. ونقول يوم الأحد بالذات وهو اليوم الذي قام فيه، لأنه عاد وظهر مرة أخرى للتلاميذ ولتوما في يوم الأحد التال، وليس يوم السبت أو أي يوم من أيام الأسبوع الأخرى!

من هنا يتأكد لنا بكل قوة وبيان أن المسيح قصد قصدا تقديس يوم الأحد ليكون «يوم الرب» على مدى الدهور، وهو يوم القيامة، فصار كل يوم أحد للكنيسة يوم القيامة. وهذا هو تقليد الكنيسة الثابت.

وبحسب التقليد الإفخارستي الذي عاشته الكنيسة ألفي سنة، فيوم الأحد هو يوم الإفخارستيا بالأساس. والمعروف والثابت من تقليد الإفخارستيا أن الرب يظهر فيه وقت «كسر الخبز»، أي أثناء التقسيم، أي القسمة، تماما كما ظهر في العلية وسط التلاميذ المجتمعين. فنحن على ميعاد مع الرب في إفخارستية كل أحد.

كذلك، ومن التقليد الرسولى الذي يقدمه لنا القديس يوحنا في سفر الرؤيا، نعلم أن القديس يوحنا أُخذ بالروح في يوم الأحد وتسلم أسرار السبع الكنائس والأمور الخاصة بالأزمنة الصعبة التي ستأتي على العالم. وهكذا نفهم أن يوم الأحد تعين ليكون يوم الاستعلان والكشف لأسرار الله والمسيح.

«وكانت الأبواب مغلقة، حيث كان التلاميذ مجتمعين بسبب الخوف من اليهود»: كانوا عشرة تلاميذ من الاثني عشر، فيهوذا سقط من حساب الاثني عشر، وتوما تغيب، وعلى أغلب الظن أنه غادر أورشليم إلى وطنه كما صنع تلميذا عمواس في ذلك اليوم أيضاً، اللذان عادا قبل المساء مسرعين إلى العلية بعد أن ظهر لهما الرب.

أما الأبواب المغلقة والخوف من اليهود، فهذا إعلان صريح عن غياب الإيمان بالرب، وغياب مفهوم القيامة وقوتها جملة وتفصيلاً، بل وغياب عنصر الرجاء، الأمر الذي نلمسه بشدة في حديث تلميذي عمواس، الذي يعطينا صورة لما كان يدور الحديث حوله في العلية قبل ظهور الرب: «فقال لهما: ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين؟ فأجاب أحدها الذي اسمه كليوباس وقال له: هل أنت متغرب وحدك في أورشليم ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها في هذه الأيام؟ فقال (يسوع) لهما: وما هي؟ فقالا: المختصة بيسوع الناصري، الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب. كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه. ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل. ولكن مع هذا كله، اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك، بل بعض النساء منا حيرننا إذ كن باكراً عند القبر. ولما لم يجدن جسده، أتين قائلات إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حي» (لو ٢٤:١٧-٢٣)

وذكر «الأبواب» المغلقة بالجمع، يفيد مدى الخوف والرعبة، فباب البيت الخارجي، والباب الموصل إلى العلية، وباب العلية، كلها أحكم غلقها بمتاريس وأقفال. وتعبير القديس يوحنا لا يخلو من الرمز، فغياب «أنا هو الباب» المفتوح على السماء، ينشىء حتماً إغلاقا على النفس بكل الأبواب الممكنة.

ولكن، والخوف يحيط بالتلاميذ من كل جانب، حضر تلميذا عمواس على عجل يلهثان من الركض ليخبرا المجتمعين أنهما رأيا الرب وكسر الخبز بيديه، وشرح لهما «من موسى وجميع الأنبياء والمزامير مفسراً لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب» (لو ٢٤:٢٧). وهنا تطابقت شهادة المجدلية، والنسوة، مع القبر الفارغ والأكفان وحدها، وغياب

الجسد! فكادت القيامة تحاصرهم وتملأ عليهم تفكيرهم. ولكن وحتى بعد ظهور الرب لهم في عشية ذلك اليوم، نسمع أيضاً وبعد أسبوع وفي عشية الأحد التال عن خوفهم واجتماعهم والأبواب المغلقة عليهم. لقد كانت القيامة يتنازعها عتمة فكرية من صنع الواقع المرير، وخبرة أهوال الصليب، وجبروت السنهدريم ورؤساء الكهنة، عتمة لم تنقشع قط إلا بعد أن لبس التلاميذ قوة من الأعالى يوم الخمسين، ونطق فيهم الروح القدس بقوة تفوق كل سلطان العالم.

«فجاء يسوع وقف في الوسط»: دخل الرب إلى حيث كان التلاميذ مجتمعين والأبواب مغلقة عليهم. هذا أول مفهوم لطبيعة القيامة، فالقيامة من الموت لم تعد تخضع بعد لكل ما هو خاضع للموت، أي الطبيعة البشرية بكل القوانين التي تحكمها وتتحكم فيها المادة والمكان والزمان والجاذبية والحركة والحرارة والضغوط والأشكال والألوان التي كلها تختص بالمادة، فالجسد القائم من الموت هو جسد روحاني له عالمه الروحي، وله قوانينه الروحية. وكل أعمال الروح هي معجزة لدى المادي.

ظهور الرب «وسط» التلاميذ ألغى الأولويات والترتيب والكرامات في حضرة الرب، فالكل في الحضرة الإلهية واحد! ومن ذا يتجرأ في حضور الله ليرى نفسه أعلى من أخيه.

«سلام لكم»: ليست هي تحية بل عطية: «سلامي أعطيكم»، وليس كما يعطي أهل العالم السلام بعضهم لبعض، أو كما تعد الملوك والرؤساء شعوبهم بالسلام وهم أحوج الناس إليه. سلام المسيح هنا أنشأ فيهم الفرح في الحال والتو، «ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب» (يو٢٠:٢٠). وهكذا ابتدأ يداخلهم الفرح وسط الخوف الشديد الذي كان يعتريهم من اليهود. هذه أول مفاعيل القيامة وأشدها وأكثرها دواماً : «ولكني سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم» (يو١٦:٢٢). إنها بهجة القيامة، أمضى أسلحة الإيمان التي نغلب بها أهوال العالم ومخاوف الشيطان ومقاومة الأشرار. فالمسيحي الذي قام مع المسيح لا يعود يرهب الموت وكل تهديدات الموت، لأن حياته ممتدة فوق الموت وأهواله، لأن سيرته مكتوبة في السماويات.

٢٠:٢٠ وَلَمَّا قَالَ هَذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَجَنْبَهُ فَفَرِحَ التّلاَمِيذُ إِذْ رَأَوُا الرَّبَّ.

مسيح القيامة هو مسيح الصليب: «لا تخف. أنا هو الأول والأخر، الحي وكنت ميتاً، وها أنا حي إلى أبد الأبدين.» (رؤ١:١٧-١٨). لا يمكن أن تُفهم القيامة إلا على توقيعات الصليب وجروحه وموته، ولا يمكن أن يُفهم عذاب الصليب ومعنى الموت، إلا على نور القيامة. المسيح الذي مات مصلوباً أمام أعينهم، وكأنه قُضى «وقطع من أرض الأحياء»، ها هو هو بجروحه المميتة، واقف أمامهم حياً في ملء قوة الحياة. الموت الذي تراءى لأعينهم أنه ساد عليه وأنزله القبر، طرحه المسيح عنه وداسه، وقام بذات الجسد وذات الروح شامخاً فوق الموت ومن له سلطان الموت.

جروح اليدين والرجلين لم تُشف، ولا الجنب المفتوح التأم، وكأن الجسد اقتبل روح الشفاء، بل احتفظ المسيح بجروحه الغائرة وجنبه المفتوح كعلامة الموت الذي جازه، احتفظ بها كلها كما هي؛ لأن الجسد الذي قام لم يعد يستمد حياته من عناصر الحياة على الأرض، بل من فوق، من الحياة التي له خاصة: «كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أن يكون له حياة في ذاته» (يو٥:٢٦). فصارت علامات الموت وسماته، شهادة للموت الذي جازه والقيامة التي قام. «ورأيت ... وسط الشيوخ، خروف قائم كأنه مذبوح ...» (رؤ٥:٦)، «مستحق أنت أن تأخذ السفر، وتفتح ختومه، لأنك ذُبحت واشتريتنا لله بدمك.» (رؤ٥:٩)

سمات الموت التي تقبلها الرب في الجسد، صارت هي سمات القيامة والمجد، ومن جروحه وجنبه المفتوح يخرج لنا

الآن الشفاء والعزاء والحياة والمجد.

(اقتل أوجاعنا بآلامك الشافية المحيية. وبالمسامير التي سُمرث بها، أنقذ عقولنا من طياشة الأعمال الهيولية (الأعمال المادية) والشهوات الجسدية – الأجبية صلاة الساعة السادسمة).

«ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب»: هنا فعل « يرى» ملؤه الإيمان. لقد حقق الرب وعده لهم: «أنتم كذلك عندكم الآن حزن، ولكي سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم.» (يو١٦:٢٢)

إنها تجربة واختبار فريد من نوعه حظى به التلاميذ، وقصده الرب قصدا، ليكون خبرة لكل من آمن بالمسيح بالإيمان الرسولي المسلم بالروح.

يلاحظ القارىء أن المسيح دخل إلى حيث كانوا مجتمعين والأبواب مغلقة، هذا شأن جسد القيامة، الجسد الجديد للخليقة الجديدة الروحانية. ولكن المسيح، وبالجسد القائم من الموت، وبمواصفاته الجديدة غير المنظورة ولا الملموسة، أخضع جسده للرؤيا واللمس لتصير لدى التلاميذ، وبالتاؤ لدى الكنيسة، الخبرة الحقيقية والصادقة بحقيقة القيامة بالجسد وصدقها: «وأعطى أن يكون ظاهراً ليس لجميع الشعب، بل لشهود سبق الله فانتخبهم؛ لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه. بعد قيامته من الأموات.» (أع١٠:٤٠-٤١)

«ففرح التلاميذ»: هنا الفرح من نوع خاص جدا، لا يمت بصلة إلى أي من أنواع الفرح التي نعرفها واختبرناها على الأرض. هذا الفرح هو فرح الروح بالروح، وهو ينسكب على النفس نتيجة استعلان فائق، وهو هنا المسيح نفسه.

وهذا ألفرح يشمل ثلاثة مفاعيل:

الأول: توقف الحواس الجسدية، دفعة واحدة، ومعها كل المؤشرات العصبية التي تؤثر على المخ بمراكزه الأربعة والعشرين، وهكذا يتوقف الخوف والاضطراب والحزن والقلق بكل صنوفه.

الثاني: انفتاح النفس على المجال الروحي أمامها بلا عائق، فتتسلل النفس وتمتد لتستجلي الحقيقة المستعلنة أمامها، المسيح الواقف في الوسط.

الثالث: تتقبل النفس، بقدر استعدادها، فترى الروح المنبعثة من المسيح من سلام ونور وسكينة.

هذا الاختبار الروحي نفسه يمكن أن نحصل عليه أثناء تأملنا في الحقائق الأنجيلية إذا بلغ الإيمان التصديق الكلي لكل ما يقول الرب.

لذلك، فالفرح المنسكب علينا من الله في هيئة استعلان، هو مصدر قوة لا يُستهان بها لدى الإنسان، وقد عبر عن ذلك العهد القديم بمنتهى الوضوح: «لأن فرح الرب هو قوتكم.» (نح٨:١٠)

٢٠ :٢١-٢٢ فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً: «سلاَمٌ لَكُمْ. كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ أُرْسِلُكُمْ أَنَا». وَلَمَّا قَالَ هَذَا نَفَخَ وَقَالَ لَهُمُ: «اقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ».

في هاتين الآيتين يُرسي االمسيح قواعد التقديس والإرسالية للتلاميذ، والتي سبق أن طلبها من الآب في صلاة الوداع (يو١٧:١٧-١٨).

+ في البداية يعيد المسيح إعطائهم السلام، فالسلام الذي أعطاهم في البداية في حديث الوداع (يو١٤:٢٧) هو لحساب أنفسهم الخائفة الجزعة، ليصيروا مهيئين لتحمل الرسالة بأعبائها الخطيرة. أما عطية السلام الثانية هذه،

فهي لحساب الإرسالية، هي ذخيرة وأمانة، لكي كما قبلوا السلام لحساب الآخرين. يعطونه للأخرين من عند الله والمسيح: «وحين تدخلون البيت سلموا عليه. فإن كان البيت مستحقاً، فليأت سلامكم عليه. ولكن إن لم يكن مستحقاً، فليرجع سلامكم إليكم.» (مت١٠:١٢-١٣)

+ ثم يعطيهم المسيح مهمة الإرسالية، لا كأنها عمل منفصل عنه يقومون به بأنفسهم، بل كعمل ممتد منه، ومتصل به، ومكمل له. فإرسالية المسيح للرسل تقوم على أساس ونمط وقوة إرسالية الآب (التي هي أساس الأنجيل كله). هذا سبق المسيح وأكده في صلاته الختامية: «كما أرسلتني إلى العالم، أرسلتهم أنا إلى العالم.» (يو١٧:١٨)

المسيح، في صلاته، كان قد أكمل الإطار الكلي للمهمة العظمى التي أرسله الآب لتكميلها، ولم يبق منها آنئذ إلا صبغها بالدم، لتصير كلها أعمال فداء. ولأنه كان قد أكمل العمل، حق له أن يرسلهم، أو على وجه التحديد، أن يصور لهم إرساليتهم على أساس ختم الرسالة المزمع أن يضعه على الجسد: «وبالصبغة التي أصطبغ بها أنا تصطبغان» (مت٢٠:٢٣)؛ أما الآن، وقد اصطبغت إرساليته بالدم وخُتمت، فقد صارت جاهزة للاستعلان والكرازة. وكما لم يكن، وحده، يعمل أعمال إرساليته: «لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني ... والذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه» (يو٨:١٦و٢٩)، كذلك وهو في طريقه إلى السماء أعطاهم المعزي، الآخر، ليكون «معهم ويمكث فيهم». فالإرسالية الرسولية كريمة ومجيدة للغاية، فهي نابعة من إرسالية الآب للمسيح، وتابعة لإرسالية المسيح، وممسوكة ومقودة بالروح القدس.

لذلك، يكرر المسيح هنا هذه الحقيقة، كأساس: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا». وهنا ليست المساواة في الإرسالية هي المقصودة، بل الامتداد، والمؤازرة، والديمومة، والاحتفاظ بالمصدر الذي تقوم عليه ومنه الارسالية. القديس يوحنا هو أول من يشير إلى ذلك، ولكن في اقتضاب شديد، إذ غير الفعل فقط، فجعل إرسالية الآب له على فعل ( )، وإرسالية المسيح للتلاميذ ( ). والفرق بين الفعلين دقيق للغاية، لأن ورودهما كثيراً ما كان متبادلا بلا فرق، ولكن في إنجيل القديس يوحنا يلاحظ العلماء أن فعل ( ) جاء على لسان المسيح فيما يخص إرساليته من الآب باعتبارها إرسالية فائقة، أي ذات سلطان على اليهود والتلاميذ، إذ أن وراء إرساليته، الله الآب نفسه، حيث الإرسالية يتبعها تكليف عال.

أما فعل ( )، فيرد في إنجيل القديس يوحنا بمعنى الإرسالية وحسب، دون تكليف محدد. لذلك، فهذه الآية تحمل التقليد اللاهوتي للارسالية الذي فهمته الكنيسة ووعته وقدسته للغاية. إن الرسولية مقصورة على الاثني عشر (متياس حل محل يهوذا)، كامتياز رسمي دخل فيه بولس الرسول باختيار فوق العادة: «فقال له الرب اذهب، لأن هذا لى اناء مختار ليحمل اسمي أمام امم وملوك وبني إسرائيل ... قد أرسلني الرب يسوع الذي ظهر لك ... لكي تبصر وتمتلىء من الروح القدس ...» (أع٩:١٥-١٧)

وان المُرسل يحمل كرامة الذي أرسله: «الذي يقبل من أرسله يقبلني، والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني.» (يو١٣:٢٠)

ويلاحظ هنا أنه بعد أن أعطاهم التكليف بالإرسالية، قدسهم بنفخة الروح القدس للعمل، باعتبار أن الإرسالية عمل مقدس، أي خاص بإعلان الله: «لأجلهم أقدس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدسين فى الحق» (يو١٧:١٩). وهنا يعطيهم الروح القدس، وهو روح التقديس والشهادة معاً، لأنه هو الناطق فيهم والذى يعرفهم بالحق!

ومنذ هذه اللحظة التي أرسى فيها المسيح قاعدة الارسالية على الرسل، مقدساً إياهم بالروح القدس. والكنيسة تحمل هذه الإرسالية بجدارة بالتتابع الرسولى، من الرسل إلى الآباء الرسوليين، إلى الآباء القديسين خلفاء الرسل، إلى الآباء الأساقفة، رؤساء الكراسي القانونية، في كل المسكونة المعتبرين خلفاء الرسل. وبذلك صار إيمان الكنيسة مدموغاً بالرسولية، فهو يُسمى منذ مجمع نيقية «الايمان الرسولى». ووضع في قانون الإيمان هكذا: «نؤمن بكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية».

ومن جهة الإيمان الحى الذي نعيشه اليوم كأفراد وجماعة، فهو يقوم على ما تم للرسل في عشية ذلك اليوم، مضافاً إليه «شهادة الرسل» بعد ذلك، التي تملأ الأسفار المقدسة. فنحن نستمتع بإيمان مسيحي متأسس على نطق إلهي، واثني عشر رسولاً، شهود عيان، وإلهام الروح القدس، بالإضافة إلى ما تسجل في الأسفار المقدسة من الوحي المقدس، سواء بالنبوة في العهد القديم، أو بالاستعلان المشاهد في العهد الجديد.

ولكن الإمتياز الأعظم الذي صار لهذا «الإيمان الرسولى» أنه كان وظل ولا يزال يستمد قوته وسلطانه وكرامته من المسيح بالدرجة الاولى: «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل من أرسله، يقبلنى، والذى يقبلنى، يقبل الذى أرسلنى.» (يو١٣:٢٠)

ويلاحظ أنه كما أن الإرسالية، التي عُقد لواؤها على المسيح أولاً من عند الآب، تآزرت وتقدست فى مضمونها الظاهر للعالم بالروح القدس، وظهر هذا واضحاً للغاية سواء في تقديس العذراء بالروح القدس لقبول الحمل الإلهي: «مولود من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم» (قانون الإيمان)، أو بحلول الروح القدس على المسيح وقت العماد بصورة ظاهرة لاستعلان المسحة الإلهية ودفع الإرسالية بالروح القدس؛ كذلك الإرسالية التكميلية التي عقد لواءها المسيح على الكنيسة الممثلة بالرسل القديسين، تآزرت وتقدست في مضمونها الداخلي والخارجي بالروح القدس.

ونلاحظ من كلا الإنسانجيل وسفر الأعمال أن الروح القدس أُعطي أولاً للتلاميذ، ثم حل عليهم ثانياً في يوم الخمسين:

أولاً: بعد القيامة مباشرة بنفخة الروح القدس من فم المسيح، تاماًكما نفخ الله الخالق في جبلة الإنسان لما خلقه فصار آدم نفساً حية. ففي نفخة القيامة هذه صار الإنسان خليقة جديدة حية تتفس بالروح القدس لحياة أبدية.

«نفخ»: وهذه هي المرة الاول والوحيدة التي فيها ترد هذه الكلمة في العهد الجديد. وهي تفيد «ينفخ في» بالمعنى الشائع في العهد القديم أنه «نفخ الحياة»، وهي خاصة بالله وحده: «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية.» (تك٢:٧)

«هكذا قال السيد الرب هلم يا روح من الرياح الأربع وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا.» (حز٣٧:٩)

هكذا أعطى المسيح القائم من الأموات للتلاميذ شركة في روح حياة القيامة التي فيه، وهذه الروح ليست فقط روح قيامة بل وأيضا روح غسيل وتطهير وإحراق، لأنه لم ينفخ فيهم روحاً وحسب، بل الروح القدس. و«القدس» هنا يفيد التقديس والتطهير والغسل والإحراق للتأهيل للحياة الجديدة: «لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا» (١كو٦:١١). وهذا هو ما يتضمنه قول المسيح للتلاميذ: «أما أنتم فستتعمدون بالروح القدس» (أع١:٥). بل وهذا هو تحقيق قول المسيح للتلاميذ: «إني أنا حي فأنتم ستحيون» (يو١٤:١٩)، وهي حياة قائمة من موت لا يسود عليها الموت ثانياً قط.

وقد أخذت الكنيسة الشرقية عامة والقبطية خاصة عن إنجيل يوحنا عملية نفخ الروح القدس في طقس العماد، فصار «النفخ» عملية طقسية يتكمل بها سر الخليقة الجديدة، بالماء والروح، كوعد المسيح. وقد امتد عمل «النفخ» كإعطاء روح من الله في بعض الأعمال الطقسية الأخرى عند بعض الكنائس، وفي الكنية القبطية قديماً، كما في إعطاء الحل من الخطايا في سر التوبة والاعتراف. ولكن هذا التقليد ضعف في أيامنا وبطل. كذلك كان هذا يجري في طقس رسامة «أبونا» الرأس الحبشي على الكنيسة الحبشية، وذلك بأن ينفخ البطريرك القبطي أسقف الإسكندرية في قربة حتى يملأها من نفسه ويرسلها بيد مخصوص لتفتخ في وجه المختار فتتم رسامته بالتتابع الرسولي بتقديس الروح.

وكما خلق الله الإنسان في البداية على صورته، هكذا خلقه المسيح بعد القيامة بالروح القدس على صورة خالقه في البر وقداسة الحق (أف٤:٢٤)، وواضع غاية الوضوح أنها «إعادة خلقة» على مستوى الروح القدس لإعطاء الحياة الأبدية.

+ «لأننا نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع.» (أف٢:١٠)

+ «إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله ولبستم االجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه.» (اكو٣:٩-١٠)

+ «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة...» (٢كو٥:١٧)

+«... تلبسوا الإنسان الجديد، المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق.» (أف٤:٢٤)

+ «يا أولادي الذين أتمخض بكم أيضاً إلى أن يتصور المسيح فيكم.» (غل٤:١٩)

وهكذا في هذه الليلة الخالدة في تاريخ الكنيسة السمائي، إذ بعدما أكمل المسيح الأنجيل، خلق المسيح من الرسل، بنفخة فمه، باكورة خلائقه بالروح القدس لميراث جديد في السماء لحياة أبدية: «شاء فولدنا بكلمة الحق لكي نكون باكورة من خلائقه.» (يع١:١٨)

ثانياً: حلول الروح القدس على التلاميذ المجتمعين يوم الخمسين، فواضح أنه كان لحظة الأنطلاق لبدء الخدمة والكرازة بقوة الروح القدس: «لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لى شهوداً...» (أع١:٨). لذلك نسمع أنه بمجرد أن حل الروح القدس «ابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا» (أع٢:٤). لذلك فحلول الروح القدس يوم الخمسين على باكورة الخليقة الجديدة المقدسة، يُحسب أنه كان قوة الدفع للارسالية والكرازة والشهادة بالروح القدس، التي صورها الله جهارا بالنار المتحولة إلى ألسنة ناطقة بكل لغات الأمم!! والتي مبق أن ألمح إليها المسيح بقوله: «جئت لألقى ناراً على الأرض..» (لو١٢:٤٩). وهذه هي النار التي تضرم روح الحب والبذل والتضحية والشجاعة والشهادة في قلوب الأتقياء حتى اليوم والى الأبد.

وللقديس كيرلس الكبير شرح للتفريق بين عمل عطية الروح القدس للتلاميذ بالنفخ من فم المسيح وبين حلول الروح القدس يوم الخمسين عليهم وهم مجتمعون، ورأيه هنا يعتبر الأوفق والأكمل: [إن مخلصنا أعطى الروح بواسطة العلامة الظاهرة وهي «نفخته» للتلاميذ القديسين، باعتبارهم باكورة للخليقة المُجددة. لأن موسى يكتب فيما يخص خلقتنا في القديم أن الله «نفخ» في أنف الإنسان نفخة الحياة. فكما تشكل في البدء وجاء إلى الوجود، هكذا بالمثل يتجدد. وكما أنه تشكل آنذاك في صورة خالقه هكذا الآن بالمثل، فبالشركة في الروح يتغير على شكل خالقه. لأن الروح يطبع صورة المخلص على قلوب الذين يقبلونه، وهذا بكل تأكيد لا يسمح لأي تساؤل. لأن بولس يستحث بوضوح الذين سقطوا في الضعف تحت إلزام العودة للتمسك بالناموس بهذه الكلمات: «يا أولادي الذين أتمخض بكم

أيضاً إلى أن يتصور المسيح فيكم» (غل٤:١٩). لأنه يقول إن المسيح لا يتصور فيهم إلا بالاشتراك في الروح القدس والحياة بمقتضى ناموس الأنجيل... لأنه يلزم لنا نحن أيضاً أن ندرك هذه الحقيقة، أي أنه أحدر لنا الروح ليمنحه لنا أيضاً. ولكن في أيام عيد الخمسين المقدس، عندما أذاع الله نعمته بوضوح أكثر معلناً عن الروح القدس الذي في قلوبهم، ظهرت لهم ألسنة من نار، لا كأنها تعني بداية لعطية الروح القدس في قلوبهم، بل بالحري لتشير إلى بدء الزمن الذي فيه وُهبت لهم عطية اللغات (الألسن). ومكتوب هذا حقاً إنهم «بدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا» (أع٢:٤). ولاحظ أنهم «بدأوا يتكلمون» وليس «بدأوا يقبلون التقديس» ... وهذا كان من عمل الروح الذي فيهم.]

وأيضا للقديس يوحنا ذهبي الفم رأي في الفرق بين عطية الروح القدس بعد القيامة وحلول البارا كليت يوم الخمسين، ولكنه رأي غير مأخوذ به: [إلا أنه لا يكون الإنسان مخطئاً إذا أكد أنهم أيضاً قبلوا قوة روحية ما ونعمة، ليس لكي يقيموا موتى أو يصنعوا معجزات، ولكن لكي يغفروا الخطايا... ولكنهم من جهة الحالة الأخرى، أي بعد الأربعين يوماً فإنهم تقبلوا قوة صنع المعجزات... وصاروا شهوداً بواسطة صنع المعجزات.]

وهذا الرأي الذي يقول به القديس ذهبي الفم يقوم هلى أساس ورود كلمة «الروح القدس» (في يو٢٠:٢٢) بدلا أداة التعريف «ألـ» ، فاعتبر ذلك نوعا من القوة وليس هو الروح.

ولكن هذا القياس مرفوض من علماء اللغة المقتدرين الذين قالوا بأن ورود كلمة «الروح» بدون أداة التعريف هو مثل وروده بأداة التعريف، لا فرق، وذلك بناء على استقراءات متعددة من مخطوطات مختلفة. وأيضا يذكر الروح بدون التعريف في مواضع لا يمكن إلا أن تكون للتعبير عن الروح القدس نفسه وبشخصه، مثل ما جاء في سفر الأعمال ٢:٤. لذلك لا نستغرب بأن لاهوتيى الأرثوذكس الروس يرفضون رأي ذهبي الفم في هذا الموضوع، وكثير من الشراح المقتدرين يجدون في عطية الروح القدس بعد القيامة للتلاميذ القمة النهائية للعلاقات الشخصية التي تأسست بين المسيح والتلاميذ.

ولقد كان موضوع عطية الروح القدس بعد القيامة للتلاميذ موضوع جدل لاهوتي عنيف عند الكنائس الخلقيدونية. فالمجمع المسكوني الخامس (٥٥٣ م) وهو غير معترف به عند الارثوذكس غير الخلقيدونيين شجب عقيدة ثيئودور الموبسويستي لقوله إن المسيح بعد القيامة لم يعط الروح القدس في الحقيقة، ولكن الأمر كان مسألة شكلية كأنه مجرد وعد. وهكذا نستطيع أن نقول أن شرح القديس كيرلس الكبير لهذا الموضوع هو الأصح والأكمل.

ويلاحظ القارىء أن المسيح لم ينفخ الروح القدس على التلاميذ واحداً واحداً، لأن الروح القدس لا يُعطى بكيل أو بالتقسيم، بل أعطي للتلاميذ عطاء كلياً وقبلوه ككل، كجسد واحد ككنيسة مجتمعة متحدة، فحتى القدي توما رسول الشك، الذي كان غائباً في هذه الليلة، وإن لم يكن أهلاً لتقبله في البداية، الأمر الذى تسبب في تغيبه قصدا، لكن عندما آمن، لما رأى، قبله في الحال قبول التلاميذ قدرا بقدر. وليس توما وحده بل الكنيسة أفراداً وجماعات في كل أنحاء الأرض قبلت الروح القدس لما قبله التلاميذ، لأنه لم يعط الروح لأسماء وأشكال وأعداد ولكن للانسان، كل من يؤمن، كخليقة جديدة. فالكنيسة الكارزة في العالم وُلدت وتقدست فى المسيح والروح. ثم أُرسلت يوم الخمسين وكان التلاميذ باكورة مقدسة لهذه الخليقة المولودة بالكلمة والروح.

ولكي يثق القارىء في عمومية وشمولية فعل الروح القدس في الكنيسة خلوا من زمان ومكان، لنا مثال في قصة حلول الروح على السبعين شيخاً في جماعة إسرائيل، عندما أخذ الله من الروح الذى على موسى وأعطى هؤلاء

الشيوخ فتنبأوا، ولكن كان اثنان منهم غائبين بعيدا في المحلة ولم يحضرا هذا المشهد الرهيب. ولكن الروح باغتهما وحل عليهما بالمثل وهم بعيداً داخل المحلة. فلما غار يشوع تلميذ موسى، إذ كيف يتنبأ هذان الشيخان وهما لم يحضرا طقس الرسامة والتنصيب؛ وفي غيرته احتج لموسى: «يا سيدي موسى اردعهما. فقال له موسى: هل تغار أنت لي؟ يا ليت كل شعب الرب كانوا أنبياء إذ جعل الرب روحه عليهم!!» (عد١١:٢٤-٢٩). وقد تم ما نطق به موسى كليم الله وصار بالفعل يوم الخمسين وما بعده سكيباً متصلاً للروح القدس على كل من آمن واعتمد للرب.

وعلينا أن نلاحظ الصلة بين الإرسالية وعطية الروح القدس للتلاميذ، أنها صلة متبادلة وجذرية. فلا إرسالية بدون عطية الروح القدس، ولا عطية للروح القدس دون كرازة أو شهادة.

٢٠:٢٣ «مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ».

«وأجعل مفتاح بيت داود على كتفه، فيفتح وليس من يُغلق، ويُغلق وليس من يفتح.» (إش٢٢:٢٢)

هذه الآية ملتحمة بالآية السابقة، أي بعطية الروح القدس، في نفخة الحياة الجديدة في المسيح المُقامة من الموت، ثم بالإرسالية الممتدة من الآب أيضاً. وهكذا يكون غفران الخطايا وحجزها عن الغفران داخلاً في عمل الروح القدس المباشر، وفي نطاق خدمة الارسالية، أي خدمة الخلاص.

هذه الآية، من واقع منطوقها، سلاح خطير ذو حدين: حد يقطع الخطية ويفرزها عن الداخل في الحياة الجديدة، وحد يقطع الخاطىء نفسه عن جسد الكنيسة الحي حتى لا يفسدها.

وقد ذهب المفسرون لهذه الأية كل مذهب، ولكن لا يعنينا في شرحها إلا ما جاء في منهج الفكر الارثوذكسي الكنسي.

رأي القديس كيرلس الكبير: [بأية طريقة، وبأي معنى وهب المخلص تلاميذه الكرامة التي تليق فقط بطبيعة الله وحده؟ لقد فكر(الرب) أنه من الموافق أن الذين وُهبوا مرة روحه، وهو الرب الإله، ينبغي أن يحوزوا قوة مغفرة أو مسك الخطايا، فكيفما صنعوا يكون الروح القدس الساكن فيهم هو الذي يغفر أو يمسك هذه الخطايا حسب مشيئته، على أن العمل الذي يعمل يكون بواسطة الإنسان.]

وحسب ما أرى، يكون أن الذين نالوا روح الله، يغفرون أو يمسكون الخطايا على مستويين:

الأول: فهم يدعون إلى المعمودية الذين هم أهل لهذا السر، من واقع نقاوة حياتهم واختبار مدى تمسكهم بالإيمان، كذلك فإنهم يؤخرون ويستثنون الذين لم يبلغوا بعد إلى استحقاق هذه النعمة الإلهية.

الثاني: وفي معنى أخر، هم يغفرون ويمسكون الخطايا بأن يزجروا ويعزلوا أبناء الكنيسة (أي المعمدين)، كما يمنحون العفو للذين تابوا. تماماً كما قطع بولس ذلك الذي اقترف الزنا في كورنثوس: «لهلاك الجسد حتى تخلص النفس» (١كو٥:٥)، ثم عاد وقبله في الشركة «حتى لا يُبتلع من فرط الحزن.» (٢كو٢:٧)

ولقد كان لهذه الآية الخطيرة تاريخ حافل باختلاف الأراء خاصة في الكنية الكاثوليكية، ولا يزال هذا الخلاف قائماً بين المتحررين في الكنيسة الرومانية وبين التقليديين، إلى هذا اليوم. ولكن الرأي الذي يكاد أن يكون سائداً هو الرأي الذي قال به القديس كيرلس الكبير بأن الحل والمسك للخطايا يخص سري العماد والتوبة، أي ما قبل العماد وما بعد التوبة.

المعروف أن أباء الكنيسة على مدى الثلاثة القرون الأولى، ركزوا على مغفرة الخطايا ومسكها فيما يخص المعمودية فقط. ونرى هذا واضحاً في قانون الإيمان: «ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا». وانجيل القديس

يوحنا يشير إلى هذه الحقيقة إشارة قوية في قصة تفتيح عيني الأعمى بالاغتسال، الذي هو رمز العماد، باعتبار أنه عاد بصيراً، لأن خطاياه غُفرت، في مقابل عدم إيمان الفريسيين الذين وضعهم الرب في مستوى العميان، أي غير المعمدين، على أساس عدم غفران خطاياهم. «فخطيتكم باقية» (يو٩:٤١). وفي هذه القرون الثلاثة الأولى، كان الاتجاه عنيفاً ضد مغفرة الخطايا بعد المعمودية. ولكن يأتي إنجيل القديس لوقا ليشير إلى الغفران والمسك للخطاياه في معنى التوبة، بصورة واضحة في قول المسيح نفسه: «وقال لهم: هكذا هو مكتوب وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث، وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم.» (لو٢٤:٤٦-٤٧)

وانجيل يوحنا يعطي أيضاً الأنطباع بأن مغفرة الخطايا موصولة با لكرازة، لأن كلام المسيح يعطي فكراً واحداً متصلاً بين الإرسالية ونفخة الروح القدس ومغفرة الخطايا. ولكن سواء في إنجيل القديس لوقا، أو القديس يوحنا فمغفرة الخطايا متركزة نوعا ها وبصفة مبدئية في الدعوة للمعمودية، التي هي غاية الكرازة، وهي الخاصة «بالأمم». ولكن واضح من رسالة القديس يوحنا الاولى ربط مغفرة الخطايا بالاعتراف أي التوبة (راجع ايو١:٩).

والملاحظ من روح إنجيل القديس يوحنا أن موضوع مغفرة الخطايا وعدم مغفرة الخطايا يأتي بصورة رئيسية كمنهج اختطه المسيح نفسه؛ بمجيئه إلى العالم، كنور وقداسة وبر: «فقال يسوع: لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم، حتى يبصر الذين لا يبصرون (المعمودية لمغفرة الخطايا) ويعمى الذين يبصرون (حرمان المدعين المعرفة والمتجاهلين لخطاياهم من مغفرة الخطايا)» (يو٩:٣٩) وعلى هذا المنوال تماما، يكون التلاميذ المرسلون من قبل الرب ليقوموا بنفس رسالة المسيح: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا.» (يو٢٠:٢١)

ولكن لا يزال لاهوت القديس يوحنا يُسيج حول موضوع مغفرة الخطايا، حتى لا يتسرب إلى الذهن أن مغفرة الخطايا من عدمه هي تحت سلطان رسول أو تلميذ أو أي بشر، خلواً من تدخل ومتابعة إلهية وتصديق، وذلك بما قدمه في رسالته الاولى: «إن اعترفنا بخطايانا، فهو آمين وعادل، حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» (١يو١:٩). المسيح هنا هو قابل الاعتراف بالدرجة الاول بل هو المعرف الإلهي الحقيقي في سر الاعتراف، ويزيد أنه يطهر الضمير والنفس. أما الرسول أو التلميذ أو الأسقف أو الكاهن فما هو إلا خادم السر، يأخذ الاعتراف، ليس لنفسه، بل ليقدمه إلى المسيح: [ثم يصعد الكاهن إلى الهيكل ويعطي البخور فوق المذبح عن اعتراف الشعب جميعه في عشية وباكر والبولس، وهو يقول: «يا الله الذي قبل إليه اعتراف اللص على الصليب المكرم، اقبل إليك اعترافات شعبك واغفر لهم جميع خطاياهم هن أجل اسمك القدوس الذي دُعي علينا» - رفع البخور سر اعتراف الشعب - الخولاجي المقدس].

ويعود القديس يوحنا ليوضح في رسالته الاولى وظيفة المسيح الدائمة أمام الله، متشفعاً عن خطايانا كدين علينا، دفع ثمنه كاملاً: «وإذ أخطأ أحد، فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار، وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط (المعمدين) بل لخطايا كل العالم أيضاً» (١يو٢:١-٢)، كل المدعوين للايمان به.

ويتحتم في هذا المضمار الخاص بإعطاء الكنيسة سطان مغفرة الخطايا، أن يكون إيماننا بالغفران الكامل لكل خطايانا التي نعترف بها، قائما ومتأسساً في الفكر والقلب والشعور على سفك دم المسيح على الصليب[1]، ثمناً

[1] صلاة التحليل التي يقرأها الكاهن على المعترف في سر الاعتراف، وهي المعروفة باسم «تحليل الابن« وتُقال أيضاً في نهاية رفع البخور، توضح كيف أن سلطاذ مغفرة الخطايا الذي سلمه المسيح للرسل في هذا المساء بنفخة الروح القدس، هو مؤسس أصلاً على عمل

كاملاً ليس للغفران فقط بل ولتطهير الفكروالقلب والضمير.

ويضبط هذا الإيماذ آيتان:

الاولى في العهد القديم:د«بدون سفك دم لا تحصل مغفرة» (عب٩:٢٢؛ راجع لا١٧:١١)، حيث كان دم تيوس وعجول مذبوحة تكفر عن خطية المعترف، ولكن إلى طهارة الجسد فقط لأنه دم حيواني.

أما في العهد الجديد، فدم يسوع المسيح «كما من حمل بلا عيب» (ابط١:١٩)، قيل عنه: «أنه حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١:٢٩). وأيضاً: «لأنه إن كاذ دم ثيران وتيوس ورماد عجلة مرشوش عل المنجسين، يقدس إلى طهارة الجسد، فكم بالحري يكون دم المسيح، الذي بروح أزلي قدم نفسه لله بلا عيب، يطهر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي.» (عب٩:١٣-١٤)

وهكذا ترى يا عزيزي القارىء أن الإيمان الأنجيلي الكامل بمغفرة الخطايا ينبغي أن يتغلغل إلى أعماف «الضمير» ليطهره تطهيراً كاملآ بل والى التقديس. وهكذا يكون سر الاعتراف والتوبة لمغفرة الخطايا، له التأثير النفساني الفعال القادر أن يصحح ويشفي، ليعيد للانسان نفساً سوية، بعد أن تكون قد أفسدتها الخطية وأمرضتها.

وأما قوة فعالية دم المسيح، فتوضح الآية أنه قائم على أساس «الروح الازلى»، أي روح الله القدوس، فدم المسيح الذي سُفك على الصليب، دم حي وحياته أزلية، أي دائمة فيه، منذ أن سُفك والى اليوم وإلى الأبد، فقدرته الذبائحية على الغسل والتطهير والتقديس قائمة وقادرة قدرة لانهائية إزاء خطية العالم كله.

على أن كل من الكنيسة الارثوذكية والكاثوليكية تحصر السلطة الرسولية لمغفرة الخطايا وإماكسها في الرتبة الكهنوتية وفي داخل سر التوبة بأصول وواجبات وشروط، وقد انحصرت تقريبا في معاملة الشعب بعد المعمودية. وقد عالج هذا الأمر مجمع ترنت (١٥٤٥-١٥٦٣م) الخاص بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وهو المجمع الثامن عشر، وكان مخصصاً ضد البروتستانت الإصلاحيين، وأدان كل من يقول بأن سلطان مغفرة الخطايا هو لكافة المؤمنين في الكنيسة. كما زاد بأن هذا السلطان لا يتبع رسالة بشارة الأنجيل بل هو سر قائم بذاته(؟)، ولو أن كثيراً من اللاهوتيين الكاثوليك المحدثين لا يرون أن هذا القرار يتناسب مع قصد الآية الواردة في إنجيل القديس يوحنا، فالآية واضحة أنها تخص قوة الكرازة ذاتها من جهة الله نفسه لمغفرة الخطايا في المسيح أو مسكها.

والخطأ الحادث والمستمر هو التمادي في استخدام هذا السلطان بمفهوم يخرج عن تحديدات الروح في الأنجيل حسب هوى الشارح.

ولو أن إنجيل القديس يوحنا لم يتعرض للخطايا وغفرانها بالنسبة للمعاملات الشحمية مح الآخرين، إلا أننا نفهم من إنجيل القديس متى أنه علينا أن نفرق بين خطايا تُقترف وتمس الايمان أو العقيدة أو العبادة أو الله أو الكنيسة أو جسد الإنسان ذاته (كالزنا،» باعتبار أن الجسد تقدس بالمعمودية والروح القدس في الأسرار وخاصة الاشتراك في جسد ودم المسيح، فصار جسد الإنسان هيكلاً لله وعضوا في جسد المسيح كالغصن في الكرمة؛ وبين خطايا تُقترف في المعاملات الشخصية مح الناس والاخوة لتمسهم بالسوء.

الميسح الكفاري على الصليب: [أيها السيد الرب يسوع المسيح، الابن الوحيد، وكلمة الله الآب، الذي قطع كل رباطات خطايانا من قبل آلامه المخلصة المحيية، الذي نفخ في وجه تلاميذه القديسين ورسل الأطهارء وقال لهم: اقبلوا الروح القدس، من غفرتم خطاياهم غُفرت لهم، ومن أمسكتموها عليهم أُمسكت. أنت الآن أيضاً يا سيدنا، من قبل رسلك الأطهار أنعمت للذين يعملون في الكهنوت كل زمان في كنيستك المقدسة، أن يغفروا الخطايا على الأرض... - الخولاجي المقدس]

فالخطايا التي تُقترف ضد الله وكل ما يخصه، يدخل غفرانها بالدرجة الاول في سلطان الكنيسة. أما الخطايا في التعامل الشخصي مع الناس والتي تمسهم بالسوء، فيتحتم طلب الغفران أولا ممن أسأنا إليه مع الاستعداد للتغريم: «وإن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما. إن سمع منك فقد ربحت أخاك. وإن لم يسمع فخذ معك أيضا واحدا أو اثنين لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة. وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة. وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني والعشار» (مت١٨:١٥-١٧)؛ «حينئذ تقدم إليه بطرس وقال: يا رب كم مرة يخطيء إلى أخي وأنا أغفر له، هل إل سبع مرات؟ قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات.» (مت١٨:٢١-٢٢)

وواضح جداً من هذا العرض أن على الفرد المؤمن واجب الغفران أو قانون الغفران. إذ يتحتم أن يكون جاهزاً وبلا استثناء، حتى ولو أخطأ الإنسان نحوه سبعين مرة سبع مرات؛ بمعنى أنه ليس في يد المؤمن سلطان حر لمغفرة الخطايا للأخرين بل هو واجب وقانون حتمي مفروض عليه. وقول المسيح أن عليك، كمؤمن، أن تغفر لمن أخطأ إليك سبعين مرة سبع مرات، يحمل ضمنا أن ليس المؤمن أي حق لعدمم الغفران» «فمسك الخطايا» ليس من سلطان المؤمن قط، بل رفعه المسيح من يد المؤمن ووضعه في نصابه القانوني: «وإن لم يسمع فخذ معك أيضاً واحدا أو اثنين ....، ون لم يسمع منهم فقل للكنيسة» هنا يأتي دور الكنيسة القانوني في مسك الخطية على الخاطيء المكابر والمعاند، وفرزه من الكنيسة: «وان لم يسمع من الكنيسة، فليكن عندك كالوثني والعشار»، بمعنى أن الكنيسة تقطعه من عضويتها، إذ لم يعد أخاً في الإيمان بل وثنياً يعبد البغضة والعداوة ويبخر للذات.

الاعتراف «بالزلات»: يعطينا القديس يعقوب صورة محدودة لتصريح الكنيسة وتحت سلطانها بمكاشفة المؤمنين بعضهم بعضا بالخطايا، بمعنى الاعتذار عن كل إساءة في وقتها حتى لا تثقل ضمائرهم من نحو بعضهم البعض: «اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات، وصلوا بعضكم لأجل بعض لكي تُشفوا.» (يع٥:١٦)

واضح هنا أن نوع الخطايا ليس موجها للايمان أو الله أو الكنيسة، بل هي أخطاء شخصية وقد ربط القديس يعقوب هنا بين الخطايا والأمراض، وبين الاعتراف الفردي والصلاة. وهذا التصريح من رئيس كنيسة أورشليم أم كنائس العالم آنئذ يأتي بعد أن أوضح دور قسوس الكنيسة الأساسي في دهن مسحة الزيت والصلاة ومغفرة الخطايا المتسببة في المرض.

لذلك لا نجد هنا في القول: «اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات»، أي انتقال أو تنازل لسلطان الكنيسة الرسولي لمغفرة الخطايا أو إمساكها إلى عامة المؤمنين، بل هي على مستوى الأمر أو التوصية، كعمل مبدئي في غاية الأهمية والضرورة، تستكمله الكنيسة بقوتها وسلطانها الرسولي الفائق المستجاب لدى الله في السماء

القيمة السرية والثمينة لسلطان مغفرة الخطايا في الكنيسة: يقدم لنا القديس يعقوب الصلة السرية والخطيرة بين الخطية والمرض، وبالتالى بين غفران الخطية وقوة الشفاء عند الكنيسة المفتقدة لأولادها: «أمريض أحد بينكم، فليدع شيوخ الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب. وصلاة الإيمان تشفي المريض، والرب يقيمه، وان كان قد فعل خطية تُغفر له.» (يع٥:١٤-١٥)

هنا يسجل لنا القديس يعقوب نوعا هاما من قيمة سلطان مغفرة الخطايا الذي استودعه الرب في قلب الكنيسة، فهو هنا ليس منطوقا بالحل أو الغفران بل يُقدم على مستوى صلاة يقودها قسوس الكنيسة المجتمعون مع أهل المريض من أجل الشفاء باستخدام زيت المسحة المفروض أنه يحمل قوة وحضور الروح القدس. هنا يكشف لنا القديس

يعقوب أن غفران الخطية الذي في سلطان الكنيسة والعامل بالروح القدس في سر المسحة هو أساس الشفاء، باعتبار أن هذا المريض علته الخطية. بهذا يكون سلطان مغفرة الخطايا في الكنيسة بمثابة قوة وذخيرة لشفاء أجساد ونفوس وأرواح المؤمنين.

التوبة والغفران: «ولكن الآن يقول الرب ارجعوا إلي بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح، ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم، وارجعوا إلى الرب إلهكم لأنه رؤوف رحيم، بطيء الغضب، وكثير الرأفة.» (يؤ٢:١٢-١٣)؛ «قد محوت كغيم ذنوبك، وكسحابة خطاياك. ارجع إلي لأني فديتك.» (إش٤٤:٢٢)

أوضح تعبير عن علاقة التوبة بمغفرة الخطايا هو ما قاله القديس بطرس الرسول بعد حلول الروح القدس مباشرة لشعب إسرائيل النادم والباكي: «توبوا وارجعوا لتُمحى خطاياكم، لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب» (أع٣:١٩). ولكنها أولاً وقبل كل شيء وصية الرب المخلص فيما يخص عمل مغفرة الخطايا، كما قالها بعد القيامة بحسب إنجيل القديس لوقا: «وقال لهم ... أن يُكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم.» (لو٢٤:٤٦)

وقد سبق الرب في تعاليمه أيضاً أن ربط المغفرة بالتوبة ربطاً لا محيص عنه: «وان أخطأ إليك أخوك فوبخه، فإن تاب فاغفر له. وإن أخطأ إليك سبع مرات في اليوم ... قائلاً أنا تائب، فاغفر له» (١٥:٧)

أما ربط التوبة نفسها بالخلاص، فقد جعلها المسيح كالأساس: «إن لم تتوبوا، فجميعكم كذلك تهلكون» (لو١٣:٣). أما مركز التوبة والتائب في السماء، فوصفه المسيح كذلك: «أقول لكم، إنه هكذا يكون فرح في السماء بخاطىء واحد يتوب...» (لو١٥:٧)

إذن، لا توجد مغفرة للخطايا إلا بالتوبة، فمغفرة الخطايا تكون فقط للتائب كحالة حاضرة ومستمرة. لذلك لا يمكن أن نعبر على هبة المسيح في إنجيل يوحنا للرسل بأن كل ما يغفرونه يُغفر وكل ما يمسكونه يُمسك، حيث يأتي فعل الغفران والمسك في حالة الفعل التام المستمر اي يكون مغفوراً ويكون ممسوكاً، إلا ويكون نتيجة مباشرة للتوبة الدائمة، والمسك يصير نتيجة مباشرة لمن رفض حياة التوبة.

وما هي التوبة؟: التوبة في اللغة اليونانية هي بحسب الحرف «تغيير الفكر» ولكن المعنى في اللغة الأرامية التي كان يتكلم بها المسيح تعني أكثر وأعمق من هذا: فهي بحسب الفحص الدقيق تحمل معنى:

١- حالة الإنسان فيما يخص كل كفاءاته،

٢- مبادرة عبادية تحمل تحولا نحو الله بتصميم وعناد،

٣- ليس الكف عن سيرة سابقة أو التكفير عنها بتحمل تضحيات وعقوبات وحسب، بل لا بد وأن تشمل نزوعاً جديداً نحو المستقبل،

٤- تغيير جذري في العقيدة والإيمان، أو بمعنى أبسط معرفة أعمق وأصح بالله ودراية واعية بإرادته المقدسة،

٥- استجابة واضحة لنداء نعمة الله، وانتهاز فرصة الخلاص التي يعرضها الله.

والتوبة ولو أنها حالة قلبية داخلية للانسان، ولكن يتحتم أن يكون لها أفعال وردود أفعال ظاهرة وعلنية، كأعمال رحمة ومحبة وتواضع: «فاعملوا أعمالا تليق بالتوبة.» (لو٣:٨)

فالصوم مثلا له أعمال:

١- «أليس هذا صوما أختاره (أنا الله): حل قيود الشر، فك عقد النير (أي إطلاق سراح الذين نعاقبهم ونعبدهم)،

واطلاق المسحوقين أحراراً، وقطع كل نير (القيود التي وضعناها على من كانوا تحت سلطاننا).» (إش٥٨:٧)
٢- «أليس أن تكسر للجائع خبزك، وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك». «إذا رأيت عرياناً أن تكسوه، وأن لا تتغاضى عن لحمك.» (إش٥٨:٧)
النتيجة: «حينئذ ينفجر مثل الصبح نورك، وتنبت صحتك سريعاً، ويسير برك أمامك، ومجد الرب يجمع ساقتك، حينئذ تدعو فيجيب الرب، تستغيث فيقول هأنذا» (إش٥٨:٨-٩)

٢- المسيح يظهر للأحد عشر خصيصاً من أجل توما في العلية

توما كان غائباً عن الاجتماع الأول، وويرفض تصديق القيامة، ويرفض شهادة إخوته التلاميذ (٢٠:٢٤-٢٥)

٢٠:٢٤ أَمَّا تُومَا أَحَدُ الاِثْنَيْ عَشَرَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ حِينَ جَاءَ يَسُوعُ.

»كانى روح الله على عزريا بن عوديا، فخرج للقاء آسا وقال له: اسمعوا لي يا آسا وجميع يهوذا وبنيامين: الرب معكم ما كنتم معه. وإن طلبتموه، يوجد لكم. وان تركتموه، يترككم.» (٢أى١٥:١-٢)

توما: «ديديموس» باليونانية المترجم بالتوأم، تعني ضمن ما تعني في لغة القديس يوحنا المستيكية، أي السرية، معنى أنه واحد باثنين، وهي ما توضحه ولادة التوائم). فكون توما واحدا باثنين، ثم تقول الآية إنه واحد من الاثني عشر، فهو هنا يعني أنه يكمل بالسر مكان التلميذ الذي كان معدوداً من الاثني عشر وسقط؛ لأن «الاثني عشر» هو الاصطلاح الذي تحمله الكنيسة عوض الاثني عشر سبطاً، خلوا من أعداد وأسماء وحظوظ فردية. هذا كان يدركه بطرس الرسول تماما حينما دعا الأحد عشر إلى اجتماع عاجل والى صوم وصلاة، ليعين آخر عوض يهوذا الذي صار من نصيب الشيطان، حتى يكمل نصاب الكنيسة، لا عددا بل اسما دهريا:

«وذهب بي بالروح إلى جبل عظيم عال، وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله لها مجد الله ولمعانها، شبه حجر كحجر يشب بلوري، وكان لها سور عظيم وعال (سور الخلاص)، وكان لها اثنا عشر بابا (مداخل التعليم الرسولية) وعلى الأبواب اثنا عشر ملاكاً (حراس التعليم الصحيح)، وأسماء مكتوبة هي أسماء أسباط بني إسرائيل (الجديد) الاثني عشر (رسولا) ... وسور المدينة كان له اثنا عشر أساساً، وعليها أسماء رسل الخروف الاثني عشر.» (رؤ٢١:١٠-١٤)

لقد أنهت أخبار المحاكمة الشنيعة والصلب والموت للمعلم المحبوب، على كل أمل في بقاء توما في أورشليم مع الرفقة على ما يظن. وربما يكون قد قفل راجعاً إلى بلدته، وهي في غالب الأمر ليست في الجليل بل اليهودية، فهو كان، على ما يُعتقد، من الخمسة التلاميذ الأوائل الذين تبعوا الرب في بداية خدمته في اليهودية قبل الجليل ولكن لما ترامت إليه أخبار القيامة رجع إلى أورشليم. وهذا ما تم بالحرف الواحد لتلميذي عمواس اللذين قفلا راجعين إلى مدينتهما، يلفهما اليأس والحسرة.

أما لماذا تسرع توما في الأنسحاب من دائرة الأحداث هكذا دون بقية التلاميذ، فواضح من الحديث القادم أن اليأس كان قد استبد به أكثر من جميعهم، فكان رد فعل النعمة أنها انسحبت من دائرة حياته، مؤقتاً، وهكذا ينكشف سلوك توما، التراجعي، كما تتبين معاملة الله للمتراجعين: «الرب معكم ما كنتم معه، وان طلبتموه يوجد لكم وان تركتموه يترككم.» (٢أى١٥:٢)

فغياب توما عن ذلك الحدث العظيم، سببه توما نفسه، ولكن تقف وعود الله بلا ندامة: «وهل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء ينسين، وأنا لا أنساك.» (إش٤٩:١٥)

٢٠:٢٥ فَقَالَ لَهُ التّلاَمِيذُ الآخَرُونَ: «قَدْ رَأَيْنَا الرَّبَّ». فَقَالَ لَهُمْ: «إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ وَأَضَعْ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ وَأَضَعْ يَدِي فِي جَنْبِهِ لاَ أُومِنْ».

الإنجيل لم يذكر لنا حادثة توما هذه المخجلة لكي يحط من قدر توما، بل لكي يوضح صعوبة الإيمان بالقيامة. فإنجيل القديس متى يذكر أن أكثر من واحد منهم شكوا: «ولما رأوه سجدوا له، ولكن بعضهم شكوا» (مت٢٨:١٧). هذه هي صراحة الإنجيلي في روايته، التي من واقعها ندرك صدق الرواية وصدق القيامة ذاتها. وانجيل القديس مرقس لم تفته هذه المحنة الإيمانية لدى البعض، فهي جزء لا يتجزأ من الحقيقة: «أخيرا ظهر للأحد عشر وهم متكئون ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم، لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام» (مر١٦:١٤)

وهنا يزيد القديس مرقس من لوم التلاميذ الذين لم يؤمنوا إذ كان يجب أن يصدقوا الذين نظروه قد قام. وهذه تعود وتنعكس علينا لا محالة، فنحن أمام هذه الحالة عينها. فرواية القيامة بلغتنا على يد شهود عيان كثيرين، فالايمان بها أصبح يحفه القبول من اليمين بالمديح، كما يحفة الشك من الشمال بالتوبيخ. أما الطوبى أي السعادة، فهي نصيب الذين يؤمنون ولا يطلبون لا العيان ولا شهادة العيان، لأن الحق يضيء قلوبهم.

إذا، فرواية توما لا تخص توما ولا التلاميذ، بل هي حدثت لتكون ركناً ركيناً في استعلان شخص المخلص، كجزء حي في درجات سلم استعلان قيامة المسيح، كطوق نجاة للذين ستعصف بهم شكوك مثل شكوك توما!

والقديس يوحنا يقدم لنا رواية توما على التوازي مع رواية تلميذي عمواس التي قدمها القديس لوقا. فكل من الروايتين حظت بظهور الرب خاصة. ولكن حظى كل منهما بالتوبيخ المناسب.

«قد رأينا الرب»: نفس ما قالته المجدلية: «قد رأيت الرب».

لم تكن رؤيا وحسب بل وفرحاً، هي شهادة ستبقى خالدة أبد الدهر ترددها كلمة «آمين»، من كل من في السموات والأرض، بانتظار الاستعلان المنظور الذي تراه كل عين آمنت أو لم تؤمن. أما التي آمنت، فبتهليل تردد صداه السموات وسماء السمورات، وأما التي لم تؤمن فبالبكاء والنحيب على الذي طعنوه بلسانهم أو جحودهم أو ارتدادهم.

لم تقع هذه البشارة المفرحة عند توما موقع التصديق، عن قصد من النعمة، ليكون أباً ومرشداً لكل الذين صاروا بعقولهم قوامين على قلوبهم، ومدوا أيديهم وأصابعهم عوض البصيرة ليتحسسوا بها طريق الحق. لقد صار توما في تاريخ الإيمان إمام الشكاكين. ولكن يا ليت كل من يشك، ينطق بالنهاية بما نطق به توما.

«فقال لهم: إن لم ابصر في يديه أثر المسامير، وأضع إصبعي في أثر المسامير، وأضع يدي في جنبه لا أؤمن»: جروح الصليب مميتة، فكيف تصبح علامة حياة؟ إنه تعجيز!! ولكنها هى حقاً معجزة!! توما يطلب المستحيل بالعيان واللمس، يطلب اقتران الموت بالحياة والحياة بالموت، فكان له ما شاء!! إنها حقاً القيامة!! توما أراد أن يمسك بنار اللاهوت، فمسك ولم يحترق، إنه فضل التجسد ومجد القيامة!!

توما أراد أن يمثل بيده طعنة الحربة، وكمثل يد موس، دخلت برصاء بعدم الإيمان، وخرجت تضيء بصراخ الإيمان (خر٤:٦). إن أهوال الصلبوت ضيعت من عقل توما كل معقولية الحياة من بعد الموت، لقد أصابت المسامير فكر توما بأكثر مما أصابت به يد الفادي، الفادي قام بيديه في ملء الحركة والحياة، وفكر توما تسمر بالموت وبقي بلا حراك. الجنب المفتوح بالحربة صار كهوة في إيمان توما، تفصل الميت عن الحياة، مع أن الدم والماء النازفين منه كفيلان بأن يُحيي كل الأموات.

«لا أُؤمن»: لقد جازف توما بكل إيمانه، لقد وضع إيمانه بالمسيح قائماً من الموت في كفة، ورؤية عينيه ولمس يده لآثار المسامير وطعنة الحربة في الكفة المقابلة! لقد ظن توما أن الإيمان بالقيامة رهن نظر العين ولمس اليد!! ولكن السيح نفسه عنما ظهر للتلاميذ المجتمعين «أراهم يديه وجنبه»، فتوما وان كان يطالب بحقه الرسولى، كتلميذ له، في الرب المقام ما كان للباقين في غيابه، إلا أن ما كان ينقص توما حقاً والذي وبخه المسيح على فقدانه، كما وبخ الآخرين، فقد كان هو الإيمان: «ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام» (مر١٦: ٢٤)، وهنا يستحيل الأخذ بنموذج توما ليكون نموذجاً لنا للايمان. ولكن نموذج توما الذي شك واشترط لإيمانه الرؤيا واللمس، هو نموذج رسولي وحسب، قرره الرب أن يكون، وقرر له الاستجابة، فظهر له بمقتضى نفس شروطه، ليؤمن، فلا يبقى هو، ولا أحد غيره، غير مؤمن بعد!!

أما ما انتهت إليه خبرة القديس توما والتي ينبغي أن تنتقل إلينا، أنه ليس بالعيان ولا باللمس يكون الإيمان بل بتصديق الخبر الإنجيلي، بطاعة الكلمة، بالاستجابة لنداء الروح القدس «طوبى للذين آمنوا ولم يروا.» (يو ٢٠: ٢٩)

٢٠: ٢٦ وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَانَ تلاَمِيذُهُ أَيْضاً دَاخِلاً وَتُومَا مَعَهُمْ. فَجَاءَ يَسُوعُ وَالأَبْوَابُ مُغَلَّقَةٌ وَوَقَفَ فِي الْوَسَطِ وَقَالَ: «سلاَمٌ لَكُمْ»

لا يزال التلاميذ في أورشليم ولا يزالون مجتمعين! إن حقائق القيامة وظهور الرب ربطت قلوبهم بالمكان الذى ظهر فيه، لم يعووا قادرين على مبارحة أورشليم. كانوا ينتظرون بناغ الصبر مزيدا من الاستعلان والظهور. لقد بدأت تتبلور في قلوبهم رسالتهم، ولكن لم يكونوا حائزين بعد على «القوة» اللازمة للحركة.

كان يوم الأحد الذي قام فيه الرب وظهر لهم فيه «أيضاً» في المساء، كان قد أخذ قدسية خاصة زادت بصورة مؤكدة بعد أن ظهر لهم وللمرة الثانية في نفس المكان ونفس المساء، مساء الأحد. وهكذا تقررت علية أورشليم أن تكون مركز ميلاد الكنيسة في أورشليم، كما تقرر يوم الأحد ليكون يوم الرب، يوم القيامة، يوم الظهور والاستعلان.

فى هذا يقول القديسرر كيرلس الكبير: [إذا، هو لسبب صالح لنا عادة أن يكون لنا اجتماعات مقدسة في الكنائس في اليوم الثامن (الأحد). ويُستحب أن نستعير لغة التشبيه بالإنجيل فنقول، وكما تستلزمه الحاجة، نحن نقفل الأبواب. وبالرغم من ذلك يأتي المسيح ويظهر لنا جيعا منظوراً وغير منظور بآن واحد، غير منظور بصفته الإلهية ومنظورا بالجسد (في الإفخارستيا). ويجيز لنا أن نلمس جسده المقدس ويعطيه لنا أيضاً. لأننا بنعمة الله، ونحن نؤهل أن نشترك في الافخارستيا المقدسة، نستقبل المسيح في أيدينا[١] بغرض أن نؤمن يقيناً أنه حقآ أقام هيكل جسده].

كان اجتماع التلاميذ وتوما معهم بمثابة داع دعا الفادي للظهور: «حيثما اجتمح اثنان أو ثلاثة باسمي، فهناك أكون في وسطهم» (مت١٨: ٢٠). ولكن هنا ليس اثنان أو ثلاثة، بل «أول كنيسة» تجتمع بكامل هيئتها، ليعطي لها المسيح أول درس في الإيمان غير المعتمد علي المنظور.

«فجاء يسوع والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط»: اللغة التي صيغت بها هذه المعلومة «فجاء يسوع» توضح في اللغة اليونانية أنه كان هناك نوع من الترقب؛ وهذا ما نعتقده نحن بكل تأكيد. فالآن قد حاز التلاميذ على عطية

---

[١] كان الطقس قديما ينص أن يعطى الكاهن الجسد فى يد المتناول والمتناول يضعه فى فمه

الروح القدس الكفيل أن يجعلهم يشعرون «بالأمور الآتية»، وخاصة فيما للرب ومجيئه. ولكن الذي يلهب قلوبنا نحن أيضاً، هو كيفية ظهوره بكامل عظمة هيئته، وفي وداعة بشريته ولطف محبته، بل ونقول بروح نشيد الأ نشاد: يا لطلعته البهية، يا لبأس منظر عينيه كغالب الموت وقاهر الهاوية، يا لبهاء نور الآب الذي يشع من كل كيانه، تخرج من جروح يديه ورجليه طاقات وموجات من الأشفية والأدواء لعلاج كل أوجاع البشرية، ومن خلف جنبه منظر كنهر الحياة ليعطي كل أمم وشعوب الأرض للاغتسال بغسل الحياة، لاستنشاق نسيم روح الله. هكذا جاء يسوع خصيصاً ليتحادث مع توما بشأن عدم لياقة عدم إيمانه، بعد سنين هذا عددها وهو يسقيه فيها من روح نعمته.

جاء يسوع ووقف «في الوسط»، صحيح أنه جاء خصيصاً لتوما، ولكن حينما يظهر المسيح يظهر في الوسط فهو للجميع والجميع له. ليس كبير أو صغير بينهم ، فالكل فيه كبير والكل فيه كريم مُكرم.

«وقال سلام لكم»: ليست هي مجرد تحية، ولكنها وديعة يستودعها الرب لكنيسته: «سلامي أعطيكم»، فالرب لا يقرىء السلام، بل يعطيه، بل يسكبه ويبثه بثاً، ليسري في القلوب والأفكار والأرواح، ليبقى ويدوم ويترسخ داخل النفس، نلتجىء إليه يوم العاصفة فتجده، ونستغيث به في الضيقة فنسربل به.

ويلزم أن ننتبه أن التلاميذ كانوا لا يزالون خائفين، لأن الأبواب كانت لا تزال مغلقة عليهم. فكان المسيح، بإعطائهم السلام، كمن يقول لهم: «أما خوفهم فلا تخافوه، ولا تضطربوا ، بل قدسوا الرب الإله في قلوبكم.» (١بط٣:١٤-١٥)

٢٠: ٢٧ ثُمَّ قَالَ لِتُومَا: «هَاتِ إِصْبِعَكَ إِلَى هُنَا وَأَبْصِرْ يَدَيَّ وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي وَلاَ تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِناً».

عجيب أن الرب يعيد نفس الكلمات التي نطق بها توما وهو يتحدث مع زملائه، فكأن الرب كان واقفاً يستمع إلى شروط توما المغلظة، لم يعاتبه ولا حتى آخذه، بل بلطف يفوق كلق لطف، أخضع جسده الذي ترتعب منه الأجناد السماوية لرؤية عين توما، ويلمس أصابعه. عرى جروحه، وجنبه المفتوح جعله في متناول يده!

وهكذا احتفظ الرب بعلامات الموت ليجعلها برهان الحياة، وآثار الذلة والانسحاق ليجعلها أسباب المجد!

ولعل إخضاع الرب جروحه النازفة للمس أصابع توما، كان قمة استعلان الموت في الحياة وقمة الحياة في الموت. وهذه هي القيامة نصا وفصا. ثم، أما كان القديس يوحنا صادقاً في رؤياه لما قال في افتتاح إنجيله: «وكان الكلمة الله»؟ وهكذا بقيت هذه الحقيقة العظمى تحتاج إلى برهان، إلى أن تجسد الكلمة وذُبح على الصليب وقام، إلى أن باشرها توما بالروح والعين المفتوحة قبل أصابع يديه، فصرخ: «ربي والهي».

ولكن ماذا كان وقع كلمات الرب المقام على توما، حينما ردد على مسامعه كل الكلام والشروط التي قالها للتلاميذ، متحدياً جيعهم ليؤمن بقيامة الرب؟ أعتقد أنها فوق أنها أخجلته، فقد جعلته في غير حاجة لأن يمد يده أو إصبعه. ولكن حينما مدها وحينما لمس إطاعة للأمر الذي صدر له، كان قد بلغ الإيمان في قلبه حد الصراخ بالشهادة. خبرة العين الروحية ابتلعت خبرة عين الجسد، ولمسة الروح في القلب طغت على لمسة اليد.

«لا تكن غير مؤمن، بل مؤمناً»: لم يكن توما غير مؤمن، لهذا ظهر له الرب. وإلا لو كان فعلاً غير مؤمن، لما ظهر له الرب على الإطلاق، لقد قلنا إن عطية الروح القدس التي نفخها الرب في التلاميذ كانت جماعية لا فردية، كانت في جسم الجماعة المتحدة، وليس على مستوى فرد دون فرد. وهكذا انتقلت من فم المسيح للرسل،

ومن الرسل للكنيسة، ككل، كجسد حي. القديس توما، إذاً، لم يكن غريباً عن جسم التلاميذ، جسم الكنيسة، ولا عن عطية الروح القدس، ولكن لما استبد به الشك، كونه استثني من رؤية الرب، كان يطلب حقه في الرؤيا العينية، وزاد عليها لمس الأصابع، إمعاناً في الوثوق الذي يطلبه. بمعنى أن توما كان في طريقه إلى الإيمان في حالة حصوله على ما احتاجه إيمانه: «أؤمن يا سيد، فأعن عدم إيماني» (مر ٩:٢٤)

الرب تنازل إلى مستوى شروط توما، ليقطع على توما، وعلى كل من يذهبث مذهبه، الطريق إلى عدم الإيمان!

ولكن الذي اعتاد على أسلوب القديس يوحنا في التلطيف الفائق الوصف عند سرد سلوك التلاميذ خاصة، يدرك كيف يخفف هذا الإنجيلي الوديع المحب من عنف أسلوب المسيح في مقارعة التلاميذ الذين قسوا قلوبهم، ولم يبلغوا سريعا إلى درجة الإيمان الفوري حسب رواية القديس مرقس: «أخيراً ظهر للأحد عشر(توما في الحسبان) وهم متكئون (ثاني مرة أي الأحد الثامن)، ووبخ عدم ايمانهم وقساوة قلوبهم، لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام.» (مر١٦:١٤)

ولكن هاتين الرؤيتين لكلام الرب، هما في الحقيقة لموضوع واحد رآه القديس مرقس بما كان من ضعف التلاميذ، ورآه القديس يوحنا بما سيكون من لطف المسيح للتلاميذ، الأول رآه يستحق التعنيف، والآخر رآه يستحق التشجيع.

٢٠:٢٨ أَجَابَ تُومَا: «رَبِّي وَإِلَهِي».

«هو يدعو باسمي. وأنا أجيبه. أقول هو شعبي، وهو يقول الرب إلهي» (زك١٣:٩)

هذا الخطاب الموجه للمسيح رأساً من القديس توما هو، نصاً وحرفاً، نفس الخطاب الموجه من أي إسرائيلي نحو يهوه الله. وهكذا بلغ الإنجيل بالفعل والقول إلى أقصى ما عبر عنه المسيح أن يكون: «لكي يكرم الجميع الابن، كما يكرمون الآب» (يو٥:٢٣). وتم بالفعل قول المسيح الذي قال: «فقال لهم يسوع: متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أني أنا هو(يو٨:٢٨)

إن نطق القديس توما: «ربي والهي» يكون قد وقع على المنظور الحي ما قاله القديس يوحنا في رؤياه للكلمة «وكان الكلمة الله».

هذه هى قمة الاستعلانات التي تتبعها هذا الإنجيلي الدقيق الدؤوب. إنها قمة إنجيل القديس يوحنا، التي ما أن بلغها هذا القديس، حتى تنفس الصعدا، وأرخى الفكر وسجل الخاتمة: «وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه.» (يو٢٠:٣٠-٣١)

والذي يزيد من قيمة هذا الاستعلان الذي استلهمه القديس توما من رؤية الرب المقام، أنه يأتي بعد أسبوع كامل من عذاب الشك وليل الظنون. فهو وان تاخر عن التلاميذ ثمانية أيام في التعرف على القيامة وتصديقها، إلا أنه سجل للكنيسة أول اعتراف علني بألوهية المسيح، خرج منه بتلقائية تعبر عن الحق الذي رآه كاعتراف إيمان بلغ الذروة، ليس في كل الإناجيل ما يضاهيه.

يتفق معظم الشراح في أن القديس توما لم يمد يده نحو الجسد المقدس، ولم يكن في حاجة أن يتفرس في ثقوب المسامير باليدين، ولا تحسس الجنب المفتوح، وإن خالف ذلك كثيرون أيضاً؛ بل إنه، حال ظهور الرب والأبواب مغلقة، أخذ في دهشة، وانفتحت بصيرته في الحال فنطق بما نطق. لقد شعر، والرب أمامه بلحمه وعظامه، بهيئته الجديدة المجيدة وبصوته هو هو، أن كل مطاليب ضعف إيمانه السابق من جهة رؤية أثر المسامير والجروح

والجنب المفتوح، هي أتفه من الحقيقة المعلنة أمامه.

إن ظهور الرب بحال قيامته كان كفيلاً بأن يغير، لا فكر توما بل روحه وحياته. إن ظهور الرب قوة، فالقيامة هي المجال الإلهي الفائق، الذي إذا دخله الإنسان يفقد رؤيته لنفسه والعالم، وكأنها أقنعة يخلعها ليرى الحقيقة الدائمة ولا يعود يرى نفسه إلا في الله : «ربي والهي».

إنه يذكر نفسه بياء الملكية مرتين «ربي وإلهي»، تأكيدا منه أن من يراه واقفاً أمامه، يرى نفسه فيه ويراه هو في نفسه، وكأنه يردد بلسان صاحب شيد الآنشاد: «أنا لحبيبي، وحبيبي لى» (نش٦:٣). إنه تعبير عن إيمان حي محسوس وشخصي. وقول توما للمسيح: «إلهي» إنما يعبر تعبيراً حياً صادقاً منظوراً بالروح لقول الميسح: «الذي رآني فقد رأى الآب.» (يو ١٤:٩)

لقد صار له المسيح وصار هو للمسيح ، فاستعلن له المسيح في ذاته رباً وإلهاً. لقد تعرف على الله في المسيح، وتعرف على المسيح في الله!!

وأخيراً، أدرك توما أن المسيح ليس للمس اليد أو نظر العين!! فهو الملء الذي يملأ الروح والبصيرة والقلب، الملء الذي لا تسعه عين ولا يحيطه فكر.

وكان رد المسيح على اعتراف توما: «ربي والهي» أن أمن على إيمانه، موافقاً على إعلانه بلاهوته كمن أصاب الحقيقة بكلمة، فلو لم يكن المسيح إلها بالحق، ما كان قد ارتضى بهذا الإعلان!! ولو لم يكن المسيح والآب واحد، ما رأى توما ما رأى!! لقد رأى توما المسيح كما يريد المسيح نفسه أن يُرى!

اما «ربي» فهي تخص إيمان توما بالمسيح «المعلم» الذي أكل وشرب معه، وها هو واقف أمامه. إنها صرخة المجدلية «ربوني»، تعبر عن إيمان القيامة. وأما «إلهي» فتخصه مستعلناً في حقيقته الأزلية، إذ ارتفع توما بإعلان حازه، به رأى الله فى المسيح! انهأ رؤية حق، للحق، لقد واجه توما المسيح في حقيقة ذاته: «الذى رآنى فقد رأى الآب.» (يو ١٤:٩)

وهكنداء بقدر ما انحط إيمان توما حتى شك في القيامة، بقدر ما أعطى للقيامة معيارها الإلهي العالي. وهكذا أثمر ظهور الرب للتلميذ الضعيف الإيمان قوة إيمانية باقية تسند الكنيسة على مدى الأزمان.

ولكن حذار أن نفهم من هذا أن ظهور الرب لتوما كان ظهور «العيان»، إذ يتحتم أن نفهم أن الظهور الإلهي الذي كان يظهر به المسيح بعد القيامة لم يكن ظهوراً تتحكم فيه العين البشرية وتفحصه. إنه ظهور إعجازي، يحتاج إلى عين روحية مفتوحة، إلى وعي روحي فائق عن وعي الجسد والحواس؛ يحتاج إلى عمل الروح: «وحينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب» (لو ٢٤:٤٥). أو القول الآخر الأكثر انطباقاً الذي تم بالحرف الواحد لتلميذي عمواس: ففي الأول كان المسيح سائراً معهم ولم يعرفاه: «ولكن اُمسكت أعينهما عن معرفته» (لو ٢٤:١٦). ولكن، في النهاية، تمت المعجزة من خلال إفخارستيا: «فلما اتكأ معهما، أخذ خبزاً، وبارك، وكسر، وناولهما، فانفتحت أعينهما وعرفاه، ثم اختفى عنهما.» (لو ٢٤:٣٠-٣١)

بهذه الرؤيا وحدها، يمكن التعرف على المسيح كإله، على أساس الآية التي قالها الرب: «الذي يراني يرى الذي أرسلني» (يو١٢:٤٥). هنا يستحيل أن تكون رؤية العين هي التي ترى من أرسله الرب؛ إنها حتما وبالضرورة رؤية الروح، «الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله» (اكو٢:١٠). وهذه هي رؤية الإيمان، بمعنى رؤية منشؤها التصديق، ونهايتها التعرف على الله في المسيح والمسيح في الله. هنا بلغ توما عن حق رؤية المسيح الإله: «ربي

وإلهي».

٢٠: ٢٩ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لأَنَّكَ رَأَيْتَنِي يَا تُومَا آمَنْتَ! طُوبَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَرَوْا».

أخيراً ظهرت رنة التوبيخ والعتاب في صوت المسيح لتوما؛ لأنه ما كان لائقاً بتلميذ عاشر الرب، وسمع منه أنباء القيامة العتيدة، بل ورأى قوتها عياناً عند قبر لعازر، مع تنبيه دائم ركز عليه الرب: «قلت لكم قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون» (يو١٤: ٢٩). فلما «كان» ما سبق وأنبأ عنه المسيح، وحدث كما قال، لا آمن توما ولا صدق من رأوا وآمنوا !!

لقد شابه توما بطرس في ضعف إيمانه، فذاك صلى المسيح من أجله، حتى لا يفنى بصيص إيمانه الذي كان كفتيلة مدخنة، ودخانها يعمي العيون: «فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف إني لا أعرف هذا الرجل!!» (مت٢٦: ٤٧؛ مر١٤: ٧١). أما هذا، فظهر المسيح له خصيصاً، وأراه جروحه، وأخضعها للمس يده، حتى يصير مؤمناً ولا يكون غير مؤمن بعد!!

ولكن شكراً لك أيها القديس توما، لأن بشكك ورثنا الطوبى، أحسن الطوبى!

«أنتم الذين بقوة الله محروسون بإيمان، لخلاص مستعد أن يستعلن في الزمان الأخير، الذي به تبتهجون، مع أنكم الآن إن كان يجب تحزنون يسيراً بتجارب متنوعة ... الذي وان لم تروْه تحبونه. ذلك، وان كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا يُنطق به ومجيد.» (ابط١: ٥-٨)

وفي نهاية هذه الآية المجيدة التي ورثتنا الطوبى، نلفت نظر القارىء أنها تحمل بين طياتها عزم المسيح على الأنسحاب الأخير، بحيث لا يراه أحد، بعد، إلا بالإيمان. وهكذا عبر إنجيل القديس يوحنا عن الصعود دون أن يصفه.

القصد الأساسي من كتابة إنجيل القديس يوحنا (٢٠: ٣٠-٣١)

٢٠: ٣٠ وَآيَاتٍ أُخَرَ كَثِيرَةً صَنَعَ يَسُوعُ قُدَّامَ تلاَمِيذِهِ لَمْ تُكْتَبْ فِي هَذَا الْكِتَابِ.

والآن، وقد أنهى القديس يوحنا إنجيله الذي كشف فيه من الآيات ذات المدلول الإلهي، وخاصة آيات القيامة، رفع عينيه نحو الأفق، نحو مستقبل الأجيال القادمة الذين كتب لهم هذا «الكتاب» بكل صدق الروح وحراسة النعمة، وكتب هذه الكلمات. إنه الآن يخاطبك أيها القارىء السعيد، باعتبارك أنك بُلغت الرسالة.

لقد سبق القديس يوحنا وأن وقف هذه الوقفة عينها، ناظراً إلى الماضي بكل آياته ومعجزاته الباهرة، ولكن ليس في غمرة فرح القيامة لبشارة الأمم كما هو هنا الآن، إنما في أسى وحزن، وقد امتد ظل الصليب ليغطي كل الآيات التي صنع، ليلقى عليها مسحة من الجحود والعمى والصمم التي أصابت الأمة المختارة: «ومع أنه كان قد صنع أمامهم آيات هذا عددها، لم يؤمنوا به ليتم قول إشعياء النبي الذي قاله: يا رب من صدق خبرنا، ولمن استعلنت ذراع الرب. لهذا لم يقدروا أن يؤمنوا. لأن إشعياء قال أيضاً قد أعمى عيونهم، وأغلظ قلوبهم، لئلا يبصروا بعيونهم، ويشعروا بقلوبهم، ويرجعوا فأشفيهم.» (يو١٢: ٣٧-٤٠)

ولكن هنا يسجل لنا القديس يوحنا، كتلميذ أمين ومحبوب، شهادة ذات وزن رسولي وانجيلي، أن الآيات التي صنعها المسيح سواء وسط الشعب في اليهودية أو أورشليم (يو٢: ٢٣) أو الجليل شيء لا يحصره عدد وبوجه خاص يذكر هنا «قدام تلاميذه»، وهو بصدد الظهور للقديس توما، لكي يرفق بها ظهورات الرب بعد القيامة، كنوع هام وممتاز من المعجزات التي اعتبرها آيات تتكلم وتشير إلى لاهوته بلا نزاع. ومعلوم، على وجه العموم، أن

المسيح اقتصر ظهوره على تلاميذه بعددهم الرمزي (الاثني عشر)، وأيضاً بعد ذلك بعددهم العام نحو «خمسمائة أخ» (١كو١٥:٣-٨) معتبراً أن هذه الظهورات كانت آيات تشير كلها وتتكلم عن صحة موته وقيامته، تأكيدا لرسالة الفداء التي أكملها كابن الله المتجسد.

ويلاحظ القارىء كيف جعل القديس يوحنا هذه الآية: «وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه»، تأتي ملتحمة بشهادة القديس توما «ربي وإلهي»، لكي تصير كنموذج يؤكد به للقارىء القصد من كل الآيات التي اختارها وسجلها: «لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله»، معتبراً أن اعتراف توما بإلوهية المسيح هو المعيار النهائي للانجيل كله.

ويعود القديس يوحنا ويذكرنا أن إنجيله الذي كتبه، إنما لا يمثل كل أعمال الرب، بل هو مختارات من آياته قولا وعملا، وكأنما يعتذر القديس يوحنا للقارىء الذي كان يريد أن يطلع على كل أعمال الرب. فهو بصريح العبارة يعترف أنه لم يكتب سيرة المسيح، ولكن اختار للقارىء، الذي يريد أن يؤمن بابن الله ويكون له الحياة الأبدية، ما يكفي لإيمانه. أما بقية أمجاد المسيح وأعماله فهو يتركها للمؤمن لكي يتسلمها من المسيح رأساً، ألم يستلم بولس الرسول ما يكاد أن يكون إنجيلاً بأكمله، ما لم يستلمه الآخرون؟ إذن، يكفي للقديس يوحنا أن يوصلنا إلى المسيح الحي، والباقي يتركه للمسيح الذي حسب قول القديس بولس الذي لم يره: «أحبني وأسلم نفسه لأجلي.» (غل٢:٢٠)

وهذا الأسلوب أيضاً نقرأه للقديس لوقا: «وبأشياء أخر كثيرة كان يعظ الشعب ويبشرهم.» (لو٣:١٨)

وفي هذه اللفتة العميقة في نهاية إنجيله، يريد القديس يوحنا أن يسرب إلى وجداننا «غنى المسيح الذي لا يُستقصى» (أف٣:٨)، والملء الذي يملأ الكل (أف١:٢٣)، من ذا الذي يستطيع أن يحيط به؟؟

والقديس يوحنا بهذا التقرير، إنما يلفت نظرنا إلى استعداد المسيح أن يكمل ويستزيد من الآيات والعلم والمعرفة لمن أصبح مستحقاً للكمال والاستزادة، أليس هو القائل: «إن لي أموراً كثيرة أيضا، لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن» (يو١٦:١٢)؟

٢٠:٣١ وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةٌ بِاسْمِهِ

هدفان أساسيان كانا يعملان في قلب هذا القديس ويملكان عليه كل تفكيره، عندما كان يكتب إنجيله، لكي يخرج بهما القارىء من قراءته:

الأول: الإيمان بيسوع أنه هو المسيح ابن الله، وهذا هو جوهر المسيحية.

الثاني: وهو مترتب على الأول، أن تكون له حياة أبدية، وهذا هو جوهر الخلاص، فلا مسيحية بدون خلاص.

أما الهدف الأول، وهو الإيمان بأن يسوع هو المسيح ابن الله، فاعتبره القديس يوحنا في رسالته الأولى أنه هو غلبة العالم: «من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله.» (ايو١٦:٣٣)

ما معنى هذا؟ معناه أن العالم بأمجاده وغروره وشهواته قادر ان يبتلع حياة الإنسان، وأنه لا توجد أية قوة أو وسيلة تنقذ الإنسان من طغيان العالم، إلا الإيمان بابن الله! لماذا؟ لأنه هو الذي تجسد وصار إنساناً، وغلب العالم بموته عن العالم: «ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يو١٦:٣٣)

وما هي غلبة العالم؟ هي الحصول على الحياة الأبدية مع الله، التي لا يمكن أن يعرفها العالم أو يعطيها. فالمسيح،

وهو ابن الله، مات عن العالم وقام حياً، إذ كان لا بد أن يقوم، فافتتح بحياته الحياة الأبدية لكل من يؤمن بموته (يسوع) وقيامته (المسيح ابن الله).

وهكذا، فالهدف الثاني الذي من أجله كتب القديس يوحنا إنجيله: أن «تكون لكم، إذا آمنتم» حياة باسمه». فـ «الإيمان» بالمسيح ابن الله يعمل في شهادته غلبة المسيح عل العالم، يحمل قوة موت المسيح عن العالم، كما يحمل قوة قيامة المسيح من الأموات، أي يحمل الخلاص بكل معناه ومبناه، وبالتالى يحمل حياة المسيح ابن الله التي انفتحت على كل من يؤمن به: «لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو٣:١٥)

«حياة باسمه»: اسم المسيح حينما ننطقه فهو شهادة واعتراف وصك إيمان وشركة معه بالحب في موته وحياته. واسم الله، بحسب لاهوت العهد القديم، هو الله حاضراً وقائماً وفعالاً. لذلك كان محظوراً أن ينطق اليهودي باسمه، لأن النطق باسم الله هو استدعاء لحضرته، أو بمثابة الدخول في حضرته التي لا يطيقها أي إنسان مهما كان طاهراً. أما اسم المسيح، وهو على التوازي، بل التساوي مع اسم الله، فهو الحامل لحضرة المسيح الحي. ولكن المسيح مات من أجل كل خاطىء ليحييه: «إني أنا حي فأنتم ستحيون» (يو١٤:١٩)، لذلك أصبح اسم المسيح الذي يحمل وجوده الشخصي، هو هو الحياة الأبدية.

القديس يوحنا يحاصرنا منذ بدء إنجيله بهذه الحقيقة، حيث يبدأ في تعريفنا بالمسيح، وهو الكلمة اللوغس بقوله: «فيه كانت الحياة»، ولما تجسد وابتدأ «يتكلم»، قال هو عن نفسه: «إن الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦:٦٣)، ولما تكلم مع الأعمى أبصر، ولما سمع لعازر الميت صوته قام حياً. هذا هو المسيح الذي يقدمه للقارىء في ختام إنجيله: «لكي تكون لكم، إذا أمنتم، حياة باسمه».

الصورة الإنجيلية العاهة لظهورات الرب

والتسجيلات التي أزدحمت بها أسفار العهد الجديد عن مفردات عقيدة القيامة

بحسب الإيمان الذي ورثته الكنيسة من شهادة الرسل والتلاميذ

حتى كتابة إنجيل يوحنا سنة ٩٥-١٠٠ م

وكلها بشهادة شهود، وبالتدرج بحسب التاريخ الزمني تقريباً

١- «ولما قالت هذا، التفتت إلى الوراء، فنظرت يسوع واقفاً ولم تعلم أنه يسوع. فقال لها يسوع: يا أمرأة لماذا تبكين، من تطلبين. فظنت تلك أنه البستاني فقالت له: يا سيد، إن كنت أنت قد حملته، فقل لى أين وضعته، وأنا آخذه. قال لها يسوع: يا مريم. فالتفتت تلك وقالت له: ربوني، الذي تفسيره يا معلم ... فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب، وأنه قال لها هذا.» (يو٢٠:١٤-١٨)

+ ظلت حواء تبكي على الفردوس المفقود، وتطلب لنفسها ذلك الفادي الذي يعود بها إلى شجرة الحياة، حتى وُلد لها في المجدل بنت ورثت بكاءها في طلب الفادي. هذه لما رأته رؤيا العين ظنته البستاني، مع أنه هو هو شجرة الحياة بعينها. فناداها باسمها، فعرفت فيه صوت الله. ولما أرادت أن تأخذه لنفسها، أرسلها لتدعو آدم أولاً.

٢- «فحينئذ دخل أيضاً التميذ الآخر (يوحنا)، الذي جاء أولاً إلى القبر ورأى فآمن.» (يو٢٠:٨)

+ أول إيمان ورثته الكنيسة، ورثته من قلب التلميذ المحبوب. لم ير المسيح، ولم ير الجسد، بل رأى قبراً فارغاً ولفائف ملفوفة بلفتها في مكان الجسد وبوضعه. فأدرك القيامة، قبل أن يرى القائم من الأموات، ووثق بنصرة الحياة على الموت، قبل أن يشهد ويرى ويلمس الحياة التي كانت عند الآب. إيمانه صار إيمان الكنيسة، إيمان الحب

والبتولية، إذ جعلت الرهبنة أساساً لها، ولا تزال ترضع من ثدي تعزيات آباء الصحاري، والقيامة هي لنا، كما كانت لهم، حياتنا كلنا ورجاؤنا كلنا.

٣- «جاء يسوع، ووقف في الوسط، وقال لهم: سلام لكم. ولما قال هذا، أراهم يديه وجنبه، ففرح التلاميذ، إذ رأوا الرب.» (يو ٢٠:١٩-٢٠)

+ أول تسجيل جماعي للقيامة: الكنيسة الأولى بالأحد عشر وُلدت، فاقدة للخائن، فصدق فيها القول أنها بلا عيب كسيدها. ظهور المسيح المُقام ملك لكل من يراه؛ فلا يقول أحد بعد لأخيه اعرف الرب، لأن «الجميع يكونون متعلمين من الله» (راجع يو ٦:٤٥). أراهم يديه ملآنة جروحاً، ومن الجروح يفيض نبع سرور، وأراهم أيضاً جنبه المفتوح نابعاً منه «نهر صاف من ماء حياة لامعاً كبلور خارجاً من عرش الله والخروف.» (رؤ ٢٨:٥-١٠)

٤- «فأجاب الملاك وقال للمرأتين: لا تخافا أنتما، فإني أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب. ليس هو ههنا، لأنه قام كما قال، هلما انظرا الموضع الذي كان الرب مضطجعاً فيه، واذهبا سريعاً قولا لتلاميذه إنه قد قام من الأموات ... وفيما هما منطلقتان لتخبرا تلاميذه، إذا يسووع لاقاهما، وقال: سلام لكما. فتقدمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له. فقال لهما يسروع: لا تخافا، اذهبا قولا لإخوتي أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يرونني.» (مت ٢٨:٥-١٠)

+ شهادة الملاك بقيامة الرب تُحدث عن صدى القيامة، كيف أذيعت أولاً في السموات، والنسوة كن أول من تلقين الخبر على الأرض من فم الملاك. امتزج عندهما الخوف بالفرح العظيم، لما علمتا بالقيامة، فمهد الفرح العظيم في قلبيهما لانفتاح أعينهما لرؤية الرب لما لاقاهما. فلما أمسكتا بقدميه كانتا كمن أمسكتا بالحياة الأبدية، وسجدتا، وكان سجودها أول عبادة بالروح قُدمت للمسيح على الأرض. وانطلقت حواء تبشر آدم بالعودة إلى الفردوس.

٥- «وإذا اثنان منهم كانا منطلقين في ذلك اليوم إلى قرية بعيدة عن أورشليم ستين غلوة اسمها عمواس ... وفيما ها يتكلمان ويتحاوران اقترب اليهما يسوع نفسه وكان يمشي معهما. ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته ... فقال لهما: أيها الغبيان والبطيئا القلوب في الايمان بجميح ما تكلم به الأنبياء، أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده. ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء، يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب ... فلما اتكأ معهما، أخذ خبزا، وبارك، وكسر، وناولهما، فانفتحت أعينهما، وعرفاه، ثم اختفى عنهما ... فقاما في تلك الساعة (في الغروب) ورجعا إلى أورشليم، ووجدا الأحد عشر مجتمعين هم والذين معهم، وهم يقولون إن الرب قام بالحقيقة وظهر لسمعان. وأما هما فكانا يخبران بما حدث في الطريق، وكيف عرفاه عند كسر الخبز.» (لو ٢٤:١٣-٣٥)

+ القيامة أنشأت هيئة أخرى جديدة للإنسان تختلف عن هيئته الأولى، لأن نوع الحياة تغيرت، فبيئة الأرض شيء نحن نعلمه، وبيئة القيامة هي السماء. وحواسنا لم تتدرب على معرفة السمائيات بعد، إلا كعطية خاصة.

+ باثنين معاً تصبح الشهادة بقيامة الرب، كانا منطلقين نحو عالم الإنسان، واليأس يملأ قلبيهما، بنية العودة إلى العمل اليومي شبه المائت. قابلهما الرب في منتصف الطريق ليردهما مرة أخرى إلى الصليب والبشارة بقيامته، كانت عبوستهما نوعاً من الغباء الذي تنشئه القراءة في الأسفار دون معرفة وايمان. والقيامة تسير بجوارها على استعداد أن تتجاوزهما، إن هما أبطأ أكثر في غبائهما. ولكن إلحاحهما وتوسلهما ومحبتهما للغرباء واستعداد ضيافتهما، أنقذهما من ابتعاد القيامة عنهما. فلما ألزما القيامة أن تحلق عندهما، حتى في جهلهما بها، حلت، ولم تستعلن نفسها لهما إلا في الإفخارستيا، وفي لحظة القسمة، أي كسر الخبز.

والغبيان صارا عالمين بسر الله، والبطيئا الإيمان في القلب انطلقا بالشهادة.

٦- «وأما الأحد عشر تلميذاً فانطلقوا إلى الجليل إلى الجبل، حيث أمرهم يسوع. ولما رأوه سجدوا له، ولكن بعضهم شكوا. فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً: دُفع إلي كل سلطان في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم بام الآب والابن والروح القدس.» (مت٢٨:١٦-١٩)

+ استعلان القيامة ينشىء في الحال عند الإنسان روح عبادة حارة لا تنطفىء، لأنه يسكن القلب: «وان كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم» (رو٨:١١). واستعلان القيامة هو استعلان لسلطان المسيح المتفوق على السماء والأرض. واستعلان سلطان المسيح يتحول في القلب إلى قوة كرازية، تكفي لكرازة جميع الأمم، ولصبغ كل من يؤمن بصبغة الحياة الأبدية.

٧- وبعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضاً داخلاً وتوما معهم. فجاء يسوع والأبواب مغلقة ووقف في الوسط وقال: سلام لكم. ثم قال لتوما: هات إصبعك إلى هنا، وأبصر يدي، وهات يدك وضعها في جنبي، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً. أجاب توما وقال له: ربي والهي.» (يو١٠:٢٦-٢٨)

+ القيامة أعطت الإنسان الجديد سلطاناً على مغاليق عقل وقلب وباب العالم، وحررته من قيود وقوانين الطبيعة. وغياب القيامة أنشأ الخوف والرعبة في قلب التلاميذ. فالإيمان بالصليب بدون القيامة لا يغير شيئاً من طبيعة الإنسان العتيق.

دخول القيامة في القلب الخائف المغلق يعطيه «السلام». توما هو نظير العالم الشكاك. وأصبع الشك إذ تلامس مع إصبع الله في جرح الصليب، أنتج الإيمان بربوبية المسيح. واليد الجاحدة حينما مست الجنت المفتوح، أحست بدم الفداء النازف من القلب المطعون، فحق لها الصراخ بألوهية الفادى.

٨- «بعد هذا أظهر أيضاً يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية ... فقال لهم يسروع: يا غلمان، ألعل عندكم إداماً (صيد)، أجابوه: لا. فقال لهم: ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن، فتجدوا. فألقوا، ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السك. فقال ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه لبطرس: هو الرب ...» (يو٢١:١-٢٤). حينئذ جرى حديث المسيح للقديس بطرس خاصة.

+ واضح أن القيامة هنا تعتمد على فعل فائق من جهة المسيح، يجعل جسده ظاهراً لمن يختاره لكي يراه، رؤية طبيعية بحواسه الطبيعية، وإنما بفعل وسيط من طرف المسيح.

القيامه هنا للتلاميذ الحانثين والراجعين إلى مهنتهم القديمة في الصيد، بعد أن قال لهم: هلم أجعلكم صيادين للناس، هي لتوبيخهم وردهم إلى السير المستقيم. فالمركب هي السيرة، والصيد في الشمال هو الأنحراف نحو الخطأ والفشل الذي انتهى بهم إلى الإخفاقالكلى. والصيد على اليمين، هو تعديل المسار لصيد الناس، والكرازة بالذي يلهمهم الصواب، وليس بهواجس الفكر والجري وراء الذات. والصيد الكثير، هو الصيد الروحي. والمئة والثلاث والخمسون سمكة: الثلاث سمكات لليهودية والمائة والخمسون لشعوب الأرض كلها.

٩- «الكلام الأول أنشأته يا ثاوفيلس عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به إلى اليوم الذي ارتفع فيه، بعدما أوصى بالروح القدس الرسل الذين اختارهم، الذين أراهم أيضاً نفسه حياً ببراهين كثيرة، بعدما تألم، وهو يظهر لهم أوبعين يوماً، ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله...»» (أع١:١-٣)

+ القيامة هنا كان لها عملان رئيسيان: الأول استعلان شخصيته القائمة من الأموات ببراهين كثيرة ولمدة طويلة ولأشخاص منتخبين قادرين على الشهادة. والثاني استكمال استعلان الأمور الختصة بملكوت الله التي كان قد أجل التعليم بها.

١٠- «فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج، منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنا، يصير واحد منهم شاهداً معنا بقيامته...» (أع١:٢١-٢٢)

+ واضح هنا أن التلاميذ أحسوا بعظم أهمية الشهادة الكاملة لقيامة الرب كعمل كرازي بالأساس، للكنيسة التي هي عامود الحق وقاعدته المؤسسة على الاثني عشررسولاً. كما أنه واضح، هنا، ذكر الصعود، باعتباره الارتفاع الذي به أنهى المسيح رسالته التعليمية ووجوده المنظور على الأرض الدنيا، كما رأوه بأعينهم.

١١- «يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم، كما أنتم أيضاً تعلمون. هذا أخذتموه مُسلماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق، وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه. الذي أقامه الله ناقضاً أوجاع الموت إذ لم يكن ممكناً أن يُمسك منه.» (أع٢:٢٢-٢٣)

+ هنا يعلن القديس بطرس أن عملية الصلب والموت هي أصلاً خطة موضوعة بمشورة الله، تصوررها النبوات، وكل دقائقها محسوبة حسب علم الله السابق، وكذلك بالضرورة قيامته المرسومة بكل تأكيد. فالله، بعد أن أكمل بالمسيح ابنه عقوبة الموت وأوجاعه على بني الإنسان، فألغى العقوبة، أقام المسيح من الموت الذي لم يكن ممكناً أن يُمسك منه، لأنه حي بالله، فقام منتصراً على عدو الإنسان الأول والأخير الذي هو الموت.

١٢- «أيها الرجال الإخوة يسوغ أن يقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داود إنه مات ودُفن، وقبره عندنا حتى اليوم. فإذ كان نبيا وعلم أن الله حلف له بقسم أنه من ثمرة صُلبه يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه، سبق فرأى وتكلم عن قيامة المسيح أنه لم تُترك نفسه في الهاوية ولا رأى جسده فساداً. فيسوع هذا أقامه الله ونحن جميعا شهود لذلك.» (أع٢:٢٩-٣٠)

+ قول داود: «ولن تدع قدوسك يرى فساداً» لم يكن على داود، لأم داود أكله الدود، ولكن هذه النبوة استعلنت بكل وضوح وقوة في قيامة الرب من الأموات، التي أُعلنت في الحال أن الجسد لم يفسد، فصارت هذه النبأة هي التي تشير إلى القيامة مباشرة، والتي استشهد بها الرسل والتلاميذ بكلمة «حسب الكتب».

١٣- «ولكن أنتم أنكرتم القدوس البار، وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل. ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات. ونحن شهود لذلك.» (أع٣:١٤-١٥)

+ هنا القيامة من الأموات جاءت في مواجهة إنكار لقداسة المسيح وبره والتجرؤ الأعمى على قتل من هوفي الحقيقة رئيس الحياة.

١٤- «إليكم أولاً م اذ أقام الله فتاه يسوع، أرسله يباركم برد كل واحد منكم عن شروره.» (أع٣:٢٦)

+ أصبحت قيامة المسيح استمراراً لكرازة المسيح، على مستوى التبكيت للتوبة والرجوع عن الخطية.

١٥- «وبينما هما يخاطبان الشعب، أقبل عليهما الكهنة وقائد جند الهيكل والصدوقيون، متضجرين من تعليمهما الشعب وندائهما في يسوع بالقيامة من الأموات.» (أع٤:١-٢)

+ القيامة من الأموات صارت المسامير التي تدق كل يوم في قلب رؤساء الكهنة، وطعنة موجعة في جنب الصدوقيين.

١٦- «فليكن معلوماً عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل، أنه باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموه أنتم الذي أقامه الله من الأموات، بذاك وقف هذا أمامكم صحيحاً، هذا هو الحجر الذي احتقرتموه أيها البناؤون، الذي صار رأس الزاوية وليس بأحد غيره الخلاص. لأن ليس اسم اخر تحت السماء قد أعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص.» (أع٤:١٠-١٢)

+ أول فاعلية ظهرت واستعلنت علنا نتيجة لقيامة المسيح من الأموات، كانت في «قوة اسم» يسوع المسيح، الذي بمجرد أن استدعاه القديس بطرس حلت قوة قيامة المسيح على الأعرج من بطن أمه، قام في الحال ومشى وجرى أمام الناس. فصار معلوماً أن الدعاء باسم المسيح المقام من الأموات، هو بمثابة حضور المسيح شخصياً وبرهان دائم بقيامته. والإيمان بالقيامة، صار القوة الأساسية للكرازة بالعهد الجديد: «وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع، ونعمة عظيمة كانت على جميعهم.» (أع٤:٣٣)

١٧- «إله آبائنا أقام يسيوع، الذي أنتم قتلتموه معلقين إياه على خشبة. هذا رفعه الله بيمينه رئيسا ومخلصاً، ليعطي إسرائيل التوبة وغفران الخطايا، ونحن شهود له بهذه الأمور، والروح القدس أيضاً الذي أعطاه الله للذين يطيعونه.» (أع٥:٣٠-٣٢)

+ القيامة التي قامها المسيح بيمين الله، كوعده للأباه، هي في حقيقتها ارتفاع، أي تمجيد لاستعلان رئاسته الكلية والشاملة على السماء والأرض، ولاستعلان قوة الخلاص العامل للتوبة ومغفرة الخطايا التي كان يعيشها التلاميذ ويمارسونها بتفوق.

١٨- «يسوع الذي من الناصرة، كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة، الذي جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس، لأن الله كان معه. ونحن شهود بكل ما فعل في كورة اليهودية وفي أورشليم، الذي أيضاً قتلوه معلقين إياه على خشبة. هذا أقامه الله في اليوم الثالث، وأعطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب» بل لشهود سبق الله فانتخبهم. لنا نحن الذي أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات.» (أع١٠:٣٨-٤١)

+ القديس بطرس الرسول يقرر أن القيامة في اليوم الثالث كانت علنية، وصار المسيح ظاهراً، ولكن القيامة انحصرت في أشخاص انتخبهم المسيح ليكونوا شهوداً. هؤلاء أظهر المسيح نفسه لهم؛ ويقرر القديس بطرس أنه هو والتلاميذ أكلوا وشربوا معه بعد قيامته، وذلك إمعاناً في تقرير القيامة الجسدية، وفي حقيقة قيامة «اللحم والعظم»، كما شدد عليها المسيح.

١٩- «وأقوال الأنبياء التي تُقرأ كل سبت تمموها إذ حكموا عليه، ومع أنهم لم يجدوا علة واحدة للموت، طلبوا من بيلاطق أن يُقتل. ولما تمموا كل ما كُتب عنه أنزلوه عن الخشبة، ووضعوه في قبر. ولكن الله أقامه من الأموات، وظهر أياما كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل إلى أورشليم الذين هم شهوده عند الشعب، ونحن نبشركم بالموعد الذي صار لآبائنا، إن الله قد أكمل هذا لنا نحن أولادهم، إذ أقام يسوع كما هو مكتوب أيضاً فى المزمور الثانى ... أنه أقامه من الأموات غير عتيد أن يعود أيضاً إلى فساد... وأما الذي أقامه الله فلميتر فسادا.» (أع١٣:٢٧-٣٧)

+ قيامة المسيح بجسده وجروحه عليه، أثبتت صدق النبوة أنه قدوس ولم ير فساداً في القبر، لذلك فقيامته هنا نهائية أبدية، لا يمكن أن الموت يسود عليه قط مرة أخرى. وهذا معناه أنه الآن حى ويبقى حيا إلى الأبد، وذلك لأجلنا «واما أنتم فترونني. إني أنا حي فأنتم ستحيون» (يو١٤:١٨). ويشدد بولس الرسول أن المسيح بعد القيامة ظهر أياماً كثيرة للذين اختارهم، ليكونوا شهوداً لدى الشعب والعالم، وبهذا تم وعد الله الذي وعده للآباء ولنا نحن

أولادهم.

٢٠- «إن يؤلم المسيح، يكن هو أول قيامة الأموات، مزمعا أن ينادى بنور للشعب وللأمم (أع٢٦:٢٣)

+ القيامة من الأموات تستعلن أن آلامه وموته كانا فدائيين، وهذه أول قيامة حدثت في تاريخ الإنسان، وهدفها إنارة اليهود والعالم.

٢١- «فإنني سلمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضاً، أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب، وأنه دُفن، وأنه قام في اليوم الثالث حسب الكتب، وأنه ظهر لصفا، ثم للاثني عشر. وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمئة أخ، أكثرهم باق إلى الآن، ولكن بعضهم قد رقدوا. وبعد ذلك ظهر ليعقوب ثم للرسل أجمعين. وأخر الكل كأنه للسقط ظهرلى أنا.» (١كو١٥:٣-٨)

+ بولس الرسول يصنّف ظهورات الرب هكذا: ظهر أولاً لبطرس، ثم الاثني عشر تلميذاً (ناقص واحد وهو يهوذا)، وهم الأخصاء جدا، ثم ظهر مرة واحدة لخمسمئة من الأخصاء التلاميذ كانوا مجتمعين، وبولس يعرف أكثرهم وربما قابلهم. وبعد ذلك ظهر ليعقوب، وواضح أنه أخو الرب، ثم ظهر لكل الرسل، وواضح أنه ظهر لهم تباعاً وليس مرة واحدة، وأخيراً ظهر له. ويبدو أن ظهور الرب لبولس الرسول هنا: «أما رأيت الرب» هو غير الرؤية التي رآها وهو في طريقه إلى دمشق. وكان منطوق الاعتراف الإيماني الذي رسخ بالتسليم في الكنيسة الذي استلمه بولس من الرسل، يضم أربع فقرات: أن المسيح مات من أجل خطايانا، وأنه دُفن لثلاثة أيام في القبر، وأنه قام في اليوم الثالث، وأنه ظهر. وهذا الإيمان موقع على نبوات الكتب المقدسة.

٢٢- «ولكن إن كان المسيح يُكرز به أنه قام من الأموات، فكيف يقول قوم بينكم إن ليس قيامة أموات. فإن لم تكن قيامة أموات، فلا يكون المسيح قد قام، وإن لم يكن المسيح قد قام، فباطلة كرازتنا وباطل أيضاً إيمانكم، ونوجد نحن أيضاً شهود زور لله، لأننا شهدنا من جهة الله أنه أقام المسيح.» (١كو١٥:١٢-١٥)

+ نحن نؤمن بقيامة الأموات، لأن المسيح مات من أجلنا، وليس من أجل نفسه، وقام من أجلنا لأنه هو القيامة وجوهرها؛ وكان لا يمكن أن يبقى في الموت، فقيامة المسيح هي قيامتنا. فإن كنا لا نقوم، يكون هذا معناه أن المسيح لم يقم من الموت، وهذا تجديف على المسيح، وتكذيب للرسل، ولكل الذين شهدوا بقيامته.

٢٣- «وتعين ابن الله، بقوة، من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات؛ يسوع المسيح ربنا» (رو١:٤)

+ القيامة من الأموات استعلنت الروح القدس الذي أقامه، والروح القدس بالتالى استعلن حقيقة بنوته لله التي كرز بها.

٢٤- «بل من أجلنا نحن أيضاً، الذين سيُحسب لنا (برا)، الذين نؤمن بمن أقام يسوع ربنا من الأموات، الذي أُسلم من أجل خطايانا، وأقيم لأجل تبريرنا.» (رو٤:٢٤-٢٥)

+ كل من يؤمن بموت المسيح، يُرفع عنه ثقل خطاياه، وكل من يؤمن بقيامته بقوة الله يتبرر، كما آمن إبراهيم بأمر الله، فقدم ابنه للموت على أساس أن الله قادر أن يقيمه من الموت، فحسب الله له إيمانه برا.

٢٥- «وان كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكنا فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم.» (رو٨:١١)

+ روح القيامة الذي كان في المسيح وهبه المسيح ليسكن فينا فيقيمنا من الموت

٢٦- «والله قد أقام الرب وسيقيمنا نحن أيضاً بقوته.» (اكو٦:١٤)

+ الله أقام المسيح بقوة خاصة خُصصت من أجلنا.

٢٧- «عالمين أن الذي أقام الرب يسوع، سيقيما نحن أيضاً بيسوع ويُحضرنا معكم.» (٢كو٤:١٤)

+ القوة الإلهية التي أقامت جسد المسيح من بين الأموات، هي الآن عاملة فيا بالإيمان بالمسيح.

٢٨- «وهو مات لأجل الجميع، لي يعيش الأحياء فيما بعد، لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام.» (٢كو٥:١٥)

+ كنا نعيش كأموات للخطية، فمات لأجلنا لنعيش كأحياء له.

٢٩- «لأنه لهذا مات المسيح وقام وعاش، لكي يسود علي الأحياء والأموات.» (١٤:٩)

+ كان الأموات في الخطية أحراراً من المسيح، فلما مات المسيح من أجل الخطاة ملك على الأموات ليحييهم.

٣٠- «لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام، فكذلك الراقدون بيسوع، سيحضرهم أيضاً معه.» (١تس٤:١٤)

+ الذين ماتوا فى الإيمان بالمسيح، هم الآن أحياء معه وسيظهرون معه .

٣١- «إن كنتم قد قمتم مع المسيح، فاطلبوا ما فوق، حيث المسيح جالس عن يمين الله» (كو٣:١)

+ الذين يؤمنون بقيامة المسيح وجلوسه عن يمين الله، ارتبطت قلوبهم به.

٣٢- «الذي مثاله (مثال فلك نوح) يُخلصنا نحن الآن، أي المعمودية، لا إزالة وسخ الجسد، بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح الذي هو في يمين الله، إذ قد مضى إلى السماء وملائكة وسلاطين وقوات مُخضعة له» (ابط٣:٢١-٢٢)

+ المعمودية أساسها دم المسيح الذي يطهر ضمير الإنسان تجاه الله، لأن المسيح دخل إلى الأقداس العليا ودمه علبه.

٣٣- «اذكر يسوع المسيح المُقام من الأموات من نسل داود بحسب إنجيلي.» (اتي٢:٨)

+ ذكر قيامة المسيح بصورة منطبعة على القلب والذهن، هي أساس الحياة الجديدة للإنسان.

٣٤- «واله السلام الذي أقام من الأموات راعي الخراف العظيم ربنا يسوع بدم العهد الأبدي.....» (عب١٣:٢٠)

+ الله أقام المسيح بصفته الراعي ورئيس الكهنة الأعظم، أقامه ودمه عليه كعهد جديد أبدي للسلام بين الله والإنسان.

تم فى ٢٠١٧/٩/١٧

الإصحاح الحادى والعشرين

بَعْدَ هَذَا أَظْهَرَ أَيْضاً يَسُوعُ نَفْسَهُ لِلتَّلاَمِيذِ عَلَى بَحْرِ طَبَرِيَّةَ. ظَهَرَ هَكَذَا: كَانَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَتُومَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ وَنَثَنَائِيلُ الَّذِي مِنْ قَانَا الْجَلِيلِ وَابْنَا زَبْدِي وَاثْنَانِ آخَرَانِ مِنْ تلاَمِيذِهِ مَعَ بَعْضِهِمْ. قَالَ لَهُمْ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: «أَنَا أَذْهَبُ لأَتَصَيَّدَ». قَالُوا لَهُ: «نَذْهَبُ نَحْنُ أَيْضاً مَعَكَ». فَخَرَجُوا وَدَخَلُوا السَّفِينَةَ لِلْوَقْتِ. وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَمْ يُمْسِكُوا شَيْئاً. وَلَمَّا كَانَ الصُّبْحُ وَقَفَ يَسُوعُ عَلَى الشَّاطِئِ. وَلَكِنَّ التّلاَمِيذَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَسُوعُ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «يَا غِلْمَانُ أَلَعَلَّ عِنْدَكُمْ إِدَاماً؟». أَجَابُوهُ: «لاَ!». فَقَالَ لَهُمْ: «أَلْقُوا الشَّبَكَةَ إِلَى جَانِبِ السَّفِينَةِ الأَيْمَنِ فَتَجِدُوا». فَأَلْقَوْا وَلَمْ يَعُودُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجْذِبُوهَا مِنْ كَثْرَةِ السَّمَكِ. فَقَالَ ذَلِكَ التِّلْمِيذُ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ لِبُطْرُسَ: «هُوَ الرَّبُّ». فَلَمَّا سَمِعَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنَّهُ الرَّبُّ اتَّزَرَ بِثَوْبِهِ لأَنَّهُ كَانَ عُرْيَاناً وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ. وَأَمَّا التّلاَمِيذُ الآخَرُونَ فَجَاءُوا بِالسَّفِينَةِ لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعِيدِينَ عَنِ الأرض إلاَّ نَحْوَ مِئَتَيْ ذِرَاعٍ وَهُمْ يَجُرُّونَ شَبَكَةَ السَّمَكِ. فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى الأرض نَظَرُوا جَمْراً مَوْضُوعاً وَسَمَكاً مَوْضُوعاً عَلَيْهِ وَخُبْزاً. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «قَدِّمُوا مِنَ السَّمَكِ الَّذِي أَمْسَكْتُمُ الآنَ». فَصَعِدَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَجَذَبَ الشَّبَكَةَ إِلَى الأرض مُمْتَلِئَةً سَمَكاً كَبِيراً مِئَةً وَثَلاَثاً وَخَمْسِينَ. وَمَعْ هَذِهِ الْكَثْرَةِ لَمْ تَتَخَرَّقِ الشَّبَكَةُ. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «هَلُمُّوا تَغَدَّوْا». وَلَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ مِنَ التّلاَمِيذِ أَنْ يَسْأَلَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ إِذْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الرَّبُّ. ثُمَّ جَاءَ يَسُوعُ وَأَخَذَ الْخُبْزَ وَأَعْطَاهُمْ وَكَذَلِكَ السَّمَكَ. هَذِهِ مَرَّةٌ ثَالِثَةٌ ظَهَرَ يَسُوعُ لِتلاَمِيذِهِ بَعْدَمَا قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ. فَبَعْدَ مَا تَغَدَّوْا قَالَ يَسُوعُ لِسِمْعَانَ بُطْرُسَ: «يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا أَتُحِبُّنِي أَكْثَرَ مِنْ هَؤُلاَءِ؟» قَالَ لَهُ: «نَعَمْ يَا رَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ». قَالَ لَهُ: «ارْعَ خِرَافِي». قَالَ لَهُ أَيْضاً ثَانِيَةً: «يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا أَتُحِبُّنِي؟» قَالَ لَهُ: «نَعَمْ يَا رَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ». قَالَ لَهُ: «ارْعَ غَنَمِي». قَالَ لَهُ ثَالِثَةً: «يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا أَتُحِبُّنِي؟» فَحَزِنَ بُطْرُسُ لأَنَّهُ قَالَ لَهُ ثَالِثَةً: أَتُحِبُّنِي؟ فَقَالَ لَهُ: «يَا رَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ. أَنْتَ تَعْرِفُ أَنِّي أُحِبُّكَ». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «ارْعَ غَنَمِي. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: لَمَّا كُنْتَ أَكْثَرَ حَدَاثَةً كُنْتَ تُمَنْطِقُ ذَاتَكَ وَتَمْشِي حَيْثُ تَشَاءُ. وَلَكِنْ مَتَى شِخْتَ فَإِنَّكَ تَمُدُّ يَدَيْكَ وَآخَرُ يُمَنْطِقُكَ وَيَحْمِلُكَ حَيْثُ لاَ تَشَاءُ». قَالَ هَذَا مُشِيراً إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يُمَجِّدَ اللَّهَ بِهَا. وَلَمَّا قَالَ هَذَا قَالَ لَهُ: «اتْبَعْنِي». فَالْتَفَتَ بُطْرُسُ وَنَظَرَ التِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ يَتْبَعُهُ وَهُوَ أَيْضاً الَّذِي اتَّكَأَ عَلَى صَدْرِهِ وَقْتَ الْعَشَاءِ وَقَالَ: « يَا سَيِّدُ مَنْ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُكَ؟». فَلَمَّا رَأَى بُطْرُسُ هَذَا قَالَ لِيَسُوعَ: «يَا رَبُّ وَهَذَا مَا لَهُ؟». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ أَشَاءُ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى أَجِيءَ فَمَاذَا لَكَ؟ اتْبَعْنِي أَنْتَ». فَذَاعَ هَذَا الْقَوْلُ بَيْنَ الإِخْوَةِ: إِنَّ ذَلِكَ التِّلْمِيذَ لاَ يَمُوتُ. وَلَكِنْ لَمْ يَقُلْ لَهُ يَسُوعُ إِنَّهُ لاَ يَمُوتُ بَلْ: «إِنْ كُنْتُ أَشَاءُ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى أَجِيءَ فَمَاذَا لَكَ؟». هَذَا هُوَ التِّلْمِيذُ الَّذِي يَشْهَدُ بِهَذَا وَكَتَبَ هَذَا. وَنَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ حَقٌّ. وَأَشْيَاءُ أُخَرُ كَثِيرَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ إِنْ كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً فَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَالَمَ نَفْسَهُ يَسَعُ الْكُتُبَ الْمَكْتُوبَةَ. آمِينَ

مكان البشارة: الجليل بعد القيامة

صور مستيكية لمستقبل الكنيسة الرسولية

كثير من الشراح عثروا في هذا الأصحاح، واعتبروه أنه مُضاف بيد غير يد القديس يوحنا. ولكن يتفق اكثر التقليديين منهم أنه من وضع القديس يوحنا وبنفس أسلوبه ولغته وبعض تعبيراته المحببة إليه.

والسبب الذي حدا بقول هؤلاء أنه مضاف بيد آخر، هو الأصحاح العشرون الذي أتى بخاتمة واضحة لرواية الإنجيل. ولكن إنجيل يوحنا، كإنجيل بحسب التقليد الرسولي، لا ينتهي عند آيات ظهور الرب لتلاميذه، بل هو يذكر حتماً الارسالية للعالم والأمم كنهاية للانجيل باعتباره البشارة المفرحة التي يلزم توصيلها تحت رعاية المسيح وبوعد

مؤازرته، بل وبدوام حضوره، وذلك مثلما أتى ذكرها (أي ذكر الارسالية) في الأناجيل الثلاثة على مستوى الأمر:
إنجيل القديس متى: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والآبن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. آمين.» (مت٢٨:١٩-٢٠)
إنجيل القديس مرقس: «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن. وهذه الآيات تتبع المؤمنين. يخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بألسنة جديدة، يحملون حيات، وإن شربوا سماً مميتاً لا يضرهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون. ثم إن الرب بعد ما كلمهم، ارتفع إلى السماء، وجلس عن يمين الله.» (مر١٦:١٥-١٩)
إنجيل القديس لوقا: «حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب (أسفار العهد القديم)، وقال لهم: هكذا هو مكتوب وهكذا كان ينبغي، أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم، مبتدأ من أورشليم، وأنتم شهود لذلك. وها أنا أرسل إليكم موعد أبي، فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من الأعالى. وأخرجهم خارجاً إلى بيت عنيا، ورفع يديه، وباركهم؛ وفيما هو يباركهم انفرد عنهم، وأُصعد إلى السماء.» (لو٢٤:٤٥-٥١)
ولكن بشيء من التدقيق، نكتشف أن القديس لوقا سجل لنفس هذه الخاتمة كتابا آخر بأكمله، هو سفر الأعمال، ذاكراً فيه ظهور الرب وبركته للتلاميذ وارسماليته لهم والوعد بالروح القدس ومؤازرته لهم بقوة من الأعالى، ثم كرازة التلاميذ في أورشليم والسامرة، وإلى روما وأقصى الأرض، ومسجلاً للمسيح صورا رائعة لحضوره أثناء خدمة التلاميذ وتوعيته لهم وتشجيعهم .
ولكن ينفرد إنجيل القديس يوحنا في تقديم هذه الخاتمة عينها، وإنما في رموز من داخل قصة وحديث.
فالحقائق الجوهرية المختبئة في الرموز هي:
(أ) الإرسالية إلى العالم، ككنيسة معذبة في ليل التجارب، وتحت خطر الاعتماد على القدرات البشرية.
(ب) ثم حضور الرب الفعلي، بعد دروس التجارب، وإعطاء المشورة الحسنة في وقتها الحسن.
(ج) طاعة الكنيسة لوصية المخلص على رجاء قوة كلمته وكيف تثمر.
(د) نجاح الكنيسة في اكتساب الأعداد الضخمة بقوة سرية تفوق التوقعات.
(هـ) ذلك كله بوسائل الكرازة البسيطة وأمية التلاميذ، التي وراءها صنارة الروح القدس.
(و) وعيد الكنيسة الإفخارستي، الذي يكلل العمل بحضور الرب وخبزه جاهز في يديه يُشعل القلوب بجمر محبته.
أما الرموز في داخل القصة فهي في المقابل حرف بحرف ألف بألف وياء بياء:
(أ) قصة صيد سمك دعا إليه القديس بطرس، تعذبوا فيه طول الليل ولم يصطادوا شيئاً
(ب) في الصباح وقرب الشاطىء ظهر الرب، وقال: ألقوا الشبكة على الجانب الأيمن.
(ج) فألقوا الشبكة بالفعل على الجانب الأيمن.
(د) وجذبوا الشبكة، وإذ هي ممتلئة سمكاً كبيراً ١٥٣ عداً.
(هـ) ولم تتخرق الشبكة مع هذه الكثرة من السمك.
(و) ثم جاء يسوع، وأخذ الخبز، وأعطاهم، وكذلك السمك: ونظروا جمراً موضوعاً.
ثم يعود القديس يوحنا، وعلى ضوء قصة صيد السمك، يقدم حواراً حياً بين المسيح والكنيسة، ممثلة في بطرس،

وهو في أضعف حالاته، يوصيها فيه بالرعية التي اؤتمنت عليها، وشروط الراعي:

(أ) المُرسل والخادم، الشرط الأساسي لتقدمه على الآخرين أن يكون أكثرهم حباً للمسيح: «يا سمعان بن يونا أتحبني أكثرمن هؤلاء؟ ... أطعم حملاني».

(ب) والكنية، رأس مالها في الرعاية هو محبة المسيح: «يا سمعان بن يونا أتحبني؟ ... ارع غنمي»

(ج) والكنيسة، قمة مسئوليتها هي أن تطعم كل الرعية من فائض حبها: «يا سمعان بن يونا أتحبني؟ أطعم غنمي».

ثم يعود القديس يوحنا أيضاً ليعطي، من خلال اللغة السرية، كيف يتقدم الخادم أو الكا رز، وبالتالي الكنيسة، من حداثة الاعتماد على الذات إلى رزانة التسليم المطلق للروح القدس، لكي يقتاد بالروح حتى ضد هواه ليتبع المسيح حتى الصليب: «لما كنت أكثر حداثة (في الروح) كنث تمنطق ذاتك، وتمشي حيث تشاء؛ ولكن متى شخت، فإنك تمد يديك، وآخر يمنطقك، ويحملك حيث لا تشاء. قال هذا مشيراً إلى أية ميتة كان مزمعاً أن يمجد الله بها. ولما قال هذا قال له: اتبعني.» (يو ٢١:١٨-١٩)

وأخيراً يلقي القديس يوحنا ضوءا على ركني الكنيسة الأساسيين:

الخدمة العاملة: ويمثلها القديس بطرس، والتي تعيش دائماً بانتظار الصليب.

وحياة التأمل الرهباني: ويمثلها القديس يوحنا، والتي تعيش وتبقى كما هي إلى أن يجيء الرب.

وهكذا، وبالنظرة الفاحصة، نجد أن الأصحاح الأخير في إنجيل يوحنا يستوفي شروط التقليد الرسولي في أصالة خاتمة الإنجيل، بطرح العمل الرسولي في شكله الإرسالي، تحت رعاية المسيح وتدخله المباشر، وإعطاء شروطه ومواصفاته، ولكن في قالب القصة وبصياغة رمزية تنطق بالمضمون اللاهوتي والروحي.

تقسيم الأصحاح: ينقسم الأصحاح إلى ثلاثة أقسام:

الأول: المسيح والتلاميذ: (٢١:١-١٤).

الثاني: المسيح والقديس بطرس: (٢١:١٥-١٩).

الثالث: المسيح والقديس يوحنا: (٢١:٢٠-٢٣).

القسم الأول

المسيح والتلاميذ (٢١:١-١٤)

٢١:١ بَعْدَ هَذَا أَظْهَرَ أَيْضاً يَسُوعُ نَفْسَهُ لِلتّلاَمِيذِ عَلَى بَحْرِ طَبَرِيَّةَ. ظَهَرَ هَكَذَا

تجيء في هذه الآية لتربط بين ظهورات الرب في أورشليم بعد قيامته مباشرة، وبين ظهوره بعد ذلك في الجليل لتلاميذه أيضاً على بحر طبرية.

«أظهر أيضاً يسوع نفسه»: واضح من هذا التعبير أنه بعد القيامة، يكون الجسد الروحي فائقاً عن الحواس البشرية، فلا يمكن رؤيته بالعينين الجسديتين. فلكي يمكن أن يعلن المسيح عن وجوده، يتحتم أن يُخضع جسده الروحاني للرؤية العينية. وهذا أيضاً ليس بكاف، بل يلزم أن تنفتح بصيرة الإنسان الروحية ليتحقق من الرؤية ومن شخص الواقف أمامه، وإلا فلن يمكنه أن يتعرف على شخص الرب؛ وهذا ما يقول عنه الإنجيل في مواضع أخرى عديدة بأنه: «أمسك عن عينيه»» فلم ير أو لم يتعرف على المسيح كالمجدلية، فهي أولاً ظنته أنه البستاني، وبعد

ذلك أدركته فقط أنه «المعلم»، ثم انفتحت بصيرتها وتحققت أنه الرب: »... أنها رأت الرب وأنه قال لها هذا.» (يو ٢٠:١٨)

فعمليات الظهور التي أجراها المسيح في نفسه بعد القيامة هي عمليات تنازلية يجريها في نفسه، وهي لا تقل إعجازاً عن بقية المعجزات، وهي قريبة الشبه من التجسد. أما القصد الأساسي منها، فهو الإيمان بأنه انتصر على الموت بنفس الجسد الذي مات به ليفتتح طريق الخلود والحياة الآبدية للبشرية، بأن يهب قوة قيامته للذين يؤمنون به: «الذي يحبني، يحبه أبي، وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي.» (يو ١٤:٢١)

ويلاحظ أن قول الإنجيل: «أظهر أيضاً يسوع نفسه» يحمل معنى مسرة الإرادة، فالمسيح كان يُظهر ذاته لأحبائه عن مسرة: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم» (يو١٦:٢٢). وإظهار المسيح لنفسه وهو في حالة القيامة، تعني إنجيلياً وبحسب لاهوت القديس يوحنا، أن الحياة الآبدية نفسها قد استعلنت: «فإن الحياة أُظهرت، وقد رأينا، ونشهد، ونخبركم بالحياة الآبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا» (١يو١:٢). فجسد القيامة كان يحمل الحياة الآبدية. وبظهور جسد القيامة، أُظهرت الحياة الآبدية التي كانت مخفية عند الآب. وفي نفس الوقت، فإن ظهور الحياة الأبدية يشمل حتماً وبالضرورة غلبة العالم وغلبة رئيس العالم: «لأجل هذا أُظهر ابن الله، لكي ينقض أعمال إبليس.» (١يو٣:٨)

حينما كان المسيح مع التلاميذ قبل الصليب، كان «يُظهر لهم مجده»، كما حدث في عرس قانا الجليل، لكي يتأكدوا من «لاهوته»، وأنه «ابن الله»!! أما بعد القيامة المحسوبة أنها بحد ذاتها مجد، وأنها برهان بنوته لله (رو١:٤)، فيكفي أن يُظهر نفسه ليتحققوا أنه هو يسوع المسيح.

حينما كان معهم قبل أن يُصلب، كانوا يقولون له: «يا معلم، كل»، فكان يرد عليهم: «أنا لي طعام لآكل، لستم تعرفونه أنتم» (يو٤:٣٢)؛ أما بعد القيامة: «قال لهم: أعندكم هنا طعام؟ فناولوه جزءا من سمك مشوي وشيئاً من شهد عسل، فأخذ، وأكل، قدامهم.» (لو٢٤:٤٢-٤٣)

في الأولى، أراد أن ينبه ذهنهم أنه ليس مجرد إنسان جاء ليأكل ويشرب، بل ليتمم رسالة إلهية!ٍ وفي الثانية أراد أن ينبه ذهنهم أنه لا يزال هو الإنسان، وأنه في ملء التجلي بالألوهية، وأن القيامة في مجد الله لم تلغ صفاته البشرية.

حينما كان ابن الله معهم قبل الصليب، قيل عنه أنه «أُظهر في الجسد» (اتي٣:١٦)؛ أما بعد أن مات وقام، قيل أنه «أظهر نفسه». الحالة الاولى، وهي التجسد، كان وراءها معجزة الإخلاء ليظهر الله في جسد إنسان؛ والحالة الثانية هي بحد ذاتها معجزة التجلي، ليظهر جسد الإنسان الطبيعي في مجد الألوهية، وليثبت أن القيامة هي مجال حياة جديدة متوافقة مع طبيعة الإنسان، ولكن متفوقة بصورة عظمى عن واقع الماديات.

على بحر طبرية: القديس يوحنا، دون جميع الإنجيليين، ينسب بحر الجليل إلى مدينة طبرية، وهي مدينة استحدثت على بحر الجليل كعاصمة للمنطقة. وهي مدينة فخمة، ولكن خليعة، بناها هيرودس لنفسه عندما كان رئيس ربع على الجليل. وتسمى هذه البحيرة أيضاً في إنجيل يوحنا (٥:١) بحيرة جنيسارت وتعني «جنة السرور». والقديس يوحنا لا يذكر متى عاد التلاميذ من أورشليم إلى الجليل حسب أمر الرب بعد القيامة.

٢١:٢ كَانَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَتُومَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ وَنَثَنَائِيلُ الَّذِي مِنْ قَانَا الْجَلِيلِ وَابْنَا زَبْدِي وَاثْنَانِ آخَرَانِ مِنْ تلاَمِيذِهِ مَعَ بَعْضِهِمْ.

سبعة تلاميذ، خمسة منهم معروفون، وهم من ضمن «الا ثني عشر»، أما الا ثنان الآخران فيبدو أنهما من عامة التلاميذ غير الرسل، لذلك لم يشأ القديس يوحنا أن يريك القارىء باسميهما. أما كون الكاتب يذكر ابني زبدي في آخر المجموعة، مع أن «يوحنا» يُذكر دائماً بعد بطرس هو وأخوه يعقوب، فهذا يكشف عن هوية الكاتب أنه القديس يوحنا بعينه. ولكن ليس جزافاً أن يذكر الكاتب اسم سمعان بطرس مع توما على رأس هذه القائمة وهم ذاهبون في مأمورية مخجلة، فبطرس لا يزال تحيطه الشكوك بعد حادثة الجارية والديك، ومعه توما الذي أفرز نفسه من «الاثني عشر» في موضوع الإيمان بالقيامة، مما اضطر الرب أن يظهر من أجله خصيصاً حتى يداوي انفصاله عن الجماعة ويرده إليها كصاحب شهادة، أما بطرس فإن عودته للجماعة استلزمت هذه القصة بكاملها، أما ابنا زبدي أي «يعقوب ويوحنا»، فقد رافقا بطرس في هذه الرحلة كارهين مكرهين، لأنهما مرتبطان ببطرس أصلاً من جهة هذه المهنة، مهنة الصيد: «وكذلك أيضاً يعقوب ويوحنا ابنا زبدي اللذان كانا شريكي سمعان.» (لو٥:١٠)

ولكن ليفهم القارىء، أن ليس جميع هؤلاء السبعة أصحاب صيد، ولكنها كانت لهم بمثابة رحلة مع الرفاق، ولم يكن لهم دور ذو بال في هذه القصة كلها.

٣:٢١ قَالَ لَهُمْ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: «أَنَا أَذْهَبُ لأَتَصَيَّدَ». قَالُوا لَهُ: «نَذْهَبُ نَحْنُ أَيْضاً مَعَكَ». فَخَرَجُوا وَدَخَلُوا السَّفِينَةَ لِلْوَقْتِ. وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَمْ يُمْسِكُوا شَيْئاً.

هل هي ردة نحو العالم لاستئناف المهنة؟ عسير على النفس غاية العسر أن تقبلها على التلاميذ، بعد أن أدركوا القيامة وقبلوا إرسالية من فم الرب، مع نفخة الروح القدس للتجديد! لولا أن القديس لوقا يمدنا بمعلومة توضح أن الرب توقع منهم هذا بالفعل، وسهل لهم هذه العودة إلى حين أن يقبلوا القوة العظمى من الأعالي، التي أركبتهم على متن سفينة الخلاص، ودفعتهم في بحر الكرازة بلا عودة، بعيدا عن شاطىء الوطن، لترسو بهم هناك على شاطىء الأبدية السعيدة: «ثم، قال لهم: حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية هل أعوزكم شيء؟ فقالوا: لا. فقال لهم: لكن الأن (بعد تركهم مؤقتاً لمهمة الصليب) من له كيس فليأخذه، ومزود (صيد السمك) كذلك، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشترى سيفاً.» (لو٢٢:٣٥-٣٦)

بل والقديس يوحنا نفسه ألمح إلى ذلك في إنجيله: «هوذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته (بيته ومهنته) وتتركونني وحدي، وأنا لست وحدي لأن الآب معي.» (يو١٦:٣٢)

وحتى بعد أن نال التلاميذ قوة الروح القدس في يوم الخمسين وانطلقوا يكرزون، وبعد أن أصبحت الخدمة بحد ذاتها هي المهنة التي استحوذت على كل نشاطهم ووقتهم واهتمامهم، وبعد أن أفرزوا أنفسهم للصلاة وخدمة الكلمة غير مهتمين بشيء ولا حتى بترتيب الأكل والشرب، إذ عينوا لها طبقة خاصة من الذياكويين للقيام بمطالبها؛ نسمع من بولس الرسول أن بعضهم كان يكد ويعمل بيديه ليقيت نفسه والآخرين معه: «لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم، ولا أكلنا خبزا مجاناً من أحد، بل كنا نشتغل بتعب وكد ليلاً ونهارا، لكي لا نثقل على أحد منكم» (٢تس٣:٨)، وأيضا: «فضة أو ذهب أو لباس أحد لم أشته. أنتم تعلمون أن حاجاتي وحاجات الذين معي خدمتها هاتان اليدان.» (أع٢٠:٣٤)

القديس غريغوريوس الكبير يقول: [بطرس عاد إلى مهنته للصيد، ولكن متى لم يعد عشاراً يجبي الضرائب، لأنه توجد أعمال لا يمكن مباشرتها بدون الخطية وهي التي لا نستطيع العودة إليها بعد التجديد.)

ولكن من واقع هذه القصة عينها سوف نستشف أن عمل اليدين والكد الجسدي لاكتساب لقمة العيش لمن قبلوا

الرسالة واستؤمنوا على خدمة، يلزم أن لا يكون بحسب القدرة الذاتية أو الحذق والمهارة في فنون المعرفة والصيد مثلاً الذي كان مآله الفشل الذريع بعد ليل المعاناة، بل يكون معتمداً كليتا على «كلمة الرب» وإطاعة الصوت المقدس، الذي غالباً ما يكون مخالفاً للأصول الفنية كما سنرى، إلا أن نتائجه تكون مذهلة.

والخطأ الذي تعرض له بطرس والآخرون معه، هو أنهم عادوا إلى المهنة الأولى خلوا من خدمة أو كرازة، وقد صححها لهم المسيح أنه باتباع الرب يمكن مباشرة العمل كالنموذج الذي أعطاه بولس الرسول بعد ذلك.

«وفى تلك الليلة لم يمسكوا شيئاً»: «أما أنا فقلت: عبثاً تعبت باطلاً، وفارغاً أفنيت قدرتي، لكن حقي عند الرب وعملي عند إلهي.» (إش٤٩:٤)

مح أنه بحسب أصول الصيد يكون الليل في البحيرة أنسب للصيد، ولكن بحسب لغة القديس يوحنا السرية، فالليل هنا لا يعني ليل الصيد بل ليل الإيمان وظلمة النفس!!

فلو أخذنا بأصول الصيد، يكون عدم مسكهم شيئاً عملا غير عادي، أما بحسب سر انجيل القديس يوحنا، فلو أخذنا الليل باعتباره ليل الإيمان وظلمة النفس، أو بالمفهوم العملي «غياب المسيح»، يكون عدم صيدهم ولا سمكة واحدة هو عين الحق وصلب الصواب جزاء بجزاء!! وعلى المستوى الرمزي يكون الشرح أجل وأجمل.

فاسم المسيح بالكامل هو مجموع حروف السمكة، فغياب المسيح هو غياب السمك جلمة وفرادى.

مو الذي أمر السمك أن يسلك غير مسالكهم، والبحر ليناصبهم، هربت فنونهم من بين أيديهم، وخابت كل أحابيلهم، يطرحون الشباك ويجمعونها كما طرحوها، طار صوابهم، وكلت أيديهم مع قلوبهم، ناء الليل بكلكله، فتمنوا الصباح ولم يأت، تناجوا فيما بينهم لعل يونان آخر بينهم؟ حسبوه حظاً عاثراً والعثرة هي في إيمانهم. ظنوا أن نزهة للنفس يمكن أن تعوضهم عن أحزان اتباع الصليب، فاستبدلوا صيد الناس بصيد السمك، ولكن الرب كان لهم بالمرصاد.

٢١: ٤ وَلَمَّا كَانَ الصُّبْحُ وَقَفَ يَسُوعُ عَلَى الشَّاطِئِ. وَلَكِنَّ التّلاَمِيذَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَسُوعُ.

«ثم صرخ كأسد: أيها السيد أنا قائم على المرصد دائماً في النهار، وأنا واقف على المحرس كل الليالي... يا حارس ما من الليل؟ قال الحارس: أتى صباح وأيضا ليل، إن كنتم تطلبون فاطلبوا، ارجعوا، تعالوا!!» (إش٢١:٨-١٢)

بحسب لغة القديس يوحنا، إذ تناهى ليل الإيمان عن خسارة حتماً، فإن الرب يشرق من السماء، فيطارد النور الظلمة، ويكون صباح!!

وهكذا تبدو المقابلة صارخة بالمفارقة:

التلاميذ والليل والبحر والعذاب والجوع والبرد والشباك فارغة، والرب والصبح والشاطىء وجمر النار وفي يمينه «شبع» سرور!!

الرب سمع أنينهم، عندما بلغ إخفاقهم حد اليقين، عندما أدركوا خطأ ما تورطوا فيه، عندما بلغ الدرس أقصاه، عندما تبددت منهم شهوة المهنة، عندما ذاقوا منها علقم الإخفاق. نظروا، واذا هو الفجر، ويسوع واقف على الشاطىء!!

كان قد انقض الليل، وما انقض الليل من قلوبهم. أشرقت الشمس، والظلمة ما تزال تلف أفكارهم. فظهر يسوع، وما عرفوه!! عثروا في النور، لأنه لم يكن لهم عندئذ نور! لقد استبد بهم اليأس والحزن كما استبد بالمجدلية، فظهر لها يسوع وما عرفته، لأن الحزن يفسد البصيرة، والحسرة على أفراح مضت تودي بشفافية الروح! حزن التلاميذ على صيد مفقود، وكان كحزن يونان على يقطينته التي أود بها الريح: «فقال الله ليونان: هل اغتظت بالصواب من

أجل اليقطينة؟ فقال: اغتظت بالصواب حتى الموت» (يو ٤:٩). يا لخطأ التعلق بأهداب الدنيا ومسراتها...

«ولما كان الصبح، وقف يسوع على الشاطىء»: كلمة «الصبح» لا تفيد الصباح والشمس ساطعة كما نعرفه، بل بكور الصباح وهو «الفجر». والفجر هو الذي يعقب الليل وليس الصبح، والقديس يوحنا يستخدم اللفظتين الليل والفجر في معنيهما الروحي المستيكي كما استخدمه القديس بولس الرسول: «قد تناهى الليل وتقارب النهار، فلنخلع أعمال الظلمة، ونلبس أسلحة النور» (رو١٣:١٢). القديس يوحنا يصف المسيح وهو على شاطىء الأمان يستقبل أولاده الراجعين من خوض بحر العالم، مثقلين بالإخفاق والجهد معاً! منظر وضعه هذا القديس بقياسه النموذجي، تراه الكنيسة في ليل جهادها حينما تتكل على قوتها أو غناها أوبرها الذاتي، فيصيبها الإخفاق والإعياء، ويناصبها الدهر العداء، كما يراه كل فرد سواء بسواء، في جهاده اليومي العاثر أو بعد غيبة طويلة في طريق الأشواك أو طريق الذئاب، يعود بجروحه، وقدماه تدميان، وإذا هو الفجر والرب واقف على الشاطىء.

٢١: ٥ فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «يَا غِلْمَانُ أَلَعَلَّ عِنْدَكُمْ إِداماً؟». أَجَابُوهُ: «لاَ!».

في الأصل اليوناني يأتي السؤال بالنفي «أما عندكم إدام.» وهو سؤال كمن هو عالم بالحال أنه بالفعل ليس عندهم ما يؤكل بالمرة.

كلمة «إدام» بالعربية جميلة، والكلمة اليونانية تعني «الغموس»، أي ما يمكن أن يؤكل به الخبز، أو تُبلع به اللقمة، حيث غياب ما تُبلع به اللقمة، كناية عن الفقر المدقع وبؤس الحال.

والرب لا يسأل في الحقيقة، ولكن يمهد لما هو عازم أن يصنع. فهو شريك عوزهم: «في كل ضيقهم تضايق» (إش٦٣:٩). فالآب الغني لا يطيق إملاق أولاده.

«أجابوه لا»: قول مقتضب ورائه هم ثقيل، وخزى ما بعده خزي، فهم أئمة الصيادين. هذا حال الإنسان الذي يتغرب عن إلهه ويذهب برجليه إلى الكورة البعيدة. ولكن بينما كان الابن المتغرب يأكل الخرنوب مع الخنازير، كان الأب يسمن العجل ليوم عودته. ولقد أعد المسيح لمحبيه التائهين في ليل البحيرة وليمة سواها على جمر حبه، وأمر أسراب السمك أن تتجمع نحو اليمين.

٢١: ٦ فَقَالَ لَهُمْ: «أَلْقُوا الشَّبَكَةَ إِلَى جَانِبِ السَّفِينَةِ الأَيْمَنِ فَتَجِدُوا». فَأَلْقَوْا وَلَمْ يَعُودُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجْذِبُوهَا مِنْ كَثْرَةِ السَّمَكِ.

قبل أن نحاول فهم هذه الآية، يلزم أن نرد مفرداتها إلى ما يمكن أن تعنيه روحيا:

«فالشبكة» في الإنجيل: «يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة في البحر وجامعة من كل نوع ...» (مت١٣:٤٧)

«والجانب الأيمن» في لغة الإنجيل هو الجانب المكرم والمحبوب، وفي الأسماء اسم بنيامين يعني «ابن اليمين» أي ابن المحبة والإعزاز. وعند «يمين» الرب تقف الخراف المختارة (مت٢٥:٣٣)، والمسيح يجلس عن «يمين» الله، وعن يمين مذبح البخور ظهر الملاك لزكريا (لو١:١١)، «وجبروت خلاص يمين (الرب)» (مز٢٠:٦)، أي عمل ذراع «اليمين» أي «المسيح».

كأن التلاميذ لم يستخدموا الجانب الأيمن! أي أن صيدهم كان من الجانب الشمال، هذا تعبير مستيكي، وليس في الواقع المنظور، بمعنى أن جهادهم كان شمالياً، حيث الشمال يعني التدبير المناقض للحق والأصول، بل والنعمة أيضاً. أما التدبير اليميني فهو الذي بحسب الحق والأصول وبرعاية النعمة. هكذا أخذت الكنيسة هذا المعنى

واستخدمته في صلب الإفخارستيا؛ ففي القسمة السريانية أثناء تقسيم الجسد، وهو الجزء الأكثر سرا في القداس يصيح الكاهن قائلاً: [وعوض الخطية المحيطة بالعالم، مات الابن بالصليب، وردنا من التدبير الشمالى إلى التدبير اليميني.] (الخولاجي المقدس _ القسمة السريانية).

ومن واقع هذه الصلاة، يتبين أن الكنيسة تعتبر ان الإيمان اليهودي بحسب الناموس كان هو التدبير الشمالي الذي كانت تحيط به الخطية، وقد نقلنا المسيح بموته إل التدبير اليميني، أي الإيمان بابن الله لملء النعمة.

نفهم من هذا، أن قول المسيح للتلاميذ أن يلقوا الشباك إلى الجانب الأيمن من السفينة هو بمثابة دعوة إلى الكرازة باسم المسيح، حيث الشبكة هي شبكة الروح القدس المطروحة على العالم وكل الأمم بالكرازة، والسفينة هي الكنيسة التي أعطيت أن تبلغ بالمسيح إلى شاطىء الأبدية السعيدة بعد أن عبرت ليل الناموس بلا صيد يذكر أو حتى بلا صيد بالمرة!

«فألقوا ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك»: لقد ألقى بطرس بالفعل أول عظة يوم الخمسين فمسك سمكاً كثيراً جداً: «فقبلوا كلامه بفرح واعتمدوا وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس. (أع٢:٤١)

نعم ومنذ ذلك اليوم والشبكة مطروحة، ولكن لم يجذبوها بعد، ولن يستطع أحد قط أن يجذبها بسبب الصيد الذي لا يُحصى ولا يُعد، ولن يجذبها إلا ملائكة الله من أربعة أطراف الأرض، يوم يأتي الرب ونراه على الشاطىء فعلاً ويتعرف عليه المحبون!

٢١: ٧ فَقَالَ ذَلِكَ التِّلْمِيذُ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ لِبُطْرُسَ: «هُوَ الرَّبُّ». فَلَمَّا سَمِعَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنَّهُ الرَّبُّ اتَّزَرَ بِثَوْبِهِ لأَنَّهُ كَانَ عُرْيَاناً وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ.

القديس يوحنا دائماً في إنجيله صاحب رؤية يغذيها الإيمان: «ورأى وآمن» (يو٢٠:٨). والقديس بطرس صاحب حركة وسرعة. هنا القديس يوحنا عرف الرب مباشرة، لأن الاستعلان الذي يقدم المسيح نفسه به ليس طبيعياً بل فائقا للطبيعة، لا تراه العين الجسدية إلا إذا كانت مفتوحة على الروح. والقديس يوحنا يعيش العين المفتوحة: «الذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي» (يو١٤:٢١). إن إنجيل يوحنا يلزم جداً أن يُفهم ويُعرف أنه إنجيل المحبة التي لها الاستعلان، وصاحبه كتبه من واقع أنه محبوب: «التلميذ الذي كان يسوع يحبه». لذلك ينبغي أن نتوقع فعلاً أن يكون هو الأول، أو ربما الوحيد، الذي يتعرف سريعا على الرب أينما وكيفما ظهر!! وهنا نجد أن القديس يوحنا يوحي إلى القارىء بهذا المعنى تماماً، كونه يقول عن نفسه: «التلميذ الذي كان يسوع يحبه» قبل أن يقول «إنه الرب»!

ويا للخجل الذي يكاد يمسك مني القلم!... كيف أن القديس يوحنا يظهر متسربلاً بالروح والنعمة والعين المفتوحة، يقابله في نفس المكان والزمان والمقام القديس بطرس عرياناً. وقد حاول الشراح الأجانب أن يهونوا من كلمة «عريان» وجعلوها أنه خالع ثوبه الخارجي فقط. ولكن الذي يعرف مهنة الصيادين في الشرق ويعاشرهم، يعلم تماماً أن الصياد يضطر لخلع ملابسه الداخلية ويكون نصفه الأسفل عرياناً تماماً لأنه يضطر دائماً إلى النزول في البحر. فهنا القصة على الواقع صحيحة ومحبوكة، ولكن على المستوى الرمزي تكشف حال بطرس أنه كان في غاية الحاجة أن «يشتري مني ذهباً مصفى بالنار (الإيمان) لكي تستغني، وثياباً بيضاء لكي تلبس، فلا يظهر خزى عريتك.» (رؤ٣:١٨)

«اتزر... وألقى نفسه في البحر»: هذا التصرف عكس ما هو متوقع طبيعياً، أن يخلع الإنسان ملابسه ويلقي نفسه في البحر. إذن، كان القديس بطرس في وضع غير طبيعي، كان يرى نفسه عريانا أمام عيني ذاك الذي يرى خفايا الضمائر والقلوب. ستر جسده، والقصد الحقيقي أن يطلب ستر ضميره. فالقديس بطرس ولو أنه بكى بكاء مرا بعد أن أنكر سيده، إلا أنه لم يسمع بعد كلمة تريح قلبه. وهوذا الآن «الرب» على الشاطىء، فهي فرصته العظمى وبالدرجة الاولى.

القديس يوحنا بارع في تصوير المناظر التي تُرى بالعين الجسدية محبوكة وجيدة، بينما هي بآن واحد تصور مناظر روحية تخلب الألباب وتذيب القلوب. فهذا المنظر عينه، منظر القديس بطرس وهو يلقي بنفسه في المجهول سابحاً من البحر إلى الشاطىء، متسربلاً بثوب يستره، هو نفسه منظر النفس وهي خارجة من بحر العالم ومحيطه الخانق، تسعى نحو خالقها، سابحة في أجواء الروح المجهولة، لتلتقى من هو فاتح ذراعيه على شاطىء الأبدية يستقبل متقيه...

٨:٢١ وَأَمَّا التّلاَمِيذُ الآخَرُونَ فَجَاءُوا بِالسَّفِينَةِ لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعِيدِينَ عَنِ الأَرْضِ إلاَّ نَحْوَ مِئَتَيْ ذِرَاعٍ وَهُمْ يَجُرُّونَ شَبَكَةَ السَّمَكِ.

التركيز في الرواية والوصف واضح أنه متجه نحو القديس بطرس، أما ذكر بقية التلاميذ فهو لتكميل الرواية. السفينة مُثقلة، تجر خلفها الشبكة الملآنة بالسمك الكبير. فبالإضافة إلى ثقل السمك، فالسمك يحاول أن يسبح في الاتجاه المعاكس للقرب من الشاطىء. أما مسافة المئتي ذراع فهي حوالى مئة ياردة أي ست وتسعون متراً تقريباً.

منظر بديع ، والكنيسة تحتضن المخلصين الذين انتشلتهم من أعماق بحر العالم، تجرهم جرا بالتعليم والخدمة والتعزية، وهم ممسوكون في شبكة الروح القدس، والرسل والتلاميذ والخدام الأمناء على كل درجاتهم واقفون يوجهون السفينة، وهي تسير الهوينى بعد أن تكون قد بلغت مناطق الأمان على شاطىء الأبدية ، والقباب الذهبية لأورشليم السمائية تخطف الألباب.

٩:٢١ فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى الأَرْضِ نَظَرُوا جَمْراً مَوْضُوعاً وَسَمَكاً مَوْضُوعاً عَلَيْهِ وَخُبْزاً.

إنها الوليمة التي أعدها الرب للواصلين إلى الشاطىء، تشير من بعيد وبصورة مصغرة للغاية إلى قوله السابق: «وأنا أجعل لكم كما جعل لى أبي ملكوتاً لتأكلوا وتشربوا على مائدتي ...» (لو٢٢:٢٩-٣٠)

على كل حال هي مائدة قد أعدها الرب، والجمر فيها أساسي كالخبز، وإن كان السمك لا يدخل في مضمون الإفخارستيا إلا أنه من جهة اسمه العام هو طعام الإيمان، الإيمان «بيسوع المسيح ابن الله المخمس»، وهذه الكلمات الخمس هي مدلول الحروف الخمسة في كلمة «إخثوس» (السمك).

١٠:٢١ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «قَدِّمُوا مِنَ السَّمَكِ الَّذِي أَمْسَكْتُمُ الآنَ»

هم لم يمسكوه بحذقهم، ولكنه هو الذي جمعه لهم في شبكتهم! هذا الصيد الثمين يمثل باكورة الذين انضموا إلى الإيمان، وهو موضوع مسرة التلاميذ، والرب نفسه بنوع ممتاز: «من تعب نفسه يرى ويشبع ... أقسم له بين الأعزاء، ومع العظماء تقسم غنيمة، من أجل أنه سكب للموت نفسه، وأحصي مع أثمة، وهو حمل خطية الكثيرين، وشفع في المذنبين.» (إش٥٣:١١-١٢)

١١:٢١ فَصَعِدَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَجَذَبَ الشَّبَكَةَ إِلَى الأَرْضِ مُمْتَلِئَةً سَمَكاً كَبِيراً مِئَةً وَثلاَثاً وَخَمْسِينَ.

وَمَعْ هَذِهِ الْكَثْرَةِ لَمْ تَتَخَرَّقِ الشَّبَكَةُ.

سبق وأن ألمحنا أن مفهوم الشبكة بلغة الإنجيل هي دعوة الملكوت المطروحة على نفوس الناس، وهي مغزولة بالسداة الرسولية ولحمة الروح القدس، وعيونها تضيق لتصطاد أضعف أولاد الله وهي إما تُطرح على مستوى الناموس فتسمى «طرحة شمالية» أوالتدبير الشمالي فلا تصطاد شيئاً حتى ولو سهر الساهرون الليل بطوله؛ وإما تطرح على مستوى اليمين، على كلمة الرب، فيكاد لا يفلت منها إلا ما هو غير قابل للصيد.

ولقد سبق القديس لوقا القديس يوحنا في وصفه رحلة مشابهة كانت واضحة اللمسات، مطابقة لمتطلبات الشرح الروحي الخالص. كما قدم القديس متى في إنجيله الأساس الذي يكن أن نبني عليه الشرح:

القديس متى: «يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة في البحر وجامعة من كل نوع. فلما امتلأت، أصعدوها على الشاطىء، وجلسوا وجمعوا الجياد إلى أوعية، وأما الأردياء فطرحوها خارجاً، هكذا يكون في انقضاء العالم، يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار.» (مت١٣:٤٧-٢٩)

القديس لوقا: «ولما فرغ من الكلام قال لسمعام: ابعد إلى العمق وألقوا شباككم للصيد، فأجاب سمعان وقال له: يا معلم، قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئاً، ولكن على كلمتلث القي الشبكة، ولما فعلوا ذلك أمسكوا سمك كثيرا جداً، فصارت شبكتهم تتخرق ... وملأوا السفينتين حتى أخذتا في الغرق.» (لو٥:٤-٧)

القديس يوحنا: «وفي تلك الليلة لم يمسكوا شيئاً، ولما كان الصبح وقف يسوع على الشاطىء ... فقال لم: ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فتجدوا. فألقوا، ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك ... وجذب الشبكة إلى الأرض ممتلئة سمكاً كبيراً، مئة وثلاثاً وخمسون، ومع هذه الكثرة لم تتخرق الشبكة.» (يو٢١:٣-١١)

الشرح: المكونات المشتركة في الثلاثة الأناجيل ومدلولها الروحي [المركب، البحر، الشبكة، لسمك. هم: الكنيسة، العالم، المناداة بالملكوت، المؤمنون.

المفارقة بين قصة إنجيل لوقا وقصة إنجيل يوحنا، ومدلولها على أساس إنجيل متى:

القديس لوقا	القديس يوحنا
أ _ المركب لم تفارق البحر (الكنيسة في الحاضر)	المركب بلغت الشاطىء (الكنيسة بلغت الأبدية)
ب _ المسيح لم يغادر المركب (المسيح يقود الكنيسة في الحاضر)	المسيح على الشاطىء (المسيح يستقبل المخلصين)
ج _ السمك لم يفارق المركب (المؤمنون في جهاد الحاضر)	السمك قدموه على الشاطىء (المخلصون يقدمون إلى المسيح)
د _ المركب أخذت في الغرق (طغيان العالم على الكنيسة	المركب وصلت بكامل سلامتها (الكنيسة المنتصرة على شاطىء الأبدية)
د _ الشباك تتخرق (أتعاب الكرازة وتجاربها)	الشباك لم تتخرق (تجلي الملكوت)
و_ السمك لم يفرز، جيد مع ردي (المؤمنون تحت الاختبار)	السمك كبير كله ومعدود (إحصاء المفديين المعروفين بالاسم)

١٢:٢١ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «هَلُمُّوا تَغَدَّوْا». وَلَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ مِنَ التّلاَمِيذِ أَنْ يَسْأَلَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ إِذْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الرَّبُّ.

«تغدوا»: هي «افطروا» وليس «تغدوا». فالوقت هو الصباح الباكر!! كان التلاميذ واجفين ينظرون إليه متعجبين، يعرفونه تماما أنه هو، ولكن غير واثقين ولا يستطيعون أن يسألوه بسبب هيبته، المضاعفة، فهو المسيح نفسه، ولكن في حالته الجديدة الفائقة على الإدراك والحواس! كيف يكون هو؟ ولكن هو هو!!

وهكذا، وبعد أن رست السفينة ونزل التلاميذ وانتهى القديس بطرس من جر الشبكة وهي بكامل حمولتها وأزيد، كان

المسيح على قرب، وهم الآن يتقدمون نحوه ببطء تملأهم الرهبة والهيبة. انعقد لسانهم، فهو يكلمهم وهم صامتون، ينظرون إليه بدهشة، ولم يستطيعوا أن يبادروه لا بسؤال ولا بتحية، ولكنهم تقدموا خاضعين، ثم توقفوا على بعد ينتظرون منه المبادرة،

«هلموا تغدوا»: المسيح أينما كان، يطعم الذين يتبعونه، في القفر أطعمهم بالخبز والسمك، وهنا حتى على شاطىء الأبدية يستقبل بالخبز والسمك الآتين إليه خائرين من هول ليل العالم الطويل وشقاء إخفاقات الصيد التي مررت حياتهم. هوذا يطعمهم مما له، كما عضد ملكي صادق في القديم إبراهيم بخبز وخمر وهو راجع من هول معركة كدر لعومر(تك١٤:١٨)، فكانت أول صورة من صور إفخارستية محبة الله نحو أبي الإيمان، تتويجاً للحرب التي خاضها. أما هنا، فهي إكليل ختام صورها جميعاً، وإن كان الخمر فيها غائباً، فذلك لأن عمل الدم قد استوفى زمانه، وليس حرب بعد.

٢١:١٣ ثُمَّ جَاءَ يَسُوعُ وَأَخَذَ الْخُبْزَ وَأَعْطَاهُمْ وَكَذَلِكَ السَّمَكَ.

كان رد المسيح عل توقفهم الحذر وتوقعهم المبادرة منه، أن تقدم نحوهم بالفعل واقترب من المائدة التي أعدها. ولكن لا يذكر هنا أي حركة من حركات الإفخارستيا المعتادة، فلا هو نظر إلى فوق، ولا هو كسر، ولا هو بارك. والسبب واضح، فالمنظر يصور شاطىء الأبدية. فنحن «الآن» فوق. والكثر انتهى بانتهاء زمان الصليب،[1] والبركة كملت. والآن وقت حصيدها. وهكذا لا يبقى من الإفخارستيا إلا شركتها : «وأعطاهم». فالخبز هو شركة جسده في قمة تجليه، والسمك رمز الحياة الذي يمل اسمه «يسوع المسيح ابن الله المخلص».

وعن هذه البركة الأخيرة يقول القديى أغسطينوس: [وبهذا «الغداء» يستعلن كيف تتم بركة الشركة الفائقة].

ويقول القديس أغسطينوس أن القديس يوحنا بهذه الآية يكون قد انتهى من إنجيله.

٢١:١٤ هَذِهِ مَرَّةٌ ثَالِثَةٌ ظَهَرَ يَسُوعُ لِتلاَمِيذِهِ بَعْدَمَا قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ.

لا يمكن أن يكون قصد القديس يوحنا أنه ظهر لتلاميذه ثلاث مرات وحسب، ولكن كان قصده في الحقيقة كما يرى القديس أوغسطينوس أن هذا هو يوم ثالث للأيام التي ظهر فيها المسيح لتلاميذه، باعتبار أن يوم القيامة بظهوراته العديدة هو اليوم الأول، واليوم الثامن لقيامته هو الثاني، وهذا هو الثالث. ولكن يرى العالم وستكوت أنه يقصد الظهور الخاص بالتلاميذ مجتمعين.

القسم الثانى

المسيح والقديس بطرس (٢١:١٥-١٩)

[ودعا يعقوب بنيه وقال لهم اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم في آخر الأيام.] (تك٤٩:١)

٢١:١٥ فَبَعْدَ مَا تَغَدَّوْا قَالَ يَسُوعُ لِسِمْعَانَ بُطْرُسَ: «يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا أَتُحِبُّنِي أَكْثَرَ مِنْ هَؤُلاَءِ؟» قَالَ لَهُ: «نَعَمْ يَا رَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ». قَالَ لَهُ: «ارْعَ خِرَافِي».

«فبعد ما تغدوا»: تماما وعلى نمط ما تم بعد الإفخارستيا الكبرى التي قدم لهم فيها جسده ودمه، حيث بعد أن قام عن العشاء وغسل أرجلهم، وجلس وأعطاهم وصية المحبة، «قال له بطرس: يا سيد، لماذا لا أقدر أن أتبعك الأن، إني أضع نفسي عنك. أجابه يسوع: أتضع نفسك عني؟ الحق الحق أقول لك، لا يصيح الديك حتى تنكرني

---

[1] الرب كسر الخبز وبارك مع تلميذى عمواس وكان ذلك بعد الصليب والقيامة ايضا ـ ميشيل

ثلاث مرات.» (يو١٣:٣٧-٣٨)

وبعد العشاء أيضاً: «قال لهم يسوع كلكم تشكون في في هذه الليلة، لأنه مكتوب أني أضرب الراعي، فتتبدد خراف الرعية، ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل. فأجاب بطرس وقال لو: وان شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبداً. قال له يسوع: الحق أقول لك، إنك في هذه الليلة قبل أن يصيح ديك تنكرني ثلاث مرات. قال له بطرس: ولو اضطررت أن أموت معك، لا أنكرك.» (٢٦:٣١-٣٥)

وللأهمية القصوى يلزم أن نقرأ مرة أخرى هذه الآية التي سبقت آية بطرس هذه والتي جاءت هكذا: «ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل»، حيث يأتي هذا الوعد ليخفف من تأثير إنكار بطرس وكأنه يتناساه، وبهذا يأتي سؤال السيح للقديس بطرس، في إنجيل القديس يوحنا، بعد القيامة وفي الجليل أيضاً حسب النص الإنجيلي السابق، ليزيد من صدق رواية القديس يوحنا ومن دقتها وحبك موضوعها وتتميم وعد الرب بالحرف الواحد!

أما في إنجيل القديس لوقا فجاءت هكذا: «وقال الرب: سمعان سمعان هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة، ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك. وأنت متى رجعت ثبت إخوتك. فقال له: يا رب إني مستعد أن أمضي معك حتى إلى السجن، وإلى الموت. فقال أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفني.» (٢٢:٣١-٣٤)

«يا سعمان بن يونا»: «يونا» تأتي في اليونانية مزادا إليها الحرف ( ) في أصل الكلمة ( ) وفي المضاف إليه ( ) وهي تماما «يوحنا»، وهو نفس اللقب الذي خاطب به المسيح سمعان أول ما قابله وأعطاه اسم «بطرس» أي «الصخرة» = «بترا» باليونانية، أو «كيفا» أو «كيفاس» أو «الصفا»: «فجاء به إلى يسوع، فنظر إليه يسوع، وقال: أنت «سمعان بن يونا، أنت تدعى «صفا» الذي تفسيره بطرس» (يو١:٤٢)

ويلزم هنا أن نذكر أن الرب لم يخاطب سمعان بن يونا هذا باسمه الجديد المضاف «بطرس» قط. كما أن القديس بولس لم يذكره باسمه الجديد منطوقاً باليونانية، ولكن ذكره منطوقاً بالعبرانية «صفا» في حين أن الأناجيل الأخرى تذكره باسمه اليوناني بطرس، إما وحده أو ضافا لاسمه الآخر سمعان. وهذه المعلومة هامة للغاية خاصة عند العلماء الذين يفحصون بتدقيق في صحة تسجيلات روايات الأناجيل، فهذه المعلومة كما ذكرناها لم تتبدل قط على مدى الأناجيل كلها.

وكون المسيح يخاطب القديس بطرس باسمه واسم والده، أي بلقبه الجسدي الطبيعي، فهذا فيه لفت نظر إلى طبيعة بطرس البشرية، التي ظهر بها حتى الآن، كإنسان عادي لتمييزه عن الرسول.

«أتحبني أكثر من هؤلاء؟»: أي «أتحبني أكثر من التلاميذ زملائك؟»، وهنا يستعيد ذهن بطرس ما سبق وقاله مدعياً محبته الفائقة عن محبة بقية زملائه، كما جاء في إنجيل القديس متى: «وان شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبداً» (مت٢٦:٣٣)، بل إن في قوله في إنجيل القديس يوحنا ما يستشف أنه يدعي لنفسه «الحب الأعظم» بقوله: «إني أضع نفسي عنك» قياسا على قول المسيح: «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه.» (يو١٥:١٣)

وهنا نلاحظ، كما سبق وأجملنا في مقدمة الأصحاح، كيف يضع المسيح أساس الرسولية على المحبة، جاعلاً المحبة الشرط الأساسي للكنيسة لاختيار مرسليها وخدامها: رؤساء أساقفة وأساقفة وكهنة وكل مصاف خدامها. وهنا تُقدم المحبة على الإيمان، على أساس أن المحبة الصادقة تحوي حتماً إيماناً صادقاً: «أما الآذ فيثبت الايمان

والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة.» (اكو١٣:١٣)
كان الرب قد أبدى رفضه فيما سبق لأية محاولة للتسابق على أيهم أكبر: «وكانت بينهم أيضاً مشاجرة، من منهم يظن أنه يكون أكبر. فقال لهم: ملوك الأمم يسودونهم، والمتسلطون عليهم يدعون محسنين. وأما أنتم فليس هكذا، بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر، والمتقدم كالخادم.» (لو٢٢:٢٤-٢٦)
أما قول المسيح: «أكثرمن هؤلاء» فهذا بالنسبة للوضع الرسولي أو للخدام على وجه العموم، ولكن الرب هنا يضع شرطاً للتقدم في الخدمة أو الرئاسة، فالأكثر حباً يُستأمن للخدمة الأكثر، وهذا حق، فالمحبة وحدها هي التي تتسع للعمل الأكثر.
«نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك»: يوافق القديس بطرس على سؤال الرب أنه كان يحبه، ولكن تأتي الموافقة خلوا من ادعاء الأكثرية في المحبة، فلقد تعلم بطرس أن لا يقدم نفسه على الآخرين، وهذا تصحيح مليح لمواقفه السابقة. وهذا يلزم أيضاً أن يكون منهاجاً لكل مرسل وخادم. فليس لإنسان قط، كان من كان، قديساً أو نبياً، أن يدعي لنفسه الحب الأكثر للمسيح.
كذلك يأتي رد القديس بطرس مسنوداً بالتسليم لمعرفة الرب، فمحبة بطرس حتماً يعرفها المسيح، وهو لا يدعي لنفسه محبة إلا بالقدر الذي يعرفه الرب. لقد تنازل القديس بطرس عن غلواء مشاعره الخاصة التي فضحته وأخرجته عن حقيقة ما له وما فيه. وهذا أيضاً يتحتم أن يكون منهاجا لكل مرسل وخادم في كنيسة الرب، أن لا يشهد لنفسه إلا بالقدر الذي شهد به الآخرون له وعنه!!
«أرع غنمي»: «أرع»، معناها الدقيق: «أطعم»، لأن «أرع» جاءت بعد ذلك بالنسبة للقطيع، و«غنمي» تجيء بمعنى «حملاني» في اليونانية. ولكن في عدة أبحاث عميقة قام بها علماء مدققون في أصول اللغة اليونانية واستخدامها، اتفقوا على أن بالرغم من تعدد الكلمات المعبرة عن المحبة مثل: «أغابي»، و«فيلي»، أو أفعال الإطعام والرعاية مثل «بوسكين» و«بويمينين»، أو أسماء القطيع بين «حملان» و«خراف» و«غنم» ، إلا أنها جميعا لا تختلف في معناها، فهي كلها «محبة»، وهي كلها «رعاية» وهي كلها «غنم» وذلك في الثلاثة أسئلة التي طرحها المسيح على القديس بطرس.
وفي قول المسيح «أرع غنمي»، يضع المسيح القديس بطرس في موضع الرسولية الصحيح، بعد أن كان قد أفرز نفسه بإنكاره المسيح ثلاثا. وهنا يشدد القديس أغسطينوس جداً على قول المسيح «غنمي» باعتبارها غنم الرب، مكرراً مرات ومرات أن يلتفت المرسل أو الخادم المؤتمن على الرعية إلى أنها غنم الرب، وليست غنمه هو، معطياً نصائح نافعة وجيدة وكثيرة جداً لمن يطلع عليها.
والملاحظ أن كلمة «غنمي» يقابلها في إنجيل القديس متى «كنيستي»: «وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها.» (مت١٦:١٨)
فإذا أضفنا إلى هذه التصريحات ما قاله الرب لبطرس في إنجيل القديس لوقا : «وأنت متى رجعت، ثبت إخوتك» (لو٢٢:٣٢)، يتبين لنا مدى سخاء الرب المنقطع النظير في تشجيع القديس بطرس: «ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفني إيمانك» (لو٢٢:٣٢)، لكي يعود ويتبوأ مركزه بين التلاميذ، بل وفي الكنيسة على مدى الدهور. ولكن تشجيع المسيح لم يبلغ أبداً حد منحه الرئاسة على كل الرعية أو التلاميذ. فليتذكر القارىء جيدا أن الرب شجب المشاجرة بينهم حول من فيهم يكون أكبر!!! فلماذا تكرس الكنيسة «المشاجرة» عينها لتكون جزءا من إيمان

الكنيسة؟؟؟

١٦:٢١ قَالَ لَهُ أَيْضاً ثَانِيَةً: «يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا أَتُحِبُّنِي؟» قَالَ لَهُ: «نَعَمْ يَا رَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ». قَالَ لَهُ: «ارْعَ غَنَمِي».

المسيح يكرر السؤال الأول، ولكن يحذف منه الجزء الخاص بـ «أكثر من هؤلاء»، وكأنه اكتفى من رد القديس بطرس بأن حذفها من قلبه كما حذفها من رده، فلم تعد تقلق الرب من جهة الرعاية المزمع أن يلقيها عليه.

ولكن التكرار انحصر في «المحبة» فقط، وكأن الرب لم يكتف باعتراف القديس بطرس الأول أنه «يحب المسيح»، فهو هنا يطلب المزيد. فليس عبثاً يكرر المسيح السؤال عن المحبة!! وليس عبثاً يخرج الكلام من فم المسيح وكأنه يعتمد على التصحيح، والمزيد من طرف القديس بطرس وحده.

ولكن لينتبه القارىء، فالمسيح عندما كررو السؤال عن محبة القديس بطرس له، كان ينبهه أنه يأخذ من المسيح طاقة حب جديدة يضيفها على ما عنده. فالمسيح لا يسألنا عما عندنا كأنه من عندنا؛ ولكن على أنه من عنده: «لأنه من يميزك؟ وأي شيء لك لم تأخذه، وإن كنث قد أخذت، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ» (اكو ٤:٧)

وهكذا عندما أعطى المسيح فرصة للقديس بطرس أن يعيد النظر في مستوى محبته على محبة المسيح. كانت فرصه لبطرس أن يستزيد من المحبة أخذاً وعطاء.

وعلى مستوى طاقة المحبة الثانية، ثنى له المسيح لياقة الرعاية على غنم الرب.

١٧:٢١ قَالَ لَهُ ثَالِثَةً: «يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا أَتُحِبُّنِي؟» فَحَزِنَ بُطْرُسُ لأَنَّهُ قَالَ لَهُ ثَالِثَةً: أَتُحِبُّنِي؟ فَقَالَ لَهُ: «يَا رَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ. أَنْتَ تَعْرِفُ أَنِّي أُحِبُّكَ». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «ارْعَ غَنَمِي».

كان حزن القديس بطرس في المرة الثالثة يرجع لإحساسه بأنه كان دون المستوى اللائق برسول، اذ تذكر الفراغ المخيف الذي كان يملأ قلبه تجاه المسيح أثناء المحاكمة لما سألوه ثالث مرة عن علاقته بالمسيح فأنكر!! هنا حزن بطرس عند سؤال الرب الثالث، إذ تذكر أيضاً بكاءه المر بعد إنكاره الثالث (مر١٤:٧٢). وهنا كان رد بطرس هو التسليم الكلي للمسيح: «يا رب أنت تعلم كل شيء»، على مستوى الاعتراف بكل ضعفه؛ فقط «أنا أحبك»!! لقد قبل المسيح اعتراف بطرس، وقبل محبته، وزادها له ثلاثة أضعاف!!! فصار بطرس راعياً أمينا للغاية على غنم الرب. والدليل القاطع على صلاح القديس بطرس وصلاحيته كراع في نظر الرب، أذ أردف الرب في الحال بالنبوءة له كيف سيضع نفسه عن الخراف!! «أية ميتة كان مزمعا أن يمجد الله بها.» (١٩:٢١)

لقد ظلت كلمات الرب ونصائحه ترن في قلب القديس بطرس حتى أواخر أيامه، والتي منها صاغ نصائحه للأساقفة نظرائه: «أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم، أنا الشيخ رفيقهم، والشاهد لآلام المسيح، وشريك المجد العتيد أن يُعلن: ارعوا رعية الله التي بينكم، نظاراً (أساقفة)، لا عن اضطرار بل بالاختيار، ولا لربح قبيح بل بنشاط، ولا كمن يسود على الأنصبة بل صائرين أمثلة للرعية. ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون إكليل المجد الذي لا يبلى.» (ابط٥:١-٤)

١٨:٢١ اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: لَمَّا كُنْتَ أَكْثَرَ حَدَاثَةً كُنْتَ تُمَنْطِقُ ذَاتَكَ وَتَمْشِي حَيْثُ تَشَاءُ. وَلَكِنْ مَتَى شِخْتَ فَإِنَّكَ تَمُدُّ يَدَيْكَ وَآخَرُ يُمَنْطِقُكَ وَيَحْمِلُكَ حَيْثُ لاَ تَشَاءُ».

بعد أن تأكد الرب أو بالحري بعد أن تأكد بطرس من نفسه من جهة محبته للرب، وبعد أن حمله الرب رعاية غنمه، أي استأمنه على الرسولية في كنيسته، بدأ الرب يؤكد لبطرس ماذا ينتظره في مستقبل الأيام. ولكن الرب وضعها

كمقارنة بين حرية الخدمة التي ينعم بها في حداثته، وبين ما ينتظره من شدة سيُحمل عليها وتفرض عليه في شيخوخته. ولكن ليس القديس بطرس وحده هو الذي يفرز له هذا الصيب، ولكنه منهج خدمة الكنيسة كلها الذي افتتحه الرب بنفسه: «وكان يُقتاد بالروح في البرية أربعين يوماً يُجرب من إبليس.» (لو ٤ :١-٢)

وواضح من هذا أن «الآخر» الذي سيمنطق القديس بطرس ويحمله حيث لا يشاء، وهو مفرود الذراعين، هو الروح القدس، فهو الذي يقتاده حيث سيُصلب وحيث لم يكن يشاء أولاً. فمعلوم من قصة استشهاد القديس بطرس أنه بعد صدور الحكم عليه بالصلب استطاع الهرب من السجن، ولكن في خروجه سريعاً من روما قابله الرب في الاتجاه العكسي فسأله بطرس: الى أين أنت ذاهب يا رب؟ «كوفاديس»، فرة عليه الرب: لأصلب بدلاً منك. فعاد بطرس أدراجه وسلم نفسه للصليب، وأبى إلا أن يُصلب منكساً! إذ حسب أنه كثير عليه أن يُصلب كالمسيح .

ومعلوم أن بطرس استشهد سنة ٦٤ م على يد نيرون، أي بعد حديث الرب هذا بحوالى ٣٤ سنة. ولكي يوضح الرب له أنه سيختط له منهجه بالتمام، عاد مباشرة وللتو وقال له كلمة السر: «اتبعني»!!

١٩:٢١ قَالَ هَذَا مُشِيراً إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يُمَجِّدَ اللَّهَ بِهَا. وَلَمَّا قَالَ هَذَا قَالَ لَهُ: «اتْبَعْنِي».

يعلق القديس يوحنا هنا على الكلام بحسب ما كان وما صار، لأنه يكتب إنجيله هذا سنة ٩٥م تقريباً، والقديس بطرس استشهد سنة ٦٤م، وصار ذلك معلوماً لدى الكنيسة كلها، كيف مجد القديس بطرس الله بموته، وهكذا أخيراً قبل الله استعداده الذي قاله في بكور حياته: «لو اضطررت أن أموت معك... إني أضع نفسي عنك...»!!!

هكذا وضع القديس بطرس ذاته حباً في المسيح والكنيسة، وهكذا مات على الصليب سعياً وراء الذي أحبه ومات!! وتم قول الرب حرفياً: «ولكنك ستتبعني أخيراً» (يو١٣ :٣٦)

لقد ظل القيس بطرس يترقب واجفاً مجيء من سيمنطقه ويحمله حيث لا يشاء كل يوم، إذ حسب ذلك أنه لائق مهما كانت مشيئته. لذلك نسمعه يقول في رجفة اليقين: «عالماً أن خلع مسكني قريب كما أعلن لى ربنا يسوع المسيح أيضاً.» (٢بط١ :١٤)

وفي هذا يقول القديس أغسطينوس: [هذه هي خاتمة حياة الذي أنكر، والذي أحب، الذي ناء عجباً بظنونه، والذي انحنى بالمذلة من جراء انكاره، الذي اغتسل بدموعه، والذي استحسن اعترافه، ثم تكلل بآلامه! هذه كانت خاتمة ما بلغ: أن مات على حب مكتمل لاسم من صمم أن يموت معه ولكن منكساً.]

القسم الثالث

المسيح والقديس يوحنا (٢١ :٢٠-٢٣)

٢٠:٢١ فَالْتَفَتَ بُطْرُسُ وَنَظَرَ التِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ يَتْبَعُهُ وَهُوَ أَيْضاً الَّذِي اتَّكَأَ عَلَى صَدْرِهِ وَقْتَ الْعَشَاءِ وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ مَنْ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُكَ؟».

القديس يوحنا هنا يضع نفسه في الصورة في ختام إنجيله ليؤكد وجوده الحي في الجماعة وفي الإنجيل معاً. وهنا يحاول الربط بيه وبين القديس بطرس، الأمر الذي نجده دائماً موجوداً في الإنجيل عامة؛ فـ «بطرس و يوحنا» صنوان عزيزان لا يفترقان. فنحن لا ننسى أنهما هما الاثنان كانا يتبعان معاً الرب وهو مقبوض عليه في طريقه إلى بيت حنان: «وكاذ سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع» (يو١٨ :١٥)، والاثنان ركضا معاً إلى القبر. وحتى في هذه الآية يحاول أن يذكر القارىء بموقعهما على مائدة العشاء عدما أومأ القديس بطرس من الطرف الأخر

للمائدة نحو القديس يوحنا لكي يسأل الرب عن الخائن من يكون! وبآن واحد يحدد القديس يوحنا موقعه من المسيح، على الصدر من جهة الشمال حتماً حسب التقليد (أي ملاصقاً للقلب)، ثم يزيد من إزاحة الستار عن علاقته مع الرب بقوله: «كان يسوع يحبه».

أما كون القديس يوحنا حسب قول القديس بطرس كان «يتبعه»، فهنا كلمة «يتبعه» تبدو لأول وهلة أنه كان يسير خلف المسيح. ولكن لغة القديس يوحنا تضرب باليمين وبالشمال، أي تشير إلى الواقع المتحرك وتهدف إلى الروح الثابت الأزلي . فالمعنى الروحي أن القديس يوحنا لم يكن في حاجة أن يدخل مدرسة المحبة التي مر القديس بطرس على فصولها الثلاثة بغاية الصعوبة، ثم فاز بالرسولية بعد محنة وامتحان وصار من الثابتين. فالقديس يوحنا هو ابن محبة المسيح، وقد وُلد يوم استضافه الرب «وَفِي الْغَدِ أَيْضاً كَانَ يُوحَنَّا وَاقِفاً هُوَ وَاثْنَانِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ. فَنَظَرَ إِلَى يَسُوعَ مَاشِياً فَقَالَ: «هُوَذَا حَمَلُ اللَّهِ». فَسَمِعَهُ التِّلْمِيذَانِ يَتَكَلَّمُ فَتَبِعَا يَسُوعَ. فَالْتَفَتَ يَسُوعُ وَنَظَرَهُمَا يَتْبَعَانِ فَقَالَ لَهُمَا: «مَاذَا تَطْلُبَانِ؟» فَقَالاَ: «رَبِّي أَيْنَ تَمْكُثُ؟». فَقَالَ لَهُمَا: «تَعَالَيَا وَانْظُرَا». فَأَتَيَا وَنَظَرَا أَيْنَ كَانَ يَمْكُثُ وَمَكَثَا عِنْدَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ. وَكَانَ نَحْوَ السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ.» (يو ١:٣٥-٣٩)، وتسجل في سجل الحب الإلهي يوم أن انحنى على صدر يسوع، ويوم أن ترك التلمذة خلف المعمدان واتبع الحمل الذي يرفع خطية العالم. فإن كان بطرس قد رآه الآن بعد القيامة «يتبع»، فقد كان منذ أن نادى المسيح بالملكوت، هو أول التابعين .

٢١:٢١ فَلَمَّا رَأَى بُطْرُسُ هَذَا قَالَ لِيَسُوعَ: «يَا رَبُّ وَهَذَا مَا لَهُ؟».

لقد ظن بطرس في نفسه أكثر مما ينبغي أن يظن. ظن أنه بعودته إلى مركزه في الجماعة الرسولية بهذا السخاء، ونواله صك تكريم الشهادة بين الشهداء، أن يسود على الجماعة ويقود. وكان أول اختباره على القديس يوحنا، نده في الحب وفي القربى، فكان بطرس يتلهف على أن يعرف مستواه بالنسبة لموقع هذا التلميذ الآخر بين الرسل التابعين وبين الشهداء المكمين، فابتدر الرب بالسؤال «وهذا ما له؟». يقصد: أنا عرفت موقعي وبدايتي، وهذا ما نصيبه؟ فكان السؤال برمته خارج اختصامه بل وخارج اللياقة؛ ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه!! فلقد كان وقع السؤال عند الرب موقعاً غير حسن وهل يُسأل الرب عن مشيئته؟

٢٢:٢١ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ أَشَاءُ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى أَجِيءَ فَمَاذَا لَكَ؟ اتْبَعْنِي أَنْتَ»

الرد هنا عميق ومتشعب! يضرب في الواقع، ويضرب حتى إلى منتهى الزمن؛ يكشف عن إلوهية متفوقة، وسلطان على الزمن وعلى الموت والحياة، وعلى مصائر الناس وأقدارهم. فالمسيح يستعلن وجوده القائم والدائم، وكيف يقبض على زمام الكنيسة في تحركها عبر الزمن برسلها وأبائها وأنبيائها، يحدد أيامهم ويقيس أعمارهم بخطة تنتهي حتماً بمجيئه.

كان سؤال بطرس يختص بمشيئة المسيح قبل أن يختص بحياة يوحنا، لأن حياة رسول لا تحددها الأقدار المحتومة، بل مشيئة الله المحتومة التي لا يفك ختومها إلا المسيح، مضيفاً عليها، أو مختزلا منها كما يشاء؛ لأنه كالآب يُحيي من يشاء!

وقول المسيح: «إن كنت أشاء أنه يبقى إلى أن أجيء»، ليس هو افتراضاً للجدل، بل هو حق قائم بالحقيقة. فالذي أقام لعازر من الموت بعد أن أنتن، أعسير عليه أن يُبقي يوحنا لا يموت؟ والذي قام من بين الأموات ناقضاً الموت وأوجاعه، أكثير عليه أن يفصل بين يوحنا والموت؟

ولكن هل قالها الرب كمجرد رد لبطرس كي لا يرتئي فوق ما ينبغي أن يرتئي؟ أم يقصد بها قصداً يلوح بإجراء ينوي

أن يأتيه؟

لم يكن سؤال القديس بطرس نابعاً من ذاتية تتحرق شوقاً لمعرفة مصائر الرسل، بقدر ما كان يشعر أنه يمثل في كنيسة الله حركة ناشطة وعملاً، هما من واقع طبيعته التي هذبها له المسيح لتعمل على مستوى الروح.

وكان يشعر أن القديس يوحنا يمثل الحب الهادىء الوديع المتأمل والمتأجج كالنار شديدة الفعل بطينة الحركة. فكان بطرس يصبو أن يدرك في يوحنا مسار هذه القوة الفعالة، كما أدرك هو في نفسه مسار حركته التي ستنتهي بالشهادة! كانت غيرة بطرس من يوحنا كغيرة مرثا من مريم. لقد ضجت مرثا من قعود أختها تحت رجلي المسيح تسمع كثيراً ولا تعمل شيئاً؛ بينما هي قد هدها الجهد وأجهدتها الحركة في أعمال كثيرة لخدمة ضيافة الرب. وأخيراً انفجرت، لا في مريم، بل في المسيح تؤاخذه بصراحة: «يا رب اما تبالى بان اختي قد تركتني أخدم وحدي، فقل لها أن تعينني» (لو ١٠:٤٠). فكان الرب لها لائماً، ولسلوكها مؤاخذاً، وعلى أسلوبها معنفاً، مع أنه كان يحبها، وأعطى لمريم الطوبى لأنها اختارت النصيب الصالح «الذي لن يُنزع منها.» (١٠:٤٢)

وهنا تجيء كلمة: «لن يُنزع منها» بالنسبة لمريم موازياً ومطابقاً لقوله لبطرس بالنسبة ليوحنا: «أنه يبقى حتى أجيء». فحياة القديس يوحنا ومنهجه وأسلوبه، واضح أنه يمت بصلة وثيقة لأسلوب مريم ومنهجها. فكل منهما اختار المحبة والاستماع إلى «الكلمة» والتأمل فيها واتباع الرب من كل القلب، وكلاها فاز بإعجاب المسيح واستحوذ على محبته. وهذا كان بالنسبة لمريم «النصيب الصالح الذي لن ينزع منها»، وبالنسبة ليوحنا كان يشاء أن يبقى إلى الأبد. ولكنه، فيما يبدو لنا، أن المسيح أبقى على منهجه وإنجيله يحياه عاشقوه في كل العالم عوضا عنه إلى أن يجيء. وأليست الرهبانية الباقية إلى الأبد صورة لحياة يوحنا؟ هذا هو القديس يوحنا وهذه هي حياته الهادئة التي تحياها له الكنيسة ولسوف تحياها له الرهبنة إلى الأبد!

أما بطرس فليس له أن يتذمر، فالرب سبق وثبت اسمه وثبت إيمانه النشيط الشجاع العامل في الكنيسة، على نفس المنوال والى الأبد: «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (مت١٦:١٨)، وها هي الكنيسة تحيا إيمانه، فتزلزل أبواب الجحيم كل يوم.

لقد استؤمن بطرس على مفاتيح ملكوت السموات، وأما يوحنا فاستؤمن على أسرار السماء ذاتها واطلع على كل ما هو عتيد أن يكون، وشاهد السماء الجديدة والأرض الجديدة، وقاس مع الملاك أورشليم السماوية، وعاين عرش الله، وتعرف على كل الأجناد السماوية!

والآن: «بطرس» مات وإيمانه لا يزال يتكلم بعد! ... و«يوحنا» مات ولا يزال حبه يُسبح به تسابيح الأزل...

«فماذا لك؟ أتبعني أنت»: ليس من شأن القديس بطرس أن يتابع حياة الرسل الآخرين، إن حدود مسئوليته تقف عند اتباعه هو للمسيح وحسب. فإن عاش يوحنا حتى مجيء المسيح فهذا ليس «له» ولا يخصه، وإن مات شهيداً أو بغير شهادة، فهذا أيضاً ليس له، يكفيه هو أن يتبع المسيح. هذا الرد ينفي أن يكون المسيح قد أعطى لبطرس حق الرئاسة على الرسل ولا حتى الإشراف أو القيادة. الرب أعطى بطرس أن يشدد إخوته عندما يرجع من محنته بعد أن ذاق مرارة الإنكار وحيرة الجحود. فكما تثبت إيمانه بصلاة الرب عنه، هكذا كان ينبغي أن «يثبت» بإيمانه إخوته عن اختبار.

ولقد كان بطرس حقاً عموداً ثابتاً وقوة مركزية ذات إشرع وسط التلاميذ. وقد أبدى شجاعته في مواجهة رؤساء الكهنة وعنف سلوكهم واتهمهم علنا وبكل قوة بتحمل جرم قتل المسيح «رئيس الحياة قتلتموه» (أع٣:١٥)، حتى

ضج منه رؤساء الكهنة واستصرخوه ليكف عنهم: «فلما أحضروهم، أوقفوهم في المجمع، فسألهم رئيس الكهنة قائلاً: أما أوصيناكم وصية أن لا تعلموا بهذا الاسم، وها أنتم قد ملأتم أورشليم بتعليمكم وتريدون أن تجلبوا علينا دم هذا الإنسان. فأجاب بطرس والرسل وقالوا: ينبغي أن يُطاع الله أكثر من الناس. إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتموه معلقين إياه على خشبة، هذا رفعه الله بيمينه رئيساً ومخلصاً، ليعطي إسرائيل التوبة وغفران الخطايا.» (أع٥:٢٧-٣١)

كان بطرس بالنسبة للكنيسة قلبها الخفاق، ولسانها الناطق، وروحها الوثابة، جريء جرأة الأسد، لا يلين ولا يهادن في مواجهة النظام اليهودي وعتق الرئاسة الكهنوتية. فاستطاع أن يحفظ «الكيان الرسولى» مستقلاً عن سطوة النظام اليهودي، فجعل له مكانة لا تقل عن مكانة السنهدريم وسلطانه، وعلى يديه بزغ نجم الكنيسة الأولى في فلسطين مبشراً بشروق شمس المسيحية على العالم كله.

«أتبعني أنت»: وكانت كلمة المسيح هذه لبطرس هي آخر كلمة قالها المسيح بحسب إنجيل يوحنا، والمعتقد أن بعدها اختفى عنهم! وهي لم تُكتب لبطرس فقط، بل كدعوة لكل قارىء وسامع.

٢١:٢٣ فَذَاعَ هَذَا الْقَوْلُ بَيْنَ الإِخْوَةِ: إِنَّ ذَلِكَ التِّلْمِيذَ لاَ يَمُوتُ. وَلَكِنْ لَمْ يَقُلْ لَهُ يَسُوعُ إِنَّهُ لاَ يَمُوتُ بَلْ: «إِنْ كُنْتُ أَشَاءُ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى أَجِيءَ فَمَاذَا لَكَ؟».

المعنى الذي دافع به القديس يوحنا عن الخطأ الذي ارتكبه الإخوة (التلاميذ) بقولهم أن القديس يوحنا لا يموت، ينتهي بنا إلى فهم حقيقة أراد القديس يوحنا أن نفهمها دون أن يكتبها، وهي أن بقاءه إلى أن يجيء المسيح شيء وأنه لا يموت شيء آخر؛ أو بمعنى أخر أن بقاءه إلى أن يجيء المسيح لا يستلزم حتماً أن لا يموت؛ أو بمعنى أوضح، أن بقاءه إلى أن يجيء المسيح يمكن أن يكون حتى ولو مات، وهذا ما اعتبرناه لغة القديس يوحنا السرية التي قصد بها قيام ودوام الكنيسة الروحية التأملية المتبتلة، التي تحيا روح روح القديس يوحنا وانجيله من بعده، تسبح المسيح وتمارس الحب والتصوف، أي الحياة بحسب أسرار الروح التي يمثلها إنجيل القديس يوحنا وتمثلها الحياة الرهبانية الحية المتعففة، والمتخصصة في الصلاة والتسبيح، والتي ستبقى إلى أن يجيء الرب!!

ويحاول بعض شراح إنجيل القديس يوحنا أن يتخذوا من دفاع هذا القديس عن ضرورة موته، أذ كان قد مات بالفعل. ولكن الرد على هذا أنه لو كان قد مات فما هي الحاجة للدفاع من ضرورة موته؟

وأيضا فالآية القادمة (٢١:٢٤) توضح بأجلى بيان أن القديس يوحنا الذي قال هذا، كاذ ما زال حياً وأنه هو الذي كتب هذا وشهد بهذا!! وأنه بقوله هذا، يكون قد نقل هذه القضية لحكم الزمن والتاريخ، إن كان هذا الأمر سيحدث من عدمه!

وكما كان القديس بطرس يترقب كل يوم الضيف الذي سيمنطقه ويحمله حيث لا يشاء: «عالماً أن خلع مسكني قريب، كما أعلن لى ربنا يسوع المسيح أيضاً» (٢بط١:١٤)، كذلك كان القديس يوحنا يشتهي كل يوم مجيء الرب ليحمله على السحاب. هكذا كتب بيده خاتمة سفر رؤياه، ردا على ما جاء على لسان الرب في الرؤيا: «أنا آتي سريعاً. آمين. تعال أيها الرب يسوع.» (رؤ٢٢:٢٠)

٢١:٢٤ هَذَا هُوَ التِّلْمِيذُ الَّذِي يَشْهَدُ بِهَذَا وَكَتَبَ هَذَا. وَنَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ حَقٌّ.

هذه الآية تبرز شخصية القديس يوحنا كتلميذ، ورسول، وشاهد لحياة المسيح وموته وقيامته، ثم كاتباً لهذا

الإنجيل، ملقياً بكل ثقله ومؤهلاته السابقة للتصديق على كل ما جاء في إنجيله.

وبصورة سرية ومبدعة، ينقل كل هذه المؤهلات من شخصه لإنجيله، فهو يقدم لنا إنجيلاً يحمل ختم التلمذة المدموغة بالحب والأمانة والصلة الفريدة بالمسيح؛ ويحمل ختم الرسولية المستودع فيها كل أسرار المسيح التي اطلع عليها بصفة خاصة جدا، لا نعلم إلا بعضا من أسبابها وخصوصيتها بسبب شخصيته المحافظة المقترة في الشرح والمحجمة عن الإسهاب!

ويحمل ختم الشهادة، ولا نقصد هنا شهادة العين بل شهادة الروح. وشهادة الروح هى الحق، لأنها تقوم على الاستعلان، أى على رؤية ما لا يُرى، بتدخل المشيئة الإلهية لازدياد المعرفة.

«نعلم أن شهادته حق»: القديس يوحنا يدرك الأصول التقليدية اليهودية في الشهادة، فهى لا تستقيم بواحد يشهد لنفسه حيث تكون شهادته ليست حقاً. هذا قاله المسيح نفسه عن نفسه سابقاً: «إن كنت أشهد لنفسي، فشهادتي ليست حقاً» (يو٥: ٣١)، ولو أنه عاد ونفى أن يخضع لمقولة يهودية وهو ابن الله: «وإن كنت أشهد لنفسي ، فشهادتي حق، لأني أعلم من أين أتيت والى أين أذهب... لأنى لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني.» (يو٨: ١٤و١٦)

فالقديس يوحنا يعطي شهادته بصورة الجمع: «نحن نعلم»، فمن هم «نحن»؟ لقد تهرب الشراح من تفسير هذه الآية. ولكننا بصورة مبدئية، إذا عدنا إلى كيفية وظروف كتابة إنجيل يوحنا، نرى أن التقليد يقول إن بعض الرسل (كما يذكر نص للعلممة اكلمندس الإسكندري، ووثيقة موراتوري) مع بعض الأساقفة فيما حول أفسس، كانوا العامل المحرك للقديس يوحنا بمحاولتهم المتكررة ورجواتهم له أن يكتب إنجيله. هنا يقول بعض الشراح إن هؤلاء في مجموعهم يحملون مسئولية التصديق الأخير، فقد أعطاهم القديس يوحنا أن يكتبوا، عن أنفسهم، هذا المقطع من الآية: «ونحن نعلم أن شهادته حق».

ولكن ليست هذه هي الحقيقة، لأننا إذا عدنا إلى أسلوب القديس يوحنا في الكتابة عن نفسه فيما يخص المسيح والحق، نجده دائماً يتكلم بصيغة «الجمع» معتبرا نفسه جزءاً لا يتجزأ من جسم الجماعة الرسرلية بكاملها، أي الكنيسة المعاصرة للمسيح والشاهدة له. لذلك نجده قد استهل رسالته الأولى بهذه الشهادة الجماعية هكذا:

+ «الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة.» (يو١: ١-١)

وعلى هذا المنوال ظل يكتب الرسالة كلها بصيغة الجمع من أول آية إلى آخر آية:

+ «ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً.» (ايو١: ٤)

+ «ولكن نعلم أنه إذا أُظهر، نكون مثله، لأننا سنراه كما هو.» (ايو٣: ٢)

+ «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأننا نحب الإخوة.» (ايو٣: ١٤)

+ «ونن قد نظرنا ونشهد، أن الآب قد أرسل الابن مخلصا للعالم.» (١يو٤: ١٤)

+ «نحن نحبه، لأنه هو أحبنا أولاً.» (١يو٤: ١٩)

+ «ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (ايو٥: ٢٠)

إذاً، فواضح من هذا كله، ومن خاتمة إنجيل يوحنا التي أتت بصيغة الجمع هذه، أن شخصية القديس يوحنا نفسه تقف تماماً وراء هذه الشهادة التي ختم بها إنجيله كما هي في رسالته أيضاً.

وهكذا يتبين للقارىء أن موضوع شك العلماء في أن القديس يوحنا هو الكاتب لهذه الخاتمة، هذا الفرض الذي استنبطوه من هذه الآية، أنه هو نفسه موضوع اليقين عندنا بكل يقين!!

٢١: ٢٥ وَأَشْيَاءُ أُخَرُ كَثِيرَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ إِنْ كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً فَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَالَمَ نَفْسَهُ يَسَعُ الْكُتُبَ الْمَكْتُوبَةَ. آمِينَ

العجيب في هذه الآية أنها تكشف أنه لا يزال فكر القديس يوحنا ووعيه الروحي بعد المائة سنة التي بلغها من عمره يحتفظ بهذه الصور المقدسة من أعمال الرب وكلماته، وما تشعه في قلبه من معان، والتي يهذ بها في ليله ونهاره. والقديس يوحنا لا يلجأ إلى التهويل ليصف ضخامة الحصيلة الروحية التي يعيها من حياة المسيح وأعماله، ولكن الأعماق التي تتوالى في ذهنه من خلف كل حادثة، والعمق منها ينادي عمقاً، هي التي صورت له كيف تضيق الدنيا بعجائب المسيح! وهل يمكن أن يتسع العالم لمعطيات الله وملكوته؟ (انتهى فى ١٩٨٩/٨/٢٢)

ما كنت يا عزيزي القارىء أود أبداً أن انتهي من شرح إنجيل القديس يوحنا ، فعلى مدى سنوات ثلاث كاملات عشت في نعيم هذا السفر، أستمتع كل يوم بل كل ساعة بأضوائه التي تبهر النظر الروحي. ولكن الذي يعزيني أن الرب قواني بالرغم من ضعفي ووهن إمكانياتي لكي أنقل للقارىء شيئاً من ذخائر نعمته في هذا الإنجيل، ليعيش فيها، ليس ثلاث سنوات بل الحياة كلها.

تم فى ٢٠١٧/٩/٢٣